مصطفى أمين

الآنسة ك

Bibliotheca Alexandrina
0145230

دار الشروق

الآنسة ك

الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

الطبعة الثانية
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت . ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا . داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

مصطفى أمين

الآنسة هاء

دار الشروق

الفصل الأول

هل وصلت السيدات المشرفات على الحفلة ؟

ـ نعم يا صاحبة السمو.. وقد وقفت كل واحدة منهن فى المكان المخصص لها.

ـ وهل تم إعداد الصالون الكبير الذى سيجلس عليه الملك والملكة فريدة والملكة نازلى ؟

ـ نعم يا صاحبة السمو..

ـ وهل رتبت بنفسك زهور الزنبق الأبيض فى أوانى الزهور الذهبية ؟

ـ نعم يا صاحبة السمو..

وتطلعت الأميرة شويكار بعينيها السوداوين الكبيرتين إلى مرآة مائدة الزينة، التى تجلس فى مواجهتها ومدت يدها، وعدلت وضع التاج الماسى المرصع الذى كان يزين رأسها الكبير، ولمعت عيناها وهى ترى بريق الماس الأبيض فوق شعرها المصبوغ، ثم هبطت عيناها إلى وجهها، فاصطدمت بالتجاعيد الكثيرة التى فشلت مختلف المساحيق فى إخفائها. وكأن الزمن يريد أن يعلن أنه أقوى من الطلاء. ثم تنهدت الأميرة تنهيدة طويلة وقالت :

ـ قدر غريب ! عندما كنت شابة وجميلة كنت فقيرة ومفلسة، وعندما

أصبحت أغنى امرأة فى مصر أصبحت عجوزا شمطاء! أنفقت شبابى بحثا عن مالى المسروق، ولما وجدت المال ضاع الشباب! وضاع الجمال!

قالت الوصيفة تجاملها:

ـ إنك مازلت جميلة يا صاحبة السمو! الجمال هو جمال الروح!

وعادت الأميرة تتطلع إلى المرآة من جديد. وفى هذه المرة لم تتطلع بعينيها .. تطلعت بخيالها وذكرياتها. رأت فى المرآة صورة شبابها، المليئة بالجمال، المزدحمة بالحب، المشحونة بالفتنة والحيوية والاغراء.

وابتسمت الأميرة للمرآة. وكأنها تحيى الأميرة الشابة الفاتنة التى تراها فى مرآة ذكرياتها، وبرقت عيناها كأن ذكريات الماضى سكبت ماء الحياة فى العينين العجوزين فعاد إليهما لمعان الشباب.. ثم قالت:

ـ الأيام تمر بسرعة غريبة! منذ أقل من خمسين سنة كنت ملكة الحب فى مصر. كنت أجمل امرأة فى هذه البلاد. كنت معشوقة الأمراء الشبان فى الأسر الملكية فى العالم. كنت البريمادونا على مسرح الهوى. كان لى فى كل عاصمة فى الدنيا قصة غرام. كان الرجال والشباب يتقاتلون من أجلى. كنت إذا دخلت الأوبرا فى فيينا لوى الجالسون رؤوسهم وتركوا الرواية على المسرح، واتجهوا إلى المقصورة التى أجلس فيها، يملأون عيونهم بجمالى. النساء يمسكن نظاراتهن المكبرة ليعرفن الثوب الذى أرتديه. ولون الشال الذى أضعه على كتفى. كان الرجال يأكلوننى بعيونهم شبقا. والنساء يأكلننى بعيونهن غيرة وحسدا. كنت حبيبة كل الأزواج، وعدوة كل الزوجات! كانت كل زوجة فى مصر تخاف على زوجها منى. كل امرأة تخشى أن أخطف زوجها، أو أسلب حبيبها، أو أسرق ابنها!

ثم أطلقت الأميرة تنهيدة حارة طويلة وعادت تقول:

ـ أما اليوم فقد تركت مكان الفاتنة الأولى على مسرح الحب، وجلست فى مقاعد المتفرجين. اتفرج على العشاق الجدد! وأنا سعيدة فى مكانى هذا. نظرات العشاق الساخنة إلى عشيقاتهم تدفئ قلبى البارد. همساتهم الراعشة فى آذان حبيباتهم تملأ أذنى بموسيقى لذيذة. عندما أشهد العشاق وهم يتخاصرون ويرقصون أحس كأن أيديهم جميعا تلتف حول خصرى وتضغط عليه.

قالت الوصيفة، وهى تعدل ثوب الأميرة فوق جسمها الصغير:

ـ عجبا يا صاحبة السمو! كنت أتصور أن الممثلة الأولى القديمة تكره رؤية النجوم الجديدة!

قالت الأميرة:

ـ إن العاشقة القديمة ترى نفسها فى كل حب جديد! يسعدها أن ترى الحب حولها فى كل مكان إذا لم استطع أن أغنى فإننى أطرب للصوت الجميل! إذا أصبحت قدماى لا تساعدانى على الرقص فإننى أجد لذة فى مراقبة الراقصين والراقصات. إذا كانت سنى حرمتنى من الحب فإننى أستنشق رائحته فى أنفاس المحبين! هذه الحفلات والسهرات التى أقيمها لا أقصد بها جمع الأموال للخير كما أقول للناس، ولا أقصد بها إسعاد الملك كما يتصور الملك فاروق، ولا أقصد بها إفساد الملك كما يقول رئيس الديوان حسنين باشا، ولا أقصد بها الانتقام من الملك وتلويث سمعته لأنه يجلس على العرش مكان ابنى إسماعيل الذى رزقت به من الملك فؤاد، ولو عاش لكان الابن البكر وصاحب الحق فى العرش، كما تتصور الملكة نازلى! إننى أقصد بهذه الحفلات الباذخة أن استعيد شبابى، إنها أشبه بحقن لاعادة الشباب.

وبدل أن أدفع من مالى ثمن هذه الحفل، يدفعها الذين يشترون تـذكرة حضور حفلة مبرة محمد على فى قصرى!

إننى أرى فى هذه الحفلات صور شبابى الذى ذهب. صورة أحلامى التى عجز فقرى فى تلك الأيام أن يحققها. أشهد فيها قصص حبى القديم يمثلها ممثلون جدد وممثلات جدد! إننى أستمتع برؤية ميلاد حب جديد. حتى ولو لم أكن طرفا فيه. إذا لم استطع أن أكون فى سنى هذه ملكة الحب، فـإننى استطيع أن أكون كيوبيد إلهة الحب التى تجمع العشـاق، وتسـهل لقـاء المحبين!.. والحب يدخل السهرات التى أقيمها بغير أن يدفع ثمن التذكرة! إنه الوحيد الذى لا يدفع ثمن التذكرة!

قالت الوصيفة الشابة:

ـ ولكن الرجال فى أيامنا، لا يعرفون الحب كما كانوا يحبون فى الماضى! كان الرجل يدفع حياته ليرى المرأة التى يحبها من بعيد! أما الآن فيـدفع العاشق تذكرة بخمسة جنيهات ليرى المرأة التى يحبها، ويتحـدث إليهـا، ويرقص معها! كان الحب فى أيامكن صعبا، ولهذا كان لذيذا. والآن أصـبح الحب سهلا، والرجل بطبيعته يحتقر كل شىء سهل!

ووقفت الأميرة، واتجهت تجر ذيل فستانها الطويل إلى المرآة الكبيرة فى دولابها، ووقفت أمامها تستعرض فستانها الأبيض. الأنيق الموشى بالفضة وتقول:

ـ أنتم الآن فى عصر السرعة! كنا نقطع المسافة بيـن مصر وبـاريس فى أسبوعين. الآن نقطعها فى بضع ساعات! فى الماضى كان الرجل يستطيع أن يحب امرأة واحدة عشرين سنة أو ثلاثين سنة بغير انقـطاع، حتـى ولـو هجرته! أما اليوم، فى عصر السرعة، فالرجل يحب المرأة لبضـع سـاعات.

وأحيانا لبضع دقائق، تأثرت قلوب الرجال بعصر السرعة، فهم يعشقون بسرعة وينسون بسرعة. يصلون بسرعة، ويتركون المرأة بنفس السرعة!

قالت الوصيفة وهى تبتسم:

ـ إننا فى عصر الساندوتش يا صاحبة السمو! الرجال يريدون أن يقضموا النساء وهم واقفون على أقدامهم لا وقت عندهم للحب.. لذة الحب كلذة الطعام المطبوخ المسبك. فرق بين أن آكل من صنف تعبت فى إعداده. وصنعته بيدى فوق النار. أضفت إليه أنواعا وأشكالا من البهارات. لسع أصبعى وأنا أغرفه فى الطبق، وبين الطعام الجاهز، الذى نأكله على البارد! بعد لحظات ننسى أننا أكلنا. مع أن الطبق الذى نطهوه بأيدينا يبقى طعمه فى شفاهنا زمنا طويلا. هناك أكلة دسمة لذيذة نبقى طول حياتنا نذكر طعمها ولا ننساها! رجال اليوم لا يثقون فى الحب، ولذلك لا يشعرون بلذته. مرارة الهوى هى التى تضع حلاوته فى شفاهنا!

قالت الأميرة وهى لاتزال تعيش فى الماضى:

ـ فى أيامى كان الرجال يقاتلون ويموتون من أجل المرأة التى يحبونها كانت المرأة جارية والرجل يسجد أمامها! كان الرجل سجانها وعبدها فى وقت واحد. كان يخجل من ذكر اسمها أمام الناس، فإذا اختلى بها أجلسها فوق العرش وجلس تحت قدميها!.. أما اليوم فالمرأة حرة! حرة فى أن تجلس على البلاط! حرة فى أن تتشعبط فى الترام! حرة فى أن تقف فى الأوتوبيس ولا يترك الرجل مقعده لها! حرة فى أن تجرى وراء الرجل. حرة فى أن تركع تحت قدميه. حرة فى أن تتوظف وتجىء بمرتبها كله وتدفعه مصاريف البيت والطعام بدلا من زوجها!

قالت الوصيفة: إن المرأة تنازلت عن عرشها لتكسب الحرية! تصورت أن

سعادة الرجل فى عمله فزاحمته فيه، ولم تجد إلا الشقاء! توهمت أن الهناء فى المساواة فحصلت على المساواة ولم تجد فيها إلا العبودية. كانت عبدة لرجل تحبه فأصبحت عبدة لكل مرءوسيها فى المصلحة! خدعها صوت الآلات وظنت أنه موسيقى لذيذة فأسرعت إليها، فلم تجد إلا الصداع! إننى أعتقد أن المطالبة بالمساواة بين الرجل والمرأة كانت مؤامرة دبرها الرجل لينتزع من المرأة سلطانها. ووقعت المرأة بطيبة قلبها وغفلتها فى هذه المكيدة. المرأة الآن فقدت قيمتها!

قالت الأميرة:

ـ المرأة الآن أصبحت مجانا.. كالماء والهواء! فقدت قداستها وأهميتها فى نظر الرجل. كان الرجل عندما يطرد من قلب امرأة يشعر بتعاسة الذى خرج من الجنة. أما الآن فهو يستبدل المرأة كما يستبدل منديله! ما يكاد يبصق فى المنديل، حتى يستبدله بمنديل نظيف! فى شبابى أطلق أخى الرصاص على زوجى الأول الملك فؤاد لأنه كان يغار على، وطلقنى الأمير فؤاد ومع ذلك عاش بعد ذلك ثلاثين عاما يطاردنى! أعلن الحرب على، غضب على كل رجل عرفته. رفض بعد عشرين عاما من طلاقى أن يعين أحد السياسيين وزيرا لأنه شك فى أن هذا السياسى كان فى يوم من الأيام على علاقة غرامية بى! وكنت أضيق بهذه الحرب التى شنها الملك على. ولكنى كنت أعرف أنه كان يفعل ذلك لأنه يحبنى! كان يكرهنى لأنه يحبنى! كان يريد أن يجعلنى أموت جوعا لأنه لا يزال يعشقنى! وسيف الله يسرى باشا زوجى الثانى كاد يقتل ضابطا بريطانيا فى مبارزة لأن الضابط كان يغازلنى. وزوجى الثالث رءوف بك قائد البارجة حميدة رآنى ذات يوم أخرج من بيت شاب تركى فى استانبول. ولم يقل لى كلمة واحدة ولم يسألنى لماذا كنت فى بيت هذا الشاب. بل إنه أرسل عددا من بحارة البارجة حميدة إلى بيت

الشاب، وخطفوه، وذبحوه، والقوا بجثته فى البسفور.. وبعد ذلك قال لى رءوف بك: إذا أردت أن ترى هذا الشاب مرة أخرى.. فهو موجود فى قاع البسفور! وكرهت زوجى، ولكننى شعرت أنه ارتكب هذه الجريمة لأنه يحبنى. وأنه مستعد لأن يذهب إلى المشنقة من أجلى.. وهذا هو الحب..

أما اليوم فإذا قلت لزوجى الحالى الهامى باشا حسين إن فلانا يغازلنى ضحك ودعاه لتناول الشاى

* * *

الليلة فى قصر الأميرة هى ألف ليلة وليلة!

ثريات بلورية ضخمة تتدلى من سقف الصالونات الكبيرة، تتدلى منها لمبات مضيئة فى شكل شموع، أنوار ساطعة باهرة فى أرجاء القصر كأنها محاولة لجعل الشمس تشرق قبيل منتصف الليل.

الخدم النوبيون فى ثيابهم ذات الألوان البهيجة. بين الخضراء والبنفسيجية والحمراء والزرقاء، الموشاة بالذهب، وعلى رءوسهم الطرابيش الحمراء اللامعة، يحملون فوق أيديهم صوانى من فضة ومن ذهب. نساء. نساء. نساء. شقراوات وسمراوات. يمشين كأنهن يرقصن. ويرقصن كأنهن يمشين! صدور عارية. فساتين السهرة تكشف عن الأذرع البضة، وعن الأعناق الفاتنة، وفتحات الظهر أو الجانبين فى الفساتين كأنها ثقوب صنعت خصيصا لتسقط فيها عيون الرجال فتصل إلى السيقان.. وربما إلى أصابع الأقدام! أكبر الخياطات فى القاهرة والاسكندرية أعلن منذ شهر (حالة طوارئ) استعدادا لليلة الكبيرة، حيث ارتدت كل امرأة أجمل أثوابها. بعضهن أرسلن إلى باريس ولندن ونيويورك، واستحضرن آخر مبتكرات ملوك الموضة فى تلك البلاد. حلاقو شعر السيدات أعلنوا التعبئة العامة لأن أجمل

نساء القاهرة قررن تزيين شعورهن فى ليلة واحدة؛ السمراء تريد أن تصبح شقراء، والشقراء تريد أن يكون شعرها بلون البلاتين. والعجوز تريد أن تخفى شعرها الأبيض فى سواد الشباب! صدور النساء تحولت إلى فروع لمحلات بيع المجوهرات. كأن هؤلاء النساء عصابة سطت فجأة على جميع محلات بيع المجوهرات فى المملكة، فلم تترك فيها لا قرطا ولا سوارا ولا خاتما ولا عقدا من اللؤلؤ أو الماس! كأن أرض القصر وحدائقه رشت بالعطر. فى كل خطوة تستنشق عطرا مختلفا بل إنك فى المرأة الواحدة تشم أكثر من عطر واحد! كأنها ضمخت رأسها بعطر ووجهها بعطر ثان، وصدرها بعطر ثالث، أو كأنها دخلت محلا للعطور فسكبت كل ما فيه على جسدها فخرجت تفوح منها رائحة الورد والبنفسج والفل والياسمين فى وقت واحد!

الرجال فى ملابس السهرة السوداء يمشون فى موكب الجمال، بعيون مبهورة، كأنها تتساءل من أين جاء كل هذا الجمال! كل امرأة هنا تصلح أن تكون ملكة، إذا لم تكن ملكة الجمال فهى ملكة الأناقة، وإذا لم تكن ملكة الأناقة فهى ملكة جمال العيون أو ملكة جمال السيقان أو ملكة جمال الشعر أو ملكة جمال الشفاه! كأن الحاضرات لم يجئن لحضور حفلة خيرية، وإنما حضرن للاشتراك فى مسابقة للجمال، فحاولت كل امرأة أن تبرز أكثر ما فيها من فتنة وسحر وإثارة!

ـ وفرقة موسيقى فندق شبرد جاءت بكامل هيئتها. أقيمت لها منصة عالية فى ركن من حديقة قصر الأميرة، وأمامها حلبة للرقص، ازدحمت بالرجال يخاصرون النساء يتمايلون ويدورون، على أنغام موسيقى التانجو والفالس، وكأنهم يسبحون فى الأضواء هذه سعاد راشد أجمل شقراء فى مصر فى ثوب أبيض كأنها شعاع من نور. هذه زوزو عاصم أجمل سمراء فى مصر فى ثوب أحمر، وكأنها لهب أحمر يرقص على الأنغام. هذه هى الأميرة

نسل شاه، بجمالها الفتان، وقامتها الطويلة، كأنها زهرة يانعة مـن زهـور الزنبق. هذه الزهرة الأرستقراطية التى لا تتفتح إلا فى حـدائق الملـوك! ويجوارها شقيقتها الأميرة هان زادة، بعينيها اللتين لا مثيل لهما فى الزرقة والصفاء. كأنهما مياه البحر الأبيض عند رأس الحكمة. بأهدابهما الحريرية التى ما تكاد العين تراها حتى تهبط فوقها، وتستريح عليها، وكأن أهدابهما وسادة من ريش النعام. وهذه هى الأميرة فايزة، فى جمالها الساحق، وفتنتها الصاخبة، وعلى شفتيها ابتسامة حلوة خفيفة، لا تعرف هل هـى تسـخر بجمال النساء الأخريات، أم هى تهزأ بالرجال الذين صعقهم جمالها، أو هى تضحك لنكتة سخيفة أطلقها زوجها محمد على رءوف الذى كانوا يسـمونه وقتئذ محمد على خروف وهذه هى الأميرة فـوزية بعينيهـا السـاحرتين الحالمتين وشفتيها الصامتتين، وجسدها الذى يشبه تمثالا لفينـوس مـن الفضة الصافية!.. وهذه هى الملكة فريدة تحاول أن تخفى شـقاءها خلف ابتسامة. عيناها تضحكان من بعيد. فإذا اقتربت منهما شعرت كأنك تـرى فيهما بقية من دموع تتطلع إلى وجوه النساء الفاتنات لتعرف مـن منهـن عشيقة الملك الجديدة، ومن كانت منهن عشيقته القديمة، ومن منهن ستكون عشيقته المستقبلة..! وهى تمشى فى رشاقة، وتتحدث فى بساطة، وتتحرك فى أناقة. وهى أشبه بوردة جميلة فى إناء من الذهب ليس فيه نقطة ماء!

ـ كل امرأة فى الحفلة هى ربة حسـن، أو فـاتنة عصر، أو ذات دلال! نصف الموجودين يرقصون ونصفهم يشهدون الرقص. نصف المـوجودات ملكات للجمال، ونصفهن كن فى يوم من الأيام ملكات للجمال. نصف النساء عاشقات ونصفهن الآخر جاء يبحث عن الحب والتى فاتها قطار الحب جاءت تتفرج على القطار.. وهو يقف أمام المحطات الـكبرى.. ويتمهـل أمـام المحطات الصغيرة! والرجال جاءوا ليحرسوا الجمال، أو ليسرقوا الجمـال.

نصفهم حراس جاءوا يحرسون نساءهم، ونصفهم لصوص جاءوا يسرقـون النساء المحروسات! ففى مثل هذه الحفلات يلعب الرجال عادة لعبة «عسكر وحرامية» بعضهم عساكر وبعضهم لصوص.. وبعضهم عساكر ولصوص فى نفس الوقت!

وكان المهندس عادل علاء الدين حارسا ولصا فى وقت واحد وعندما وقف أمام حلبة الرقص يرقب الراقصين والراقصات قال لنفسه إن مهمته فى هذه الحفلة أخطر من مهمة أى رجل سواه! فهو قد جاء للحراسة والسرقة.

ولكن الفرق بينه وبين أى رجل آخر.. أن أى رجل غيره جاء إلى حفلـة الأميرة شويكار ليحرس زوجته أو يحرس ابنته أو يحرس أخته.. وأى رجـل آخر جاء ليسرق امرأة واحدة! أما هو فرجل لم يتزوج، وليس له ابنة وليس له أخت! بل أن مصيبته أنه يحب عدة نساء فى وقت واحد.. وكلهن حضرن هذه الحفلة. وكلهن تواعدن معه على اللقاء فى هذه الحفلة. وهـو يـريد أن يحتفظ بهن جميعا. ليس مستعدا لأن يقبل ان يسرق لص آخر واحدة مـن جواريه. والمفروض فى اللصوص أنهـم لا يسرقـون بعضـهم بعضـا، إلا لصوص الحب، فأنهم لا يجدون لذة أكبر من ان يسرقوا من اللصـوص أمثالهم! ومهمة الحراسة ليست هى مهمة عادل الأولى. فالمهمة الأولى أن يسرق نساء جديدات! هذه الحفلة وأمثالها هى المكان الذى تجتمـع فيـه الاسماك من مختلف الأشكال والأحجام، وهى خير موقع لالقاء الشباك! لقد تعود أن يخرج من كل حفلة بصيد جديد.. وهذه الليلة لن يـكتفى بسـمكة واحدة، إنها فرصة ذهبية لاصطياد أكبر عدد من الأسماك!

الصياد الذى يقف على الشاطئ ويلقى شبكته هو صـياد مبتـدئ، أو صياد قانع، أما الصياد الخبير فهو الذى يتجه بقاربه إلى داخـل البحـر، وسط العواصف والأمواج، ويبتعد عن الشاطئ، ثم يلقى شبكته هنا تمتلئ

شباكه بأشكال وأنواع وأصناف من الأسماك. فالسمك الذى يقترب من الشاطئ نوع واحد عادة، وهو أقرب إلى السردين، منه إلى السمك الكبير اللذيذ ! ولهذا يحرص عادل علاء الدين على أن يغوص فى هذه السهرات قبل أن يلقى الشباك.

وصفات ذئب النساء تشبه صفات الصياد. فهو صبور. والصياد الصبور تمتلئ شبكته بالأسماك، بينما الصياد نافد الصبر لا حظ له فى بحر لا يعرف إلا الصابرين

وفى هذه الليلة اتجه عادل علاء الدين بكل اهتمامه إلى الأميرة فضيلة ابنة عم الملك ! لم يعرف لماذا اختارها وحدها دون مئات النساء الموجودات فى الحفلة. أحس أن شيئا فيها يجذبه إليها. مغناطيس فى مكان ما فى هذه المرأة الجميلة. لا يستطيع بالضبط أن يحدد مكان المغناطيس. هل هو فى عينيها الواسعتين الضاحكتين حينا، الحالمتين أحيانا، الساخرتين دائما ! هل هو فى شفتيها المرحتين اللتين تطل منهما بطاقة دعوة لألف قبلة ! هل هو فى شعرها الأسود اللامع المصقول الذى ينادى أصابع عادل علاء الدين أن تتقدم لتعبث به ! هل هو فى خصرها الناحل المثير كأنه خلق خصيصا لكى تلتف حوله ذراع عادل. أم أن فى هذه المرأة الساحرة أكثر من مغناطيس واحد. فى كل جزء من جسدها مغناطيس يجذب العين لكى تحدق، والشفاه لكى تقبل، والأيدى لكى تعانق، والأجساد لكى تلتصق !

وكان عادل قد اتفق مع جواريه أن يتحدث إليهن الليلة بالاشارة ! إن صديقته زينب معها زوجها الغيور، وصديقته فاطمة معها شقيقها الذى يتبعها كظلها، وصديقته أميرة معها والدها الذى يشبه الكلب البولدج الذى يعض كل من يقترب منها، وصديقته عصمت معها أمها التى تشبه فرقة من

رجال البوليس السرى، وصديقته إلهام صحبت زوجها وأمها وأباها وأخاها وهم يحيطون بها وكأنهم يحرسون خزانة البنك الأهلى !

ولقد اتفق عادل مع صديقاته جميعا على لغة واحدة فإذا أخرج القداحة من جيبه، وأشعلها دون أن يشعل السيجارة فمعنى ذلك أنه يقول إنك جميلة الليلة يا حبيبتى ! وإذا وضع أصابعه فوق شعره الأسود فمعنى ذلك أنه يقول : ما أجمل تسريحة شعرك. وإذا لمس رباط عنقه بيده فإنه يقول إن ثوبك هو أجمل ثوب للسهرة فى هذه الحفلة ! وكان عادل ينوى أن يخرج القداحة ويضع أصابعه على شعره، ويلمس رباط عنقه سواء أعجب بجمال صديقاته أو لم يعجب بهن، وسواء رضى عن زينة شعورهن أو لم يرض، وسواء فتن بطريقة تصفيف شعورهن أو ضاق بالحركات الجنونية التى رسمها الحلاق سقراط على رءوس الحبيبات. فهو يعرف بخبرته أن المرأة يسعدها المديح، وتذيبها كلمات الاعجاب. وأن قصيدة غزل يكتبها شوقى أمير الشعراء فى وصف امرأة لا تثيرها كما تثيرها كلمة (إن ثوبك مدهش) !

واستعرض عادل بعينيه صديقاته. ولم يرهن جميعا. كأن جمال الأميرة فضيلة كسف جمالهن. فعندما تظهر الشمس تختفى النجوم ..

* * *

وأخرج عادل قداحته،وأمسكها فى يده، وأشعلها، دون أن يشعل سيجارة. وفوجئ. بالأميرة فضيلة تبتسم وتفتح حقيبتها، وتخرج منها قداحة صغيرة مرصعة بالماس، وعلبة سجائر ذهبية، وتضع سيجارة فى فمها، ثم تشعل القداحة.. ولا تشعل السيجارة !

وجن عادل علاء الدين، إن الأميرة الجميلة تتكلم بلغته ! كأنها ترد

تحيته ! كأنها تقول إن الشعلة التى خرجت من القداحة مست قلبها الشاب. وأشعلته أيضا !

وعاد عادل يخرج الولاعة ويشعلها !

وعادت الأميرة تشعل ولاعتها فى الهواء !

وهنا أسرع زوجها محسن باشا معروف وأشعل قداحته، وأشعل سيجارة الأميرة، ونفخت الاميرة دخان سيجارتها ناحية عادل وابتسمت..

وعجب عادل أن شبكته اصطادت صاحبة السمو الملكى بغير مجهود ! وأن إشارة القداحة التى اراد أن يوجهها إلى صديقاته زينب وفاطمة وأميرة وعصمت وإلهام، ضلت الطريق واستقرت على المائدة التى تجلس فيها الأميرة مع زوجها وبعض الأمراء والأميرات !

ولم يصدق عادل عينيه ! لابد أنه يحلم ! غير معقول أن تقع أجمل أميرة فى مصر فى شباكه بهذه السرعة المذهلة !

ومرر عادل أصابعه فوق شعره الأسود وقد شرد فى عالم الأحلام.

وفوجئ بالأميرة الفاتنة، ترفع يدها وتتحسس بأصابعها خصلة من شعرها الجميل، واتسعت الابتسامة فوق شفتيها. وخيل لعادل أن وجه الأميرة يحمر، كأن لهيب القداحة امتد إلى صدرها وإلى كتفيها ثم إلى عنقها : وتضاعف جمالها فى عينيه. بدت أشبه بالوردة الحمراء الناضرة المتفتحة التى تغرى يده أن تتقدم ليقطفها، ويشمها، ويضمها إلى صدره !

لقد رأى الاميرة فى حفلات مختلفة عشرات المرات. ولم يرها بكل هذه الحلاوة. كان يراها تشبه الوردة، وزوجها ولقبها الملكى أشبه بالشوك الذى يحيط بالوردة، وكان الشوك يخيفه أكثر مما كان سحرها يشجعه. ولم يلاحظ فى كل هذه المناسبات أنه استلفت نظر الاميرة، أو أنها أحست بوجوده. ولم يجرؤ مرة أن يلفت نظرها. أو يغازلها. أو حتى يبتسم فى وجهها. ولكنه الليلة

أحس بشعور غريب، بشجاعة جديدة. بأنه يرغب فى أن يضم اسم الاميـرة الجميلة إلى قائمة محظياته وجواريه!

وراح يحلم، وعيناه مستقرتان على عينى الاميرة الفاتنة! ثم رآها! تقف وتتجه إلى حلبة الرقص، وزوجها يسير خلفها. وبـدأت الاميـرة تـرقص. وتسمرت عيناه عليها. لم يعد يرى زوجها الذى يخاصرها. بل لم يعد يـرى مئات الراقصين والراقصات حولها. اختفى كل من فى الحلبة، ولم تبق أمام عادل إلا الأميرة وحدها شحبوا جميعا. أصبحوا أشبه بـالظلام. أو أنهـم أرضية الصورة لامرأة رائعة الجمال.

حارت عيناه فى جسد الأميرة: كل شىء فيها ساحر فاتن. كل شىء فيهـا يغرى ويغوى ويصيد القلوب، كأنها عدة نساء فى امرأة واحدة. كل واحـدة منهن ملكة على مملكة بذاتها. كأنها سرقت الجمال كله واستأثرت به لنفسها وتركت نساء الحفلة: الفاتنات عاريات من الفتنة والجمال! لقد مرت أمامه فى تلك اللحظة صديقته زينب وهى ترقص مع زوجها. وتعمدت أن تقترب مـن المكان الذى يقف فيه، ولكنه لم يرها. لم ير الغمزة التى غمـزتها بعينهـا اليسرى وراء ظهر زوجها! ومرت بجواره صديقته فاطمة وهى تـرقص مـع شقيقها محمد. وابتسمت له فلم يرد ابتسامتها ومرت أميرة وهى تخاصر ابن عمها الضابط فى سلاح الفرسان وعصمت ومعها خطيبها، وإلهام ومعها ابن خالتها. لم يشعر بأى واحدة منهن! نسى أن يخرج الولاعة، أو يمرر أصابعه على شعره، أو يعدل رباط رقبته كما وعدهن جميعا: كان لا يـزال مبهـورا بالأميرة وحدها، ولا يرى سواها. لا يهتم بامرأة غيرها. ماذا جرى له! إنه ذئب قديم. له تجارب واسعة فى عالم النساء. قادر على أن يشعل النار فى عدة مواقد فى آن واحد! لذته أن يحب بالجملة. يهجر بالقطاعى. سـعادته فى أن يجعل من قلبه عمارة من ناطحات السحاب، فيها مئات الشقق، وفى كل شقة

امرأة. ومعه وحده مفتاح هذه الشقق جميعا. ما له الليلة لا يمارس هوايته ى أن يلعب بعدة نساء ف وقت واحد. ف أن يعتبر كل امرأة أشـبه بـطابع البريد. وقلبه هو مجموعة الطوابع. من كل بلد طابع. ومن كل حجم وكل لون وكل رسم. وهو أشبه بهواة جمع طوابع البريد يفضل دائما الطابع المختوم! الطابع المستعمل! ولا يكاد يلصق الطابع القديم ف المجموعة، حتى يبدأ ف البحث عن طابع جديد لقد حاول طوال حياته أن يقنع بامرأة واحدة ففشل أصيب بمرض اقتناء النساء. لم تعد تكفيه امرأة واحدة حتى ولو كانت ملكة الجمال. شهيته ف أن يغير ويبدل، وأن يضع من كل بلد طابعا ومن كل صنف على مائدة قلبه عدة أطباق، ويأكل من كل طبق لقمة ! بعض النساء ف حياته كان لذيذا كالكافيار، وكان شهيا كاللانجوست، وكان حلوا كالشهد! ولـكنه كان يمد يده إلى طبق الفول المدمس وطبق الطعمية! لا ينسى عندما أحـب يوما نجمة السينما المشهورة إجلال فوزى التى يسمونها ملـكة الاغـراء وتصور أنه سيخلص لها طوال حياته .لقد منحته من الحب والهناء والمتعـة أكثر مما يحلم به. وذات مساء تركته ف شقتها، لتذهب إلى سـتوديو مصر لتصور اللقطة الأخيرة ف فيلمها الاخير (ملكة الاغراء). وقـالت لـه إنهـا ستعود بعد ساعتين، وتمضى معه ليلة راقصة سوف يعيش طـوال حيـاته يذكرها ويحلم بها. وجلس عادل ينتظرها، وقد امتلأ خياله بصـورة الليلـة الموعودة.. وجاءت عائشة خادمة الممثلة.. هذه المرأة الابنوسية التى تبلغ الأربعين من عمرها. ووجد عادل نفسه يغازل الخادمة التـى تـكبر ملـكة الأغراء بخمس عشرة سنة ! التى يشبه لونها الفحم الحجرى.. بينمـا لـون إجلال يشبه القشدة الطازجة. التى ليس فيهـا مـن الجمـال ولا الفتنـة ولا السحر جزء من ألف من إجلال. ومع ذلك أحس برغبة شديدة ف أن يأكل الفول المدمس !..

وبعد بضع دقائق كان يؤلف أشعار الغزل فى الخادمة السمراء.. وعندما عادت إجلال من ستوديو مصر وجدته يغط فى نومه، ورفض أن يفتح عينيه، وأبى أن يحضر الليلة الموعودة، فقد كان يشعر فى شفتيه بطعم الفول المدمس اللذيذ الذى أغناه عن الكافيار واللانجوست وعسل النحل اللذيذ!

وكم حاول عادل أن يتخلص من مرض الجشع للنساء. فإذا كان أشعب يضرب به المثل فى النهم إلى الطعام فهو نهم إلى النساء. لا يشبع منهن أبدا. جائع لكل لون. مشتاق لكل شفاه. ضعيف أمام أى جمال! مهما أكل فهو جائع. مهما شبع فهو يبحث عن طعام جديد! كل طعام جديد يفتح شهيته. ما أشبهه بالمرض الذى يصاب به بعض الناس، عندما لا يشبعون أبدا مهما أكلوا، وقيل إن تفسير هذه الظاهرة أن فى أمعائهم ديدانا تأكل كل ما يدخل فيها من طعام! كأن هذه الديدان فى جسده، وفى قلبه. وكأنها هى التى حولته إلى رجل (زمرام) لا يعف عن امرأة ولا يشبع من امرأة مهما امتلأ قلبه وجسده بالنساء!

وتذكر عادل أنه أصيب بهذا المرض العجيب وهو فى الرابعة عشرة من عمره. عندما أحب زكية ابنة الجيران كان حبه الأول، الذى ملأ عليه فكره وخياله. ذاق أول قبلة فى حياته من شفتى زكية. أحس جسده بأول حرارة فى حبها. خفق قلبه لأول مرة بحبها ثم استيقظ ذات ليلة وأطل من نافذته على حديقة الجيران فإذا به يرى معبودته زكية بين ذراعى صديقه عبد المجيد.

فى هذه اللحظة هوت كل نساء الدنيا من فوق عروشهن وسقطن مع زكية فى الحضيض! تحطمت كل الآلهة التى كان يعبدها وتحولت إلى تراب يدوسه بالأقدام. أصبح لا يطمئن إلى أى امرأة، ولا يثق بأى أنثى. تحولت نساء العالم إلى خائنات وغادرات. اكتشف أن الاخلاص لامرأة واحدة هو نوع من العبودية. هو ذل ما بعده ذل. هو هوان ليس مثله هوان. اكتشف

إن الأمان الوحيد فى التعدد : كلما زاد عدد النساء فى قلبه تضاءل الألم الذى تحدثه خيانه كل امرأة على حدة. لم يعد يؤجر قلبه من بابه لامرأة واحـــدة، فإذا خرجت فجأة بقى البيت فارغا مهجورا يحمل لافتة للايجار. أصبح قلبه فى أول الأمر شبيها بالغرفة المفروشة. تمضى فيه الساكنة ليلة واحدة، ثــم تتركه لتجىء ساكنة جديدة. ثم تحول القلــب إلــى بنســيون، وزاد عــدد الساكنات، ثم كبر البنسيون وأصبح فندقا ! فيه غرف متعددة، وفيه أجنحة مخصصة للمحظوظات. وفى مواسم يمتلئ الفندق بــالساكنات، وفى مــواسم أخرى يقل عدد الغرف المسكونة كما يحدث للفنادق الــكبرى فى المــواسم التى تخلو من السياح ! ولكن عادل لم يقل فى يوم من الايام إن الفندق كامل العدد.. كان دائما مستعدا لأن يطرد الساكنات القديمات ليخلى الغــرف فى قلبه للساكنات الجديدات !

وكان يصاب فى بعض الأحيان بنوبات من الملل. فيقرر إخلاء الســاكنات جميعهن من فندق قلبه. والاكتفاء بأربع نساء، نزولا على أحــكام الشريعــة بالسماح بأربع زوجات، ثم لا يلبث أن يجد نفسه يزيد العدد تدريجا حتــى تزدحم غرف فندق قلبه من جديد، وكان عادل يزهو بذاكرته القــوية، فلــم يخطئ مرة واحدة فى معرفة اسم الصديقة التى تحدثه فى التليفون ولم يناد زينب باسم فاطمة، ولا فاطمة باسم زينب، وكان يحتفظ فى أجندة صــغيرة بتواريخ أعياد ميلادهن وبتواريخ ذكرى اللقاء لكل واحدة منهــن، وبــاسم العطر الذى تحبه كل واحدة واسم اللون الذى تفضله، واسم الرقصة التــى تفضلها، والساعات الآمنة التى يستطيع أن يتصل فيها بكل واحدة بالتليفون فى غيبة الرقيب. كان هذا الدفتر الصغير هو أرشيف قلب عادل. يرجع إليــه فى الملمات ويستعين به فى الأزمات. وبذلك كان يحافظ بــدقة علــى حــركة المرور الداخلة إلى قلبه والخارجة منه فلا يحدث اصطدام بين غريمتين، أو لقاء بين متنافستين !

وعندما تضاعف الزحام فى قلبه، وتعددت الأسماء، لجأ عادل إلى حل سعيد ليتخلص من هذه الورطة، فكان يطلق على كل امرأة من صديقاته لقب (يا روحى) : وبهذا لم يعد يتردد ويفكر قبل أن ينادى الصديقة باسمها خشية السهو والغلط، ولم تطلب أى امرأة من عادل أن يناديها باسمها فقد وجدت فى لقب (يا روحى) ما يغنيها عن سماع اسمها من شفتى الرجل الذى تحبه !

* * *

وكان عادل يشغل منصب المدير العام لشركة الهندسة الكهربائية. وقد وصل إلى هذا المنصب بفضل عبقريته فى الهندسة. فقد حصل على أكبر شهادة فى الكهرباء من جامعة برمنجهام فى إنجلترا، وكانت له كفاءة عجيبة فى دراسة المشروعات، وفى الحصول على أعمال جديدة للشركة، حتى أنه استطاع أن يضاعف رأس مالها عدة مرات. واستطاع أن يجمع حوله عددا من المهندسين الشبان، ويجعلهم أشبه بفريق كرة القدم، يعملون بروح واحدة، ويحبون عملهم، ويمضون فى الشركة أكثر مما يمضون فى بيوتهم !

ولكنه قادر دائما على أن يجد الوقت اللازم للهو ! يمضى أحيانا فى مكتبه ١٨ ساعة بغير انقطاع. يتناول إفطاره فى الشركة، وغداءه فى الشركة، وعشاءه فى الشركة. ومع ذلك يستطيع أن يلتقى بثلاث نساء فى الاربع والعشرين ساعة. فقد درب نفسه منذ أن كان طالبا على أن يكتفى بثلاث ساعات نوم كل يوم ! فإذا دخل إلى مكتبه فى الصباح المبكر لم يتصور أحد من زملائه أن مديرهم العام أمضى الليلة السابقة يرقص حتى الفجر فى فندق شبرد، وأكمل باقى السهرة بين ذراعى الممثلة إجلال فوزى فى شقتها فى الزمالك ! وكان يشعر أن قبلات النساء تجدد نشاطه، وعناقهن يحافظ على

حيويته، والتغيير والتبديل فيهن يستخرج ملكاته المدفونة من ابتكار واختراع وإنتاج !

وهو لا يذكر أين تعلم الحب ! هل تعلمه من نساء انجلترا عندما كان يدرس فى الجامعة أم تعلمه من نساء أمريكا عندما ذهب إلى جامعة هارفارد ليحصل على الدكتوراه.. أم تعلمه من نساء باريس عندما كان يتردد على مدرسة السنترال. أم تعلمه من بنات القاهرة اللاتى يجد فيهن حرارة وخفة دم لم يجدهما فى نساء العالم كله أم لعله تعلم الهوى فى شفاه نساء الدنيا ! فكلما زاد عدد الأساتذة فى مدرسة الحب زاد نبوغ التلاميذ !

ولقد كان حريصا على ألا يعرف عنه أنه زئر نساء ! وكان يساعده على أن يخفى حقيقته أنه كتوم بطبعه. يكره الاستعراض، ويعتقد أن هذه الشهرة سوف تسيء إلى عمله، فرجال الأعمال ينظرون إلى ذئب النساء بغير اطمئنان. يرفضون أن يدعوه إلى بيوتهم. ويتفادون أن يظهروا مع زوجاتهم معه فى مكان عام. وأكبر الصفقات الصناعية هى التى تعقد فى مآدب العشاء، أو فى الحفلات الراقصة على أنغام الموسيقى.. أما المكاتب فهى خير الأمكنة لاثارة الاشكالات والتعقيدات والخلافات. ولهذا كان يظهر مع المرأة فى مكان عام، حتى إذا انتقلت من خانة المعارف إلى خانة الصديقات أو العشيقات. اختفت من حياته العلنية. وحرص على ألا يظهر معها فى مكان عام. واكتفى بأن يستقبلها فى شقته الأنيقة بعمارة ايموبيليا. حيث يوجد عشرات الخياطات وعشرات من عيادات الأطباء وعشرات من صالونات حلاقة السيدات !

فلا يمكن أن تكون الأميرة فضيلة قد عرفت أنه زئر نساء !

على العكس لقد حاول جهده أن يظهر أمامها بمظهر العاشق المبتدئ.

فالمرأة المبتدئة تعشق الرجل صاحب التجارب، والمـرأة ذات التجـارب تفضل الرجل المبتدئ!

ترى هل دخلت الأميرة قلبه لتسكن غرفة أو جناحا فى الفنـدق، وتتـرك باقي صديقاته ساكنات فى باقى الغرف. أم أنها جاءت لتستولى على الفندق كله، وتطرد كل من فيه من نساء!

* * *

وعاد عادل يتطلع إلى الأميرة الفاتنة وهى ترقص، وتغمض عينيها علـى أنغام موسيقى شتراوس وكأنها تحلم!

ووجد عادل نفسه يغمض عينيه ويحلم! ويشعر بشعور غريب لم يشعر به فى يوم من الأيام، شعور الرغبة فى أن يطرد كل ساكنات قلبـه، ويخصصـه للأميرة الفاتنة وحدها!

ماذا حدث له؟ كيف استطاعت هذه المرأة التى لم يعرفها بعـد، ولـم يتحدث إليها أن تفعل به كل هذا؟ أن تنسف نظريته فى «التعدد».. أن تطرد بنظراتها النساء الفاتنات اللاتى ملأن قلبه! أن تنسـيه خفـة دم زينـب، وحرارة فاطمة، وأنوثة عصمت، وسحر أميرة، وصدر الهام؟

هل نومته تنويما مغناطيسيا؟ وأفقدته إرادته، وجعلتـه مـراهقا يبيـع العصافير العشر التى فى يده من أجل عصفورة لا تزال فوق الشجرة؟

إنه ليس عاشقا مبتدئا يسقط أمام أول نظرة، كما تسقط المدينة العزلاء أمام أول طلقة. لقد جرب هو مع النساء سياسة الهجـوم الخـاطف الـذى لا سبيل إلى مقاومته. طريقة هتلر فى الانقضاض. ولكنها هذه هـى المـرة الأولى التى شعر بأن امرأة تنقض عليه تحاصره من جميع الجهات. تغـزوه

من الأرض والبحر والجو فى وقت واحد. كل ذلك بابتسامة!

وانتهى الرقص، واتجهت الأميرة إلى مائدتها، وزوجها خلفها، وقام الأمراء الجالسون حول المائدة احتراما لهما، ثم همست فى أذن زوجها، وتركتهم ومشت وحدها.. ولاحظ عادل أن الأميرة تلتفت إلى ناحيته لفتة سريعة، كالبرق، ثم تتابع مشيتها وفهم من هذه اللفتة أن الأميرة تدعوه أن يتبعها..

ومشى يتبعها عن بعد..

ولاحظ أنها صعدت درجات سلم القصر..

ومضى خلفها.

واتجهت إلى دورة المياه.

ثم توقفت أمامها..

وفتحت حقيبتها، وأخرجت علبة سجائرها الذهبية، وفتحتها وأخرجت سيجارة ووضعتها فى فمها.

وأخرج عادل علاء الدين على الفور قداحة السجائر من جيبه، وتقدم خطوتين.. وأشعل القداحة وتقدم ليشعل سيجارة الأميرة..

وفى نفس اللحظة وجد يدا أخرى تمتد نحو الأميرة.. وفى اليد قداحة أخرى مشتعلة..

وأصبح أمام الأميرة ولاعتان مشتعلتان فى وقت واحد..

ونظرت الأميرة إلى وجه عادل..

ثم إلى وجه الشاب الآخر..

وأحنت رأسها وأشعلت سيجارتها من ولاعة الشاب الآخر..

ووقف عادل علاء الدين مبهوتا وفى يده الولاعة المشتعلة.

وابتسمت الأميرة...

ونفخت فى ولاعة عادل وأطفأتها !

الفصل الثانى

فوجئ عادل بالأميرة الفاتنة تختار الشاب الآخر، تفضله عليــه، وفهــم بذكائه أن الأميرة قبلت أن يشعل الشاب الآخر قلبها.. ثم نفخت فى ولاعتــه إشارة منها إلى أنها تطفئ نار قلبه !!

وأحس بحسرة الهزيمة.. كأن الأميرة كانت بين ذراعيــه، وجــاء هــذا الشاب المجهول وانتزعها منه وأخذها بين ذراعيه.. وتأخر بضع خــطوات إلى الوراء، كأنه جيش مسحوق مهزوم. وضاعف من مرارة الهزيمة أنه رأى الأميرة تهمس بكلمة فى أذن الشاب الآخر ثم تمضى فى طريقها إلــى غــرفة التواليت، ورأى الشاب الآخر يستدير متجها إلى الباب الخارجى للقصر!

وعلقت عيناه بالشاب الآخر، فوجده شابا أشقر، مديد القــامة، جميــل الطلعة، لم ير وجهه قبل ذلك فى حفلة من الحفلات أو سهرة من الســهرات. ولاحظ أن الشاب الأشقر يبدو سعيدا كأنه يعلم أنه انتصر فى معركة حربية. ولم يكلف نفسه أن يلقى نظرة رثاء على القائد المهزوم!

وفهم عادل أن الأميرة قد أعطت موعدا للشاب الأشقر المجهـول. وأراد أن يعود إلى حلبة الرقص يجر هزيمته وراءه، ولكنه بــطبعه لا يســتسلم بسرعة. زئر النساء لا تصدمه الهزيمة الأولى. على العكس أنها تضاعف من إصراره على النصر. المعركة الأولى يــكسبها عــادة القــائد المبتــدئ،

أما المعركة الأخيرة فيكسبها دائما القائد الخبير!

قد يكون هذا الشاب الأشقر فاز بموعد مع الأميرة. ولكن عادل لا يــريد موعدا. يريد الأميرة كلها! وقرر عادل أن يرابط أمام التواليت..

وبعد دقائق خرجت الأميرة، ولم تلتفت إليه. لم تشعر بوجوده. مضت فى طريقها كأنها نسيت وجهه. كأنها لم تره من قبل. كأنها لم تطفئ ولاعته!

وعادت الأميرة إلى مكانها على المائدة مع زوجها وأصدقائه. وعاد عادل إلى مكانه السابق خارج حلبة الرقص، ودهش أن الأميرة لم تلتفــت إلــى ناحيته. بل مضت تتحدث مع زوجها وأصدقائه، وتضحك فى مــرح وكأنهــا شربت زجاجة شامبانيا عندما همست فى أذن الشاب الأشــقر المجهــول. وتلفت عادل حوله يبحث عن الشاب حول حلبة الرقص فلم يجده. ما حاجته إلى أن يبقى فى السهرة وقد حصل على أجمل امرأة فى السهرة. لابد أنه عاد إلى بيته يحلم بالموعد الذى حددته له الأميرة.

ترى هل حددت له موعدا هذه الليلة بعد أن ينام زوجها؟ أم هى حددت له الموعد فى اليوم التالى؟

ترى هل هذا موعده الأول معها. أم أنه حبيب قديم للأميرة؟

أتكون الأميرة غازلت عادل فى أول الأمر، وذهبت إلى التواليت لتحدد له موعدا للقاء، فلما رأت حبيبها القديم نسيت عادل، وأعطت الموعد المنتظر للحبيب القديم، نزولا على المبدأ الذى يقول ما الحب إلا للحبيب الأول!

ثم رأى الأميرة تلتفت إلى ناحيته، وأسرع عادل وأخرج ولاعته وأشعلها فى الهواء. وأدارت الأميرة رأسها، وانحنــت علــى الــرجل الــذى يجلس بجوارها، ولم تخرج ولاعتها ولم تشعلها!

وكرر عادل إشعال ولاعته طوال السهرة حتى فرغ ما فيها من بنـزين.. ومع ذلك لم تشعل الأميرة ولاعتها مرة واحدة!.. كأنها أقلعت فجأة عن عادة التدخين.

ثم عزفت الموسيقى لحنا راقصا دافئا.. وعكست أنوار حمراء على حلبة الرقص. وأطفئت كل الأنوار ولم يبق سوى هذا اللهيب الأحمـر.. وقـامت الأميرة ترقص مع أحد الأمراء الشبان الجالسين علـى مـائدتها. وكانـت ترقص مغمضة العينين كأنها تحلم. ومرت أمام عادل فلم تفتح عينيها، فقد كانت مستغرقة فى ذلك الحلم اللذيذ.. وأحس عادل بلسعة غيرة فى قلبه. لابد أن الأميرة تفكر وهى ترقص فى ذلك الشاب الأشقر المجهول. وشعر بالغيرة القاتلة تنهش صدره. وتصور فى أول الأمر أن جمال الأميرة سيذوب أمـام عينيه بعد خيانتها. وإذا به يراها تزداد نضارة وجمالا وفتنة وإغـراء.. كأن حديثها السريع مع ذلك الشاب الأشقر لا يزال يسكرها. أو كأنهـا تعيش فى الموعد المنتظر.. وتتزين من داخلها لهذا اللقاء، كما تتزين مـن خـارجها استعدادا لموعد لقاء الحبيب، شىء فى هذه المرأة كان يزداد حلاوة. شىء فى داخلها. كأن لمبة كهربائية أضيئت فجأة فى أعماقها، فأضاءت كل جـزء من جسدها! هذا الشاب الأشقر لم يقبلها، لم يلمسها. لم يفتح فمه وينـطق بكلمة واحدة.

ماذا فيه جعل هذه الأميرة تنتشى كل هذه النشوة. تنسى عادل فى لحظة واحدة! تطفئ ولاعته، وتلتهم النار التى فى ولاعة الشاب الأشقر.. كيف لـم يره عادل فى الحفلة قبل أن تنشق الأرض أمام باب التواليت ويخرج منهـا حاملا ولاعته المشتعلة! ثم كيف انشقت الأرض مرة أخرى واختفى هـذا الشاب من الحفلة كلها، بعد أن سرق قلب الأميرة!

لقد كانت أغرب عملية نشل قلب رآها عادل طوال حياته الغـرامية! رأى

قبل ذلك ألوانا وأشكالا من لصوص القلوب. رأى اللص الهجام وهو الذى يستعمل العنف وهو ينتزع المرأة، ورأى اللص الذى يبيع للمرأة الترام ويستعمل ذكاءه ليخدع الضحية الساذجة، ورأى اللص الخطاف الذى يخطف المرأة من بين أحضان رجلها، ورأى اللص قاطع الطريق الذى يقطع على المرأة الطريق إلى حبيبها ويأخذها لنفسه! ولكنها أول مرة يشهد فيها عملية نشل امرأة، بهذه السرعة، وبهذه الخفة!

وأحس عادل بالغيظ الذى يحس به الضحية عندما يكتشف أن محفظة نقوده التى كان فيها كل رأسماله، قد اختفت من جيبه فجأة. وها هو ذا يرى المحفظة أمامه، ولا يستطيع أن يمد يده إليها، بل هى تتجاهله، كأنها لم تره من قبل، ولم تعرفه.. ولم تشعل له ولاعتها!

وخطر بباله أن يبحث عن أجمل امرأة فى السهرة، ويجيء بها إلى حلبة الرقص، ويضارب بها الأميرة وكأنه يخرج لسانه لسموها الملكى. وكأنه يقول لها إنك لست وحدك المرأة الفاتنة فى هذه الليلة الساهرة فعندى امرأة لا تقل عنك فتنة وجمالا وسوف يرقص مع المرأة التى سيختارها كما لم يرقص فى أى يوم فى حياته.

وعجب عادل من نفسه أن يلجأ إلى أساليب الأطفال ليضايق الأميرة التى هدمت أحلامه. والتى هربت من يديه فى نفس اللحظة التى تأكد فيها أنها ستكون بين ذراعيه. ولم يجد أمامه ما يفعله ليجذب أنظار الأميرة، ويثير اهتمامها، ويشعل الغيرة فى قلبها إلا أن يلجأ إلى هذه الطريقة الصبيانية التى لم يلجأ إليها مرة واحدة فى حياته المليئة بالمغامرات والمطاردات!

ومضى يبحث فى الحفلة عن امرأة يكسف جمالها جمال الأميرة. امرأة

تتحدى جمالها. وطافت عيناه بالنساء الموجودات. وأحس بالذعر، خيل له أنه لم يعد فى الحفلة امرأة جميلة واحدة. كأن الأميرة أكلتهن جميعا بجمالها ولم تترك سوى هياكلهن العظمية!

وقرر أن يتواضع فى بحثه. ويكتفى بامرأة أقل جمالا من الأميرة وراح يحملق فى النساء الموجودات. واكتشف أنه فاته قطار الجمال وصل متأخرا بعد أن تحرك قطار الجمال! كل امرأة جميلة أو شبه جميلة فى السهرة وجدت شابا أو عدة شبان يتعلقون فى ذيلها. كل فتاة كانت تتمنى ـ فى الحفلات الماضية ـ أن ترقص معه، اعتذرت عن عدم الرقص معه لأنها ارتبطت برجل آخر، كل الرقصات محجورة. كل النساء محجوزات! وهو وحده غير المحجوز وغير المطلوب! محظياته الموجودات فى الحفلة على استعداد لأن يعطينه كل ما يريد من البسمات والغمزات والتنهدات. ولكن واحدة منهن ليست مستعدة لأن تعطيه رقصة واحدة. فقد جاء متأخرا! الوقت الذى أضاعه فى الحملقة فى وجه الأميرة الفاتنة انتهزه صيادون آخرون وصادوا كل ما فى البحر من أسماك وسردين!

* * *

وتلفت حوله فى يأس. ووجد الآنسة قسمت شاهين جالسة وحدها! هى الوحيدة فى السهرة التى ليس بجوارها لا رجل ولا شاب ولا عجوز! ولم يدهش عادل لأنه رأى قسمت وحدها. فهى تجلس فى كل حفلة وفى كل سهرة وحدها! الرجال يخافون من الاقتراب منها.. الشبان يسمونها «هادمة اللذات ومقلقة الراحات»!.. النساء عندما يردن أن يصفن امرأة يمقتنها بقبح الخلقة يقلن إنها تشبه قسمت شاهين!

على عينيها نظارة سوداء سميكة، شعرها مهوش، يشبه رأس العبد الذى

يزيلون به التراب من سقف الحجرات. تقاطيع وجهها فيها قسوة. تبدو دائما « قرفانة ». كأنها تبحث طول حياتها عن ليمونة. على شفتيها مرارة غـريبة لست فى حاجة إلى أن تذوقها لتعرف طعمها ! مـلابسها ليس فيهـا أنـاقة ولا ذوق. الألوان التى تختارها دائما لا تناسبها. ألوان غامقة لا تتفق مـع بشرتها السمراء، فتزيد لونها سوادا فوق سواد.

كل شىء فيها يدل على « البهدلة ». خصلات من شعرها تدلت فوق وجهها بغير نظام، فلا تعرف هل هذا وجه قسمت أم قفاها. تسريحتها مبتـكرة فى خروجها عن كل فن مألوف. أنفها صغير، ولكن إطار نظارتها الذهبية الغليظ أخفى الأنف، فبدت كأنها غطاء الأنف، شفتاها رقيقتان ولكنهما مـطبقتان، كأنها تجز على أسنانها، أو كأنها تخفى أنيابا تريد أن تغـرسها فى وجـوه الناس.

ودهش عادل.. ما الذى يجئ بفتاة مثل هذه إلى الحفلات الأرستقراطية المليئة بالأناقة والجمال. كأنها تريد أن تتحدى بمظهرها الزرى وقسـماتها المنفرة، كل الجميلات وكل الأنيقات، فجاءت تحمل إليهن النقيض. أو كأنها تريد أن تقول إنها الصورة الحقيقية لكل واحدة منهن إذا تخلى عنها سقراط الحلاق أو أشهر الخياطات، أو مستحضرات ماكس فـكتور التـى تصـنع الجمال. أو أنها تريد أن تقول إنها صورة لكل واحدة من هؤلاء الجميـلات من الداخل.. صورة بالأشعة !.

أو لعلها تحرص على أن تظهر فى هذه الحفـلات الأرسـتقراطية بهـذا المظهر الزرى اتذكر الحاضرين والحاضرات بالمتسولين التعسـاء، الـذين يتضورون جوعا فى المدينة الكبيرة، بينما هؤلاء ذوات الثراء يحملن فـوق أجسادهن، وفى آذانهن، وحول رقابهن، وفوق رؤوسهن ألوفا من الجنيهات..

كأنها تذكر كل امرأة بملجأ الشحاذين فى القاهرة التى تتولى منصب سكرتيرة مجلس الادارة فيه.

ليست هذه هى المرة الأولى التى تخطر هذه الأسئلة برأس عادل علاء الدين. كلما رأى قسمت فى حفلة من هذه الحفلات أطلت من رأسه هذه الأسئلة بغير أن يجد لها أى جواب. وكثيرا ما حدثته صديقته أميرة عن قسمت، زميلتها فى مجلس إدارة جمعية ملجأ الشحاذين.

قالت له إن قسمت ليست فتاة فقيرة عاجزة عن شراء أفخر الثياب، والتردد على أعظم صالونات الحلاقين وشراء آخر مستحضرات الجمال من باريس، فهى على العكس ابنة شاهين باشا عبد اللطيف الثرى المعروف، الذى بح صوته فى محاولة إقناع ابنته الوحيدة كى تظهر بالمظهر اللائق بالأسرة وباسمها الكبير! ولكن كل المبالغ التى يدفعها الأب لابنته لشراء الملابس ولشراء المجوهرات تتبرع بها لملجأ المتسولين! وكثيرا ما حاولت أميرة إقناع صديقتها قسمت بأن تعنى بمظهرها الزرى الكئيب، كأنها تصر على أن تكون إعلانا متنقلا عن حالة المتسولين فى مدينة القاهرة!

وتقدم عادل نحو قسمت وقال لها باسما:

ـ أهلا بعدوة الرجال!

قالت قسمت وهى تبتعد قليلا عن المكان الذى اختاره ليجلس فيه بجوارها:

ـ أهلا.. بسفاح النساء!

وتأملته قسمت بنظرة واحدة وقالت:

ـ ماذا جاء بك إلى هذه المنطقة الحرام؟ هل أوقعت كل النساء اللاتى

فى الحفلة فى حبائلك. أم أنك وصلت متأخرا بعد أن كانت كل سمكة قد تعلقت فى سنارة أخرى! لو كان هذا هو الذى حدث فمعناه أن الله يحب النساء فى هذه الليلة.. ولهذا خلصهن من شباكك!

وفوجئ عادل بهذا الهجوم فقال:

ـ لماذا تكرهيننى يا قسمت كل هذه الكراهية!

قالت قسمت:

ـ إننى لا أكرهك أنت بالذات... إننى أكره كل الرجال!

ـ ولماذا تكرهين كل الرجال؟

ـ لأنهم يكرهوننى!

ـ ولماذا يكرهونك؟

ـ لأننى أفهمهم جيدا!

وتأملها عادل خلف نظارتها السوداء، وبحث عن عينيها فلم يستطع أن يراهما ليعرف ما تعنى قسمت بأنها تفهم الرجال، ولكنه رأى على شفتيها علامة القرف وهى تذكر أنها تفهم الرجال، وأنها تكرههم لأنها تفهمهم! وعاد يقول لها:

ـ لابد أن رجلا واحدا أساء إليك، فمن أجله وحده كرهت كل الرجال!

وابتسمت قسمت ابتسامة ساخرة وقالت:

ـ ليس ضروريا أن يمرض الطبيب بالحمى الصفراء ليعرف أعراض الحمى الصفراء!.. أو أن يكون مصابا بالطاعون لكى يعرف مرضى

الطاعون ! يكفينى أن أعرف ضحاياكم.. لأعرف سبب الوفاة !

وضحك عادل وقال :

ــ هذه أول مرة أسمع فيها امرأة تشبه الرجل بالحمى الصفراء أو الطاعون ! ولكن ما رأيك فى أن كل امرأة فى العالم تتمنى أن تصاب بهذه الحمى الصفراء !. وكل امرأة جاءت إلى هذه الحفلة مكثت ساعتين عند الحلاق وعشر ساعات عند الخياطة وعدة ساعات أمام المرآة.. لتصاب بميكروب الحمى الصفراء، أو لتحتفظ بميكروب الحمى الصفراء !

قالت ساخرة :

ــ ولكننى لم أقف أمام المرآة دقيقة واحدة، لأننى لم أشأ أن أنكد على نفسى برؤية وجهى فى المرآة ! أو ربما لأننى لا أريد أن أصاب بالحمى الصفراء أو بالطاعون، ولكنى فى الوقت نفسه انتهز كل فرصة لأحذر النساء من خطر الحمى الصفراء والطاعون !

قال عادل :

ــ لقد قالت لى أميرة عبد العاطى إنه فى كل مرة تقابلك فيها تحذرينها منى ! وتنصحينها بالابتعاد عنى. وتبصرينها بالمصائب التى سوف تنزل على رأسها إذا استمرت فى علاقتها بى !

ولم يبد على قسمت أنها أحرجت عندما علمت بأن أميرة أخبرت عادل بكل ما قالته عنه بل على العكس، بدت عليها السعادة لأن عادل عرف رأيها فيه ! فعادت تقول :

ــ أنا لا أنكر كل كلمة قلتها فيك ولكننى لم أتبرع بهذا الرأى. لقد سألتنى أميرة عن رأيى فيك، فقلت رأيى بصراحة.. فأنا أحب أميرة. وعندما

يطلب منى إنسان أحبه النصيحة يجب أن أصدقه فيها.

قال عادل :

ـ وإذا طلبت أنا نصيحتك... فهل تصدقيننى النصيحة ؟

قال قسمت :

ـ أنا لا أنصح الرجال ! نحن لا نستطيع أن نحقن ميكروب الحمى الصفراء. ولهذا نكتفى بحقن المصابين !

ـ ولكن ما الذى يجعل كل امرأة تحبك وتثق بك وتأتمنك، كأنك الخزانة السرية التى تحتفظ النساء فيها بكل أسرارهن ؟!

وأخرجت قسمت علبة سجائرها، وأخذت سيجارة، وأشعلتها دون أن تنتظر حتى يبحث عادل فى جيوبه ويخرج علبة الثقاب بعد أن انتهى البنزين فى ولاعته وقالت :

ـ لعل شكلى الزرى، ووجهى القبيح، وإهمالى لمظهرى جعلنى فوق مستوى غيرة النساء. كل عاشقة تطمئن إلى، لأننى لن أسلب منها رجلها أو أسرق حبيبها.. أو استغل الأسرار التى ائتمنتنى عليها لأحتل مكانها فى قلب معبودها..

وضحكت قسمت من كل قلبها وقالت :

ـ سأقول لك سرا.. إذا كانت المرأة الجميلة تستطيع أن تسيطر على الرجال بجمالها، فالمرأة المحرومة من الجمال قادرة على أن تجعل من هذا العيب ميزة لها !

وفتح عادل فمه دهشة لأن قسمت تتحدث عن قبحها بهذه البساطة ! بل

هى تفاخر بقبحها، وتعتبره ميزة لها!

ورآها عادل تفتح حقيبة يدها، وتخرج منها مرآة، ثم تطل فى المرآة وتبتسم فى رضاء وتقول:

ـ إن وجهى اليوم.. يشبه الصرمة القديمة!

وابتسم عادل، وتأمل وجه قسمت فوجده فعلا يشبه الحذاء القديم! ولكنه تعجب فى نفسه من قوة هذه المرأة التى تسخر من نفسها بهذه القسوة. الانسان القوى هو الذى يتحمل النقد، ولكن الانسان العظيم هو القادر على أن يسخر من نفسه! وأحس عادل بشعور غريب. أن فى داخل هذه المرأة القبيحة الخلقة شيئا جميلا. لا يعرف ما هو؟ شيئا يجذبه.

ووجد نفسه يقول لها:

ـ هيا.. نرقص!

ولم تتحرك قسمت من مكانها وقالت:

ـ هل جننت يا عادل؟ دكتور عادل علاء الدين دون جوان مدينة القاهرة يرقص مع أقبح فتاة فى القاهرة؟ سيشك الناس فى أنك الدكتور علاء الدين. سيظنون أنك الدكتور طه حسين! سيقولون إنك أصبت بالعمى لأنك ترقص مع قسمت شاهين!

وجذبها عادل من يدها، ومشت بجواره متخاذلة إلى حلبة الرقص وهى تقول:

ـ ستندم يا عادل! ستصبح الليلة أضحوكة بين الرجال! ستسمع ألوانا وأشكالا من النكات والقفشات ونحن نرقص معا!

ولم يرد عادل على اعتراضاتها، ودخل معها إلى حلبة الرقص، ولف ذراعه حول خصرها واحتضنها، ومضى يرقص معها وقد رفع رأسه مزهوا فخورا!

وقالت له قسمت وهى ترفع رأسها نحو وجهه الذى انحنى على وجهها:

ــ لماذا ترقص معى؟ هل أردت أن تقوم فى هذه الليلة المباركة بعمل خيرى؟

قال لها وهو يضغط على خصرها:

ــ نعم.. أردت أن أتبرع بهذه الرقصة لملجأ الشحاذين!

قالت له وهى تتفادى أن تنظر إلى عينيه الحالمتين:

ــ التبرعات تدفع لأميرة عبد العاطى أمينة الصندوق!

قال:

ــ ولكن أمينة الصندوق مع والدها الذى يشبه الكلب البولدج.. ولو رقصت معها الليلة فسوف يغرس والدها مخالبه فى جسمى ولا يتركنى إلا جثة!.. ولا أظن أنكم توزعون على الشحاذين فى الملجأ جثث الموتى!

قالت: إذن أنت ترقص معى لأننى بلا حارس! لقد تصورت أن قبح وجهى يحرسنى أكثر من فرقة من الرجال!.

قال لها عادل:

ــ قد يدهشك أنك لست قبيحة بالصورة التى تحاولين إظهارها للناس! إن شيئا فيك جميل.. لا أعرف ما هو! وما زلت أبحث عنه دون جدوى!

قالت باسمة :

ـ هل هذه المجاملة موجهة إلى ملجأ الشحاذين أيضا على سبيل التبرع ؟

قال عادل :

ـ لا .. إنها موجهة إليك !

قالت ساخرة :

ـ سأضم اسمك إلى كشوف كبار المحسنين .. إلى كشوف فاعلى الخير ! إننى أتصورك عندما تعود إلى بيتك، ستقول « الليلة قمت بعمل لله ! ». ربما تكون أنت أول رجل فى العالم رقص لله ! سمعت عن رجال يتبرعون لله. ويحسنون لله .. ويعملون المعروف لله .. ولكن هذه أول مرة أرى فيها رجلا يرقص لله ! انظر حولك تجد الرجال ينظرون إليك بسخرية ويتغامزون عليك، ألا تشعر بالخجل؟ ألا تؤلمك هذه الغمزات ؟

قال عادل :

ـ أنا لا أشعر بهذه النظرات ! إنها لا تصل إلا لقدمى ! إنك ترقصين ببراعة عجيبة .. ولابد أن هذه النظرات هى إعجاب ببراعتنا فى الرقص !

قالت :

ـ الناس لا تنظر إلى الأقدام .. وإنما تنظر إلى الوجوه ! .. ليتهم ينظرون إلى الأقدام فقط !

قال عادل :

ـ ألم تقولى لى الآن إن وجهك مثل الصرمة القديمة ؟ ماذا يهمك لو

نظروا إذن إلى وجهك أو إلى حذائك!

وابتسمت قسمت لهذه القفشة وقالت:

ـ أنت أول رجل يرقص معى فى مكان عام! كل امرأة جميلة فى المدينة تحب أن تخرج معى إلى الأماكن العامة، اللون الأسود يبرز اللون الأبيض. القبح يبرز الجمال الذى بجواره. إن امرأة نصف جميلة تمشى بجوارى فى الشارع تبدو كأنها ملكة الجمال! تماما كما يستطيع الظلام الدامس أن يجعل ضوء عود الثقاب باهرا يعمى العيون!

* * *

وفى تلك اللحظة اقتربا من المائدة التى تجلس عليها الأميرة فضيلة. وفوجئ بفضيلة تهز رأسها لقسمت، ثم تهز رأسها لعادل وعلى شفتيها ابتسامة.. ثم رآها تخرج ولاعتها وتشعلها فى الهواء!

وبهت عادل لهذه المفاجأة التى لم يتوقعها. لقد بحث طويلا عن أجمل فتاة فى السهرة ليرقص معها، ويثير اهتمام الأميرة الفاتنة التى فقدها أمام دورة المياه، ولم يجد فتاة جميلة، ولا نصف جميلة لتثير غيرة الأميرة الحسناء.. وإذا بأقبح الفتيات وجها وأحقرهن مظهرا هى التى تثير اهتمام الأميرة، وهى التى تجعلها تحرك رأسها بالتحية، وتبتسم له، وتشعل ولاعتها فى الهواء!

أتكون فتنته هو، وأناقته هو، لم تبرز إلا بجوار هذه الفتاة الزرية الهيئة، القبيحة الخلقة.. طبقا لنظرية قسمت بأن الأسود هو الذى يبرز الأبيض، وحلكة الليل هى التى تظهر ضوء عود الثقاب!

أم هى نتيجة فعل الخير، هو الرجل الوحيد فى هذه السهرة الذى فعل شيئا لله، لا يبغى من ورائه جزاء ولا شكورا، هو الوحيد الذى عطف على هذه المنبوذة التى هرب منها كل الرجال. هل كان حقا يرقص لله كما قالت قسمت، فأراد الله أن يجازيه على أنه رق لامرأة هجرها الجميع، فأسرع يثيبه على هذه الحسنة، لا بعشرة أمثالها، وإنما بمليون من أمثالها !..

إنه رجل مؤمن، يؤمن بنظرية الثواب والعقاب. ولكنه كان يتوقع دائما أن يكون الثواب فى السماء، لا فى قصر الأميرة شويكار! وكان يؤمن بأن الثواب يجىء فى يوم القيامة، بعد آلاف السنين، لا بعد دقائق من عمل الخير..

ومضى يرقص، وقسمت بين ذراعيه، ومواكب الراقصين تدفعهما بعيدا عن مكان مائدة الأميرة الفاتنة. وقرأت قسمت تعبيرات الهناء فى وجه عادل فسألته :

ـ هل تعرف الأميرة فضيلة؟

وأيقظه هذا السؤال من الحلم الذى كان يحلم به وقال :

ـ لا.. لا أعرفها.

قالت قسمت فى خبث :

ـ يبدو أنها تريد أن تعرفك!

قال عادل ساخرا :

ـ هل تعرفين قراءة أفكار النساء؟

قالت قسمت باسمة :

ـ لا.. إن الأميرة أشارت لى بيدها إشارة معناها أنها تريد أن تذهب

إلى مائدتها بعد انتهاء الرقص!

قال عادل مذهولا:

ـ ولكننى لم أر هذه الاشارة!

قالت قسمت:

ـ عندما أدرت ظهرك للأميرة أشارت لى الأميرة الاشارة وفهمتها! يا لك من صياد ماهر! وضعت فى سنارتك سمكة بسارية.. هى أنا.. لتصطاد بها أجمل سمكة فى البحر.. الأميرة!

وتوقفت الموسيقى بعد انتهاء الرقصة، ودفعت قسمت أمامها عادل، ثم صحبته من يده إلى مائدة الأميرة!

ووقف زوج الأميرة والأمراء وانحنوا إجلالا لقسمت.. وقدمت قسمت عادل إلى الأميرة قائلة:

ـ عادل علاء الدين!

وصافحته الأميرة وضغطت على يده وهى تصافحه، وأجلست قسمت إلى جوارها، وطلبت من عادل أن يجلس فى المقعد الذى أمامها.. وقالت لهما:

ـ لقد كنتما أبرع راقصين فى حلبة الرقص!

قالت قسمت وهى تضحك:

ـ لقد كنا فعلا محط أنظار الجميع. فقد كان الموجودون يتساءلون من هو هذا الفدائى الذى يرقص مع هذه الخنفساء!!؟

وضحكت الأميرة ضحكة عالية لخفة دم قسمت!

ومضت قسمت تقول : حدث مرة أن جاء محام اسمه زعزوع بيومى وتقدم لخطبتى.. وكان زعزوع هذا مشهورا بقبح الخلقة. له أنف يحتل نصف وجهه بالطول، وله فم يحتل كل وجهه بالعرض.. وعندما سمع الناس أن زعزوع هذا سيتزوج، راحوا يقولون مسكينة التى ستتزوج زعزوع... وعندما عرفوا أنه سيتزوج قسمت شاهين قالوا على الفور : مسكين زعزوع... وضحكت الأميرة حتى امتلأت عيناها بالدموع !

وفهم عادل من ضحكة الأميرة من كل قلبها، وإعجابها بها لماذا كانت تنتخب قسمت بالاجماع دائما سكرتيرة لمجلس إدارة ملجأ المتسولين ' فلا تتقدم عضو لمنافستها. ولا تنازعها سيدة على سلطانها. إن اعترافها الدائم بقبح وجهها ودمامة خلقتها جعل العضوات لا يغرن منها، ولا يحسدنها على شىء، ولا يخفن منها. كانت النساء يتصارعن على مراكز مجلس الادارة. على منصب الرئيسة.. على منصب الوكيلة. على منصب أمينة الصندوق. يختلفن، ويتشاجرن ، ويتخاصمن، ويمسكن شعور بعضهن، وينقسمن إلى فرق وأحزاب. ولكنهن يجمعن دائما على أمر واحد هو انتخاب قسمت شاهين سكرتيرة.. لأنها لا تنافس واحدة منهن فى جمال، أو فى أناقة، أو فى محاولة الحصول على إعجاب الرجال !

وقطعت الأميرة على عادل أفكاره وقالت لقسمت :

ـ ولكن الذى أدهشنى أن أراك ترقصين مع رجل.. والمعروف عنك أنك عدوة الرجال !

قالت قسمت ضاحكة :

ـ هذه طريقتى فى الانتقام من الرجال ! أنا واثقة أن عادل سيعلن أنه طلق الرقص نهائيا. حتى لا يرقص معى مرة ثانية !

قال عادل :

ـ على العكس ! إنني بدأت الآن أحب الـرقص ! إن قـدميك تعـزفان الموسيقى وهما ترقصان !

قالت الأميرة :

ـ هذه أجمل كلمة سمعتها فى حياتى تحية لقدمى امرأة ! أظن بعد هذه التحية أنك سوف توقفين يا قسمت الحرب التى أعلنتها على الرجال ! يكفينا أن نعيش فى حرب واحدة.. وهى الحرب بين هتلر والحلفاء !

قالت قسمت :

ـ إن الحرب التى أعلنتها لا تنتهى أبدا إلا بعد أن يموت كل الرجال.

قال زوج الأميرة مقاطعا :

ـ طبعا ما عدا أفراد الأسرة المالكة !

قالت قسمت :

ـ الرجال من الأسرة المالكة فى المقدمة !

وضحكت الأميرة ووضعت أصبعها على فمها وقالت هامسة :

ـ احذرى ! إن الملك هنا !

قالت قسمت :

ـ أنا امرأة صريحة ! أنا أعلنت الحرب على كل الرجال بلا اسـتثناء !.. وأعتبر كل الرجال من الأعداء.. بغير استثناء ! أنـا لا أثـق فى أى رجـل،

ولا أطمئن إلى وعود أى رجل، أنا أعتقد أن الكذب هو رجل. والغـدر هـو رجل.. والخيانة هى رجل!

وأنا أنصح كل صديقاتى بالابتعاد عن الرجال. وأحذرهن مـن الـرجال وخطر الرجال وسفالة الرجال!

قالت لها الأميرة:

ـ وإذا جاءتك صديقة وقالت لك إن رجلا رأته فى هذه الحفلة وأعجبها.. وسألتك ماذا تفعل لتعبر له عن إعجابها فماذا تقولين لها؟

ونظرت الأميرة من طرف عينها نحو عادل فاهتز فى مقعـده.. وأسرعـت قسمت تقول وهى تنظر إلى عادل:

ـ أقول لها إنك ترتكبين أكبر حماقة فى حياتك، وسوف تنـدمين طـول حياتك على ارتكاب هذه الحماقة! وأن هذا الرجل يبدل النساء كما يبـدل جواربه. وأنه سفاح النساء!.. لذته أن يذبح المرأة.. ثم ينتقل إلى امـرأة أخرى ليذبحها!

وكاد عادل يقول لقسمت إن رأيها مثل وجهها! ولكنه تمالك نفسه. فقـد شعر أن قسمت تبدى رأيها فيه.. لا رأيها فى الرجال وأسرع يقول:

ـ إن قسمت مغرضة فى حكمها على الرجال. إذا جاءتها صديقة تعرض عليها أزمة مع حبيبها، نصرتها على الحبيب. أيدتها فى الخـلاف قبـل أن تسمع أسباب الخلاف! ووجدت الأسباب القوية والحيثيات المؤكدة للحـكم على أى عاشق بالأعدام!

ومن حسن حظ الرجال أن النساء لا يثقن فى نصائح قسمت.. وإلا لطلقت

كل الزوجات أزواجهن. وانفصلت كل المحبات عن أحبابهن، وأصبح الحب جريمة عقوبتها الاعدام!

قالت الأميرة: لو قالت قسمت هذا الرأى فيك يا عادل بك.. فماذا تفعل؟

قال عادل:

ــ كنت أضربها بالرصاص أو أرقص معها!

قالت قسمت معترضة:

ــ إننى أفضل ضرب الرصاص!

ثم عادت قسمت وقالت بجدية:

ــ ولكن النساء تعجبهن آرائى!

قال عادل:

ــ المرأة بطبيعتها تحب أن تكون دائما على صواب! تستريح عندما تجد امرأة أخرى تؤكد لها أنها على حق.. وليس شعورها أنها على حق دائما نتيجة غرورها. إنما هو جزء من أنوثتها. وهذا الشعور يجعلها أكثر جاذبية! ويحدث أحيانا أن تتأكد المرأة أنها مخطئة. ترى ذلك بعينيها. وتلمسه بيديها. فإذا جاء من يقول لها إنها على حق كذبت عينيها على الفور وصدقت أنها على خطأ!

قالت قسمت محتجة:

ــ الرجال هم الذين يتصورون أنهم على حق دائما! لقد حدث أمس فقط أن صدمت سيارتى فى شجرة.. وشهدت كل النساء الموجودات فى الشارع أن الحق معى.. وإذا بكل الرجال يشهدون ضدى!

قال عادل ضاحكا :

ـ أنا مستعد لأن أشهد أنك لست المسئولة عن الخطأ ! المسئولة هـــى الشجرة ! لا يمكن أن تكون امرأة صدمت شجرة بسيارتها مسئولة عن هذا الاصطدام ! لا يمكن ألا تكون رأت الشجرة. لا يمكن أن تكون قد سرحت، ومشت فوق الرصيف بدلا من أن تمشى فى الشارع !

قالت الأميرة وهى تبتسم وتنظر إلى عادل :

ـ فعلا ! قسمت على حق ! المسئول عن الاصطدام هو مصلحة التنظيم ! هى التى زرعت هذه الشجرة فى غير المكان المناسب لهـــا. مـــن الـــوجهة الفنية !

قالت قسمت فى حماس :

ـ مضبوط يا سمو الأميرة ! لو أنهم قدموا الشجرة مترا، أو أخروها مترا لما وقع الاصطدام !

قالت الأميرة ضاحكة :

ـ بل هو ذنب الشجرة نفسها التى مالت بجذعها إلى الأمـــام، بينمـــا المفروض علميا أن تميل الشجرة بجذعها إلى الوراء..

قالت قسمت :

ـ ليس غريبا أن تخرج هذه الشجرة قليلة الأدب على الوضع المعقول ! فالذى زرعها رجل، ومدير مصلحة التنظيم رجل. ووزير الأشغال الذى تتبعه مصلحة التنظيم رجل. وجندى البوليس الذى شهد ضدى رجـــل، وضـــابط البوليس الذى حرر المحضر ضدى رجل !

قال عادل ساخرا :

ـ إنها مؤامرة من الرجال ضد عدوة الرجال ! لقد قصد الرجال سيئو النية بزرع الشجرة فى هذا المكان بالذات، أن تسرع قسمت، وتصعد بسيارتها فوق الرصيف، وهى خالية الذهن من مكائد الرجال الذين يزرعون الأشجار فوق الرصيف، لو حكمنا النساء فأول ما تفعله المرأة أنها ستقطع الأشجار من الشوارع، وستخلع المصابيح من الأرصفة.. حتى لا تصطدم بها سيارات النساء!

قالت الأميرة :

ـ إن المرأة تقود سيارتها بحذر أكثر من الرجل. الثابت من الاحصاءات أن نسبة حوادث اصطدام السيارات التى يقودها الرجال عشرة أمثال اصطدام السيارات التى تقودها نساء ! هل سمعت أن سيارتين تقودهما سيدتان اصطدمتا فى طريق مصر الاسكندرية !

قال عادل :

ـ السبب هو أدب السائقين الرجال الذين يتركون المرأة السائقة تمر أولا ! ويتوقعون أن تفعل المرأة أى شىء إلا أن تحافظ على قواعد المرور! عندما أقود سيارتى خلف سيارة تقودها امرأة لا أعرف هل هى تريد أن تتجه إلى اليمين أو إلى اليسار! هل تريد أن تتقدم إلى الامام، أو تتقهقر إلى الخلف ! بل إن السائقة نفسها لا تعرف عادة ماذا تريد ! فهى تقرر أن تتجه إلى اليسار بعد أن تكون فعلا اتجهت إلى اليمين!

قالت الأميرة وهى تضحك :

ـ إن المرأة هكذا دائما ! مترددة ! تُحار فى أول الأمر. ثم تنطلق !..

ونظرت الأميرة نظرة طويلة إلى عادل ثم قالت له:

ـ أنا مثلا.. مترددة!.. لا أعرف هل أدوس على الفرملة.. أم أدوس على البنزين!

وكاد عادل يقول لها «دوسى على البنزين يا سمو الأميرة» ولكن قسمت أسرعت تقطع عليه الطريق وتقول:

ـ إذا رأيت أمامك رجلا فدوسى على الفرملة.. وإذا لم تلحقى أن تدوسى على الفرملة، فدوسى على البنزين وادهسيه، الرجال هم سبب كل مصيبة فى الدنيا! هذه الحرب التى نعيش فيها. رجل اسمه هتلر هو الذى أعلن هذه الحرب! هذه المذابح التى نسمع عنها كل يوم، الأفران التى يلقون فيها بالرجال والنساء أحياء! كل جرائم التاريخ ارتكبها رجال.

هل سمعت عن امرأة أعلنت حربا!

قال عادل:

ـ نعم.. أنت! أنت أعلنت الحرب على الرجال ولا تريدين لا صلحا ولا هدنة ولا سلاما!

ونظرت الأميرة إلى ساعتها فوجدتها الثالثة بعد منتصف الليل، وتهيأت للقيام وقالت لعادل:

ـ إن عادل بك يتجنى على المرأة.. وقسمت هانم تظلم الرجال.. لماذا لا نعقد صلحا بين الرجل والمرأة؟

وسكتت لحظة وقالت لقمست:

ـ سأتصل بك يا قسمت هانم غدا.. لنحدد موعدا نعقد فيه الهدنة!

قالت قسمت فى حزم:

ـ أنا أرفض الصلح! أنا أؤمن بالحرب حتى الموت!

وسألت الأميرة بعينيها عادل:

ـ ما رأيك.؟

قال عادل:

ـ أما أنا.. فمستعد للتسليم بلا قيد ولا شرط!

وابتسمت الأميرة ابتسامة فهم منها عادل أنها ستحدد له موعدا للصلح!

وأهم من ذلك أنه قرأ فى عينيها المليئتين بالحياة والرغبة أن الأميرة هى التى ستجلس على مائدة الصلح بدلا من قسمت شاهين!

ومدت الأميرة يدها البضة إلى عادل..

وتناول عادل يد الأميرة، ورفعها إلى فمه، وانحنى على يدها، وقبلها قبلة طويلة حارة!

وارتعشت يد الأميرة بين شفتيه رعشة لذيذة. وكأن يدها جسد امـرأة ينتفض بين ذراعى رجل!

وأحس عادل أن شفتيه وقعتا معاهدة الصلح مع كل نساء العالم!

لا.. إنها معاهدة حب.. مع صاحبة السمو الملكى.

الفصل الثالث

وضعت الأميرة آلة التليفون بجوارها..

ووضع عادل آلة التليفون إلى جواره..

كل منهما ينتظر فى لهفة رنين جرس التليفون.

هى فى قصرها بالجزيرة، وهو فى شقته فى عمارة إيموبليا.

ولكن جرس التليفون لم يدق!

كان عادل ينتظر أن يسمع صوت الأميرة. ولكن الأميرة لم تكن تنتظر صوت عادل.

كان عادل منذ الليلة التى قبل فيها يد الأميرة على ثقة من أنها سوف تحصل على رقم تليفونه وسوف تتصل به لتحدد له موعد توقيع الصلح كما وعدته عيناها!

سوف تجد بسهولة رقم تليفونه فى دفتر التليفونات. إن اسمه مكتوب مرتين تحت اسم عادل وتحت اسم علاء الدين!.. لو نسيت الأميرة اسم عادل.. فسوف تذكر اسم علاء الدين! ولو أنها نسيت الاسمين معا. فإنها تستطيع أن تتصل بقسمت شاهين وتعرف منها رقم تليفونه!

مضت أربع وعشرون ساعة كاملة على لقائه بالأميرة ولم تتصل به بعد. إنه لأول مرة فى حياته لم يذهب إلى مكتبه فى الشركة وجلس مرابطا بجوار آلة التليفون. لأول مرة ألغى جميع مواعيده الغرامية حتى لا يدق جرس التليفون ومعه إحدى صديقاته، فلا يستطيع أن يتحدث مع الأميرة بحرية كما يريد. وماذا يحدث لو أن الأميرة اتصلت به وقالت إنها قادمة للقائه على الفور وكانت لديه إحدى صديقاته. أى ورطة يمكن أن يقع فيها إذا تلكأت صديقته فى الخروج..

لهذا كان الأسلم أن يلغى جميع مواعيده الغرامية. ويدعى أن لديه أعمالا هندسية هامة، عاجلة، وأنه لزم البيت لاعدادها!

وكلما كان يدق جرس تليفونه، ويدق معه قلبه. ويرفع السماعة، يصاب بخيبة أمل عندما يجد صوت امرأة أخرى غير الأميرة. ويسارع إلى إنهاء المحادثة. خشية أن تطلبه الأميرة فى التليفون وتجده مشغولا!

وينتظر.. وينتظر.. ولا تتحدث الأميرة..

* * *

ويخطر ببال عادل أن يتصل بالآنسة قسمت شاهين فى ملجأ المتسولين! ألم تقل الأميرة أنها ستتصل بها فى اليوم التالى لتحدد موعدا لعقد الصلح؟

ويفكر فى اختلاق سبب لمحادثة قسمت! ويهرش رأسه بحثا عن سبب وجيه! ويخطر بباله أن يدعوها لتناول الشاى معه... ثم يعدل عن هذا الرأى! كفاه التضحية العظيمة التى قام بها عندما رقص معها فى سهرة الأميرة شويكار! لقد فعل شيئا فى حياته لله مرة واحدة.. ولا يريد أن يكرر ارتكاب هذه الحسنة مرة أخرى ويبتعد عن آلة التليفون مذعورا. وكأن آلة التليفون هى قسمت شاهين!

ثم يعود ويضع يده على آلة التليفون من جديد.. ويرفع السماعة. ويدير رقمها. ثم يغمض عينيه. وكأنه يتهيأ لكى يتجرع شربة زيت خروع.

ويسمع صوت قسمت.. ويلاحظ أن صوتها جميل فى سماعة التليفون. مساكين هؤلاء الذين يسمعون صوتها فى التليفون.. ويتصورون أنها ملكة جمال. فإذا التقوا بها عرفوا أنها «عفريتة» ملكة الجمال!

ويحيى عادل الآنسة قسمت برقة متناهية، ويقول أنه طلبها ليشكرها على الرقصة الجميلة التى سمحت له بها. وعلى الوقت الجميل الذى أمضاه معها!

وتضحك قسمت وتقول له: إن عمرك أطول من عمرى! لقد كنت أنوى أن أطلبك فى التليفون لأطمئن هل أنك ما زلت على قيد الحياة..

وتصور عادل أن قسمت تقصد أن زوج الأميرة سوف يطلق عليه الرصاص، ولكنها فاجأته بقولها:

ـ كنت أتصور أنك سوف تنتحر بعد أن عدت إلى بيتك!

قال عادل:

ـ لماذا انتحر؟!

قالت قسمت وهى تضحك:

ـ كان عليك صورة رجل يئس من الحياة. وأراد أن يلقى بنفسه فى النيل. وعندما لم يجد النيل رقص معى!

قال عادل:

ـ قد يدهشك أن تعلمى أن تليفونى لم يتوقف أمس عن الرنين! نساء

أعرفهن ونساء لا أعرفهن اتصلن بى ليطلبن منى موعدا !

قالت قسمت :

ـ طبعا !.. كل النساء اللاتى فى الحفلة قلن هذا رجل «نفسه حلوة». وما دام قد رقص مع قسمت شاهين فكل امرأة أخرى فى نظره ستكون ملكة جمال !

وتحدث عادل وقسمت فى عدة موضوعات.. ولكنها لم تذكر الأميرة بكلمة واحدة. ولم تذكر أنها اتصلت بها.. ولم يشأ عادل أن يفتح موضوع الأميرة. فقد تكون سموها لا تريد أن تعرف قسمت بعلاقتها به.

ووضع سماعة التليفون على الآلة فى حسرة، على الوقت الذى أضاعه بلا فائدة فى محادثة طويلة مع عدوة الرجال !

وخطر بباله أن تكون الأميرة طلبت رقم تليفونه فى أثناء انشغاله بالحديث الطويل مع قسمت، ولما يئست من أن تتصل به عدلت عن الحديث أو أجلته !

وأحس بالضيق، وكره قسمت شاهين، وكأنها هى التى طلبته فى التليفون وشغلت الخط!

ومضت الايام والأميرة لا تتصل به،

وعاد إلى مكتبه محزونا مكتئبا. واعتقد زملاؤه فى الشركة أنه كان مريضا فعلا فى الأيام الثلاثة التى بقى فيها ملازما بيته !

وكان عادل يتصل تليفونيا بقسمت كل يوم، ويختلق فى كل مرة سببا لهذا الحديث. مرة قال لها إنه قرر التبرع بعشرة جنيهات لملجأ المتسولين، ومرة قال لها إنه يبحث عن صديقته أميرة عبد العاطى أمينة صندوق الجمعية..

وفى المرة الثالثة سألها عن موعد الحفلة الساهرة التى ستقيمها جمعية رعاية المتسولين !

وفى كل مرة كان يتحمل عادل بصبر غريب محاضرة قسمت عن سفالة الرجال وجرائمهم وعن أن الرجال مسئولون عن عذاب البشرية منذ فجر التاريخ !

ولكن ما من مرة ذكرت قسمت اسم الأميرة. أو أشارت إلى المناقشة التى جرت بينهما أمامها، أو عن وعد الأميرة بعقد الصلح بينهما !

* * *

وأقامت جمعية الهلال الأحمر حفلتها السنوية فى فندق سميراميس.

وكانت مبرة محمد على برياسة الأميرة شويكار تنافس جمعية الهلال الأحمر برياسة حرم حسين سرى باشا رئيس الوزراء.

وكان الملك يشجع مبرة محمد على... وكانت الملكة فريدة تشجع جمعية الهلال الأحمر، لأن حرم سرى باشا هى خالتها !

وكان بين الجمعيتين ما بين القط والفأر ! وكل جمعية تحاول أن تكون حفلتها الساهرة هى حفلة الموسم !

وعرف عادل من صديقته فاطمة عبد الرسول عضو مجلس إدارة الهلال الأحمر أن الأميرة فضيلة ستحضر الحفلة..

وانتظر عادل موعد حفلة الهلال الأحمر بفارغ الصبر. سوف يحضر هذه الحفلة الساهرة. وسوف يعرف من الأميرة سر عدم اتصالها به. لابد أنها كانت مريضة. أو لابد أنها كانت مسافرة. إن عينيه لم تخدعاه مطلقا

عندما قرأ فى عين الأميرة أنها أعجبت به. وأنها سوف تحدد له موعدا. إن الأميرة لم تترك له فرصة لكيلا يفهم ماذا تريد أن تقول! وخبرته فى النساء تؤكد له أن ما فهمه هو ما قصدته الأميرة! إنها لم تترك الامر لذكائه. بل كررت وأكدت فى حديثها ما فهم منه أنها معجبة به!

لولا ذلك الاعجاب لما دعته للجلوس إلى مائدتها! ولما سألت قسمت ماذا تفعل لتعبر لرجل أعجبها فى الحفلة عن أنها معجبة به! ولما قالت له أنها ستعقد معاهدة صلح بين الرجال وبين النساء! ولما أفهمته أنه هو الذى سيمثل الرجال فى هذه المعاهدة وأنها وحدها هى التى ستمثل جميع النساء!

لقد وضعت الأميرة النقط فوق الحروف. وضعت خطا تحت الكلمات.. عبرت بصوتها وعينيها ويديها عما تقصد مفترضة أن عادل علاء الدين حمار لا يفهم بالاشارة من بعيد!

فما الذى حدث حتى امتنعت عن الاتصال به. وتركته معلقا فى الهواء؟!

وذهب عادل إلى الحفلة بعد أن تأنق أكثر مما تأنق فى أى يوم من أيام حياته. وحرص على أن يصحب معه ولاعتين للسجائر.. لا ولاعة واحدة.. حتى لا ينفد بنزين الولاعة كما حدث فى سهرة الأميرة شويكار!

وذهب إلى الحفلة فى بدايتها. ووقف يرقب وصول الأميرة، ورفض أن يرتبط بأى رقصة مع صديقاته الموجودات فى الحفلة! خشية أن تغضب الأميرة إذا رأته يرقص مع امرأة أخرى.

وأقبلت الأميرة فى أناقتها وفتنتها وجمالها. وكان زوجها يمشى خلفها. ووقف عادل يتأمل جمالها الصارخ، وفتنتها الطاغية، وجاذبيتها المثيرة.

ورأى رجالا وسيدات يتقدمون لتحيتها. وهى تسيل رقة وعذوبة. توزع بسماتها على الناس.. وتوزع مع البسمات جمالا يسحر. ودلالا يهز الجماد. وضحكة حلوة ترن فى آذان التعساء كأنها أغنية عذبة!

وما كادت تقع عين الأميرة على عادل حتى غاصت البسمة من شفتيها واختفت داخل فمها وحولت رأسها بعنف، وأسرعت فى خطواتها مبتعدة عنه! ومضت فى طريقها دون أن تحيى أحدا، أو تبتسم لأحد!

وتسمر مكانه! بهت. أحس أن الأميرة صفعته على وجهه بنظراتها! لقد رأى نظرة احتقار فى عينيها السوداوين الجميلتين. رأى هذا القوام الفارع الرشيق وهو يتحول إلى سوط يلهب ظهره! رأى لفتة هذا القوام الرشيق فى حركة معناها. أنا لا أعرفك ولا أريد أن أعرفك! رأى جسمها الغض الناعم، ونهديها المستديرين كفاكهة الرمان، وساقيها المخروطتين من العاج.. رأى كل ذلك ينتفض.. إن المرأة قادرة على أن تعبر عن الغضب بأجزاء مختلفة من جسدها.. كما تعبر عن الغضب بقسمات وجهها!

وأحس عادل بحيرة شديدة، استبدت به الهواجس، حطمت المفاجأة كيانه. ما هذه المرأة الغريبة؟ إنه يفاجأ بها تحييه ويفاجأ بها وهى تطرده. العينان اللتان تقولان له نعم. هما اللتان تقولان له «لا» بعد دقائق! تدعوه ليلحق بها. فإذا لحق بها تركته إلى رجل آخر! تواعده على اللقاء ثم تتركه بغير موعد! تأكله بعينيها.. ثم تبصقه بشفتيها!

هل هى تقصد بهذه المعاملة الغريبة أن تذله. أن تجعله يركع أمامها. هل سمعت أنه زئر نساء. فأرادت أن تثبت له أنها من نوع آخر من النساء، وأنها هى التى تلعب بالرجل، وليس الرجل هو الذى يلعب بها!

لقد عرف فى حياته أنواعا مختلفة من النساء! نساء كالنسيم ونساء

كالعواصف ! نساء كالحرير ونساء كالحديد ! نساء كالآلهة ونساء كالعبيد ! فاجرات يخلعن ملابسهن فيتحولن إلى قديسات !.. ونساء يغطين كل أجسادهن ويخفين كل محاسنهن ويخبئن كل أنوثتهن ومع ذلك يطل الفجر من وراء كل هذه الأغطية والحجب ويصرخ ويصيح ! ولكنه لم يعرف امرأة هى نسيم وعاصفة معا ! قادرة على أن تتحول أمام نفس الرجل من فرن كهربائى إلى فريجيدير خلال بضع ساعات ! تصالحه وتخاصمه فى وقت واحد. تدعوه وتطرده.. تقبله وتلعنه. لا يكاد يستقر فوق رأسها حتى يجد نفسه تحت قدميها !

وبدت له الأميرة لغزا. وتضاعفت رغبته فى أن يحل هذا اللغز الغريب.. وتبعها ووجدها تدخل مع زوجها إلى المقهى البلدى. وهو سرادق أقيم فى إحدى صالات فندق سميراميس على شكل مقهى بلدى. جلس فيه المطرب محمد العربى وقد ارتدى ملابس أولاد البلد يغنى على المزمار مواويل شعبية.. والمتفرجون يجلسون على شلت ويتناولون القهوة بنفس الطريقة التى يتناولونها بها فى مقهى الفيشاوى !

ودخل عادل إلى المقهى البلدى.. واتخذ لنفسه مكانا بعيدا عن الأميرة والتفتت الأميرة خلفها ورأت عادل، وأدارت رأسها بسرعة، وهمست فى أذن زوجها، فوقف ثم تبعته الأميرة وخرجت من المقهى البلدى مع أنه لم يمض سوى ثلاث دقائق على دخولها ! ولم تنتظر الأميرة حتى ينتهى محمد العربى من غناء مواله !

ولم يتحرك عادل من مكانه ومكث يسمع محمد العربى وهو يردد .

جوزة الهند. ومركب عليها غاب

يا مدندشة بالذهب، يا مجمعة الاحباب !

ومع أن الأميرة لم تشأ أن يتجمع الأحباب، إلا أن عادل قرر أن يرد على تجاهل الأميرة له بتجاهلها!

* * *

ولم يستمر صمود عادل طويلا، وبعد بضع دقائق. وجد نفسه يترك المطرب محمد العربى قبل أن ينهى مواله، ويخرج ليبحث عن الأميرة فى أرجاء السهرة!

ووجدها جالسة مع زوجها وبعض أصدقائها وصديقاتها حول مائدة على حلبة الرقص..

واتخذ عادل لنفسه مكانا فى مواجهة مقعد الأميرة.. وأخرج ولاعته من جيبه وأشعلها..

وإذا بالأميرة تقف. وخفق قلب عادل فرحا. لابد أنها ذاهبة إلى التواليت لتتحدث معه..

ولكنها اتجهت إلى مقعد آخر ظهره إلى حلبة الرقص وجلست فيه، بحيث لا ترى عادل وهو واقف فى مكانه!

ودار عادل حول حلبة الرقص، واختار مكانا فى مواجهة الأميرة فى مقعدها الجديد... ووقف ينظر إليها.. وهو يشعل ولاعته فى الهواء!

وتجاهلته الأميرة، ومضت تتحدث إلى جارها دون أن تنظر إلى ناحيته..

وأصر عادل على أن يضايق الأميرة كما ضايقته، واستدار مرة أخرى، ووقف فى مكان آخر، بحيث يجب أن تراه الأميرة إذا أرادت أن تتحدث إلى الجالس بجوارها.

وتركت الأميرة حديث الذى يجلس عن يمينها، والتفتت إلى الجالس عن يسارها. حتى تتفادى رؤية عادل.

وكرر عادل عملية الدوران حولها .. متجاهلا نظرات السخط والاحتقار التى امتلأت بها عيناها !.. وحارت الأميرة ماذا تفعل؟ كلما اتجهت إلى ناحية وجدت عادل أمامها. وظهر عليها الضيق وسعد عادل بضيقها. فلقد أراد أن ينكد عليها حياتها فى هذه السهرة كما نكدت عليه الحياة!

كلما أقبل عليها أدبرت عنه. كلما اقترب منها ابتعدت عنه.. كلما اتجه إليها نفرت منه ! ولم يشعر عادل بخجل من هذا الصد المتوالى، ولم يعد يبتئس من نظرات الأميرة الغاضبة. على العكس كلما رآها غاضبة وحانقة زاد حجم الابتسامة فوق شفتيه!

وانحنى زوج الأميرة عليها يطلب أن يرقص معها. فقالت إنها متعبة. واعتذرت عن أن ترقص مع أى رجل طلب منها أن يراقصها فى تلك الليلة.. كأنها كانت تتفادى أن ترقص فى الحلبة حتى لا تلتقى عيناها بعينى عادل علاء الدين!

وفجأة انتصبت الأميرة واقفة. وتركت صالة الرقص. واتجهت إلى ناحية دورة المياه.. وأسرع عادل يقتفى أثرها..

ورأت دورة مياه السيدات فى الفندق مليئة بالسيدات فلم تدخلها، وإنما مضت فى طريقها إلى مصعد الفندق ودخلت المصعد وقالت لحارسه:

- أصعد إلى الطابق الثانى!

ودهش عادل لدخولها المصعد وفكر فى أن يتقدم لدخول المصعد، ولكن حارس المصعد أغلق الباب قبل أن يصعد إليه.

وقرر عادل أن يصعد على درجات السلم خلف الأميرة ليعرف إلى أين هى ذاهبة.. ووصل وهو يلهث إلى الطابق الثانى.. ووجد الأميرة تتمشى فى دهليز طويل ـ بين غرف الفندق ـ مفروش بالأبسطة الحمراء..

ثم رآها تتوقف أمام باب مكتوب عليه.. دورة المياه. وتستدير إليه. وقد تحولت إلى تمثال من الشمع. وانبعثت من عينيها الجميلتين شرارات الغضب، وانتفض جسمها كأنما انتابتها حمى مفاجئة!

وقالت لعادل فى صوت خانق:

ـ اسمع! إما أن تخرج من هذه الحفلة.. أو سأخرج أنا!

ووقف عادل يحدق فى الأميرة ثم علت شفتيه ابتسامة استخفاف وقال:

ـ أنا لن أخرج من الحفلة.. اخرجى أنت!

وانتفضت الأميرة غاضبة من لهجة عادل! من استهانته بها. من أنه يخاطبها بلهجة «أنت» لا «سموك»، ولا «صاحبة السمو الملكى»!

وكأن هذه الطريقة صدمتها وانزلتها من عرش الامارة إلى الأرض التى تقف فوقها كل امرأة!

وتمتمت الأميرة قائلة فى صوت حزين:

ـ ألم يكفك ما فعلته بى؟

قال عادل:

ـ ماذا فعلت بك؟

قالت الأميرة:

ـ التقرير الذى كتبته ضدى للملك!

قال عادل مذعورا:

ـ أنا أكتب تقريرا ضدك إلى الملك! أنا لا أعرف الملك. وليست صناعتى كتابة التقارير!

قالت الأميرة:

ـ ألم تقل لك الآنسة قسمت شاهين ماذا حدث؟!

قال عادل فى دهشة:

ـ إنها لم تقل لى كلمة واحدة.. وأنا أتصل بها كل يوم ولم تذكر اسمك مرة واحدة!

قالت الأميرة وهى تتركه عائدة إلى المصعد:

ـ لقد قلت لقسمت رأيى فيك.. فاسألها عن رأيى.. وهى ستقول لك هذا الرأى.

ومضت وفى عينيها نظرة شزراء حانقة..

وأمسكها عادل من ذراعها وقال لها:

ـ قفى هنا!.. كونى شجاعة وقولى لى رأيك فى مواجهتى!

وتخلصت الأميرة من يده وقالت له دون أن تنظر فى عينيه:

ـ لقد قلت إنك أسفل رجل قابلته فى حياتى!

ورفع عادل يده وهوى بكفه على وجه الأميرة. ثم مشى عائدا إلى الطابق الأول دون أن يلتفت وراءه..

وترنحت الأميرة من الصفعة المباغتة.. أرادت أن تصرخ ولكن الصرخة عجزت عن أن تنطلق من فمها. كأن الدهشة والمفاجأة كانتا يدين أطبقتا على فمها. واندفعت داخل دورة المياه، وأغلقت عليها الباب وراحت تبكى وتنتحب !

* * *

إنها المرة الأولى التى يصفعها فيها رجل على وجهها ! إن والدها لم يصفعها مرة واحدة على وجهها. إنها كثيرا ما تشاجرت مع ابن عمها الملك فاروق ولم يجرؤ مرة واحدة على أن يصفعها ! إن زوجها يسجد أمامها. كيف يجرؤ هذا الرجل على أن يصفعها. ويصفعها فى مكان عام. ماذا كان يحدث لو أن أحد الخدم أو السفرجية أو خدم الفندق مر فى تلك اللحظة ورأى رجلا يصفع ابنة عم الملك على وجهها. سيتصورون أن هذا الرجل هو عشيقها ! لن يصدقوا أنها لم تتحدث معه سوى مرة واحدة، لم تجلس معه سوى مرة واحدة. لم تعطه شيئا سوى يدها ليقبلها !

إنها لا يمكن أن تسكت على هذه الاهانة. سوف تذهب فورا إلى حرم حسين سرى باشا رئيسة جمعية الهلال الأحمر وتخبرها بما حدث. يجب أن يطرد هذا الرجل المجرم من الحفلة فورا. بل يجب أن يقبض عليه ويوضع فى السجن. ستكون فضيحة.. ستشاع أكاذيب عديدة على علاقتها بهذا الشاب. كل هذا لن يهمها كل ما يهمها الآن أن تؤدب هذا الكلب الوقح.

إنها تكرهه وتمقته. إنها تزدريه وتحتقره. إنها لن تهدأ حتى ترى العقاب الصارم ينزل به..

وتصورت الأميرة أمامها عادل علاء الدين وجنود البوليس ينهالون عليه بالضرب والصفع والركل. ويجرونه خلفهم خارج الفندق..

ورأت فى هذه الصورة منديلا يجفف دموعها.

وشعرت بأن خدها يؤلمها من أثر الصفعة. واتجهت إلى المرآة التى فى الحمام وتطلعت فيها. فوجدت إحمرارا فوق خدها من أثر أصابعه القوية.. وأسرعت تفتح حقيبتها، وتخرج علبة البودرة، وعلبة الأحمر، وبدأت تغطى الصفعة، ولكن خيل لها أن الاحمرار الذى تركته الصفعة على خدها يتحدى كل مساحيقها، ويصر أن يطل من خلالها..

وأخرجت الريميل من حقيبتها. وأخفت دموعها فى خطوط جديدة وضعتها فوق رموشها..

وعادت تضع يدها على مكان الصفعة وكأنها تحاول أن تخفيه من عينيها!

ثم خرجت من دورة المياه. وقد اطمأنت على أن زينتها عادت كما كانت قبل هذه الصفعة. وقبل أن تمشى فى الدهليز الطويل شعرت بالرعب. خشيت أن يكون عادل علاء الدين لا يزال واقفا فى أحد الأركان ليصفعها مرة أخرى.. وترددت ثم مشت فى الدهليز إلى أن وصلت إلى مكان المصعد.. وضغطت على زر الجرس. وأقبل المصعد. ودخلت فيه. ولاحظت أن عامل المصعد لم يحدق فى وجهها، ولم ير أثر الصفعة فتنفست الصعداء.

وقررت أن تخفى عن حرم حسين سرى باشا أن عادل صفعها. لا يليق بمركزها السامى وبمكانتها كأميرة أن تعترف بأن أحد رعاياها صفعها على وجهها. ستكتفى بأن تقول إن هذا الشاب حاول أن يمسك يدها! هذه جريمة

عيب فى الذات الملكية. اعتداء على أميرة من البيت المالك. عقوبتها السجن ثلاث سنوات! لن تعطى هذا الشاب الوقح شرف أنه صفع أميرة!.. وأى أميرة! ابنة عم الملك.. أجمل أميرة فى مصر..

سوف يعرف الملك بالقصة. سوف يغضب على هذا الشاب الذى حاول أن يعتدى على ابنة عم الملك فى مكان عام.. سيناله الغضب السامى! لن ينعم عليه بأى رتبة أو نيشان' سيوضع فى القائمة السوداء. سيحرم من أن يعين وزيرا أو عضوا فى مجلس الشيوخ! أو فى أى وظيفة فى الدولة بمرسوم'

وبهذا تنتقم منه انتقاما هائلا عقابا على الصفعة.. وعقابا على التقرير الذى قدمه ضدها إلى الملك.. هذا التقرير الذى ضايقها أكثر من أى تقرير قدم ضدها إلى الملك. ما أكثر التقارير التى قدمت ضدها. وضد تصرفاتها ولكن الذى آلمها أن هذا التقرير من رجل أعجبت به. وتمنته. ولهذا أحست بألم الطعنة من يده، أضعاف ما أحسته من طعنات أشخاص لم تعرفهم ولم تعجب بهم!

ومشت تبحث عن حرم حسين سرى باشا فى كل مكان لتخبرها بالحادث الذى وقع لها.. ووجدتها واقفة أمام البار..

وأسرعت إليها وقالت لها:

ـ إننى أبحث عنك يا ناهد فى كل مكان.. لأقول لك..

ورأت عادل أمامها يحدق فيها وعلى شفتيه ابتسامة.. وتوقفت الأميرة عن الكلام. وأدارت وجهها بسرعة..

وسألتها ناهد هانم سرى باهتمام:

ـ ماذا كنت تريدين أن تقولى لى يا سمو الأميرة؟

قالت الاميرة

ـ كنت أريد أن أقول لك . أقول لك.. إن هذه أجمل حفلة حضرتها هذا العام!

وأحنت ناهد هانم رأسها وقالت:

ـ هذا شرف عظيم يا سمو الاميرة، ماذا أعجبك فى الحفلة؟

قالت الأميرة:

ـ إن ما ذقته فى هذه الحفلة لم أذقه فى حفلة أخرى! سيبقى طعمه فى فمي دائما!

قالت ناهد هانم:

ـ قولى لى يا سمو الاميرة على الصنف الذى أعجبك من الطعام لنقدمه فى كل حفلة؟!

قالت الأميرة وهى تضحك:

ـ لن أقوله لك... حتى يبقى لى وحدى!

ورفعت رأسها ناحية عادل علاء الدين.. فوجدته لا يزال واقفا يبتسم ويشعل ولاعته فى الهواء..

وأحست بغيظ شديد. لا يبدو عليه أى علامة من علامات الندم على الجريمة النكراء التى ارتكبها. لا يظهر عليه أنه خجل من أنه فى لحظة جنون رفع يده وصفع امرأة. لا يزال يبتسم. لا يظهر عليه الخوف والاضطراب خشية أن تشكوه ويطرد من الحفلة شر طردة. هذا المغرور يتصور أنه سيفلت من العقاب إنه يحمل الولاعة بنفس الأصابع التى صفعتها على

خدها. كأنه يتباهى بها. كأنه يعرض عليها الكف التى لطمتها! ليتها صارحت ناهد هانم سرى رئيسة جمعية الهلال الأحمر بجريمته الشنيعة.. ما الذى جعلها ترحمه فى آخر لحظة، وتثنى على الطعام الذى ذاقته بدلا من أن تشكو من «القلم» الذى أكلته!.. هذا القلم الذى لا تزال تحس به فوق خدها. وكأن خدها يحترق من الألم!

إنها لم تخف على ناهد هانم نبأ الاعتداء عليها رحمة بالجانى. بل إنها فكرت فى الفضيحة التى يمكن أن تحدث، ما سوف تكتبه الصحف الطويلة اللسان! إنها لن تجرؤ على ذكر اسمها صراحة، ولكنها بوسائلها الخبيثة ستنشر النبأ بغير أسماء وتكتفى بأن تكتب خبرا بريئا بأن الأميرة كانت فى حفلة جمعية الهلال الأحمر. وتكتب تحته خبرا يقول إن شابا صفع سيدة رفيعة المقام، مشهورة بالجمال، فى حفلة الهلال الأحمر. وهكذا يعرف كل قارئ من قراء الجريدة أن شابا صفع الأميرة، بغير أن تتعرض الجريدة للمسئولية القانونية! ويكفى أن تضع الجريدة علامتى تعجب واستفهام فى نهاية خبر الصفعة ليؤلف خيال القارئ قصة محبوكة عن الغرام بين الأميرة والشاب المجهول.

لقد قصدت من إخفاء نبأ الصفعة أن تحرم عادل علاء الدين من بطولة أنه صفع أجمل أميرة فى مصر على وجهها. إنها تعرف عقلية نساء المجتمع. لن يعرفن نبأ هذه الصفعة حتى يتكاثرن. على عادل، ويتزاحمن عليه، وتتمنى كل واحدة منهن أن تخرج مع عادل علاء الدين، ويصفعها على وجهها كما صفع صاحبة السمو الملكى الأميرة الفاتنة!.. لابد أنه ارتكب هذه الجريمة طلبا للشهرة، فسوف تحرمه من الشهرة التى كان يسعى إليها!.. لن تقول شيئا!

واكتفت الأميرة بأن القت على عادل نظرة احتقار ومضت فى طريقها!

* * *

واتجهت الأميرة إلى حلبة الرقص.. وجلست إلى المائدة مع زوجها وأصدقائها..

ثم وقفت مرة أخرى مع زوجها، واتجها إلى حلبة الرقص.. ووقف عادل يتابعهما..

ولاحظ عادل أن زوج الأميرة يتطلع إلى خدها الأحمر ويسألها ما به!

وتتحسس الأميرة خدها بيدها.. وتقول شيئا.

ويبدو على زوجها الحزن والأسى.. وكأنه سمع خبرا فاجعا..

وعرف عادل على الفور أن الأميرة أخبرت زوجها بأنه صفعها على وجهها!

وحار عادل ماذا يفعل. هل ينسحب من الحفلة ليتفادى الاصطدام مع زوج الأميرة؟ أم يبقى فى مكانه؟.. وليكن ما يكون.

وشعر برغبة فى أن يتحدى الأميرة ويتحدى زوجها فى الوقت نفسه.. وقرر البقاء.. إنه ليس جبانا ليفر من معركة. إن من عيوبه أنه لا يؤمن بأن الجبن سيد الأخلاق! إنه يحب الصراع.. ويفضل الصراع مع الكبار!

ولكن ماذا سيقول لزوج الأميرة إذا سأله لماذا صفعها على وجهها؟!

إنه يعرف جيدا أنه لم يصفعها على وجهها لأنها قالت له إنه أسفل رجل قابلته فى حياتها. ولا لأنها قالت له إنه قدم تقريرا ضدها إلى الملك.. ولكن

لأنها لم تتصل به فى التليفون. لأنه اعتقد أن الشاب الأشقر المجهول الذى أشعل سيجارتها فى حفلة الأميرة شويكار أخذها منه. لأنها تركته هذه الأيام الطويلة ينتظر بغير جدوى وعندما التقت به تجاهلته!

ورأى الأميرة وهى ترقص مع زوجها تشير إليه بأصبعها..

وفهم على الفور أنها تقول لزوجها إن هذا الشاب هو الذى صفعها على وجهها!

وتوقفت الأميرة عن الرقص قبل أن تنتهى الأغنية الراقصة. واتجهت إلى مائدتها دون أن تنظر إلى ناحية عادل.. ومشى زوجها خلفها إلى أن أزاح لها المقعد وجلست فيه، ثم اتجه إلى ناحية عادل..

وعرف عادل أن زوج الأميرة قد جاء إليه ليصفعه على وجهه ردا على الصفعة التى لطم بها الأميرة..

وبطبيعة الحال قد يدعوه إلى المبارزة.. ويطلب إليه اختيار السلاح الذى يريده..

وأسرع عادل يضع الولاعة فى جيبه.. وألقى السيجارة التى فى فمه.. واستعد فى وقفته، كأنه ملاكم مستعد للدخول فى حلبة الملاكمة..

وشعر بشعور غريب، شعور الاستهانة بزوج الأميرة، وبالأميرة، وبالأسرة المالكة كلها!

إنه لا يخافهم جميعا. لقد صفع الأميرة باعتبارها امرأة لا أميرة! صفعها لأنه يحبها.. ولكنه سيصفع زوج الأميرة كأنه يصفع الأسرة المالكة كلها! الأسرة التى يكرهها ويحتقرها!

لن يهمه ما يحدث له. لن يهمه إذا وضعوه فى السجن. إنه سوف يرد اعتداء زوج الأميرة مهما حدث!

وكلما اقترب زوج الأميرة من المكان الذى يقف فيه، غلى الدم فى عروقه، خيل له أن الذى يتقدم نحوه ليس زوج الأميرة وحده. بل الملك معه والأمراء معه والنبلاء معه والحاشية الملكية كلها معه. والحرس الملكى. الدولة بكل سلطانها.

ولم يشعر بأنه يرهب هؤلاء جميعا.. سوف يصفعهم جميعا على وجوههم! لن يسكت! سوف يرد أى إهانة توجه إليه فى هذا المكان العام...

ورأى ابتسامة عريضة تملأ وجه زوج الأميرة. ولم يفهم معنى هذه الابتسامة! هل هى ابتسامة رجل واثق من قوته؟ ويعتقد أنه سيلقيه على الأرض من الصفعة الأولى؟

أم هى ابتسامة رجل غادر، يخفى خلف الابتسامة ضربة قاضية؟!

وكم كانت دهشته عندما وجد زوج الأميرة يمد يده إليه، ويصافحه فى حرارة، ويقول له فى لهجة ودية:

ـ أهلا دكتور عادل بك، إن سمو الأميرة تدعوك لتشاركنا فى مائدتنا!

الفصل الرابع

صافحته الأميرة ببرود. ودعاه زوجها ليجلس بجوارها.

وما كاد يتخذ مجلسه بجوار الأميرة، حتى أشار زوجها إلى الاحمرار فوق خدها وقال:

ـ هل ترى هذا الاحمرار يا دكتور؟

وبدت الأميرة كالتمثال. لم تقل كلمة. لم يعبر وجهها عن شيء!

واصفر وجه عادل، حتى غدا كالشمع. رأى العلامة الحمراء التى تركها كفه الغليظ على خد الاميرة الناعم. ولم يخطر بباله أبدا أن الصفعة كانت بهذا العنف، وبهذه القسوة. لم يتصور أنه من الممكن ان تترك هذا الأثر الواضح على بشرتها الناصعة، صحيح أنه صفعها وهو مغيظ حانق، ولم يجد كلمة يقولها لها إلا هذه الصفعة. ولكنها بدت أعنف وأقسى من كل كلمات السباب والاهانة التى أراد أن يوجهها إليها.

وقربت الأميرة خدها من عينى عادل ليرى أكثر مما رأى، وأغمض عادل عينيه وكأن الصفعة ألمته هو، وهوت على خده هو، وأحس بخجل لم يشعر به فى حياته. وتمنى لو قالت الاميرة شيئا، لو قامت وصفعته، لو قام زوجها وهوى عليه ضربا وركلا فإنه عدل عن أن يقاوم الزوج. أحس فعلا بأنه يستحق كل ما يمكن أن ينزل به من عقاب!

وقالت الأميرة فى هدوء مريب:

ـ هل تستطيع يا دكتور أن تزيل هذا الأثر؟!

وتطلع عادل إلى عينيها ليعرف ماذا تعنى بهذا السؤال؟ مــاذا تعنــى باستدعائه إلى مائدتها! ماذا تعنى بجعله يرى الاحمــرار الــذى تــركته الصفعة على خدها الجميل، ماذا يعرف زوجها عن هذا الاحمرار؟ ولــكن عينيها لم تقولا شيئا!

وسارع زوجها يقول:

ـ إن خد الأميرة لا يزال يؤلمها! قالت الأميرة فى صوت حزين، وكلمــاتها تسقط كالدموع:

ـ ليس خدى وحده الذى يؤلمنى، أشياء كثيرة تؤلمنى!

وانكمش عادل فى مقعده. تضاءل، أحس بأن الأميرة لا تــرد الصــفعة بمثلها وإنما تنهال عليه بالسياط، سياط غير منظورة، ولكنه يسمع صــوتها، ويشعر بالامها!

وقال زوج الأميرة:

ـ تستطيع ان تفعل الآن شيئا يا دكتور لتخفف من عذاب الأميرة؟

وبدت الحيرة على وجه عادل، وتطلع إلى الأميرة يستنجد بهــا، ولــكنها تركته فى حيرته ولم تنطق بكلمة.

ومضى زوج الأميرة يقول:

ـ لقد اصطدمت الأميرة بباب المصعد، وأصيب خدها. وقد قالت لى إنك تستطيع أن تصف علاجا سريعا لايقاف الألم يا دكتور!

وتنفس عادل الصعداء، وألقت عيناه نظرة شكر للأميرة لأنها تسترت على جريمته، ثم قال :

ــ ولكننى لست دكتورا فى الطب ! إننى دكتور فى الهندسة الكهربائية.

وبدا الارتباك على وجه زوج الأميرة وأسرعت الأميرة تقول :

ــ المصاعد تتبع الهندسة الكهربائية .. لابد أنك تعرف ما هو علاج من يصطدم رأسه بباب المصعد ؟

قال عادل :

ــ فعلا ! إن هذا من اختصاصى .. إن عندى دواء سريعا، أن أدعوك للرقص !

قال زوج الأميرة فى دهشة :

ــ ما علاقة الرقص.. باحمرار الخد !

قال عادل وهو يتصنع الجد :

ــ ما حدث للأميرة هو صدمة. وعلاج الصدمة هو الحركة. وبذلك يجرى الدم فى كل أجزاء الجسم ويزول الاحمرار. إن هذه هى نظرة العلامة سيمنس مخترع المصاعد الكهربائية المعروفة باسمه !

قالت الأميرة وهى تقف :

ــ إذن سارقص معك يا دكتور، وأنت مسئول عن إزالة هذا الألم من خدى !

وانحنى عادل وهو يقول لها :

ـ إن هذا اختصاصى يا صاحبة السمو!

* * *

ومشى خلفها إلى حلبة الرقص، وأحاط خصرها بذراعه، ومضيا يرقصان على أنغام التانجو الهادئة.

وبحث عن كلمة يبدأ بها الحديث فضاعت الكلمات من شفتيه. وفوجئ بها تقول له : أنا آسفة ! وذعر من كلمة « آسفة ».

انتفض وكأنها هوت عليه بسوط، وقال لها متوسلا :

ـ كفاك تعذيبا لى !

قالت وهى تبتسم :

ـ هل يعذبك أن أعتذر لك؟

قال : طبعا أتعذب، لأننى أنا المجرم وأنت المجنى عليك ! إنها أول مرة يقول القتيل للقاتل : أنا آسف !

قالت : ولكننى أطلقت عليك الرصاصة الأولى. أنا التى بدأت بالعدوان، وعلى أن اتحمل نتيجة ما فعلت.. وعلى كل فإننى أشكرك لأنك صفعتنى ! لولا هذه الصفعة لما صدقت أنك برىء ! لو كنت مكثت عاما كاملا تحاول أن تقنعنى ليل نهار بإنك لم تكتب التقرير عنى إلى الملك لما صدقتك ! ولكن عندما صفعتنى تأكدت أنك برىء ! الذين يكتبون التقارير هم أشخاص جبناء. صناعتهم ان يطعنوا الناس فى ظهورهم بالخناجر .. وهؤلاء لا يصفعون الذين يتهمونهم على وجوههم فى النور، لا يعرفون إلا الضرب دائما فى الظلام !

قال : لست أفهم حكاية هذا التقرير المزعوم الذى تتحدثين عنه !

قالت : إنها قصة طويلة ! لا داعى لأن تعرفها مادامت قد ثبتت براءتك !

قال : إن من حق المتهم الذى ظهرت براءته أن يعرف التهمة التى سندت إليه !

قالت : إنها مسألة لا تهمك !

قال : إن كل شىء عنك يهمنى !

قالت : باسمة منذ أن صفعتنى على وجهى !

قال : لا.. قبل أن اصفعك ! لولا إننى مهتم بك لما صفعتك ! إننا نضرب أولادنا ونحن نعبدهم !

قالت : هل اعتبرتنى ابنتك ؟

قال : اعتبرتك كل شىء فى امرأة واحدة !

قالت : إنك أول رجل صفعنى على وجهى !

قال : وسأكون اخر رجل !

قالت : هذه مسئوليتك وليست مسئوليتى ! ربما تعودنى على الصفعات فأدمن عليها !

قال : لماذا تهربين من حكاية التقرير ؟

قالت : أخشى أن تصفعنى مرة ثانية !

قال : أعدك ألا أصفعك !

قالت : هل تعلم أن الصفعة لا تزال تؤلمنى على الـرغم مـن تنــاولى دواءك.. لقد مضى علينا ونحن نرقص عدة دقائق ولا يزال خدى يؤلمنى !

قال : عندى دواء سريع يشفيك على الفور، ولكنى لا أستطيع أن أعـطيك إياه هنا.. يجب أن أنقلك إلى مستشفاى !

قالت هامسة : أين مستشفاك؟

قال : عمارة الايموبيليا الدور العاشر شقة ١١٠

قالت : وما مدة العلاج ؟

قال : العمر كله !

قالت وهى تضع يدها على خدها :

ـ كأنك تعتقد أن الاصابة مزمنة !

قال : العلاج... هو المزمن !

قالت : وكم تطلب أجرا للعلاج ؟

قال : شىء بسيط جدا.. قلبك !

قالت : يا لك من طبيب جشع ! هل تعامل كل مرضاك بهذه الطريقة ؟

قال : إنك أول امرأة صفعتها فى حياتى !

قالت : وسأكون أول امرأة تذبحها ! لو أعطيتك قلبى فماذا يبقى لى؟

قال : تبقى الأميرة.. وهذا مالا أريده ! العيب الوحيد فيك أنك صـاحبة السمو الملكى، ولولا هذا العيب لكنت أجمل امرأة فى العالم !

قالت : ولكنك بعد أن صفعتنى على وجهى سقط التاج من فوق رأسى!

قال: ولهذا فأنت الآن أجمل امرأة فى العالم.

قالت : قبل العلاج أم بعد العلاج؟

قال: أثناء العلاج؟

قالت : اخشى أن يكون مستشفاك مستشفى عاما!

قال: سأحوله من أجلك إلى مستشفى خاص.

* * *

دخلت الأميرة عمارة الايموبيليا.

وضعت على عينيها نظارة سوداء كبيرة أخفت ملامحها.

أحاطت رأسها بإيشارب خبأت فيه شعرها الأسود.

كانت أقرب إلى عاملة فى محل تجارى منها إلى صاحبة السمو الملكى، كانت تضع فى قدميها صندلا أحمر جعلها أقصر قامة مما هى فى الحقيقة، المعطف الجلدى الذى كانت ترتديه أخفى عنقها الرشيق، ونهديها البارزين، وجسمها الذى يشبه جسم فينوس إلهة الجمال!

لا يستطيع من يعرف الأميرة معرفة وثيقة! أن يتصور أن فى داخل هذا المعطف المتواضع توجد أجمل امرأة فى مصر. ولا يستطيع الخبراء بأسرار الجمال أن يكشفوا أن فى داخل هذا الايشارب الرمادى تختفى الأميرة الفاتنة!

وفتح عادل باب شقته.. ودخل إلى الشقة عبق عطر أخاذ، قبل أن تدخل الأميرة..

وقال لها عادل:

ــ ما فائدة كل هذا التنكر.. إن هذا العطر يفضحك! إن عبقــه يعلن أن الأميرة قادمة ورائى!

قالت وقد اصطبغ وجهها بحمرة الخجل:

ــ إننى وضعت العطر.. وأنا داخل المصعد!

وتقدمها إلى غرفة الصالون، وفتح لها بابها، وتــطلعت إلــى جــدران الصالون الرمادية، وإلى الســجادة الرمادية، وإلــى المقــاعد الــرمادية، وجلست على أحد المقاعد وقالت:

ــ يبدو أنك تحب لون التراب!

قال عادل:

ــ من التراب جئنا.. وإلى التراب نعود!

قالت:

ــ يبدو أنك رجل واقعى.. تريد دائما أن تشعر أنك واقف على الأرض! أما أنا فأحب اللون الأزرق، لون السماء، لأننى دائما اشــعر بــرغبة فى أن أحلق، أن أطير فى الفضاء!

قال عادل:

ــ اجتماع السماء والأرض هو الذى يصنع الحياة!

ضحكت وقالت:

ــ ولكن عندما تنطبق السماء على الأرض.. فهذا يوم القيامة!

قال عادل :

- إننى أشعر أن هذا يوم البعث بالنسبة لى ! اليوم الذى صعدت فيـــه إلى السماء !

قالت باسمة :

ـ هل معك مظلة هبوط؟ الذين يســقطون من السماء بغير باراشوت تدك رءوسهم !

قال :

ـ إن معى جناحين !

وغمزت بعينها وقالت :

ـ إننى أخطأت فى عنوان الشقة، ودخلت شقة ملاك !

قال :

ـ لا تنسى أن إبليس كان أحد الملائكة !

قالت :

ـ هل تقصد أن تخيفنى منك؟

قال : بصراحة... أنا الذى أشعر بالخوف !

قالت : هذه أول مرة يخاف فيها الطبيب من المريض !

قال وهو يضىء نور الأباجورة :

ـ كيف حال خدك الآن !

قالت وهى تخلع الايشارب :

ـ لا يزال يؤلمنى ! وأظن أن هذا يسعدك جدا .. فكلما ألمنى فكرت فيك !

وحملق عادل فى بشرة وجهها، فلاحظ أنها طلت خدها ببودرة حمراء ليزيده احمرارا !

ـ إنك تغشين.. إن هذا الأحمر ليس من أصابعى.. وإنما هو من أصابعك !

وزاد احمرار وجهها، فقد شعرت أنه كشف لعبتها وقالت :

ـ الاحمرار من صنعى.. ولكن الألم من صنعك !

قال وهو يحيط كتفيها بذراعه، ويسند خده إلى خدها :

ـ أظن أنه بعد أن تعانق خدى مع خدك.. راح الألم !

قالت :

ـ قليلا !

وقبلها فوق خدها وهو يقول :

ـ ما دام الدواء الأول لم ينفع.. فلنجرب الدواء الثانى !

وأبعدت خدها وهى تقول :

ـ لم أعد أشعر بألم.. لقد شفيت تماما !

وتظاهرت بأنها تتهيأ للوقوف وقالت :

ـ أظن انه يجب أن أذهب الآن بعد ان تم شفائى !

وأمسكها من يدها وقال :

ـ هذا ليس ترياقا.. إنه دواء فقط.. يجب أن تداومى عليه كل يوم !

قالت متظاهرة بالجزع .

ـ كل يوم هذا مستحيل !

قال :

ـ إننى أحب المستحيل !

قالت :

ـ لو علم الملك بقصتى معك لقطع رقبتك !

قال : لا يهمنى أن يقطع رقبتى ! كل ما يهمنى ان تكونى مستعدة أن تحبى رجلا برأس مقطوع !

قالت وهى تتأمل رأسه :

ـ خسارة هذا الرأس ! إنه رأس جميل ! ولكنى سأحاول أن أتعود على رؤيتك بلا راس !

قال :

ـ إننا عندما نحب نفقد رءوسنا ! وألذ لحظات الحب هى اللحظات التى يفقد فيها العشاق رءوسهم !

قالت :

ـ ولهذا جئت إليك بعد أن تركت رأسى فى قصرى ! لو كان رأسى فوق كتفى لما جئت إلى شقتك !

قال :

ـ إنك رائعة بلا راس!

* * *

قالت وهي تتنهد :

ـ إن أسعد لحظات حياتي هي اللحظات التي أفقد فيها رأسي؟.. هذه ثالث مرة في حياتي افقد فيها رأسي.. كانت المرة الأولى وعمري ١٦ سنة! واختار الملك شابا من الياوران ليدربني على ركوب الخيل، وكان اسمه الصاغ نجم الدين محمود وكانت يده هي أول يد شاب تمس جسدي، وهو يسندني على رأس الحصان. وأحسست في تلك اللحظة بأنها ليست يدا التي تلمسني، وإنما هو تيار من الكهرباء! وأصبحت أجد لذة بأن أتظاهر بالسقوط من فوق الحصان لأقع بين ذراعيه. واحببته، وأحبني. ومن أجله أحببت كل حصان في العالم! اصبحت مجنونة بالفروسية أريد ان أركب حصانا طول النهار والليل، لكي أراه، لكي يساعدني على امتطاء الحصان، لكي اراه فوق حصانه، لكي نعدو معا ونتسابق ونختفي عن العيون والأنظار.

ولم يكن نجم الدين طويل القامة، ولكنه فوق الحصان كان يبدو عملاقا. كان أطول رجل رأيته في حياتي، كان يبدو جميلا وأصبح فارس أحلامي. وأصبحت أتمنى أن يجيء اليوم الذي يخطفني فيه فوق حصان أبيض.

وذات مرة كنا في حدائق قصر القبة، كان يركب حصانه الأحمر، وكنت أركب حصاني الأبيض. وكنت أتحدث معه حديثا عاديا. وفجأة رأيت

حصانى يقرب رأسه من حصان نجم الدين، ويضع فمه على فم الحصان!

وضحكت أنا ونجم الدين فى لحظة واحدة، شعرت أن الحصانين فعلا ما نريد ان نفعله، ولا نجرؤ عليه.. وضحكت أكثر لأن حصانى هو الذى تقدم نحو حصان نجم الدين وقبله! واعتقدت أن نجم الدين ينتظر أن أتقدم نحوه وأقبله، فإن التقاليد فى القصور الملكية أن الرجل لا يتقدم للأميرة ليطلب أن يرقص معها، بل هى التى تطلبه للرقص، وأن الرجل لا يتقدم يطلب يد الأميرة للزواج، بل هى التى تقول له إنها تريد أن تتزوجه!

ولقد كنت اتمنى فى كل يوم أن يأخذنى نجم الدين بين ذراعيه وينتزع قبلة من شفتى، ولكنه لم يفعل، لم يحاول، بل لم يفكر!

وقلت لنجم الدين وأنا أسير فوق حصانى إلى جوار حصانه.

ـ يظهر أن حصانى يعرف تقاليد القصور الملكية!

قال وكأنه يحدث نفسه:

ـ إن احساس الخيول غريب، لقد لاحظت فى الأسطبل أن حصانى يترك دائما مكانه ويذهب ويقف إلى جوار حصانك، كأنهما يتهامسان!

قلت له:

ـ لابد أنك كفارس قديم تعرف لغة الخيول! ماذا كان يقول حصانك لحصانى؟

قال :

ـ يقول له إنه يحبه !

قلت :

ـ أتعرف ماذا أجاب حصانى ؟

قال : لا.. تمنيت أن أعرف !

قلت : كان يقول لحصانك : وأنا أعبدك !

وانطلقت بحصانى أعدو..

وانطلق نجم الدين خلفى !

وفى هذه المرة سقطت فعلاً من فوق الحصان ! كانت أول مرة أسقط عن ظهر الحصان دون أن أتعمد السقوط !

ولم يستطع نجم الدين ان يتلقانى بيديه، فسقطت على الأرض، وجرحت ساقى..

وركع نجم الدين بجوارى، وكشفت عن ساقى المجروحة، وبدأ يدلكها بيده، وشعرت بقشعريرة غريبة.. اختفى الألم تحت ضغط يديه.. أحسست براحة لذيذة.. ولكننى تظاهرت بأن ساقى لا تزال تؤلمنى، حتى يمضى فى تدليكها ثم قلت له وأنا أتأوه :

ـ قبلنى على ساقى !

ووضع شفتيه فوق ساقى وقبلها.. وخدرتنى هذه القبلة.. وتمنيت أن يأخذنى بين ذراعيه ويقبلنى

ولكنه لم يفعل..

ووضعت يدى على فمى وقلت له:

ـ إننى سقطت على شفتى أيضا.. وتردد..

فصحت فيه:

ـ قبلنى.. قبلنى على شفتى.. إن فمى يؤلمنى!

وقبلنى فوق شفتى! وكانت هذه أول قبلة ذقتها فى حياتى!

وفى اليوم التالى لم يحضر نجم الدين فى موعد درس الفروسية.. ولم يحضر فى اليوم الثانى، ولا فى اليوم الثالث..

وجننت! رحت أبحث عنه فى كل مكان فى القصر فلم أجده. سألت عنه فلم أجد إلا شفاها مطبقة لا تجيب.

وكنت فى كل يوم أذهب إلى اسطبل القصر، وأجد حصانه واقفا فى مكانه وحيدا حزينا، شقيا. كأنه مثلى يفتقد صاحبه. وشعرت بحب غريب نحو هذا الحصان. وقلت للسايس إننى سأركب هذا الحصان بدلا من حصانى.. ولاحظت أن الحصان يمشى بى متثاقلا، فقد الرغبة فى العدو. وكنت أربت عليه، أناجيه، أقبله، أحيط عنقه بذراعى..

وعلمت من إحدى الوصيفات أن الملك علم بأن نجم الدين قبلنى فى حديقة القصر. فأمر بنقله فى نفس اليوم من منصب ياور الملك إلى وظيفة فى سلاح الفرسان!

ودهشت أن أحدا لم ير نجم الدين وهو يقبلنى. كنا فى مكان بعيد جدا عن الحراس والموظفين. كانت الأشجار العالية تخفينا عن العيون.

تصورت أن الأشجار هى التى افشت سرنا، أصبحت أشعر كأن كل شيء فى القصر يتجسس علي. وكنت كل يوم أذهب إلى الأسطبل، وأصحب الحصان وابثه حزنى وأروى له عذابى.. وكنت أجد سعادة فى صحبة هذا الحصان، سعادة غريبة.. وبدأوا يقولون فى القصر إن الأميرة جنت. وأنها أصبحت تحب حصانا!

وذات صباح ذهبت إلى الأسطبل فلم أجد الحصان! وقال السائس والدموع فى عينيه:

ـ الحصان مات!

صرخت مذعورة:

ـ مات؟ كيف مات؟

قال السائس: وجدناه صباح اليوم ميتا! يظهر انه مات حزنا على نجم الدين بك!

وسقطت مغشيا على!

وحملونى إلى داخل القصر.

بقيت عدة أيام غائبة عن الوعى! كنت أحسد الحصان على رقة احساسه، إنه لم يحتمل فراق نجم الدين، إنه يحبه أكثر مما أحببته. والدليل على ذلك أنه لم يحتمل عذابه ومات، وأنا أحتمل عذابى ولا أزال على قيد الحياة!

وقررت أن أنتحر! غريب أمرى! لم أفكر فى الانتحار عندما ذهب الرجل، وفكرت فى الانتحار عندما ذهب حصان الرجل! كأننى كنت أرى فى هذا الحصان بقية الرجل الذى احببته. كأننى كنت أشعر أننى أقبل

نجم الدين عندما أقبل حصانه. فلما ذهب الحصان أحسست بأنه لم يبق لى من نجم الدين أى شىء!

وشربت زجاجة صبغة يود. وأسعفونى بالعلاج. وكنت أصرخ وأقول:

ـ لا تنقذونى.. أريد ان أموت كما مات الحصان!

وبدأوا يعاملوننى فى القصر كأننى مجنونة! مجنونة لأننى أردت الانتحار من أجل حصان! وفكرت أن أهرب من القصر وأتزوج نجم الدين، وفشلت فى الاتصال به.

ثم عرفت أن نجم الدين محمود تزوج. وبكيت فى تلك الليلة كما لم أبك فى حياتى. كرهت كل الرجال كرهت كل الخيول.. كرهت نفسى!

* * *

ومضت الأيام ولم أنس نجم الدين ولا الحصان..

وسافرت مع أمى وإخوتى إلى فلسطين، وأقمنا فى فندق الملك داود. وكان معنا حراس، ورجال بوليس سرى، ورقباء يحصون خطواتنا. ولم يكن الملك وحده الذى يراقبنا، كان البوليس الانجليزى لحكومة فلسطين يمشى خلفنا كظلنا وأصبح الشبان يخافون من الاقتراب منا. وعشت فى وحدة قاتلة.

وذات يوم فوجئت بشاب فلسطينى جميل الصورة، خفيف الدم، يتقدم نحوى وأنا جالسة اتفرج على الرقص، وحولى الحراس والرقباء، ويدعونى للرقص..

وأعجبت بشجاعته وجرأته. وبأنه لم يأبه بكل هذا الحرس، وبكل هؤلاء الرقباء، وتحداهم جميعا.

إن المرأة تحب الرجل الفارس الذى يستهين بالأهوال والخطوب من أجلها.

وبغير تردد قمت أرقص معه، وسط دهشة الموجودين!

وكان راقصا رائعا، ومحدثا لبقا. وكان اسمه عمر.. وهو من أسرة فلسطينية كبيرة..

قلت له: ألا تخشى أن يقبضوا عليك لأنك تجرأت ورقصت معى!

قال: إننى مستعد أن أذهب إلى المشنقة. لا إلى السجن!

قلت له: من أجل رقصة واحدة!

قال: نعم، من أجل رقصة واحدة! ورقصت معه طوال الليل!

واتفقت معه على أن أهرب فى اليوم التالى، من سلم الخدم، وألقاه.

وأصبحت أخرج معه كل ليلة فى غفلة من عشرات الحراس الذين يحيطون بالفندق طوال الليل والنهار!

كنت أتظاهر بأننى متعبة، وأصعد إلى غرفتى، وأغلق الباب، ثم أبدل ملابسى، وأرتدى ملابس تشبه ملابس خادمات الفندق، وأخرج من باب الخدم، فلا يتصور الحراس أن هذه الخادمة هى صاحبة السمو الملكى الأميرة المصرية!

وأحببت عمر. وأحبنى عمر، ونسيت معه الفارس نجم الدين والحصان الشهيد!

كنت أكبر سنا، فأصبح للحب طعم يختلف عن طعمه وأنا فتاة صغيرة! فالحب مثل الخمر. كلما شربنا منه، عرفنا كيف نميز بين أنواعه.. الرجل الذى يملأ قلب الفتاة فى السادسة عشرة، غير الرجل الذى يملأ شفتيها فى العشرين. غير الرجل الذى يملأ جسدها فى الثلاثين! الرجل للمرأة مثل الثوب، كل سن له ثوب مختلف، المريلة التى ترتديها الطفلة لا تصلح للمرأة، وأحسست بأن عمر هو ثوب على مقاسى، يناسب سنى، يناسب أفكارى، يناسب أحلامى.

وفوجئت ذات يوم بأمى تعرف قصتى مع عمر. تعرف كل مكان نذهب إليه معا! وذهلت لأننى استطعت أن أضلل رجال البوليس الأذكياء. ولم أستطع أن أضلل أمى..

ومضيت أبحث عن كيف عرفت أمى سرى، فلم أهتد..

وأبلغت عمر ما جرى بينى وبين أمى.. وإذا به يكتشف أن أمى تتردد يوميا على قارئة بخت تقرأ لها نجمها!

* * *

كانت الملكة نازلى يومها تحب أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى، واعترض على تصرفاتها، وقاطعها، فسافرت إلى فلسطين لتحاول أن تنساه!

ولكنها لم تستطع ان تنساه. فكانت تذهب كل يوم إلى قارئة البخت تسالها عن أخباره، وهل سيعود إليها أو لا يعود!

ورأتنى قارئة البخت ذات يوم مع عمر، وعرفت بذكائها من نظراتنا إننا عاشقين.. فما كان منها إلا أن عينت رجلا يراقب حركات عمر!

وهكذا كانت تبلغ الملكة أولا بأول بأسماء الأمكنة التى نذهب إليها. واستطاعت قارئة البخت أن تحصل من الملكة نازلى على مبالغ طائلة بهذه الطريقة!

ثم أخبرت الملكة نازلى أمى.

ورأى عمر أن الحل الوحيد هو أن يشترى قارئة البخت أو يقتلها! وطلب إليها ان تختار.. فاختارت أن تعيش!

وأصبحت تقول للملكة إن علاقتى بعمر قد انتهت، وأننى لم أعد أقابله!

واطمأنت أمى إلى أن قصة غرامى قد انتهت! فى الوقت الذى كنت فيه ألتقى به كل يوم!

وفوجئت بوصول أحمد حسنين باشا إلى القدس خلافا لكل ما قالته وأكدته قارئة البخت!

وتم الصلح بينه وبين أمى، وطلب إليها أن تعود فورا إلى القاهرة، بعد أن كانت قررت أن تقيم فى فلسطين إقامة دائمة!

ولم استطع أن أودع عمر. لم أستطع أن اتفق معه كيف نتكاتب.

لقد كان الأمر فجائيا بالرحيل فورا..

ولم تكن الملكة تستطيع أن تفتح فمها فى حضرة أحمد حسنين!

* * *

وعدت إلى القاهرة وقد تركت قلبى فى فلسطين..

عدت بائسة شقية معذبة..

فشلت كل محاولاتى فى الاتصال به..

ومضت السنوات..

وذهبت إلى حفلة الاميرة شويكار ورأيتك.. وأعجبتنى من بعيد!

وأشعلت ولاعتك فى الهواء، فاشعلت ولاعتى فى الهواء.. أردت أن أقول لك إنك اشعلتنى كما أشعلتك..

وذهبت إلى التواليت، ودعوتك لتتبعنى..

وعند التواليت رأيت عمر أمامى،

ونسيتك على الفور! نسيت أننى متزوجة! نسيت أننى دعوتك لاتفق معك على موعد! نسيت كل شيء! لم أعد ارى سواه!

واعطيته رقم تليفونى وطلبت منه أن يتصل بى!..

ولم يتصل!..

وبعد أيام اتصلت بى سيدة من القدس وقالت إنها تحمل إلى رسالة من عمر..

وما كدت أفض الرسالة وأقراها.. حتى شعرت برغبة جامحة فى أن أقتلك!

الفصل الخامس

تراجع عادل برأسه إلى الخلف وقال:

ـ تريدين أن تقتليني. أنا؟

قالت الأميرة في إصرار:

ـ نعم.. أقتلك أنت!

واعتقد عادل في أول الأمر أن الأميرة تمزح، ولكنه رأى في عينيها نظرة جد، فقال لها في دهشة:

ـ ماذا فعلت حتى استحق القتل؟

قالت:

ـ قتلت أجمل أحلامي!

قال:

ـ إنني لا أقتل الأحلام! أنا أصنع الأحلام!

قالت:

ـ سأثبت لك أنك قاتل!

ومدت الأميرة يدها، وتناولت حقيبة يدها، وفتحتها. وأدخلت أصـابعها الجميلة فى الحقيبة، وراحت تتحسس محتوياتها. وبرقت عيناها فجأة. حتى خيل لعادل فى لحظة أنها ستخرج مسدسا من الحقيبة. ولكن أناملها خرجت من الحقيبة تحمل ورقة زرقاء.. ودفعتها إلى عادل وهى تقول:

ـ هذه شهادة وفاة حلم.

قال عادل وهو يتناول الورقة فى يده:

ـ هذه أول مرة اسمع أنهم يكتبون شهادة وفاة للأحلام!

قالت الأميرة وهى تتنهد:

ـ عندما يموت فرد واحد تكتب له شهادة وفاة! وفاة الحلم الجميل هـى موت رجل وامرأة معا... وهذا يستحق شهادة وفاة! انـظر إلـى الـورقة جيدا... اقرأها بإمعان... ستجد فيها صورة بصماتك على جثة القتيل!

وأمسك عادل الورقة بيد مرتعشة، فلم يجد شهادة وفاة، وإنما وجد خطابا من عمر، الشاب الفلسطينى، الخطاب مكتوب فى مدينة القدس وموجه إلـى الأميرة.

وتاريخ الورقة حديث. ولكنها تبدو قديمة، من كثرة ما فتحتهـا الأميـرة وطوتها، وأخفتها فى صدرها وبللتها بدموعها وأحرقتها بأنفاسها..

وبدأ عادل يقرأ الخطاب.. فقالت له الأميرة:

ـ اقرأ بصوت مرتفع.. حتى أسمعه بصوتك!

* * *

وبدأ عادل يقرأ بسخرية.. ولكن لم تلبث سخريته أن اختفت، ورق صوته،

واختلج، وارتعشت الكلمات فوق شفتيه، كأن خطابات الحب الحقيقية لهـا رهبة الكتب المقدسة وجلالها ! ومضى يقرأ :

«رأيتك فجأة فى حفلة الأميرة شويكار. لم أصدق عينى. اعتقدت أننـى أحلم. رأيت ليلة القدر على الأرض. عادة لا نراها إلا فى السماء ! ولكن رأيت طاقة ليلة القدر فعلا عندما رأيت وجهك تلك الليلة. اندفعت إليك بغير تفكير. ورأيتك تعطينني مفتاح الجنة !

«حملت المفتاح معى، خرجت من الحفلة على الفور. الدنيـا لا تسعنى. كنت أحلم وأنا أمشى على قدمى. كنت أطير من الفرح. كنت أسعد رجل فى العالم.

«كان مفتاح الجنة هو رقم تليفونك الذى أعطيتنى إياه. كنت أردد رقـم تسعة سبعة خمسة تسعة سبعة كأننى أردد أغنية. كان كل رقم مـن هـذه الأرقام يقول لى (أحبك) ! أحسست بأن هذا الرقم هو الرقم السرى الـذى يفتح خزانة سرية فيها أجمل كنوز الدنيا التى هى أنت !

«عرفت أننى أخيرا وجدتك. أخيرا أمسكت حلمى بيدى. عشت كل أيامى وكل ليالى كالأموات، منذ ذلك اليوم التعس الذى فارقتنى فيه فى القدس بغير كلمة وداع !

«بذلت المستحيل لاتصل بك ففشلت .. كتبت إليـك مئـات الخـطابات بلا رد. سافرت إلى القاهرة عشرات المرات فلم أستطع رؤيتك. مـا أكثـر القصور التى تقيمين فيها. قصر عابدين، قصر القبـة، قصر المنتـزة، قصر رأس التين ! طفت حولها كلها. لم أر إلا الأسوار العالية. لم تصافح عينـاى الا المدافع فى أيدى الحراس !

«لم أيأس أبدا ! قلبى كان يؤكد لى أن الحب الـذى بـدأ فى القـدس لا يمكن أن يموت فى القاهرة !

«وعدت إلى القاهرة للمرة العشرين ورأيتك. واعطيتنى مفتاح الجنة. رقم تليفونك. لم تقولى لى كلمة واحدة، ولكن أرقام تسعة سبعة خمسـة تسـعة سبعة قالت كل الكلمات التى تمنيت أن اسمعها من شـفتيك ! قـالت إنـك ما زلت تحبيننى. حبنا انتصر على الزمن وعلى الفوارق وعلى الصـعوبات والعقبات !

«مشيت على قدمى إلى الفندق ! كانت أصابعى تأكلنى، كأنهـا تتلهف لمجىء الصباح، وتدور فى قرص التليفون لتطلب المرأة التى أحبها. لن أنام حتى اسمع صوتك. سأتفق معك على موعد. سألقاك غدا. سـنجدد ليـالى الحب. ستفطر شفتاى الصائمتان على رحيق شفتيك. لن نفترق بعد اليـوم. لن أعود إلى القدس مرة أخرى. سأبقى فى القاهرة، سأعيش فيها، ستكونين أنت وطنى ومدينتى وأسرتى وعملى. يكفى أن أسمع صوتك مرة كل يوم !

«وما كدت أصل إلى باب غرفتى فى فندق شبرد حتى رأيت عـددا مـن ضباط البوليس المصرى. ولم أهتم بهم. كان عقلى مشـغولا بـك وحـدك، وأخرجت مفتاحى وفتحت باب الغرفة. وإذا بضباط البوليس يدخلون خلفى بلا استئذان !

«ووضع كبيرهم يده على كتفى وقال لى : أنت مقبوض عليك !

«وأحسست كأن هذه اليد تهوى بى من السماء التى كنت أحلق فيها إلى قاع الهوان ! وتطلعت فى وجوه الضباط بدهشة، وعاد كبيرهم يقول :

«ــ يجب أن تغادر القاهرة فورا» ! «ما كدت اسمع كلمة «فورا» حتـى

أحسست بخنجر يغرس فى قلبى ! «فورا» معناها ألا أتحدث إليك معناها ألا أراك ! معناها أن أخرج من الجنة إلى الجحيم من جديد ! «توسلت إليهم أن يتركونى إلى الصباح.

«فقالوا فى غلظة : الأمر يفرض بأن تترك القاهرة... بل مصر كلها فورا ! «فوجئت بهذا الأمر الغريب وسألت : ماذا فعلت؟

«قال الضابط: أنت تعرف جيدا ... ماذا فعلت !

«قلت : لم أفعل شيئا. لم أرتكب جريمة. لم أسئ إلى أحد. لم أفتح فمى وأتكلم فى السياسة..

قل لى : ما هى جريمتى؟

قال الضابط حانقا :

«ليس من حقك أن تحقق معنا ! ليست مهمتنا أن نرد على أسئلتك. مهمتنا أن نراك تغادر مصر فورا، ولا تعود إليها أبدا !

«انخلع قلبى، وقفت أمامهم مشلولا بلا حراك. فتولوا حزم حقائبى، ووضعونى فى سيارة حملتنى إلى خارج الحدود، وتركونى هناك وهم يقولون :

«ـ لو عدت مرة أخرى... فستضرب بالرصاص !

«وفهمت أن جريمتى الكبرى أننى حدثتك فى حفلة الأميرة شويكار !

«لم يشفع لى أننى مسلم وأنت مسلمة، أننى عربى وأنت عربية. جريمتى أننى من أبناء الشعب... وأنك حفيدة ملك وابنة عم ملك !

«إن شخصا واحدا رآنى وأنا أحدثك فى حفلة الأميرة شويكار. هو الشاب الأسمر الطويل الذى كان يحمل ولاعة فى يده، وحاول أن يشعل لك

سيجارتك، وفضلت أنت أن تشعلى سيجارتك من ولاعتى، وأطفأت أنت ولاعته!

«لاحظت أن هذا الشاب بقى واقفا أثناء حديثك معى. كان يحملق فينا ونحن نتحدث. وأنا انصرف رايت وجهه. شىء فيه جعلنى لا أحبه. أحسست بأنه يكرهنى، يمقتنى، يريد أن ينشب أنيابه فى.

«وصدق أحساسي، عندما عدت إلى الفندق ورأيت رجال البوليس فى انتظارى. تأكدت على الفور أن الرجل الطويل حامل الولاعة كان أحد عيون الملك. وأنه سمعك وأنت تعطيننى رقم تليفونك، وأنه عرف علاقتى بك أثناء إقامتنا فى القدس، وأنه هرول وكتب تقريرا للملك بكل ما عرف، وأصدر الملك أمرا بإبعادى فى نفس الليلة!

«لن أقول: سامحه الله. بل أقول: لعنه الله! إننى العن هذا الرجل المجرم كلما تنفست.

«إنه حطم سعادتى، دمر هنائى، حول جنتى إلى جحيم.

«لو رأيته مرة أخرى فسوف أقتله. إنه قتلنى، إننى الآن ميت على قيد الحياة!

«حاولت أن أعود إلى القاهرة من جديد ذهبت إلى قنصلية مصر فى القدس أطلب منها تأشيرة دخول، فرفضت القنصلية المصرية إعطائى التأشيرة.

«قابلت الدكتور محمود فوزى قنصل مصر فى القدس فقال لى إن أمرا صدر بمنعى من دخول مصر باعتبارى من الأجانب الخطرين!

«سافرت إلى بيروت، وقابلت الأستاذ أحمد رمزى قنصل مصر هناك،

وطلبت تأشيرة، فرحب بى، وما كاد يعلم باسمى حتى فزع، وكأنه أمام أحد الصهيونيين من زعماء عصابات الارهاب!

«وقال لى بصراحة إن أمرا صدر بمنعى من دخول مصر باعتبارى من الأجانب الخطرين، وأن الأمر أرسل بالبرق إلى جميع قنصليات مصر ومفوضياتها فى الخارج!

«وعرفت أن هذا أمر نهائي، لا يقبل المناقشة، ولا الاستئناف، ولا الطعن... فهو أمر ملكى!

«أمر ملكى بألا أحبك! ألا أراك! ألا اتصل بك»!

«كدت أجن.. إنني أحب مصر. أحبك. ولكن الدولة المصرية بكل أجهزتها وبوليسها وشرطتها العلنية والسرية اعتبرتنى العدو الأول.. أعلنت على الحرب، فلماذا؟»

«لأن أميرة مصرية أحبتنى وأحببتها!

«لأن قلوب أولاد الملوك مثل قصورهم، ليس من حق أفراد الشعب أن يدخلوها»!

«ولكن لن أيأس»!

«جيوش الدنيا كلها لن تقف بينى وبينك»!

«٢عزائى أن قلبى عندك، كل جنودهم وحراسهم فشلوا فى أن يمنعوا حبى من الدخول إلى قلبك».

«سأحاول أن أهرب جسدى إلى مصر.. كما يهربون المخدرات»!

«عمر»

طوى عادل الخطاب وهو يقول فى سخرية :

ـ خطاب بليغ !

قالت الأميرة فى حماس :

ـ أهم شيء.. الصدق فيه. هذه هى بلاغته.. إنه وثيقة اتهامك !

قال عادل وهو يعيد الخطاب إلى الأميرة :

ـ هذا الخطاب هو وثيقة براءتى ! أولا أن صناعتى مهندس لا ضابط بوليس !

قالت :

ـ إن بعض كبار رجال الدولة وصلوا إلى مناصبهم فوق تقاريرهم السرية ! جثث الذين طعنوهم بهذه التقارير فى ظهورهم هى درجات السلم التى ارتفعوا فوقها إلى مراكزهم الكبيرة !

قال :

ـ إن عيب المرأة عندما تقرأ خطابا غراميا أنها تحفظ الكلمات الغرامية التى فى الخطاب وتنسى الوقائع ! إنه يقول فى خطابه : إن رجال البوليس كانوا فى انتظاره عقب خروجه من الحفلة.. وأنت تعلمين أننى لم أغادر الحفلة.. أليس كذلك ؟

قالت :

ـ نعم.. إنك فعلا بقيت فى الحفلة !

قال عادل :

ـ مكثت ساعة كاملة واقفا أمامك أشعل ولاعتى.. ولا تردين على.. هل حدث هذا أم لم يحدث؟!

قالت الأميرة :

ـ نعم.. إنك كنت واقفا طوال الوقت أمامى.

قال عادل :

ـ إذن متى ذهبت وكتبت التقرير وأبلغته إلى الملك؟ لقد رقصت بعد ذلك مع قسمت شاهين، ودعوتنا للجلوس معك، وبقيت جالسا معك حتى نهاية الحفلة.. فمتى كتبت التقرير، ومتى ذهبت إلى الملك وأبلغته بالحديث الذى جرى بينك وبينه؟

قالت الأميرة :

ـ إذن من فعل هذا؟

قال :

ـ الذى فعل هذا هو شخص كان معك فى فلسطين، أو عرف بما جرى لك فى فلسطين.. هو شخص صاحب مصلحة فى مطاردة عمر!

قالت باسمة :

ـ لا تنكر أنك صاحب مصلحة فى طرد عمر!

قال :

ـ نعم أنا صاحب مصلحة.. ولكن هناك صاحب مصلحة أكبر منى.. هو زوجك!

قالت بدهشة :

ـ زوجى ؟!

ـ نعم زوجك.. هل هو يعرف بقصة غرامك بعمر فى فلسطين قبل زواجك ؟

قالت :

ـ نعم.. اعترفت له بها واعترفت له أننى لا أزال أحبه !

قال عادل :

ـ ألم تلاحظى أنه عندما عدت إلى مائدتك أنه تركك وذهب وتحدث إلى الملك ؟

قالت :

ـ نعم.. ولكنه قال لى إنه كان يتحدث إليه عن قضية فلسطين !

قال عادل :

ـ إن قضية فلسطين بالنسبة لزوجك هى عمر !

قالت وقد فتحت فمها دهشة :

ـ إننى لم أفكر فى هذا !

قال عادل :

ـ لأننا عندما نحب نلغى عقولنا ! إن المجرم الحقيقى يعيش معك فى بيتك طوال الوقت.. وأنت تتهميننى ظلما بجريمة لم أرتكبها !

قالت الأميرة فى تأثر :

ـ لقد اعتذرت إليك بعد أن صفعتنى ! الصفعة كانت دليل براءتك.. وفى تلك اللحظة برأتك بقلبى ! والآن أبرئك بعقلى ! ماذا تطلب أكثر من ذلك.. لقد نلت البراءة من محكمتين، المحكمة الابتدائية وهى قلبى، ومحكمة الاستئناف وهى عقلى !

قال عادل :

ـ بقيت المحكمة الثالثة !

قالت فى استغراب :

ـ المحكمة الثالثة.. هل توجد محكمة ثالثة ؟

قال وهو يطوقها بذراعيه :

ـ المحكمة الثالثة... جسدك !

وتخلصت الأميرة من ذراعه وقالت :

ـ هذه المحكمة صعبة.. وليس من السهل إقناعها !

قال عادل :

ـ لماذا لا تعطى الدفاع الفرصة اللازمة لاقناع المحكمة ؟

قالت الأميرة :

ـ إن هذه المحكمة العليا مشغولة بقضية أخرى.. وهى لا تستطيع أن تنظر فى قضيتين فى وقت واحد !

قال عادل وكأنه أصيب بضربة مفاجئة :

ـ قضية أخرى ؟ لقد ظننت أننى القضية الوحيدة أمام هذه المحكمة !

قالت الأميرة :

ـ إننى لا أزال أحب عمر.. ولا استطيع أن أمنح جسدى لرجلين معا !

قال عادل :

ـ إن عمر لن يعود إلى مصر !

قالت :

ـ ولكننى سأنتظره. إننى قادرة أن أنتظر عاما وعامين، وبضعة أعوام

قال ساخرا :

ـ إلى أن يتزوج.. كما تزوج نجم الدين !

قالت فى حسرة :

ـ هـذا هو قدرى ! لقد فتحت لك قلبى، وقلت لك بكل صدق قصة حبى لنجم الدين وقصة حبى لعمر.

قال عادل مغيظا :

ـ ولكن هذه ليست قصص حب. هذه مغامرات، حب أطفال ! كلنا دخلنا روضة الأطفال ! كلنا نذكر أيامنا الجميلة فيها ! ولكننا سوف نكون موضع السخرية إذا عشنا طوال حياتنا فى روضة الأطفال ! إنك لم تحبى رجلا حتى الآن حبا حقيقيا !

قالت محتدة :

ـ أنا لم أحب ؟! إنك لا تعرفنى !

قال عادل :

ـ بل أعرفك جيدا.. أعرفك أكثر مما تعرفين نفسك! إنني أعتقد أنك لم تحبى نجم الدين ولا عمر حبا حقيقيا! الوحيد الذى أحببته فعلا هو الحصان، حصان نجم الدين.. المرأة عندما تحب رجلا حقيقيا تتبعه إلى آخر العالم. تحبه وهو حى: تحبه وهو ميت! تحبه وهو أعزب وتحبه وهو متزوج، تحبه وهو معها، وتحبه وهو بعيد عنها! تذهب وراءه إلى آخر الدنيا. وأنت لم تذهبى وراء نجم الدين إلى آخر الدنيا.. لم تذهبى وراء عمر إلى آخر الدنيا. الوحيد الذى حاولت أن تذهبى وراءه إلى آخر الدنيا هو الحصان! عندما مات الحصان حاولت الانتحار. وهذا مالم تفعليه من أجل نجم الدين، ولا من أجل عمر! كل هذه مغامرات صبيانية وليست حبا حقيقيا. الحب الحقيقى ليس حكاية قصيرة.. إنما هو قصة طويلة!

قالت الأميرة :

ـ أحلى حكايات الحب، أقصرها!

قال عادل :

ـ هى حلوة عندما نقرؤها، أو عندما نكتبها.. ولكنها تافهة عندما نعيشها.. هذه المغامرات هى هوامش فى صفحات حياتنا. أما الحب الكبير فهو كل الصفحات من كتاب حياتنا! إنه أشبه بزجاجة حبر تسقط على كتاب حياتنا، فتطمس كل صفحة فيه. ولايبقى ظاهرا من صفحات الكتاب إلا النقط التى تتركها زجاجة الحبر! وعندما نقلب هذا الكتاب فى أيدينا لا نكاد نرى السطور التى خطت مغامراتنا السابقة، إنها تشحب وتختفى وتضيع! تصبح هذه المغامرات أشبه بأفلام سينما عادية حضرناها.

ولا نكاد نذكر أسماءها أو أبطالها ! تصبح أشبه بوجـوه رأيناها فى الزحام لا نكاد نذكر ملامحها. أنت لم تعرفى بعد ما هو الحب الكبير!

قالت الأميرة :

ـ المرأة تختلف عن الرجل. عندما يخفق قلبها ولو مرة واحـدة تبقـى ذكرى هذه الخفقة فى ذاكراتها طول حياتها !

قال عادل :

ـ إلى أن يجىء الحب الكبير.. الحب الكبير مثل العـاصفة يقتلـع كل شىء ! إننا ننسى النسيم الذى داعب وجـوهنا، ولـكن لا يمـكن أن ننسى العاصفة التى اقتلعتنا من أماكننا ! لو أنك أحببت حقيقة نجم الدين لهربت خلفه ! لضحيت من أجله بلقب صاحبة السمو الملكى، كما ضحى إمبراطور الهند. وكما ضحى ملك بريطانيا بكل شىء من أجل مسز سمبسون المـرأة التى أحبها ! لو أنك أحببت حقيقة عمر لرفضت أن تعودى من فلسـطين، وتتركيه وحده ! لفشلت كل السلطات والقوى أن تنتزعك من بيـن ذراعيـه ! الحب الكبير هو أن تذوبى فى الرجل كما تذوب قطعة السكر فى الماء ! عندما تذوب قطعة السكر لا يمكن فصلها عن الماء أو فصل الماء عنهـا أمـا إذا أمكننا فصلها فمعنى ذلك أنها صمدت للماء ولم تذب فيه ! الحب الكبير هو اللحظة التى نغمض فيها عيوننا عن واقعنا، ونفتح عيوننا على الوهم. فإذا تذكرنا بعد ذلك واقعنا فمعنى ذلك أننا لم نحب بعد هذا الحب الكبير!

قالت الأميرة ساخطة :

ـ إنك بهذا الكلام تدوس بقدميك على أجمل زهرة فى حياتى ! لقد قلـت لك إننى لا أزال أحبه !

قال عادل:

- لو كنت تحبينه ذلك الحب الكبير، لرفضت أن تتزوجى!

قالت الأميرة:

- لقد تزوجت لأتحرر من قيود القصر.. لأستطيع أن أذهب إليه! إن عمر هو الحب الكبير فى حياتى!

قال عادل:

- لو كنت تحبينه هذا الحب الكبير لما جئت إلى هنا!

قالت تتحداه:

- إننى جئت إلى هنا لأننى أحبه! جئت لأطلب إليك أن تساعدنى كيف أستطيع أن أجعله يحضر إلى مصر دون أن يعرفه الملك وتعرفه الحكومة!

وأطرقت لحظة ثم قالت:

إننى شعرت أنك تحبنى حبا حقيقيا ولولا هذا الحب لما صفعتنى على وجهى وأنا أعرف أن العاشق الحقيقى يضحى بكل شىء من أجل إسعاد المرأة التى يحبها!

قال ساخرا:

- أنت تحبين بطريقة الملوك! الملوك ينتظرون من رعاياهم أن يضحوا بحياتهم من أجل عظمة الملوك ومجدهم من أجل اتساع نفوذهم وسلطانهم! العبيد وحدهم هم الذين يرضون بهذا الهوان! إننى أحببتك كملك.. وأنت تريدين أن أحبك كعبد من العبيد! أنت تريدين أن تحبينى كما أحببت

الحصان.. تركبين الحصان لتلحقى بنجم الدين.. وتركبين الحصان عادل لتلحقى بعمر..

إننى لست حصانا.. ولست حمارا.

* * *

ورأت الأميرة وجه عادل وقد تحول من السخرية إلى الغضب، وأحست بأنها أهانته بهذا العرض الغريب.. فتراجعت وهى تقول:

ـ لم أكن اتصور أنك تحبنى بهذا العنف! كنت أتمنى أن تكون صديقى الوحيد. إننى لم ألجأ إلى رجل سواك..

قال عادل غاضبا:

لو كنت تظنين أننى رجل لما لجأت إلى! الرجل الذى يحب امرأة لا يقبل أن يكون قنطرة تدوس عليها لتذهب إلى رجل أخر.. الحب كما أفهمه تضحية من اثنين لا تضحية من طرف واحد. كل شىء لا يقبل القسمة على اثنين لا يمكن أن يكون حبا عظيما! الحب أنانية، عملية امتلاك، ترفض الشركاء، تأبى أنصاف الحلول. الحب جشع لا يشبع، بخيل لا يقبل أن يعطى المرأة التى يحبها للبؤساء والفقراء والمساكين على سبيل الاحسان الحب ليس جمعية خيرية!

وكانت الأميرة ترقبه وهو يتكلم تسمعه حينا بأذنها، وتسمعه أحيانا بعينها. تشعر كان الكلمات تخرج من قلبه لا من فمه. كلمات تغضبها وترضيها فى وقت واحد. تدفعها وتجذبها. كأن هذه الكلمات تهزها. وأحست بأنها تشبه زجاجة من الماء الفوار، وأن عادل يخض هذه الزجاجة بيده فيندفع الهواء المحبوس فيها، ويحاول أن يدفع السدادة وينطلق.

وقالت له :

ـ لماذا اخترت الهندسة ؟ كان يجب أن تكون شاعرا ! أو خطيبا ! أو محاميا إنك استطعت أن تهز معتقداتي.. كدت تقنعنى ! لا أعرف ماذا اقنعنى ؟ هل الكلمات، أم طريقتك فى النطق بها، أم صوتك وأنت تتكلم، أم ملامح وجهك وأنت تنفعل، أم كل هذا معا ؟!

قال :

ـ ربما كان صدقى هو الذى يقنعك !

قالت :

ـ تمنيت لو كذبت على ! لوخدعتنى وقلت إنك سوف تساعدنى ليعود عمر إلى ! كانت هذه الكذبة أقصر الطرق إلى قلبى !

قال

ـ إننى أفضل دائما أن أختار الطريق الطويل ! قلوب النساء مليئة بالمنحنيات والمنعطفات والزوايا !

قالت

ـ هل رأيت امرأة قبلى تطلب من رجل أن يكذب عليها ؟ أن يخدعها أن يعدها بما لا ينوى أن يقوم به ؟

قال

ـ كل امرأة تحب الرجل الذى يكذب عليها وتجد لذة فى أن تصدقه وهى تعلم أنه كاذب.. ولكن هذا هو أسلوب الحب العادى. الحب الصغير أما الحب الكبير فلا يعرف إلا لغة واحدة هى الصدق ! كلما قلت درجة الحب

زادت الأكاذيب فيه. وكلما ارتفعت درجة حرارة الحب اختفت منه الأكاذيب إلى أن يجيء يوم يصبح كل ما فى الحب صدقا.

قالت.

ـ إن صدقك يثيرنى.. كأنه كذب لذيذ!

قال:

ـ لأنك عشت حياتك فى عالم من الأكاذيب! كل ما حولك كذب وخداع وزيف! قيمة الرجل فى القصر بقدر كفايته من الكذب ومقدرته على إخفاء مشاعره. قيمة الوصيفة بقدر نجاحها فى الانحناء لمن تريد أن تلعنهم. وفى مجاملة من تريد أن تصفعهم، وفى تقبيل من تريد أن تبصق فى وجوههم كل شىء فى حياتكم كذب! حتى الأسوار العالية حول قصوركم كذب! توهمون الناس بأنها تحميكم، وأنتم أول من يعرف أنها تهوى تحت ضربة واحدة!

قالت ضاحكة:

ـ أنت ثائر!

قال:

ـ أنا ثائر على عالم من الكذب! إننى أبحث عن الحقيقة فى كل مكان ولا أجدها! لعلك سمعت أننى زير نساء! وأننى أبدل النساء كما أبدل الكرافتات! هذا غير صحيح. إننى أبحث فى كل امرأة عن الحقيقة فلا أجدها. فأتركها بحثا عن الحقيقة فى امرأة أخرى!

قالت وهى تغمز بعينها:

ـ يبدو أن الحقيقة داخل ملابس المرأة الداخلية.. ولهذا تحاول دائما أن تجردها من ملابسها!

قال

ـ إننى أجردها من زيفها ! أجردها من الكذب ! وكلما نزعت ثوبا من الكذب وجدت تحته ثوبا آخر من الكذب إلى أن اصل إلى جلدها فأجده كذبا أيضا ' كل امرأة تخبئ حقيقتها فى مكان ما فى جسدها. ولهذا أحاول أن أبحث عن الحقيقة فى كل مكان ! وفى كثير من الأحيان لا أجد الحقيقة !

قالت الأميرة وهى تبتسم :

ـ إنك لن تتعب فى البحث عن حقيقتى ! حقيقتى فوق شفتى !

قال عادل :

ـ قد يكون هنا طعم الحقيقة.. لا الحقيقة نفسها !

* * *

واقتربت منه..

وقبلها فى شفتيها قبلة طويلة. وطالت القبلة.. ثم تخلصت من ذراعيه، وهى ترتب شعرها قائلة :

ـ لقد بقيت مع الحقيقة مدة طويلة !

قال يداعبها !

ـ لا... إنها ليست هنا ! دعينى أبحث بنفسى.. أين هى الحقيقة !

ومد يده نحو ثوبها...

وهنا سمع جرس باب الشقة يدق دقا متواصلا..

واضطربت أصابعه التى كانت تبحث عن الحقيقة..

وعادت يده إلى جواره..

ولاحظت الأميرة اضطرابه فقالت له باسمة:

ـ هل تنتظر أحدا؟

قال:

ـ لا.. إننى ألغيت كل مواعيدى وقلت إننى سافرت إلى الاسكندرية.

وعاد جرس الباب يدق من جديد وسمع طرقا متواليا..

ونظر عادل حوله فى حيرة، وكأنه يبحث عن مكان يخبئ فيه الأميرة!

وعادت الأميرة تتطلع فى وجهه. فترى اضطرابا يحاول جاهدا أن يخفيه..

وسألت الأميرة:

ـ هل أنت خائف؟

قال عادل:

ـ لست خائفا على نفسى! إننى خائف عليك!

قالت الأميرة:

إننى لست خائفة!

قال عادل:

ـ قد يكون زوجك. قد يكون ضابط البوليس!

قالت الأميرة:

ـ أنا لا أخافهم!

وعاد الباب يدق من جديد، وتزداد الطرقات عنفا..

وزاد اضطراب عادل.. ثم قال

ـ لن أفتح الباب!

كان عادل قلقا مضطربا.

ما أكثر ما دق الباب من قبل وهو مع امرأة يحبها!

ما أكثر المرات التى استطاع أن يتصرف فيها وينقذ الموقف، وينقذ المرأة!!

ولكنه فى هذه المرة أصبح كالعاجز المشلول، لا يستطيع أن يفكر، ولا يستطيع أن يتحرك، ولا يستطيع أن يفعل شيئا!

والباب لا يكف عن الدق!

إن دقات الباب أيقظته من الحلم الجميل! أيقظته فى نفس اللحظة التى كانت أصابعه تقترب فيها من الحقيقة!

فى نفس اللحظة التى كان يستعد فيها لمعرفة الحقيقة!

وحاول عادل جاهدا أن يخفى خيبة أمله. واضطرابه. وضيقه. وحيرته، خلف ابتسامة عريضة..

ولكن مساحة الابتسامة كانت أصغر من مساحة الخيبة، والضيق والاضطراب والحيرة.

ولم تكن الأميرة مضطربة.

كانت على العكس هادئة..

كانت مطمئنة.. وكأنها لا تسمع الطرقات المتوالية على الباب..

وكأنها أرادت أن تزيد حيرته فقالت له فى خبث وهى تقترب منه فى دلال:

ـ مالك مضطربا ؟!.. ألم تكن تبحث عن الحقيقة ؟

قال متظاهرا بالابتسام:

ـ طبعا.. طبعا !

قالت :

ـ اذهب وأفتح الباب.. ربما كانت الحقيقة هى التى تدق بابنا !

الفصل السادس

استمر جرس الباب يدق بعنف وبلا انقطاع، كأن يدا عصبية غاضبة تطرقه.. بلا توقف!

وأمسك عادل بيد الأميرة.. واتجه بها إلى غرفة المكتب، ثم عدل عن إخفائها فى المكتب، فجذبها من يدها إلى المطبخ، ثم عاد ودفعها إلى الحمام، ثم دفع بها أمامه إلى غرفة النوم.

وتركته الأميرة يفعل بها ما يشاء. لم تعترض على أى قرار، ولا على عدوله عن كل قرار. وكانت تبتسم وهى ترى اضطرابه، ودقات الجرس المتوالية تضاعف هذا الاضطراب. وكان يضيق بحيرته ويخجل من اضطرابه، فقد كانت هذه أول مرة فى حياته يشعر بمثل هذا الاضطراب وهذه الحيرة، على كثرة المآزق التى تعرض لها طوال حياته الغرامية المليئة بالأزمات والمطاردات!

ودخلت الأميرة إلى غرفة نومه.. وراحت تتأمل أثاثها الأنيق بإعجاب، كأنها تدخل محلات بونتريمولى لبيع الأثاث لا لتختفى فى هذه الغرفة من الطارق المجهول. وضاعف هدوء الأميرة وعدم مبالاتها من اضطرابه، وأحس بالعرق يتساقط من رأسه كأنه أحس بالعار لأن المرأة ليست خائفة، ولأن الرجل هو الذى تصطك أسنانه!

ولم تكتف بذلك، بل قالت له:

ـ لا تخف يا عادل! إننى مستعدة لأن أموت معك هنا!

وتركته الأميرة يغلق الباب بالمفتاح من الخارج، ثم اتجه إلى باب الشقة فى خطوات متعثرة، واقترب من الباب، وأحنى رأسه، وقرب أذنه من ثقب الباب، لعله يلتقط بأذنه أصوات الطارقين فلم يسمع صوتا. وتوقف رنين الجرس.. وشعر بالاطمئنان.. لابد أن الذى كان يطرق الباب قد تعب من الطرق بلا جدوى وانصرف معتقدا أن لا أحد فى الشقة.

وتنفس عادل الصعداء.. وعاد الدم يجرى فى عروقه من جديد.. واختفى الخائف فيه، وعاد يطل زئر النساء، الأميرة الآن فى غرفة النوم.. القدر يساعده، هذا الجرس المجهول اختصر كثيرا من الخطوات التى كان يجب أن يقوم بها لينقل الأميرة من الصالون إلى غرفة النوم! لن تمضى ثوان حتى تصبح الحقيقة عارية بين ذراعيه!

واتجه بخطوات سريعة عائدا إلى غرفة نومه، وأخرج المفتاح من جيبه. وقبل أن يضعه فى ثقب الباب سمع جرس الباب يدق من جديد بعنف واستمرار. وبدا صوت الجرس فى أذنه أعلى كثيرا مما كان.. فقد امتزجت سرعة دقات قلبه مع توالى دقات جرس الباب.

وماتت الأحلام الجميلة التى ولدت فى مخيلته من ثوان قليلة، واختفى زئر النساء وظهر اللص المذعور الذى يسمع خطوات رجال البوليس. وعاد إلى الباب من جديد، وفتحه نصف فتحة، وحرص على أن يسده بجسمه، ثم أطل برأسه من داخل الشقة.. واستقرت عيناه على ساقى امرأة.. ورفع عينيه إلى وجهها، فوجد أمامه الآنسة قسمت شاهين.

واطمأن كثيرا، وانزعج قليلا. اطمأن لأنه لم يجد أمامه زوج الأميرة.. ولم يجد ضباط البوليس الذين زاروا عمر الفلسطينى فى فندق شبرد.. ولم يجد واحدة من صديقاته المترددات على بيته.

وانزعج لأن قسمت شاهين تمثل فى نظره زوج كل امرأة يعرفها! . فهى تعتبر نفسها مسئولة عن شرف كل امرأة، وحراستها من الرجال الذئاب. وهى عبارة عن بوليس آداب متبرع، وفوق ذلك فهى صديقة حميمة لصديقته أميرة عبد العاطى!

وارتسمت على وجهه علامة استفهام وبجوارها علامة تعجب، تليها عدة نقاط، كأنه يريد أن يسأل قسمت ما الذى جاء بها الآن؟!

وابتسمت قسمت، كأنها قرأت علامة الاستفهام وعلامة التعجب والنقاط فوق وجهه، وقالت:

آسفة أننى أزعجتك يا عادل. لقد جئت أتسلم مبلغ العشرة الجنيهات اللى قلت لى فى التليفون إنك تبرعت بها لملجأ المتسولين!

وأحس عادل برغبة عارمة فى أن يحمل قسمت من يديها وساقيها، ويلقيها من الدور العاشر تبرعا منه لملجأ المتسولين! ووضع يده فى جيبه، وأخرج محفظته وناولها بسرعة عشرة جنيهات..

وأمسكتها بيدها، وراحت تتطلع فيها ببطء، كأنها تريد أن تتأكد أنها ورقة بنكنوت صحيحة، وليست مزيفة، ثم قالت له:

ـ دعنى، أجلس عندك قليلا لأكتب لك إيصالا بالمبلغ.

قال فى عجلة:

ـ إننى لا أريد ايصالا!

قالت وهى تعود إلى فتح حقيبتها فى بطء شديد، وتخرج دفترا للايصالات قلما:

ـ يجب اتباع الأصول، نحن لا نقبل فى الجمعية مليما بغير إيصال!

قال:

ـ إننى لا أريد التبرع باسمى.. العشرة الجنيهات تبرع من مجهول.

قالت له:

ـ حتى ولو كان المبلغ من مجهول فيجب أن أحرر ايصالا..

ثم حاولت أن تكتب الايصال وهى واقفة فلم تستطع، فعادت تقول له:

ـ دعنى أدخل عندك دقيقة واحدة حتى أستطيع أن أكتب الايصال..

قال لها بجفاء:

ـ إن لديه الآن اجتماعا هاما.. أرجو أن تمرى على غدا فى الشركة.. أو أن ترسلى لى الايصال بالبريد!

قالت له برقة، على غير عادتها:

ـ يا لك من رجل بخيل! ألا تريد أن تدعونى لأشرب فنجان قهوة فى شقتك؟. هذه هى المرة الأولى التى أزورك فى الشقة.. سمعت من أميرة عبدالعاطى أنها أجمل شقة فى القاهرة.. هذه فرصة لأتفرج على الشقة!

وفزع عادل تتفرج على الشقة؟! إنه ليس مستعدا لأن يضيع دقيقة واحدة الآن مع أجمل امرأة فى العالم، لا مع قسمت شاهين! فعاد يقول لها فى توسل:

- إن عندى الآن اجتماع مجلس إدارة.. ولا أستطيع أن أدخل سيدة أثناء الاجتماع..

قالت باسمة: إننى آنسة.. ولست سيدة!

قال وقد نفد صبره: آنسة.. سيدة.. هذا اجتماع مقصور على الأعضاء!

قالت: سأبقى جالسة فى الصالة إلى أن ينتهى اجتماع مجلس الادارة.

إغتاظ عادل.. ضاق بإلحاحها الغريب.. تمنى لو استطاع أن يخنقها فى تلك اللحظة، وقال لها هامسا:

- أؤكد لك أننى مشغول الآن جدا.. وقد لا ينتهى الاجتماع قبل منتصف الليل!

ورفعت قسمت صوتها وكأنها تتعمد إيصال صوتها إلى مجلس الادارة.. وقالت:

- إننى مستعدة لأن أبقى أنتظر إلى منتصف الليل.. إننى فاضية اليوم وليس عندى ما أعمله!

وذعر عادل من صوتها المرتفع.. لابد أن الأميرة سمعت الصوت وعرفت أنه صوت امرأة!.. امرأة جاءت تقتحم شقته.. وكلما طال الحوار تأكدت الأميرة أن المرأة إحدى صديقاته جاءت تضبطه مع امرأة أخرى.. لن تصدق أنها قسمت شاهين القبيحة الخلقة، ذات النظارات السوداء الكبيرة، ذات الثوب المهلهل.. مندوبة ملجأ المتسولين.

شعر أنه فى حاجة إلى الايصال الذى رفضه من دقائق ليثبت للأميرة أن قسمت شاهين هى التى كانت بالباب، حتى تصدق. وحتى لا تتشاجر معه

كما تفعل أى صديقة جديدة فى مثل هذا الموقف الدقيق.

وأسرع يقول لها:

ـ أكتبى الايصال!

قالت وهى تبتسم:

ـ ولكنك قلت لى: إنك لا تريد إيصالا.

قال: اقتنعت بحججك الوجيهة!

قالت: إذا كنت اقتنعت بحججى الوجيهة. فدعنى أدخل الشقة!

وشعر أنه سيفقد أعصابه أمام الحاح قسمت واصرارها على دخول الشقة، فقال لها فى صوت حازم صارم:

ـ هذا ليس وقت المزاح.. قلت لك إن عندى اجتماعا هاما. اجتماعا لمجلس الادارة!

قالت فى هدوء:

ـ وأنا مدعوة لحضور اجتماع مجلس الادارة!

قال فى دهشة: من الذى دعاك!

قالت، وهى تعبث بخصلة فى شعرها:

ـ مجلس الادارة كله!

قال وهو يهم بإغلاق الباب:

ـ ليس لدى وقت لهذا العبث!

قالت .

ـ أنت لا تعرف أننى أقوم بدور فرقة المطافئ! مهمتى أن أطفئ الحرائق.. وقد تلقيت إشارة بأن هناك حريقا فى الشقة ١١٠ فى الدور العاشر، فجئت لاطفائها!

قال غاضبا:

ـ قلت لك إننى مشغول.. ولا وقت عندى للمزاح.

قالت:

ـ اسألنى أولا.. من الذى أرسل لى إشارة عن وجود حريق فى هذه الشقة؟!.. إنها الأميرة!.. الأميرة الموجودة عندك هى التى استنجدت بى وطلبت منى أن أحضر إلى هنا لاخماد الحريق!

قال فى ذهول:

ـ الأميرة! الأميرة!

قالت قسمت:

ـ نعم الأميرة، الأميرة! وقد تعمدت أن أتأخر عدة دقائق عن الموعد الذى حددته لى الأميرة، حتى أصل بعد اندلاع النار!

وذهل عادل! انتقل كل سخطه من قسمت شاهين إلى الأميرة! أصبح يشعر برغبة فى أن يلقى بالأميرة أيضا من الطابق العاشر، أن يخنقها بدلا من قسمت شاهين..

ودعا قسمت إلى الدخول، وأجلسها فى الصالون. وخرج من الصالون ولم يتجه إلى غرفة النوم.. لم يكن هذه المرة فى عجلة للذهاب إلى غرفة النوم

كما كان منذ دقائق. أحس بأنه ينتفض من الغيظ، هذه المرأة تريد أن تعبث به. تحضر إلى شقته توهمه بأنها قادمة إليه فى موعد غرام ثم تفاجئه بـأنها تريد منه أن يساعدها على لقاء حبيبها، ثم تتفق مع قسمت علـى أن تحضر إلى شقته بعد وصولها بدقائق لكيلا تترك له فرصة ينفرد بهـا وقبـل ذلك تدعوه فى حفلة الأميرة شويكار ليلتقى بها عند التواليت ! ثم يفاجأ بها تعطى رقم تليفونها لحبيبها القديم عمر الفلسطيني، وتتركه بغير أن تقول له كلمـة اعتذار !

ماذا تقصد هذه المرأة هل تريد أن تنتقم لكل النساء الـلاتى وقعـن فى حبائله ؟ هل تريد أن تهزأ به كزئر نساء؟ هل تريد أن تنتقم منه لأنه صفعها على وجهها، فترد الصفعة بطريقة أعنف وأقسى وأشد إيلاما؟ تـرفعه إلـى السماء ثم تهوى به إلى الأرض، توهمه بأنها تقـوده إلـى بـاب الجنـة، بينما هى تدفعه إلى أبواب الجحيم؟ تتظاهر بأنها تعانقه وهى تخنقه؟ لقد رأى بسمة مريبة عل شفتيها عندما رأته مضطربا وجـرس البـاب يـدق، مما يدل على أنها هى التى دبرت هذه المؤامرة، واتفقت مع قسمت شاهين على أن تقوم بدور الزوج أو ضابط البوليس !

وأحس عادل برغبة فى أن يعبث بالأميرة كما عبثت به، ومشى إلى غرفة نومه، وأخرج مفتاحه، وفتح الباب، ورأى الأميرة متمددة فوق فراشه تبتسم ابتسامتها المريبة.

وشجعته هذه الابتسامة على أن يرد التحية بأحسن منها، فأغلق البـاب فى هدوء، ثم أقفله بالمفتاح.

وقفزت الأميرة من الفراش فى دهشة وقالت :

ــ من جاء حتى تقفل الباب بالمفتاح؟

قال عادل، وهو يتحكم فى أعصابه ويخفى غيظه:

ـ لا أحد!

قالت الأميرة.

ـ ولكنى سمعت بأذنى رنين الجرس وصوت الطرق على الباب!

قال عادل بهدوء:

كان وابور المطافئ هو الذى يدق الجرس!

قالت الأميرة فى استغراب:

ـ هل يصعد وابور المطافئ إلى الدور العاشر!

قال عادل ساخرا:

ـ لم يصعد الوابور نفسه، وإنما جندى يحمل خرطوما.. وقال إنه تلقى إشارة بأن حريقا فى الدور العاشر.. فطمأنته إلى أن الحريق لم يبدأ بعد فى هذه الشقة.. وعندما يبدأ الحريق سوف نتصل به! وطلبت منه ألا يبتعد. فبعد دقائق سوف تشتعل النيران!

قالت الأميرة:

ـ أين ستشتعل النيران؟

قال عادل:

فى هذه الغرفة! عندى الكبريت. وعندك المواد القابلة للالتهاب!

قالت الأميرة:

لا تمزح. ما هى حكاية الحريق!

قال عادل:

ـ مسأله بسيطة.. إن حريقا شب فى الطابق التاسع الذي تحتنا!

قالت الأميرة فى فزع:

ـ ولكن النار لا تلبث أن تصل إلى الدور العاشر!

قال عادل:

ـ لا خوف من أن تحترقى! لقد تأكدت أنك غير قابلة للالتهاب!

قالت الأميرة وقد زاد فزعها:

ـ دعنا نخرج من هنا! يجب أن أخرج فورا!

قال عادل:

ـ لا فائدة من الخروج.. النار تحاصر السلم.. والمصعد متوقف.. وسيارات المطافئ تحيط بالعمارة.. والأمل الوحيد أن يرفعوا سلم المطافئ حتى يصل إلى الطابق العاشر، وتنزلى على هذا السلم!

قالت والكلمات ترتعش فوق شفتيها:

ـ سيرانى كل من فى الشارع وأنا أخرج من نافذة شقتك! ستكون فضيحة!

قال عادل ساخرا:

ـ ولكنك قلت لى: إنه لا يهمك أى شيء!

قالت ملتاعة:

ـ إننى خائفة من الحريق!

قال عادل وهو يجلس فوق الفراش :

ـ أما أنا فلست خائفا من الحريق ! إننى على العكس أرحب بالحريق ! ألم تقولى لى من دقائق : « لا تخف يا عادل، إننى مستعدة لأن أموت معك هنا ». لماذا تخافين الآن؟ إن السماء استجابت إلى دعواتك! وما دمنا لا نستطيع أن نعيش معا فإننا نستطيع أن نموت معا !

وزاد فزع الأميرة واضطرابها وقالت فى صوت مبحوح :

ـ أنا لا أحب أن أموت محترقة !

قال عادل وهو يشعل ولاعته فى الهواء :

ـ ما الفرق بين الموت بالنار والموت بالشيخوخة ؟! إن نار الشيخوخة تعذب المرأة أكثر من النار الحقيقية ! تلتهمها مثل النار. تشوهها مثل النار. تحولها إلى رماد !

قالت غاضبة :

ـ وهل هذا وقت الضحك والابتسام؟

قال عادل :

ـ أنت كنت تبتسمين عندما كنت ترييننى مضطربا وجرس الباب يدق، وأنا أتصور أن زوجك أو رجال البوليس هم الذين يقفون أمام الباب !

قالت

ـ كنت أعرف أنه لا زوجى ولا البوليس بالباب.. ولهذا كنت أضحك !

قال ضاحكا

ـ وأنا أضحك لنفس السبب

قالت :

ـ إذن لا توجد حريقة !

قال :

ـ لا.. يوجد وابور مطافئ ! توجد قسمت شاهين فى الصالون !

قالت ساخطة :

ـ إذن، لماذا أفزعتنى وقلت لى إن فى العمارة حريقا ؟

قال :

ـ لأذوق نفس اللذة التى شعرت أنت بها عندما رأيتنى فزعا عندما دق الجرس !

قالت له :

ـ أنت قاسى القلب.

قال ساخرا :

ـ وما أحن قلبك !

قالت الأميرة :

ـ فلنذهب إلى الصالون إذن.. ماذا ستقول قسمت عندما تجدنا تاخرنا فى الذهاب إليها !

قال عادل :

ـ لن تقول شيئا.. لقد قلت لها إنك فى غرفة النوم.. وقالت إنها مستعدة

لأن تنتظر حتى منتصف الليل.. وأنها فاضية اليوم وليس لديها ما تعمله!

قالت محتجة:

ـ كيف تقول لها: إننى فى غرفة النوم؟

قال عادل:

ـ قلت لها الحقيقة!

قالت غاضبة:

ـ ولكن.. لماذا قلت لها؟

قال:

ـ ولماذا قلت لها أنت: إنك قادمة إلى؟

قالت:

ـ إننى لم أقل لها هذا، هى التى اقنعتنى بأن أحضر! كنت متـرددة فى الحضور، وسألتها رأيها، فقالت لى إن من رأيها أن ألبى دعوتك للذهاب إلى شقتك، وقالت لى إنك أنبل رجل رأته فى حياتها.

ـ قال عادل فى دهشة:

ـ هل قالت قسمت عنى إنى نبيل؟ رأيها أن كل الرجال سفلة، أوغاد!

قالت الأميرة:

ـ لقد قالت لى إن عادل علاء الدين هو الرجل النبيل الوحيد الذى عرفته فى حياتها. وقد كنت خائفة، لم أكن خائفة منك، كنت خائفة من نفسى.. كنت أخشى أن أضعف أمامك، وأنا لا أريد أن أضعف. أريد أن أبقى وفية لعمر.

ووعدتنى بان تصعد إلى الشقة بعد دقيقة واحدة، وجاءت معى إلى باب العمارة، ولكنها لم تصعد بعد دقيقة. بل تركتنى معك نصف ساعة!

وابتسمت الاميرة وقالت:

ـ لعلها أرادت أن تمتحن قدرتى على الصمود!

قال عادل وقد تحولت قسمت شاهين لأول مرة فى عينيه إلى امرأة جيملة:

ـ لعلها أرادت أن تمتحن قوتى فى الهجوم!

قالت الأميرة:

ـ إنك أبرع مهاجم رأيته فى حياتى!

قال عادل:

ـ تقصدين.. أفشل مهاجم! إن القلعة لم تسقط!

قالت:

ـ قد يدهشك أن القلعة لم تصمد.. فى لحظات كانت تتمنى أن تسقط فى يدى الغازى الفاتح! ولكنك فضلت أن تسخر بالقلعة على أن تغزوها!

قال:

ـ أننى شعرت بأنك تحبين عمر فعلا! رغبتى فى الغزو تحولت فجأة إلى رغبة فى احترام صمودها! تحولت من «غازى» إلى «حامى»، صياد يريد أن يلقى شباكه إلى حارس يمنع صيد الأسماك! إننى رأيت الحقيقة هنا.. فى غرفة النوم! لم أتصور أن امرأة مثلك ممكن أن تحب من وراء الحدود، ممكن أن تخلص لرجل تعرف جيدا أنه لن يعود.

كنت أعتقد أن الوسط الذى تعيشين فيه قضى على كل المبادئ، حطم كل القيم.. ولكنى فوجئت بحقيقة أذهلتنى. إن البيئة ليست هى التى تغير المرأة. قد نجد فاسقا فى دير، ونجد قديسة فى كباريه. إن شعورى الآن شعور الذهول لأننى وجدت قديسة تعيش فى كباريه!

قالت الأميرة: لست قديسة! لست ملاكا! إننى امرأة مخلوقة من نار. ولكن حبى لعمر هو الذى غيرنى! إننى لا أتمنع عنك بإرادتى. إننى اتمنع برغم إرادتى! أحس بأن هذا الشاب الغريب علق فى جسدى قفلا، وأخذ مفتاحه معه.. وأتمنى أن أستعيد هذا المفتاح!

وفى بعض اللحظات وأنا معك تمنيت أن تفتح القفل، أن تنتزعه من مكانه أن تنقذنى من السجن الذى وضعت نفسى فيه. ولكنى كنت أعود لنفسى.. أجد لذة فى عذاب الصمود، أكثر من اللذة التى أجدها فى الاستسلام! ليست البيئة هى التى تؤثر فى أخلاق المرأة الرجل هو بيئة المرأة. الرجل الذى تحبه يصبح بيئتها، حياتها، الهها، فلسفتها، وكل ما سواه هو موت وعدم. تصاب المرأة فى لحظات بفترة شك، كالشك الذى ينتاب العلماء فى محاولة للاعتراض على سلطة الدين، أو فى البحث عن دليل ملموس على وجود الخالق.. ثم لا تلبث المرأة أن تجد فى قبلة الرجل الذى تحبه، أو فى الالتصاق به، المعجزة التى تبحث عنها.. الدليل الذى لا يقبل جدلا! وعندئذ تعود إلى الايمان برجلها من جديد أشد مما كانت .. المرأة عندما تحب حبا حقيقيا تحب رجلا لا تراه، كما يعبد المؤمنون إلها لم يروه! يشعرون به فى كل ماحولهم فى داخلهم، فى كل مكان، يعرفون أنه يراهم أينما كانوا. يحاسبهم على هفواتهم، يكافئهم على حسناتهم.. هذا ما تشعر به المرأة التى تحب حبا حقيقيا.. رجلها بالنسبة إليها هو الهها الصغير!

ووقف عادل مبهوتا وهو يسمعها تتحدث. لم يتصور أنه من الممكن أن تخرج من فم مثل هذه الأميرة الجميلة هذه المعانى الجميلة! لقد تعود أنه كلما كانت المرأة جميلة، كانت تافهة. كأن الله لا يعطى جمال العقل وجمال الجسم لفرد واحد. فمن أخذ قوام الغزال أخذ عقل الحمار، ومن نال قسمات الضبع نال معها حكمة الحية، وأحس بأنه يسمع كلمات جميلة من امرأة جميلة! هل فى استطاعة الأميرات أن يشترين الكلمات الغالية كما يشترين الفراء الفاخر، والأثواب الأنيقة، والمجوهرات الثمينة هل هذه كلماتها أم هى كلمات مستعارة كالرموش الصناعية والباروكة والكورسيه والسوتيان؟ هل هذه هى كلماتها أم هى كلمات عمر الفلسطينى، وضعها على شفتيها فراحت ترددها كالببغاء؟ وعجب عندما تأكد من حرارة الكلمات وهى تخرج من شفتيها، من لمعان عينيها، من تعبيرات وجهها، إنها كلمات تخرج فعلا من قلب الأميرة الجميلة..

وتضاعف جمال الأميرة فى عينيه! الرجل يفتن بالمرأة الجميلة من الخارج ولكنه يجن بالمرأة الجميلة من الخارج والداخل معا! وأحس بحسرة أن كل هذا الجمال ليس له.. إنه ملك عمر.. الممنوع من دخول مصر!

وعجب عادل لسخرية القدر. المرأة التى فى فراشه لا يملكها.. وإنما يملكها رجل بعيد جدا لا يستطيع أن يطأ بقدميه أرض البلد الذى تقيم فيه.. ولم يعد يكره عمر كما كان فى أول اللقاء لم يعد يغار منه، بل أحس بشىء يشبه الاعجاب.. لقد استطاع هذا الشاب من وراء الحدود أن يفعل كل هذا بالأميرة الفاتنة! ولم يكن إعجابا خالصا، ولم يكن حسدا خالصا، وإنما كان مزيجا من الحسد والاعجاب.. ولكن كمية الاعجاب كانت أضعاف كمية الحسد.. ووجد نفسه يقول بغير تفكير:

ـ لقد قررت أن أغير موقفى منك! قالت الأميرة مبتهجة:

ـ ستدعنى أذهب إلى الصالون! قال عادل:

ـ كلا.. سوف أساعد عمر على الحضور إلى مصر!

وأرتمت على صدره تعانقه وتقبله والدموع تنهمر من عينيها.

وأبعدها وهو يقول: إبعدى عني.. حتى لا أغير رأيى!

* * *

تطلعت قسمت إلى الأميرة وهى تدخل مع عادل إلى الصالون اختفت النظارة الكبيرة السوداء فوق عينيها النظرة التى أطلت منها، نظرة المرأة التى لا تخطئ أبدا عندما ترى رجلا وامرأة خارجين من غرفة نوم مغلقة!

ولكن النظرة أخطأت هذه المرة. وكانت قسمت معذورة فى خطئها. كانت الأميرة تبدو سعيدة سعادة غريبة. كأنها قادمة من السماء! وما فراش المرأة العاشقة إلا السماء التى تحلق فيها! وكانت فى وجهها حمرة لا تظهر إلا نتيجة عصير الشفاه لخدود النساء. وكان فى عينيها ذلك البريق اللامع الذى هو علامة مؤكدة على أن ماء الحياة أسكر جسد المرأة كله!

وفهمت الأميرة من البسمة التى ملأت وجه قسمت ما أخفته النظارة السوداء، فقالت لها:

لا يمكن أن تتصورى، ماذا كنا نفعل أنا وعادل فى غرفة النوم؟!

ـ قالت قسمت ساخرة:

ـ إننى أتصور أنكما كنتما تلعبان لعبة «البصرة»!

قال عادل:

ـ فى لعبة البصرة تتطابق أوراق اللعب وأوراقنا لم تتطابق.

قالت ضاحكة:

لعلها لعبة «شلح».. إنها لعبة يشلح فيها الرابح اللاعب الذى أمامه من كل أوراقه.

قال عادل:

ـ فعلا كنا نلعب لعبة «شلح» ولكن الذى يدهشك أن الأميرة هى التى ربحت اللعبة وجردتنى من كل شيء!

قالت قسمت:

ـ يا لك من لاعب متواضع إن معلوماتى أنك خير من يجيد لعبة «شلح» فى القاهرة!

قالت الأميرة:

ـ لقد صدقت يا قسمت عندما قلت لى أن عادل هو أنبل رجل فى مصر!

قال عادل:

ـ هذه شهادة ضدى.. وليست لمصلحتى! إن باش أغا قصر عابدين هو أطهر رجل فيها! إننا دخلنا غرفة النوم وأنا زئر نساء، وهى الأميرة التى وقعت فى شباكى.. وخرجنا من غرفة النوم وهى الأميرة التى نجت من الشباك.. أما أنا فقد أصبحت باش أغا قصر الأميرة!

قالت قسمت:

ـ لقد نصحت الأميرة بأن تصارحك بكل شيء.. هذه أعظم خدمة قدمتها لك!

قال عادل:

ـ إنها أسوأ خدمة قدمتها لي.. ليتها ما صارحتني بكل شيء!

قالت الأميرة محتجة:

ـ ولكنك قلت لي: إن مهمتك في الحياة هي البحث عن الحقيقة، فلماذا تضيق عندما ترى الحقيقة؟

قالت قسمت وهي تشعل سيجارة:

ـ هذه هي عادة الرجال، يطلبون من المرأة أن تقول لهم الحقيقة، كل الحقيقة.. فإذا أظهرت الحقيقة ندموا لأنهم عرفوها، وتمنوا لو أنها استمرت تكذب عليهم وتخدعهم!

قالت الأميرة:

ـ الحقيقة بشعة! إنها صورة بالأشعة! تصوري لو نشرت الصحف صورة جسدي بالأشعة وقالت هذه هي آخر صورة للأميرة فلانة.. سوف ينسى الناس صورتي الفوتوغرافية التي تنشر على الصفحات الأولى. ولا يذكرون إلا صورة هيكلي العظمي!

قال عادل:

ـ كنت على استعداد لأن أحب صورتك بالأشعة.. لولا «الحصاة» التي رأيتها في قلبك!

قالت الأميرة وهى تضحك:

ـ هل تسمى عمر حصاة؟!

قالت قسمت:

ـ إنه ليس حصاة إنه سرطان!

قالت الأميرة:

ـ ولمكنه سرطان لذيذ

قالت قسمت:

قالت قسمت:

ـ قلت لك ألف مرة: إننى لا أوافق على هذه العلاقة.

قالت الأميرة:

ـ أنت لا توافقين على أى علاقة بين أى رجل وأية امرأة!

قالت قسمت فى حماس:

ـ لماذا لا تقولين الحقيقة كلها!

لقد قلت لك إن الرجل الوحيد الذى يصلح لك هو عادل علاء الدين! إنــه الرجل الوحيد الكامل فى عالم من الناقصين.. إنه العملاق فى دنيا الأقــزام. إنه الملاك فى دولة الشياطين ولم يصدق عادل أذنيه وهو يسمع قسمت التى لا يعجبها العجب تغمره بهذه الصفات والنعوت، فقاطعها قائلا:

ـ هل أنت مريضة يا قسمت؟! لقد كنت أعتقد أنك عدوة كل الــرجال! وكنت أسمع أنك تنصحين كل صديقة لى بأن تقطع علاقتها بى!

قالت قسمت وقد احمر وجهها وبكلماتها ترتعش خجلى فوق شفتيها:

ـ كنت أعتقد يا عادل أن كل واحدة منهن غير جديرة بك !

قالت الأميرة :

ـ أشكرك يا قسمت، معنى ذلك أننى المرأة الوحيدة الجديرة بعـادل .. كأننى أحسن منهن جميعا !

قالت قسمت :

ـ إنك أقل منهن سوءا !

وأطفأ عادل سيجارته وقال :

ـ إننى اقتنعت بأن الأميرة تحب عمر، وقد وعدتها بأن أقف بجـوارها وسوف أساعدها. إننى احترم المرأة التى تخلص هذا الاخـلاص للـرجل الذى أحبته. إننى لا أخطف الزوجات السعيدات، بل أخـطف الـزوجات الشقيات لأحولهن إلى سعيدات، أخطف المحرومات من الحـب لأذيقهـن حلاوة الحب.

قالت قسمت :

ـ ولكنها لا تحبه ! إن بيننا نحن النساء من تحب العذاب.. من تجد لذة فى أن تذرف الدموع.. طعم الدموع فى شفاهنا ألذ من طعم القبلات.. إنهـا لا تحب إلا الرجل البعيد.. الرجل الغائب.. الرجل المستحيل.. فإذا اقترب الرجل زهدته، وإذا عاد كرهته.. وإذا أصبح ممكنا.. نسيته !

قالت الأميرة :

ـ هل تصـــدقين أنه لو كان عمر فى القاهرة وليس فى القدس، لما أحببته كل هذا الحب.

قالت قسمت :

ـ نعم ! إننى أتصور أنه إذا نجحت محاولات عادل لادخال عمر إلى القاهرة فسوف يموت هذا الحب الذى لا يشعله إلا الحرمان !

وسكتت قليلا ثم نظرت إلى عادل وقالت :

ـ ربما كان عادل علاء الدين أخبث مما تتصورين! ربما كان يفهمك كما أفهمك، ولهذا قرر أن يبذل المستحيل ليجيء بعمر إلى القاهرة وبذلك يطفئ الشوق الذى يملأ قلبك !

واحتج عادل قائلا :

ـ إنك لا تزالين عدوة الرجال ! منذ دقائق قلدتنى وسام النبل والشهامة، ويظهر أنك استكثرت على هذا الوسام.. فأسرعت تنزعينه من فوق صدرى، وتعديننى سافلا كباقى الرجال !

وتأملته قسمت طويلا ثم قالت :

ـ أنت على حق ! إنك وأنت رجل نبيل تبدو ثقيل الدم، كأنك تمثال.. إننى أفضل أن تحتفظ ببعض سفالة الرجل لتبقى خفيف الدم، لتتحول من حجر إلى لحم ودم !

ـ قال عادل :

ـ إذن أنت تعرفين أن سفالتنا نحن الرجال هى ترجمة لكلمة الحيوية فينا ! أعداء الرجال يسمونها «سفالة».. وأصدقاء الرجال يسمونها «جاذبية»! اختلاف النظرة هى التى تؤدى لاختلاف المعنى.. عندما ترى امرأتان نظرة شبق فى عينى رجل، تقول المرأة التى لا تحبه إنها نظرة سافلة، وتقول المرأة التى تعشقه إنها نظرة لذيذة. والنظرة واحدة فى

الحالتين. ولكن المرأة الأولى تجهل لغة الرجل والمرأة الثانية تفهمها!

قالت قسمت :

ـ أنا أجيد فهم كل لغات الرجال!

الحيوان فيهم هو الذى يتكلم دائما.

قال عادل :

ـ هذا يتوقف على نوع الجزء من جسدنا الذى يلتقط الكلمات ! ليست آذاننا وحدها هى التى تسمع ! إن عيوننا أحيانا تسمع خيرا من آذاننا ! وعندما تحب المرأة رجلا، لا تسمعه بآذنها فقط، إنما تسمعه بقلبها، بعينيها، برأسها، بجسدها كله.. ولهذا تسمع الكلمات أوضح كثيرا مما تسمعه بآذنيها.. وعندما لا تحب المرأة تصاب بالصمم فى كل مكان من جسدها، فلا تسمع الكلمة على حقيقتها. وتصاب بالعمى فلا ترى النظرة على حقيقتها. وتصاب بفقدان الاحساس فلا تشعر أصابعها بالحرارة وهى تلمس أصابع الرجل. وتفقد حاسة الذوق فلا تحس بحلاوة القبلة فى شفتيها! الحب له حواس خمس غير الحواس الخمس التى خلقنا بها، حاسة البصر، وحاسة الشم، وحاسة اللمس، وحاسة السمع وحاسة الذوق تتحول إلى حواس جديدة، بقدرات جديدة. ولا يشعر بهذه الحواس إلا من عرف الحب الحقيقى !

قالت قسمت :

ـ هل تعتقد أننى فقدت هذه الحواس الخمس؟

قال عادل :

ـ إن هذه الحواس موجودة فى كل امرأة.. والذنب ليس ذنبها إذا لم

تتحرك هذه الحواس.. إنما هو ذنب الرجل الذى لم يعرف كيف يحرك هذه الحواس.

قالت قسمت :

ـ لقد وجدت أخيراالرجل الذى حرك حواسى الخمس.

قال عادل :

ـ مادمت وجدت الرجل.. فإن المعجزة قد حدثت !

قالت قسمت :

ـ إن المعجزة لم تحدث بعد.. صحيح أننى وجدت الرجل، ولكن هـذا الرجل لم يجدنى !

قال عادل فى دهشة :

ـ كيف لم يجدك ؟

قالت فى تلعثم :

ـ لأنه.. لأنه أعمى !

* * *

وكانت الأميرة تسمع الحوار دون أن تفهمه. وأحست فجأة بـأن عـادل وقسمت نسيا أنها موجودة فى الغرفة..

وبدأت تشك فى مغزى هذا الحوار.. وخيل إليها أن قسمت لم تجئ إلـى الشقة لتطفئ حريق الأميرة.. وإنما جاءت لتشعل حريقها هى !

ولم تصدق أن من الممكن أن يخطر ببال امرأة قبيحة الخلقة.. مهلهلـة

الثياب، مهوشة الشعر، أن تلفت نظر عادل...

وشعرت برغبة غريبة جديدة. كأنها تدخل فى منافسة مع قسمت لتـظفر بقلب عادل.. هذا القلب الذى لم يهزمها حتى وهى وحدها معـه فى غـرفة النوم..

ولكنها عندما وجدت أمامها غريمة.. أية غريمة.. أحست بحلاوة الـزهرة التى تجاهلتها.. وأحست برغبة فى أن تمد يدها وتلتقط الزهرة عنـدما رأت يدا أخرى تمتد إليها.

وقررت أن تتدخل فى الحديث فقالت:

ـ الرجل لا يصاب بالعمى.. إلا عندما يرى امرأة لا يستطيع أن يحبها!

قالت قسمت، وكأنها تدافع عن طفل ولد فجأة فى قلبها:

ـ الرجل الذى أحببته.. مصاب بعمى الألوان، بعض الناس لا يفـرقون بين الألوان، الأخضر كالأزرق فى عيونهم، الأحمر كالأصفر.. ولكننى أعتقـد أنه مرض مؤقت يمكن أن يشفى صاحبه منه!

قالت الأميرة تتحداها:

ـ إنه مرض مستديم كالعاهة المستديمة!

وصمتت قسمت. امتلأ قلبها باليأس، كأنها اقتنعت بأن مـرض الـرجل الذى أحبته غير قابل للشفاء. سيبقى أعمى. لا يراها على حقيقتها.. لأنـه عاجز عن أن يميز بين الألوان.

وفجأة تكلم عادل. وأحست قسمت وهى تسمعه برعدة فى جسدها، كأنها

تسمع موسيقى لذيذة، الموسيقى التى عاشت تحلم بأن تسمعها فى يوم من الأيام.

وسمعته بأذنيها، وبعينيها، وبقلبها، وبجسدها..

قال عادل:

ـ إننى أشعر بشعور غريب.. يخيل إلى أن المعجزة قد حدثت.. أصبحت لأول مرة فى حياتى أميز بين الألوان.. لا أعرف كيف حدثت هذه المعجزة.. لعلها حدثت عندما عرفت الحقيقة فى غرفة النوم.. لا.. إنها لم تحدث فى غرفة النوم.. إنها حدثت عندما رأيت الحقيقة وهى تدق بابى فى عنف وإصرار!

الفصل السابع

دخلت قمست قصر والدها شاهين باشا عبد اللطيف، بحى جاردن سيتى فى القاهرة. وصعدت درجات السلم الرخامي العريض بخطوات سريعة كأنها تعدو من جندى بوليس يحاول الامساك بها. لا شىء فى مظهرها المسكين، ولا فى ثيابها الباهتة. ولا فى حذائها المعفر بالتراب، يدل على أنها ابنة صاحب هذا القصر الكبير ووحيدته. الذى يراها فى تلك اللحظة يحسبها خادمة فى القصر، ويأسف لبخل أصحاب القصر الذين لا يشترون ثيابا لائقة للخادمات اللاتى يعملن فى هذا القصر الفخم!

وهرول السفرجي ياسين.. بقامته الفارعة التى تشبه الرمح.. وببشرته السوداء اللامعة. وبعينيه النفاذتين كعينى الصقر. وبقفطانه الأزرق الفضفاض المزركش بالذهب. وبعمامته البيضاء المكورة.. هرول إلى الباب الحديدى المغطى بالزجاج يفتحه وينحنى بأدب واحترام لسيدة القصر الصغيرة.

ولم تلتفت قسمت لتحيته، ولم ترد عليه، بل بادرته بقولها:

ـ هل سأل أحد عنى؟

وأجاب ياسين بصوت خفيض يفيض مرارة إن أحدا لم يسأل!

وأحنت قسمت رأسها فى أسى وأبطأت فى مشيتها. واتجهت إلى الـة

التليفون الموضوعة على مائدة فى الردهة الـواسعة. ورفعـت السـماعة. ووضعتها على أذنها. كأنها تتصور أن الحرارة انقطعت من التليفون. وكأنها كانت تبحث عن عذر للتليفون الذى لم يسأل عنها.. ووجـدت الحـرارة فى التليفون، وزادت المرارة فى قسماتها وأعادت السماعة إلى مكانها. وحملـت آلة التليفون معها. وصعدت بها إلى غرفتها فى الطابق العلـوى، وأغلقـت الباب.

وهز ياسين رأسـه فى عجب.. إنه يعمل فى هذا البيت منذ عشرين عاما.. مذ كانت قسمت طفلة فى الخامسة من عمرها. ولم يحدث مـرة واحـدة أن سألته قسمت : هل سأل أحد عنى؟ كان لا يهمها أبدا إذا سأل الناس عنها أو لم يسألوا، بل لعلها كانت تفضل أن ينساها الناس ولا يسـألوا عنهـا. ولكنها فى الأيام الأخيرة تكرر هذا السؤال نفسه عدة مرات كل يـوم.. إذا دخلت الحمام فى الصباح وخرجت منه بعد لحظات تسـأل ياسين : هل سأل عنى أحـد؟ وتطرح هذا السؤال نفسه عندما تعود من ملجأ المتشردين بعد الظهر. ثم تسأل السؤال نفسه عند عودتها إلى البيت فى المساء!

وإذا حـدث أن دق جرس التليفون فى الطابق الأول، وهـى فى الـطابق العلوى، قفزت درجات السلم لتكون أول من يرد على رنين التليفـون.. ثـم أصبحت بعد ذلك تأخذ التليفون معها إلى غرفة النوم، وتصحبه معها إلـى الحمام، وتضعه بجوارها وهى تتناول طعام الافطار!

وفى الأيام الأخيرة تغيرت قسمت التى كان يعرفها ياسين. لم تعد الطفلة التى كان يحملها على كتفيه ويلاعبها ويضـاحكها. اختفـت ابتسـامتها الساخرة. التى كانت تسخر من كل شىء حتى من نفسها! كانت فى المـاضى لا تكاد ترى ياسين حتى تحييه بابتسامة جميلة. ثم تسأله عن صحته، كانت

تستفسر عن صحته ثلاث وأربع مرات في اليوم. وفي الأيام الأخيرة لم تعد تستفسر عن صحته. لا تستفسر عن شيء إلا عن أن أحدا سأل عنها في التليفون. ولم تعد تمد يدها لمصافحة ياسين. وإنما تمد يدها دائما إلى آلة التليفون، وتحملها معها إلى غرفة نومها وتغلق الباب!

وشعر ياسين بالاشفاق على قسمت. التليفون الذى تنتظره لا يدق أبدا. لابد أنها تنتظر رجلا، أى رجل ممكن أن يطلب سيدته الصغيرة التى تبدو أشبه بالمتشردات؟ لقد لاحظ دائما في المآدب والحفلات الكثيرة التى يقيمها الباشا في القصر أن الشبان ينفرون من الحديث معها. ويتفادون الجلوس بجوارها، وهى تبادلهم نفس العداء. تهرب منهم ويهربون منها، تكرههم ويمقتونها، تنقلب سحنتها كلما رأت رجلا، ينطفئ وجهها، تختفى البسمة من شفتيها، سعادتها في أن تبدو دائما كالخرقة المهلهلة، بشعر باهت مهترئ، بوجه عابس مقطب، بنظارة سوداء كبيرة تزيد وجهها اكفهرارا.

وكثيرا ما لاحظ ياسين أن قسمت كانت تنسى نفسها، فتبدو في داخل القصر مقبولة بعض الشيء. في ثوب بسيط يناسب لون بشرتها السمراء. فإذا علمت أن والدها جاء بضيوف من الرجال لتناول الطعام في البيت، تسرع مهرولة إلى غرفتها، لا للتزين كما تفعل كل النساء في مثل هذه المناسبات، وإنما لتنكش شعرها في المرآة، وترتدى ثوبا أكثر هلهلة من الثوب الذى كانت ترتديه في أول الأمر. فإذا أرادت أن تغادر البيت حرصت على أن تقف في المرآة، لتخفى الجميل منها. وتبرز القبيح فيها، كأنها تخشى أن يعجب بها رجل. أو تستلفت نظر شاب!

وكان ياسين يرجع هذا الحرص إلى حشمة سيدته ووقارها، وكراهيتها لمجاراة فجور النساء في هذه الأيام وزينتهن الفاضحة. وكان يشبه قسمت

بنساء بلاده فى النوبة اللاتى يرفضن أن يرى الرجال الأغراب فتنتهن وحسنهن وجمالهن الخلاب. فإذا أرادت واحدة منهن الخروج من دارها، تعمدت أن تخفى جمالها ورشاقتها وأناقتها خلف حجاب أسود سميك. خبأت قوامها السمهرى فى ثوب أسود فضفاض فتبدو أشبه ببالة القطن عندما يسقط فوقها الماء والتراب، وبذلك تضمن المرأة النوبية أنها لا تثير فى الرجل الحيوان فيه، وإنما تثير فيه الزهد والتقوى والصلاح!

ولكن الذى كان يستوقف نظر ياسين أن قسمت لم تكن تخجل من الرجال، ولم تكن تتحشم فى الحديث معهم. بل كانت تنفر منهم، وتنتهز كل مناسبة لتسخر منهم وتلعنهم، وكثيرا ما كانت تنعتهم بالكلاب وبالذئاب وبالابالسة وبالشياطين. وكان يسائل نفسه ما الذى جعل قسمت تنفر من الرجال كل هذا النفور؟ وما الذى فعله الرجال حتى تكرههم قسمت هذه الكراهية التى سمعها تعبر عنها لصديقاتها. وهو يدير عليهن الأطباق فى مأدب الغداء والعشاء؟

* * *

وقد حدث مرة أن قالت قسمت له:

ـ إن عيبك الوحيد يا ياسين أنك رجل! ولو أنك كنت امرأة لأحببتك أكثر مما أحبك الآن ألف مرة!

واستعاذ ياسين من الشيطان الرجيم. وكاد طبق الفاكهة يسقط من يده عندما قالت له قسمت:

ـ إنهم يجرون الآن عمليات جراحية لتحويل الرجال إلى نساء.. فما رأيك لو أننى أجرى لك هذه العملية على حسابى؟!

وذعر ياسين من عرضها هذا وتصور فى أول الأمر أنها جادة فيما تقول. وكاد يستقيل من خدمة الباشا، خشية أن تخدره ست قسمت.. وتنقله إلى المستشفى، ويجرى به الأطباء هذه العملية، ثم يستيقظ فى الصباح فيجد نفسه امرأة!

وليلتها لم ينم ياسين. أقفل باب غرفته طوال الليل بالمفتاح يحرس رجولته إلى الصباح..

ثم عرف أن ست قسمت كانت تداعبه.. وعندئذ اطمأن إلى أنه لن يصبح امرأة، واستمر فى خدمة الباشا!

وتذكر ياسين أنه دخل فى خدمة الباشا بعد وفاة زوجته بخمسة أعوام. ولم يسمع من الخدم الذين سبقوه أن أم قسمت كانت تكره الرجال، أو كانت تهمل مظهرها. صورها الفوتوغرافية المعلقة فوق جدران البيت تشير بوضوح إلى أنها كانت امرأة جميلة، وكانت أنيقة فى اختيار ملابسها، وفى تصفيف شعرها الطويل، وفى ثيابها المزركشة.

إن الصورة الملونة المعلقة للمرحومة فى الصالون تظهر عينيها الواسعتين الجميلتين غارقتين فى هالة ملونة بألوان قوس قزح، فيها نظرة حلوة كأنها تنتظر حبيبا مجهولا. طبقة خفيفة من الظلال تغطى جفنها الأعلى، كأنها ستار الواقع ينسدل على أجمل الأحلام.. شفتاهاورديتان فيهما لمعان خافت كأنهما تهمس بكلمات الهوى فى أذن ذلك الحبيب المجهول. لن يصدق أحد أن هذه المرأة الجميلة الأنيقة هى أم قسمت. إن عينى أم قسمت فى الصورة تناديان الرجال، كل الرجال ونظارة قسمت السوداء تطرد الرجال، كل الرجال!

ترى من أين ورثت قسمت إذن كراهية الرجال؟

لا يمكن أن يكون شاهين باشا هو الذى جعل ابنته تكره الرجال.

إن ياسين يذكر كيف يدلل الباشا قسمت، ويهتم بها اهتماما كبيرا ويحرص على راحتها، حتى إنه أبى أن يتزوج بعد وفاة أمها، حتى لا يجىء إلى البيت بزوجة أب تعكر على قسمت حياتها، وتعمد الأب أن تكون حياته الخاصة بعيدة عن البيت، حتى لا يجرح شعور ابنته أو يثير غيرتها. فالأب لم يظهر لقسمت إلا صورته كرجل وفى لذكرى أمها، لا يخونها حية ويتظاهر أنه لا يخونها ميتة. والمفروض أن تشب الابنة وهى تتصور أن كل الرجال على مثال أبيها، فكيف تحب قسمت أباها، وتكره جميع الرجال؟!

وكثيرا ما سمع ياسين سعادة الباشا وهو يلوم قسمت على إهمالها لمظهرها، ويؤنبها على الأثواب الغريبة التى تختارها، ويوبخها على زهدها فى ارتداء الفساتين الأنيقة الغالية التى اشتراها لها من أكبر محلات الأزياء، فى رحلاته السنوية إلى روما ولندن وباريس.

وكم من المرات سمع الباشا يقول لقسمت إنه يجب أن تذهب إلى الحلاق ليصفف شعرها المهوش، أو ينصحها بضرورة تغيير نظارتها السوداء الكبيرة الكئيبة بنظارة أخرى. فكانت قسمت تجلس أمام أبيها تسمع نصائحه صامتة، لا تعترض، ولا ترد كلمة واحدة، كأن الأمر لا يعنيها، أو كأن الباشا يوجه نصائحه إلى السفرجى ياسين بأن يذهب هو إلى حلاق السيدات!

مرة واحدة يذكرها ياسين، سمع قسمت تناقش والدها، وكان ذلك على مائدة الغداء، وكان الباشا يشرب حساء الطماطم.. وفجأة وضع الملعقة فى الطبق. والتفت إلى قسمت غاضبا وقال:

ـ لقد بح صوتى معك بلا فائدة! إننى أصبحت أخجل من أن أظهر بجوارك فى مكان عام، إننى أتصور أن كل الناس تشير إلى بأصابعهم وتقول هذا هو الأب الذى يبخل على ابنته بثوب جميل أو يدفع مصاريف ذهابها للحلاق، أو بشراء حذاء جديد لها. هذا الباشا الذى يركب سيارة كاديلاك ويترك ابنته الوحيدة تمشى كالمتشردات. ما دمت تصرين على أن تظهرى دائما بهذه الصورة البشعة فإن رجلا واحدا لن يتقدم إلى الزواج بك..

وقالت قسمت وهى مستمرة فى شرب حساء الطماطم:

ـ من قال لك إننى أريد أن أتزوج؟

قال الباشا ثائرا:

ـ كل بنت فى سنك يجب أن تتزوج!

قالت له فى هدوء:

ـ ولكننى لا أريد أن أتزوج.

واهتزت شوارب الباشا سخطا وقال:

ـ لابد أنك مجنونة لأنك لا تريدين أن تتزوجى!

قالت قسمت: أعتقد أن المرأة المجنونة هى التى تتزوج!

قال الباشا: هل كانت أمك مجنونة عندما تزوجتنى؟!

قالت باسمة: لو أنها سألتنى رأيى لنصحتها بألا تتزوج! ومن حسن حظك أننى لم أكن موجودة وقتئذ!

ورمى الباشا الفوطة فوق المائدة، ولم يكمل تناول الطعام، وخرج من الغرفة وهو يقول:

ـ إن رجلا واحدا لا يمكن أن يتقدم.. ويطلب يدك. وأنت فى هذا المظهر المزرى!

وابتسمت قسمت ساخرة، واستمرت فى تناول أصناف الطعام!

ولكن نبوءة الباشا أن أحدا لم يتقدم لخطبة قسمت لم تصدق.. فإن الكثيرين كانوا يتقدمون ويطلبون يدها..

وكان ياسين يعلم أن هؤلاء العرسان لا يطلبون قسمت، وإنما يطلبون نصيبهم فى المائتى فدان التى يملكها الباشا. وكانت هذه الأرض من أجود مزارع الفاكهة فى مصر، وكانت تدر على الباشا إيرادا صافيا يقدر بعشرات الألوف!

وكثيرا ما راقب ياسين وجوه الشباب الذين يترددون على القصر طالبين الزواج من الست الصغيرة، فيجد أنهم يحملقون فى الأثاث الفاخر.. ويحملقون فى اللوحات الزيتية الثمينة، ويدققون النظر فى التماثيل المصنوعة من الجاد النفيس. ولا يحملقون فى وجه قسمت. فهم جاءوا للزواج من القصر، لا من صاحبة القصر!

أما قسمت فقد كانت هى التى تحملق فى وجوههم بلا خجل، بل بكل وقاحة، وتنظر إليهم من فوق إلى تحت، ومن تحت إلى فوق. وتتأملهم باهتمام غريب، وكانت تقول للسفرجى ياسين عقب انصرافهم إنها كانت تقارن بينهم وبين المتسولين الذين تجمعهم من شوارع القاهرة وأزقتها، للاقامة فى الملجأ الذى تديره. وهى تحس بأنهم لا يفترقون كثيرا عن هؤلاء المتسولين شيئا، سوى أن المتسول العادى يتسول قرشا، وهذا الشاب الأنيق جاء يتسول المائتى فدان التى تزرع فيها ثمرة المانجو!

وكما أن المتسولة تشحذ طفلا لتشحذ به، فكذلك العريس يشحذ أحد أصدقاء الباشا ليوسطه.. وكما أن الشحاذ يعرض عاهته على المحسنين، فالعريس يعرض خفة دمه على قسمت.

وكانت قسمت لا تقول أبدا للعرسان «لا» إنها تستطيع أن تقسم أنها لم ترفض عريسا فى يوم من الأيام، كان كل ما تفعله أن تتفنن فى إظهار قبح خلقتها، وفى اختيار أسوأ ثوب يناسبها، وفى العبث بشعرها..

فإذا لم يستطع كل هذا إقناع العريس بالهروب، لجأت إلى سلاحها السرى الذى أثبت أنه سلاح بتار. فتتحدث عن اهتمامها بملجأ المتسولين، وأنها تنوى عندما ترث والدها ـ بعد عمر طويل ـ أن تهب المائتى فدان المزروعة مانجو إلى ملجأ المتسولين للانفاق عليه.. أما القصر فسوف يكون مقرا للملجأ.. وأنه من الحماقة أن يعيش رجل وامرأة فى مثل هذا القصر الضخم الذى يصلح لمائتين وخمسين متسولا!

وما يكاد العريس يسمع هذا القرار الغريب، حتى يخرج من القصر، ولا يعود أبدا!

ويدهش الباشا أن العريس لا يعود .. أما قسمت فلا تدهش أبدا!

عادت لذاكرة ياسين كل هذه الأحداث.. وهو يحاول أن يجد حلا للغز الذى يحيره منذ بضعة أيام.. وهو لماذا أصبحت قسمت تكرر جملة «هل سأل عنى أحد»؟!

هل غيرت قسمت رأيها فى الرجال؟

هل عدلت عن التبرع بالقصر والمائتى فدان لملجأ المتسولين؟

ترى من يكون هذا الرجل الذى استطاع أن يجعل قلب قسمت الميت

يبعث على قيد الحياة.. ويدق... فى انتظار دقة تليفون...؟

ولماذا لا يريحها هذا الرجل المجهول. ويدق لها التليفون؟!

* * *

كانت قسمت فى نفس الوقت جالسة فى غرفة نومها. أمام التليفون الصامت، تفكر فى نفس الأسئلة التى تشغل رأس السفرجى ياسين. ولكنها كانت تفكر بطريقة أخرى وبعقلية أخرى تختلف عن عقلية ياسين.

إنها ليست المرة الأولى التى تحب فيها رجلا!

لقد أحبت عدة رجال. وكلما رأت واحدا منهم توهمت أنه حبها الأول والأخير. ثم لا تلبث أن تكره الرجل الذى أحبته، وتكره من أجله جميع الرجال. إلى أن تحب رجلا جديدا!

ومصيبتها أنها لا تحب الرجل العادى، إنها لا تحب إلا فاتن النساء.. الرجل الذى تترامى النساء تحت قدميه. الفارس الذى يعرف كيف يغزو قلب المرأة. إنها تتمنى كل دونجوان، وكل كازانوفا، وكل فالنتينو، وكل زئر نساء فى العالم!

وهى تعرف الزحام الذى حول كل واحد منهم. تعرف أن هؤلاء الغزاة من الرجال أشبه بالأفلام الناجحة فى السينما، يجب أن تقف النساء فى طوابير طويلة، حتى يجىء لكل واحدة منهن دورها فى الدخول!

وهى لا تريد أن تقف فى الطابور. تمقت الانتظار. تحلم بأن تسحق زئر النساء بلفتة واحدة كما يسحقها. أن تنقض عليه كما ينقض عليها. أن تخطفه من كل النساء كما يخطفها من كل الرجال. وهى فى الوقت نفسه لا تستطيع أن تدفع ثمن تذكرة الدخول إلى الفيلم الناجح. إنها لا تريد

مقعدا واحدا، هى تريد الصالة بأكملها. لا تريد أن تتفرج على الفيلم مرة واحدة، وإنما تريد أن تحتكر الفيلم لها وحدها، تعرضه كلما شاءت فى عرض خاص، بلا منافس ولا شريك!

وعيب زئر النساء أنه أشبه بالحدائق العامة، من حق كل امرأة أن تدخلها. حدائق بلا أبواب ولا حراس.. فهو يعتبر نفسه من الممتلكات العامة التى لا يجوز أن يملكها فرد. كالميادين العامة والطرق العامة ونهر النيل. وقسمت تريد الحديقة لنفسها، والميدان لنفسها، والطريق لنفسها، ونهر النيل لها وحدها. لا يشرب منه سواها، ولا يسبح فيه أحد غيرها، ولا تغرق فيه امرأة خلافها!

ولهذا أصبحت تكره كل الرجال لأنها تكره كل شىء عام!

وكان أكثر ما يخنقها أن كل رجل اهتمت به لم يشعر بها، ولم يحس بوجودها، ولم يترك لها الفرصة لتقول «لا»!

إن المرأة عندما تجلس وحدها تفكر أحيانا فى عدد المرات التى قالت فيها «لا» فى حياتها! وتستعرض قصة «لا» أمامها كأنها تستعرض مجوهراتها.. تتلذذ وهى تقلب «لا» بين يديها.. تارة تتمنى لو قالت «نعم»، وتارة تحمد الله لأنها قالت «لا»، تماما كما تجرب مجوهراتها أمام المرآة، إنه الشعور العجيب اللذيذ الذى يحس به الانسان عندما يزاول حقه فى الاختيار. حقه فى أن يقول «لا» وحقه فى أن يقول «نعم». شعور لا يحس بحلاوته إلا هؤلاء المحرومون من حقهم فى أن يقولوا «لا»!

«لا» كلمة من حرفين. ولكنها تطرب من يقولها كأنها سيمفونية من أربع حركات! لا قاطعة ولا مترددة ولا بمعنى (نعم) ولا بمعنى (الرفض)، ولها دائما إيقاع عذب فى أذن قائلها، كأنها تذكره بأنه حر. فالعبيد وحدهم هم

الذين لا يستطيعون أن يقولوا «لا» المكممة أفواههم. المغلوبون على أمرهم. كل هؤلاء محرم عليهم أن ينطقوا بالكلمة التى هى شعار الأحرار وحدهم!

وكانت قسمت حرة ولا تستطيع أن تقول «لا»! كل الرجال الذين تمنتهم وحلمت بهم وعشقتهم فى خيالها لم يعطوا لها لذة أن تقول لهم «لا». كانوا هم الذين يقولونها لها! يقولونها لها بأهمالهم إياها. بعدم شعورهم بوجودها كأنهم أخرجوها من حساب النساء. وجعلوها فوق مستوى شهواتهم وأطماعهم.

ولهذا أحست قسمت برغبة فى أن تقول «لا» لكل شىء. ما دامت لا تستطيع أن تقول «لا» للرجل الذى تهواه.. وبدلا من أن تلفت الرجل بأناقتها أرادت أن تتحداه برفض الموضة، فإذا كان الرجل يحب المرأة الجميلة فلتكن قبيحة، وإذا كان يحب العينين الساحرتين فسوف تضع فوقهما نظارة كبيرة سوداء، وإذا كان يهوى المرأة التى تتغزل فيه، فهى تلعن كل الرجال!

وأقنعت قسمت نفسها بأنها بهذه الطريقة حمت نفسها من السقوط بين أيدى الرجال، وأنها بنت بينها وبينهم سدا منيعا. وأرضت بذلك كبرياءها بعض الشىء. بأن تصرفاتها هذه هى كلمة «لا» تقولها بلغات مختلفة! وبأنها هى التى بدأت بكلمة «لا».. وليس الرجال هم الذين بدأوا بها!

ولكنها فى لحظات كثيرة من حياتها قالت «نعم» قالتها بصوت عال.. صرخت بها.. ولم يسمعها الرجال الذين تمنت أن يسمعوها. ربما لأن مظهرها الخشن يخفى المرأة الناعمة فيها. ربما لأن ثوبها المهلهل يخبئ قوامها الممشوق. ربما لأن نظارتها السوداء تغطى الأنثى التى تملأ عينيها،

وكلما قررت أن تعرى نفسها للرجل الذى أعجبها لا تجد الرجل أمـامها.. كأنها تصل فى كل مرة إلى محطة الاستسلام بعد أن يتحرك القطار!

لعل السبب فى هذا أن زئر النساء الذى تختاره لا وقت عنده لـلانتظار.. إنه أشبه بقطار الديزل السريع الـذى لا يقف إلا فى المحـطات الـكبيرة. والمحطة الكبيرة بالنسبة إلى زئر النساء، هى ملكة جمال أو غانية مشهورة أو ممثلة معروفة. وقسمت ليست واحدة من هؤلاء. إنها فتاة عادية. ليسـت رائعة الجمال. ليست مثيرة للرجال، تعتقد أن فتنتها فى داخلها، فى الأنثـى فيها، تحت جلدها، فى أعماقها.. وكل هذه الصفات لا يراها صيادو النسـاء المتعجلون الذين يكتفون بأن يلقوا نظرة سريعة على اسم المحطة..باعتبار أن وجه كل امرأة هو اسم محطتها، ولا يفكرون لحـظة فى أن يحـاولوا أن يعرفوا ما خلف اسم المحطة المجهولة.. قد يكون فيها كنز. قد تكون فيهـا ثروة من الجمال، قد تكون فيها طبيعة رائعة. كل هذا لا يهم الرجال الـذين لا يهمهم إلا وجوه النساء.. أى أسماء المحطات!

ولهذا كانت قسمت تترك اسم المحطة بغير طلاء، مكتوبا بحروف قبيحة، مثيرا للشفقة او للاشمئزاز.. كأنها بذلك تحتج علـى كل الـرجال الـذين لا يجدون وقتا للوقوف فى محطتها!

* * *

وقد مر أمامها عادل علاء الدين ذهابا وإيابا. لم يتوقف مـرة أمـامها. المرة الوحيدة التى وقف أمام محطتها لم يكن يقصدها... وإنما كان يتوقف لتركب الأميرة الفاتنة. وقد رضيت قسمت لنفسها هذا الهوان.. أن تصحب عادل إلى مائدة الأميرة فى حفلة الأميرة شنويكار. وتجلس تشهد غزلا صامتا بين الأميرة وعادل. ثم تقنع الأميرة بأن تذهب لزيارة عادل فى شقته، وتجلس وحدها فى الصالون. بينما كان عادل والأميرة فى غرفة النوم.

رضيت بهوان أن تكون وصيفة فى قلب الملك الذى تحبه، بدلا من أن تكون ملكة هذا القلب. رضيت بأن ترتب الفراش الذى سينام عليه معبودها مع امرأة أخرى. رضيت بأن تقف فى شمس الحرمان المحرقة بينما الأميرة تستمتع بظل إعجاب عادل وهيامه!

ثم حدثت المفاجأة التى لم تتوقعها.. أصيبت فجأة بشجاعة لم تشعر بها فى يوم من الأيام. وانتهزت جلوسها مع الأميرة وعادل فى شقته وصارحته بأنها تريده! لم تخجل أن تقول هذا أمام الأميرة. لم تخف أن تغضبها. كانت تعلم فى قرارة نفسها أن الأميرة تحب عمر الفلسطينى، ولكنها كانت تعلم أن الأميرة لا تمانع فى أن تجعل عادل «العاشق الاحتياطى». النساء الفاتنات أشبه بالسيارات الفخمة تحتفظ دائما بعجلة أو أكثر على سبيل الاحتياط، وتفضل أن تكون العجلة الاحتياطي جديدة!..

ومع ذلك لم تأبه قسمت بمشاعر الأميرة التى تفهمها جيدا. وانقضت على عادل لتنتزعه لنفسها من أنياب الأسد!

ولم تفكر قسمت فى تلك اللحظة فى قوة أسلحة منافستها وفى ضعفها! نسيت أن الأميرة فاتنة وهى قبيحة الخلقة. نسيت أنها مثيرة وهى منفرة. نسيت أنها أنيقة وهى رثة الثياب. نسيت أن عادل مفتون بالأميرة، وأنه فجع عندما رأى وجه قسمت عند الباب!

نسيت كل هذا ووجدت نفسها تنظر إلى عادل فى حب ولهفة وعبادة. واعتقدت أن نظارتها السوداء تخفى مشاعرها عن عادل.. وأنه لا يرى النار التى التهبت فيها فجأة.

ثم فوجئت بعادل يحس بها. كأنه شم رائحة «الشياط» فيها. كأن جسدها وهو يلتهب، أخرج هذه الرائحة التى ملأت أنف عادل، فجعله يقول

كلاما فهمت منه أنه أصبح يحس بها. وأن جمال الأميرة الساطع لم يعم عينيه، وأنه استطاع أن يرى ضوء عود الثقاب أثناء سطوع الشمس.

وخفق قلب قسمت فى تلك اللحظة أكثر مما خفق فى أى يوم من أيام حياتها. وخشيت أن تقول شيئا يضيع جمال هذه الكلمات التى نطق بها عادل. أو أن يقول عادل كلمة يصحح بها اتجاه الكلمات التى نطق بها، أو أن تدخل الأميرة معها فى جولة جديدة تنتصر فيها، فأسرعت تقف مستأذنة فى الانصراف، وكأنها تقامر بأن تترك الأميرة مع عادل وحدهما.. ولكن الأميرة قالت إنها ستنصرف معها.

ولم تتبادل الأميرة معها كلمة واحدة فى الطريق. ولم تعرف قسمت إذا كانت الأميرة قد فهمت ما دار بينها وبين عادل، أو أنها تفكر فى مدى صدق عادل فى وعده بمساعدتها كى يدخل عمر إلى مصر خلسة، أو أنها كانت تفكر فى أن تحدث انقلابا فى قلبها، فتعزل الملك القديم، وتضع عادل فى قلبها كملك جديد. لم تهتم قسمت فى تلك الدقائق التى قطعتها السيارة بين عمارة إيموبيليا ومركز جمعية ملجأ المتشردين بسؤال الأميرة عما يشغل بالها.. فقد كانت قسمت سعيدة بما شغل بالها هى، وبأن عادل علاء الدين استجاب إليها، وأنها لم تطعن الأميرة فى ظهرها، وإنما انتصرت عليها فى مواجهتها وأخذت عادل منها!

وعندما عادت إلى بيتها فى ذلك المساء ولم يدق التليفون ويحمل لها صوت عادل شعرت بتعاسة لا حد لها.. قلقت أن تكون الأميرة عادت واستردت عادل منها.. لم تتركها تستمتع بانتصارها سوى لحظات. ربما تكون الأميرة بعد أن أوصلتها إلى دار الجمعية عادت إلى شقة عادل من جديد..

ربما تكون قد استطاعت أن تحقق فى غيابها الانتصارات التى لم تستطع أن تحققها فى حضورها. وما أضعف قلوب الرجال أمام النساء الجميلات! قلوب الرجال أشبه بالذباب، وعيون الفاتنات أشبه بالفليت! بخة واحدة من عينى الأميرة الفاتنة ويسقط عادل علاء الدين!

ومضت الأيام بغير أن يدق التليفون... وزاد شقاء قسمت. وتضاعف قلقها، وعادت تمقت الرجال أكثر مما كانت وكرهت عادل بالذات أكثر من جميع الرجال. ثم عادت تحبه وتعبده. كان حبه أشبه بالملاريا، تكرهه فى الصباح وتحبه فى الليل. تنخفض درجة حرارتها فى النهار، وترتفع فى المساء!

وانتظرت خمسة أيام كاملة. ولم يطلبها عادل فى التليفون.

وفى كل يوم كانت تتضاءل وتنكمش وتذوب وتموت!

فى يوم لقائها الأخير مع عادل كانت تتصور أنها ملكة، وفى اليوم التالى أصبحت أميرة، وفى اليوم الثالث أصبحت عاشقة، وفى اليوم الرابع أصبحت امرأة مهزومة.. وفى اليوم الخامس أصبحت حشرة، حشرة حقيرة داسها عادل بقدمه، بل داستها الأميرة بقدمها..

* * *

وبدأت تشعر بشعور الحشرة.. بالرغبة فى أن تقرص عادل وتسيل دمه.. وقررت أن تطلبه فى التليفون لتلعنه، لتقول له إنها تشكره لأنه أثبت صدق نظريتها فى سفالة الرجال.

ولم تجده فى بيته، ووجدته فى مكتبه. وما كادت تسمع صوته حتى نسيت كل اللعنات التى أعدتها لتقذفه بها!

وسألته فى صوت ترتجف فيه الوحدة مع الشوق مع القلق :

ـ أين كنت يا عادل؟!

قال عادل فى بساطة :

ـ كنت مسافرا ولم أعد إلا الآن فقط. إننى سافرت بعد خروجكما بساعة واحدة!

قالت قسمت فى دهشة :

ـ إنك لم تقل لى إنك ستسافر

قال :

ـ لقد سافرت إلى فلسطين...

فقالت فى حيرة :

ـ وماذا كنت تفعل فى فلسطين؟

قال :

ـ كنت أبحث عن عمر! ألم أعد الأميرة بأننى سأساعدها فى إدخال عمر إلى مصر؟!

قالت فى مرارة :

ـ لم أكن أتصور أنك من أجل الأميرة تترك عملك وتتركنى خمسة أيام!

قال :

ـ إننى وعدت الأميرة، وأحب أن أنفذ الوعد الذى قطعته على نفسى.

قالت :

ـ وهل عدت بعمر؟

قال :

ـ لا، لم أجده.. قيل لى إنه فى دمشق، فسافرت إلى دمشق ولم أجده، ثم قيل لى - إنه عاد إلى بيروت فسافرت إلى بيروت ولم أجده أيضا.

قالت فى غيظ:

ـ أنا كنت واثقة أنك لن تجده.

قال عادل :

ـ ما سبب هذه الثقة ؟

قالت فى سخرية :

ـ لأنى واثقة أنك لا تريد أن يحضر عمر إلى مصر حتى تنفرد بالأميرة '

قال :

ـ إنك تتهمين نزاهتى ! إننى بحثت عن عمر، ودبرت الطريقة التى يمكن بها دخوله إلى مصر بغير علم السلطات المصرية. لقد قلت للأميرة أمامك إننى لم أعد أفكر فى أية علاقة معها، وأننى سوف أساعدها ليعود إليها الرجل الذى تحبه !

قالت وهى تضغط على شفتيها :

ـ إننى أعرف تماما هذا النبل ! إنه المعطف الذى يرتديه الرجل ليخفى فيه سفالته ! إنك تريد أن توهم الأميرة أنك فعلت المستحيل من أجل أن

تجىء لها بعمر. وأنك فشلت.. ولهذا فسوف تقطع الأميرة الأمل وتفتح قلبها لك.

قال ضاحكا:

ـ إنك بدأت تغارين؟!

قالت ثائرة:

ـ أغار! لماذا أغار؟ هل أنا أحبك حتى أغار عليك؟

قال عادل فى هدوء:

ـ نعم يا حبيبتى.. ولكنك جبانة وجبنك هذا هو الذى سيجعلك تفقديننى!

قالت فى غضب:

ـ أنا لست جبانة! إننى أشجع مما تتصور!

قال:

ـ إذا كنت شجاعة.. فتعالى بغير نظارة!

قالت فى دهشة:

ـ ولماذا تريد منى أن أخلع نظارتى؟

قال:

ـ لأننى أريدك عارية!

قالت ساخرة:

ـ كأنك تريد أن أحضر إليك بغير ملابس!

قال:

ـ لم أقل هذا.. كل ما قلته أننى إريدك بغير نظارة!

قالت:

ـ إننى لا أخلع نظارتى أبدا، إلا عندما أنام!

قال وهو يقهقه:

ـ ربما يكون هذا هو السبب الذى من أجله طلبت منك أن تخلعى نظارتك!

الفصل الثامن

جلست الآنسة قسمت شاهين فى مكتبها البسيط بإدارة جمعيـة ملجـأ المتسولين، تضع الرتوش النهائية للتقرير الذى سيقدمه مجلس الادارة إلى الجمعية العمومية مرفقا بالميزانية.

وقرأت بصوت عال الفقرة فى التقرير التى تقول:

ونجح مجلس إدارتكم فى تدبير المال اللازم بحيث ارتفع عدد المتسولين والمتسولات الذين ياويهم الملجأ إلى ستين شـخصا، وبـذلك اسـتطعنا المساهمة فى القضاء على مشكلة المتسولين التى كانت سبة فى وجه مـدينة القاهرة، ونقطة سوداء تلطخ جمالها.

وتوقفت قسمت عن تلاوة التقرير عندما رأت السـيدة نعمـت شـوقى، الكاتبة بالجمعية، تدخل بجسمها البض، ووجهها الضاحك وتقول:

ـ عم عبده هنا!

ورفعت قسمت رأسها بامتعاض وقالت:

ـ ماذا يريد؟

ـ يريد أن يدخل الملجأ من جديد!

ـ ولكنه هو الذى هرب من الملجأ.

ـ يقول إنها آخر مرة يهرب فيها.. ويطلب بسماحك!

ـ لقد عفوت عنه عدة مرات.. سامحته ست مرات. وفى كل مرة كان يهرب. ويعرضنا لفضيحة أمام الناس عندما يعرفون أن المتسولين هربوا من الجنة التى أقمناها لهم!

ـ إنه يقول إنه يعترف بأن الملجأ جنة فعلا. ولكن عيبه أن له اسوارا.. وهو لا يطيق الاسوار. ويقول إن الفرق الوحيد بين الجنة والنار .. أن النار لها أسوار، والجنة بغير اسوار!

ـ وهل هو يريد أن نحطم أسوار الملجأ التى كلفتنا خمسمائة جنيه.. حتى لا يهرب؟

إننا لن نقبله فى الملجأ مرة أخرى.. هذا قرار نهائى!

ـ إنه يقول إنه مضى عليه أسبوع كامل وهو يتضور جوعا. لو رأيته بنفسك لأشفقت عليه.

ورق قلب قسمت، وقالت:

ـ دعيه يدخل، الذنب ليس ذنبه.. إن آدم هرب قبله من الجنة.. واتهم حواء بأنها هى التى حرضته على الهرب!

ودخل رجل عجوز فى السبعين من العمر، على رأسه طربوش قذر يسقط فوق جبهته، ويكاد يصل إلى عينيه الساخرتين، وله لحية بيضاء، وفى يده مسبحه، ويرتدى بنطلونا أكل عليه الدهر وشرب وارتداه ايضا!

وقال فى صوت ناعم وقور:

ـ صباح الخير يا ست قسمت!

ورفعت رأسها تتأمله ثم قالت :

ـ صباح الخير يا عم عبده ما الذى جاء بك؟

ـ الجوع !

ـ إذن لماذا هربت؟

ـ الأسوار كلما رأيتها سمعتها تقول لى : اهرب من هنا يا عم عبده

ـ الاسوار تمنع الهرب ولا تدعو للهرب !

ـ إننى سعيد هنا. أنام مجانا، أحصل على ملابس مجانا، ومع ذلك لا اكاد القى نظرة على اسوار الملجأ حتى أشعر بالشقاء. اشعر اننى فقدت حريتى. فيصبح الطعام بلا طعم ! واشعر بالبرد فى داخل ملابسى، ولا اعرف أن أنام فى فراشى.. اتصور ان هذه الاسوار تخنقنى، تكتم انفاسى. افضل أن أنام على رصيف الشارع، رصيف ليس له اسوار، على ان انام فى سرير فى غرفة مغلقة بالمفتاح !

ـ وماذا فعلت فى المدة التى هربت فيها؟

ـ كنت أتسول.

ـ لماذا تتسول؟

ـ لآكل !

ـ ولكنك تأكل هنا مجانا !

ـ آكل داخل الاسوار ! واشعر أننى محبوس وأنا اضع اللقمة فى فمى فيتغير طعم اللقمة، تصبح فيها مرارة غريبة !

ـ ولكن طاهية الملجأ تطهو طعاما شهيا.. إنني أذوق طعـامكم بنفسي، ولا يمكن أن تجد في الخارج مثل هذا الطعام.

ـ ولكن بعيدا عن الاسوار اجد الحق في الاختيار. هنا أنتم تختارون لي الطعام، أما في الخارج فأنا الذي اختار طعامي. شعوري بـأن لـي حـق الاختيار يجعل للطعام نكهة لذيذة في فمي. الطعام المفـروض، مهمـا كان لذيذا، فأنه يفقد شهيته في الافواه!

ـ ونحن لا نستطيع أن نطهو لكل نزيل في الملجأ الطعام الذي يريد.. ان هذا يكلف كثيرا.

ـ ولهذا فإن ثمن الحرية باهظ، نفقات العبيد دائما أرخص من نفقـات الاحرار!

ـ ولكنك تعود بقدميك إلى الملجأ!

ـ لا أعود على قدمي.. وإنما أعود راكعا!

ـ ولماذا تركع؟

ـ لآكل.. لاقف على قدمي من جديد! فكلما وقفنا على اقدامنا في عـالم الحرية وجب أن ندفع ثمن تذكرة الوقوف! لابد أن يكون القرش في جيبـي لاستطيع ان أكون حرا. فإذا خلا جيبي من القرش فقـدت حـريتي! ألـم تلاحظي دائما أن البلاد الفقيرة هي التي تفقد حريتها، وأن البلاد الغنيـة هي التي تستمتع بالحرية، وكلما زاد الغنى في بلد زادت الحرية فيه؟

ـ ولكن المانيا فقدت حريتها وهي ليست فقيرة!

ـ بل إنها فقدت حريتها لأنها فقيرة.. ولولا أن الحلفاء جردوها مـن كل

ثرواتها بعد انتصارهم عليها فى الحرب العالمية الاولى لما استسلمت لهتلر! الازمة الاقتصادية فى المانيا هى التى ولدت هتلر، والازمة الاقتصـادية فى ايطاليا هى التى ولدت موسولينى! الجوع هو الأب الشرعى للطغيان!

ـ أنت رجل عجيب يا عم عبده. شحاذ وعالم فمن أين حصلت على ثقافتك؟

ـ تسولتها! إننى اتسول المعرفة كما أتسول لقمة العيش!

ـ لم اسمع أن المحسنين يحسنون على الناس بالثقافة!

ـ فى عالم الشحاذين نتسول كل شىء! الكتب، الصحف، المعلـومات، حتى النساء!

ـ كيف تتسول المرأة؟

ـ فى شبابى احبتنى امرأة لله!...

ـ واين ذهبت؟

ـ اخذها... متسول اصغر منى سنا!

ـ لا بد أنها لم تكن تحبك.

ـ على العكس كانت تحبنى..

ولكنها كانت تحب مهنة الشحاذة اكثر منى! لقد طلبت منها أن تتزوجنى وتجلس فى البيت، وأتولى التسول بالنيابة عن الأسرة كلها فرفضت، وقالت: إننى أفضل أن أحصل على الطعام بمجهودى! الطعام المجانى لا طعم له، العرق هو الذى يعطى للطعام حلاوته ونكهته ومذاقه اللذيذ!

ـ ولماذ رفضت أن تستمر المرأة فى التسول؟

ـ لأنها كانت جميلة! وكان المحسنون يفضلون أن يضعوا نقودهم فى صدرها، بدلا من أن يضعوها فى يدها!

ـ إذا كنت خجلت أن تكون زوجتك شحاذة، فكيف تقبل أن تكون انت شحاذا! إن الشحاذين هم الكسالى الذين لا يريدون أن يعملوا!

ـ على العكس! المتسول يعمل اضعاف ما يعمله العامل المجد، ساعات العمل أطول! المجهود الذهنى أكبر، المجهود العضلى أكبر، نحن المتسولين لا نستمتع بأيام العطلة الاسبوعية، ولا بعطلة الأعياد، وليس لنا اجازة سنوية ولا اجازة مرضية، العمل عندنا يزداد فى أيام الاعياد! ولو كانت لنا نقابة محترمة لطالبت لنا ببعض الحقوق!

ـ التسول مهنة غير محترمة يا عم عبده!

ـ لو كانت مهنة غير محترمة.. لما عملت فيها سيدة محترمة مثل حضرتك!

قالت قسمت غاضبة:

ـ أنا متسولة؟ إنك قليل الأدب!

ولم يغضب عم عبده للاهانة، تمايل كالقصبة الطويلة المحنية، وابتسم وقال:

ـ نعم انت متسولة يا قسمت هانم! كل سيدات الاسر الكبيرة اللاتى يعملن فى الجمعيات الخيرية متسولات! جمعية ملجأ المتسولين تقوم بمهمة التسحاذ! لولا أن التسول مهنة لذيذة لما اقبلت نساء الطبقة العالية عليها هذا الاقبال!

ـ نحن نتسول من أجل الخير!

ـ ومن قال لك : إننا نتسول من أجل الشر؟

- نحن نعمل من أجل المجموع.

- ونحن الشحاذين نعمل من أجل المجموع. كل شحاذ منا لـه اسرة فيها حوالى عشرة أشخاص!

ـ الجمعيات الخيرية تنظم الاحسان

ـ إن كل ما فعلته الجمعيات الخيرية إنها اغتصبت مهنة المتسـولين.. جعلت لها ملابس انيقة جميلة مثيرة! جددت فى المهنة! كان من رأى قدماء الشحاذين أن الملابس الرثة الممزقة، والعاهات المستديمة تحـرك قلـوب المحسنين.. ثم جاءت مدرستكم الجـديدة فى الشـحاذة ورأت أن جمـال الشحاذة، واناقتها.. وجاذبيتها، واسم اسرتها الـكبيرة.. تـذيب القلـوب المتحجرة فتسارع إلى الاحسان.

ـ إذن أنت تعتبرنا منافسين لك.. لا فضل لنا على الاطلاق!

ـ لا يمكن أن انكر فضلك وفضل زميـلاتك! إن الجمعيـات الخيـرية النسائية ادخلت إلى عالم التسول نظرية جديدة! الذى بيننا وبينـكم أننـا جماعة من الحالمين وأنتن جماعة من الواقعيات.. نحن كنـا نعلـم بـأن الانسان يرق قلبه ويدفع إذا رأى رجلا مريضا أو مسنا أو عـاجزا ولـكنكن كنتن واقعيات أكثر منا، عرفتن أن قلوب الناس فى هذا العصر قـدت مـن حجر. وما كان يصلح لاثارة النخوة والمروءة فى الماضى لا يصلح اليوم. وان المرأة الانيقة، أو المرأة صاحبة النفوذ والسلطان قادرة علـى أن تخـرج الجنيهات من جيوب الرجال بدلا من القروش والملاليم! الناس الآن تتبرع

من أجل عيون النساء الجميلات اللاتى يدرن ملجأ العميان.. لا من أجل العميان!

إذن أنت تعترف بأننا رفعنا إيراد أعمال الخير!

ـ المال الذى يجمعه الشحاذ يذهب إلى الغرض الذى جمع له، أما الاموال التى تجمعنها فى الجمعيات الخيرية النسائية فانتن تنفقنها أولا على ايجار دار واسعة للجمعية، وعلى مرتبات موظفى الجمعية، وعلى مطبوعات الجمعية، وعلى اعلانات فى الصحف عن نشاط الجمعية، وعلى الحفلات الساهرة التى تقيمها الجمعية.. وما بقى منها يذهب إلى المتسولين!

ـ انت تتهمنا الآن باننا نسرق الشحاذين!

ـ اننى اتهمكن بأنكن تردن أن تغتصبن مهنة المتسولين! تردن احتكارها لانفسكن! تشترطن فى الشحاذ أن يملك سيارة، وأن يرتدى ثوبا أنيقا، وأن يتزين بالمجوهرات الغالية! تعتبرن الشحاذين «عورة» يجب اخفاؤها. فإذا وقف شحاذ يتسول فى ميدان عام، سارعتن إلى الشرطة تطلبن منها أن تقبض عليه. باعتباره يقوم بمنافسة غير مشروعة للجمعيات الخيرية!

ـ إن منظر المتسولين بأثوابهم البالية، ووجوههم القذرة، وعوراتهم المكشوفة يشوه منظر المدينة!

ـ جمال المدينة هو الذى يهم الجمعيات الخيرية، لا الافواه الجائعة ولا البطون الخاوية ولا الاجسام العارية! لو أننى تسولت فى الأزقة والحارات فجمال القاهرة بخير، أما إذا تسولت فى ميدان الاوبرا فلن يرى السياح دار الاوبرا وإنما سيرون عم عبده الشحاذ!

ـ إن من حق سكان المدينة أن يحافظوا على جمال مدينتهم ويخفوا كل ما يشوه جمالها.

ـ هذا مبدأ خطر! لو طبقناه فيسجيء يوم يصدر قرار يمنع النساء القبيحات الخلقة من السير في الشوارع، ولا يسمح إلا بظهور النساء الجميلات محافظة على جمال المدينة!

وامتقع وجه قسمت. اعتقدت أن عم عبده يقصدها بهذه الملاحظة.. يريد أن يقول إنه سيجيء يوم يصدر قرار بمنع ظهور قسمت شاهين في الشوارع محافظة على جمال مدينة القاهرة. وشعرت بمرارة أن رجلا في السبعين من عمره يهزأ بقبحها.

غاضت الابتسامة من شفتيها ثم قالت في صوت مسكين مليء بالحسرة:

ـ الله خلقني فقيرة في الجمال ياعم عبده!

وفهم عم عبده بذكائه أنها تصورت أنه يسخر من قبحها فقال:

ـ بالعكس! إنني أريد أن أقول لك إنني أرى فيك شيئا جديدا! إن شيئا فيك قد تغير يا ست قسمت.. قبل أن أهرب من الملجأ لم يكن.. فيك مسحة من جمال! ولكنني أرى انك أصبحت جميلة. لا أقول ملكة جمال، ولكنك أصبحت أجمل مما رأيتك ألف مرة!

استردت قسمت بسمتها التي اختفت، وخدرها مديح عم عبده، كأن عاشقا يقبلها في كل مكان في جسدها وقالت مبتسمة:

ـ لعل بصرك ضعف أثناء هروبك!

ـ إن بصري لم يضعف، بل ازداد حدة. البصر يضعف داخل السجن، ويقوى في الفضاء بغير أسوار. حتى العيون تقوى في الحرية. الضوء يزيد

أبصارنا والظلام يفقدنا كثيرا من قوة الابصار! إننى أشعر فعلا أنك ازددت جمالا! أن نظارتك السوداء لم تتغير، ملابسك القاتمة لم تتغير، طـريقتك فى تسريح شعرك لم تتغير، ولكن شيئا فى داخلك قد تغير.. لست أعرف ما هو..

ثم صمت قليلا.. وقال:

ـ لعله الحب!

قالت ساخرة:

ـ إنك بدأت تخرف يا عم عبده!

ـ التخريف نوع من أنواع الفلسفة .. الذين يخرفون هم عادة أشخاص يرون أكثر مما نرى! يسبقون زمنهم، يعيشون الغد، رأسـهم أعلـى مـن رؤوسنا فيرون مسافات شاسعة لا تصل اليها عيون الأقزام!

إننى أرى أن التغيير الذى حدث فيك هو أنك بدأت تحبين!

ـ اننى أحب عملى.. أعبده! إننى أرهق نفسى فى عملى!

ـ العمل المرهق يشوه الوجوه! يزيد التجاعيد! يحول الشعر الأسـود إلى شعر أبيض، يطفئ اللمعان فى العيون! أما الحب فهو أعـظم خبـراء الجمال فى العالم! إنه قادر على أن يرسم وجوه النساء من جديد! يضـع فى عيونهن سحرا عجيبا لم يصل إليه أى كحل فى العالم! يجعل البشره اكثـر نقاء. يحمل فى يده كل مساحيق البودرة والحمـرة وكل زجـاجات العـطر والصبغة! الحب هو أكبر صانع للجمال!

ـ إنك بدأت تغازلنى يا عم عبده! إن آخر مرة رأيتك فى الملجـأ كنـت مهدما محطما مهزوما كسيرا.. ماذا جرى لك؟.. هل هربت من هنا لتـأخذ حقنة لاعادة الشباب؟

ـ هواء الحرية فى الخارج يعيد الشباب، الايام التى أمضيتها خارج الملجأ بغير رقيب، بغير مواعيد مقررة، بغير نظام قاس فى ساعات الأكل والنوم، بغير أبواب مغلقة، بغير أن أقف فى الطابور.. كل هذا جعل الرجل المحطم يجمع اشلاءه ويتحول إلى رجل صحيح، كأن هواء الحرية أسمنت جديد يقوى البناء المتهدم! إن الحرية تخلق الانسان من جديد!

ـ أنت قلت من دقائق يا عم عبده إن الحب هو الذى يخلق الانسان من جديد.

ـ الحب.. مثل الحرية! كل منهما فيه قوة الخلق! كل منهما فيه القدرة على البعث.

ـ ولكن الحب فيه عبودية.

ـ من قال هذا؟! الحب هو أكبر حرية فى الدنيا! إننا نوهم أنفسنا بأننا نحب برغم إرادتنا! وأننا نفقد حرياتنا عندما نعشق! إن هذا وهم، فالقلب هو الجزء الحر الوحيد فى جسمنا والذى لا يخضع للشر والارهاب! من الممكن أن ارغمك على أن تغمضى عينيك، من الممكن أن الوى ذراعك إلى الناحية التى أريدها، من الممكن أن اضع يدى على فمك وأمنعك من الكلام، من الممكن أن اقيد ساقيك وأمنعك من الحركة، ولكن ليس فى امكانى أن اجعلك تحبين رجلا بالرغم منك!

ـ اننى فى دهشة من أن رجلا له مثل هذه الآراء يعمل متسولا! إنك خبير نفسانى!

ـ الشحاذ الماهر هو خبير نفسانى ماهر!.. هو الذى يعرف متى يمد يده هو الذى يعرف الشخص الذى أمامه، يدرسه بنظرة سريعة، ليعرف

ما هي الكلمة التي تؤثر فيه! الشحاذ لا يتسول من كل إنسان إلا إذا كان شحاذا مبتدئا! يجب أن يكون خبيرا في قراءة الوجوه! تماما كالصياد الماهر الذي يعرف متى يطلق بندقيته!

واسترخت قسمت وهي تستمع إلى حديث عم عبده المريح.. كان حديثه أشبه بكرسي طويل تتمدد فوقه ثم قالت:

ـ وبصفتك خبيرا نفسانيا، فماذا ترى من تغيير في وجهي؟

ـ وجهك لم يتغير! إنما شيء في داخلك تغير! اللمبة كما هي.. وإنما أضيف إليها الضوء! إنني أرى في داخلك الضوء لأول مرة! لابد أن يد رجل ضغطت على زر المصباح! أيدي الرجال وحدها هي التي تضيء مصابيح النساء المنطفئة!

ـ إنك تتخيل أشياء يا عم عبده.. أن رجلا لم يلمسني!

ـ ألم تسمعي عن أن الصوت أصبح يقوم الآن مقام الزر الكهربائي.. لقد قرأت في الصحف أنهم اخترعوا أبوابا من الحديد إذا سمعت صوت أصحابها تنفتح على مصراعيها.. ولكنها لا تنفتح أبدا إذا سمعت أي صوت آخر.. إن الله اخترع هذه الأبواب قبل أن يخترعها البشر.. أصوات معينة تفتح قلوبنا المغلقة.. أو نظرات معينة تفتح الأبواب الموصدة.. رب كلمة من رجل تحولت إلى أصابع تلمسك، وإلى جسد يضمك إليه. كهرباء الحب لا تختلف عن الكهرباء العادية، لا نحتاج إلى لمسها لنصعق بها! ولقد استطاع ماركوني، وهو في يخته في جنوب إيطاليا، أن يضيء مدينة في أستراليا بغير حاجة إلى أسلاك، أو لمس!

ـ هل تتصور يا عم عبده أنك تستطيع أن تحب امرأة دون أن تلمسها:

ـ طبعا.. ولكن الحب مثل الطفل يحتاج إلى لمسة حنان! الطفل يستطيع أن يعيش بغير أن نلمسه، ولكن لمسات أصابعنا تسعده.. تمنحه الدفء والحرارة، كأنها تعزف على جسده أنشودة حبنا، الحب أشبه بقصبة من الناى، إذا رميناها على الأرض فإن الرياح ستصفر فيها وتغنى! ولكن إذا أمسكنا الناى بأصبعنا، ووضعناه فى فمنا، وحركنا أصابعنا فوق ثقوبه، تحول إلى ناى يعزف أجمل الألحان!

ـ كلامك يا عم عبده كلام عاشق، لا كلام شحاذ.. كلام رجل درس الدنيا وفهمها.. كلام عالم فيلسوف.. ومن الغريب أنك برغم كل هذا الفهم تعترض على العمل العظيم الذى تقوم به جمعيتنا!

ـ أنا لا أعترض! وإنما أقول إنكم تقومون بدور الوسيط بين المحسن والمتسول وأفضل الغاء الوسيط. العالم كله يتجه فى اقتصاديات بعد الحرب إلى الغاء الوسيط!

ـ معنى ذلك أن حالة الشحاذين كانت فى الماضى أحسن مما هى عليه الآن، بعد إنشاء جمعية ملجأ الشحاذين؟

ـ طبعا، كانت أحسن.. إن المحسنين يتصورون أنكن قضيتن على مشكلة المتسولين! كان المحسن فى الماضى يخجل من أن يرد متسولا. ولكنه الآن يقول لى بوقاحة: اذهب إلى ملجأ المتسولين! وهو لا يعرف أن الملجأ لا يتسع إلا لخمسين أو ستين متسولا.. بينما المطلوب إنشاء ملجأ يكفى لاضعاف هذا العدد

ـ هل تريد أن تقول إن عدد المتسولين فى مصر ٢٠ مليونا؟

ـ بل أريد أن أقول إننا شعب من المتسولين! كل واحد فى هذا الشعب

يتسول! نحن الشعب الوحيد فى العالم الذى يتسول حقوقه! لا يستطيع فرد فى هذا الشعب أن يحصل على حقه بغير أن يمد يده.. يرجو.. يتوسل.. يستعطف.. يسترحم.. إن الملف الذى أمامك الآن على المكتب مكتوب عليه «طلبات الوظائف». افتحى الملف.. ستجدين كل من يطلب وظيفة يقول فى طلبه أنا شاب فقير أعول أسرة من ثمانية أشخاص! لا يوجد واحد منهم يقول إنه يستحق الوظيفة ولا إنه كفء لها! كلهم يطلب الوظيفة بطريقة الشحاذين!.. يترجمون كلمات «عشانا عليك يا كريم يارب» و«ربنا يجعل بيوت المحسنين عمار» و«من قدم شيء بيداه.. التقاه» إلى طلبات استخدام فى الوظائف الخالية! الدولة نفسها تشحذ الاعانات الخارجية من الدول الأجنبية! كبار الموظفين يتسولون نفوذهم وسلطانهم من الحاكم صاحب النفوذ والسلطان!.. مرشحو البرلمان يتسولون أصوات الناخبين.. فإذا انتهت الانتخابات تحول المتسولون إلى أثرياء، وأصبح الناخبون متسولين!..

ـ إنك تشكو من المزاحمة غير المشروعة!

ـ حتى أصحاب الملايين يزاحموننا الآن فى عملية التسول! الأميرة شويكار أغنى امرأة فى مصر، تعمل الآن متسولة بصفتها رئيسة مبرة محمد علي. تجمع القروش والملاليم.. مع أن دخلها فى شهر واحد يكفى للانفاق على عشر مبرات مثل مبرة محمد علي! هدى هانم شعراوى تملك هى وأولادها ألوف الأفدنة، وهى تزاحمنا فى عملنا وتجمع تبرعات لمشغل هدى شعراوى لليتيمات، بينما هى تستطيع أن تخصص واحدا من مائة من ثروتها للصرف على هذا المشغل! حرم حسين سرى باشا رئيس الوزراء تطوف على الأغنياء تبيع لهم بطاقات حفلة الهلال الاحمر مع أنها تستطيع بكلمة واحدة أن تجعل زوجها يصدر قرارا برفع إعانة الهلال الأحمر وخصم المبلغ من

بند الزينات التى تقام بمناسبة وبدون مناسبة فوق دور الحكومة ومصالحها !

ـ إن هؤلاء لا يتقاضين أجرا على العمل الذى يقمن به !

ـ يتقاضين ثمنا باهظا ! تنشر الصحف والمجلات صورهن.. يستطعن استغفال الآباء والأزواج فيخرجن من بيوتهن بحجة اجتماعات مجلس إدارة الجمعية الخيرية، وهن فى الواقع يذهبن إلى لقاء عشاقهن !

ـ إن فكرتك سيئة جدا يا عم عبده عن الجمعيات الخيرية ! نحن نبيع الخير.. وأنت تتصور أننا نبيع الحب ! تصور ماذا يحدث لو ألغيت الجمعيات الخيرية وتولت الدولة مهمتها.. أنت تعرف أن الدولة لا قلب لها !

ـ أنا لا أوافق على تأميم الشحاذة.. عندما تحتكر الدولة مهمة التسول تصبح شحاذا فى يده سوط.. ولكنى أرغب فى إباحة التسول ! ألا تطارد الدولة المتسولين الفقراء وتحتضن المتسولين الأغنياء ! أن يتولى المتسولون تنظيم مهنتهم بغير تدخل حكومى.. أن المتسولين يقسمون المدينة بينهم. يخصصون لكل متسول منطقة نفوذ. لا يجوز لمتسول أن يعتدى على شارع من اختصاص متسول آخر ! ليس بين المتسولين الصراع الذى تشهدينه بين الجمعيات الخيرية..

ودق جرس التليفون، ورفعت قسمت السماعة..

ولاحظ عم عبده أن وجه قسمت أضاء فجأة بضوء ساطع. كان فى داخلها لمبة قوة عشرين شمعة فأصبح فى داخلها فجأة عدة لمبات كل واحدة منها بقوة ألف شمعة.

ـ وأشارت قسمت بيدها إلى عم عبده أن يخرج من الغرفة.. وأسرع يخرج، وإن كان سمع كلمة : أهلا.. أهلا !

وبدا لعم عبده أن صوت قسمت تغير، كأن بلبلا دخل فجأة فى حنجرتها. كانت كلمة «أهلا أهلا» ملحنة، ومنغمة، ولها موسيقى غريبة..

وخرج عم عبده وأغلق الباب وراءه دون أن تطلب منه قسمت أن يغلق الباب. وفكر أن يقف خلف الباب ليستمع إلى حديث قسمت.. ثم وبخ نفسه لأنه فكر فى هذه الفكرة.. ولكنه كان يحس فى قرارة نفسه.. أن سكرتيرة مجلس الادارة الحازمة الشديدة التى ترهبها جميع الموظفات، ويخشاها جميع نزلاء الملجأ، بدأت تحب فعلا!

وكان عم عبده يؤمن بأن هذا التغيير الذى حدث فى قسمت سوف يؤثر فى الملجأ كله، فى طريقة الحياة فيه، فى نظامه، فى معاملة المشرفين.. لو قال خواطره فى هذه اللحظة لاتهموه بالجنون..

قالت قسمت وهى تساوى شعر رأسها، وكأنها نسيت أنها تتكلم فى التليفون

ـ إننى أنتظر أن أسمع صوتك منذ الصباح! يومى لا يبدأ إلا عندما أسمع منك تحية الصباح..

قال عادل:

يظهر أنك تحبين صوتى، ولا تحبيننى.. إنك لم تبدى هذه اللهفة على لقائى!

ـ أنت الذى تضع العقبات فى هذا اللقاء يا عادل!

ـ إننى لا أضع العقبات... أنا أزيل العقبات!

ـ ولكنك تضع شرطا صعبا للقائى بك..

ـ كل شرطى أن تخلعى النظارة..

ـ إننى بغير نظارة لا استطيع أن أراك!

ـ إنك بغير نظارة ترينني جيدا. ترينني كما أنا.. بغير مـاكياج.. بغير زيف بغير خداع!

ـ إننى بغير النظارة أتحول إلى عمياء!

ـ إنهم يقولون إن الحب أعمى. وأنت تحاولين أن تضعى فـوق عينيـه نظارة!

وبذلك يفقد الحب جماله.. لابد أن تخلعى هذه النظارة! إننى أشعر كأن هذه النظارة تعمينى!

ـ إنها نظارة نظر.

ـ ليست نظارة نظر، إنها حزام عفة!

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أنك تسجنين نفسك خلف هذه النظارة.. تحبسـين مشـاعرك الحقيقية.. تقيدين عواطفك!

ـ إننى لا أشعر بهذه القيود وأنا معك!

ـ المسجون بعد فترة يتعود على السلاسل.. ويتصور أنه ولد بها!

ـ لو كانت هذه النظارة تقيدنى لما أحببتك.

ـ إنها أشبه بالسلسلة فى قدم المسجون.. لا تمنعه عن الحـركة وإنمـا تقيد خطواته!

إنك فعلا تعتبرين هذه النظارة حزام عفــة! كان الازواج الغيــورون فى الماضى يحبسون الجزء الأسفل من المرأة فى حزام من حــديد، ويقفلـونه بمفتاح ويأخذون المفتاح معهم فى سفرهم ليضمنوا أن زوجاتهم لن تستسلم لرجال آخرين أثناء غيابهم!

ــ لابد أنه راجت فى تلك الأيام صناعة المفاتيح التى تفتح بها كل أنواع الأقفال.

ــ إن «الطفاشة» التى يفتح بها اللصوص جميع الأبواب اخترعت فى تلك الأيام!

ــ وهل لديك اختراع لخلع النظارة؟!

ــ الحب يخلع كل شىء!

ــ لم أعرف أن الحب له أصابع!

ــ الحب يخلق أولا.. ثم تخلق له الأصابع التى تنتزع كل حجاب وتنتزع كل النظارات!

ــ إننى أفضل حبا بغير أصابع!

ــ الحب بغير أصابع.. كالجنين بغير أصابع.. مخلوق مشوه!

ــ مادام هذا الحب هو ابنى.. فيجب أن يكون مشوها مثل أمه!.

ــ إن الحب الذى رزقناه مخلوق طبيعى.. لماذا تريدين أن يكون مشوها!

ــ إننى أشعر أنه ولادة غير طبيعية.. أشعر أحيانا كأنك انتــزعته مــن أحشائى!.. كأنك استبقت الأمور.. لم تنتظر حتى يولد ولادة طبيعية، كأنك أجريت لى عملية قيصرية.

ـ إن الأطباء يستعملون الجفت فى الحالات التى يتوقف فيها الجنين عن النمو '

ـ ولذلك يجيء المولود مشوها !

ـ أبدا ' ما دام الجفت يستعمله طبيب ذو خبرة فلا خوف على الجنين

ـ كأنك حضرت ولادات كثيرة غير طبيعية للحب !

ـ نعم حضرت بعض ولادات للحب

ـ وهذه هى المرة الأولى التى أرزق فيها بالحب ! إنه مـولودى الأول.. وهو بالنسبة لى كل حياتى.. أما أنت فقد رزقت الحب مئات المرات.. ولهذا فانا أخاف على ولدى من اللمس !

ـ أنت خائفة منى !

ـ لا.. إنما خائفة من نفسى !

ـ أفهم أن تخافى من الحب قبل أن تقعى فيه، ولكن كيف أفهم أن تخافى بعد أن وقعت فيه !

ـ إننا نخاف من البحر ونحن نغوص فيه، أكثر مما نخاف منـه ونحـن نقف على الشاطئ !

ـ إذا كنت خائفة.. فعودى إلى الشاطئ !

ـ المصيبة أننى لا أعرف كيف أعود !

ـ نحن لم نبدأ بعد !

ـ أنت لم تبدأ.. ولكننى انتهيت.

ـ مادمت انتهيت فما الذى يخيفك.

ـ إنك مستعجل جدا. المفـروض أن تعلمنـى أولا السـباحة علـى الشاطئ.. ثم بعد ذلك تأخذنى إلى وسط المحيط. ولكنك تريد أن تبدأ مـن وسط المحيط!

ـ السفن الكبيرة لا تسير قرب الشواطئ.. إنها تغوص فيها وتجنح!..

ـ ولكننى مازلت قاربا صغيرا!

ـ منذ ربطت قاربك بسفينتى.. أصبحت سفينة كبيرة!

ـ ماذا تريد منى أن أفعل؟

ـ اخلعى نظارتك!

ـ أخشى أن أخيب أملك إذا خلعت نظارتى.. ولم تعجبك عيناى!

ـ إننى أحب ما وراء النظارة!

ـ عيناى قبيحتان!

ـ ولكنى أشعر أنهما جميلتان!

ـ ولكنك لم ترهما!

ـ عندما يحب الرجل تزداد قوة بصره.. يرى أشياء لا يراها الذين لـم يحبوا، الحب يزيد قوة إبصارنا.. والكراهية تعمينا!

ـ إنك تذكرنى بعم عبده!

ـ ومن هو عم عبده هذا؟

ـ إنه شحاذ عندنا هرب من الملجأ وعاد اليوم!

ـ وهل جاء يغازلك؟

ـ لا تغر منه، إن عمره سبعون سنة!

ـ الحب لا يعرف حساب السنين!

ـ إنه فيلسوف غريب.. وقد قال لى: إنه لاحظ فى الأيام الأخيرة أننى ازددت جمالا. وقال إنه يشك أننى أحب لأول مرة!

ـ وماذا قلت له؟

ـ أنكرت طبعا!

ـ وهل خلعت أمامه نظارتك!

ـ هل أنت مجنون؟.. إننى قلت: إننى لا أخلع نظارتى أبدا!

ـ ولكنك سوف تخلعين نظارتك لى.

ـ أعطنى وقتا.. أعطنى وقتا حتى أتعود عليك!

ـ لقد قلت لك أننى أحبك بغير نظارة!

ـ لماذا تكرهها كل هذه الكراهية!

ـ لأنها قناع تضعينه فوق وجهك!

ـ إننى أشعر إنها تحمينى!

ـ إذن أنت تعترفين أنها ليست نظارة نظر.. وإنما هى حزام عفة!

ـ تقصد أن رجلا آخر وضع هذه النظارة على عينى، وسافر. وأمرنى

بألا أخلعها حتى يعود؟

ـ لا.. إنما أقصد أنك اخترعت حزام عفة من نوع جديد.. حزاما مصنوعا من زجاج أسود. أنت التى تحبسين نفسك داخله. أنت المسجون والسجان معا وأنا أريد أن أطلق سراحك لكى أعرف كيف أحبك.. أريدك بغير هذا الحزام!

ـ لن أخلع النظارة!

ـ إما أنا.. وإما هذه النظارة!

ولم ينتظر عادل حتى يسمع إجابتها.. رمى السماعة بعنف..

وبقيت السماعة فى يد قسمت ترتعش. امتلأت عيناها بالدموع.

وفتح عم عبده الباب، وأطل برأسه الصغير، فوجد قسمت تبكى.. وفى يدها سماعة التليفون. وخيل إليه أن السماعة تبكى معها!

ودخل عم عبده على أطراف أصابعه، ووقف أمام قسمت بجسده النحيف الرقيق، يتأملها بحنو عجيب. وتنبهت قسمت إليه عندما اقترب من المكتب.

وسارعت تجمع أشلاءها، وتتمالك نفسها، وتصورت أن نظارتها السوداء أخفت دموعها.

وفوجئت بعم عبده يقول لها:

ـ لماذا تبكين يا ست قسمت؟

وفزعت.. كأن عم عبده رآها عارية.. وأسرعت تقول:

ـ لا شىء.. لا شىء يا عم عبده.

ووقف عم عبده صامتا. كان أشبه بضوء سراج هبت عليه ريح فحولت ضوءه الخافت إلى دخان!

ـ وأحست قسمت بأن نظرات عم عبده الحزينة تحولت إلى أصابع تربت على كتفها فى حنان أم ملهوفة على ابنتها. ثم تحولت هذه النظرات إلى أكتاف تسند رأسها عليها..

ووجدت نفسها دون أن تدرى تنهال بالبكاء!

وابتسم عم عبده وقال:

ـ ربما كانت النمرة غلط!

وفهمت أن عم عبده يريد أن ينقذها من حرجها، ويلفق لها سببا تبرر به صمتها.. ولكنها شعرت برغبة غريبة فى أن تكون صادقة مع الرجل العجوز الذى أحست بكل صدقه فى نظرات عينيه.. فقالت وهى تتنهد:

ـ المصيبة أنها أول مرة فى حياتى لا تكون فيها النمرة غلط!

ـ إذن لماذا تبكين؟

ـ لقد طلب منى شيئا، ورفضت.. فأغلق السماعة فى وجهى!

ـ يا له من مغفل! العشاق لا يطلبون وإنما يأخذون!

ـ إنه ليس مغفلا! إنه رجل ذو تجارب!

ـ ماذا طلب منك؟

ـ طلب أن أخلع نظارتى!

ـ تخلعين النظارة فقط؟

قالت قسمت فى دهشة :

ـ نعم طلب مني أن أخلع النظارة فقط!

وضحك عم عبده.. وكانت ضحكته أشبه بشمعة تضيء فجأة ظلام الغرفة

ونظرت إليه قسمت بذهول.. وقالت :

ـ ما الذى يضحكك فى هذا؟

ـ لأنه طلب أن تخلعى النظارة فقط!

ـ وماذا كنت تظن أنه طلب مني!

ـ تصورت أنك تبكين.. لأنه طلب منك أن تخلعى كل شيء.. ما عدا النظارة!

الفصل التاسع

حضرة صاحبة السمو الملكى الاميرة فضيلة.. وسعادة قرينها محسن باشا معروف.. يدعوان الدكتور عادل علاء الدين.. للتشرف بتناول العشاء على مائدتهما.. فى الساعة الثامنة مساء يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢.. فى قصرهما بالجزيرة.. الحضور بملابس الفراك.

امسك عادل بيده بطاقة الدعوة الانيقة، المكتوبة بماء الذهب، على ورق مصقول، وقرأها عدة مرات..

إنها اول مرة تدعوه الاميرة فضيلة إلى قصرها، لماذا حرصت الاميرة على أن توجه إليه الدعوة بهذه الطريقة الرسمية؟ لماذا لم تتصل به بالتليفون وتدعوه للعشاء؟ ثم لماذا لم تتصل به مرة واحدة بعد أن كانت معه فى شقته بعمارة ايموبيليا؟

مرت عدة أسابيع منذ أن وعدها بأن يصبح صديقها بدلا من حبيبها، وبعد أن أكد لها أنه سوف يفعل المستحيل لاحضار عمر من فلسطين سرا إلى القاهرة. وقد سافر عادل إلى فلسطين عدة مرات، وفى كل مرة كان يبحث عن عمر فى كل مكان ولا يجده. كان يبحث عنه باهتمام حقيقى ولا يتظاهر بالبحث كما اتهمته قسمت ولم يعرف طريقة ليتصل بالاميرة، من وراء ظهر زوجها، ليخبرها بنتيجة رحلاته الفاشلة، إنها لم تعطه رقم تليفونها الخاص

كما أعطته لعمر فى سهرة الاميرة شويكار. ولم يشأ أن يسأل قسمت عن رقم تليفون الاميرة حتى لا يثير غيرتها، ويضايقها فى أول علاقته بها. ولقد لاحظ أن قسمت لم تعد تشير إلى الاميرة بكلمة واحدة منذ حدثها عن سفره إلى فلسطين فى المرة الاولى. بل إنه أخفى عن قسمت أنه سافر إلى فلسطين بعد هذه المرة كان يكذب عليها ويقول إنه سافر إلى بيروت حتى لا يثير ثائرتها !

ولكن ما الذى جعل الاميرة تتذكره فجأة بعد هذه الغيبة الطويلة؟ أتكون قد يئست من عودة عمر، ولهذا فكرت فى العجلة الاحتياطي بسيارة قلبها؟ هل هى أرادت أن تدخله فى قصرها من الباب الأمامى فى وجود زوجها، ليستطيع بعد ذلك أن يدخل القصر من الباب الخلفى؟..

وخطر بباله خاطر مفاجئ. ترى هل دعت الاميرة صديقتة قسمت إلى نفس مأدبة العشاء؟ لو كانت دعتها فالدعوة إذن دعوة بريئة... أما إذا كانت الاميرة اغفلت دعوة قسمت، وبعد أن سمعت بأذنها قسمت تقول بوضوح إنها تهواه، فمعنى ذلك أن الاميرة تقصد أن تنشئ علاقة غرامية معه فوق جثة قسمت !

ومن يدريه، فقد تكون الاميرة قصدت بهذه الدعوة أن توقع بينه وبين قسمت، عندما تعلم أن الاميرة دعته ولم تدعها. أو أنها تريد أن تعرف مدى العلاقة بينه وبين قسمت فإذا اخفى الدعوة عنها فمعنى ذلك أنه لا يأبه لهواها الذى صرحت به أمامها. وإذا أخبرها بأمر الدعوة فستطلب منه قسمت عدم الذهاب .. وهنا تعلم الاميرة أن العلاقة بينهما تطورت إلى علاقة متينة؟

ودهش عادل أن تلجا الاميرة إلى هذه الطريقة الغريبة للاتصال به أن

تطلب إليه أن يرتدى بذلة الفراك ويتشرف بحضور مأدبة عشاء رسمية لتقول له فى حضور زوجها إنها قررت أن تبدأ علاقة غرامية به ! هل تحتاج الاميرة لكل هذه المراسم، ولكل قواعد البروتوكول، ولكل أنظمة التشريفات الملكية لتقول لرجل يعجبها : «أنا أحبك» !

وضحك عادل من سخافة الطريقة التى لجأت إليها الاميرة ! إنـــه رجــل يحب الوضوح. يكره اللف والدوران وهو كمهندس يؤمن بأن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين، فلماذا تلجأ الاميرة إلى الطريق المعــوج فى التعبير عن عواطفها ؟

وشعر أنه يرغب فى أن يحضر عشاء الاميرة. ولكنه أحس بــوخزة مــن ضميره ! إن ذهابه إلى الأميرة هو خيانة لقسمت ! وعجب ان يشعر لاول مرة فى حياته بهذه الوخزة ! كانت لذته أن يستغفل النساء، أن يخونهن، أن يتنقل بينهن كما يتنقل من سهرة إلى سهرة، ومن مطعم إلى مطعم !فهو لم يشــعر أبدا أنه يخون فندق شبرد عندما يتعشى فى فندق سميراميس. ولم يشعر أنه يخدع ملهى الاوبرج عندما يسهر فى ملهى هلنيوبوليس بــالاس ! كل مــطعم يقدم صنفا مختلفا من الطعام. وكل ملهى يقدم برنامجا يتميز به ! وعلاقاته بالنساء كانت أشبه بعلاقاته بالمطاعم والملاهى. مع فارق واحد أنه يــدفع ثمن ما يأكل فى المطاعم، ولا يدفع ثمن ما يأكل من النساء !

ودهش أن يتحرك ضميره من أجل قسمت ! ولا يتحرك من أجل مئــات النساء الأخريات.. النساء الجميلات الفاتنات الشهيات ! قسمت التــى لــم يقبلها بعد، التى لم تخلع نظارتها بعد، التى لم يحدث بينهما إلا غزل يشبه غزل الشبان المراهقين من نوافذ الجيران !

ماذا جرى له ؟ هل جبن ؟ هل من المعقول أن يتردد فى الاختيــار بيــن

أميرة فاتنة تجرى وراءه، وبين فتاة مشوهة تجرى منه ! هل من المعقول أن يخاف غضب قسمت إذا ذهب إلى المأدبة، ولا يخاف غضب الاميرة إذا لم يذهب؟

* * *

وامسك بسماعة التليفون وطلب قسمت.. وسألها :

ـ ماذا تفعلين يوم ٤ فبراير؟

ـ لماذا تسألنى هذا السؤال؟

ـ هذا السؤال إحدى علامات الحب ! كلما زادت الاسئلة زاد الحب !

ـ ليتك تسألنى ألف سؤال !

ـ إننى أريد أن أعرف هل أنت مرتبطة بموعد فى ذلك اليوم؟

ـ لو كنت مرتبطة بمواعيد مع أعظم أقطاب العالم، فإننى سوف ألغيها من أجلك.. أنت موعدى الوحيد !

ـ إذن سأراك يوم ٤ فبراير الساعة الثامنة مساء !

ـ ولماذا اخترت هذا اليوم بالذات .. وهذه الساعة بالذات؟

ـ لأن الاميرة فضيلة دعتنى للعشاء عندها فى هذا الموعد.. فقررت أن اقابلك أنت فى الموعد نفسه !

ـ ولن تذهب إلى الاميرة؟

ـ لن أذهب ! تكفينى امرأة واحدة فى ليلة واحدة !

ـ ماذا حدث لك يا عادل.. هل أصبت فجأة بمرض عقلى؟

ـ لا.. أصبت فى القلب!

ـ كنت أتصور أنك رجل بلا قلب.

ـ وأنا أيضا كنت أظن ذلك، ولست اعرف متى ولد قلبى، ومتى مرض.. كل شىء حدث بسرعة غريبة!

ـ أخشى أن يكون قلبك مرض من كثرة الاستعمال.. الرجل العادى يتحرك قلبه مرة أو مرتين طوال الحياة.. أما قلبك أنت فهو مزدحم كسيارات الاوتوبيس!

ـ إنها المرة الاولى التى أحس فيها بأن قلبى تحرك فعلا.. وأنه ملىء بالطموح!

ـ أطباء القلب يقولون إن الطموح الزائد يؤثر فى القلب، إنه يزيد احتياجات القلب إلى الاوكسجين!

ـ إذن.. عليك أن تقدمى الاوكسجين!

ـ سأحضر فى الموعد..

ـ بنظارة أم بدون نظارة؟

ـ كما تريد يا عادل!

ـ كما أريد؟ هل جننت أنت أيضا؟ إنها أول مرة أسمعك فيها ترددين كلمة: «كما تريد»! أول مرة أسمعك فيها تستسلمين بلا قيد ولا شرط.. لابد أنك أنت المريضة!

ـ إن مرض القلب مرض معد!

ـ إذن عندما كنت ترفضين خلع نظارتك، لم تكونى اصبت فى قلبك بعد؟

ـ إننى أصبت بمرض القلب قبل إصابتك! أنا التى أعـطيتك العـدوى ..لا أنت!

ـ ولماذا كنت ترفضين قبل الآن خلع نظارتك؟

ـ لأنك كنت تشحذ! أنا لا أحب المتسولين! المتسـولون أضـعهم فى الملجأ.. ولا أضعهم فى قلبى!

ـ وكيف كنت تريدين منى أن أطلب إليك خلع نظارتك؟

ـ كنت اتمنى الا تطلب منى خلعها .. ان تتقدم وتنزعها؟ أشياء كثيـرة لا يطلبها الرجل من المرأة، بل يأخذها.. إن هذا ليس رأيى إنه رأى عـم عبده!

ـ وهل أصبح عم عبده مستشارك الخاص فى المسائل الغرامية؟

ـ إنه طبيبى فى شئون القلب!

ـ إذن فمصيرى أصبح فى يد شحاذ!

ـ إنه متحمس لك . يحكم لصالحك دائما ضدى!

ـ شحاذ، ومستشار، وطبيب وقاضى غرام؟.

ـ المثل يقول «سبع صنايع فى أيدينا.. والهم داير علينا»!

ـ وهل افتى عم عبده بأن تخلعى النظارة!

ـ افتى بأن الحب هو عملية تعرية كاملة، يكشف كل طرف فيها عـن كل شىء، ولا يخفى فيها أى شىء، يقول إن واجب كل طرف أن يحب الطرف

الآخر كما هو، بكل ما فيه من عيوب، ويعتقد أن العاشق لن يـرى عيـوب المرأة التى يحبها لأن الحب أعمى!

ـ ولهذا سوف تخلعين النظارة

ـ نعم.. لقد أكد لى أن عينى المحب لن تريا إلا الشـىء الجميـل فى المرأة التى يحبها!

ـ ولهذا أنت مطمئنة؟

ـ جدا!

ـ إذن أنت واثقة أننى أحبك؟

ـ جدا!

ـ أخشى أن تكونى لم تعرف أننى لم أحبك إلا عندما قلت لك إننى مدعو للعشاء عند الاميرة فضيلة، وأننى فضلت أن اقابلك أنت فى يوم ٤ فبـراير.. على أن أذهب إليها!

ـ قد يدهشك ان تعلم أننى غيرت رأيى!

ـ لن تخلعى النظارة؟

ـ لا.. لن أحضر فى يوم ٤ فبراير

ـ لماذا؟

ـ لأننى سأحضر يوم ٣ فبراير!

ـ الشوق إلى اللقاء.. جعلك تقدمين الموعد يوما؟

ـ لو اطعت شوقى.. لجئت إليك الآن!

ـ إذن ما الذى جعلك تغيرين موعدنا؟

ـ لتذهب إلى الاميرة فى يوم ٤ فبراير

ـ يظهر أنك واثقة منى!

ـ لا.. إننى واثقة من نفسى!

* * *

اليوم ٣ فبراير.

جو القاهرة مكهرب.

وزارة حسين سرى باشا قدمت استقالتها إلى الملك. السبب المعلن هو قطع العلاقات بين مصر وحكومة فيشى. السفير البريطانى يلح فى قطع هذه العلاقات بناء على أوامر من تشرشل رئيس الوزراء. خصوم بريطانيا يعارضون قطع العلاقات. الرأى العام المصرى ضد الانجليز. يتمنى أن يخسروا الحرب. كراهته للاحتلال البريطانى جعلته يفضل دكتاتورية هتلر على ديمقراطية الحلفاء الناس صدقوا أنه إذا انتصر هتلر فسوف تحصل مصر على استقلالها التام، وسوف يجلو جيش الاحتلال البريطانى عن البلاد. المحن التى تعرض لها الشعب المصرى على يد الاستعمار طوال ستين عاما بلبلت عقله. جعلته يتوهم أن الغزاة الالمان سوف يخلصونه من الغزاة الانجليز، كأن الدول الكبرى جمعيات خيرية توزع الحريات على المحتاجين والضعفاء!

توقف العمل فى شركة الهندسة الكهربائية. جلس المهندسون فى مكتب عادل علاء الدين المدير العام. يتناقشون فى السياسة!

أشعل عادل علاء الدين سيجارته ونفخها فى الهواء، وقال:

ـ خسارة ! يستقيل حسين سرى.. إنه مهندس والبلد فى حاجة إلى مهندس !

قال المهندس جورج اسحق :

ـ سقوط حسين سرى هو سقوط دولة المهندسين. إنها أول مرة فى تاريخ مصر يرأس وزارتها مهندس، واول مرة يصبح فى وزارة واحدة اربعة من المهندسين. وسوف يعود الحكم للمحامين، سنعود إلى وزارات الكلام !

وأشعل المهندس خليل مدبولى غليونه وقال :

غلطة حسين سرى أنه نجح فى أن ينال ثقة الانجليز وفشل فى أن يحصل على ثقة المصريين ! لم يستطع أن يقيم جسرا بين الشعب المصرى والحلفاء.. والانجليز يريدون رجلا يكون هذا الجسر الذى يمشون فوقه !

قال عادل علاء الدين :

ـ أى رجل يتولى الحكم فى هذه الظروف سوف يحترق.. الانجليز يريدون حاكما يسلم لهم على طول الخط.. والشعب يريد حاكما يقف ضد الانجليز. الاقلية تعتقد أن الحلفاء سيكسبون الحرب. والاغلبية تؤمن بأن هتلر سيكسب الحرب، لا عن اقتناع ولكن عن «تمن» !

قال مدبولى :

ـ وأنا أتمنى أن يأكل الاسدان بعضهما بعضا ولا يبقى منهما الا الذيل !

قال عادل :

ـ إننى علمت أن حسنين باشا رئيس الديوان الملكى يريد أن تتألف

وزارة قومية برئاسة مصطفى النحاس ويقف البلد كله صفا واحدا لمواجهة المستقبل، سواء انتصر الألمان أو انتصر الحلفاء.

قال مدبولى :

ـ ولكن الانجليز لن يوافقوا على مثل هذه الوزارة. سياستهم دائما تقوم على أساس مبدأ (فرق تسد) انهم يريدون أن يهددوا رئيس الوزراء كل يوم بأن يخرجوه ويجيئوا بأحزاب المعارضة. وبذلك يستنزفون منه ما يريدون تحت التهديد ! يريدون وزارة تهاجم خصومها بدلا من أن تهاجمهم، وتدافع عن نفسها بدلا من أن تدافع عن مصالح مصر.

قال عادل :

ـ لو اتحدت الأحزاب فى هذه اللحظة وألفت وزارة واحدة، فسيمكنها أن ترغم الانجليز على أن يوقعوا وثيقة الجلاء عن مصر والسودان عندما يكسب الحلفاء الحرب، وعندئذ تتحول كراهة المصريين إلى صداقة.

قال جورج اسحاق :

ـ وعندئذ تعلن مصر الحرب على المحور، وتشترك قواتنا فى الحرب مع جيوش الحلفاء، وسوف يسعد هذا الانجليز..

قال عادل :

ـ إن هذه أكذوبة رددناها طويلا حتى صدقناها ! إن الانجليز لا يريدون أن نعلن الحرب على المحور. ولا يريدون أن يدخل الجيش المصرى رسميا فى الحرب ! الجيش المصرى يحارب فعلا ! ولكنه يحارب سرا ! المدفعية المصرية هى التى تحرس القناة والشواطئ والحدود، وهى التى تسقط طائرات الألمان والايطاليين.. ومصر تقدم للحلفاء التموين والمواصلات

كأنها تحارب فعلا. والانجليز يسيطرون على كل شيء فى مرافقنا.. موانينا.. مطاراتنا.. حتى الذى يراقب الصحف المصرية هو انجليزى اسمه مستر فرنس.. ولو كان الانجليز يريدون منا أن نعلن الحرب لارغمونا على إعلانها من اليوم الاول!

قال مدبولى:

ـ إن الشعب عارض أحمد ماهر عندما طالب باعلان الحرب ظنا منه ان الانجليز هم الذين يطالبون باعلان الحرب.. وأن شقيقه على ماهر هو الذى يعارض فى إعلان الحرب. وأن هذا سر اخراجه من رئاسة الوزارة!

قال عادل:

ـ الانجليز اخرجوا على ماهر لأنهم اتهموه بأنه على علاقة بالمحور.. لا لأنه رفض اعلان الحرب... والدليل على ذلك أن وزارة حسن صبرى باشا خلفته ولم تعلن الحرب. وأن حسين سرى باشا الف بعد ذلك وزارتين ولم يعلن الحرب لقد قال لى الجنرال ستون رئيس البعثة العسكرية البريطانية إنه فى رأيه ان بريطانيا استفادت استفادة ضخمة من عدم دخول مصر الحرب، لانه لو كانت مصر اشتركت فى الحرب لعاملتها بريطانيا كحليفة لا كمستعمرة ولا ضطرت بريطانيا إلى تسليح الجيش المصرى ولحسبت لندن ألف حساب للقاهرة عندما يحين الوقت لبحث مشكلة فلسطين...

قال مدبولى:

ـ ولكننا جميعا لعنا أحمد ماهر عندما طالب بإعلان الحرب على المحور سنة ١٩٤٠.

قال عادل:

ـ كما لعنا الشيخ محمد عبده عندما طالب بتحرير الدين من الخزعبلات. وكما لعنا قاسم أمين عندما طالب بتحرير المرأة. وكما لعنا لطفى السيد عندما قال إن مصر للمصريين، وكانت الوطنية وقتئذ أن تكون علاقة مصر بتركيا علاقة التابع بالمتبوع!

قال مدبولى:

ـ كنت أؤمن دائما بأن الشعب لا يخطئ، إلى أن رأيت مظاهرة من عشرات الالوف فى سنة ١٩٢٦ تذهب إلى بيت الأمة وتطالب سعد زغلول بشنق طه حسين لأنه ألف كتاب «الشعر الجاهلى» الذى ناقش فيه القرآن. واضطر طه حسين أن ينشر بيانا فى الصحف يعلن فيه أنه مسلم مؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر!

قال عادل:

ـ من عادة الشعوب أن ترجم المصلحين بالطوب ثم تقيم لهم التماثيل بعد أن تدفنهم! الذين قتلوا الامام على لا يزالون يبكون عليه حتى الآن والذين حرقوا جان دارك: منحوها لقب قديسة!

قال مدبولى:

ـ إن بلادنا تحتاج إلى الواقعيين والخياليين، الخياليون يحلمون، والواقعيون ينفذون. عيب قادتنا أنهم إما مهندسون. وإما محامون المطلوب رجل يهندس ويتكلم.. يعمل ويحلم!

قال عادل:

ـ إننى استعرض رجالنا فلا أجد فيهم سوى صفة واحدة من الصفتين الذين يتكلمون لا يعملون؟ والذين يعملون لايتكلمون.

قال مدبولى :

ـ مكرم يحلم ويتكلم

قال جورج :

ـ وإسماعيل صدقى عقله فرنسى وقلبه ايطالى ولسانه اسبرانتو.. ولهذا.

قال عادل :

ـ وعلى ماهر لا يؤمن إلا بنفسه! ولهذا يكفر به الجميع!

قال مدبولى :

ـ والنحاس رجل طيب.. وعيبه أن مكرم يسيطر عليه!

قال جورج :

ـ إن يسيطر عليه مكرم الوطنى خير من أن يسيطر عليه السفير البريطانى الذى كان يسيطر على الكثيرين من رؤساء الوزارات المصريين، النحاس هو الشعب. ومادام يبقى خارج الحكم فمعنى ذلك أن الشعب محروم من حكم نفسه.

قال عادل :

ـ وأحمد ماهر حرق نفسه أمام الرأى العام عندما طالب بإعلان الحرب على المحور! كل أم فى مصر كرهته خشية أن يؤدى ذلك إلى تجنيد ابنها. لعنه الشبان لأنهم لم يجدوا رسالة يموتون من أجلها! اعتبره الوطنيون خائنا لأنه يطالبنا بأن نحارب جنبا إلى جنب مع أعدائنا. الشعب لم يفهم قضية الديموقراطية التى يحارب من أجلها الحلفاء عيب الانجليز أنهم اعتبروا الديمقراطية بضاعة غير قابلة للتصدير! كانوا يحاربون كل حكم

ديموقراطى فى مصر! كانوا وراء الملك فؤاد عندما حل أول مجلس نواب مصرى.

كانوا وراء محمد محمود عندما عطل الدستور. كانوا وراء إسماعيل صدقى عندما الغى الدستور. ولم يصدق الشعب أن أعداء الديمقراطية فى مصر يمكن أن يكونوا أنصارها فى أنحاء العالم!

قال مدبولى:

ـ معنى ذلك أن كل واحد من هؤلاء لا يصلح لكى يحكم البلد وحده.

قال عادل:

ـ ولهذا يجب أن تتألف وزارة منهم جميعا، يكمل بعضهم بعضا فيها. ومن مجموع هؤلاء تتكون قيادة قوية تهندس وتتكلم.. تعمل وتحلم.

قال مدبولى:

ـ إن تشرشل يرأس وزارة من أحزاب المحافظين والعمال والأحرار. وروزفلت عين اثنين من خصومه من زعماء المعارضة فى أهم منصبين فى الوزارة. وجعل أحدهما وزير الحربية والآخر وزير البحرية.. فى ساعات الازمات يجب أن تكون الأمة كتلة واحدة.

قال جورج:

ـ ولكن النحاس يرفض أن يؤلف وزارة قومية..

قال عادل:

ـ لقد جرب النحاس الوزارة الائتلافية سنة ١٩٢٨ واستقال أربعة

وزراء.. ثم أقيلت الوزارة فى اليوم التالى... وهو رجل مؤمن لا يلدغ من جحر مرتين!

قال مدبولى:

ـ ولكننا الآن فى سنة ١٩٤٢.. لقد مرت ١٤ سنة على هذه التجربة وفشل تجربة مرة واحدة لا يكون دليلا على فشلها دائما...

قال عادل:

ـ سمعت أن الملك دعا النحاس ومكرم لمقابلته، وهو يظن أن مكرم هو الذى يؤثر على النحاس برفض الوزراة القومية... وحسنين باشا يعتقد أنه سوف يقنع مكرم بقبول فكرة الوزارة القومية.

قال جورج:

ـ إن حسنين لا يعرف النحاس إن رأسه ناشف. ولا يمكن ان يقنعه ألف مكرم بقبول تأليف وزارة قومية... وليس من مصلحة مكرم أن تؤلف وزارة قومية، فإذا تألفت وزارة وفدية فسيكون هو رئيس الوزراء الحقيقى.

قال عادل:

ـ إن المحيطين بالنحاس يقولون إن مكرم لم يعد أقوى شخصية بجانب النحاس... إن أقوى شخصية هى زينب هانم زوجته!

وضحك مدبولى وقال:

ـ كان على الملك إذن أن يدعو زينب هانم لمقابلته!

* * *

وقفت قسمت أمام المرأة.

اليوم موعد لقائها مع عادل.

اليوم الذى عاشت له بأحلامها والذى انتظرته طول حياتها. وهى سعيدة أن هذا اليوم جاء اخيرا. ومع ذلك فهى خائفة، كما لم تخف طوال حياتها ليست خائفة أن تخلع نظارتها. ولا هى خائفة أن تخلع كل ملابسها. ولا هى خائفة من الذئب الذى ينتظرها. فهى تعلم جيدا ان موعدها الليلة مع ذئب. لم يخدعها مرة واحدة ويزعم أنه حمل وديع. كان دائما يذكرها بأنه ذئب. وبأنه مفترس. وبأنه سيبدأ معها بما ينتهى به سائر الرجال!

زئر النساء يجيد اصطياد النساء لأنه ماهر فى اخفاء أنيابه. ابتسامته الحلوة تخبئ نواياه. كلماته المعسولة فيها أفيون يخدر الضحية. ويجعلها تستسلم بلا مقاومة. هو طبيب بنج ممتاز يجرى العملية الجراحية والمريضة تتصور أنها لم تبدأها بعد. بل تقتنع بأنها ليست فى حاجة إلى إجراء عملية

أما عادل فلم يخف أنيابه. كان دائما يحذرها من نفسه! لم يطمئنها مرة واحدة، وكأنه كان يقول لها فى كل حديث تليفونى أنا وحش... يجب أن تخافى منى... و «أنا ذئب... احذرينى» و «أنا سافل... وليس لدى أغراض نبيلة»!

لقد سمعت قبل ذلك عشرات القصص من صديقات لها وقعن فى الحب. كل واحدة منهن أقسم لها حبيبها أنه سيحافظ عليها كما يحافظ على أخته. كل واحد منهم أكد لحبيبته أن غرضه شريف وأنه يحبها حبا عذريا بريئا. كل واحد منهم حرص على أن يرتدى ثياب الحمل الوديع ويضع للشيطان فيه أجنحة الملائكة!

حتى صديقتها أميرة عبد العاطى روت لها مغامراتها مع عادل نفسه... بكل تفاصيلها ودقائقها... وقالت لها إن عادل كان يقول لها إنه يحبها حبا شريفا.. وأنه عندما صحبها فى سيارته فى موعدها الأول لم يحاول أن يقبلها.... ولكنها لم تعرف ماذا حدث بعد ذلك، ولا كيف حدث، كل ما عرفته أنها أعطت لعادل كل شىء!

فلماذا يخصها عادل علاء الدين وحدها بهذه المعاملة الغريبة؟ لماذا لم يحاول اغراءها؟ لماذا لم يحاول خداعها كما فعل مع كل امرأة أخرى؟ لماذا لم يلوح لها مرة واحدة بالزواج؟ انها كانت ستعرف أنه كاذب، ستعرف أنه يخدعها، ليست طفلة حتى تصدق وعود الرجال، ليست ساذجة لتشرب زجاجة الكازوزة الحمراء، التى تدعى كل فتاة أنها شربتها قبل أن تستسلم للرجل الذى تحبه!

هل يقصد عادل بهذه الشروط القاسية أن يفزعها؟ أن يجعلها تهرب منه؟ هل هى طريقة مؤدبة لطردها من حريمه الملىء بالنساء الجميلات؟

الرجل عندما يريد امرأة يجعل لها «البحر طحينة»، يسهل لها كل صعب يغلف نواياه بالورق المفضض، يفرش طريق الشوك بالورود والرياحين، يخفى المر فى زجاجة كبيرة مليئة بالسكر المذاب.. أما عادل فقد حرص دائما على أن يقول لها إنه لا يأخذها إلى شاطئ البحر... وإنما يغوص بها فى أعماقه وأن عليها أن تذوق المر أولا لتستمتع بعد ذلك بالسكر المذاب!

ولو كان يريدها أن تنجو بنفسها فقد كان لديه ألف طريقة وطريقة لوقف هذه العلاقة قبل أن تبدأ. لما فضل أن يلقاها هى ولا يلقى الأميرة فضيلة.

وكل تحذيرات عادل لم ترعبها. زادت من تعلقها به، ضاعفت من حماسها للقائه. ولو أنه طمأنها لما اطمأنت بل لاحست بالحذر، لا بتعدت أيكون قد

فهمها؟ قد عرف أنها امرأة تختلف عن كل النساء. تحب الخطر وتكره الأمان، تعشق الذئاب وتزهد فى الحملان؟ لقد كانت تكره الرجال لأنها تكره الكذب تعتقد أن جميع الرجال كذابون مخادعون، يقولون غير ما يبطنون. ألسنتهم تقول أشياء غير ما تقوله قلوبهم وأجسادهم وعيونهم. ولم يحدث مرة واحدة أن قال لها رجل أنه يريدها. صحيح أن مظهرها لا يشجع على هذه الرغبة. ولكنها سمعت رجالا يقولون إنهم يريدون ان يتزوجوا بها، وهى تعلم أنهم يريدون الزواج بالمائتى فدان!

ولكن هذا الرجل الغريب قال لها ما لا يقوله أى رجل لأى امرأة!

أيكون هذا السبب هو الذى جعلها تحبه كل هذا الحب؟ لا.. إنها أحبته قبل أن يصارحها بالحقيقة.. ثم عبدته بعد أن قال لها كل الحقيقة! إنها احترمته عندما لم يقل لها أنها ستكون المرأة الوحيدة فى حياته. ولو كان قالها لا حتقرته. فهى تعلم أنها ليست فاتنة كالأميرة فضيلة.. وليست شائقة كاميرة عبد العاطى، وليست مثيرة كفاطمة عبد الرسول. ولا هى ملكة جمال كعصمت شفيق. ولا هى لعوب كزينب كامل، ولا هى ملكة ليل كاجلال فوزى ملكة الاغراء.. وغيرهن من النساء اللاتى دخلن قلب عادل علاء الدين!

لقد قالت له إنها راضية بأن تكون واحدة من جواريه، محظية فى بلاط سلطان الغرام!

كل ما قاله لها إنها تستطيع أن تحل محل هؤلاء جميعا لو استطاعت!

وهى خائفة ألا تستطيع. خائفة ألا تعجبه. خائفة أن تسقط فى الامتحان!

واليوم هو موعد الامتحان النهائى. امتحان ليس له ملحق. ولا دور ثان!

وهى أشبه بتلميذ لم يفتح كتابا. لم يتلق دروسا خصوصية. لم يلتفت

للمدرسين فى أثناء الشرح فى الحصص.. ثم فوجئ بيوم الامتحان!

وارتعشت قسمت وهى واقفه أمام المرآة!

أطلت فى المرآة، وخشيت أن تكون الصورة المرتسمة فيها، هى إجابتها فى يوم الامتحان.. وهى إجابة لا تستحق إلا الصفر.. الصفر من عشر درجات! ومشت أمامها أطياف الأميرة فضيلة وأميرة عبد العاطى وفاطمة عبد الرسول وعصمت شفيق واجلال فوزى..

إن كل واحدة منهن هى الاجابة الصحيحة على كل سؤال!

وفتحت دولاب ملابسها واستعرضت ثيابها فيه.. تبحث عن ثوب جميل أنيق!

وتذكرت أن كثيرا من الثياب التى أحضرها لها أبوها من روما وباريس ولندن قد وزعتها على الخادمات! ابت أن ترتدى هذه الفساتين الانيقة المثيرة وفضلت عليها أثوابها الباهتة المسكينة التى جعلتها تبدو كالمتسولات!

وتذكرت ثوبا أعطته من أسابيع لخادمتها كوثر. إنه فستان مصنوع من المخمل المضلع، المحلى بفصوص ذهبية، لونه الأحمر غريب ويلائم جسدها، ويظهر مفاتنها، ويتفق مع سمرتها، وياقته رمادية كلون طلاء شقة عادل.

وفكرت قسمت فى أن تقترض الفستان من خادمتها كوثر. إنه آخر موضة ابتكرتها باريس لهذا الشتاء.

لعلها بهذا الثوب الأنيق.. ترفع درجتها فى امتحان الليلة!

واسرعت تنادى خادمتها كوثر وتطلب منها أن تحضر الفستان..

وجاءت كوثر بالفستان..

وأمسكته قسمت وذعرت!

ولقد غيرت كوثر الفستان الانيق نزعت الياقة الرمادية ووضعت مكانها ياقة زرقاء! انتزعت الفصوص الذهبية! حولت آخر موضة ابتكرتها باريس.. إلى آخر موضة ابتكرتها خياطتها أم على!

وأعادت قسمت بقايا الثوب الانيق فى حسرة إلى خادمتها كوثر،

وعادت إلى دولاب ملابسها تبحث عن ثوب يليق بالمناسبة السعيدة!

ورأت ثوبا نسيت أن توزعه على الفقراء..

وأسرعت ترتديه.. فوجدته يلتصق بجسدها، ويبرز مفاتنها كلها.. وهو مصنوع من قماش الاورجنزى.

وأحست بأن هذا الثوب يكاد يجعلها عارية! إنه يظهر صدرها ويلتف بها التفافا عجيبا..

وشعرت لأول مرة فى حياتها بأنها مثيرة!

ثم خلعت نظارتها..

ونظرت فى المرآة..

وتضاعف ذعرها..

انها بدت أشبه بالغانية!

إن أجزاء مختلفة من جسدها تطل من هذا الثوب الضيق، كأنها تحاول

أن تنطلق منه، كأنها تصرخ، كأنها تنادى، كأنها تصيح!

وكلما اخفت بيدها مكانا فى جسدها وكأنها تكتم صراخه بيديها، وجدت باقى أجزاء جسدها تنطلق فى الصراخ!

ماذا حدث؟!

إن هذا ليس ثوبا!

أنه أشبه بمحطة اذاعة!

وأسرعت تضع النظارة فوق عينيها..

واخفت النظارة عينيها.. كانت أشبه بكمامة تمنع عينيها من الكلام.

ولكن بقيت أجزاء من جسدها تصرخ من خلف الفستان!

وخلعت الثوب بسرعة..

ألقته على الأرض..

وأسرعت ترتدى فستانا بسيطا واسعا، غامقا، باهتا..

وأطلت فى المرآة من جديد..

وأطمانت..

لقد توقفت محطة الاذاعة فجأة عن الصراخ..

واسرعت فى طريقها إلى شقة عادل علاء الدين..

الفصل العاشر

أنهى عادل علاء الدين أعماله التى تراكمت منذ الصباح فى شركة الهندسة الكهربائية، لينصرف إلى داره استعدادا للقاء قسمت.

عجيب أن يهتم بهذا اللقاء كل هذا الاهتمام. ما قسمت إلا امرأة كعشرات النساء اللاتى عرفهن. بل هى أقل منهن جميعا، أقل منهن جمالا، أقل منهن أناقة، أقل منهن رشاقة. ماذا فيها من جديد حتى يشعر بهذا الشعور الغريب؟

حتى اللذة التى يشعر بها الصياد وهو يطارد الفريسة الجامحة لا يشعر بها. إنه يعرف أنها استسلمت له قبل أن يقبلها. فهى أسهل امرأة عرفها فى حياته. لم يحتج معها أن يشرع أسلحته، ولا أن يستعمل خبرته فى فن المطاردة والاغراء.

المرأة الصعبة أشبه بقمم الجبال الشاهقة، مشقة الوصول إليها فيها لذة ومغامرة وبطولة. الأخطار التى تصادفنا تسكرنا. العقبات التى تواجهنا تثير فينا الحماس. المطاردة نفسها عملية شائقة. عندما تفلت الفريسة من بين أيدينا فى اللحظة التى نتهيأ فيها لالتهامها، فى هذه اللحظة يتضاعف شوقنا وتزداد لهفتنا وتتحول المطاردة إلى سباق مثير، وتبدو الفريسة وهى تفلت من ايدينا أحلى مما كانت وهى بين أصابعنا.

كل هذه المشاعر الجميلة يفتقدها عادل فى الموعد الذى حدده للقاء قسمت. كأنها أول غزال يصطاده بغير أن يعدو خلفه، بغير أن يختبئ منه، بغير أن يداوره ويحاوره، بغير أن يطلق عليه رصاصة واحدة.

المنطق كان يقضى بأن يزهد فى هذه الفريسة السهلة، أن يهزأ بها، ألا يحسب أى حساب لها. ولكن الغريب أنه يفكر كثيرا فى هذا اللقاء، كأنه ليس موعد غرام وإنما زفافه الأول. كأن القادمة ليست عشيقة جديدة، وإنما عروس جديدة! وخيل إليه أنه يرى قسمت تدخل شقته فى ثياب الزفاف، والطرحة البيضاء فوق رأسها!

واضطرب عادل. وتذكر أن قسمت عروس فعلا، وأن هذه ليلة زفافها هى أول عروس حقيقية فى حياته. كل عشيقاته كن متزوجات، أو أرامل أو مطلقات. كان يهرب دائما من العذارى، يخافهن، لأنه يجد لذة فى أن يذوق الهوى دون أن يدفع الثمن. وعلاقة مع عذراء قد تكلفه عمره كله!

وإذا بعذرائه الأولى هى قسمت شاهين التى كان يسميها «عذراء بالرغم منها».. التى كان يقول لصديقتها أميرة عبد العاطى إن سر احتفاظ قسمت بطهارتها لا يرجع إلى ارتفاع مستوى الفضيلة فيها، وإنما يرجع إلى مستوى الذوق فى الشعب المصرى!

وها هو ذا يثبت انحطاط ذوقه فى تقدير الجمال، ويقبل على فتاة زهد فيها كل الشبان والرجال. ويشعر بأن فى داخلها جمالا مخبوءا، بأن فيها شيئا ما يثيره، يجعله يتحرق إليها شوقا وهياما، شيئا مجهولا فى داخلها لا يعرف ما هو، ولكنه يعرف أنه يغريه ويلهبه!

* * *

ونظر عادل إلى الساعة فوجدها السابعة مساء. بقى على موعدها ساعة كاملة..

وأسرع يغلق أدراج مكتبه، واتجه إلى الباب، وإذا به يسمع جرس تليفون مكتبه يدق. ومضى يفتح الباب. واستمر التليفون يدق. وخيل إليه أن هذا ليس صوت التليفون. إنه صوت قسمت يعتذر عن عدم الحضور فى الموعد. وأحس بضيق شديد. كما خيل إليه أن رنين جرس التليفون هو رنين جرس الكنيسة عند دفن الموتى. وانقبض قلبه. وتصور أن الرنين هو اعلان عن جنازة موعده مع قسمت. وعاد إلى التليفون بخطوات ملهوفة، وأمسك سماعة التليفون بيد مرتعشة ثم انبسطت اساريره لأنه لم يسمع صوت قسمت، وإنما سمع صوت صاحب المعالى أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى يقول له:

ـ تعال عندى الآن يا عادل فى مكتبى فى القصر..

وتذكر موعده مع قسمت. فقال:

ـ هل من الممكن أن أحضر غدا؟

قال حسنين باشا بحزم:

ـ إنه أمر هام. لن يستغرق سوى خمس دقائق!

قال عادل:

ـ إننى قادم إليك فورا. إن لدى اجتماع مجلس إدارة فى الساعة الثامنة مساء.

قال حسنين:

ـ إن المسألة التى اريدك فيها لا تستغرق أكثر من خمس دقائق!

وركب عادل سيارته، ونظر إلى ساعته. إنها السابعة وخمس دقائق والمسافة بين مكتبه والقصر خمس دقائق. ولقاء رئيس الديوان خمس دقائق.. إن لديه الوقت الكافى ليكون فى شقته قبل حضور قسمت.

وبينما كان يقود سيارته إلى قصر عابدين كان يفكر فى حيرة فى السبب الذى دعا رئيس الديوان الملكى لكى يستدعيه لمقابلته فى أثناء الأزمة الوزارية الطاحنة.. فهو رجل لا يشتغل بالسياسة.. وليس من المعقول أن يستشيره رئيس الديوان فى الأزمة الخطيرة!

وابتسم ساخرا عندما خطر بباله، أنه ربما كان حسنين باشا هو الذى سيؤلف الوزارة الجديدة، وانه استدعاه ليفرض عليه منصب وزير الاشغال أو منصب وزير المواصلات!

وضحك وهو يقول لنفسه انه يفضل موعده مع قسمت على منصب الوزير! ما أعظم الفرق بين سرير الحكم وسرير البيت! إننا نتعرى فى كل واحد من السريرين! ولكننا نرى فى سرير البيت الأحلام ونرى فى سرير الحكم الكوابيس! سرير البيت مريح. وسرير الحكم متعب! سريرالبيت ثابت! وسرير الحكم لا يكف عن الاهتزاز! النوم فى سرير البيت هو القاعدة، والأرق هو الاستثناء، والأرق فى سرير الحكم هو القاعدة، والنوم هو الاستثناء! إننا ننام فى سرير البيت مع من نحب. ولكننا نعيش فى سرير الحكم مع من لا نحب ولا نطيق! ..

وأبعد من رأسه فكرة إسناد أى منصب وزارى، فإن رئيس الديوان يعرف أنه يكره المناصب الحكومية وأن سعادته هى فى العمل بشركة الهندسة

الكهربائية التى بناها حجرا حجرا، وجعلها من أكبر الشركات الهندسية فى البلاد.

وتذكر عادل أنه يعرف عن حسنين أنه شخصية خرافية، له قدرة خارقة على السيطرة على أعصابه. وأنه اعتاد فى أثناء الأزمات الخطيرة عندما يعجز عن الوصول إلى حل، ويجد الأبواب كلها مسدودة أمامه، أن ينتزع نفسه من الأزمة، وينشغل بموضوع لا علاقة له بالأزمة. وهو يذكر أنه عندما وقعت الأزمة بين الملك والانجليز بعد استقالة على ماهر باشا من رياسة الوزارة، وتكهرب الجو وتلبد بالسحب وانذر بالأعاصير أن موظفى القصر فوجئوا برؤية نجيب الريحانى والفنان الضاحك سليمان نجيب والمغنى الكوميدى عزيز عثمان يدخلون القصر، ويتجهون إلى غرفة رئيس الديوان الملكى، ويغلق عليهم الباب، ثم ترتفع ضحكاتهم وقهقهاتهم.. وموظفو القصر يضربون كفا بكف أسفا على رئيس الديوان الذى يمضى وقته مع زعماء الكوميديا فى مصر، بدلا من أن يمضى وقته مع زعماء مصر..

وبعد ساعة كاملة انصرف أبطال الكوميديا.. وعندئذ فقط اكتشف حسنين الحل الذى انهى الأزمة، فتولى حسن صبرى باشا الوزارة،

ربما يكون حسنين باشا أراد أن يهرب هذه المرة من الأزمة الخطيرة التى تهز أعصاب الجميع، إلى البحث مع عادل فى إحدى المسائل الاجتماعية!

لقد عرف حسنين بصفته رئيس جمعية الرواد التى هو عضو فيها، أنها جمعية مؤلفة من عدد من الشباب المثقفين، مهمتها دراسة المسائل الاجتماعية فى البلاد. تعلم أولاد العمال الفقراء فى حى زينهم، تجمعهم من الأزقة والحوارى، تحاول أن تحولهم من متشردين إلى مواطنين صالحين،

تمسك بأيديهم، تدربهم على الرياضة، تعلمهم مبادئ القراءة تخلق منهم الانسان المصرى الجديد.. الشبان الذين يعملون فى هذه الجمعية هم نواة لكثير من المؤسسات الاجتماعية الكبرى. لا يشتغلون بالسياسة، يدرسون ويتناقشون ويبحثون، يحاولون من خلال المناصب التى يتولونها أن يبعثوا وعيا اجتماعيا، شرطهم الوحيد أن يعملوا فى صمت، كلهم متساوون، يتساوى رئيس الديوان الملكى مع أصغر موظف شاب فى الدولة. يتساوى مدير جامعة القاهرة مع العضو الطالب فى كلية العلوم. لا يجمعهم إلا أنهم تروس فى مصنع يحاول أن يصنع الانسان المصرى الجديد!

لعل رئيس الديوان الملكى استدعاه ليحدثه فى مشروعات جمعية الرواد فى الوقت الذى تطحن فيه البلاد فى زلزال سياسى خطير! لقد كان حسنين يقول إنه يعتقد أن مركز السياسة فى المستقبل سيكون فى حى زينهم بالسيدة زينب، لا فى قصر عابدين!

* * *

ووصل عادل إلى القصر. فاستقبله الاستاذ محمد ياسين سكرتير رئيس الديوان، ولم يدعه ينتظر، بل قاده مباشرة إلى غرفة رئيس الديوان وهو يقول:

ـ معالى الباشا ينتظرك..

وما كاد عادل يدخل غرفة رئيس الديوان حتى تراجع إلى الخلف. رأى الملك فاروق جالسا فوق مكتب حسنين، وفى يده عصا صغيرة، بينما جلس حسنين فى مقعد أمام المكتب.

وناداه حسنين قائلا:

ـ تفضل يا عادل!

ثم وقف، وقدمه إلى الملك، الذى حياه، وهو جالس فوق المكتب ودعـاه لأن يجلس فى مقعد مجاور..

ولمعت عينا حسنين الصغيرتان خلف نظارته وقال:

ـ إننى استدعيتك يا عادل، لأننى أعرف أنك صديق للنحاس باشا.

ـ نعم. اننى أعرفه منذ كنت طالبا فى كلية الهندسة، وكنت عضوا فى لجنة الطلبة.

ـ وأعرف أنك تعرفه جيدا.

ـ طبعا أعرفه جيدا. اننى أزوره باستمرار و..

وقاطعه الملك وقال:

ـ هل أنت وفدى؟

قال عادل:

ـ إننى لا أشتغل بالسياسة، والعلاقة بينى وبين النحاس باشا عـلاقة شخصية، وأزوره فى المناسبات وهو يكلفنى دائما بكل الأعمال الـكهربائية التى يريدها..

وضحك الملك وقال:

ـ إذن، أنت خير من يوصل النور إلى النحاس باشا!

ولم يفهم عادل ما يقصد الملك..

ووضع حسنين يده فى جيبه، وأخرج ورقة أعطاها لعادل وهو يقول:

ـ اقرأ هذه الورقة !

وفتح عادل الورقة المطوية. فوجدها مكتوبة باللغة الانجليزية، ومـا كاد يتم قراءتها حتى ارتعشت الورقة فى يده ! لم يجد فى الورقة سوى سـطرين اثنين ولكنه قرأ فى السطرين الاثنين أشياء كثيرة هزته من أعماقه !

قرأ : «إذا لم أعلم أن النحاس باشا ألف الوزارة حتى الساعة الثامنة من مساء اليوم، فسيكون الملك فاروق مسئولا عما يحدث له»،

ولم يكتف عادل بقراءة الجملة مرة واحدة. قرأها عدة مرات وفى كل مرة كانت الحروف تكبر وتضخم أمام عينيه..

وقال حسنين فى هدوء :

ـ هذا هو نص الانذار البريطانى الذى سيقدمه السفير البريطانى غدا إلى جلالة الملك. وقد أمكننى الحصول على نصه قبل موعد تقديمه بـأربع وعشرين ساعة !

ـ قال عادل : هذا أمر خطير !

قال حسنين : أنا لم استدعك لاسالك رأيك فى خـطورة الانـذار. اننـى استدعيتك بصفتك صديقا للنحاس، لأسالك سؤالا واحدا : هـل تعتقـد أن صديقك النحاس يقبل أن يجىء إلى الحكم فى ظل هذا الانذار البريطانى ؟ !

قال عادل : مستحيل أن يقبل تولى الحكم فى ظل هذا الانذار. إننى أعرف النحاس جيدا، وأعرف أنه رجل وطنى مخلص، هذه مسالة بديهية لا تحتاج إلى أن تسألنى رأيى فيها. أنا أؤكد لك أن النحاس سـيرفض أن يتـولى الحكم بعد أن يعلم بهذا الانذار. إن هذه حقيقة حسابية مثل واحـد زائـد واحد يساويان اثنين !

قال حسنين :

ـ اننى لست عالما مثلك فى الحساب ! اننى جاهل فى علـم الحســاب.. وجاهل فى علم السياسة.. ولكن على قدر معرفتى بالانجليز اعتقـد أنهـم لا يجرؤون على تقديم هذا الانذار إلى ملك مصر إلا إذا كانوا على اتفــاق مسبق مع النحاس على قبول رئاسة الوزارة.. وإلا فسوف تعرض بــريطانيا سمعتها وكرامتها لفضيحة دولية، عندما يجيء النحاس ويرفض تولى الحكم فى ظل الانذار البريطانى !

قال عادل فى حماس :

ـ النحاس يفضل أن يشنقوه على أن يتولى الحكم بهذه الطريقة !

وابتسم حسنين ساخرا وقال :

لماذا لا تذهب إلى النحاس وتخبره بأن الانجليز سيقدمون للملك غــدا هذا الانذار، وتعرف منه موقفه ! هل يقبل رئاسة الــوزارة فى مثــل هــذه الظروف أم يرفضها !

قال عادل فى غضب :

ـ اننى اؤكد لك أنه لا يقبل. أى رجل وطنى لا يمكن أن يقبل. والنحاس قد تكون له أخطاء سياسية، ولكنه وطنى مائة فى المائة !

قال حسنين :

ـ أنا أعرف أنه وطنى مائة فى المائة.. ولكن مــا الضرر فى أن تــذهب وتسأله ليطمئن قلبى !

قال عادل فى حماس :

ـ انني مستعد أن أذهب إليه الآن، وأجيء لك بالجواب خلال نصف ساعة.

وكان الملك صامتا أثناء هذا الحديث، ينقل عينيه بين عادل وحسنين دون أن ينطق بكلمة واحدة.. كل ما كان يفعله أنه كان يضرب بعصاه فوق مكتب حسنين بحركة عصبية..

قال حسنين:

, إن الملك عرض على النحاس باشا رئاسة وزارة قومية.. والانجليز ينذرون الملك، إما أن يقبل وزارة وفدية برئاسة النحاس.. وإما أن يخلعوه من العرش ويولوا الأمير محمد على ملكا على مصر.

واهتز عادل وقال:

ـ لن يقبل النحاس هذا أبدا.. أبدا! إنني سمعت النحاس بأذني يقول مرة إن الأمير محمد على انجليزى أكثر من السفير البريطانى!

وأسرع عادل، واستقل سيارته إلى النادى السعدى..

كان يقود سيارته كالمجنون.. نسى كل شيء، نسى موعده مع قسمت، نسى أن هذه هى الليلة الموعودة، كان مغيظا من حسنين. أنه سخر به أمام الملك. أنه لم يصدق تأكيداته بأن النحاس لا يمكن أن يتولى الوزارة بانذار بريطانى. إن حسنين لا يعرف النحاس كما يعرفه عادل. لا يعرف صلابة هذا الرجل، لا يعرف ايمانه باستقلال بلاده، لا يعرف أنه كان يطلب من الملك أن يرفض مطالب الانجليز، أن يصمد لهم، إنه وعده بأن يقف وراءه إذا وقف ضد الانجليز.ولكن حسنين يعرف كل هذا، فلماذا يتجاهله أمام الملك. لماذا يوهم الملك بأن النحاس سيقبل تولى رئاسة الوزارة!

إن هذا الانذار هو اسفين يدقه الانجليز بين الملك وزعيم الاغلبية. إنهم ذعروا من التقارب الذى حدث بينهما فى الشهور الأخيرة. إنهم يعلمـون أن وحدة الملك مع الشعب ستؤدى إلى الوقوف أمام مطالبهم التى لا تنتهـى. ولهذا قدموا هذا الانذار، ليعود الخلاف من جديد بين القصر والوفد.

ولكنه ـ هو عادل علاء الدين ـ سوف يفسد علـى الانجليـز خـطتهم الجهنمية وسيجىء للملك برد النحاس الحـاسم علـى هـذه الـدسيسة الخطيرة.. لا يمكن أن يكون النحاس على علم بهذا الانذار، ولكنه سـيعلم الآن، ولن يسكت. سيفضح الاعيب الاحتلال!

إن حسنين ضعيف فى شئون السياسة. إنه كثيرا ما اعتـرف لـه بـأنه لا يفهم شيئا فى السياسة.. السياسة هى القدرة على الفهـم وأى مهنـدس يملك القدرة على الفهم فإن واحدا زائدا واحدا يساويان اثنين!

* * *

ووصل عادل إلى النادى السعدى وطلب مقابلة النحاس باشا، فقيل له إنه فى اجتماع للوفد.

فكتب اسمه على ورقة وقال إنه يرغب فى مقابلة الزعيم دقيقة واحدة لأمر خطير. وبعث بالورقة إلى النحاس داخل الاجتماع، وما كاد الـزعيم يقـرأ الورقة حتى ترك الاجتماع، وأقبل على عادل مرحبا مهللا..

وقال عادل:

ـ هل سمعت رفعتك بأن الانجليز سيقدمون انذارا للملك يطلبون فيه أن تتولى رئاسة الوزارة أو يخلعوا الملك؟

قال النحاس ببساطة : نعم سمعت !

وروى عادل للنحاس الحديث الذى جرى بينه وبين الملك وحسنين فقال النحاس :

ـ سأقبل الحكم طبعا.

ـ كيف تقبل؟

ـ الانجليز يتدخلون لاقامة الديمقراطية فى مصر، وأنا أطالب بالديمقراطية، فكيف ألومهم وهم يطالبون بما بح صوتى فى المطالبة به؟

ـ ولكنهم سيجيئون بالأمير محمد على الانجليزى ملكا على مصر!

ـ الذنب ليس ذنبى، انما هو ذنب الملك الذى ساند الحكم فى الديكتاتورية!

ـ ولكن كيف تقبل الحكم من طريق غير شرعى؟

إننى أقبل الحكم بصفتى زعيم الشعب.. إن كل ما حدث أن الانجليز ينادون الآن بما ينادى به الشعب. إذا كانت لى قضية وحكم قاض ظالم لمصلحتى.. فهل أقول له أنت قاض غير متخصص وأرفض حكمه؟

ـ ولكن الملك يريد أن تؤلف أنت وزارة قومية برئاستك!

ـ أنا لا أؤلف إلا وزارة وفدية.

ـ لماذا لا تؤلف وزارة وفدية، وتأخذ معك زعماء الأحزاب وزراء دولة بلا وزارات؟

ـ كلهم لصوص ولا أقبل العمل معهم!

ـ إذن خذ معك بعض الزعماء المستقلين..

ـ إنهم ألعن من زعماء الأحزاب! ولم يتم النحاس الحديث، بل صافح عادل فى عجلة، ودخل إلى اجتماع الوفد.

وترك عادل واقفا فى الغرفة مندهشا مشدوها!

* * *

.. تمنى عادل أن تنشق الأرض وتبتلعه. أحس بأنه لا يجرؤ أن يعود لحسنين ويخبره بما سمع من النحاس. رأى نفسه يتضاءل ويتضاءل ويتضاءل أمام حسنين. كان على حق فى أن يسخر منه. ليس حسنين هو الضعيف فى شؤون السياسة كما يدعى، بل إن عادل علاء الدين هو الضعيف. لن يعود إلى حسنين يحمل له خفى النحاس باشا، كذلك الخائب الذى حمل خفى حنين! لن يتحمل أن يرى مرة أخرى الابتسامة الساخرة على شفتى حسنين!

وخطر بباله أن يذهب إلى صديقه انطون الجميل بك رئيس تحرير «الأهرام». إنه رجل عاقل اعتاد أن يلجأ إليه الزعماء فى الملمات. متخصص فى إيجاد الحلول للمشاكل العويصة، بارد لا يثور، هادئ لا يغضب، يحاول دائما أن يجلس فى برج عاجى فوق التطاحن الحزبى والخلافات السياسية. إنه فى حاجة إلى رجل حكيم يستشيره فى الورطة التى أوقع نفسه فيها. ماله هو وبحر السياسة وزوابعه وطوفانه. كان من الواجب عليه أن يرفض المهمة التى كلفه بها حسنين، ويقول إنه لا يعمل فى السياسة، ولا يحب أن يدس أنفه فيها، ولكن حسنين استدرجه، تحداه، جعله يندفع ويؤكد أن النحاس لن يقبل تأليف وزارة بانذار بريطانى..

وراح إلى انطون الجميل. وأضاء رئيس تحرير «الأهرام» اللمبة الحمراء

ليمنع دخول أحد إلى مكتبه، وروى له القصة كلها وذهل انطون، وقال إنه لا يصدق أن النحاس يقبل تولى رئاسة الوزارة بقرار من الحكومة البريطانية.. وأكد له عادل تصميم النحاس على القبول، وقال انطون:

ـ الحل أن نذهب فورا ونقابل مكرم عبيد سكرتير الوفد. ونقنعه بأن النحاس ينتحر بهذا الموقف، أنا واثق من أن مكرم قادر على أن يقنع النحاس بالعدول عن رأيه.

قال عادل:

ـ سمعت أن مكرم فقد فى المدة الأخيرة سلطانه على النحاس.

ـ لاتصدق هذا الكلام الفارغ.. إن مكرم هو شيطان النحاس.

ـ هل أنت واثق من أنه قادر على التأثير عليه؟!

ـ واثق مائة فى المائة. لقد كنت على صلة وثيقة بالمرحوم يوسف الجندى عندما كان زعيما للمعارضة فى مجلس الشيوخ.. وعرفت أن مكرم هو كل شيء.. هو الذى أخرج ماهر والنقراشى من الوفد. هو الذى حرم يوسف الجندى من زعامة المعارضة وفرض عليه على زكى العرابى. هو الذى يختار الوزراء.

وأمسك انطون الجميل بسماعة التليفون وطلب من دسوقى عامل تليفون «الأهرام» أن يوصله بمكرم باشا فى النادى السعدى.

وعاد دسوقى يقول! مكرم باشا غادر النادى السعدى إلى داره بعد انتهاء جلسة الوفد.

فطلب انطون بك من دسوقى أن يبحث عن مكرم فى أى مكان. وكان

دسوقى هذا أمهر عامل تليفون فى مصر، يستطيع أن يجد أى شخصية سياسية من تحت الأرض !.

وبعد دقائق كان انطون بك يقول لمكرم فى التليفون إنه يرغب فى مقابلته لأمر خطير جدا ومعه المهندس عادل علاء الدين..

وقال مكرم إنه فى منزل حرم مرقص حنا باشا والدة زوجته، وأنه سيكون بعد نصف ساعة فى داره فى منشية البكرى.

ودخل عادل مع انطون بيت مكرم.. الأنوار ساطعة فى أنحاء البيت.. الغرف مليئة بالوزراء الوفديين السابقين وأعضاء الوفد وأعضاء الهيئة الوفدية. كبار الموظفين هرعوا لتقديم فروض الطاعة للاله الجديد. فيهم حاسة شم عجيبة يعرفون أين تتجه الريح، فيغيرون اتجاههم.. ويسبقون الريح !

وابتسم عادل. وقال لانطون :

ـ لعل هؤلاء الموظفين يقولون عنى الآن إننى عضو معهم فى نادى المنافقين ! إن كل منافق يعتقد أن الشخص الآخر منافق مثله !

قال انطون :

المنافق يؤمن بأن الدنيا كلها نفاق. ويرى النفاق فى كل شىء.. تماما كالمدمن على الخمر الذى يرى صورة الكأس فى كل شىء، أو كما يقول الشاعر :

فكل شىء رآه ظنه قدحا وكل شخص رآه ظنه الساقى

وضحك عادل لأنه يعرف أن انطون الجميل يحب ادخال الشعر فى كل شىء. حتى أنه أول كاتب أدخل الاستشهاد بالشعر فى التعليقات السياسية !

وصحب مكرم الزائرين إلى الغرفة الوحيدة الخالية فى البيت وهى غـرفة الطعام، وجلس معهما وروى له عادل القصة كلها.. وقال مكرم:

ـ إن واجبنا أن نقبل الحكم لانقاذ البلد من الغرق.

قال انطون الجميل:

ـ إن هذا لا ينقذ البلد.. إنه يغرق الوفد كله!

قال عادل:

ـ كيف يمكن أن يتولى الوفد الحكم على حراب الانجليز؟ أفهم أن يقف الانجليز على الحياد، وتقودوا ثورة تخلعون بها الملك.. ولكن لا أفهـم أن يشترك حزب الأغلبية مع الانجليز لمعاقبة الملك لأنه وقف ضد الانجليز!

وقال مكرم

ـ إنه يدفع ثمن استعانته بأحزاب الأقلية!

قال انطون:

ـ هذا ليس وقت دفع الحساب.. إن الذى سيدفع الحساب هـو مصر!

قال مكرم:

ـ نحن أغلبية الشعب ومن حقنا أن نحكم وحرماننا من الحكم جريمة.

قال عادل:

ـ لايمكن إصلاح جريمة.. بجريمة أكبر!

قال مكرم:

إنها ليست جريمة.. إنما هى إعادة وضع مقلوب إلى أصله!

قال انطون :

ـ ما رأيك فى هذا الحل : أن يؤلف الملك وزارة محايدة يختار النحاس أسماء أعضائها وتجرى انتخابات على الفور وينال الوفد الأغلبية ويتولى الحكم، وبذلك يجىء الوفد إلى الحكم بناء على إرادة الشعب لا أمر الانجليز.

قال مكرم :

ـ الانجليز يريدون وزارة برئاسة النحاس باشا قبل الساعة الثامنة من مساء غد ومادامت تسلم من الآن بأن الوفد هو صاحب الأغلبية، فلماذا تريد التأجيل ! إن شأنك شأن المحامى الذى يطلب تأجيل اصدار الحكم.. وهو يعلم أن الحكم فى صالحه !

قال عادل :

ـ إن تولى النحاس الحكم بإنذار بريطانى سوف يسىء إلى سمعة النحاس.

قال مكرم :

ـ أعرف ذلك ولكن هذا الانذار سرى لا يعلم به أحد.

قال عادل :

وإذا انتشر أمر الانذار!

قال مكرم :

ـ فى هذه الحالة انصح النحاس برفض قبول الوزارة.. ولكن ليس من مصلحة الملك أن يعرف الناس أنه خضع للانذار البريطانى !

وغادر عادل وانطون بيت مكرم وقد ارتسمت عليهما خيبة الأمل.. لقد فشلا فى إقناع مكرم كما فشل عادل فى اقناع النحاس..

وقرر عادل أن يعود إلى بيته ولا يواجه حسنين..

ووافقه انطون على هذا الرأى.. وقال إنه يكره القيام بأدوار اليوم! وسكت عادل قليلا ثم قال:

- إننى لست جبانا! إن من واجبى أن أذهب لحسنين وأقول له إنه كان على حق! إننى رجل رياضى اعترف بالهزيمة.. ولحسنين كلمة يرددها دائما تقول: رب هزيمة مع الشرف خير من نصر أشرف منه الهزيمة!

قال انطون:

- إذن سأذهب معك.. وكما يقول الشاعر:

إذا لم يكن من الموت بد فمن العار أن تموت جبانا

وعندما وصلا إلى قصر عابدين قال لهما الأستاذ محمد ياسين سكرتير رئيس الديوان إن الباشا مشغول، وطلب إليهما الانتظار بضع دقائق!

وطال الانتظار ساعة كاملة.. ثم دعاهما السكرتير إلى مقابلة حسنين..

ووجد الملك جالسا فوق مكتب حسنين، فى نفس الوضع الذى تركه فيه عادل منذ بضع ساعات.

وما كاد الملك يرى عادل حتى قال له:

- هيه.. سبع أم ضبع؟

قال عادل وهو ينكس رأسه؟

ـ لا سبع ولا ضبع.. حمار ياجلالة الملك!

وضحك حسنين وقال:

ـ لست وحدك!

وروى عادل ما حدث بينه وبين النحاس. وروى انطون الجميل ما حدث بينهما وبين مكرم عبيد.

وقال انطون الجميل فى نهاية القصة :

ـ إن مكرم باشا قال إنه إذا بقى الانذار البريطانى سرا فسيؤلف النحاس الوزارة، وإذا انتشر أمر الانذار فإن النحاس سيرفض رئاسة الوزارة.

ولمعت عينا حسنين فجأة وقال:

ـ هل قال مكرم باشا هذا؟

قال عادل:

ـ نعم! قاله بالحرف الواحد.

قال حسنين:

ـ إذن سيدعو الملك كل زعماء البلد غدا، بما فيهم النحاس، وسيقرأ لهم نص الانذار البريطانى!

قال عادل:

– عندئذ سيرفض النحاس تأليف الوزارة.

قال حسنين:

لا وحياتك.. وسيقبل مع هذا تأليف الوزارة!

وسكت عادل ولم يعترض، ولم يفتح فمه، لقد تعلم درسا بأنه ضعيف فى السياسة. درسا لا يمكن أن ينساه. تعلم أن واحدا زائدا واحدا لا يمكن أن يكون اثنين بأى حال من الأحوال..

وانتحى انطون الجميل بحسنين باشا وحدثه بصوت خافت..

والتفت الملك إلى عادل وقال له:

ـ هذه أول مرة أراك فيها ياعادل.. ولكنى سمعت عنك كثيرا وأحنى عادل رأسه شاكرا لأن الملك سمع عن العمل العظيم الذى قام به فى شركة الهندسة الكهربائية، وكيف استطاعت أن تنافس الشركات البريطانية الكبرى فى المشروعات الهندسية.

وكاد عادل يسقط مغشيا عليه عندما سمع الملك يقول له وهو يضحك:

ـ سمعت أنك زئر نساء كبير، واضطرب عادل. توقع أن يقول له الملك أى شيء إلا هذه الكلمة..

وقال وهو يتلعثم:

ـ إن هذه شائعة كاذبة!

وقهقه الملك قهقهة عالية وقال.

ـ سمعت أن لك طريقة غريبة مع النساء لا تخيب أبدا!

ورفع عادل عينيه فى دهشة.. ومضى الملك يقول:

ـ سمعت أنك تصفع النساء على وجوههن!

وغادر الملك غرفة رئيس الديوان وصوت قهقهته العالية يدوى فى أرجائها !

والتفت حسنين إلى عادل وقال له :

ـ لم أسمع ما قاله لك جلالة الملك !

قال عادل وهو يبلع ريقه :

ـ كان يقول نكتة !

* * *

وانصرف عادل مع انطوان الجميل وأوصله بسيارته إلى جريدة (الأهرام)، ولم يسمع كلمة واحدة من تعليقات رئيس تحرير (الأهرام) عن الانذار البريطانى. كانت كلمات الملك أشبه بمطرقة هائلة تهوى على رأسه !

معقول أن يكون الملك قد سمع بسمعته كزئر النساء، فالملك يتردد على الحفلات الساهرة التى تقيمها الجمعيات الخيرية، ولا بد أنه رآه وهو يرقص مع بعض الفتيات الجميلات، ولا بد أن أحدا من حاشيته نقل إليه أن عادل يهوى النساء..

كل هذا معقول. ولكن ما هى حكاية صفع النساء على وجوههن التى أشار إليها الملك !

إنه طوال حياته لم يصفع امرأة واحدة سوى الأميرة فضيلة ابنة عم الملك. وصفعها فى ردهة الطابق الثانى فى فندق سميراميس، وكان خاليا فى تلك اللحظة من الناس. هل رآه أحد جواسيس الملك وهو يصفع امرأة !

لا يمكن أن تكون الاميرة هى التى قالت للملك إن عادل صفعها على

وجهها. لو كانت قالت له هذا لما أحسن استقباله.. ولما داعبه.. ولفعل به ما فعل بعمر الفلسطينى الذى تحبه الأميرة!

وأحس برغبة شديدة فى أن يذهب فى اليوم التالى إلى عشاء الأميرة! ويبلغها ما قاله الملك، وليسألها كيف عرف الملك بأمر الصفعة التى لا يعرفها إلا هو وهى؟

ووصل إلى عمارة ايموبيليا.. ونظر إلى ساعته فوجدها منتصف الليل!

وتذكر قسمت!

تذكر أن موعده معها الساعة الثامنة مساء.

لقد نسى كل شىء عنها طوال هذه الساعات. أنساه الانذار البريطانى كل شىء عن الموعد الغرامي الذى كان يشغل تفكيره!

مسكينة قسمت. لعلها وقفت تدق جرس الباب نصف ساعة بغير انقطاع ولا من مجيب.

لقد صرف عادل خادمه من العصر حتى يخلو البيت له ولقسمت وحدهما!

وتخيل صوت التعاسة فى وجهها! لن تصدق أن الانذار البريطانى هو الذى منعه من الحضور فى الموعد. ستتصور أنه كان يهزأ بها، ويسخر منها عندما أعطاها موعدا لن يأتى إليه. ستلعنه إلى الأبد.. ستعود عدوة للرجال أعنف مما كانت.. يجب أن يطلبها الآن فى التليفون ويعتذر لها ويحدد لها موعدا آخر..

ولكنه يعلم انها لن تجىء فى الموعد الآخر..

المرأة عندما تهان فى كرامتها لاتنسى الاهانة، حتى ممن أحبت. إن أول

ماتفكر فيه هو الانتقام، هو الرد على الصفعة بمثلها!

ووصل به المصعد إلى الدور العاشر، وفتح باب المصعد، واتجه الى باب شقته..

وماكاد يصل إلى باب الشقة حتى تراجع فى دهشة! لم يصدق عينيه!

توقع أن يرى كل شىء، إلا الذى رآه فعلا!

كانت قسمت نائمة فوق «الدواسة» على باب شقته!

الفصل الحادى عشر

فتحت قسمت عينيها خلف نظارتها السوداء وقالت وهى تتثاءب!

ـ كم الساعة الآن؟

قال عادل:

ـ إنها بعد منتصف الليل؟

ـ لم تتأخر سوى أربع ساعات فقط:

ـ إنني آسف جدا. تصورت أنك انصرفت.

ـ كيف أنصرف.. وقد انتظرتك طوال حياتى!

ومد يده إليها ليساعدها على الوقوف، فدفعت يده وقالت!

ـ تعال اجلس بجانبى على الارض. الجلوس على الأرض لذيذ..

ـ أى لذة فيه؟ برد فبراير قارس.. والرطوبة على البلاط قاسية!

ـ الجلوس على البلاط لذيذ عندما نعرف أننا سنحلق بعد ذلك فوق السحاب!

ـ اذن هيا بنا لنصعد إلى السحاب ووقفت قسمت. وفتح عادل باب

شقته. ودفعها أمامه إلى الداخل!

والتفتت قسمت إليه وقالت!

أين كنت؟

ـ كنت فى القصر الملكى. هناك أزمة خطيرة. قابلت الملك وحسنين ومكرم والنحاس وانطوان الجميل.. وجدت نفسى فى دوامة لم استطع الخلاص منها. لم استطع أن أستأذن خمس دقائق لأجىء وأعتذر إليك. أنت تعرفين تقاليد البلاط!

ـ صدفة غريبة أن تكون أنت فى البلاط الملكى.. وأنا جالسة على البلاط:

ـ إننى أسف لا نتظارك الطويل.

ـ لا تأسف ! انتظار الحبيب.. جزء لذيذ من موعد الغرام!

ووجدت قسمت نفسها فى غرفة الصالون.

وابتسمت قائلة!

ـ أتعرف أنك نسيت أن تقبلنى؟

ـ لم أنس! إننى قررت ألا أقبلك!

قالت فى فزع!

ـ لن تقبلنى؟! إننى أعيش منذ أيام أحلم بهذه القبلة التى سوف تستقبلنى بها!

ـ إننى لن أقبلك.. وفوق عينيك هذه النظارة!

ـ إننى لا أضع النظارة فوق فمى !

ـ إنها فوق كل شىء فيك !

ـ إذن انزعها بيدك !

ـ الوقت متأخر الآن !

ـ سأبيت هنا !

ـ هل أنت مجنونة ؟

ـ نعم.. أنا مجنونة بك ؟

ـ هل سبق لك أن أمضيت ليلة خارج بيتك ؟

ـ لا... هذه ليلتى الأولى !

ـ ماذا سيقول أبوك عندما لا تعودين ؟

ـ سيبلغ البوليس !

ـ ستكون فضيحة !

ـ الفضيحة ستحدث إذا لم تقبلنى... هيا انزع نظارتى !

ـ إننى لن أنزع نظارتك وحدها !

ـ أعلم ذلك !

ـ كيف علمت ؟

ـ إننى امرأة !

ـ امرأة ؟

ـ نعم امرأة!

ـ من الذى حولك إلى امرأة!

ـ أنت!

ـ أنا؟ إننى لم ألمسك بعد!!

ـ حبك حولنى إلى امرأة! اغتصبنى:

ـ لقد صدقت أنك امرأة فعلا.. وتصورت أننى بـذلك اختصرت تسـعة أعشار المسافة إليك!

ـ إنك تفضل الملابس الجاهزة.. وتكره عملية التفصيل!

ـ إنك أول ثوب غير جاهز أرتديه!

ـ ولهذا لم تجد ثوبا على مقاسك!

ـ أنت تفكرين فى ارتداء الملابس وأنا أفكر فى خلعها!

ـ ولكنك متردد فى أن تنزع نظارتى!

ـ كنت أتصور أنك ستجيئن إلى هنا بغير نظارة!

ـ كنت سأشعر أننى أدخل شقتك وأنا عارية!

ـ وما الضرر فى ذلك؟

ـ لا أريد أن يرانى عارية الا رجل واحد هو أنت! هيا انزع نظارتى

ـ الوقت متأخر الآن.. إنها الساعة الواحدة صباحا.

ـ المفروض أن المرأة هى التى توجه هذا الاعتذار!

يظهر أننا تبادلنا الاماكن.. إنك تتكلمين الآن كأنك أنت ذئب النساء، وأنا الفريسة التي سوف يفترسها!

ـ أنا التي اخترتك ولست أنت! الصياد هو اللى يختار الفريسة.. وليست الفريسة هى التى تختار الصياد!

ـ إنك قلبت لى كل برنامجى!

ـ ماذا كان برنامجك؟

ـ أن أراودك عن نفسك.. وتتمنعى.. أن أحاول إقناعك فتترددى.. أن آخذك بين ذراعى فتتظاهرى بالمقاومة.. ثم آخدرك بقبلاتى حتى تسترخى وتستسلمى!

ـ كنت تريد أن أنصب عليك!

ـ كل امرأة عرفتها فعلت هذا..

ـ ولكننى لست كل امرأة:

ـ أعرف أنك تختلفين عنهن جميعا. ولكننى لم أتصور أن تتصرفي كرجل كأنك أنت زئر النساء!

ـ هيا.. إلى غرفة النوم؟

ـ كيف تقولينها بكل هذه البساطة!

ـ لو لم أقلها أنا.. لقلتها أنت!

ـ هذه كلمة لا يقولها إلا الرجل لا تقولها المرأة أبدا!

ـ ومن الذى أعطى الرجل الحق فى أن يحتكر هذه الكلمة لنفسه

ـ التقاليد!

ـ التقاليد تمنع أن يأخذ رجل عزب فتاة عذراء إلى غرفة نومه؟

ـ إلا إذا كان يحبها!

ـ ومادام الحب يعطى للرجل الذى يحب هذا الحق فيجب أن يعطيه للمرأة التى تحب!

ـ إننى فى دهشة!

ـ لأننى استسلمت لك؟

ـ لا.. كنت واثقا من أنك سوف تستسلمين.. ولكن ليس بهذه الطريقة!

ـ أليس من حق القلعة أن تختار الطريقة التى تستسلم بها للغازى الفاتح!

ـ إن هذا هو المتبع فى الحرب بالنسبة للمدن المفتوحة. باريس فعلت هذا..

ـ استسلمت لهتلر بغير أن تطلق رصاصة:

ـ اذن أنا باريس:

ـ ولكننى لست هتلر!

ـ أنا أجد لذة فى الاستسلام. وأنت تجد نفس اللذة فى الصراع!

ـ إن تصويرك المسألة بهذه السهولة يجعلنى أراها صعبة جدا!

ـ أنا لا أقاومك!

ـ إن هذا نوع جديد من المقاومة السلبية! إننى أول مرة فى حياتى أشعر أننى خائف أمام امرأة!

ـ لأننى أحرمك من لذة الانتصار!

ـ لأنك قلبت الصورة أمامى! جعلتنى لأول مرة فى حياتى أشعر بشـعور غريب.. لأول مرة أشعر أننى أضعف من المرأة التى أمامى!

ـ استسلامى جردك من قوتك!

ـ إننى أشعر كأنك جردتنى من رجولتى!

ـ إذن أنت تريد منى أن أمثل! أن أتظاهر بأننى أقاومك! كأن المقاومة هى وحدها التى تثير الرجل!

ـ بالعكس.. إنك الآن تثيريننى أكثر مما أثرتنى فى أى وقت مضى.

ـ حتى بهذه النظارة؟

ـ نعم.. حتى بهذه النظارة!

إذن أنت لم تعد متمسكا بأن أخلع النظارة!

ـ نعم...

ـ مادام الأمر كذلك فسوف انصرف الآن!

ـ لماذا؟

ـ لأن الوقت متأخر!

ـ ولكنك كنت تقولين لى إنك تريدين أن تبيتى هنا!

ـ وأنت رفضت!

ـ ومتى سنلتقى؟

ـ غدا!

ـ في الساعة الثامنة مساء؟

ـ لا.. هذا موعدك مع الاميرة فضيلة!

ـ بعد العشاء؟

ـ لا.. فى الساعة الثالثة بعد الظهر وسوف أتركك قبل الموعد بوقت كاف لترتدى بذلة الفراك!

ـ ومشى معها عادل إلى الباب الخارجي.

وقالت له وهى تودعه!

ـ أخشى أن أكون حطمت أعصابك!

ـ إن الذى حطم أعصابى هو الانذار البريطانى!

وطوقها بذراعه. وحاول أن يقبلها فى شفتيها فأبعدته وهى تقول:

ـ إن موعدنا غد!

* * *

الساعة الثانية من صباح يوم ٤ فبراير. الرياح تعصف. القاهرة نائمة لا تشعر بما يدبر لها فى الظلام كل شيء هادى هدوءا مريبا

أنوار السفارة البريطانية بالقاهرة مضاءة. لا شيء غير عادى فى وقت الحرب. قصر الدوبارة يعمل دائما فى النهار والليل. مكاتب السفارة أشبه بخلية النحل. موظفون يدخلون ويخرجون من الغرف. أصوات الآلات الكاتبة تحدث ضوضاء فى سكون الليل الهادئ السفير البريطانى سير مايلز

لامبسون يجلس أمام مكتبه. بجسمه الضخم وقامته الطويلة التى تشبه قامة العملاق.. وبجوار المكتب عدد من مقاعد الجلد الوثيرة، يجلس فى أحـدها الجنرال ستون قائد القوات البريطانية فى مصر، بجسمه الضئيل وابتسامته التى لا تفارقه فى أحلك الساعات. وعلى مقعد آخر يجلس مسـتر أوليفـر ليتلتون وزير الدولة البريطانى فى الشرق الاوسط وعلى مقعـد ثـالث يجلس مستر والتر سمارت المستشار الشرقى للسفارة بقـامته الـطويلة وجسـمه النحيل.. وفى مقعد رابع يجلس الادميرال كاننجهام قائد الاسطول، وفى مقعد خامس يجلس الايرمارشال قائد الطيران.

وقال السفير البريطانى وهو ينظر إلى ساعته!

ـ إن مستر بيزلى لم يحضر بعد وثيقة التنازل عن العرش.

قال سمارت وهو يبتسم ابتسامته الساخرة التى جمعـت بيـن البـرود الانجليزى والدهاء الشرقى!

ـ بصفته المستشار القضائى للسفارة ،يحرص على أن تـكون وثيقـة التنازل محتوية لكل العبارات القانوينة الدقيقة. القانونيون يـكتبون دائمـا مذكراتهم كأنها مرافعة أمام محكمة!

وضحك السفير البريطانى وقال ساخرا:

ـ هل تظن أن الملك سيرفع علينا قضية؟ الملوك عندما يفقدون عروشهم يفقدون حق التقاضى. لقد قلت لبيزلى إننى أريد أن تكون وثيقـة التنـازل مختصرة فى كلمتين!

ـ يجب أن نحتاط لكل هجوم علينا فى المسـتقبل كأن يقـول أحـد إن بريطانيا التى أعلنت الحرب لأن ألمانيا خرقت معاهدة، تخرق الآن معاهدة

الاستقلال بينها وبين مصر وتدوسها بقدميها!

ـ إننا لم نخرق المعاهدة إننا ننفذها! المصريون لم يفهموا معاهدة سنة ١٩٣٦ عندما وقعوها معناها إننا نفعل سرا ما كنا نفعله علنا! لقد طلبت إلى مستر بيزلى أن يشير إلى ذلك صراحة فى وثيقة التنازل عن العرش!

ووقف مستر سمارت وقال:

ـ سأذهب لاتعجله!

قال مستر ليتلتون وزير الدولة:

ـ دعه يأخذ كل ما يريد من الوقت يجب أن تكون الوثيقة قانونية مائة فى المائة!

وعاد مستر سمارت وجلس من جديد.

وساد الصمت فى الغرفة من جديد.

ورفع لامبسون كأس الويسكى وقال:

ـ فلنشرب نخب معركة مساء اليوم! المعركة التى سوف تثبت أقدام بريطانيا فى مصر مائة سنة قادمة!

ورفع الجالسون كئوسهم يشربون نخب المعركة

ولاحظ وزير الدولة أن الجنرال ستون هو الوحيد الذى لم يرفع كأسه فقال له:

ـ لماذا لا تشترك فى النخب ياجنرال ستون؟ إنك ستكون قائد المعركة، والمفروض أنك أول من يشرب نخب هذا الانتصار..

قال ستون وقد اختفت الابتسامة الدائمة من فوق شفتيه.

ـ لأننى مازلت على رأيى من أننا سنخسر هذه المعركة؟

قال لامبسون غاضبا:

ـ كيف نخسرها؟ إنها مضمونة مائة فى المائة!

قال الجنرال ستون!

ـ إننى أرسلت برقية سرية إلى وزارة الحرب البريطانية أعترض فيها على هذا القرار. وأقول فيها إن النحاس كان منذ أسابيع يهاجم انجلترا. ويناصر محور روما ـ برلين. وخطب فى رأس البر وقال إن الجيش البريطانى جيش من السكارى، وإننى لا أفهم أن استخدم الدبابات البريطانية لعزل ملك مشكوك فى نواياه، وتعيين رئيس وزارة أعلن صراحة أنه ضد الانجليز.

ـ قال لامبسون:

ـ إنه ليس مشكوكا فى نواياه، الملك عدو صريح للانجليز!

قال الجنرال ستون :

ـ أنا لم أشعر منه إنه عدو الانجليز..

قال لامبسون!

ـ إنه فعل كل شيء لمحاولة القضاء على هيبة بريطانيا فى مصر. إنه يرفض سماع نصائحى. إنه يتعمد إهانتى باستمرار. لقد كانت الوزارات تفتح لى الباب الملكى فى محطة مصر فأمر بمنعى من الدخول من الباب الملكى! كنت انتقل بقطار خاص، فمنع القطار الخاص.. كان موكبى يسير فى الشوارع يتقدمه موتوسيكلات فمنع هذه الموتوسيكلات.. إن الوزراء

المصريين اعترفوا لى بأن هذه أوامر الملك وليست أوامرهم:

قال الجنرال ستون!

ـ هذه تصرفات ضدك شخصيا. وليست ضد بريطانيا.

ـ أنا سفير بريطانيا فى مصر. وأى إنقاص من هيبتى هو إنقاص لهيبة بريطانيا فى مصر، ومحاولة للهبوط بمكانة الامبراطورية.

ومحاولة مساواة مركز بريطانيا بمراكز الدول الأخرى!

ـ ولكن هذا ليس سببا كافيا لعزل ملك عن العرش!

ـ هناك ألف سبب وسبب! كلفتنى الحكومة البريطانية أن أطلب من الملك بعد دخول إيطاليا الحرب أن يطرد خدمه الايطاليين أمثال بوللى وبترو وجارو.. فإذا بالملك يقول لى إننى مستعد أن أطردهم إذا طلقت أنت زوجتك.. فزوجتك كانت ايطالية قبل أن تتزوجها.

وخدمى كانوا ايطاليين قبل أن استخدمهم! تصوروا هذه الوقاحة.. يقارن خدمه بزوجة السفير البريطانى فى مصر: إن ملك مصر أهان بريطانيا عندما ساوى بين زوجة سفيرها بحلاقه ومدرب كلابه وتابعه. إنه ملك قليل الأدب.

وأسرع مستر سمارت لانقاذ رئيسه عندما رأى نظرات الاستغراب على وجوه القواد الثلاثة.. فقال:

ـ وليس هذا فقط. إن يوسف باشا ذو الفقار سفير مصر فى طهران يتصل بالمحور، وهو والد الملكة فريدة. ولدينا تقارير تؤكد أن ذو الفقار باشا يجتمع بالسفير الالمانى فى ايران. ولدينا تقارير كذلك بأن مراد سيد أحمد

باشا سفير مصر فى روما على صلة وثيقة بالكونت شيانو وزير الخارجية. وعندما فاتح السفير البريطانى الملك فى مسألة تصرفات حميه قال الملك! أنا لست مسئولا عن تصرفات حمى هل أنت مسئول عن تصرفات حميك وهو طبيب موسولينى الخاص؟

ولكنه لم يرد على تهمة اتصال سفيره بروما بالكونت شيانو وزير خارجية ايطاليا.

قال الجنرال ستون!

ـ أليس المفروض أن يكون سفير البلد على علاقة وثيقة بوزير خارجيتها!؟

ـ ولكن شيانو ليس وزير الخارجية فقط إنه زوج ابنة موسولينى!

قال الادميرال كاننجهام قائد الأسطول!

إننى رجل غير سياسى.. ولكنى أعتقد أننا لو نشرنا فى انجلترا هذه الأمور وقلنا إنها سبب عزل ملك. فإن الرأى العام البريطانى سيقول إذن لماذا لم نجرد الدوق وندسور من القابه.. وقد كان صديقا حميما لهتلر

قال مستر أوليفر ليتلتون وزير الدولة:

ـ إننا نمر بمرحلة خطيرة فى الحرب.. ويجب أن يتولى الحكم رجل نطمئن إليه.. كل الاطمئنان.. رجل لا يضربنا بخنجر فى الظهر.. واجبنا أن نؤمن ظهورنا.

قال قائد عام الطيران وهو يضحك!

ـ ألم نجد رجلا نطمئن إليه إلا الرجل الذى قال: إن جيوشنا تتألف من

جنود من السكارى والمخمورين!

قال الادميرال كاننجهام:

ـ وماذا لو رفض النحاس تولى الوزارة؟

قال وزير الدولة!

ـ ستكون كارثة! عندئذ سيطردنا تشرشل جميعا ويقول إننا تصرفنا بغير إذن منه؟

قال لامبسون:

ـ ولكنه أرسل برقية يؤيد مقترحاتى.

وضحك وزير الدولة:

ـ فى حالة الفشل سوف تختفى البرقية من الملفات ولن يوجد لها أثر!

قال لامبسون:

ـ ولكنى واثق أن النحاس سيقبل.

قال الجنرال ستون:

ـ هل قال لك النحاس إنه سيقبل؟

قال لامبسون:

ـ لا.. إننى لم أقابله.. أرسلت له أمين عثمان باشا فى الاقصر.. فعاد وقال لى إنه سيقبل.

قال الادميرال كاننجهام:

ـ هل عرف النحاس أننا سنعزل الملك؟

ـ لا.. إن أحدا لا يعرف الخطة سوانا!

قال قائد الطيران:

ـ وماذا يحدث لو قبل الملك تعيين النحاس؟

قال لامبسون:

ـ إنه لن يقبل. إنه ولد صغير ورأسه ناشف جدا.

* * *

وهنا دخل مستر بيرلى، المستشار القضائى فى السفارة، يحمل ورقة فى يده.

وقال للسفير:

ـ لقد أتممت كتابة وثيقة التنازل عن العرش!

ـ اقرأها للحاضرين..

وصمت الجالسون. وقرأ المستشار القضائى الوثيقة بصوت هادى وهو يضغط على بعض الكلمات:

ـ «أنا الملك فاروق. أعلن تنازلى عن عرش مصر وكل حقوقى فيه لحضرة صاحب السمو الملكى الامير محمد على توفيق ولى عهد المملكة المصرية، ونجل الخديو محمد توفيق والوارث الشرعى للعرش. وليس من حقى فى أى ظرف من الظروف، وفى أية حال من الاحوال، أن أعدل عن هذا التنازل أو أرجع فيه. وأنتهز هذه الفرصة لأعلن للملأ إن بريطانيا نفذت

دائما معاهدتها مع مصر بصدق وشرف واخلاص. وقد وقعت على هذا التنازل بمحض اختيارى وبكامل حريتى»

وضحك لامبسون وقال:

ـ إنها أول مرة فى التاريخ يشكر فيها الخروف الجزار!

وضحك وزير الدولة وقال:

ـ إن جملة «بمحض اختيارى وكامل حريتى» لا يكتبها إلا المحامى الضليع!

قال قائد الأسطول:

ـ وهل قبل الامير محمد على أن يتولى العرش بعد عزل الملك؟ إنه سيبدو خائنا فى عيون المصريين!

وضحك السفير البريطانى:

ـ إنه لم يقبل فقط.. قل لهم ياسمارت ماذا قال لك الامير عندما عرضت عليه عرش مصر!

وابتسم سمارت وقال:

ـ أخذنى الامير بالاحضان، وقبلنى، وقال لى إنه يتعهد بأن يكون السفير البريطانى سيرمايلز لامبسون مستشاره الوحيد.. ولن يحتاج معه إلى رئيس ديوان.. إنه ملك مصنوع فى لندن!

ـ وهل وافق أن يعمل مع النحاس؟

ـ قال إنه يوافق على كل رجل يختاره السفير البريطانى. وإنه فى كل مرة

كان يقابل الملك فاروق كان يقول له : أنا فى سن والدك، وأنصحك بأن تـطيع السفير البريطانى. الانجليز هم الذين حافظوا على عرش أسرة محمد علـى أيام أبي الخديو توفيق. هم الذين عزلوا أخي الخديو عباس. هـم الـذين عينوا أباك الملك فؤاد. ولكن الملك لم يستمع لنصـائحه، وكان يـرفض مقابلته !

وهنا دخل سكرتير السفير البريطانى وقال :

ـ وصل الآن ضابط من القيادة العامة يحمل رسالة مستعجلة للقـائد العام..

وطلب الجنرال ستون دعوة الضابط إلى الدخول.. واعتقـد الحـاضرون أنها أنباء عاجلة عن جبهة القتال.. ودخـل ضـابط شـاب وأدى التحيـة العسكرية، ثم سلم قائد القوات البريطانية مظروفا مختـوما بعـدة أختـام بالشمع الاحمر .. وانصرف على الفور.

وفتح الجنرال ستون المظروف، وقرأ الورقة وابتسم وقال :

ـ لقد وصلنى الرد على احتجاجى على استخدام الدبابات البريطانية فى خلع الملك.

قال السفير البريطانى فى لهفة :

ـ ماذا يقول رد وزير الحربية ؟

ووضع الجالسون كئوسهم أمامهم، واتجهوا برؤوسهم إلى القائد العـام البريطانى كأنهم علامات استفهام..

قال الجنرال ستون :

ـ إنها ليست برقية من وزير الحربية ! إنها برقية من مستر تشرشل رئيس وزارة الحرب، يأمرنى فيها بأن أنفذ أوامر السفير البريطانى.

وسكت قليلا.. ثم التفت إلى لامبسون وقال له:

ـ ما هى أوامرك؟

قال لامبسون:

ـ أن تحاصر القصر بالدبابات، وتطوق الحرس الملكى، وتحتل المرافق العامة، وتذهب إلى القصر وتقبض على الملك!

قال ستون:

ـ وهل ستذهب معى؟

قال لامبسون:

ـ إن هذا منظر تمنيت طوال سنوات أن أشهده!

قال ستون.

ـ وماذا أفعل بالملك بعد القبض عليه.. هل أحضره إلى السفارة البريطانية؟

وصرخ السفير البريطانى قائلا

ـ لا. لا. لا أريده هنا!

قال وزير الدولة البريطانى:

ـ ننقله إلى مطار ابو صوير.

قال قائد الطيران:

ـ ليس فى المطار مكان يصلح لاقامته!

قال الأدميرال كاننجهام قائد الاسطول:

ـ إن عندى مدمرة فى السويس. أستطيع أن أضع فيها فاروق بعد عزله.

قال وزير الدولة وقد احمر وجهه المستطيل من كثرة ما شرب من الوسكى.

ـ فكرة حسنة. يوضع فاروق فى المدمرة، وتتحرك المدمرة من الشواطىء المصرية. وتدور المدمرة فى البحر حول نفسها إلى أن تقرر لندن المكان الذى يوضع فيه فاروق

قال الادميرال كاننجهام:

ـ هل لدينا قوات كافية بقرب المدن لتتدخل فى حالة قيام ثورة فى البلاد بعد خلع الملك؟

وضحك سمارت وقال:

ـ إننى أعرف مصر جيدا! إنها لن تثور لخلع الملك! إن مظاهرة واحدة لم تحدث فى مصر عندما خلعنا الخديو عباس من عرش مصر عام ١٩١٤.

قال لامبسون:

ـ لو حدث شغب.. فقد تحدث حرب داخلية.. تقع معارك بين أنصار الملك وأنصار النحاس..

قال الادميرال كاننجهام:

ـ وعندئذ تتدخل قواتنا !

ـ لاتتدخل قواتنا فى أول الأمر. تقف تتفرج على المصريين وهم يتقاتلون فيما بينهم. وبعد ذلك تتدخل... بعد أن نكون تخلصنا من الملك والوفد معا !

قال قائد الطيران :

ـ إننى أرى السياسى العبقرى ميكيافيلى يبعث على قيد الحياة !

وضحك لامبسون فخورا بهذه التحية وقال :

ـ إن ميكيافيلى موجود دائما فى مكتب كل سفير بريطانى !

ارتفعت قهقهة الجالسين. وبقى الجنرال ستون قائد القوات البـريطانية وحده ساهما حزينا لا يشترك فى الضحك مع الضاحكين

ولاحظ الأدميرال كاننجهام، قائد الاسطول، اصفرار وجه القائد العـام فقال باسما :

ـ إن القائد العام غارق فى هموم المعركة القادمة..

وتنهد الجنرال ستون وقال فى صوت حزين :

ـ إن ضميرى كرجل شريف، غير مستريح للقيام بهذه العملية. لقد كنت منذ أيام قليلة موظفا عند هذا الملك الذى سأخلعه اليوم كنت رئيس البعثة العسكرية البريطانية فى الجيش المصرى. إنها أول مرة فى حياتى. يصـطدم الجندى فى داخلى مع الرجل الشريف.

قال قائد الاسطول :

ـ وماذا تنوى أن تفعل؟

قال الجنرال ستون :

ـ لو لم نكن فى حرب لقدمت استقالتى ! ولكننى الآن مضطر أن أقوم بواجبى كجندى بريطانى، وأنفذ الامر العسكرى الذى صدر لى من رئيس وزارة الحرب فى بلادى !

قال لامبسون، وهو يقترب من ستون، ويضربه بيده على ظهره :

ـ لا تكتئب أيها الجنرال ! هذا يوم مجيد فى حياة الامبراطورية البريطانية ! إنك ستفخر طول حياتك بأنك كنت قائد هذه المعركة المظفرة !

وهز الجنرال ستون رأسه فى حسرة وقال :

لا أظن ! لا أظن ! أخشى ألا أخجل من هذه المعركة وحدى.. أخشى أن تخجل معى بريطانيا فى يوم من الأيام !

* * *

ومضى الجنرال ستون إلى القيادة البريطانية يضع خطة الهجوم..

وانصرف المجتمعون، وخرج السفير البريطانى يودعهم إلى باب السفارة.. ثم عاد إلى مكتبه وفرك يديه مسرورا، وأفرغ ما بقى من زجاجة الويسكى فى كأسه وشربها وهو يتطلع فى ابتهاج إلى الصور الزيتية المعلقة فى مكتبة..

هذه صورة اللورد كرومر الذى حكم مصر سنوات عديدة. هذه صورة اللورد كتشنر الذى قضى على الحزب الوطنى ! هذه صورة السيرشيتهام الذى أعلن الحماية البريطانية على مصر وخلع الخديو عباس. هذه صورة الجنرال وينجت الذى قبض على سعد زغلول. هذه صورة اللورد اللنبى

الذى أخرج سعد من رئاسة الوزارة. هذه صورة اللورد لويد الذى منع سعد زغلول من أن يتولى رئاسة الوزارة بعد أن نال الاغلبية المطلقة فى الانتخابات !.

سيجىء يوم توضع صورته بجانب هؤلاء المندوبين السامين العظام! سيقول التاريخ إنه ثبت النفوذ البريطانى فى مصر إلى مائة سنة قادمة! إنه بضربة واحدة سيقضى على الملك وزعيم الشعب معا؟ يطرد الملك ويحطم الزعيم!

ابتداء من اليوم سيصبح هو الملك الحقيقى! سوف يستعيد سلطات المندوب السامى البريطانى التى فقدها. سيصبح مصدر كل السلطات! هو الذى عين الملك الجديد. هو الذى عين رئيس الوزارة الجديد. هو الذى أدخل المصريين إلى الجحور!

لن يستطيع ملك فى مصر، ولا رئيس وزارة أن يرفض أوامر السفير البريطانى! سيقبض على كل أنصار المحور! لقد طلب القبض على على ماهر باشا رئيس الوزراء السابق ورفض طلبه! طلب القبض على الامير عباس حليم ورفض طلبه. طلب القبض على محمد طاهر باشا ابن عمة الملك ورفض طلبه!

ثم ألقى لامبسون نظرة إلى جرس حديدى ضخم بجوار مكتبه وقد نقشت عليه عبارات صينية..

إنه حصل على هذا الجرس الأثرى عندما كان سفيرا لبريطانيا فى الصين. وهو يتفاءل به.. يدقه كلما حقق انتصارا دبلوماسيا ضخما!

مضت عليه مدة لم يدق هذا الجرس!

آخر مرة دق هذا الجرس منذ ست سنوات عندما تم توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦.

الليلة سوف يدق هذا الجرس! بعد أن يخلع الملك، ويعين الملك الجديد، ورئيس الوزارة الجديد

إن ما سوف يفعله ليس نصرا سياسيا لبريطانيا فقط، إنه نصر حربى أيضا ' إنه يؤمن ظهر الجيش البريطانى فى المعركة ضد هتلر!

وارتجف السفير عندما خطر بباله اسم هتلر!

ماذا ستقول إذاعة برلين عندما تعلم بأن الحكومة البريطانية خلعت ملك مصر، ونصبت ملكا جديدا؟. سوف تدق الطبول وتتهم بريطانيا بأنها دولة استعمارية تعتدى على استقلال بلد بينها وبينه معاهدة صداقة وتحالف!

سوف تستخدم هذا الحادث لاثارة الشعوب العربية والاسلامية

وأسرع يستدعى مستر فرنس، نائب مدير الرقابة فى مصر، إلى مكتبه ويقول له

– مطلوب منك أن تمنع خروج أى برقية من مصر فيها نبأ عما سيحدث اليوم ' اتصل بمستر وب مدير التليفونات واطلب منه أن يحجز جميع برقيات الشفرة التى ترسلها السفارات الاجنبية هنا إلى عواصم بلادها. مطلوب منك أن توقف كل البريد المرسل إلى الخارج ابتداء من الآن... يجب ألا تعلم إذاعة برلين بما حدث.. ويجب منع الصحف المصرية من ذكر أى شىء عن احتلال القصر لا تلميحا ولا تصريحا.. هذه عملية عسكرية... تعتبر من الأسرار العسكرية الممنوع نشرها!

ونفذت الخطة العسكرية ببراعة عجيبة. وضعت لها خرائط عسكرية.

ومواعيد دقيقة كأنها عملية حربية واسعة..

خرجت الدبابات البريطانية من المعسكرات محمولة فوق سيارات .. تحركت فرادى.. تفرقت فى جهات بعيدة من المدينة. لم يشعر سكان القاهرة، ولا أحد من المسئولين بما يجرى فى الخفاء.. كأن هذه المعركة هى الميدان الثانى الذى يتوقع العالم أن يفتحه الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية!

وكان البوليس السياسى يتبع اللواء رسل باشا حكمدار العاصمة.. وكان الحكمدار الانجليزى شريكا فى الخطة السرية..

وهكذا كان حسين سرى باشا رئيس الوزراء، والحاكم العسكرى ووزير الداخلية الذى كان يحكم، فى انتظار تأليف الوزارة الجديدة، أشبه بالزوج المخدوع.. آخر من يعلم!

ودعا الملك جميع الزعماء إلى اجتماع برئاسته فى قصر عابدين، وتلا عليهم أحمد حسنين باشا، رئيس الديوان، نص الانذار البريطانى، وطلب إلى الزعماء أن ينصحوه بالموقف الذى يتخذه..

وأجمع الزعماء على أن يرفض الملك الانذار.. وألقوا خطبا حماسية بأن هذا الانذار اعتداء على الاستقلال، وخرق للمعاهدة،

وقال النحاس إنه ينصح بقبول الانذار.. لأن رفض الانذار سيؤدى إلى كوارث... وقال أحمد زيور باشا إن من رأيه قبول الانذار، وأنه يجب إطاعة أوامر الانجليز فى هذه الظروف الدقيقة. وأن الانجليز هم الذئب والمصريين هم الشاة. وواجب الشاة أن تطيع الذئب!

وبعد مناقشات طويلة وافق النحاس على أن يوقع رفض الانــذار وهــو يقول :

ـ إننى سأوقع على الرفض.. ولكنى أحذركم من النتائج !

وكلف الزعماء حسنين باشا بأن يذهب إلى السفير البريطانى، ويبلغــه قرار الزعماء بالاجماع برفض الانذار..

وقرأ السفير البريطانى خطاب الزعماء فى هدوء.. وقال :

ـ إننى سأجىء لمقابلة الملك فى الساعة الثامنة من مساء اليوم ومعــى ردى !

ولم يكن السفير ينوى أن يذهب إلى الملك فى الساعة الثامنة مساء ولكنه قصد أن يضمن وجوده فى قصر عابدين عندما تحل ساعة الصفر وتحــاصر الدبابات البريطانية قصر الملك !

وجاءت الساعة الثامنة ولم يحضر السفير..

وجاءت الساعة التاسعة ولم يحضر السفير..

وفى الساعة العاشرة تماما أحاطت مئــات الــدبابات البــريطانية بقصر عابدين. سدت منافذ الشوارع حول القصر. احتلت ثكنات القصر الملــكى. أحاط الجنود البريطانيون بأبواب القصر. نزعوا أسلحة ضــباط الحــرس وجنوده.

كانت عملية الاحتلال أشبه بالانقضاض من كل مكان ! تمــت كلهــا فى خمس دقائق !

وأطل الملك من النافذة، ورأى ميدان عابدين غاصا بالدبابات والسيارات

المصفحة.. وحاول الملك أن يهرب من باب خلفـــى.. فــوجد كل الابــواب محاصرة بالدبابات

رأى المدافع الكبيرة تنصب فى الميدان وفوهاتها الضخمة تتجــه إلـــى القصر. وكان الملك ساهما مفكرا.

أحس لأول مرة فى حياته بأنه أصبح فأرا فى مصيدة!

وكانت الملكة فريدة واقفة إلى جواره ترتجف.. وقطعت الملــكة لحــظة الصمت الطويلة القاسية وقالت:

ـ ماذا تنوى أن تفعل يا فاروق؟

قال الملك والعرق يتساقط من وجهه:

ـ سأتنازل عن العرش!

الفصل الثانى عشر

جلس عادل فى شقته ينتظر قسمت. لقد اضطر مرة أخرى أن يؤجل موعده معها. اضطر أن يعتذر عن عدم حضور عشاء الأميرة فضيلة. بقى طوال يوم ٤ فبراير يتابع الأحداث السياسية. الجو السياسى الكئيب فى هذا اليوم جعله يحس بكآبة غريبة. كأن شيئا عزيزا يموت بين يديه. إنه لم يشتغل بالسياسة منذ أن تخرج فى كلية الهندسة، وها هو ذا يجد نفسه الآن فى دوامة السياسة يتابع من مكتبه أخبار الأزمة.

الأنباء متناقضة.. الزعماء اختلفوا. لا، إنهم اتفقوا، بل أنهم اختلفوا! الأزمة حلت. لا أنها فى طريقها إلى الحل. لا أنها تفاقمت من جديد. كل دقيقة يجىء نبأ جديد. نبأ يخالف النبأ الأول ويناقضه.

كان ينتظر هذا اليوم بفارغ الصبر، ليبدأ قصته مع قسمت، ليقابل بعد ذلك الأميرة فضيلة على العشاء كما أصرت قسمت، أكلتان شهيتان فى ليلة واحدة ثم أحس فجأة أنه فقد شهيته للحب. كان دائما يتصور أنه مستعد أن يأكل من كل طبق يراه أمامه. لا مانع لديه أن يبدأ بالحلوى وينتهى بالمخللات!.. وفى هذا اليوم أحس بالقرف، بالقرف من كل شىء حتى من النساء، وأراد أن يؤجل موعد قسمت من الساعة الثالثة بعد الظهر إلى يوم آخر، ثم أشفق عليها أن يصدمها مرة أخرى بالتأجيل واكتفى بأن اتصل بها، وقال لها إنه ينتظرها فى بيته الساعة العاشرة مساء، وإنه سوف يصحبها

فى نزهة بالسيارة فى طريق المعادى لأنه يحس بأنه يكاد يختنق ولم يظهر فى صوت قمست أنها حزنت لأن ليلة زفافها قد تأجلت مرة أخرى. على العكس إنها رحبت بساعة تمضيها معه فى سيارة واحدة، وكأنها ترحب بساعة تمضيها معه فى غرفة واحدة. شعر أنها تشاركه الأسى حزنا على الموقف الخطير الذى تمر به البلاد فى هذا الظلام.

أما الأميرة فضيلة فقد كانت على عكس قسمت تماما. لم يكد يقول لها فى التليفون إنه يأسف لعدم استطاعته التشرف بتناول العشاء على مائدتها فى الساعة الثامنة من مساء اليوم حتى انزعجت، فسألته عن السبب، فقال لها إنه الانذار البريطانى!

قالت: وما علاقتنا بالانذار البريطانى؟!

قال لها: تصورت أن تلغى أنت العشاء بسبب الأزمة الخطيرة التى تجتازها البلاد.

قالت هازئة: مالى والأزمة الخطيرة، أنا لا أشتغل بالسياسة يجب أن تحضر، سوف أكون فى انتظارك!

ودهش عادل للهفة الأميرة على لقائه فى تلك الليلة وإصرارها على حضوره، وقالت له فى صوت حزين:

ـ إنك ستنكد الحياة على هذه الليلة!

ـ لماذا؟

ـ إن عددنا على المائدة ١٤ شخصا.. وإذا تغيبت فسيكون عددنا ١٣، وأنا أتشاءم كثيرا من رقم ١٣..

ضحك عادل سخرية بنفسه ! لقد توهم فى أول الأمر أن الأميرة تريده حبيبا، وإذا بها تريده عددا !

قال لها : يمكنك أن تدعى أى أحد غيرى ليحل مكانى. إن الناس جميعا يتمنون أن يتناولوا العشاء على مائدة الأميرة الفاتنة !

قالت فى حسرة :

ـ إن الوقت متأخر.. ولا استطيع الآن أن أدعو أحدا.. يجب أن تحضر، إننى آمرك أن تحضر!

قال فى حزم :

ـ لا أستطيع أن أحضر حفلة ساهرة وبلادى تحترق !

ووضعت الأميرة سماعة التليفون فى عنف دون أن تجيبه !

ووجد عادل نفسه يقارن بين قسمت والأميرة فضيلة !

قسمت تريده ليملأ حياتها، وفضيلة تريده ليملأ مكانا خاليا على مائدتها.. قسمت تشاركه فى حزنه على وطنه، وفضيلة تتشاءم من رقم ١٣، ولا تتشاءم من الانذار البريطانى الذى قضى على استقلال مصر. قسمت تعتبره حياتها. وفضيلة تعتبره ضيفا على مائدتها.. وما أكثر الضيوف على مائدة الأميرات !

وتذكر عادل أنه فى هذه المقارنة نسى أن يقارن بين دمامة قسمت وفتنة فضيلة، بين بهدلة قسمت وأناقة فضيلة، بين نظارة قسمت وروعة فضيلة التى تبدو كأنها عارية تماما، وهى فى داخل فستانها !

وأحس بشعور غريب. كأن الجمال الحقيقى ليس فى وجوه النساء.. إن

قسمت تثيره الآن أكثر مما تثيره فضيلة. إحساسها الكامل به يجعلها فاتنة. اندماجها بفكرها ومشاعرها مع فكره ومشاعره جعله يرى قسمت كأنها صورة امرأة عارية جميلة مثيرة، جسدها فى لون الورد، كأنها أحد رسوم الرسام العالمى رينوار!

امرأة تستطيع أن تقوم بما يقوم به الرسام فتخلق من ألوان المشاعر عيونا جميلة وجسدا مثيرا، وفما شهيا!

* * *

ودق جرس الباب..

وأسرع يفتح لقسمت، ولكنه لم يجد قسمت، وإنما وجد الأميرة فضيلة!

كان يبدو على فضيلة الخوف والرعب. كان كل جزء فى جسمها يرتعش. ولم تمد يدها إلى مصافحته وإنما اندفعت إلى داخل الشقة وهى تقول فى جزع:

ـ أسرع! أسرع! أقفل الباب!

وأسرع يغلق الباب وراءها، وقالت له فى كلمات مرتعشة:

ـ أعطنى بسرعة كأسا من الويسكى!

ومد عادل يده إلى البار فى غرفة الصالون، وأمسك بزجاجة ويسكى وأفرغ جزءا منها فى كأس..

فقالت الأميرة:

ـ ضاعف الويسكى من فضلك.

وعاد عادل يفرغ كمية أخرى من الويسكى، ثم سألها:

ـ بالماء.. أم بالصودا؟

قالت وهى تقبض على الكأس بأصابعها:

ـ سأشربها كما هى.. لا ماء ولا صودا.

وأفرغت الكأس فى جوفها دفعة واحدة..

ونظر عادل إليها فى دهشة وقال:

ـ ماذا حدث؟

ـ جئت أختبئ عندك!

ـ من زوجك!

ـ لا، من الانجليز! إنهم سيقبضون الآن على الملك وجميع الأمراء والأميرات!

ـ من قال لك هذا!

ـ إنهم حاصروا الآن قصر عابدين بالدبابات.

ـ غير معقول! الانجليز لا يمكن أن يرتكبوا هذه الحماقة!

ـ الأميرة هان زاده حدثتنى فى التليفون منذ دقائق وقالت إنها رأت الدبابات بعينيها، وأن زوجها الأمير محمد على إبراهيم قال لها إن الانجليز سيقبضون على جميع الأمراء والأميرات! وما كدت أبلغ النبأ إلى المدعوين عندى على مائدة العشاء حتى تركونى وحدى وهربوا بينهم أمراء وكبراء وأصحاب ملايين.. كلهم هربوا.

ـ وزوجك!

ـ هرب أيضا!

ـ كيف هرب؟..

ـ ذهب ليوصل الضيوف إلى باب القصر ولم يعد!

ـ إنه جبان!

ـ هذه كانت فضيلته الوحيدة!

ـ وماذا ستفعلين!

ـ أصبحت أشك فى كل إنسان! أنت الوحيد الذى أثق بـه! لا أعـرف لماذا؟.. وإنما لدى إحساس غريب بأنك لن تبلغ عنى الانجليز!

ثم ضحكت وقالت:

ـ وعلى كل.. فأنت المسئول عما حدث!

ـ أنا المسئول؟!

ـ نعم.. أنت الذى جعلت عدد المدعوين على مـائدتى ١٣ شـخصا.. ولهذا حدثت هذه المصيبة!

ـ يمكنك أن تجعلى هذا البيت بيتك!

ـ إنك الرجل الوحيد النبيل فى هذا البلد!

ـ أى مصرى مكانى كان سيفعل ما فعلت.

ـ لا أظن!

ـ عيبكم أيها الأمراء أنكم لم تعرفوا المصريين.. ولم تحاولوا أن تعرفوهم!

ـ ليس الذنب ذنبنا.. هو ذنب آبائنا الذين علمونا أن المصريين أعداؤنا.

ـ إنهم ليسوا أعداءكم. إنهم أعداء الظلم والاستبداد. أعداء الذين يحاولون معاملتهم كالعبيد، وهم أسياد البلد!

ـ هل تظن أنهم سيشنقون الملك؟

ـ لا أظن.. ولكن يجب أن أذهب الآن وأرى بنفسى ما يحدث فى القصر؟!

ـ ستتركنى وحدى؟!

ـ إننى أريد أن أطمئن على البلد كله!

ـ سيجيئون ويقبضون على هنا!

ـ إن أحدا لا يعرف أنك هنا.. وأنا معروف بأننى بعيد عن السياسة. وعلاقتى بالانجليز طيبة فشركتى تتعامل مع القيادة البريطانية فلا خطر من أن يهاجم الانجليز هذه الشقة.. وتعالى أريك الشقة!

ـ إنك نسيت أننى أعرف غرفة النوم!

ـ لم أنس ذلك.. ولكنى سأرشدك إلى المطبخ فقد تحتاجين إلى أن تاكلى شيئا!

وصحبها إلى المطبخ.. وأشار لها إلى موقد البوتاجاز.. وقال:

ـ هنا يمكن أن تسخنى الطعام الموجود فى الفريجيدير!

قالت الأميرة ضاحكة.

ـ إنني لم أقم بطهى أى شىء فى حياتى!

ـ هذه فرصة ذهبية لتتعلمى الطهى!

ـ لو طهيت لك.. لمت مسموما!

ـ إنني سأتركك الآن.. ولن أغيب عنك طويلا!

ـ أرجوك ألا تتركنى وحدى طويلا!

ـ لن أغيب..

ومضى إلى الباب.. ثم تذكر موعده مع قسمت، وعاد أدراجه إلى المطبخ، ورأى الأميرة فضيلة، قد فتحت الفريجيدير ووقفت أمامه حائرة!

وابتسم عادل وقال لها:

ـ جاءت لك نجدة من السماء!

ـ هل جاء الطاهى؟

ـ كلا.. إن قسمت شاهين ستجىء الآن..

ـ أخشى أن تبلغ عنى السلطات البريطانية عندما ترانى هنا!

ـ لا أريد أن تشكي فى كل الناس.. يمكنك أن تثقى بقسمت كما تثقيـن بى!

ـ لأنها تحبك!

ـ لا.. لأنها فتاة مصرية.

ـ إنني أشعر بأنها تغار منى!

ـ لماذا تغار منك؟

ـ لأنها تخشى أن آخذك منها.. وهى تحبك!

ـ من قال لك هذا؟!

ـ عيناى!

ـ حتى ولو كانت تحبنى، فإنها ستحافظ عليك كما أحافظ عليك أنا.. عندما تسمعين الجرس يدق.. إذهبى وافتحى الباب.. وقولى لها إننى قادم بعد بضع دقائق وإننى ذاهب إلى قصر عابدين لأتأكد من وجود الدبابات البريطانية..

* * *

دخل أحمد حسنين إلى مخدع الملك فوجده واقفا يرقب الملكة والخدم، وهم يملأون بعض الحقائب المفتوحة بملابس الملك.

قال حسنين: ماذا تفعلون؟

قال الملك: أضع ملابسى فى الحقائب.

قال حسنين: لماذا؟

ـ لأننى قررت التنازل عن العرش، إن هذا هو قرارى الأخير ولا يمكن لقوة فى الأرض أن تزحزحنى عن هذا القرار.

والتفت حسنين إلى الملكة فريدة والخدم وقال:

ـ أخرجوا من هنا. واتركونا وحدنا!

وخرجت الملكة والخدم وأغلقوا الباب خلفهم.

والتفت حسنين إلى الملك وقال.

ـ هل جننت؟

ـ لا يمكن أن أبقى على العرش بعد هذه الاهانة.

ـ إنك تهرب من المعركة!

ـ المعركة انتهت. ألم تر الدبابات تحيط بالقصر. ألم تر جنود الحرس وقد أصبحوا جميعا أسرى؟! ألم يجردوا الحرس الملكى كله من سلاحه؟ لم يبق معى أحد!

ـ بقى الشعب!

ـ الشعب! إن زعيم الشعب هو الذى يفرضه الانجليز بالدبابات! يجب أن أتنازل عن العرش! لن أبقى بعد الآن ملكا ولو دقيقة واحدة! سأتنازل.. سأتنازل.. سأتنازل!

كان الملك أشبه بالثور المذبوح يصرخ ويصيح فى حالة هستيرية ويكرر كلمات «سأتنازل! سأتنازل! سأتنازل» وهو يقطع الغرفة ذهابا وإيابا!

احتقن وجهه حتى أصبح بلون الدم. شفتاه ترتجفان وهو يتكلم وكأن الدم يسيل من فمه.

وهنا تقدم منه حسنين، ودفعه بيده دفعة قوية أسقطته على مقعد كبير، وهو يصرخ فيه بعنف:

ـ أقعد هنا!

وسقط الملك على المقعد مذهولا! إنها أول مرة فى حياته يضربه أحمد

حسنين! أول مرة يدفعه مصرى بيده ويوقعه! أول مرة يشخط فيه أحمد حسنين بهذه القسوة!

وتراجع الملك فوق المقعد. أذهلته المفاجأة. أخرسته الصدمة. واندفع حسنين يقول له:

ـ اسمع يا فاروق! أنا لا أتكلم معك كملك! بل أتكلم معك كشاب مصرى أردت أن أعلمه أن يكون ملكاً! إنك لن تتخلى عن هذا العرش! إن تنازلك عنه هو استسلام للانجليز! هو خيانة لمصر!

ـ خيانة لمصر!

ـ نعم! لأن الانجليز يسيطرون الآن على كل شىء فى البلد! هم الذين أعلنوا الأحكام العرفية! هم الذين يشرفون على الجيش المصرى! هم الذين يكممون الصحافة! هم الذين يولون الآن رئيس الوزراء والحاكم العسكرى. معنى هذا أن البلد كله فى قبضة أيديهم! إن صوتا لن يرتفع بمعارضتهم: كأنك تهرب وتترك شعبك تحت رحمة الغزاة! يجب أن تبقى فى مكانك.. تشارك شعبك مصيره.. تقاوم.. تحاول أن تحول الهزيمة إلى نصر!

ـ ولكننى سأبقى كخيال المآتة.. ملك بلا سلطة!

ـ فى استطاعتك أن تكون راية! الراية قطعة قماش لا قيمة لها، ولكنها فوق الصارى تصبح علما!

ـ دبابات الانجليز داست على هذه الراية! تحولت من علم يرفع فوق الرؤوس.. إلى خرقة تمسح بها أقدام الانجليز!

ـ قف بجوار الشعب.. تصبح العلم من جديد!

ـ الشعب سوف يستهين بى بعد أن رأى الدبابات البريطانية تحيط بقصرى وتذلنى !

ـ لو كانت هذه الدبابات هى دبابات الجيش المصرى وجاءت تحاصر قصرك، لنصحتك بأن تتنازل عن العرش فورا.. ولكن هذه هى دبابات الجيش البريطانى.. دبابات العدو!

قال فاروق والكلمات ترتجف فوق شفتيه:

ـ ماذا تريد منى أن أفعل؟

ـ اخضع اليوم.. وانتقم غدا!

ـ هل تريد منى أن أقبل الانذار البريطانى وأعيد النحاس رئيسا للوزارة؟

ـ نعم..

- وأحنى فاروق رأسه وبكى..

واحتضنه حسنين كأنه ابنه.. وصحبه إلى الحمام وغسل له وجهه.

* * *

أقبلت سيارة السفير البريطانى ومعه الجنرال ستون القائد العام للقوات البريطانية يتقدمها عدد من السيارات المصفحة وراكبى الموتوسيكلات يحملون المدافع الرشاشة.

اقتربت السيارة من باب القصر الحديدى فوجدته مغلقا..

تقدمت دبابة بريطانية ودفعت الباب الحديدى. أمامها فانفتح على

مصراعيه ودخلت سيارة السفير البريطانى تتبعها العربات المصفحة إلى البهو الداخلى للقصر..

نزل السفير ومعه القائد العام وخلفه ثمانية من الضباط الانجليز يحملون مسدساتهم ومدافعهم الرشاشة.. إن هؤلاء الثمانية هم الذين عهد إليهم الأمر بالقبض على الملك.

تقدم إسماعيل تيمور باشا الأمين الأول للملك إلى السفير يدعوه للجلوس فى غرفة الانتظار، دفعه السفير بيده وقال:

ـ أنا أعرف طريقى!

وصعد السفير ومعه الضباط إلى غرفة مكتب الملك مباشرة، وجرى تيمور باشا خلفهم وفتح الباب..

ووقف الملك وبجواره حسنين. ودخل السفير والقائد العام البريطانى وحدهما..

وانتظر الضباط الانجليز المسلحون أمام الباب..

ودعاهما الملك للجلوس. ووضع السفير البريطانى يده فى جيبه وأخرج ورقه التنازل عن العرش ودفع بها إلى فاروق.

قال حسنين ساخرا: إننى لم اقرأ المعاهدة جيدا.. هل فيها هذا التدخل المسلح، يا سير مايلز؟

قال مايلز لا مبسون بجفاء: إننى لم أحضر إلى هنا لاجيب على أسئلة!

وأمسك فاروق الورقة بيده.. وقال:

ـ إننى عندما أريد أن أتنازل عن العرش.. سأكتب التنازل باللغة

العربية.. لا باللغة الانجليزية!

وهمس حسنين فى أذن فاروق..

واعتدل فاروق فى مقعده وقال:

ـ كنت استطيع أن اصر على رفض الانذار البريطانى، فتتحول بـلادى إلى بحار من الدم، ولكننى تجنبا لهذا الدم البرىء ابلغك اننى قبلت الانذار البريطانى، وأننى موافق على تعيين النحاس باشا رئيسا للوزارة.

وبهت السفير، وتنفس القائد العام البريطانى الصعداء، وابتسم وقـال هامسا للسفير البريطانى:

ـ الآن.. انتهت مهمتى!

ولكن السفير، وهو يعرف عناد الملك، مضى يتحداه ويقول:

ـ ولكن هل تعد بأن تتعاون معه؟

ـ نعم، اعد بالتعاون معه! وسوف استدعى الآن زعماء البلاد وأقول لهم: إننى قبلت الانذار البريطانى وعينت النحاس باشا رئيسا للوزراء.

وابتسم الملك وقال:

ـ أراكم مضطربين!.. سأطلب لكم بعض المرطبات!

ودق فاروق الجرس، وطلب من خادمة احضار «شربات» للسفير وللقـائد العام!

وقال الجنرال ستون وهو يضحك:

ـ إن الجو بارد.. أظن أن الويسكى خير من المرطبات!

ودق فاروق الجرس مرة أخرى.. وطلب استبدال المرطبات بالويسكى.

وجاء خادمان، خادم يحمل أكواب الليمون، وخادم يحمل زجاجة ويسكى ـ وعدة كئوس..

وقال الجنرال ستون :

ـ لنشرب نخب النهاية السعيدة ورفع السفير لامبسون كأس الويسكى. ورفع الجنرال ستون كأس الويسكى، ورفع حسنين كأس الويسكى..

ورفع فاروق كوب الليمون ! فقد كان فاروق خلافا لكل ما كان معروفا عنه، لا يذوق الخمر!

وشرب الأربعة نخب النهاية السعيدة!

* * *

وكان عادل واقفا على قدميه فى ميدان عابدين.. ولم ير « النهاية السعيدة ».. إنما كان يرى نهاية أى صداقة بين مصر وبريطانيا ! شعر بذل لم يحس به طوال حياته.. هوان لم يتصور أنه سيراه بعينيه فى يوم من الأيام. لقد كان يكره الانجليز. كان وهو طالب يهتف بسقوطهم فى المظاهرات ولكنه الآن يحقد عليهم. يحقد على كل انجليزى. يمقته. شعر بعار غريب. شعر كأن أمه التى خرج من بطنها، تغتصب أمامه فى ميدان عابدين. وهو لا يستطيع أن يفعل شيئا. لا يستطيع أن ينقذها ! لا يستطع أن يقتل الذى اغتصبها. لا يستطيع أن يصرخ. لا يستطيع أن يبكى !

وكانت الغطرسة تبدو على وجه كل جندى بريطانى ! أحس بأن كل واحد منهم يبصق فى وجهه. يصفعه على قفاه ويقول له : أنت لست رجلا ! لو كنت رجلا لقاومتنا.. ليس فيكم رجل واحد. كلكم أغوات. كلكم جبناء... لو حدثت

عملية الاغتصاب هذه فى أى بلد فى العالم لتحول ميدان عابدين إلى مجزرة مات فيها الوف الشبان! ولكنكم تقفون جميعا مدهوشين، مبهوتين، مسمرين فى أماكنكم!

ثم اقبلت سيارة صاحب المقام الرفيع شريف صبرى باشا خال الملك، وعضو مجلس الوصاية السابق.

ونزل من السيارة الانيقة فى مهابة ووقار!

وتقدم منه جندى بريطانى يحمل مدفعا وصوبه إليه وقال له وهو يلقى عليه نظرة احتقار:

ـ قف هنا..

وتسمر خال الملك فى مكانه فى رعب وقال بالانجليزية:

ـ انا خال الملك.

ووضع الجندى البريطانى مدفعه فى ظهر خال الملك، ودفعه أمامه إلى أن وصل إلى ضابط بريطانى، عرف شخصيته، فأشار له بأصبعه أن يدخل!

واقبلت سيارة الدكتور أحمد ماهر رئيس مجلس النواب. وكان يومئذ مصابا بشلل فى نصف وجهه.. وغطى رأسه بغطاء من الصوف فبدأ أشبه برجل ملثم..

ونزل من سيارته.

وتقدم نحوه جندى بريطانى يحمل بندقية فى فوهتها سونكى.

وقرب الجندى البريطانى السونكى من بطن الدكتور ماهر الكبير.. وأمره بالوقوف وطلب منه أن يرفع يديه!

ووقف ماهر ورفض أن يرفع يديه، وقال له :

ــ إنني رئيس مجلس نواب مصر!

ودفعه الجندى البريطاني وهو يقول ساخرا :

ــ الجيش البريطاني هو مجلس نواب مصر الآن!

ووقفت سيارة محمد محمود خليل بك رئيس مجلس الشيوخ ونزل منها..

وأسرع اليه جندى وشخط فيه أن يقف، فوقف. وقال:

ــ إنني رئيس مجلس شيوخ مصر

وأمسكه الجندى البريطاني من ياقة جاكتته، ودفع رئيس مجلس الشيوخ أمامه، كما يدفع جندى الشرطة، أى متسول أو متشرد.. ثم اتجه به وهو على هذه الصورة إلى محمود السيوفى بك التشريفاتي الواقف على الباب وقال له :

ــ هل تعرف هذا الجدع؟

قال التشريفاتي :

ــ نعم.. إنه رئيس مجلس شيوخ مصر!

ودفع الجندى البريطاني رئيس مجلس الشيوخ أمامه حتى كاد الــرجل العجوز ينكفى على وجهه!

* * *

شعرت الاميرة فضيلة بالتعب والأرهاق. أحداث اليوم هزت أعصـــابها. خلعت ثوبها، ورقدت فى فراش عادل بملابسها الداخلية.

ثم أحست بالبرد فانزلقت تحت اللحاف الوثير والبــطاطين الصــوفية..

وسرحت بأفكارها في مصيرها المجهول. ماذا تفعل إذا خلع الانجليز الملك وقبضوا على الأمراء والأميرات... كيف تعيش إذا أصبحت فضيلة فقط؟ لا صاحبة السمو الملكي؟ إنها واثقة أن أول ما سيفعله زوجها عوني باشا معروف أنه سوف يطلقها. لقد تزوجها لأنها ابنة عم الملك. لأنها صاحبة سمو ملكي، لأنها صاحبة ثروة طائلة!.. ويوم يذهب كل هذا سيذهب معه زوجها.. بل إنه ذهب عندما سمع بإشاعة عزل الملك! إن فيه اخلاق الفيران.. لقد هرب من السفينة قبل أن تغرق.. لم تفاجأ بهروبه، كانت تفاجأ فعلا لو أنه بقى إلى جانبها. إنها رضيت بزواجه لأنه «طرطور» جميل، لا يضر ولا ينفع، تضعه على رأسها في الحفلات الراقصة، والحفلات التنكرية، ثم تخلعه بعد ذلك عندما تعود إلى قصرها!

هذا الزوج مثل زوج الأحذية الخاص بالسهرات، أنيق، مذهب، جميل. ولكن لا يصلح للمشى بين صخور الحياة. ولكى تسير في الزوابع يجب أن تخلعه من قدمها، وتحمله في يدها، حتى لا يعطلها عن السير وسط العواصف والزوابع والرياح!

ماذا تفعل إذن؟ إنها لم تتعلم تعليما كافيا لتعمل في وظيفة.. لا تعرف الكتابة على الآلة الكاتبة والاختزال لتصبح سكرتيرة.. لقد علمها أبوها لتكون أميرة.. كان رجلا متفائلا يتصور أن عرش مصر سيعيش الف سنة على الاقل.. علمها كيف ترقص ولم يعلمها كيف تعيش. علمها كيف تأكل بالشوكة والسكين ولم يعلمها كيف تحصل على ثمن ماتأكله. علمها كيف تمد يدها في جلال للرجال لينحنوا لها ويقبلوا يدها في احترام، ولم يعلمها كيف ترغم الرجال على أن يحترموها لشخصها لا للقبها.. علمها الفرنسية والانجليزية والايطالية والتركية قراءة وكتابة! ونسى أن يعلمها اللغة العربية، لغة البلد الذى ستعيش بقية حياتها فيه!

بعد أن تجرد من لقبها وثروتها لن يبقى لها إلا جمالها.. ولكن إلى متى يعيش هذا الجمال؟ إنها تنفق خمسمائة جنيه فى الشهر على جمالها! على عطرها، على مساحيقها، على تصفيف شعرها.. لن يمكنها ان تحتفظ بكل هذا الجمال إذا لم تجد نفقات صيانة هذا الجمال!

تستطيع أن تعمل ممثلة؟ ولكنها لم تدرس التمثيل؟ لابد أن تبحث عن مخرج سينمائى ليحبها، ويجعل منها نجمة من نجوم الشاشة!

ولكن أين تجد المخرج الفدائى الذى يخاطر ويحب ابنة عم ملك مخلوع!

إنها تصلح أيضا أن تعمل «مانيكان» جسمها الرشيق يساعدها على أن تقوم بهذا العمل.. وهى فرصة لها كى ترتدى دائما الملابس الانيقة، إنها تعبد الفستان الجميل!

ولكن كم عمر المانيكان، إنه لا يزيد عادة على خمس سنوات، ثم تشحب.. وتبرز مانيكان شابة مكانها.. وماذا تفعل عندما تصبح غير صالحة لعمل المانيكان؟ سوف تموت جوعا!

الحل الوحيد أن تتزوج!

تتزوج رجلا، رجلا بمعنى الكلمة .. وليس طرطورا مثل عونى باشا معروف، رجلا يقف بجوارها فى الأزمات، ويصمد وراءها فى المحن، ولا يهرب كما هرب زوجها الجبان!

وخطر ببالها اسم عادل علاء الدين .. إنه رجل! والدليل على رجولته أنه وقف بجوارها عندما تخلى عنها ضيوفها! عندما تخلى عنها زوجها.. لم يخف من بطش الانجليز ترك لها بيته. خرج ليطمئنها عما يحدث فى الخارج..

ثم تذكرت صديقها عمر الفلسطينى.. إنه هو الآخر ممكن أن يتزوجها.. ولكن فلسطين يحكمها الآن الانجليز، إذا طردوها من مصر، فلن يسمحوا لها بدخول فلسطين..

وعادت تفكر فى عادل علاء الدين من جديد!

وتخيلت نفسها زوجته!

وأحست بقشعريرة لذيذة، كأنه يرقد بجوارها الآن فى فراشه

واغمضت عينيها لتحلم به.

ولم تلبث أن استغرقت فى نوم طويل..

واستيقظت على صوت رنين جرس متواصل.

وفتحت عينيها، ونظرت حولها فى دهشة!

نسيت عندما نامت أن تطفى النور..

وعادت تفتح عينيها مرة أخرى وتدير رأسها فى انحاء الغرفة.

إنها لا تعرف اين هى.. كانت منذ لحظات فى غرفة نومها فى قصرها بالجزيرة. كانت بين ذراعى عادل علاء الدين يغمرها بالضم والعناق والقبلات، ثم سمعت جرسا يدق. واضطرب عادل.. وأراد أن يقفز من الفراش.. وتشبثت به وأمسكته بيديها وقالت له:

ـ لا تخف يا عادل! إنه زوجى:

وها هى ذى تفتح عينيها من الحلم اللذيذ. لا تزال تسمع صوت الجرس الذى سمعته فى الحلم.. لا يزال فى شفتيها رحيق شفتيه.. لا يزال فى جسدها

حرارة عناقه.. ولكنها لا تجد عادل فوق الفراش، إن هـذا ليس فـراشها، ولا هذه هى غرفة نومها، لعلها لا تزال تحلم..

واغمضت عينيها من جديد.

* * *

مضت قسمت تدق جرس الباب.. تضغط على زر الجرس بعنف ثم برقة، ثم بعنف من جديد..

إن انوار الشقة مضاءة مما يدل على أن عادل فى داخل الشقة..

لابد أن المسكين كان ينتظرها، وعندما تأخرت بسبب إغلاق الطرق ومنع المرور أغمض عينيه ونام!

ليت معها مفتاح الشقة. لو كان معها مفتاح، لدخلت على أطراف قدميها، وتقدمت منه وبدأت تجرده فى هدوء من ملابسه!

وتصورت عادل وهو يفتح عينيه فى فزع، عندما يجد امرأة تجـرده مـن ملابسه فى الظلام!

وابتسمت عندما تصورت الذهول فى عينيه.. وتصورت نفسها تقبله.. قبلة طويلة طويلة تحول فزعه إلى اطمئنان!

لابد أنه تعب من أحداث اليوم ونام.. إنها لا تعرف ماذا كان يجـرى فى القاهرة هذه الساعة المتأخرة، كل ما رأته دبابات وسيارات مصفحة..

سألت سائق التاكسى فقال لها إنها امدادات بريطانية فى طـريقها إلـى ميدان القتال فى الصحراء الغربية..

ومضت تدق جرس الباب.. الليلة ليلتها! عادل يقول لها إنه سيصحبها ف نزهة فى سيارته إلى ضاحية المعادى.. إنها لا تريد الذهاب إلى ضاحية المعادى. انها تريد أن تبقى معه فى الشقة!

تريد أن تضمه إلى صدرها كل دقيقة من ساعات اللقاء! لا تريد أن تكون عيناه مشغولتين بعجلة القيادة.. تريد أن تتفرغ يداه لها وحدها. تعانقها، تلمسها، تلعب فى خصلات شعرها، لا تريد أن يتجه بعينيه إلى الطريق كلها... إنها تريد عينيه متجهتين إليها وحدها، فى عينيها فى كل جزء من أجزاء جسدها!

وعادت تدق الجرس من جديد.

وفتحت الأميرة فضيلة عينيها على صوت الجرس!

وعرفت أنها فى غرفة نوم المهندس عادل علاء الدين.

وتذكرت أن عادل قال لها: إن قسمت شاهين ستحضر إلى الشقة وتدق الجرس، وان عليها ان تفتح لها الباب..

وغادرت الفراش متثاقلة..

ومشت إلى الباب فى بطء، كأنها لا تزال تحلم!

كانت الأميرة حافية القدمين، بملابسها الداخلية، بشعر منكوش كان أصابع عادل عبثت به فى الحلم فعلا، أو كأن أصابعها هى التى عبثت بخصلات شعرها نيابه عن عادل!

استمر الجرس يدق..

وفتحت الأميرة الباب.

ورأت قسمت الأميرة فضيلة أمامها.. حافية.. بملابسها الداخلية بشعرها المنكوش!

وشهقت شهقة عالية.. تراجعت مذعورة إلى الخلف.. اذهلتها المفاجأة.. فتحت فمها لتقول شيئا، فإذا الكلمات مذبوحة فوق شفتيها، عاجزة عن الانطلاق..

وسقطت قسمت على الأرض.. مغشيا عليها!

الفصل الثالث عشر

امتلأت قاعة الطعام فى نادى السيارات الملكى بـالقاهرة. اليـوم يـوم السبت. الطعام ممتاز بفضل طاهى النادى الفنان الذى يتقاضى مرتبا قدره مائة وخمسون جنيها فى الشهر الواحد. وهو مرتب أكبر من مرتب كثير مـن وكلاء الوزارات فى تلك الأيام!

الغداء فاخر جدا، ورخيص جدا، أرخص من المطاعم الكبرى المماثلة، ذلك لأن أغلب دخل النادى من موائد القمار ينفق على بطون الأعضاء!

مستوى الجمال عال. كأنك فى شارع الشـانزليزيه فى بـاريس. أغلـب «عضوات» النادى من فاتنات القاهرة الساحرات، من مصريات خمـريات، إلى سوريات شقراوات، إلى لبنانيات فى لون اللبن الحليب. مواكب الانـاقة لا تنتهى. بعض «العضوات» زوجـات لاصـحاب مـلايين، أو عشـيقات لاصحاب ملايين. أو فى طريقهن إلى قلوب أصحاب الملايين!

كل من فى النادى يضحك ويمرح، أو يرقص ويلعب، أو يهمس بنكتة مخلة بالآداب، أو يغازل امرأة جميلة، أو يهرب من امرأة كانت جميلة!

وكان عادل علاء الدين عضوا فى نادى السيارات، وفى الوقت نفسه عضوا فى نادى محمد على. وكان يذهب إلى نادى السـيارات إذا أراد أن يـرى الدنيا، ويذهب إلى نادى محمد على إذا أراد أن يرى الآخرة!

فنادى محمد على ناد متزمت. يجلس أعضاؤه وكأنهم يحضرون مأتما بدأ منذ إنشاء النادى منذ عشرات السنين. ولم ينته حتى الآن!

باشوات على المعاش. وزراء على الرف. سياسيون عجائز يتخذون النادى موقفا للوزراء أشبه بموقف عربات الحنطور أو سيارات التاكسى.. فقد اعتاد الملك فؤاد أن يختار الوزراء من نادى محمد على. ومات الملك من ست سنوات، ولا يزال السياسيون يجلسون فى أماكنهم بلا حراك فى انتظار دعوتهم إلى الاشتراك فى أية وزارة جديدة.

وأعضاء النادى صنف غريب من البشر. إذا أرادوا أن يتكلموا همسوا، وإذا أرادوا أن يقهقهوا ابتسموا وإذا أرادوا انتقاد الملك أو مهاجمة رئيس الوزراء، أخذوا العضو الذى يتحدثون إليه، إلى غرفة بعيدة، وأغلقوا الباب بالمفتاح، وأبدوا رأيهم، وهم يتلفتون حولهم خشية أن يكون للجدران آذان وإذا أرادوا أن يتحدثوا عن ذكريات شبابهم تحدثوا عن عصر قدماء المصريين!

والنساء ممنوعات من دخول النادى. مباح لهن دخول غرفة واحدة يدخلنها فى استحياء، ويشترط أن تكون الداخلة امرأة أجنبية. أما المرأة المصرية فهى ممنوعة من الصرف!

ولهذا كان النادى بلا روح. غرفة مخصصة للعب الطاولة فى أدب، أو لعب البوكر فى وقار، أو لعب البلياردو فى هدوء، أو للقراءة بنفس الطريقة التى يقرأ بها المشايخ على قبور الأموات..

وقد اضطر عادل أن يمر بنادى محمد على. ويبقى به بضع دقائق، ليتحدث مع المهندس علوان باشا عبد الحميد فى شأن عمل من أعمال شركة الهندسة الكهربائية.. وحرص على أن يكون الحديث مختصرا، فقد كان

نادى محمد على ثقيلا على قلبه. وكان نادى السيارات خفيفا على قلبه.. كأنه شاب مرح يرقص ويضحك ويقود السيارات، ويركب الطيارات، بينما كان نادى محمد على أشبه بمحمد على باشا الكبير مؤسس الأسرة العلوية، له شارب كبير مخيف، ولحية كبيرة وقور. وعمامة بيضاء أكبر من اللحية والشارب ومحمد على باشا نفسه!

وفوق كل هذا... ليس فيه نساء!

* * *

وأسرع عادل إلى نادى السيارات وحيا الجالسين فى البار بابتسامة ومضى فى طريقه إلى مائدة الطعام، وانضم إلى مائدة المهندس طاهر كريم حيث اجتمع عدد من مهندسى شركة الكهرباء الهندسية.

وسأله طاهر:

ـ لماذا تأخرت يا عادل!

ـ كنت فى نادى محمد على!

ـ ما هى أخبار نادى محمد على؟

ـ كلما دخلت النادى أحسست كأننى أقرأ صفحة الوفيات فى الاعداد القادمة من جريدة (الاهرام)!

ـ ألم يكونوا يتكلمون عن الجو السياسى؟

ـ كانوا يتكلمون عن البرد.. والانفلونزا!!

وشرب المهندس طاهر كريم جرعة من كأس البيرة التى أمامه وقال:

ـ الناس فى مأتم بسبب حادث محاصرة الدبابات البريطانية لقصر عابدين. كلهم يرددون ما قاله الدكتور أحمد ماهر للنحاس أمام الملك والزعماء: «أنت يا نحاس تتولى اليوم الحكم على الحراب البريطانية. وفوق الدبابات البريطانية»!

قال المهندس شفيق عثمان:

ـ إن قلب مصر خفق أربع مرات المرة الأولى يوم شنق الانجليز الفلاحين فى دنشواى. المرة الثانية يوم مات مصطفى كامل. المرة الثالثة يوم قبض الانجليز على سعد زغلول سنة ١٩١٩. والمرة الرابعة عندما مات سعد.. اعتقد أنه خفق يوم ٤ فبراير للمرة الخامسة!

قال المهندس طاهر:

ـ الناس فعلا فى مأتم!

وقهقه المهندس خليل مدبولى وقال:

ـ أنت رأيك الناس فى مأتم ولكننى أنا رأيت الناس فى فرح! كانوا يهتفون ويرقصون وكأن الجيوش البريطانية جلت نهائيا عن مصر.. ولم يبق على أرضها جندى واحد من جنود الاحتلال!

قال طاهر محتجا:

ـ مستحيل.. إننى قابلت اليوم مهندسين درسوا فى انجلترا. كانوا مؤمنين بالحلفاء وكفروا بهم. كانوا متحمسين لانتصار الانجليز، وقالوا إنهم أصبحوا يلعنون الانجليز.. هذا هو صوت الشعب!

قال مدبولى وهو يمط شفتيه!

ـ هؤلاء ليسوا الشعب أنا رأيت الشعب! كنت فى وزارة المالية صباح اليوم. ورأيت فناء مجلس الوزراء غاصا بعشرات الألوف من المتظاهرين. وخرج إلى الشرفة النحاس باشا رئيس الوزراء، ومعه سير مايلز لامبسون السفير البريطانى، وأمسك النحاس بيد السفير، ورفعا أيديهما متشابكة للجماهير، فجنت الجماهير، ودوى هتافها للنحاس وللسفير البريطانى. وسمعتهم بأذنى يهتفون هتافا كالرعد: «تحيا بريطانيا العظمى»!

قال طاهر:

ـ إنها فضيحة.. المصريون يهتفون لأول مرة فى تاريخهم بحياة الأمبراطورية التى تحتلهم وتستعبدهم!

قال مدبولى:

ـ ليس هذا فقط! عندما خرج السفير البريطانى من رئاسة مجلس الوزراء التفت حوله الجماهير الهاتفة.. وحملته على الاعناق، من باب رئاسة الوزارة إلى باب سيارته!

فى تلك اللحظة أحسست كأننى أقرأ الصفحة الأولى من مسرحية أحمد شوقى عن «مصرع كليوباترا».. إنها تبدأ بحوار بين اثنين من المصريين يوم هزيمة الأسطول المصرى فى الاسكندرية. والمظاهرات تخرج تهتف بحياة الانتصار العظيم!

* * *

فى تلك الصفحة يدور حوار أشبه بالنبوءة بين أحد المصريين واسمه حابى وواحد اسمه ديون:

أسمع الشعب ديون!　　　كيف يوحون إليه؟

ملأ الجو هتافا.. بحياتي قاتليه!
اثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه
ياله.. من ببغاء عقله في أذنيه!
فيرد ديون قائلا:

إني سمعت.. كما سمعت وراعني!
أن الرمية تحتفي بالرامي!
هتفوا بمن شرب الطلا في تاجهم
وأحال عرشهم فراش غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئا!
ولو استطاع مشى على الاهرام!

قال المهندس طاهر:

ـ لو أن الشاعر شوقي بعث على قيد الحياة وأراد أن يصف ما حدث اليوم.. لما استطاع أن يقول أكثر مما قاله!

قال المهندس شفيق عثمان:

ـ هذه هي الجماهير!

وغمغم عادل وقال:

ـ لا تظلم الجماهير يا شفيق إنها لا تعرف ما حدث، إنها ضحية مؤامرة الصمت التي فرضت عليها، لم تنشر كلمة واحدة في الصحف عن حادث الدبابات. لم تذع كلمة واحدة عن محاصرة القصر في أي إذاعة من اذاعات العالم. حتى إذاعة برلين نفسها التي اعتادت أن تهاجم الانجليز بالحق والباطل. إذاعة الاعداء خدعها الانجليز! تصورت إذاعة برلين أن الذي

حدث هو أن الملك أرغم الانجليز على قبول عدو الانجليز مصطفى النحاس رئيسا للوزارة! فإذا كان الانجليز استطاعوا أن يخدعوا دولة كبرى كالمانيا فى هذا الحادث، فهل نلوم الشعب المصرى أنه خدع أيضا؟

وتمدد المهندس جورج اسحاق فى مقعده بعد أن انتهى من الأكلة الشهية وقال:

ـ لا تنسوا ما فعله مكرم! إنه عرف بذكائه أن عارا قد وقع.. واستطاع أن يمحو العار. حصل على خطاب من السفير البريطانى يؤكد فيه أنه لم يقصد مطلقا الاعتداء على معاهدة سنة ١٩٣٦. وأنه يحترم استقلال مصر.

وقهقه مدبولى بصوت عال، أشبه بالضجة التى تحدثها الصحون عندما تقع من يد السفرجى وقال:

ـ ما أشبه ما حدث برجل غريب يجىء ويغتصب ابنتك يا إسحق فى ميدان عام! وتذهب إليه غاضبا، ونتصور أنك ستقتله انتقاما للشرف المذبوح، وإذا بك تجىء لنا متهللا لأنك أنقذت شرف الأسرة! فقد حصلت منه على خطاب بامضائه يقول فيه إنه لم يكن يغتصب ابنتك فى الطريق العام. وإنما هو نزع ملابسها الداخلية بسبب الحر الشديد، وأنه لا يحمل للأسرة إلا كل الاحترام!

وانفجر الجالسون يضحكون!

قال طاهر ضاحكا:

ـ لو حدث هذا لوجب أن يعلق اسحق «سوتيان» ابنته فوق نافذة بيته ليطمئن الشعب المصرى إلى أن شرف الاسرة بخير!

وأحمر وجه إسحق وقال:

ـ ماذا يمكن أن أفعل؟ الفضيحة حدثت.. ويجب أن نسترها!

قال طاهر:

ـ ولكن لا داعى لأن نهتف بحياة الرجل الذى اغتصب ابنتنا، ونحمله فوق أعناقنا!

قال عادل وهو يشعل سيجارته:

ـ سمعت أن الانجليز يطلبون إغلاق نادى السيارات.

ـ لماذا؟

ـ لأن الأعضاء ينتقدون الانجليز فى النادى.. ولأن النبيل عباس حليم رئيس النادى شرب مرة نخب هزيمة الانجليز!

ـ ولكنهم سبق أن طلبوا فى الماضى اخراج عباس حليم من رئاسة النادى ورفض الأعضاء بالاجماع هذا الطلب.

ـ تغير الموقف الآن! كانوا فى الماضى يطلبون.. ولكن بعد أن هددوا الملك وقضوا على سلطته، وحرقوا زعيم الشعب، أصبحوا لا يطلبون.. وإنما يأمرون!

ـ ولكننا سنرفض كما رفضنا فى المرة الماضية!

ـ عندما تفقد الفتاة عذريتها.. لا يعود من حقها أن تقول لا!

ـ أتعنى أن مصر استسلمت بلا قيد ولا شرط؟

ـ أعتقد أنها لم تستسلم فقط.. وإنما هتفت بحياة الغزاة!

واعترض المهندس اسحق على الحوار الذى جرى بين عادل ومدبولى وقال:

ـ لا أصدق أن الحكومة ستستسلم! أعتقد أن الحكومة قبلت هذا الوضع الشائن فى مقابل ثمن!

ـ ما هو الثمن؟

ـ الثمن أن الانجليز وافقوا سرا على الجلاء التام عن مصر والسودان بعد الحرب مباشرة.

ـ هل هذا خبر أم أمنية؟

ـ أمنية!

وضحك مدبولى وقال له:

ـ إذن.. «اتلهى»!

* * *

كان عادل يراقص الأميرة فضيلة فى الحفلة الساهرة التى أقامتها فى قصرها بالجزيرة مساء ١١ فبراير لمناسبة عيد ميلاد الملك.

كانت الأميرة فى أبهى جمالها. وأكمل زينتها، تتمايل على عادل وهى ترقص معه، وكان على رأسها تاج من الماس عندما قال لها وهو يبتسم:

ـ الذى يراك اليوم.. لا يصدق أنك المرأة المفزوعة التى رأيتها منذ أسبوع واحد فى شقتى!

ـ كان هذا أكبر زلزال حدث فى حياتى!

ـ أرجو ألا يكون الزلزال حطم أشياء كثيرة!

ـ حطم كل الأبنية القابلة للسقوط.. وقد اكتشفت أن كل من حـولى كان آيلا للسقوط!

ـ حتى أنا!

- إلا أنت!

ـ وكيف عاد زوجك؟

ـ عندما تأكد أنهم لم يخلعوا الملك!

ـ ألم يعتذر عن تخليه عنك فى ذلك الظرف العصيب؟

ـ قال لى: إنك تعرفين أن خفة دمى فى جبنى!

ـ دمه خفيف جدا!

ـ يعجبنى فيه أنه صريح فى سفالته!

ـ هل أنت صريحة فى سفالتك؟!

ـ أنا لست سافلة! أنا نبيلة جدا!

ـ الدليل على ذلك ما قلته لقسمت!

ـ أنا لم أقل لها شيئا! أنا لم أكذب عليها!

ـ أنت سكت.. والسكوت أحيانا فيه من الكذب أضعاف ما فى الكلام!

- إن كل ما فعلته أنه عندما رأتنى قسمت بالملابس الداخلية فى شـقتك أغمى عليها. وحملتها إلى غرفة النوم، وأخذت أدلكها بماء الكولونيا حتـى

أفاقت وسألتنى لماذ أنا فى شقتك. فلم أرد عليها! وعندئذ قامت من الفراش، وخرجت من الباب!

ـ إنها رفضت أن تتحدث إلى منذ ذلك اليوم..

ـ لا ألومها.. لقد رأت امرأة فى فراشك!

ـ ولكن كان يجب أن تقولى لها الحقيقة، كل الحقيقة..

ـ لم استطع أن أقول الحقيقة، كل الحقيقة..

ـ لماذا؟

ـ لأننى كنت أحلم اننى بين ذراعيك عندما دقت قسمت الجرس!

ـ أنا لا أنتظر أن تقولى لها عن أحلامك، انتظر أن تقولى لها الواقع!

ـ الواقع كان سيضطرها إلى الانصراف أيضا!

ـ وما هو الواقع؟

ـ أننى أحبك!

ـ كصديق؟

ـ لا.. كعدو!

ـ أنا عدو؟

ـ لأننى أريد أن استسلم لك بلا قيد ولا شرط!

ـ ولكن لى شرطا واحدا.

ـ ما هو؟

ـ أن تخلعي التاج..

ـ هل يقف تاج الامارة في طريقك؟

ـ نعم.. سوف أحس كأنني وأنا بجوارك أن الملك واقف معنا!..

ـ هل تخاف منه؟

ـ أنا لست خائفا منه.. لقد قابلني أثناء الأزمة وقال لي: إنه يعرف أنني رجل نساء.. وانني أصفع النساء على وجوههن!

ـ أنا التي قلت له هذا!

ـ لماذا؟

ـ لابعد عنك الشبهات! إنه خبيث جدا! فإذا قلت له إنك رجل مستقيم وطيب الاخلاق فسيعرف أنني معجبة بك، وأريد أن أوهمه بأخلاقك الطيبة لأفعل ما أشاء معك.. وهو يعلم أنني أكره عنف الرجال.. وعندما قلت له إنك تصفع النساء على وجوههن اطمأن على الفور، لأنك لست من صنف الرجال الذين يعجبونني!

ـ ولكنك أسأت إلى سمعتي!

ـ انني حائرة معك.. فإذا لم أقل الحقيقة اعترضت علي.. وإذا قلت الحقيقة اعترضت علي!

ـ انني أريد أن تقولي الحقيقة!

ـ لا استطيع! لأنني أعيش في عالم من الكذب.. أما أن أتكلم بلغته؟ وأما أن أخرج منه!

ـ لماذا لا تخرجين منه؟

ـ فكرت يوم كنت نائمة فى فراشك أن أخرج منه.. ولكنى وجدت أننى لا أصلح لشىء! فكرت ماذا يحدث لى لو فقدت ثروتى ولقبى.. فوجدت اننى سأموت جوعا!

ـ أن لديك رأس مال!

ـ لقد تصورت أن الانجليز سوف يصادرون مالى!

ـ لا أقصد مالك.. أقصد جمالك!

ـ حتى هذا الجمال فكرت فيه.. فوجدت أنه لا يساوى كثيرا فى السوق السوداء..

ـ على العكس.. المرأة الجميلة لا تحتاج إلى لقب ولا إلى ثروة! الرجل يحتاج إلى المركز والمال واللقب. عندما يدخل الوزير فى حفلة يضع فوق صدره نياشينه وأوسمته ليحنى الناس رؤوسهم له.. ولكن المرأة الجميلة لا تحتاج ألى مركز ولا إلى لقب ولا إلى ثروة ولا إلى نياشين ليحنى لها الناس رؤوسهم!

ـ ماذ يمكن أن يفعل لى الجمال؟

ـ الجمال رفع نساء فقيرات إلى العروش.. إلى زوجات أصحاب الملايين! الرجال عدة طبقات: أثرياء وفقراء مشهورون ومغمورون، كبراء وصعاليك، علماء وجهلاء! أما النساء فهن من طبقتين.. جميلات.. أو غير جميلات! الجميلات هن النساء اللاتى أعطاهن الله مفتاح الجنة!

ـ ولكن المفتاح الذى أعطاه الله لى، لا يفتح بابك!

ـ لانني الجحيم!

ـ انني أحب النار!

ـ لتطفئيها!

ـ لا.. لازيدها اشتعالا!

ـ يبدو أن لك فى كل ليلة حريقا!

ـ تصور.. إنني فكرت أن أتزوجك إذا جردوني من لقب الامارة!

ـ وطبعا.. أصبحت الآن لا أصلح زوجا!

ـ فعلا.. أنت لا تصلح زوجا لأميرة..

ـ إنك بدأت تقولين الحقيقة!

ـ نصف الحقيقة!

ـ والنصف الثاني!

ـ أنك تصلح فقط عشيقا لأميرة!

ـ وما الفرق بين زوج الأميرة وعشيقها!

ـ زوج الأميرة يجلس على يمينها وعشيق الأميرة يجلس على يسارها بجوار قلبها!

ـ هل يجب أن أقدم طلب استخدام للحصول على هذه الوظيفة!

ـ انك عينت فى هذه الوظيفة فعلا!

ـ منذ متى؟

ـ منذ أن صفعتنى على وجهى!

ـ ومتى استلم عملى!

ـ اليوم!

ـ اليوم؟!

ـ نعم.. الآن!

ـ أين؟

ـ عندى

ـ ماذا تفعلين بزوجك!

ـ سأقول له..

وتوقفت الأميرة عن الرقص، وأمسكت بيده، واتجهت به إلى غرفة يجلس فيها عونى باشا معروف يلعب لعبة البوكر مع بعض المدعوين..

وانحنت الأميرة على زوجها وهو يلعب، وهمست فى أذنه بعض كلمات، وإذا بالباشا يلوح بيده ويقول للأميرة ولعادل باللغة الانجليزية:

ـ أتمنى لكما حظا سعيدا!

ووقف عادل مبهوتا مسمرا فى مكانه.. ودفعته الأميرة بيدها إلى خارج الغرفة، ومشت بجواره فى دهاليز القصر..

ومشى بجوارها مذهولا.. ثم سألها:

ـ ماذا قالت له؟

ـ قلت له اننى ذاهبة معك إلى بيتك!.

وتوقف عادل فى ذهول:

ـ مستحيل أن تقولى له ذلك!

ـ لقد وعدتك أن أقول لك الحقيقة دائما!

ـ وهل وافق؟

ـ لقد سمعته بأذنك يقول إنه يتمنى لنا حظا سعيدا!

ـ إنه زوج عجيب!

ـ إنه يثق بى!

ـ يثق بك مع رجل غريب!

وضحكت الأميرة وهى تدفعه أمامها وتقول:

ـ قلت له إننى سابحث معك قضية شراء أسهم فى شركة الهندسة الكهربائية، وأننى أريد أن انفرد معك لهذا الشأن فى بيتك!

ـ وماذا تفعلين إذا دخل فجأة!

ـ لن يجىء فجأة! إنه لم يدخل منذ زواجنا إلى غرفة نومى فجأة! هل نسيت أننى أميرة؟

ـ هل يطلب موعدا؟

ـ لا.. إنه يتحدث معى من تليفونه الداخلى بجوار فراشه إلى تليفونى الداخلى بجوار فراشى، ويستأذننى فى الحضور!

ـ هل كل الأميرات يعاملن أزواجهن بهذه الطريقة؟

ـ لا أعرف.. ولكن المفروض أن يفعل هـذا كل زوج يحتـرم زوجتـه الأميرة!

ـ إذا كنت تعاملين زوجك بهذه الطريقة.. فكيف ستعاملين عشيقك؟

ـ أعامله كأنه زوجى!

ـ هذا شرف عظيم!

ـ ألم تقابل امرأة مثلى؟

ـ نعم.. قابلت!

ـ من؟

ـ اجلال فوزى.

ـ من هى؟

ـ ممثلة السينما المشهورة.

ـ هل هى أميرة؟

ـ إنها صاحبة جلالة.. إنها ملكة الاغراء!

* * *

كان عادل سعيدا بعلاقته الجديدة مع الأميـرة فضـيلة. كان مبهـورا بصباها، وفتنتها، ورشاقتها، واناقتها. وكان مبهورا أكثر بهذا الحب الغريب، الذى يختلف كل الاختلاف عن علاقاته السابقة بالنساء!

كان أزواج النساء اللاتي يعرفهن يطاردونه دائما، يضيقون عليه الخناق، يقلقونه بغيرتهم. يشقونه برقابتهم، وكان يبذل مجهودا جبارا فى تعمية عيونهم، وفى اخفاء نواياه عنهم، وفى تضليلهم..

وكان أكثر ما يشقيه كيف يتصل بالزوجات فى بيوتهن. كثيرا ما طلب الزوجة فى التليفون فأجاب زوجها فاضطر أن يقول النمرة غلط.. كثيرا ما امتنع عن الرد على التليفون عندما يفاجأ بالزوج الغيور.. حتى اضطر آخر الأمر إلى استخدام الآنسة ماتليد الكاتبة على الآلة الكاتبة فى الشركة فى مهمة سكرتيرة خاصة، كل مهمتها أن تطلب هى بصوتها النساء فى التليفون!

ولكن مع الأميرة فضيلة لم يصادف هذه المشكلة! وإنما صادف مشكلة أغرب وهى أن زوجها سعادة عونى باشا معروف هو الذى كان يطلبه فى التليفون وكان يلح عليه دائما فى الحضور إلى قصر الأميرة، فإذا اعتذر عادل عن عدم استطاعته الحضور لانشغاله فى العمل، أو فى اجتماع مجلس الادارة، أو فى لقاء مع أحد كبار رجال الأعمال، غضب سعادة الباشا الزوج، وهاج وماج وهدد وتوعد، أو توسل واسترحم!

وكانت شخصية عونى باشا تحير عادل علاء الدين.. هل هو يعرف أم لا يعرف؟ هل هو يجهل علاقته بالأميرة أو يتجاهل هذه العلاقة!

كان تصرف زوج الأميرة معه تصرفا عاديا، لا يثير شبهة علمه بأى شىء مما يدور حوله. فهو رجل مدمن على لعب البوكر. إذا جلس على المائدة لا يتركها. وأذا أمسك ورق اللعب انغمس فيه. ولم يعد يرى بين الموجودين سوى الصور المرسومة على ورق اللعب. وإذا ربح يريد أن يبقى ليربح أكثر، وإذا خسر يريد أن يستمر ليعوض خسارته. وكانت مهمة الأميرة أن تجد له

اللاعبين الذين يشاركونه فى اللعب، فإذا أفلسوا أقرضتهم ليداوموا اللعب مع الزوج المقامر!

وفى أول الأمر أرجع عادل غفلة الباشا إلى ادمانه على القمار. ولكن حدث ذات ليلة أن كان عادل يرقص فى بيت الأميرة.. وكان يجلس بين الأميرة فضيلة، وبين النبيلة نجوى ابراهيم ابنة الأمير محمد إبراهيم.. ودعا فضيلة للرقص، ورقص معها مرتين، ثم رأى أن يدعو النبيلة نجوى للرقص من قبيل اللياقة..

ورقص مع النبيلة نجوى ثلاث مرات..

وفوجئ عادل بعونى باشا معروف يقطع عليه الرقص، ويقول له إنه يريد أن يحدثه فى موضوع هام..

وكان وجه عونى باشا محتقنا بالغضب، فقد كانت نظراته ملتهبة بالغيرة! واستنتج عادل على الفور أن عونى باشا اكتشف أن زوجته تخونه معه. فقد حدث فى الليلة السابقة أن ذهبت الأميرة فضيلة إلى شقة عادل، وبقيت فيها إلى الساعة الرابعة من صباح اليوم!

وأوصلها عادل بسيارته إلى باب القصر، ونزلت من السيارة وهى تترنح من شدة السكر..

ثم إن الأميرة فضيلة كانت تهمس فى أذنيه همسات مثيرة، عندما كان يرقص معها هذه الليلة..

كل هذه أشياء يلمسها الأعمى.. ويعرف منها أن بين عادل والأميرة فضيلة علاقة غير عادية..

وأغلق عونى باشا الباب وقال لعادل فى تجهم:

ـ إننى فكرت أدعوك إلى المبارزة!

ـ وسكت عادل فى انتظار انفجار القنبلة!

وبدأ يعد فى رأسه حججا وأسانيد يثبت بها أن لا علاقة له بالأميرة زوجته، وأنها صداقة بريئة، فوق مستوى الشبهات..

وحملق فيه الباشا بغضب وقال:

ـ إنك أهنت زوجتى الأميرة!

قال عادل:

ـ من قال لك هذا يا افندينا!

وكان زوج الأميرة يصر على أن يناديه الناس بلقب «أفندينا»!

وأجاب أفندينا:

ـ أنا رأيت ذلك بعينى!

وأعتقد عادل أن أفندينا يقصد عندما كانت الأميرة فضيلة تـوشوشه فى أذنه وهو يراقصها الليلة، فقال:

ـ أؤكد لافندينا اننى احترم صاحبة السمو الملكى الأميرة فضيلة.

قال أفندينا منفعلا:

ـ لو كنت تحترمها لما فعلت ما فعلت بها الآن!

ـ ماذا فعلت يا أفندينا؟

ـ إنك رقصت مع النبيلة نجوى ثلاث مرات.. ورقصت مع الأميرة فضيلة مرتين فقط؟

ولم يصدق عادل أذنيه فقال لمحمد باشا:

ـ لم أفهم ماذا تقصد يا أفندينا؟

ـ أقصد أن الأميرة تضايقت عندما رأتك ترقص مع هذه الفتاة التى تشبه الخادمات!

وابتسم عادل وقال:

ـ إننى مستعد أن أرقص مع الأميرة فضيلة كل رقصة، إن هذا يسعدنى كثيرا!

ـ ويسعدنى أيضا.. إنك الرجل الوحيد الذى أثق به هنا!

وأحس عادل بخجل.. إنه موضع ثقة الرجل الذى كان يخونه فى الليلة الماضية، وفى عدة ليال سابقة..

وقال هو يتلعثم:

ـ إننى.. اننى سعيد بثقة أفندينا!

ـ إن الأميرة تثق بك، ومادامت تثق بك فأنا أثق بك أيضا. ويوم لا تثق بك، فلن أثق بك، بل سأطردك من هنا!

وضحك عادل وقال:

ـ لا أظن أنك ستطردنى فى يوم من الأيام!

ـ إن الأمر متوقف على مزاج الأميرة!

ـ وهل مزاج الأميرة متقلب؟!

ـ الأميرة تحب الرجل الى أن تتبين نواياه السيئة!

ـ ماذا تقصد بنواياه السيئة يا أفندينا؟

ـ إذا خطر بباله أن يغازلها!

ـ أعوذ بالله!

ـ نعم.. كثيرون حاولوا أن يغازلوها فتركتهم فى الحال!

ـ هذا شىء عظيم جدا يا أفندينا!

ـ إنها تعامل الرجل كأخ لها، فإذا انحرف عن هذا المكان قاطعته الأميرة!

ـ أعدك يا أفندينا أن استمر كأخيها.. كما أنا الآن تماما!

قال أفندينا عونى باشا وهو يربت على كتف عادل:

ـ برافو عادل.

* * *

وعاد عادل إلى حلبة الرقص، وطلب الأميرة فضيلة لترقص معه من جديد، وضمها إلى صدره وهو يخطو بها أمام زوجها الذى كان ينظر إليهما بإعجاب وقال لها:

ـ هل تضايقت لأننى رقصت مع النبيلة نجوى؟

فرفعت رأسها نحوه باسمة وقالت:

ـ من قال لك هذا؟

ـ زوجك!

ـ ماذا قال؟

ـ كاد يدعونى للمبارزة!

ـ لأننى كنت أريد أن أقتلك!

ـ هل قلت له شيئا!

ـ لم أقل.. ولكنه فهم من تعبيرات وجهى أننى غيورة!

ـ إذن هو يغار بالنيابة عنك!

ـ من حسن حظك أنه لا يغار منك!

ـ إنه يعتقد أننى أحبك كأختى!

ـ وهو سعيد جدا بذلك!

ـ لا يمكن أن يرى كل ما بيننا ويعتقد أن العلاقة التى بينى وبينك هى علاقة بين أخ وأخت!

ـ إنه يعتقد ذلك فعلا!

ـ إن هذا يدل على أنه إما أنك ممثلة أولى، وإما أنه ممثل أول!

ـ أنا الممثلة الأولى!

ـ وهو؟

ـ متفرج.. تعجبه الرواية!

ـ ولهذا يريدنى كل ليلة فى رواية جديدة!

ـ إنه عندما يعجب برواية، يشهدها كل ليلة!

ـ أنا أعتقد أنه ليس مغفلا كما تتوهمين!

ـ إنه مغفل فعلا!

ـ أخشى ألا يكون هو المغفل!

ـ من إذن؟

ـ أنا وأنت!

وسحبته الأميرة من يده، وخرجت من حلبة الرقص وهى تقول له هامسة:

ـ سأثبت لك أنه المغفل الوحيد سأذهب إليه الآن، وأقول له إننى سأرافقك إلى بيتك لاستأنف الحديث معك فى شراء أسهم شركة الهندسة الكهربائية!

وتوقف عادل عن بعد..

ورأى الأميرة تهمس فى أذن زوجها فيبتسم ويقبلها، ثم يلوح له بيده ويقول له بصوت عال بلغة انجليزية فصيحة، عبارته المأثورة:

ـ أتمنى لكما حظا سعيدا!

ثم يعود لاستئناف لعب البوكر من جديد!

الفصل الرابع عشر

وبعد أن وقع الملك المرسوم الملكى بتأليف الوزارة قال لحسنين وهو يضحك :

ـ مبروك.. ذهب مكرم.. وأصبح من السهل بعد ذلك التخلص من النحاس !

* * *

بدأ روميل هجومه على جيوش الحلفاء فى الصحراء الغربية.

ودباباته تقطع الجيوش البريطانية كما تقطع السكين قطعة الزبد.

مواقع الانجليز تتساقط كأوراق الشجر فى الخريف.

الانجليز يتقهقرون من خط إلى خط، لا يتوقفون فى مكان حتى يرغمهم روميل على الانسحاب إلى خط جديد.

القاهرة تشهد فى ابتهاج فلول الجيش البريطانى المسحوق، وهى تجتاز المدينة !

كانت السلطات البريطانية تحرص على نقل جرحاها فى الليل حتى لا يعرف المصريون بالهزيمة الساحقة. ولكن ساعات الليل لم تعد تكفى وبدأ

المصريون يرون كل ساعة من ساعات النهار سيارات نقل بريطانية مسدلة الستائر، تسير كأنها تشيع جنازة لا تنتهى، وتخرج من خلفها صرخات الجرحى والمشوهين، وتتبعها سيارات أخرى فيها جنود بلحى طويلة، وملابس قذرة، ووجوه مغطاه بالتراب، محطمون مقهورون، مذعورون، تائهون، صامتون، ولكن الهزيمة تنطق فى ملامحهم وتصرخ وتصيح!

وبذلت السلطات البريطانية جهود الجبابرة فى إخفاء الهزيمة عن المصريين؛ فرضت على الصحف المصرية رقابة صارمة. ملأت نشرات إذاعة القاهرة بأنباء انتصارات مزعومة.

ولكن الهزيمة العسكرية لها رائحة لا يمكن إخفاؤها. إنها أشبه برائحة النار، يمكن أن تملأ أنفك برغم كل الأبواب المغلقة!

وكان المصريون يشعرون بشماتة لا حد لها فى هزيمة الانجليز.. لم يفهموا من هذه الهزيمة إلا أنهم سيتخلصون من جيش احتلال بريطانى جثم على صدورهم ستين عاما!

هاهم أولاء يرون بأعينهم جنود الانجليز الذين هزموهم فى موقعة التل الكبير، يتحولون إلى أشباح.. ملابسهم كالخرق البالية.. وجوههم الحمراء اسودت من الهزيمة.. قاماتهم العالية انحنت تحت ضربات هتلر.. مواكبهم التى كانت تتقدمها الطبول وتفزعهم دقاتها وهى تمشى فى غطرسة فى شوارع القاهرة، تحولت إلى جنازات صامتة. الغزاة الفاتحون أصبحوا فئرانا هاربة.. الذين انتصروا علينا فى معركة عابدين كأنهم أسود ضارية، أضحوا أمام روميل كالنعام.

أغلبية الشعب شامتة! لولا الخوف من بطش الدولة لخرجت المظاهرات تهتف بحياة الألمان المنتصرين. كما حدث فى شهر فبراير عندما خرج طلبة

الجامعة يهتفون «إلى الأمام.. ياروميل»

المصلون يدعون سرا فى الجوامع طالبين من الله أن ينصر هتلر على القوم الظالمين!

بدأ الفلاحون يؤكدون أن هتلر مسلم، وأن انتصاره هو انتصار للاسلام!

وكان عادل يتشاجر كل يوم مع زملائه بسبب سعادتهم لانتصار جيوش النازى!

وكان يعتقد أن هذا الانتصار هو كارثة على العالم، وكانوا يؤكدون أن هذا الانتصار سيؤدى إلى تحرير مصر من الاحتلال !

وقال عادل لزميله المهندس خليل مدبولى:

ـ أفهم أن يفرح الجهلاء لانتصار النازى.. ولكنى لا أفهم أن يفرح مثقف مثلك بهذا الانتصار!

ـ إننى أقول لك بصراحة إننى أحمد الله لأننى عشت حتى رأيت جيش الاحتلال وأحذية النازى تدوس عليه أمام عيوننا!

ولكن هل تعلم أنه إذا خرج الجيش البريطانى من مصر، فسوف يحتلها الجيش النازى؟

ـ أعلم ذلك!

ـ ومع ذلك أنت سعيد!

ـ سعيد جدا!

ـ أنا لا أفهمك يامدبولى!

ـ عندما كان الأتراك يحكموننا كانوا يعاقبون الفلاحين بوضعهم فوق الخوازيق ! وذات يوم وضع الضابط التركى فلاحا مصريا فوق خازوق فى غرفة واسعة مليئة بالخوازيق..

وسمع الضابط التركى الفلاح يصرخ ويقول : يارب انقلنى من الخازوق الذى فى أول الغرفة.. إلى الخازوق الذى فى آخر الغرفة !

ودهش الضابط التركى لهذا الدعاء الغريب. وذهب إليه وقال له : ألا تعلم أن الخازوق الذى تجلس عليه فى أول الغرفة هو نفس الخازوق الذى تطلب من الله أن ينقلك إليه فى أخر الغرفة ؟ فقال الفلاح المصرى : نعم أعلم ذلك جيدا. قال الضابط التركى : إذن لماذا تريد الانتقال من الخازوق الذى فى أول الغرفة إلى الخازوق الذى فى آخرها ؟ قال الفلاح المصرى ببساطة : لأستريح مسافة الطريق !

وضحك عادل وقال لمدبولى :

ـ إذن الشعب المصرى يريد أن يستريح فى المسافة بين الخازوقين !

ـ أعتقد ذلك :

ـ ولكن الفترة بين الاحتلالين هى أسوأ الفترات. البلد لا يحتمل هذا الانتقال فى هذه الفترة تضيع القيم، وينتهز ضعفاء النفوس الفرصة للانتقام من خصومهم، ويتحول الناس إلى قطع من اللحم تعلق فى أسياخ المهزومين والمنتصرين، ويحرق المنسحبون المدن، ويدمر الغزاة ما بقى منها وسنركع للقادمين كما ركعنا للراحلين !! وسوف تكون بلادنا أشبه ببلاد تعرضت لزلزالين فى يوم واحد : كل شىء ستتناوله يد التدمير والتخريب.. حتى الناس !

ـ أنا أعرف تماما أن شعبنا لن يحتمل أن يسحقه الغزاة مرتين ولـكننا بشر من حقنا أن نفرح ساعة ونحن نرى مصرع الذين هزمونا ستين سنة!

ـ إن من حسن الحظ أن نصف زعماء البلد مع المحور ونصـفهم مـع الانجليز!

ـ وما فائدة هذا!

ـ فائدته أن يكون أنصار المحور وسطاء لنا عند الغزاة الجدد.

ـ الغزاة لا يستعينون بالعملاء! كل ما سوف يحدث لنا هو أن تتغيـر وجوه المحتلين.. كانوا انجليزا فأصبحوا ألمانا وطليانا.. السلاسل القديمة مصنوعة فى لندن، والسلاسل الجديدة مصنوعة فى برلين!

ـ تجربتى أن الصناعة الألمانية أمتن من الصناعة البريطانية!

ـ وهذه مصيبة أخرى.. فإن التخلص من القيود الألمانية سوف يـكون أصعب من التخلص من القيود البريطانية!

* * *

وهنا دق جرس التليفون.. وسمع عادل صوت الأميرة فضيلة تقول له:

ـ هل سمعت..؟ إن الانجليز طلبوا من الملك أن يستعد للهرب معهم.

ـ إلى أين!

ـ إلى الخرطوم.. وهم يريدون إنشاء حكومة مصرية فى المنفى!

ـ وهل وافق الملك!

ـ رفض.. واستدعى النحاس!

ـ وماذا قال النحاس

ـ قال: إنه مستعد أن يذهب إذا ذهب الملك. ومادام الملك لا يـذهب، فقد قرر عدم الهرب أيضا. وأنت هل ستهرب؟

ـ كيف أهرب؟ هذه بلدى!

ـ لو هربت .. فخذني معك!

ـ لن أهرب ولا أظن المعركة انتهت!

ـ إن السفارة البريطانية تحرق الآن أوراقها!

ـ هل أنت متأكدة!

إننى أرى من نافذة بيتى الدخان وهو يتصاعد من السفارة!

ـ إنك متشائمة جدا!

ـ لقد قال لى الملك إن النحاس أبلغه اليوم أنه استدعى الجنرال ستون قائد عام القوات البريطانية إلى مكتبه وقال له: سمعت أن روميل بدأ هجومه على الاسكندرية ووصلتنا أخبار بأن الألمان سـيهبطون بـالمظلات علـى كوبرى امبابة فى القاهرة، فإذا أطلق جنودنا المصريـون الـواقفون علـى الكوبرى الرصاص على رجال المظلات الألمان فمعنى هذا أننا أعلنا الحرب على المحور، ونحن لا نريد أن نعلن الحرب. أرجوك أن تنصـحنى مـاذا أفعل؟.. فقال له الجنرال ستون.: لك الحرية فى أن تأمر الجنود المصريـين بما تشاء. وكل ما يهمنى أن تقول لى ما هو هذا الأمر؟ حتى أضع جنـودا بريطانيين مكانهم، ليطلقوا النار على الألمان فى حالة اصدار الأمـر إلـى جنودك بعدم اطلاق النار؟.. وهنا قال النحاس: هذا حل سـعيد.. اطلقـوا أنتم الرصاص!

وضحك عادل وقال :

ـ هل هذا هو الحل السعيد ؟ !

ـ سأراك الليلة !

ـ إلا.. إذ احتل الألمان القاهرة !

ـ إذن سأجيء إليك الليلة ! لقد تعودت أن أكون فى شقتك فى الأيام الخطيرة.

وما كاد عادل يضع السماعة حتى دق جرس التليفون مرة أخرى. وسمع صوت صديقته أميرة عبد العاطى تقول له بصوت مذعور ملهوف :

ـ الحقنى ياعادل.. البوليس جاء يقبض على قسمت !

قال عادل :

ـ قسمت من ؟

لقد أنسته الأميرة فضيلة كل شيء عن قسمت !

قالت أميرة :

– قسمت ! قسمت ! قسمت شاهين !.. سكرتيرة جميعة المتسولين !

الفصل الخامس عشر

دفع عم عبده جنود الشرطة والضباط الواقفين أمـام غـرفة سـكرتيرة مجلس إدارة ملجأ المتسولين، وتقدم نحو وكيل النيابة المحقق وقال:

ـ الآنسة قسمت بريئة!

ـ هذا ليس من شأنك..

ـ بل هو من شأنى!

ـ قلت لك اخرج من هنا!

ـ لن أخرج حتى أقول الحقيقة!

ـ وما هى الحقيقة؟

ـ إن الآنسة قسمت لا علاقة لها بهذه المنشورات التى وجـدتموها فى مكتبها!

ـ كيف عرفت هذا؟

ـ لأننى أنا الذى وضعت هذه المنشورات بيدى فى مكتبها!

ـ ومن الذى سلمك هذه المنشورات!

ـ إنها منشوراتى أنا!

ـ ما هو اسمك؟

ـ عم عبده!

ـ اسمك كله.. الاسم الأول والثانى!

ـ الاسم الأول «عم»... والاسم الثانى «عبده»!

- وجدك؟

ـ ليس لى أب. وليس لى جد!

ـ هل يوجد إنسان ليس له أب؟

ـ اللقيط!

ـ ما هى صناعتك؟

ـ شحاذ!

ـ شحاذ.. ويطبع منشورات!

ـ ويكتبها.. ويوزعها أيضا..

ـ ومن أين جئت بالمال لشراء الورق اللازم لطبع المنشور؟

ـ من الناس!

ـ الناس دفعوا لك نقودا لتكتب منشورا بعنوان «هذه فرصتكم» تطلب فيه من الشعب أن ينتهز الفرصة وينقض على فلول الجيش البريطانى، وينسف الكبارى ويحطم السكك الحديدية، ويقطع أسلاك التليفون

والتلغراف، لتصبح مصر مقبرة للغزاة؟

ـ نعم!

ـ هل دفعوا لك النقود لهذا الغرض أم دفعوها على سبيل الاحسان؟

ـ إنهم دفعوها ليدخلوا الجنة.

ـ وهل هذه المنشورات تدخلهم الجنة؟

ـ إننى أدعو فى هذه المنشورات إلى الحرية.. والحرية هى الجنة!

ـ هل الكلام المكتوب فى المنشور هو أفكارك؟

ـ لا.. ليست أفكارى!

ـ إذن من أين جئت بها؟

ـ تسولتها!

ـ هل الناس يحسنون على الفقراء بالمال أم بالأفكار؟

ـ المحسنون العاديون يحسنون عليهم بالمال، والمحسنون الممتازون يجودون عليهم بالأفكار!

ـ أنت متهم بالتحريض على كراهية بريطانيا، حليفتنا؟

ـ لو كانت حليفتنا لما أحاطت قصر الملك بالدبابات!

ـ مالك وهذه الأمور.. إنها من شأن السياسيين وحدهم!

ـ إننى لا أشتغل فى السياسة.. وإنما أشتغل فى الوطنية!

ـ أنت شحاذ.. وليس من شأنك التدخل فى السياسة!

ـ لولا بريطانيا لما أصبحت شحاذا فى بلدى!

ـ إذن أنت تكره الحليفة لسبب شخصى.

ـ لست الشحاذ الوحيد.. لقد أفقـرتنا بـريطانيا واغتنـت.. جـوعتنا وشبعت. حولت الكثير منا إلى عبيد.. والدليل على هذا أن رجلا مثقفا مثلك يعتبر الوطنى الذى يطالب بتحطيم قيود بلاده مجرما!

ـ إننى أطبق القانون!

ـ قانون كتبه لص ليطبق على الذين سرق أموالهم!

ـ إننى أقسمت اليمين على المحافظة على قوانين البلاد.. وواجبى أن أقبض على كل من يخالف هذا القانون!

ـ أليست معاهدة سنة ١٩٣٦ صدرت بقانون أقره البرلمان!؟

ـ نعم!

ـ إذن لماذا لم تقبض على السفير البريطانى الذى خالف كل مـادة فى هذه المعاهدة؟

ـ لم يتقدم أحد ببلاغ ضده!

ـ إذن اعتبر هذا المنشور بلاغا ضد السفير البريطانى!

ـ إننى سأقبض عليك!

ـ كيف تقبض على قبل أن تحقق بلاغى؟.. هـل سـمعت أن النيـابة قبضت على صاحب بلاغ قبل أن تحقق فيه؟!

ـ أنا لا أستطيع التحقيق مع السفير البريطانى لأن له حصانة دبلوماسية !

ـ إذن فالشعب المصرى وحده.. هو الذى ليس له حصانة !

ـ إنك تضيع وقت العدالة بهذه الفلسفة !

ـ العدالة التى تقبض على القتيل.. وتترك القاتل مطلق السراح !

وألقى وكيل النيابة سيجارته بعصبية على الأرض، وطلب من الضباط أن يقبضوا على هذا «المجرم» !

وأسرع رجال البوليس يضعون القيود فى يدى عم عبده، ويدفعونه أمامهم إلى خارج الغرفة..

ثم أملى وكيل النيابة محضرا على كاتب النيابة.. خلا من كل أجوبة عم عبده !

واكتفى بأن قال: «وقد اعترف المتهم بأنه هو كاتب وطابع وموزع هذا المنشور، ولذلك أمرنا بالقبض عليه، وأمرنا بالافراج عن الآنسة قسمت شاهين عبد اللطيف سكرتيرة مجلس إدارة جمعية المتسولين».

وطلب وكيل النيابة من الضابط أن يفرج عن قسمت التى كانت محجوزة فى غرفة كاتبة الجمعية تحت الحراسة المشددة.

* * *

ودخل الضابط الشاب إلى الغرفة التى كانت تجلس فيها قسمت تدخن سيجارة وقال لها:

ـ مبروك !

قالت : .

ـ هل انسحبت الجيوش البريطانية من مصر؟

ـ أمر وكيل النيابة بالافراج عنك!

ـ إن معنى هذا أن البلد أصبح فيه حرية رأى، إن هذا أسعد خبر سمعته فى حياتى! كنت أتمنى أن يجيء اليوم الذى يستطيع فيه أن يعبر كل مصرى عن رأيه بصراحة دون أن يوضع فى السجن إننى أريد أن أشكر وكيل النيابة الشجاع!

ـ لقد ثبت لوكيل النيابة أنك بريئة!

ـ لابد أن الحكومة سترفت وكيل النيابة هذا!

ـ ولماذا ترفته الحكومة؟

ـ لأنه أفرج عنى. لأنه لم يجد فى المنشور جريمة!

ـ إنه أفرج عنك لأننا ضبطنا المجرم!

ـ أنتم ضبطتموه!

ـ نعم.. بفضل تحرياتنا الدقيقة عرفنا المجرم الحقيقى.. راقبناه بدقة، تتبعنا خطواته، ضيقنا عليه الخناق حتى اعترف اعترافا كاملا بأنه هو الذى طبع المنشورات ووزعها وأخفاها فى مكتبك!

ـ ومن هو هذا المجرم؟

ـ عم عبده!

ـ عم عبده من؟

ـ عم عبده الشحاذ فى الملجأ.. ظهر أنه مجرم خطير جدا.. ثورى متنكر فى زى شحاذ.. وقد اتخذ الملجأ وكرا لنشاطه الخطير.. إننى أشك فى أن له علاقة وثيقة بالألمان!

ـ أنت تمزح!

ـ لا أمزح. إن هذه هى الحقيقة.. لقد اعترف بنفسه بأنه هو الذى كتب هذه المنشورات!

وانفتح الباب فجأة ودخلت أميرة عبد العاطى إلى الغرفة، وعانقت قسمت وقبلتها وهى تقول:

ـ مبروك.. مبروك. أنا كنت واثقة مائة فى المائة إنك بريئة! إنها جريمة عم عبده.. ذلك المتشرد الحقير الذى أويناه وأطعمناه وجازانا على هذا بأن أخفى المنشورات الخطيرة فى مكتبك! إنه رجل خائن!

ـ إن عم عبده ليس خائنا.. إنه وطنى.. إنه وطنى أكبر منى ومنك!

كيف تقولين هذا عن الرجل الذى كاد يخرب الجمعية؟ إن ما فعله بنا أشبه بمن وضع قنبلة فى بناء الجمعية لينسفها، وينسفنا كلنا فيها.

ـ إنه رجل نبيل!

ـ نبيل؟ إنك لا تتصورين ماذا كان سيحدث لنا جميعا لو لم يكشفوا أمره! كانت الحكومة ستغلق الجمعية بالضبة والمفتاح.. كان عشرات المتسولين الذين نؤويهم سيطردون ويشردون فى الشوارع ليموتوا جوعا.. كانت الحكومة ستنكل بآباء عضوات الجمعية وأزواجهن.

ـ إذن هو أنقذنا جميعا باعترافه! كان فى استطاعته أن يسكت!

ـ لم يكن يتسطيع أن يسكت ! ضابط الشرطة قال لى إنهم واجهوه بأدلة. حاصروه بالحقائق الثابتة، فاسقط فى يده واضطر أن يعترف ! لقد أكد لى ضابط الشرطة أنهم كانوه يتتبعون خطواته منذ وقت طويل. وأن لديهم معلومات مؤكدة عن أنه يتقاضى أموالا طائلة من الألمان ليقوم بعمليات تخريب.. وأنهم راقبوا المنشورات ولاحظوا أنها مكتوبة على آلة كاتبة معينة.. واتصلوا بشركات بيع الآلات الكاتبة فعرفوا أن حروف المنشورات مكتوبة على آلة باعتها الشركة لجمعية ملجأ المتسولين. وهكذا استطاعوا أن يضعوا يدهم على المجرم.. إننى معجبة كل الاعجاب بذكاء ضابط الشرطة.. إنه يشبه شخصية شرلوك هولمز التى نقرؤها فى الروايات !

ـ فعلا ! إنها تشبه قصة من قصص شرلوك هولمز !

ـ إن غلطتك يا قسمت أنك عفوت عن عم عبده عندما كان يهرب من الملجأ. لولا قلبك الطيب لما حدثت هذه الكارثة !

ـ إنها ليست غلطة.. إنه العمل الوحيد الصحيح الذى فعلته فى حياتى.

ـ عمل صحيح ! إنه عمل جنونى ! رجل لحم أكتافه من نقودنا، نؤويه فى بيتنا، نطعمه من طعامنا، ثم يغدر بنا ؟ إنه رجل لا وفاء له !

ـ إنه جعلنى أغير نظرتى إلى الرجال !

ـ جعلك تكرهينهم أكثر !

ـ كلا.. جعلنى أحبهم أكثر !

ـ أنت مجنونة !

ـ بل عاقلة جدا !

* * *

ودخل الغرفة المهندس عادل علاء الدين، وهو يتصبب عرقا، وما كادت تلمحه قسمت حتى اضطربت..

ومد عادل يده إليها وصافحها وهو يقول:

ـ لقد تصورت أننى سأجدك فى السجن!

ـ كيف عرفت؟

ـ اخبرتنى أميرة، فتركت عملى فى الشركة وأسرعت إليك.

ـ لم أكن أعرف أننى مهمة لهذه الدرجة!

ـ لعلك عرفت الآن!

ـ جئت لتقنعنى بأن الرجال نبلاء!

ـ لا أظن أن قوة فى الأرض تستطيع أن تقنعك بهذا الرأى!

ـ قد يدهشك أن رجلا أقنعنى أخيرا!

ـ أين هذا الرجل.. لأصنع له تمثالا؟

ـ فى السجن!

ـ من هو هذا الرجل؟

ـ عم عبده!

ـ عم عبده الشحاذ الفيلسوف!

ـ لا.. الشحاذ النبيل!

ـ وقاطعتها أميرة عبد العاطى قائلة:

ـ إن قسمت اليوم غير طبيعية.. يظهر أن صدمة القبض عليها أثرت فيها.. تصور يا عادل إنها تسمى المجرم الذى كاد يقضى علينا جميعا بحماقته رجلا نبيلا!

ونظر عادل فى دهشة إلى قسمت وقال:

ـ كيف تسمين مثل هذا الرجل رجلا نبيلا! لقد قرأت نص المنشور مع أحد الضباط الآن، وهو منشور ثورى، إنه أخطر من وضع قنابل فى السفارة البريطانية! إن هذا الرجل مجنون!

وهل أعجبك المنشور؟

ـ إنه يقول كل ما يتمنى كل مصرى قوله.. ولكنه لا يجرؤ أن يقوله!

ـ ولهذا تعتبر الشجاع الذى يقول ما لا تجرؤ أن تقول، مجنونا!

ـ هذا كلام يصح أن يصدر من الزعماء.. لا من شحاذ!

ـ وإذا سكت الزعماء، فهل نلوم الذين رفضوا السكوت؟

ـ لا ألومه.. وإنما هذا التصرف كان سيعرضك أنت للسجن!

ـ إن مصيبتنا أننا نخاف جميعا من السجن! إن الناس من خوف السجن فى سجن كبير!

ونادت السيدة نعمت شوقى، الكاتبة فى الجمعية، أميرة عبد العاطى لتوقيع بعض أوراق الجمعية، بصفتها أمينة الصندوق، وتركت عادل وقسمت وحدهما.

وقالت قسمت لعادل:

ـ أشكرك لأنك جئت..

ـ إنني حاولت عشرات المرات أن أتصل بك، فكنت تهربين مني!

ـ وسوف استمر في الهروب!

ـ إذن لماذا تشكرينني الآن؟

ـ لأنك لو كنت لم تجيء إلي.. كنت سأحضر أنا إليك بنفسي!

ـ لتقولي لي إنك ظلمتني!

ـ كلا.. أنا لم أظلمك، إنما ظلمت رجلا آخر!

ـ رجلا آخر؟ هل في حياتك رجل آخر سواي!

ـ نعم.

ـ من هو؟

ـ عم عبده!

ـ لقد قلت لي إن عمره سبعون سنة!

ـ لا.. خمس وسبعون!

ـ أنت تحبين رجلا في الخامسة والسبعين!

ـ أعبده؟

ـ تحبين شحاذا؟

ـ لا، أحب بطلا.. لقد كنت بطلي حتى صباح اليوم.. ثم أصبح عم عبده بطلي!

ـ لأنه كتب منشورا يهاجم الانجليز!

ـ إنه لم يكتب المنشور!

ـ من كتبه إذن!

ـ أنا..

ـ إذن هو الذى طبع المنشور!

ـ لم يطبع؟

ـ هو الذى كان يوزع لك المنشور؟!

ـ لا، لم يكن يوزعه.. لقد كنت أكتب عناوين المظاريف بنفسى على الآلة الكاتبة. وكنت ألقيها بنفسى فى صندوق البريد!

ـ إذن ما علاقته بالمنشورات؟

ـ ليس له علاقة بها مطلقا!

ـ لماذا اعترف أمام وكيل النيابة بأنه هو الذى كتب وطبع ووزع المنشور!

ـ لينقذنى.. وينقذ الجمعية.. وينقذ الملجأ!

ـ ألم يطلب منه أحد من الجمعية أن يقوم بهذه التضحية؟ ألم يعده أحد بمكافأة مالية إذا تحمل مسئولية المنشور؟

ـ إن كل «عضوات» الجمعية وكل الموظفات يعتقدن أنه هو كاتب المنشور!

كل واحدة منهن شتمته! كل واحدة منهن أهانته! كل من فى الملجأ قال

له : أنت خائن العيش والملح!

ـ انه بطل فعلا!

ـ ولهذا كنت أريد أن أقابلك.

ـ لماذا؟

ـ لأقول لك إننى أريد أن أتقدم للنيابة، وأقول إن عم عبده برىء وإننى أنا صاحبة هذه المنشورات!

ـ إن هذا الاعتراف لن ينقذ عم عبده.. كل ما سوف يحدث أنهم سيقبضون عليك أنت أيضا، ويهدمون الجمعية، ويشردون المتسولين المقيمين فيها!

ـ لا استطيع أن أرى بريئا فى السجن!

ـ برىء واحد فى السجن..خير من عشرات يموتون من الجوع!

ـ إن ضميرى يؤنبنى!

ـ سيؤنبك أكثر عندما ترين أنك هدمت هذا العمل العظيم الذى أمضيت أحلى حياتك فى تشييده!

ـ إذن ماذا أفعل!

ـ تقفين بجواره فى سجنه.. توكلين عنه محاميا.. ترسلين له طعاما كل يوم..

ـ هذا لا يكفى.. إننى أريد أن أذهب إليه فى السجن وأقبله!

ـ لا أعتقد أنهم سوف يسمحون لك بزيارته.. إنهم يسمحون فقط لأسرة المتهم.

ـ ولكنه بلا أب ولا أم.. ليس له أسرة ولا أولاد!

ـ سأبذل المستحيل لكى أحصل علي إذن لك ولى بزيارته!

ـ ولماذا تريد أن تزوره؟

ـ لأقبله أنا أيضا.

* * *

فتح الشاويش إبراهيم باب الزنزانة فى سجن، الاستئناف، وألقى نظرة على رجل مكور على الأرض وناداه:

ـ يا عم عبده!

وأفاق عم عبده من غفوته، فقال له الشاويش إبراهيم:

ـ قم.. زيارة!

ـ زيارة لى أنا!

ـ نعم زيارة لك.. أولادك جاءوا يزورونك!

ـ قال عم عبده فى ذهول

ـ ليس لى أولاد!

قال الشاويش إبراهيم ضاحكا

ـ لابد أن زوجتك وضعت أثناء وجودك فى السجن!

ــ ولكننى لم أتزوج أبدا :

وهزه الشاويش إبراهيم بيده وقال :

ــ قم ! المأمور قال : أولادك جاءوا للزيارة.. ومادام المأمور قال هــكذا فلابد أن يكون لك أولاد ! كلام المأمور لا ينزل الأرض أبدا !

وقام عم عبده مستسلما، ومشى خلف الشاويش إبــراهيم إلــى غــرفة المأمور. كان يمشى كالحالم، وقد سيطر عليه خمول نفسى غريب..

ودخل غرفة المأمور، ومعه الشاويش إبراهيم..

وسمع الشاويش يضرب قدميه فى الأرض ويقول :

ــ تمام يا أفندم ! المسجون عم عبده !

ورأى المأمور يهب على قدميه واقفا، ويمد يده إلى عم عبده ويقول :

ــ أهلا عبده بك !

وأفاق عم عبده من ذهوله، ودار بعينيه فى الغرفة ليبحث عن « عبده بك » الذى يحييه مأمور السجن، فرأى شابا طويل القامة.. انيق الملابس لم يره من قبل، واعتقد أن هذا الشاب المجهول هو عبده بك !

ثم التفت إلى جوار الشاب فرأى قسمت.. وتضاعفت دهشته !

ولم يمد يده إلى المأمور مصافحا !

ولكن المأمور ترك مقعده وصافح عم عبده، وشد على يده عدة مرات وهو يقول :

ــ كيف تخفى علينا أنك قريب سعادة عادل علاء الدين بك المدير العام

لشركة الهندسة الكهربائية؟

وتضاعف ذهول عم عبده.. وفجأة وجد قسمت تنقض عليه، وهى تعانقه وتقبله وتبكى وتقول:

ـ عمى.. عمى.. كيف حالك يا عمى؟

ثم انضم إليها عادل، وراح يهز يد عم عبده، ويضغط عليها ويقول له:

ـ كيف حالك يا عمى؟

ووقف عم عبده مبهوتا، ضاعت الكلمات من شفتيه لم يتوقع قط أن تجىء قسمت إلى زيارته، أن تحتضن الشبهات، بعد أن حمل على كتفيه مسئولية المنشورات،

وأراد أن يقول إنه لا يعرف هذه المرأة ولا هذا الرجل! ولكن المأمور لم يمهله حتى يقول شيئا، بل غادر الغرفة وهو يقول:

ـ سأترككم الآن مع عبده بك.. لتكونوا على حريتكم!

والتفت عم عبده إلى قسمت مؤنبا وقال لها:

ـ لماذا فعلت هذا؟

ـ قالت:

ـ أنا التى أريد أن أسالك لماذا فعلت كل هذا؟

ـ أنا لم أفعل شيئا!

ـ أنت ادعيت أنك كاتب المنشور وطابعه وموزعه.

ـ لأنه منشورى.. كل ما فيه يعبر عن رأيى!

ـ أنت اعترفت بانك كاتب المنشور قبل أن تعرف ما فيه '

ـ إنني رأيتهم يقبضون عليك '

ـ لماذا تضحى بحياتك من أجلى ؟

ـ أنا لم أضح بشيء.. كل ما حدث أنني انتقلت من سجن إلى سجن !

ولكنهم قد يحكمون عليك

ـ لا يستطيعون !

ـ لا يستطيعون.. إن المادة التى تطلب النيابة تطبيقها عليك تنص على السجن خمسا وعشرين سنة.

ـ ولكنى لن أبقى ف السجن ٢٥ سنة !

ـ ستهرب من السجن.. كما كنت تهرب من الملجا !

ـ لا.. إن الهروب من هنا صعب.

ـ ماذا ستفعل إذن ؟

ـ لن أبقى ف هذا السجن سوى بضعة شهور، ثم أرغمهم على الافــراج عنى !

ـ كيف سترغمهم !

ـ سأموت.. إن عمرى الآن خمس وسبعون سنة.. ولن أعيش إلا بضعة شهور !

ـ ولهذا حللت محلى !

ـ نعم ' لأنك شابة من الممكن أن يبقوك فى السجن ٢٥ سنة.. أما أنـا فإننى وحدى الذى استطيع أن أسخر من حكم المؤبد !

ـ إنك لن تموت يا عم عبده ' إننى أحبك.

ـ أنت تعرضين الآن حياتى للخطر '

ـ لماذا ؟

ـ لو سمعك الرجل الذى كان يحدثك فى التليفون، وجعل وجهك يضىء مثل ثريات الكهرباء.. لقتلنى

ـ إنه سمعنى !

ـ كيف سمعك !

ـ إنه عادل علاء الدين الذى يجلس بجوارك الآن !

ـ وتهلل وجه عم عبده.. أصبح فجأة فى الأربعين من عمره، مد يده إلى عادل وهو يقول :

ـ لقد كنت أتمنى أن أراك قبل أن أموت !

ـ وأنا أيضا تمنيت أن أراك عندما حدثتنى قسمت عنك وقررت أن أراك، سمعت منها بموقفك البطولى !

ـ أنا لست بطلا، أنا مجرد شحاذ !

ـ ليتنا جميعا شحاذون مثلك ! الشحاذ يتسول المال ! وأنـت تتسـول التضحيات !

ـ إننى فى دهشة من أن تسموا ما فعلته تضحية '

ـ إنها بطولة !

ـ البطلة الحقيقية هى قسمت ! المرأة الوحيدة التى تكلمت عندما صمت كل الرجال !

ـ لقد أعدت للرجال كرامتهم !

ـ ولكن ستبقى بطولة قسمت أكبر من بطولتنا ! إننى قرأت نص المنشور لأول مرة وأنا جالس فى مكتب النائب العام !.. وتمنيت أن أقول كل كلمة فيه.. وعندما قلت للنائب العام إن كل هذا الكلام كلامى لم أكذب عليه، كنت صادقا معه، وصادقا مع نفسى !

ـ إننا سنوكل عنك أكبر المحامين فى البلد. الاساتذة محمد على علوبة باشا، وتوفيق دوس باشا، ومكرم عبيد باشا، ومرقس فهمى بك.

ـ كم سيكلفكم هذا ؟ ! إن كل واحد من هؤلاء يتقاضى ألف جنيه فى المرافعة !

ـ أى مبلغ يدفع لك.. تافه بالنسبة إليك !

ـ ولكنى أفضل أن تتبرعوا بهذه المبالغ لملجأ الشحاذين بشرط واحد !

ـ ما هو هذا الشرط؟

ـ أن تهدموا السور الذى يحيط بالملجأ والذى يجعله أشبه بالسجن !

قالت قسمت وهى تجفف دموعها :

ـ أعدك يا عم عبده أننا سنهدم هذا السور غدا !

وتلفت عم عبده إلى سور سجن الاستئناف وتنهد وقال :

ـ ترى.. متى يهدم هذا السور أيضا !

الفصل السادس عشر

أصبح سجن الاستئناف كله يطلق على عم عبده اسم (عبده بك).. البكباشى يوسف البلحاوى مأمور السجن يقول له: صباح الخير يا عبده بك! الصاغ حمدى الجزماتى نائب المأمور يقول له: شرفتنا يا عبده بك: الحراس يقولون له: تسمح يا عبده بك تدخل الزنزانة؟..

المسجونون يوسعون له الطريق وينحنون له ويقولن: تفضل يا عبده بك!

لم يعد عم عبده يرى أمامه سوى التعظيمات والتحيات والانحناءات، كأنه مدير عام مصلحة السجون جاء يفتش على السجن، لا شحاذ مجرم مقدم إلى محكمة الجنايات بتهمة التحريض على كراهة الحليفة والتحريض على القيام بعمليات تخريب وتدمير أثناء الحرب!

وعبثا حاول اقناع من فى السجن أنه لا يحمل رتبة البكوية. وعبثا حاول إقناعهم أنه رجل بائس فقير صناعته الوحيدة أن يقف فى ميدان الأوبرا يمد يده ويتسول قرشا من المحسنين!

عندما قال هذا ليوسف بك البلحاوى مأمور السجن قال له:

ـ العفو يا عبده بك.. إننا جميعا نعرف مقامك العالى!

أما حمدى الجزماتى نائب المأمور فقد تلفت يمينا ويسارا ثم قبل يد المسجون عم عبده وهو يقول:

ـ كل ما أتمناه أن تذكرنى سعادتك عندما تدخل الوزارة القادمة !

وكان الحراس يدهشون من تواضع عم عبده ! إنهم يرون فى صباح كل يوم، وظهر كل يوم سيارة كريسلر فاخرة تقف امام باب السجن، وينزل منها سائق أنيق، يرتدى يونيفورم أزرق له زراير نحاسية، ويحمل سبتين كبيرين وعددا من الترامس، ويقول لحارس بوابة السجن :

ـ هذا طعام عبده بك !

ويحمل عدد من الحرس والمسجونين هذه الاطعمة، ويمشون فى طابور طويل إلى زنزانة عم عبده.

ويفتح عم عبده السبتين فى الصباح، فيجد فيهما هلالات من الكعك فى كيس مكتوب عليه اسم محلات (جروبى) وكيكا من محلات (لاباس) وانواعا مختلفة من المربى من محلات (لوك) وكميات مختلفة من جبن الروكفور والدوبل كريم والجرافييز من بقالة (سيمونس) غير ترموس فيه قهوة باللبن، وترموس فيه شاى وترموس ثالث فيه كاكاو، وترموس رابع فيه قهوة مصرية :

وفى الظهر يجد عم عبده فى السلتين أربعة أزواج فراخ، وأربعة أزواج حمام، وقطعة فخذ كبيرة، وفطيرا بالجبن، واصنافا مختلفة من الخضراوات، وجميع أنواع فاكهة الموسم، وتورته تختلف باختلاف الايام، اليوم تورته شوكلاته، غدا تورته مشمش بعد غد تورتة ألف راق :

ولم يكن عم عبده يذوق شيئا من كل هذا الطعام الفاخر، كان يوزعه على الضباط والحراس والمسجونين

ويصر على أن يجلس على الأرض يأكل فى (قروانة) السجن الفول المدشش المليء بالسوس الذى يقدمه السجن للمسجونين، وخبز (الجراية)

الذى لا يفترق فى لونه عن أسفلت السجن!

وكان المسجونون يتناقلون أن عبده بك هذا هو غاندى جديد! وأنه رجل واسع الثراء، وأنه يرفض أن يرتدى بدلة محترمة قبل أن يرتدى جميع المصريين ملابس لائقة! ويرفض أن يأكل الطعام الفاخر وملايين المصريين لا يجدون سوى الخبز والدريس!

وأصبح المسجونون يوقرون عم عبده، وينسبون إليه بطولات لم يقم بها، ومعجزات لم تحدث، واصلاحات لم تخطر بباله!

وكلما أنكر عم عبده الفضائل التى تنسب اليه زاد المسجونون إصرارا وإيمانا بهذه الكرامات والمعجزات!

ولم يعرف السر فى كل هذا! لم يعرف انه عندما ذهبت قسمت إلى السجن للمرة الثانية وقابلت المأمور يوسف البلحاوى وطلبت مقابلة عم عبده مرة أخرى، قال لها يوسف بك:

ـ إن عادل بك حدثنى فى التليفون وقال لى إنك ترغبين فى زيارة عم عبده كل يوم. وتعليمات المصلحة أن المسجون تحت التحقيق يقابل أسرته مرة فقط كل أسبوع.

ـ أعلم ذلك.. ولكن عادل قال لى إنك وعدت ان تفعل المستحيل!

ـ إننى فكرت فى الأمر.. ووجدت طريقة تستطيعين بها مقابلة عم عبده كل يوم!

انك تحضرين إلى السجن صباح كل يوم. ولا تطلبى مقابلة عم عبده كل ما تفعلينه أن تقولى للحارس الواقف على الباب اسمك، وتطلبى مقابلة المأمور.

ـ ولكنى أرغب فى مقابلة عم عبده!

ـ إن الله مع الصابرين.. إنك ستدخلين غرفتى كأنك زائرة من أفراد أسرتى. وستجدين عبده بك دائما فيها!

ـ كيف سأجده فى مكتبك وهو موجود فى الزنزانة رقم ٢١؟

ـ سأجعله النوبتجى الخاص بمكتبى.

ـ وما معنى كلمة (نوبتجى)؟

ـ إنه اسم المسجون الذى يتولى تنظيف مكتب المأمور!

ـ يعنى خادم؟

ـ إنه ليس خادما! سيكون اسمه (نوبتجى) فقط.. ولكنى لن اكلفه إلا بعمل سكرتير، يوضب الأوراق التى على المكتب. إن وظيفة نوبتجى مأمور السجن هى أهم وظيفة فى السجن بعد وظيفة المأمور

ـ أهم من وظيفة نائب المأمور؟

ـ أهم بكثير إن نائب المأمور يتلقى أوامره عادة من نوبتجى مدير السجن

ـ لا أعرف كيف أشكرك!

ـ إن هذا أقل ما أفعله نحو رجل وطنى مثل عبده بك!

ـ إننى أحيى فيك شهامتك وجرأتك!

ـ إن هذه المسألة يجب أن تبقى سرية بينى وبينك. لو عرفت بها المصلحة أو الوزارة فسوف يضعوننى فى زنزانة واحدة مع عبده بك!

ـ إن مصر تفخر بالرجال الشجعان أمثالك!

ـ وزيادة في الحيطة لا داعي لأن تذكري اسمك لحارس بوابة السجن.. يحسن الاكتفاء بأول حرف من اسمك

ـ (كاف)!

ـ اليس (قسمت) هو اسمك؟

ـ نعم..

ـ إذن أذكري أول حرف من اسمك

ـ أول حرف هو (كاف)!

وضحكت قسمت! واكتشف المأمور ان قسمت لا تعرف أن تنطق حرف (القاف)

وابتسم المأمور وقال:

ـ يكفي أن تقولي الآنسة قاف!

ـ سيصبح اسمي من الآن وصاعدا (الآنسة كاف)!

ـ إذن احضري غدا.. لأنني يجب أن أعد الترتيبات اللازمة لأجعل المسألة طبيعية.

* * *

وخرجت قسمت دون أن تقابل عم عبده..

واستدعى البكباشي يوسف البلحاوي مأمور السجن نائبه الصاغ حمدي الجزماتي وطلب منه أن يغلق باب المكتب..

وأغلق نائب المأمور باب المكتب..

وقال المأمور هامسا!

ـ يظهر أن الجهات العليا مهتمة بالتوصية على عبده بك!

ـ مدير المصلحة؟

ـ فوق!

ـ وكيل وزارة الداخلية؟

ـ فوق!

ـ وزير الداخلية؟

ـ فوق وفوق!

ـ يا نهار أسود! رئيس الوزارة؟

ـ فوق كمان

ـ لا يوجد فوق رئيس الوزارة الا الملك.

ـ أنا لست في حل من أن أقول لك أى شيء!

ـ فهمت! فهمت!.

ـ وماذا نعمل؟

ـ نضعه فوق رأسنا! نفتح له باب السجن ليخرج!

ـ نضعه لا.. لا.. يا حمدى.. أنا مأمور السجن.. وواجبى أن أحافظ على التعليمات والأوامر بكل دقة مسجون يعني مسجون!

ـ إن عبده بك ليس مسجونا عاديا! إنه هو الذى يفطرنا ويغدينا كل يوم!

ـ أنا أرى الاكتفاء بأن أعينه نوبتجي لمكتبي!

ـ نوبتجي فقط؟.. أنا مستعد أن أجلسه على مكتبي.. وأصبح أنا النوبتجي!

ـ لا.. لا ياحمدى.. واجبنا قبل كل شىء أن نراعى النظام والضبط والربط!

ـ أعتقد أن عبده بك لن يقبل وظيفة النوبتجى!

ـ إنه لن يقوم بوظيفة النوبتجى.. إنما هى طريقة ليبقى فى مكتبى باستمرار، بدل ان يكون داخل الزنزانة! كل ما هو مطلوب منك أن تكتب ورقة تقترح فيها تعيين المسجون عم عبده نوبتجيا لمكتب المأمور.. وأنا أوافق عليه!

ـ أنا لو كتبت هذا القرار، فلن اكتب فيه (عم عبده)، سأكتب (عبده بك)!

ـ الأوراق يجب ان تحترم فيها الرسميات..

وأمسك الصاغ حمدى الجزماتى بورقة وراح يكتب بصوت عال:

(سعادة مأمور سجن الاستئناف نظرا لما لاحظناه من كثرة البرقات فى المكاتب، وما تبين لنا من أن نوبتجية مكتب سعادتكم يسرقون أطعمة المسجونين، فأنا أقترح تعيين عم عبده نوبتجيا لمكتب سعادتكم، لما عهدناه فيه من الشرف والامانة، والصدق والعفة، والذمة والأخلاص واحترام اللوائح، والمحافظة بكل دقة على التعليمات.

وتفضلوا سعادتكم بقبول فائق الاحترام:

وامسك المأمور الورقة وكتب (موافق) ووقعها بامضائه.

وقال نائب المأمور:

ـ دعنى أبلغ القرار لعم عبده بنفسى!

* * *

وصعد الصاغ حمدى الجزماتى إلى الزنزالنة رقم ٢١، فوجد عم عبده جالسا على الأرض وأمامه (قروانة الفول المدمس)..

وصرخ الصاغ الجزماتى بصوت كالرعد :

ـ يا شاويش إبراهيم!

واسرع الشاويش إبراهيم وادى التحية العسكرية!

وصرخ فيه الصاغ الجزماتى :

ـ ألم أصدر لك امرا فى اليوم الأول لدخول عبده بك إلى السجن أن تجىء له بكرسى ومائدة؟

وسكت الشاويش إبراهيم! إن كل ما يذكره أن الصاغ الجزماتى قال له فى ذلك اليوم (ضع ابن الكلب ده فى أى داهية)!

وأنه طلب من الضابط أن يصرف له بطانية بسبب البرد القارس، ولأن نوافذ الزنزانة بغير شبابيك.. وأن الصاغ الجزماتى قال له خسارة فيه بطانية! وان الشاويش إبراهيم هو الذى بحث عن بطانية قديمة ممزقة وأعطاها لعم عبده.. الذى أصبح بعد ذلك عبده بك!

وعاد الصاغ الجزماتى يصيح قل تكلم! لماذا سكت؟ هل حصل أننى أمرتك باعطاء عبده بك مقعدا ومائدة وسريرا أم لا؟

واضطر الشاويش إبراهيم ان يحنى رأسه ويقول:

ـ حصل يا سعادة البيه!

ـ انت شاويش مهمل! سوف اصفح عنك هذه المرة، ولكن فى المرة القادمة ساحرر لك محضرا!

ورفع الشاويش إبراهيم يده وقال

ـ ربنا يخليك يا سعادة البك!

وعاد الصاغ الجزماتي يصرخ.

ـ مالك واقف كالصنم؟ اسرع واحضر كرسيا!

واسرع الشاويش إبراهيم، وعاد يحمل كرسيا وضعه فى الزنزانة وطلب الصاغ الجزماتى من الشاويش الانصراف.. واغلق باب الزنزانة ثم قال لعم عبده:

ـ اتفضل اجلس على الكرسى يا عبده بك!

ـ تفضل أنت واجلس!

ـ مستحيل يا عبده بك أن أجلس على كرسى.. وانت تجلس على الأرض! العين لا تعلو على الحاجب!

ـ اننى طول حياتى لا أجلس إلا على الأرض!

ـ العفو يا عبده بك!

ـ إننى أمضيت عمرى جالسا فوق البلاط.

ـ البلاط الملكى؟

ـ لا.. البلاط الحقيقى.. الأسفلت.. التراب! إنها أول مرة فى حياتى انام فى غرفة وحدى!

ـ كنت تنام مع صاحبة العصمة حرمكم المصون طبعا!

ـ أنا لم أتزوج!

وابتسم الصاغ الجزماتي ابتسامة ذات معنى ! لابد أن عبده بك كان ينام وحوله المحظيات والغواني والجواري وأراد أن يعبر عن ملاحظته هذه، فلم يجرؤ، ولم يلبث أن تأدب وتحشم وعاد يقول :

ـ إذا لم تجلس على الكرسي.. فسوف اضطر إلى الجلوس على الارض بجوارك، وهذا ممنوع لأنني أرتدى ملابسي الرسمية !

ـ يمكنك أن تخلع ملابسك وتجلس على الأرض !

ـ إنني معجب جدا بسخريتك !

ـ لعلك تعرف برنارد شو !

ـ كلا.. ربما يكون دخل السجن قبل أن أحضر إلى هنا، ماذا كانت جريمته ؟

ـ جريمته أنه لم يصف سجنا مصريا !

ـ الذى اعرفه ان الأجانب لا يسجنون هنا، وانما يسجنون فى سجن الأجانب !

وسكت عم عبده، وراح يتأمل هذا الرجل الجاهل، الذى يتصور أن الكاتب العبقرى برنارد شو هو أحد مسجونى سجن الاستئناف !

وقال الصاغ الجزماتي :

ـ إننى اقترحت تعيينك فى منصب نوبتجى المأمور. إنه منصب شرفى لن تعمل أى شيء، ولكن ميزته انك تجلس كما تشاء فى حوش السجن وتتنقل كما تشاء !

ـ إننى مستعد أن أكنس وأمسح مكتب المأمور.

ـ إنك تقتلنا بتواضعك.. لو كان الأمر بيدى وحدى لأجلستك مكان المأمور!

ـ إذن، ماذا أفعل؟

ـ كل ما هو مطلوب منك أن تشرفنا بطلعتك البهية!

ـ انك أول من وصف طلعتى بأنها (بهية).. أول فتاة أحببتها كان اسمها بهية.

ـ بهية أمير لا شك.. الممثلة المشهورة!

ـ لا.. بهية مصقعة، الشحاذة فى سيدنا الحسين!

ـ إن دمك خفيف يا عبده بك!

ـ انا لا أمزح! كان اسمها بهية (مصقعة).. وقد أطلقوا عليها هذا اللقب لأنها كانت لذيذة وباردة جدا ولم تكن الفريجيدير موجودة فى أيامنا وإلا لاطلقوا عليها بهية فريجيدير!

ـ اننى كنت اتمنى لو كنت (نوبتجى) فى مكتبى.. لو حدث هذا فإننا لن نكف عن الضحك طوال اليوم.. ولكن حظى سيئ!

ثم تلفت الصاغ الجزماتى حوله كأنه يبحث عن شىء.. ثم قال:

ـ ليس عندك مرآة فى غرفتك، يجب أن نحضر لك مرآة!

ـ أنا لا أنظر فى المرآة!

ـ مسجون مهم مثلك يجب أن يكون فى غرفته مرآة، ويجب أن يكون لديه حوض لغسيل الوجه.. أن المسئولين عندما بنوا هذا السجن لم يخطر

ببالهم أنه سيدخله شخصيات كبيرة مثل عبده بك!

* * *

كانت قسمت تذهب بسيارتها (البكار) كل صباح إلى سجن الاستئناف. ولا تكاد تطرق باب السجن، وتقول لحارس البوابة إنها (الآنسة كاف) حتى يسرع الحارس ويفتح الباب على مصراعيه!

وكان الحارس يقول لها إن فتح باب السجن على مصراعيه هو شرف عظيم، وإن تعليمات مصلحة السجون ألا يفتح باب السجن على مصراعيه ألا لسعادة البك مأمور السجن، وللبغل الذى يجر عربة الزبالة!

وكانت قسمت تضحك لهذا التشريف الغريب! وكانت تدس فى يد الحارس عشرة قورش عند دخولها فيهرول أمامها يوسع لها الطريق إلى مكتب المأمور.

وكانت تجد عم عبده دائما فى انتظارها، بابتسامته الساخرة..

وذات يوم قالت له: إن عندى لك بشرى يا عم عبده.

- ستتزوجين عادل!

- لا.. إن المحامين الذين درسوا قضيتك يؤكدون أنه سيحكم لك بالبراءة!

- هذه ليست بشرى.. هذه كارثة!

- كارثة أن تخرج من السجن

- نعم كارثة كبرى!

ـ ولكنك تؤمن بالحرية !

ـ أنا سأخرج من سجن صغير إلى سجن كبير!

ـ ولكنه خير من هنا !

ـ إنه أسوأ من هنا.. أنا في السجن ملك، وخارج السجن شحاذ ! هنا الجنود يقفون لتحيتي وهناك يعدون خلفي ليضربوني ! هنا ينادينى الضابط يا عبده بك وهناك سينادونني : يا كلب يا متشرد ! يا صعلوك ! هنا أحسن على الناس، ! وهناك اتسول الاحسان من الناس ! هنا استطيع أن أطعم الفقراء المحتاجين، وهناك لا اكاد استطيع أن اطعم نفسى! هنا امد يدى للساقطين على الأرض ليقفوا على أقدامهم، وهناك أمد يدى لأتسول!

ـ ولكنك كنت تضيق بسور الملجأ.. حتى إننا هدمناه من أجلك!

ـ ولكن في الملجأ لا اساعد أحدا بل أتلقى المساعدة!

ـ إن المحامين قالوا لنا أن رئيس دائرة محكمة الجنايات هو عبدالوهاب فهمي بك، وهو رجل شجاع لا يخاف من الانجليز، ولا يقبل أن يتلقى الأوامر من الحكومة

ـ سوف أطلب تأجيل القضية، لتجيء أمام قاض ظالم!

إن المسجونين هنا يتصورون أنني شخصية هامة ! يتصورون أنني إذا خرجت من هنا فسأفتح لهم أبواب السجن ! تصوري ماذا سيحدث لهم لو خرجت من السجن، وبقوا هم في السجن ! سيموتون من اليأس والقنوط ما دمت أنا معهم، فالأمل يعيش معهم، وإذا خرجت من السجن خرج الأمل معى ! ولهذا سأبقى هنا !

ـ ممكن أن تساعدهم وأنت خارج السجن! ممكن أن تتسول لهم العدالة!

ـ عندما نتسول العدالة تتحول إلى ظلم!

ـ إننى أتعذب وأنا أراك فى السجن

ـ فى السجن ألوف مثلى، فإما أن نبقى معا، وإما أن نخرج كلنا معا!

ـ إنك متفائل أكثر من اللازم! فى كل يوم يطلب الانجليز القبض على عدد من المصريين.

إنهم فتحوا معتقلا جديدا فى الزيتون.. فتحوا معتقلا جديدا فى المنيا!

ـ إذن لماذا الاستعجال. ربما خرجت من السجن ودخلت المعتقل، كل ما سوف أربحه من البراءة، أن يتغير رقم زنزانتى!

ـ يمكنك أن تعيش خارج السجن فى هدوء.. ولا تقول شيئا يؤدى إلى القبض عليك من جديد!

ـ كأنك تطلبين منى أن أكون أنا السجان.. بدلا من الحكومة! أشرف لى أن تضعنى الحكومة فى زنزانة، على أن أبنى زنزانتى بنفسى واضع القيود فى يدى!

ـ غريب أن تقول هذا الكلام وأنت رجل مؤمن بالحرية.

ـ لأننى مؤمن بالحرية أقول هذا الكلام..

ـ إذا لم تترفق بنفسك فترفق بى إننى أشعر أننى مسئولة عن وجودك فى هذا السجن!

ـ أنت لست مسئولة، أنت ضحية مثلى !

ـ إننى أريد أن أفعل لك شيئا أى شىء !

ـ فى استطاعتك أن تفعلى لى شيئا يسعدنى.

ـ إننى على استعداد أن أفعل أى شىء تطلبه منى !

ـ حافظى على عادل.. إننى أشعر أنه يحبك !

ـ وأنا أحبه أيضا.

ـ أعلم ذلك.. ولكننى شعرت بأنه رجل ! الرجال قليلون جدا فى هذه الأيام !

ـ كيف عرفت أنه رجل؟

ـ عندما رأيته يجىء إلى فى السجن معك. لم يخف على مصالحه مع الانجليز. لم يخش أن تبطش الحكومة به نسى أنه صاحب شركة لها أعمال مع الانجليز والحكومة، وأنا رجل متهم بمهاجمة الانجليز والحكومة.. لا يتردد أن يرسل سيارته لى مرتين كل يوم لتحمل لى الطعام ! يدعى أنه قريبى بينما أنا لا أعرفه ولم أر وجهه فى يوم من الأيام.. هذه صفات الرجل !

ـ ربما يكون قد فعل ذلك من أجلى.

ـ هذا يزيدنى إيمانا بأنه خير رجل لك !

ـ ألا يفعل الرجال جميعا هذا، إنك فعلت لى أكثر مما فعل لك !

ـ أنا لم أكن أملك شيئا أضحى به ° وهو يملك كل شىء ولم يتردد فى التضحية به !

ـ هل تكفى هذه الصفات فى الرجل ليسعد المرأة؟

ـ نعم.. تكفى!

ـ وإذا رأته مع امرأة أخرى؟

ـ تضرب المرأة الأخرى!

ـ وتبقى معه بعد بذلك؟

ـ نعم.. وإلا فهى تفسح الطريق للمرأة الأخرى!

ـ لعلك تريد منها أن تطرد المرأة الأخرى.. وتركع أمام حبيبها الخائن!

ـ لا تركع.. وإنما تعطيه أحلى مما أعطته المرأة الأخرى!

ـ ولا تعاقبه بأن تهجره حتى يتأدب!

ـ إن عقاب الصفح بين المحبين هو أقسى أنواع العقاب!

ـ إنك عدو لدود للمرأة يا عم عبده!

ـ إننى أعبد المرأة.. ولأننى أعبدها أمنحها صفات الآلهة.. وأولى صفات الآلهة القدرة على الغفران!

ـ لقد تصورت أنك تحبنى.. وإذا بى اكتشف أنك تحب عادل!

ـ إننى أحبه لأنه يحبك!

ـ إذا كنت تحبنى كنت تطلب منى أن أصفح عن رجل خاننى مع امرأة أخرى.

ـ هل رأيته يخونك؟

رأيتها هى ! رأيتها فى غرفته !

ـ هل كان معها فى الغرفة ؟

ـ لا.. كانت وحدها.. وقد هرب عندما رآنى.

ـ رأيته يهرب

ـ لا.. ولكننى استنتجت هذا !

ـ الحب الكبير لا يؤمن بالاستنتاجات.. يؤمن بالحقائق فقط ! إنك تفعلين بعادل ما فعله البوليس بى ! أنا هنا بسبب الاستنتاجات !

ـ أتريد أن تقول إننى كنت مغفلة كضابط البوليس الذى استنتج أنك تعمل لحساب الألمان ؟

ـ أنا لم أقل هذا. أنت التى قلته الآن !

ـ إنك محام قدير يا عم عبده ! لست فى حاجة إلى كبار المحامين للدفاع عنك لتحصل على البراءة !

* * *

خرجت قسمت من سجن الاستئناف.. وذهبت بلا موعد إلى عادل فى مكتبه بشركة الهندسة الكهربائية.

ـ قررت أن تروى له الحوار الذى دار بينها وبين عم عبده وتقول له إنها قررت أن تعود إليه !

إنها طوال هذه الأيام الماضية لم تترك له فرصة ليتحدث عن علاقتهما معا، كانت تحرص دائما على أن تحصر الحديث فى عم عبده وسجن عم عبده !

ولكنها اليوم تشعر بالرغبة فى أن تذهب إليه وتقول له :

ـ إننى أريدك !..

لقد أحست بأنها تريد عادل فى هذا اليوم أكثر من أى يوم مضى.. أحست بأنها تغفر له كل شيء عندما سمعت عم عبده يقول لها فى ختام الزيارة :

ـ انظرى إلى هذه الأسوار الشاهقة إنها تسقط ظلالها على خارج السجن. تسقط على قلوب أهل المسجون وأصدقائه. تفتت القرابات، تحطم الصداقات، كأن هذه الأسوار تقوم على قلوب الناس. الزوجات يطلقن أزواجهن المسجونين. العشيقات يتخلين عن عشاقهن. الأخوة ينكرون أشقاءهم.. الأصدقاء ينسون أعز أصدقائهم.. هنا تظهر معادن الناس الحقيقية. لأن هنا النار التى تظهر كل معدن على حقيقته. هنا المقبرة الى تدفن فيها أحلى العلاقات وأنبل المشاعر. فإذاً جاء رجل مثل عادل وصمد لكل هذه النيران، وأنشأ صداقة مع مسجون مثلى، منبوذ، لعنته الدولة وأعلن الاحتلال الحرب عليه، فهذا يدل على أنه رجل يختلف عن باقى الناس. رجل كامل بين ناقصين، رجل جميل بين مشوهين، مثل هذا الرجل تغفر له كل خطيئة، ويصفح عن كل ذنب. إننى أحسست وأنا أراه جالسا بجوارك فى مكتب المأمور بأنه يحبك.. يحبك كرجل ! إن عينى لا تخطئ أبدا ! إننى أستطيع أن أفرق بين الماس الحقيقى وبين الزجاج !

أطربها عم عبده وهو يصف لها عادل ! كانت كلماته أشبه ببساط سحرى يحملها إلى ذراعى الرجل الذى عبدته وهربت منه !

ودخلت شركة الهندسة الكهربائية وسألت عن مكتب المدير العام، فأدخلها الساعى إلى غرفة قال إنها غرفة الآنسة ماتيلد سكرتيرة عادل.

وأحست بكراهية غريبة للسكرتيرة. وجدتها فتاة شقراء، طويلة القـــامة، ذات جمال رائع، وأنف دقيق، وعينين واسعتين نجــلاوين.. لــونهما أزرق رمادى، شفتاها مغريتان شهيتان. كانت تمشى وكأنها ترقص.. لعلها لا تزال مخدرة من قبلة المدير العام!

رأت قسمت فى هذه المرأة شرا فاتنا، يأسر ويخيف، كأن الشيطان يتنكر فى ثوب ملكة جمال!

وطلبت قسمت مقابلة المدير العام..

وردت السكرتيرة بغطرسة، وقالت إن المدير مشــغول، ولا يســتطيع أن يستقبل أحدا بغير موعد سابق.. وأنها تستطيع أن تحدد لها مــوعدا بعــد أسبوع.

وأحست قسمت برغبة فى أن تتغطرش على السكرتيرة فقالت لها فى لهجة آمرة:

ـ اذهبى وقولى له «الآنسة كاف. تريدك فورا»!

ونظرت إليها السكرتيرة بدهشة! ما هذه المرأة ذات النظارة الســوداء الدميمة، رثة الثياب؟ إنها تعرف ذوق مديرها! تستطيع بنظرة واحــدة أن تعرف المرأة التى يريد أن يقابلها المدير فورا، والمرأة التى يقابلها علــى مضض بعد عام!

وقالت السكرتيرة ساخرة:

ـ آنسة كاف! إننى أعرف كل صديقات المــدير، وليس بينهــن اســم الآنسة كاف!

واشتد غيظ قسمت. واغتاظت من عادل أكثر مما اغتاظت من سكرتيرته الحسناء. إنه لم يقل لها أبدا أن امرأة فاتنة تعمل فى مكتبه. لعل هذا هو سر عشقه لعمله، لعل هذا هو سر بقائه الساعات الطويلة فى مكتبه بالليل والنهار، بلا أجازات وبلا عطلة أسبوعية!

ولم تتحرك السكرتيرة من مكتبها ومضت تدق بأصبعها على الآلة الكاتبة التى أمامها، وهى تنظر إلى قسمت نظرات استخفاف واستهزاء!

وقررت قسمت أن تعاقب عادل على جريمة استخدام سكرتيرة حسناء! وقررت أن يكون عقابها له أن تخفى عنه الحوار الجميل الذى دار بشأنه بينها وبين عم عبده فى سجن الاستئناف. لا يمكن أن تستسلم لهذا الرجل! لن تطيع نصيحة عم عبده! لن تنشئ علاقة مع رجل إذا دخلت شقته وجدت الأميرة فضيلة فى غرفته، وإذا دخلت مكتبه وجدت السكرتيرة الحسناء فى مكتبه!

وأفاقت من خواطرها عندما رأت باب مكتب المدير يفتح، ويخرج عادل مندفعا، ويتجه إلى مكتب السكرتيرة، ويناولها ورقة وهو يقول:

– اكتبى ثلاث صور من هذه البرقية.. فورا!

ولم تتحرك قسمت من مكانها فى نهاية الغرفة. واستدار عادل ليعود إلى مكتبه، ورآها أمامه، فتقدم نحوها وهو يقول:

– أهلا.. أهلا! إنها مفاجأة سعيدة حقا! لا أعرف كيف أشكرك لأنك جئت!

واحتفظت قسمت ببرودها وقالت:

– إننى جئت من أجل عم عبده.

وأمسكها بيده وقال:

ـ إذن عم عبده هو الذى يستحق الشكر!

ومضى بها إلى غرفة جانبية وهو يقول:

ـ هذه الغرفة خالية. أما غرفة مكتبى فهى مزدحمة بالمهندسين.

وجلست قسمت فى مقعد، وحرصت على أن تختار مقعدا بعيدا عن المقعد الذى جلس فيه. تركت بينها وبينه مقعدين. وكأنها تضع فيهما بخيالها الأميرة فضيلة والسكرتيرة ماتيلد!

وقال عادل:

ـ كيف حال عم عبده؟

ـ إنه لا يريد أن يخرج من السجن.

ـ هذا أول رجل يرفض الخروج من السجن!

ـ يقول أنه يعيش هناك كملك.

ـ الحمد لله أنه مستريح هناك.

ـ إننى آمنت أن مصر بخير.. إن فيها أبطالا فعلا.

ـ نعم، عم عبده بطل حقيقى.

ـ وليس وحده.. إن مأمور السجن بطل أيضا!

ـ مأمور السجن؟!

ـ فعل المعجزات، خالف كل التعليمات. داس على اللوائح، هزأ بكل

القوانين من أجل عم عبده.

ـ أنا مسرور أنه نفذ تعهداته لى!

ـ إنك كنت تقول لى إن الحرب تقضى على الرجال وتقهرهم الاحكام العرفية تفسد أخلاقهم، وتحولهم إلى أنصاف رجال! هذا الرجل، مأمور السجن، رجل لم تفسده الحرب ولم تحطمه الأحكام العرفية، رجل وطنى جرىء، لا يهاب أحدا. رجل شريف، نزيه، يخالف كل القوانين من أجل رجل خالف القوانين!

ـ هل قال لك المأمور هذا؟

ـ كلا.. لم يقل لى شيئا.. ولكننى استنتجت هذا من تصرفاته.

ـ إنك مدهشة فى قدرتك على الاستنتاج!

ـ أحمد الله أنك اعترفت بنفسك بهذه الحقيقة! إننى فعلا استنتجت أنك كنت مع الأميرة فضيلة فى الغرفة عندما جئت لك فى الموعد الذى حددته للقائنا.. ثم هربت أنت من الباب الخلفى حتى لا أراك وأنا اليوم استنتجت من نظرة واحدة أن السكرتيرة ماتيلد هى إحدى عشيقاتك!

ـ ان استنتاجاتك ليست دائما صحيحة!

ـ مثلا؟

مثلا.. استنتاجاتك المدهشة عن نزاهة يوسف بك البلحاوى مأمور سجن الاستئناف!

ـ هل تشك فى نزاهته؟

ـ الفرق بينى وبينك أنك تشكين. أما أنا فمتأكد!

ـ متأكد من أنه ليس بطلا!

ـ متأكد من أنه يفعل كل هذا لأننى عينت شقيقه الـذى لا يحمـل أى شهادة دراسية موظفا عندى فى شركة الهندسة الـكهربائية بمـرتب قـدره ثلاثون جنيها فى الشهر. وبهذا وفرت على المأمور العشرة الجنيهات التـى كان يدفعها شهريا لأخيه العاطل عن العمل.

ـ قد أصبح عم عبده، عبده بك؟

ـ نعم..

ـ ولو كنت عينت شقيق المأمور بمرتب أربعين جنيها؟

ـ كان عبده بك.. سيصبح عبده باشا!

ـ هذه رشوة!

ـ إنها لغة العصر!

ـ ألم يكن فى إمكانك إقناعه إلا بهذه اللغة؟

ـ فى عهد الظلام، العملة الوحيدة التى يتعامل بها الناس هـى العملة التى لها بريق!

الفصل السابع عشر

استيقظت الدولة صباح أحد أيام صيف ١٩٤٢ لتكتشف أن ملايين الجنيهات الذهبية التى أودعتها فى البنك الأهلى فى القاهرة قد اختفت.. فكيف اختفت؟

رئيس الوزراء لا يعرف.. وزير المالية لا يعرف.. وكيل المالية المسئول عن احتياطى الدولة لا يعرف..

موظفو البنك الأهلى لا يعرفون.. كل الذى عرفوه أن المسئول عن خزائن البنك، فتح الخزائن فى الصباح فلم يجد مليما فيها من عشرات ملايين الجنيهات الذهبية التى أودعتها الحكومة!

وتسربت أنباء اختفاء الذهب المصرى، واضطربت الدولة. هل جاءت عصابة مسلحة فى الليل واقتحمت البنك الأهلى، واستولت على خزائنه، إن الحراس الواقفين حول البنك الأهلى لم يبلغوا عن شىء من هذا!

وعرفت الدولة بعد ذلك الفضيحة! السفير البريطانى فى القاهرة أصدر أمرا إلى محافظ البنك الأهلى المصرى، وهو انجليزى، بتسليم كل ما فى البنك الأهلى المصرى من ذهب وعملات وودائع إلى الجيش البريطانى!

وفى ظلام الليل وقفت سيارات الجيش البريطانى فى الحارة المجاورة للبنك الأهلى. ودخل الجنود الانجليز وحملوا كل صناديق الذهب والودائع،

ووضعوها فى السيارات، وتحركت السيارات إلى قشلاق قصرالنيل حيث كان يقف قطار بضاعة عسكرى. ووضعت الصناديق فى عربات القطار، الذى تحرك إلى محطة مصر، ثم إلى محطة الجيزة.. فى طريقه إلى الخرطوم!

كل ذلك حدث بغير أن تعلم حكومة مصر ما حدث!

وأسرع وزير المالية إلى السفير البريطانى..

وقال السفير البريطانى إن هذا إجراء احتياطى اتخذته الحكومة البريطانية، خشية أن يدخل الالمان مدينة القاهرة، ويقع الذهب فى يد الالمان!

وتم الاتفاق على تغطية الفضيحة بأن تكتب الحكومة المصرية خطابا توافق فيه على نقل الذهب يؤرخ فى يوم سابق على وصوله إلى الخرطوم! فقد خشيت الحكومة أن تثير المعارضة هذه الفضيحة التى لم يسبق لها مثيل، فى البرلمان!

* * *

سمع عادل هذه القصة فلم يصدق أذنيه. وانتهز فرصة زيارته للكولونيل سمسون نائب رئيس سلاح المهندسين فى الجيش البريطانى ليحدثه فى شأن مشروع توصيلات كهربائية لمعسكر الجيش البريطانى فى الهرم، وهو المشروع الذى رسا عطاؤه على شركة الهندسة الكهربائية انتهز هذه الفرصة ليسأل عن واقعة سرقة الذهب

وكان الكولونيل سمسون قصير القامة، ضخم الجثة، كبير الرأس منتفخ الوجه، يتدلى بطنه، فيهتز إذا ضحك، ويتمايل إذا غضب وكان عادل يعرفه منذ كانا طالبين فى كلية الهندسة فى جامعة برمنجهام بانجلترا، وتجددت هذه

الصداقة عندما وصل سمسون إلى القاهرة أثناء الحرب وتولى منصب نائب رئيس سلاح المهندسين فى الجيش البريطانى.

وكان سمسون رجلا صريحا، فإذا شرب كأسا من الويسكى قال كل شىء قال كل شىء حتى الاسرار العسكرية!

وكان صديقا حميما لمستر سمارت السكرتير الشرقى فى السفارة البريطانية بالقاهرة، وبحكم هذه العلاقة الوثيقة كان يعلم كل ما يدور وراء الستار.

ودهش عادل عندما دخل إلى مكتب سمسون فوجده مخمورا. لم يكن من عادته أن يبدأ فى الشرب إلا فى المساء!

وقام سمسون وهو يترنح يحيى عادل ويقول له :

– اننى قابلتك اليوم.. لا لاتفق معك بشأن مشروع معسكر الهرم.. وإنما لابلغك أننا قررنا الغاء الاتفاق!

– انت اتصلت بى أمس وقلت أنكم فى عجلة لتنفيذ المشروع.

– تغير الموقف بين أمس واليوم

– ماذا حدث!

– روميل سيدخل الاسكندرية بين يوم وآخر!

– ألا تنوون الدفاع عن الاسكندرية؟!

– ولا عن مصر كلها!

– إن معنى ذلك نهاية الحرب!

ـ لا.. معناه بداية الحرب!

ـ كيف ذلك؟

ـ سنحارب من السودان ومن فلسطين!

ـ هل ابلغتم الحكومة المصرية ذلك!

ـ لم نبلغها.. سنأخذها معنا!

ـ ولكن معلوماتى تفيد أن الحكومة المصرية لم توافق على الانتقال إلى الخرطوم!

ـ سنأخذها.. كما أخذنا ذهب البنك الأهلى!

ـ إنك تمزح ولا شك!

ـ إننى لا أمزح! لقد قررنا أن نخطف الملك ومجلس الوزراء. نقبض عليهم ونضعهم فى قطار بضاعة ونشحنهم إلى الخرطوم!

ـ وزعماء المعارضة؟

ـ إنهم لا يساوون شيئا.. سنتركهم لروميل ليشنقهم بالنيابة عنا!

ـ ولكن هذه عملية قرصنة!

ـ فى الحب والحرب كل شىء مباح!

ـ وماذا ستأخذون معكم أيضا؟

ـ كل كنوز توت عنخ آمون!

ـ ماذا تفعلون بها!

ـ نبيعها وننفق منها على كسب الحرب ! سنأخذ من مصر ما فيها من كنوز ! سنخطف أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، وكل المطربين المشهورين. سمارت وضع قائمة باسماء كل رؤساء تحرير الصحف والمجلات المصرية وسنخطفهم أيضا !

ـ ماذا تفعلون بهم؟

ـ من رأى سمارت أن كل هؤلاء كنوز لا تقل أهمية عن ذهب البنك الأهلى وكنوز توت عنخ آمون.. فإذا وقع الفنانون والكتاب المصريون فى يد المحور فسوف يستخدمونهم فى اذاعة برلين.. ونحن نريد أن نحرم المحور من هذه الأسلحة !

ـ إنك تتكلم كما لو أن كل شىء قد انتهى !

ـ هذه هى ساعاتنا الأخيرة فى مصر! ولكن لن يعرف روميل مصر عندما يدخلها !

ـ ماذا ستفعلون؟

ـ سوف ننسف جميع القناطر والجسور.. وسنغرق الدلتا ! سوف ننسف كل شىء له قيمة حتى المصانع !

ـ هل هذا جزاء مصر التى تركتكم تستولون على كل شىء !

ـ سنفعل نفس الشىء إذا دخلت جيوش النازى إلى انجلترا..

ـ ستخربون البلد كله !

ـ هذه معركة حياة أو موت !

ـ هل أخبرتم الحكومة بنواياكم هذه؟

ـ أعتقد أن السفير البريطانى لمح بهذا لرئيس الوزراء.

ـ وماذا قال رئيس الوزراء!

ـ فزع!

ـ لا يمكن أن يقبل رئيس الوزراء هذا!

ـ إننا لم نطلب موافقته.. أخطرناه فقط بقرارنا!

ـ ولكن ليس فى المعاهدة التى بيننا وبينكم ما يبيح لكم هذا:

ـ فى وقت الحروب توضع جميع المعاهدات فى سلة المهملات!

* * *

خرج عادل قانطا حزينا من مكتب الكولونيل سمسون. ركب سيارته ومشى فى شوارع القاهرة على غير هدى، يملأ عينيه بالمدينة الجميلة، وابنيتها الشاهقة، ومناظرها الرائعة، وكأنه يودعها قبل أن تتحول إلى خراب!

وعندما وصل إلى مكتبه فى الشركة قال له زميله المهندس خليل مدبولى إن مجلس النواب سيجتمع بعد ظهر اليوم، وأنه كان مجتمعا مع عثمان محرم باشا وزير الاشغال، وأن الوزير قال له إن جلسة مجلس النواب ستكون جلسة هامة وخطيرة.

قال عادل:

ـ يجب أن نشهد هذه الجلسة. إننى أتوقع أنها ستكون جلسة تاريخية!

ـ ماذا سيبحثون فيها!

ـ إننى أتوقع أن يبحث فيها النواب قرار السلطات البريطانية بتدمير كل شىء فى مصر، والانسحاب للسودان!

ـ لا يمكن أن يفعل الانجليز هذا.

ـ الهزيمة افقدتهم عقولهم!

ـ وماذا تتوقع أن يقرر البرلمان!

ـ مطالبة الانجليز بالانسحاب.. والدفاع عن مرافق البلاد، ومنعهم من تدميرها!

* * *

وجد عادل علاء الدين بمشقة بطاقتين لحضور جلسة مجلس النواب حصل على البطاقتين من صديقه الشاعر على محمود طه المهندس، ومدير مكتب رئيس مجلس النواب.

وجلسا فى الشرفة يتابعان مناقشات المجلس فى اهتمام..

وفوجئ عادل بأن المجلس لا يناقش موضوع خطورة الموقف الحربى، ولا قرار الانجليز بتدمير كل المرافق فى مصر، وباغراق الدلتا بالمياه..

وإنما كان يناقش استجواب مكرم عبيد باشا عن الاستثناءات ونزاهة الحكم!

الشرفات غاصة بالزائرين. جميع النواب حضروا الجلسة. الوزراء فى مقاعدهم يتقدمهم النحاس رئيس الوزراء. شرفة الصحافة مزدحمة بكبار الصحفيين وصغارهم. كل هؤلاء مشغولون بمتابعة المعركة بين النحاس

رئيس الوزراء ورئيس الوفد وبين مكرم عبيد وزير المالية السابق وسكرتير الوفد!

النواب يتتبعون المعركة وكأنهم يشهدون مباراة فى الملاكمة. ضربة من مكرم. ولكمة من النحاس. وانقضاض باللكمات والضربات. والنواب يصفقون ويهللون ويصفرون ويقاطعون شتائم متبادلة. كلمات قاسية تنطلق كالقذائف. نائب حكومى يقف ويتجه إلى مقاعد المعارضة ويصفع أحد نواب المعارضة على وجهه. تصفيق متواصل للنائب الذى صفع المعارض! مكرم يقول: أنا سكرتير الوفد. النحاس يقول: لم تعد سكرتير الوفد. هزة فى المجلس. الزعيم المعبود أقال الزعيم المحسود بكلمة واحدة. المناقشات تستمر ساعات طويلة. هجوم ودفاع. ضرب فى الفاضى وضرب فى المليان.

وعجب عادل مما يشهد. إن بعض هؤلاء المتحمسين يعرفون أننا على أبواب كارثة لم يحدث لبلادنا مثلها فى التاريخ. مصر مهددة بأن تحترق كلها، وزعماؤها يتشاتمون ويتضاربون سوف يضرب بنا المثل فى يوم من الأيام عندما كانت روما تحترق ونيرون يغنى، أو عندما كان العدو يزحف على مدينة بيزنطة وأهلها يتشاجرون ويتناقشون هل الملائكة ذكور أم إناث!

وخرج عادل من جلسة مجلس النواب، وذهب إلى نادى محمد على ثم إلى نادى السيارات، وإذا بموضوع الحديث بين الجميع هو الحرب العظمى بين مكرم والنحاس، والاتهامات التى قالها النحاس.. لم يتكلم أحد عن المصيبة التى تهدد مصر كلها. لم يفكر أحد فى أن هذا الوقت ليس وقت تبادل اتهامات وبداية انقسامات، إنما هو الوقت الذى تضم فيه الصفوف، وتتوحد الأحزاب، لمقاومة العدو الذى فى الداخل، والعدو الذى يدق على باب مدينة الاسكندرية..

وبدأ اليهود يهربون من مصر. يبيعون املاكهم بأبخس الاثمان. العمارة التى ثمنها مائة ألف جنيه بيعت بعشرة آلاف جنيه. السيارة الـرولزرويس التى اشتراها المليونير داود عدس بخمسة آلاف جنيه باعها بمائتى جنيه. المقاولون المصريون الذين كانوا يتعاونون مع الجيش البـريطانى نقلـوا ثرواتهم بأسماء أخرى اندفع المودعون إلى البنـوك يسـحبون أمـوالهم، ويخفونها تحت البلاط. تكونت ثروات. ضاعت ثروات. بـدأ المتحمسـون للانجليز يلعنونهم علنا. أنصار المحور الذين كانوا يهمسون بآرائهم وهـم يتلفتون حولهم ذعرا اندفعوا يصرحون بآرائهم فى المنتديات. ضابط الشرطة الذى كان يتولى حراسة على ماهر باشا فى معتقله فى السرو، أسرع يقبل يده، ويسمح للزائرين بمقابلته مستهينا بالأوامر والتعليمات. الاشاعات تؤكد أن على ماهر باشا هو الذى سيرأس الوزارة بعد دخول المحـور إلـى مصر. مجلس الوزراء اجتمع برياسة النحاس، وكلف عبد الخالق حسـونة بـاشا محافظ الاسكندرية بأن يركب سيارة، ويذهب إلى الماريشال روميل يحمل له رسالة من النحاس يرحب به، ويقول له إن مصر كانت دائما محايدة ورفضت أن تعلن الحرب ضد المحور!

الجماهير خرجت تمزق صورة تشرشل التى الصقتها الدعاية البريطانية على جميع جدران مدينة القاهرة. أصحاب المحلات التجارية اخفوا صـور تشرشل التى كانوا يضعونها فى واجهات محلاتهم لتشجيع الضباط والجنود الانجليز على الشراء

وتسربت أنباء هزيمة الانجليز إلى الريف.. وفرح الفلاحون سيتخلصون من جيش الاحتلال الذى جثم على صدورهم ستين سنة، الذى يشترى الآن قطنهم ومحاصيلهم بأبخس الاثمان، المسئول عن الغلاء الفـاحش إنهـم يجلسون كل ليلة بجوار الراديو يستمعون للمذيع يونس بحرى يصف لهـم

هزائم الانجليز على أيدى الألمان بنفس الاسلوب الذى تروى بــه قصص الزناتى خليفة ومغامرات الزير سالم !

وذاع بين الفلاحين أن هتلر أشهر إسلامه، وأنه أطلق على نفسه (الشيخ محمد هتلر). وأنه ولى من أولياء الله الصالحين، له كرامات وله معجــزات، وما هذه الانتصارات إلا بعض الكرامات والمعجزات !

والملك فاروق سعيد بهزيمة الجيش البريطانى. هذه الهزيمة ســتخلصه من السفير البريطانى سير مــايلز لامبســون الــذى يتصرف كأنــه الملك الحقيقى، ومن النحاس زعيم الشعب الذى فرضه الانجليز عليه بــالدبابات، وبخروج الانجليز سوف يصبح الملك هو وحده صاحب النفوذ والسلطان فى البلاد !

ولم يعرف هؤلاء جميعا أنه فى الوقت الذى كان الانجليز يفكرون فيــه فى تدمير مصر من أولها إلى آخرها، كان الخلاف قائما على أشده بين هتلــر وموسولينى. هل تكون مصر مستعمرة ألمانية أم مســتعمرة إيــطالية ؟ كان موسولينى يصر على أن يدخل القاهرة فوق حصــان أبيض، كمــا دخلهــا الاسكندر الأكبر، وكما دخلها نابليون بونابرت. وكان يصر على ضــم مصر إلى امبراطوريته لأنها كانت جزءا من الامبراطورية الرومانية.. وهو قد دخل الحرب لاعادة مجد الامبراطورية الرومانية !

وكان هتلر يرى أن مصر يجب أن تكون مستعمرة ألمانية، لأن الجنــود الالمان هم الذين حققوا هــذا النصر، وكان علــى اســتعداد أن يعــطى موسولينى سوريا ولبنان.. ويحتفظ لنفسه بمصر وفلسطين والعراق !

وانتهى الخلاف بين الدكتاتورين بأن يقيمــا حــكما مشــتركا فى مصر، فيتولى حكم مصر حاكم عسكرى إيطالى، وله نائب ألمانى. ويــكون أحــد

الجنرالات الايطاليين حاكما لمدينة الاسكندرية وأحد الجنرالات الالمـان حاكما لمدينة القاهرة!

وهكذا كان المصريون مأكولين فى خطة الانجليـز، وفى خـطط الألمـان والايطاليين..

وكان المصريون يجهلون ما يدبر لهم فى الخفاء.. فالتاريخ لم يعلمهـم أن الدول الكبرى لا تصادق الدول الصغرى إلا صداقة الذئب للشاه!

* * *

أرسل البكباشي يوسف البلحاوى مأمور السجن أحد الحراس ليستدعى عبده بك من الزنزانة رقم ٢١.

ودخل عم عبده إلي مكتب المأمور وهب المأمور واقفا، وتقدم إلى تحيته، وانحنى يصافحه ويقول:

ـ أهلا سعادة عبده بك!

ودهش عم عبده. إن المأمور لم يكتف بأن ينعم عليه بلقب صاحب العزة، بل أصبح يناديه بصاحب السعادة!

ورأى سيدة طويلة القامة، ممتلئة الجسم، انيقة، فاتنة الصـورة، حلـوة التقاطيع، جميلة العينين، رأها تبتسم وتتقدم نحوه مادة يدها له.

وقال المأمور:

ـ هذا هو صاحب السعادة عبده بك الذى تلحين على فى أنـك تـريدين التشرف بمقابلته.. وهذه هى زينات!

وأمسكت السيدة بيد عم عبده فى نعومة وقالت:

ـ إننى تشرفت بمقابلة سعادتك!

ـ سعادتى أنا؟

ـ نعم.. إنها لحظة العمر أن أقابل هذه الشخصية العظيمة!

ـ أنا رجل غلبان!

ـ أنت متواضع يا عبده بك! إننى سمعت عن قصة بطولتك! وحدثنى يوسف عنك.. وعندما رأيت صورتك أصررت على أن ألقاك!

ـ صورتى؟ إننى لم أتصور مرة واحدة فى حياتى!

وتدخل المأمور وقال:

ـ أنها رأت صورتك التى التقطها مصور السجن يوم حضورك!

ـ لعل الرقم الضخم المكتوب على صدرى هو الذى أعجبها!

قالت زينات:

ـ الصورة نفسها.. إنك تشبه فيها الرئيس روزفلت رئيس جمهورية أمريكا..

ـ روزفلت مرة واحدة؟! الشبه الوحيد بينى وبين روزفلت أنه مشلول.. وأنا كسيح!

ـ إنك متواضع جدا يا عبده بك!

وقال المأمور:

ـ اجلس يا سعادة عبده بك بجوار زينات، إنها تريد أن تتحدث إليك.

وأراد عم عبده أن يجلس فى مقعد بعيد..

وأشارت زينات إلى الكنبة التى تجلس فيها وقالت له:

ــ تعال إجلس بجوارى..

وتردد عم عبده، ولكن المأمور جذبه من يده وأجلسه بجوار زينات على نفس الكنبة.. وجلس عم عبده على طرفها..

وقال المأمور:

ــ إننى أتركك مع زينات وسأقوم بمرور فى السجن وأعود بعد دقائق

وخرج المأمور وأقفل الباب. وإذا بزينات تترك مكانها فى الكنبة وتقترب منه حتى تلتصق به، وتمسك بيده وتقول:

ــ أنا اليوم أسعد امرأة فى العالم أن أجلس بجانب بطل!

ــ أنا لست بطلا! أنا صعلوك!

ــ إن الزعيم غاندى يقول أيضا إنه صعلوك! إنه فى السجن مثلك تماما!

ــ ولكن غاندى وراءه مئات الملايين. وأنا ليس ورائى أحد!

ــ أنا وراءك! إننى أعتقد أن البلاد عندما ستعرف قصتك ستحملك فوق الاعناق!

ــ أخشى لو عرفت قصتى الحقيقية أن تضربنى بالنعال!

أنت رجل رائع! عظيم! عبقرى! إن فيك جاذبية غريبة. شيئا ساحرا.. ما كدت أرى صورتك مع يوسف حتى قلت يجب أن أتعرف بهذا الرجل العظيم!

ـ إن يوسف بك رجل عظيم ويظن أن كل الناس مثله.. أنا أعمل هنا نوبتجى مكتب يوسف بك!

ـ إن يوسف قال لى إن هذه الوظيفة للتعمية.. وإن مركزك معروف إنه يحترمك أكثر مما يحترم وزير الداخلية!

ـ إنه رجل طيب!

ـ ولكن عندما رأيت شخصيتك عرفت أن يوسف لم يقل الحقيقة!

ـ فعلا لم يقل الحقيقة!

ـ لأن شخصيتك أعظم بكثير من الوصف الذى قاله يوسف. تصور أننى حلمت بك أمس!

ـ فى الكابوس طبعا!

ـ فى أجمل حلم حلمت به فى حياتى.. كنت مرتديا ملابس التشريفة الكبرى، وفى صدرك الأوسمة والنياشين. كنت واقفا فى ميدان الأوبرا!

ـ لابد أننى كنت أمد يدى وأتسول!

ـ كنت تخطب فى الجماهير، كما يفعل الزعماء.. وكنت واقفة وراءك.. وعندما انتهيت من خطابك التفت نحوى وقبلتنى!

ـ لقد كنت قليل الأدب فى الحلم!

ـ أتعرف ماذا حدث عندما قبلتنى فى الحلم!

ـ صفعتنى طبعا على وجهى!

ـ لا.. هتفت الجماهير بحياة عبده باشا مع زينات!

ـ إن الجماهير عقلها فارغ!

ـ إن صوت الجماهير من صوت الله!

ـ إنك مثقفة جدا!!

ـ كنت طالبة فى كلية الآداب!

ـ هل تخرجت؟

ـ لا، تزوجت!

ـ هل زوجك مسجون معنا؟!

ـ لا.. إننى مطلقة!

ـ لابد أنه رجل أعمى لكى يطلق امرأة بهذا الجمال.

ـ إنه رجل بلا شخصية.. وأنا يعجبنى الرجل صاحب الشخصية.. مثلك!

ـ مثلى أنا؟! إنك فى حاجة إلى نظارة!

ـ إن نظرى ستة على ستة!

ودخل البكباشى يوسف البلحاوى مأمور الشجن، فابتعدت زينات عن عم عبده، وقال المأمور:

ـ ما رأيك فى سعادة عبده بك يا زينات؟

ـ إنك خدعتنى يا يوسف! إنه أعظم كثيرا مما أخبرتنى! إن كلامه أشبه بالدرر والحكم!

ثم نظرت إلى ساعتها.. ووقفت وهو تقول:

ـ آسفة إننى مضطرة للانصراف الآن، ولو كان الأمر بيدى لبقيت معك فى السجن طول حياتى!

ووقف عم عبده مبهوتا أمام مديحها وإطرائها.. مصعوقا أمام جمالها ودلالها.

وضغطت زينات على يده وهى تقول:

ـ إننى سأراك مرة ثانية!

ـ إننى أقف على ناصية الأوبرا وشارع إبراهيم!

ـ لا.. إنى سأراك هنا، لابد أن أراك!

* * *

وخرج المأمور خلف زينات يودعها.. ووقف عم عبده مشدوها فى وسط الغرفة. من هى هذه المرأة الشهية؟ أحس كأنها كانت تغازله بعينيها، تكاد تأكله بهاتين العينين الواسعتين الجميلتين... أتكون قسمت وعادل علاء الدين أرسلا له هذه الزائرة الجميلة كما يرسلان له الأطعمة الشهية والحلوى الفاخرة والفاكهة اللذيذة؟ إن الذى يحدث له داخل السجن شىء لم ير له شبيها خارج السجن! لقد أصبح السجن جنة فيه ما تشتهى الأنفس.. حتى الحوريات!

وعاد المأمور متهللا وقال له:

ـ هل أعجبتك زينات؟

ـ أعجبتنى كلها!

ـ ما أكثر ما أعجبك فى زينات؟

ـ إن وجهها ينطق ببعض حروف من اسمها!

ـ لا أفهم!

ـ فى وجهها الزين والنون والألف... (زنا)!

ـ زنا؟. إنها أختى؟

ـ أقصد أنها مثيرة!

ـ تقصد أنها قليلة الأدب!

ـ أقصد أنها مغرية!

ـ تقصد أنها مبتذلة!

ـ أقصد أنها ظريفة جدا!

ـ ولكنك قلت أن فيها الحروف الثلاثة التى تتكون منها (زنا)!

ـ لا أقصد بالكلمة معناها.. أقصد أن فيها ثلاثة حروف من اسمها حرف الزين يعنى (الزهد) وحرف النون يعنى (النبل) وحرف الألف.. يعنى. يعنى.. يعنى (الأدب)!

ـ إنك تتكلم بلغة الفلاسفة التى لا أفهمها!

ـ إنها حروف الهجاء.. أول ما يتعلمه الأطفال فى المدارس.

ـ ولكنك تكون من الحروف كلمات غريبة!

ـ الحروف هى الزنزانات التى تسجن فيها المعانى!

ـ المهم أنك أعجبت زينات جدا !

ـ إنها تشبه بهية المصقعة !

ـ تقصد أنها باردة !

ـ بالعكس إنها ساخنة !

ـ ولكنك شبهتها بالمصقعة !

ـ لأنها لذيذة !

ـ هل تحب المصقعة ؟

ـ سمعت عنها ولم آكلها !

ـ إن زينات طاهية ماهرة وسأطلب منها أن تصنع لك طبق مصقعة !

ـ سأستغنى به عن صورتها الفوتوغرافية !

ـ إنك تحب الطعام الجيد.. ولكى تحصل على الطعام الجيد دائما يجب أن تتزوج !

ـ لا يمكن أن أجد من ترضى بزواجى !

ـ إن زينات قالت إنها تتمنى أن تتزوجك !

ـ إن عمرى ٧٥ سنة !

ـ وعمرها ٢٥ سنة !

ـ أى الفرق بينى وبينها الآن نصف قرن.. وبعد عام سيصبح الفرق بينى وبينها قرنين !!

ـ إنك تطعن فى شرف أختى!

ـ إننى أطعن فى صلاحيتى للزواج!

ـ أنا يسرنى أن أصاهر أسرة عريقة مثل أسرتك!

ـ أنا رجل بلا أسرة!

ـ سنكون نحن أسرتك.. أسرة البلحاوى أسرة عريقة جدا فى الشرقيـــة.. كان جدى يملك كل أشجار النخيل بها، ولذلك أطلقوا عليه اسم البلحاوى!

ـ أما أسرتى فلم تكن تملك النواة.. ولهذا بقى اسمى عم عبده..

فقد استنكروا على حتى النواة.

ـ إننى أصدقك أنك فقير، وأنك معدم، وأنك بلا أسرة، ومع ذلك يشرفنى أن تتزوج أختى، بعد خروجك من هنا!

ـ إننى سأخرج من هنا على محكمة الجنايات!

ـ أقصد بعد خروجك من محكمة الجنايات!

ـ سأخرج من الجنايات على ليمان طره!

ـ إنه يشرفنى أن تتزوج أختى، حتى وأنت مسجون فى سجن طره!

ـ هل بينك وبين أختك عداء؟

ـ بالعكس أنا أحبها.. وهى أقرب اخوتى إلى!

ـ إذن، لماذا تريد أن توقعها فى هذه المصيبة؟

ـ إن هذه ليست مصيبة! إنه أكبر شرف تناله أسرتنا!

ـ أى شرف أن تصاهر متسولا فى السبعين أقصد فى الخامسة والسبعين؟

ـ إنها تحبك!

ـ ليس فى ما يحب

ـ بطولتك!

ـ إننى بطل، على سبيل الخطأ!

ـ لماذا تخاف الزواج.. هل تخشى أن يكون الزواج سجنا؟

ـ الذى يدخل السجن لا يخاف أى سجن آخر!

ـ إذن دعنى أحضر المأذون ونعقد القران هنا فى السجن!

ـ دعنى أفكر!

ـ لابد أن زينات لم تعجبك!

ـ بل أعجبتنى!

ـ لقد قلت لى إنها جميلة ورائعة.

ـ ربما هذا هو السبب فى ترددى!

ـ سأعطيك مهلة ساعة!

ـ ساعة لا تكفى.. أعطنى ٢٤ ساعة...يجب أن أستشير أقاربى قسمت وعادل علاء الدين!

* * *

عاد عم عبده إلى الزنزانة فى ذهول! إنه فى حلم! خلال بضعة أسابيع تحول من شحاذ إلى بطل! ومن صعلوك إلى سعادة عبده بك، ومن رجل لا يكاد يجد قوت يومه إلى وجيه تحمل له سيارة أنيقة طعامه من جروبى وشبرد ولاباس! من عجوز يستعد ليزف إلى قبره، إلى عريس يرشحونه للزفاف من امرأة حسناء!

وتطلع إلى جدران غرفته يبحث عن المرآة التى وعده بها الصاغ حامد الجزماتى نائب المأمور.. شعر برغبة فى أن يرى وجهه فى المرآة لكى يرى الشبه بينه وبين الرئيس روزفلت!

وأسرع عم عبده ينادى الشاويش ابراهيم وقال له فى لهجة آمره:

ـ إذهب إلى الصاغ حامد الجزماتى واسأله أين المرآة التى وعدنى باحضارها؟

ودهش الشاويش ابراهيم من اللهجة الحازمة الآمرة الى يسمعها لأول مرة من عبده بك!

لأول مرة أصبح عم عبده يتحدث كالبهوات!

وهرول الشاويش ابراهيم إلى الصاغ الجزماتى...

وهرول الصاغ الجزماتى يحمل مرآة كبيرة ويعلقها بنفسه على جدران الغرفة...

ولم يشأ عم عبده أن يتطلع فى المرآة حتى يخرج الصاغ الجزماتى من الغرفة..

ولم يخرج الجزماتى، بل ابتسم وقال:

ـ ألف مبروك!

ودهش عم عبده، كيف عرف نائب المأمور بحكاية الزواج!

وتمالك عم عبده نفسه وقال:

ـ إنها مسألة قديمة!

ـ ولكننى لم أعلم بها إلا اليوم. البلد كلها فرحانة، ترقص فى الشوارع!

ـ وهل عرفت البلد؟

ـ عرفت من إذاعة برلين!

ـ وهل وصل الخبر لاذاعة برلين؟

ـ طبعا.. كل الاذاعات فى العالم أذاعت الخبر ما عدا إذاعة لندن!

ـ الانجليز قلبهم أسود! إنهم يكرهوننى!

ـ إن الانجليز حاولوا إخفاء الخبر... ولكن مصر كلها عرفت أن الجيوش البريطانية تفر أمام روميل.. وأن الألمان سيكونون فى القاهرة خلال يومين!

ـ ولهذا تقول لى مبروك!

ـ طبعا.. إذا لم أهنئك أنت بانتصار الألمان فمن نهنئ؟ إن البك المأمور قال لى هذا الصباح أنك ستخرج من سجن الاستئناف مباشرة إلى الوزارة!

ـ أنا أصبح وزيرا!!؟

ـ أعرف أن من حقك أن تكون رئيس الوزارة.. ولكنهم يقولون إن على ماهر باشا هو الذى سيؤلف الوزارة!

ـ ولماذا يختاروننى وزيرا؟

ـ لأنك دعوت فى منشورك لمهاجمة الانجليز والانقضاض عليهم.. كنت أبعد نظرا من جميع الزعماء.. إن سعادة المأمور يقول إنك بكلمة واحدة سوف تستطيع أن ترقيه من منصب مأمور سجن الاستئناف إلى منصب مدير مصلحة السجون!

ـ وأنت.. ألا تريد أن تترقى؟

ـ إننى أترك الأمر بين يدى سعادتك!

ـ هل لك أخت؟

ـ لا.. والله!

ـ خسارة!

ـ خسارة لماذا؟

ـ لقد كنت أريد أن أعينك مأمورا لسجن الاستئناف!

ـ إن زوجتى لها أخت!

ـ مطلقة؟

ـ لا.. متزوجة!

ـ خسارة!

ـ نطلقها يا سعادة البك! نطلقها..! نطلقها يا أفندم!!

وضحك عم عبده.. واستمر يضحك ويضحك!

وخرج نائب المأمور من الزنزانة ولا يزال عم عبده يضحك!

وأغلق عم عبده باب الزنزانة وراح يضحك!

ولم ينظر عم عبده بعد ذلك للمرآة أبدا!.

الفصل الثامن عشر

الساعة الثالثة صباحا. الليل والبرد والظلام ابتلع الناس. شارع النيل فى الجيزة غارق فى نوم طويل. مياه النهر استرخت بلا حراك الأشجار المفروشة على جانبى الطريق تهتز كأنها ترتعش من البـرد.. حفيفهـا لـه صـوت القشعريرة. القصور والعمارات والبيوت المطلة على النيل مطفأة الأنـوار، كأنها اغمضت عيونها لتحلم بالدفء القمر شاحب، لم يظهر منه سوى ربعه الأخير اختفى ثلاثة أرباعه وراء سحب الليل، كأنه يغطى وجهـه بملفحـة سوداء!

سيارة عادل واقفة وحيدة على شاطىء النهر. الضـباب غـطى زجـاج السيارة. كأنه يسدل ستارا يخفى العاشقين عن عيون الفضوليين.

واقتربت الأميرة فضيلة من عادل الجالس أمام مقعد القيادة وقالت له فى صوت عذب!

ـ عانقنى... أكاد أموت من البرد!

ـ كنا فى الدفء.. وأصررت على أن نخرج إلى البرد.

ـ إننى لا أستطيع أن أبقى فى مكان واحد مدة طويلة!

ـ كنا نرقص معا فى حفلة جمعية تحسين الصحة. فقلت لى : هيا نذهب

إلى شقتك. ذهبت إلى شقتى فقلت لى : هيا نذهب إلى شاطئ النيل كأنك تبحثين عن شىء ضائع منك..

ـ أبحث عن نفسى!

ـ هل وجدتها!

ـ لم أجدها!

ـ إذن سأعود بك إلى بيتك!

ـ لا أستطيع أن أنام وحدى فى البرد.

ـ إن فى غرفة نومك جهاز تدفئة من آخر طراز!

ـ الرجل خير جهاز تدفئة فى العالم!

ـ لماذا لا تنامين مع زوجك فى غرفة واحدة؟

ـ كيلا أموت من البرد!

ـ إننى فى دهشة من علاقتك بزوجك.. أنت تحبينه وتكرهينه فى وقت واحد.

ـ أحبه أمام الناس.. وأكرهه عندما أكون معه وحدنا!

ـ وماذا سيقول زوجك وهو يراك الآن تسهرين وحدك كل ليلة؟

ـ إنه يعرف أننى أفكر فيه دائما!

ـ تفكرين فيه وأنت بين ذراعى رجل آخر؟

ـ ألم تلاحظ أننى لا أذكر اسمه إلا وأنا بين ذراعيك!

ـ لعل العناق هو الذى يذكرك به!

ـ إننى أحبه وأنا بين ذراعى أى رجل آخر. وأكرهه وأنا بين ذراعيه!

ـ أنت امرأة غريبة!

ـ لأننى أقول الحقيقة!

ـ لأنك غير طبيعية! المفروض عندما تكون المرأة بين ذراعى رجل أن تنسى فيهما الدنيا كلها!

أنا الطبيعة.. الطبيعة بغير مكياج! الرجل عندما يخون زوجته يهملها، والمرأة عندما تخون زوجها تضاعف الاهتمام به!

ـ لتضلله!

ـ لا.. لتعوضه عما تسلبه منه، المرأة تشعر دائما أنها معتدى عليها.. ولكن عندما تخون المرأة زوجها تحس بأنها معتدية.. بأنها الأقوى والأقوياء يملكون أن يكونوا نبلاء. والنبيل هو الانسان الذى يشفق على المهزوم. ولهذا فأنا لا أهمل زوجى!

ـ إننى أتصور أنك لم تهملى زوجك فى يوم من الأيام.. لم تهمليه من اليوم الأول!

ماذا تقصد؟

ـ أقصد أنك خنت زوجك فى ليلة زفافك!

ـ من قال لك هذا؟

ـ أنت قلت لى إنك أخذت موعدا غراميا من المسيو أرمان المصور، الذى جاء يصورك ليلة زفافك!

ـ كنت سكرى!

ـ كنت سكرى عندما قلت لى هذا... أو عندما أخذت موعدا فى ليلة الزفاف؟

ـ فى المرتين!

ـ وتسمين نفسك بعد هذا امرأة طبيعية؟!

ـ نعم امرأة طبيعية!

ـ ومن تكون المرأة غير الطبيعية؟

ـ التى لا تعطى موعدا لمسيو ارمان!

- ماذا أعجبك فيه؟

ـ جرأته! لقد جاء مسيو ارمان بصورتى فى يوم زفافى.. التقط لى عدة صور مع زوجى.. ولا حظت أنه يأكلنى بعينيه! الرجل فيه كان أقوى من الفنان. أحسست بأن عينيه تلتقطان صورا لما تحت ثوب الزفاف. بينما عدسة آلة التصوير اكتفت بأن تلتقط صورا لثوب الزفاف. واستأذنت زوجى بأن يلتقط أرمان لى عدة صور وحدى، وأذن زوجى. وصحبت المصور ارمان إلى غرفتى. وأغلق الباب. والتقط لى عدة صور فى أوضاع مختلفة.. ووجدتنى استسلم له وأنا فى ثوب الزفاف!

ـ وماذا أعجبك فى هذا الأرمنى؟

ـ أعجبنى أنه حافظ على ثوب زفافى فلم يرتعش!

ـ إنك أميرة الكذب، بل إنك ملكة الكذب!

ـ أنا لم أكذب عليك!

ـ لقد قلت لى فى بداية علاقتى بك إنك لم تحبى سوى اثنين.. الضابط نجم الدين.. وعمر الفلسطينى!

ـ قلت إنهم ثلاثة!

ـ من الثالث؟

ـ الحصان!

ـ وفى كل يوم أعرف اسم رجل جديد.. كلما شربت كأسا ذكرت لى اسما جديدا!

ـ لقد وعدتك بأن أقول لك الحقيقة كلها.. أنت الذى طلبت منى أن أقول لك كل الحقيقة!

ـ ولكنك تكذبين. إنك تقولين الحقيقة بالتقسيط، الحقيقة بالتقسيط هى سم بطىء!

ـ ولهذا لا أريد أن أقول لك الحقيقة جرعة واحدة حتى لا أفقدك مرة واحدة!

ـ ولكنك تفقديننى بالتقسيط!

ـ خير من أن أفقدك دفعة واحدة.. ومع ذلك أتحداك أن تقول لى إننى كذبت عليك مرة واحدة.

ـ لقد قلت لى إنك أحببت ثلاثة... وإذا بالثلاثة يصبحون ثلاثين!

ـ هذا ليس حبا!

ـ هذا ألعن.. إنها علاقات كاملة!

ـ نعم..

ـ إنك أشبه بدورة مياه عمومية للرجال!

ـ إنني اعتبر الجنس شيئا عاديا.. لا علاقة له بالحب!

ـ إنني أؤمن بأن القلب هو الباب الملكي للجسد!

ـ الملوك يفضلون كثيرا أن يدخلوا من الباب الخلفي.. ولا يستعملون الباب الملكي إلا في المناسبات الرسمية!

ـ لقد كنت اعتقد أن جسد المرأة هو كتاب مقدس.. وأنت جعلت من جسدك دفتر تليفون!

ـ الكتاب المقدس ليس فيه اسم الله فقط، بل فيه أسماء أخرى!

ـ نعم... يتكرر اسم الشيطان فيه كثيرا.. بعد اسم الله!

ـ وجسدي أيضا...

ـ إنني أدهش أن تمنح امرأة نفسها لرجل لا تحبه.

ـ هل أنت أحببت كل امرأة أعطيتها نفسك؟

ـ لا!

ـ ولماذا تحرم على ما تبيحه لنفسك؟

ـ لأنني رجل!

ـ هل الزائدة الدودية التي منحتها اياكم الطبيعة، تبيح لكم حقوقا تحرمها على المرأة؟

ـ المرأة مخلوق مقدس !

ـ ولهذا تصلبونها ؟!

ـ لنعبدها !

ـ ولتبقوا أحرارا.. تبحثون فى كل يوم عن صلب جديد !

ـ إننا نضع المرأة فوق نصب عال... نجعل قدمها فوق رؤوسنا !

ـ كى تتفرجوا على جسدها العارى من خلال ثوبها !

ـ لا... كى نركع أمامها !

ـ لماذا لا نتبادل الأماكن ؟ اجلسوا أنتم الرجال فوق قاعدة التمثال.. واتركونا أحرارا على الأرض !

ـ عجبا لك... ترفضين السماء التى نريد أن نرفعك إليها، وتنزلين إلى الأرض !

ـ السماء مقر الأرواح، أما الجسد فمكانه الأرض.. فى الأرض جاذبية تدفعنى إليها !..

ـ أنت مجنونة !

ـ أنت رجل تعيش فى الأمس.. وأنا امرأة أعيش فى الغد !

ـ هل تتصورين أن امرأة الغد ستكون على شاكلتك ؟

ـ إننى أعتقد أن الغد سينظر إلى الجنس على إنه إشباع طبيعى كالطعام، ألست تأكل الآن عندما تجوع ؟

ـ نعم !

ـ وإذا فرض أن رأيت أمامك الآن صنفا لذيذا فهل تأكله، أم تنتظر حتى تذهب إلى بيتك؟

ـ آكله طبعا!

ـ وكذلك سيكون الجنس غدا!

ـ تتصورين أننا سنعود حيوانات كما كنا!

ـ اتصور أن الغد سيتخلص من أشياء كثيرة نعتبرها حقيقة مقررة الآن، حقائق لا نقبل مناقشتها! إن الرجال ينظرون الآن إلى الطرابيش الحمراء ذات الأزرار السوداء كحقيقة لا تقبل مناقشة، تضعونها فوق رؤوسكم كما وضعها أجدادكم، وأجداد أجدادكم... كل ما تصنعون بها أن تطيلوها تارة وتقصروها تارة، أن تعوجوها على اليمين أو على اليسار.. ولكنها تبقى دائما كما هى فوق رؤوسكم، لا تجرؤون على تغييرها! لم يخطر ببال واحد منكم أن ينزع هذا الزر الأسود الذى لا فائدة منه! لم يخطر لأحد أن يغير لون الطربوش الأحمر.. سيجىء يوم يتغير شكل هذا الطربوش الذى تعتبرونه اليوم رمزا لكرامتكم! الرجل منكم يغضب إذا ضربه رجل آخر فى بطنه، ولكنه يثور إذا رمى طربوشه على الأرض! أنتم الآن تضعون كرامتكم فى هذه الطرابيش، كما تضعون كرامتكم فى الجنس.. وسيجىء يوم تخلعون فيه الطرابيش!

ـ وتخلع المرأة برقع الحياء!

ـ سوف يصبح الجنس كالطعام!

ـ ولكنك امرأة نهمه.. لا تشبع أبدا!

ـ أراهنك على أن الرجال الذين عرفتهم أنا أقل من النساء اللاتى

عرفتهن أنت!

ـ إذن أنت تريدين أن تتساوى بى فى كل شىء!

ـ فى كل شىء.. أنت دون جوان بين الرجال.. وأنا دون جوانه بين النساء!

ـ أنك بذلك تقضين على نفسك!

ـ لماذ يحترم الناس الرجل الذى يعرف نساء كثيرات ويسمونه دون جوان، ويحتقرون المرأة التي تعرف رجالا كثيرين ويسمونها (دون) فقط؟ لماذا تكون أنت نبيلا وأنا سافلة، ونحن نفعل نفس الشيء؟

ـ لأننى رجل!

ـ عدنا لحقوق الزائدة الدودية!

ـ لماذا لا ترتدين بنطلونا!..

ـ سيجىء يوما يرتدى فيه النساء البنطلونات

ـ ويرتدى الرجال الفساتين؟

ـ لا.. سنتساوى فى الزى، وفى الحقوق، وفى كل شىء!.

ـ ولا يبقى للرجال سوى شواربهم!

ـ سوف نخيركم إما أن تحلقوا شواربكم أو نضع نحن شوارب مستعارة!

ـ سيكون عالما مجنونا!

ـ جنون اليوم هو عقل الغد! فلاسفة اليوم كانوا مجانين الأمس!

ـ ولكن الحب سوف يفقد لذته وطعمه!

ـ عند اكتشاف الشامبانيا كانت الشامبانيا طعام الملوك وحدهم فهل فقدت طعمها بعد أن أصبحت فى أفواه الملايين؟

ـ إننى أنظر إلى الجسد نظرتى إلى شراب غال كالشامبانيا، وأنت تريدين أن تجعليه رخيصا كالكوكولا!

ـ ولكننا لا نعيش عليها!

ـ نشربها عندما نعطش!

ـ ونجدها فى كل شارع!

ـ إذن أنت تريد مشروبا لا يشربه سواك!

ـ لا أحب أن أشرب من زجاجة فاتت على شفاه كثيرة!

ـ ولكنك تحبنى!

ـ أنا لا أحبك.. أنا أدمن عليك!

ـ كالأفيون.

ـ تماما!

ـ هذا دليل أنك تحبنى!

ـ إن المدمن على الأفيون يمقت الأفيون!

ـ ولا يستغنى عنه!

ـ أفضل أن أكون الأفيون على أن أكون حقنة البنسلين التى اكتشفوها أخيرا!

ـ البنسلين يشفى!

ـ ولكن يضيع مفعوله إذا أكثرنا من استعماله!

ـ إننى حاولت كثيرا أن أغيرك ففشلت! إن الشرقى فيك تحت جلدك! كأنك ترتدى العباءة البدوية تحت الجاكتة والبنطلون!

ـ ماذا كنت تريدين ان تغيرى فى!

ـ نظرتك للمرأة!

ـ إننى أنظر للمرأة كإلهة!

ـ ولماذا تكره أن يعبدها غيرك؟ إنك تريد إلها خاصا بك لا يعبده سواك، فإذا عبده سواك تحول إلى صنم يجب تحطيمه!

ـ فرق ان أعبد الآلهة من بعيد.. وأن يصحبها كل رجل إلى غرفته!

ـ ولكنك قلت إنك تؤمن بالمبادئ الاشتراكية!

ـ الاشتراكية لا تؤمن بالمبادىء لا تؤمم النساء، ولا تعتبر كل امرأة قطاعا عاما!

ـ والشيوعية تلغى الآلهة!

ـ إذن أنت أميرة شيوعية!!

ـ قلبى رأسمالى.. وجسدى شيوعى!

ـ لماذا بدأت بجسدك.. لماذا لم تبدئى بتوزيع ثروتك على الناس!

ـ بدأت بأغلى ما أملك!

ـ وجعلت أغلى ما فيك أرخص ما فيك!

ـ أنت تغار من الماضى!

ـ انا أفكر فى مستقبلك كأميرة!

ـ ليس لى مستقبل كأميرة!

ـ تعتقدين أن هتلر سوف يقضى على جميع الملكيات فى العالم؟

ـ أعتقد أن نهاية الحرب ستكون نهاية الملكيات، سواء انتصر المحور أو انتصر الحلفاء!

ـ ولهذا لا يهمك سمعتك كأميرة!

ـ لهذا أستمتع بكل لحظة فى حياتى قبل أن أعلق فوق مشنقة. هل تتصور أنه إذا قامت ثورة فسوف يشنقون الأميرات الفاجرات.. ويطلقون سراح الاميرات الورعات!

ـ ولكنك تحملين اسم (فضيلة).

ـ وانت تحمل اسم (عادل).. وانت ظالم!

ـ انا لم أظلمك!

ـ ظلمتنى عندما طلبت منى، وأنا بشر، أن اتصرف تصرف الآلهة!

ـ إننى لم أطلب منك إلا أن تكونى امرأة عادية! المرأة العادية عندما تحب تخلص للرجل الذى تحب!

ـ وانا مخلصة لك.. أنت تعلم أننى لك وحدك!

ـ أنا أثق بك وأنت معى.. ولا أثق بك عندما تتركيننى دقيقة واحدة

ـ أذن ابق معى دائما!

ـ انت تريدين عاشقا متفرغا، لا عمل له إلا أن يحبك بالنهار والليل!

ـ لأننى احبك!

ـ وماذا أفعل فى عملى؟.. انك تغضبين إذا قلت لك إننى مشغول أو إن عندى مجلس إدارة، أو إن لدى موعدا مع عميل!

ـ مادمت تريد ان أصبح كل شىء لك.. فيجب أن تكون كل شىء لى!

ـ وأموت جوعا!

ـ إن لديك أسهما كثيرة فى شركتك!

ـ ولكنى يوم اهمل شركتى سوف تصبح هذه الاسهم بسعر التراب!

ـ إننى املك ثروة!

ـ تريدين أن أعيش على حسابك!

ـ ليس بين المحبين حساب!

ـ وإذا جاء يوم زهدت فى! أو إذا جاء يوم أردت أن تعودى إلى تطبيق نظريتك الاشتراكية، فماذا أفعل؟!

ـ لن يجىء هذا اليوم وأنت معى.. تزوجنى!

ـ ليرسم لنا مسيو ارمان صورة الزفاف!

ـ أنت تطالبنى بأن أكون صريحة معك، فإذا صارحتك بالحقيقة حاكمتنى مستندا إلى صراحتى!

ـ لقد حكمت عليك منذ وقت طويل !

ـ حكمت على بماذا ؟

ـ بانك مجنونة !

ـ لأننى أعيش فى الغد !

ـ جسدك وحده هو الذى يعيش فى الغد !

ـ ورأسى !

ـ يعيش فى الأمس فى عالم الجوارى والمحظيات !

ـ عقليه جارية ؟

ـ لا.. عقلية سلطان يريد أن يكون له مئات الجوارى والمحظيات !

* * *

ودعاها عادل لأن تغادر السيارة وتمشى بجواره على شـاطئ النهـر، وترددت فضيلة خوفا من البرد، ثم قبلت، ومشت بجواره جنبا إلـى جنـب يرقبان الخيط الأول من خيوط النهار.

وضحكت فضيلة وهى ترى الدخان الأبيض الذى يحدثه تنفسها، وقالت :

ـ الضباب يخرج منى !

ـ إن فى داخلك ضبابا كثيرا.

ـ ولهذا لا ترانى على حقيقتى !

ـ الضباب يعميك أنت وحدك !

ـ لماذا لا تحاول أن تكون الضوء فى حياتى؟

ـ كلما أضأت عودا من الثقاب أطفأه ماضيك!

ـ لماذا تنظر إلى الظلام ولا تنظر إلى ضوء الفجر؟

ـ لأنى فشلت أن أكون الشمس فى حياتك..

ـ إنك الشمس فعلا

ـ ولكنك فى حاجة إلى شمس لا تغيب!

ـ فى استطاعتك أن تكون شمسا لا تغيب!

ـ لو تزوجتك!

ـ نعم!

ـ إن زوجك معروف باشا لم يستطع ان يغيرك!

ـ لأننى أنا التى غيرته!

ـ وستحاولين أن تغيرينى أنا الآخر!

ـ إننى أحببتك لأننى فشلت فى أن أغيرك!

ـ أما أنا فإننى أخاف منك.. لأننى فشلت أن أغيرك!

ـ إنك لم تحاول أن تغيرنى!

ـ حاولت.. طلبت منك كثيرا أن تغيرى نفسك فلم تتغيرى!

ـ احببنى أكثر!!

الحب يغير الناس أكثر مما تغيرهم الأوامر!

ـ اننى لا استطيع أن أخلقك من جديد، لست الها !

ـ الحب إله يخلق العاشقين من جديد، أنا أمامك فاصنع بى ما تشاء !

ـ كلما حاولت أن أصنع منك شيئا اصطدمت بماضيك !

ـ هذا دليل على أنك لم تحبنى حبا كافيا ! حبك لا يـزال بشرا ! ويـوم يرتفع هذا الحب ويصبح إلها يتصرف كما يتصرف الآلهـة. يقبـل التـوبة ويسمح بالغفران !

ـ فى بعض الأحيان أشعر أنك لست بشرا ولا إلها !

ـ مزيج من البشر والآلهة والشياطين !

ـ متى أكون بشرا ؟

ـ وأنت تمشين بجوارى !

ـ ومتى أكون آلهة ؟

ـ وأنت ترقدين بجوارى !

ـ ومتى أكون شيطانة ؟

ـ وأنت بعيدة عنى !

ـ كأنك تريد ان أكون دائما إلى جوارك !

ـ كلا.. إننى أتمنى أن تكونى واحدا من الثلاثة، إما بشرا، وإما إلهـة، وإما شيطانا !

ـ كل امرأة فيها هؤلاء الثلاثة معا !

ـ إننى عرفت نساء كثيرات، ولم أر فى واحدة منهن هؤلاء الثلاثة مجمتعين إلا فيك أنت وحدك!

ـ لأننى كنت صريحة معك!

ـ لقد عرفت قبلك نساء صريحات!

ـ ربما لأننى عريت لك نفسى أكثر مما عرتها امرأة قبلى!

ـ ولا هذا .. إن نبرة الشيطان فيك أعلى من نبرة الشيطان فى أى امرأة أخرى!

ـ ونبرة البشر!

ـ عالية جدا!

ـ ونبرة الالهة!

ـ خافتة جدا!

ـ اذن تريد أن أكون صاحبة السمو.. إنك قلت إنك تحبنى كامرأة وتكرهنى كاميرة!

ـ أريد أن تكوني أشبه بهذا الطائر الذى يطير الآن فوق رؤوسنا ويمد رأسه، ويفرد جناحيه..

أريد أن أرفع رأسى لاراك!

ـ وتسدد بندقيتك لى وتصطادنى!

ـ لا.. إننى أريد أن أحلق معك!

ـ أنت تجد لذة فى أن تضع المرأة فى قفص وتتفرج عليها، مثل كل

الرجال.. ولا مانع لديك أن يكون فى بيتك عصفور فى قفص، وإلـى جـواره ببغاء فى قفص، وإلى جوارهما نسناس فى قفص.. ثم تمضى وقتك فى التنقـل بين العصفور والببغاء والنسناس!

ـ إننى لا أحب النسناس!

ـ إن صديقتك قسمت تشبه النسناس، وصديقتك أميرة عبـد العـاطى تشبه الببغاء، لا تكف أبدا عن الكلام!

ـ وانت العصفور!

ـ لا.. انا البلبل الذى لا يغنى إلا إذا كان مطلق السراح.. إن قسـمت وحدها هى التى تصلح لأن توضع فى قفص.. النسناس يمرح داخل القفص كما يمرح فى الغابة!

ـ إننى فى دهشة من أنك تغارين من قسمت أكثر من أى امرأة اخرى!

ـ لأننى أشعر بأنها تحبك أكثر من أى امرأة اخرى!

ـ ولكن قد يدهشك أن تعلمى أن ليس بينى وبينها أى عـلاقة! كل مـا بينى وبينها صداقة قوية!

ـ الصداقة القوية بين الرجل والمرأة تنتهى بالحب.. أما الحـب فـلا ينتهى ابدأ بصداقة قوية!

ـ ولكن هذا لا يبرر أن تكرهيها كل هذا الكره!

ـ فى قلب كل امرأة جهاز يشبه جهاز الرادار، إنه يميز طائرات العدو قبل اقترابها.. وانا احس دائما بأن قسمت خطر على! أنا أجمل منها ألف مرة، أنا أرشق، أنا أكثر أناقة.. ومع ذلك فأنا اخشى منها، ولا أعـرف أن أفسر

سبب خوفي منها!

ـ إنها هي التي ألحت عليك أن تجيئي إلى شقتي!

ـ أعلم ذلك.. وبرغم هذا فانني اعتقد أن شيئا ما بينك وبينها! تصور أنها أول امرأة أغار منها في حياتي!

ـ إنها لا تذكرك بكلمة واحدة!

ـ هذا يجعلني ازداد خوفا منها!

ـ سوف يضحك الناس إذا عرفوا أن الأميرة الفاتنة تغار من فتاة دميمة مثل قسمت شاهين!

ـ ولكنك أنت لن تضحك إنك في يوم من الأيام فضلتها علي.. ولا أستطيع أن أنسى هذا اليوم أبدا!

ـ متى كان ذلك؟

ـ يوم جاءت قسمت إلى شقتك وكنت أزورك للمرة الأولى.. لقد وجدتك فجاة تنصرف بكليتك إلى الحديث معها وتنسى أنني معكما في نفس الغرفة.. وهذا شيء لا يمكن أن تنساه المرأة أبدا!

ـ ولكن في هذا اليوم قلت لي إنك مازلت تحبين عمر الفلسطيني وأنك لا تستطيعين أن تحبي رجلين في وقت واحد!

ـ ولو! المرأة تضيق عندما ترى رجلا راقصته.. وقد احتضنته امرأة أخرى!

ـ إنها لم تحضني!

ـ كانت عيناها تحتضنانك!

ـ كانت على عينها نظارة سوداء!

ـ المرأة ترى كثيرا من خلال النظارة السوداء!

ـ مالك ترتعشين؟

ـ الحديث عن قسمت جعلنى أشعر بالبرد.. إن اسمها يطفئ النار التى تدفئنى!

* * *

وعاد عادل بفضيلة إلى السيارة وقاد عادل السيارة إلى قصر الأميرة فضيلة فى الجزيرة، ولاحظ أنها جلست بعيدة عنه. كانت شاردة طوال الوقت، لم تفتح فمها بكلمة واحدة.

وعاد عادل إلى بيته، وهو يفكر فى هذه المرأة الغريبة التى تغار كل هذه الغيرة من قسمت، وتتصور أنها وحدها هى التى تستطيع أن تنتزعه منها!

فى كل مرة يلتقى فيها بالاميرة تتحدث عن قسمت وحدها دون سائر النساء!

ما الذى فى قسمت يجعل امرأة مثل فضيلة تخشى منها على حبها؟ لقد قالت له فضيلة كلمة أحس إنها ندمت عليها بعد أن نطقت بها. قالت له ان قسمت تحبه أكثر من أى امرأة أخرى!

لقد كان يبحث دائما عن سر قسمت .. كان يتساءل ماذا فيها حتى يجعله يهتم بها، ويفكر فيها؟.. وكان لا يجد هذا السر!

ولكنه وجده الآن!

وجد ما كان يبحث عنه من وقت طويل بغير جدوى!

وصل إلى عمارة ايموبيليا، وهو يفكر فى قسمت!

ربما تكون هى العلاج الوحيد من الأفيون الذى يعذبه الادمان عليه.. من الأميرة فضيلة!

إنه يشعر أن فضيلة تريد فعلا أن تتزوجه! تريد أن تطلق زوجها، لتكون له وحده!

وهو لا يريد أن يتزوجها، لا يقبل أن يكون زوجا لأميرة.. ولا يقبل أن يكون زوجا لامرأة عرفت ثلاثين رجلا قبله.. امرأة تؤمن بأن المرأة هى منافع عمومية كالحدائق والطرق والجسور!

ومع ذلك فهو يخشى أن يضعف أمامها.. فى كل يوم يقرر أن يقطع علاقته بها، ثم يسمع صوتها فى التليفون، فينسى قراره القاطع ويجد نفسه ينتظرها.. تماما كما يفعل المدمن مع حقنة الافيون

ووصل المصعد إلى الطابق العاشر!

واتجه ليفتح الباب، فسمع جرس التليفون يدق فى شقته.. وعجب من الذى يطلبه فى هذه الساعة المبكرة فى الصباح!

إنها الآن الساعة الرابعة صباحا!

وأضاء نور الشقة وأسرع إلى التليفون ورفع سماعة التليفون، وسمع قسمت تقول له بصوت ملهوف:

– أين كنت؟

– ماذا حدث!

ـ لقد مضى على ساعتان أطلبك فى التليفون ! إننى قمت مذعورة من النوم على كابوس !

ـ من رأيت فى الكابوس !

ـ الأميرة فضيلة فى شارع النيل بالجيزة !

ـ وماذا يدهشك فى هذا ؟

ـ لا يدهشنى شىء.. وماذا كانت تفعل الأميرة فضيلة فى شارع النيل بالجيزة ؟

ـ كانت فى سيارة ؟

ـ سيارة.. سيارة من ؟

ـ سيارتك !

ـ سيارتى ! أنا ؟!

ـ نعم سيارتك أنت !

ـ وماذا حدث ؟

ـ كادت تدوسك وهى تقود السيارة

ـ هل داستنى فى الحلم؟

ـ لا أعرف، فإننى استيقظت من النوم مذعورة ! إننى رأيتك فى الحلم وانت جالس فى سيارتك مع فضيلة فى شارع النيل، ورأيتك وأنت تنزل معها من السيارة وتمشيان معا على الشاطئ !

ـ هل أنت متأكدة عندما رأيت هذا أنك كنت فى فراشك.. أم فى شـارع النيل فى الجيزة!

ـ كنت فى فراشى!

ـ غريبه لقد كنت فعلا مع فضيلة فى هذا الوقت بسيارتى.. كنا فى شارع النيل فى الجيزة.. وغادرنا السيارة ومشينا على الشاطىء!

ـ وهل داستك؟

ـ لن تدوسنى!

ـ من يدريك؟

ـ لأننى لن أراها بعد اليوم!

ـ لماذا؟

ـ لأننى سأراك.. سأراك أنت وحدك!

ـ ما الذى غيرك؟

ـ لأننى لأول مرة فى حياتى.. عرفت طريقى!

الفصل التاسع عشر

استلقى عادل فى فراشه يفكر فى القرار الذى أصدره بقطع علاقته بالأميرة فضيلة. شعر أن القرار ليس سهلا. صحيح أن هذا ليس أول قرار فى حياته يصدره بقطع علاقته بامرأة يعرفها، إنما فعل ذلك ليخرس امرأة غيورا وفعله ليتفادى فضيحة، وفعله ليرضى كبرياءه الجريح. قطع العلاقات مع النساء أشبه بقطع العلاقات مع الدول. الدول تسحب سفراءها والمرأة تسحب خطاباتها الغرامية.. الدول توقف الاتصال، والعشاق يوقفون اللقاء.. وفى بعض الأحيان ينتهى قطع العلاقات باعلان الحرب، ولكن عادل كان يحب دائما أن يقطع علاقته بالمرأة فى هدوء، وبغير فرقعة.

كان يحرص وهو يجرح المرأة ألا يسيل دمها، ولهذا لم يحدث مرة واحدة أن أعلنت امرأة هجرها الحرب عليه. إذا ثارت عليه تحملها، وإذا هاجمته جاملها.. كان دائما يترك شعرة بينه وبين المرأة التى تركها، لا يقطعها. يدافع عنها خلف ظهرها، ويساعدها فى أزماتها، ويوهمها دائما بأنها هى التى تركته وليس هو الذى هجرها.

ومن طبيعة المرأة أن تغضب بسرعة، وأن ترضى بسرعة، مادامت كرامتها لم تجرح. كل جروحها تلتئم إلا جرح كرامتها الذى ينزف مادامت على قيد الحياة. ومن هنا كان عادل يحرص وهو يقطع علاقته بالمرأة، أن يصون كرامتها من الهوان.

وحار عادل كيف يبلغ فضيلة قراره بقطع علاقته بها ! كيف يضع السم فى برشامة ! كيف يلف السكين الذى سيقطع به هذه العلاقة الغريبة بورق مفضض حتى تحسبه باقة من الورد الجميل !

كان يشعر بأنه يجب أن يهرب منها. كان يخشى أن ينزلق إلى عالمها الذى يكرهه. لقد بدأ يهمل عمله فعلا، وهو يتبعها من سهرة إلى سهرة، ومن حفلة إلى حفلة. إن عمله هو حبه الأول، هو حياته وقد أحس فى الأسابيع الأخيرة بأنه يخون عمله من أجلها. كان يؤجل البت فى مسائل هامة ليلتقى بفضيلة. كان يترك بعض الاجتماعات الخطيرة فى منتصفها ليكون جالسا فى شقته ينتظرها. كان ينسى بين ذراعيها مواعيد ارتبط بها مع عملاء شركته، وهو الذى حرص طوال حياته على أن يحافظ على مواعيد عمله كما يحافظ الجندى على موعد الطابور !

كان العشق ترفا، فجعلته الأميرة ضرورة حياته. كان على هامش اليوم، فأصبح يستغرق اليوم كله والليل كله ! كان يملأ به فراغه فإذا هو يملأ به دنياه ! فهو اليوم لا يقطع علاقته بأمرأة، وإنما يقطع علاقته بحياة لا يطيقها، بجو يكرهه، بعقليات لا يحبها، بعالم كان يهزأ به وبمن فيه، وإذا به يكتشف نفسه غارقا فيه !

من أجلها، كان يحتمل آراء زوجها التافهة فى السياسة الدولية يهز رأسه موافقا على تفاهات وسخافات، وكأنه يستمع لآراء تشرشل وأفكار ستالين !

من أجلها، اضطر أن يجالس عددا من الامراء والنبلاء الذين تدعوهم فضيلة إلى العشاء: تماثيل من الشمع، على رؤوسها تيجان من ذهب. أطفال لهم شوارب ولحى، أكوام من الاقزام داخل صناديق ملكية ! كان عليه أن يتظاهر باحترام من يحتقرهم، وأن يضحك لنكات ثقيلة الدم لم تكن تستحق

إلا أن يصفعهم على قفاهم. كان عليه أن يستمع ساعات طويلة لاحاديث عن الصيد والقنص.. وهى الرياضة التى يمقتها، ولا يطيق أن يرى أمامه حيوانا مذبوحا،

إنه لا ينسى كيف أصرت الأميرة فى يوم من الأيام على أن يصحبها فى رحلة صيد البط فى الفيوم. يومها! رأى مواكب الطيور تنطلق فى السماء، جميلة فاتنة ساحرة، تمشى فى مواكب، وكأنها ترقص على لحن الطبيعة السحرى الأخاذ!

وفجأة أمسكت الأميرة ببندقيتها وأطلقت الرصاص على طائر جميل، ورأى الرصاص وهو يمزق الطائر ويهوى، بينما زميلاته تصرخ وكأنها تبكى وتولول وتندب الطائر الجميل إلى أن أخرستها رصاصات أخرى.. فخلت السماء من الطير الجميل ولم يبق فيها إلا بقايا رائحة الموت والبارود!

وسمع رفقاؤه فى الصيد يهللون ويكبرون ويتبادلون التهانى ويرقصون، وكأنهم أصبحوا وحوش الغابات الذين يرقصون ويهللون ويدورون حول الأسير الذى وقع فى أيديهم!

وفى تلك اللحظة أحس عادل بأن كل هؤلاء الذين يحملون البنادق هم الوحوش والقتلة والسفاحون وأن هؤلاء أنفسهم لن يترددوا فى أن يقتلوا البشر بنفس القسوة التى يقتلون بها الطيور.

وتمزق قلبه لأنه يعشق قاتلة! رآها تقتل أمام عينيه! رآها ترقص فرحة أمام جثث الموتى. وتمزق قلبه أكثر، عندما دعته الأميرة فى نفس الليلة ليأكل البط الذى قتلته أمامه!

وجلس يومها إلى مائدتها، وأبى أن يأكل القتلى، ولم يذق طعاما!

وأحس وهو جالس معها ويراها تأكل بشراهة ولذة البطة التى اصطادتها، بأنه سيجىء يوم يصبح فيه هو «عادل علاء الدين» فى أحد الاطباق الفضية، مكان البط القتيل!

واعتقد فى ذلك المساء أنه لن يرى الأميرة بعد ذلك، بعد أن رآها تقتل، وتأكل ما قتلته! وتصور أنه سوف يتقزز إذا هو قبل شفتى قاتلة، سوف يحس بالقرف إذا عانق قاتلة!

ولكنه فى اليوم التالى كان يقابل القاتلة فى شقته، وأنسته قبلتها الحارة أن أحمر شفتيها هو دم البطة القتيل، وأنساه عناقها أن الذراعين اللتين تحيطان بجسمه هما الذراعان اللتان حملتا البندقية القاتلة!

أنساه جمالها جريمتها، بل إنه استمتع به فى ذلك اليوم أكثر مما استمتع به فى أى يوم آخر، وكأن الدم الذى رآه بالامس أثار كل مشاعره.

وعندما تركته فى ذلك اليوم أحس بأنه يحتقر نفسه. واستنكر أنه نسى منظر البطة القتيل، ولم يذكر إلا الجمال الحى المثير الذى أمامه. وأحس بذل عجيب، إنه أمامه يضعف ويتلاشى وينسى كل شىء إلا جمالها الفتاك..

كثيرا ما قاومها، ولكنه كان دائما يقاوم ثم يستسلم.. يبدأ بكلمة «لا» عالية مدوية، ثم تخفت الـ «لا» تدريجا حتى تتحول إلى «نعم».. لقد أصبح يقبل ما كان يرفضه. وجد فى هذه المرأة سحرا طاغيا يسلبه إرادته ويجرده من أسلحته. وجد أنه يحتقرها ثم يركع تحت قدميها. يلطمها على وجهها ثم يقبل يدها. يلعنها ثم يعبدها. يصفها بأقبح النعوت وأقذر الصفات فتضحك، وتضع شفتيها فوق شفتيه وكأنها تمسح اللعنات.

كان يغيظه منها أنها تعلم أنه لن يستطيع أن يستغنى عنها، وأن شتائمه

تخرج من لسانه وغزله يخرج من قلبه.. وكان يعجب لأنها تحتمل منــه كل إهانة، وكأنها تعلم أنه يهينها لانه يعشقها. وأنه أصبح سجين جمالها، ومن حق المسجون أن يلعن السجان وكانت واثقة دائما بأنها قادرة، بســحرها على أن تحول جحوده المؤقت إلى إقبال دائم.. فهى تترك له حرية الصراخ وهى واثقة أنها سلبته حرية الحركة!

وكان يرى فى هذا خطرها. إنها امرأة خطيرة فعلا، لأنها اسـتطاعت أن تستدرجه إلى عالمها، وهى توهمه أنها هى التى تدخل عالمه. قبلت أن يقول لها إنه يحبها كامرأة ويكرهها كأميرة، ثم اكتشف أنه أصبح عشيقا للأميرة المرأة، والمرأة الأميرة فى وقت واحد. فهى لم تنزع تاجها لتدخل حياته، بل نزعت التاج ووضعته فوق رأسه.. وعندما دخل حياتها وجد نفســه أســيرا داخل هذا التاج!

وعندما أخبرته أنها تريد أن تتزوجه فزع. فمن طبيعتها أن تتوسل لتأمر، وأن تعانق لتخنق، وأن تركع تحت قدميه لتقيدهما بالسلاسل والاغلال!

صحيح أنه رفض عرض الزواج، وسخر منه، ولكنه يذكر أنه رفض قبــل ذلك أشياء كثيرة وسخر منها، ثم قبلها بعد ذلك، دون أن يعرف كيف قبــل ولماذا قبل، ومتى قبل ما كان يرفضه ويأباه!

عارض بشدة أن يحضر السهرات التى تقيمها الأميرة فى قصرها، ووجــد نفسه بعد ذلك مسوقا إلى هذه السهرات. يوهم نفسه أنه يذهب إلى هــذه السهرات ليحرسها وهو فى الواقع يذهب إليها لأنه لا يطيق أن يكون بعيــدا عنها!

رفض أن يقبل دعوات أصدقائها الأمراء والنبلاء، ثم أصبح مضطرا أن يحضر هذه المآدب، ليرى فضيلة ويرقص معها.. لم يعد يكفيه أن يعانقها فى

خلوة، بل أصبح يجد لذة فى أن يعانقها أمام الناس!

أراد أن يرغمها على أن تتوقف عن شرب الويسكى. وتظاهرت بالخضوع له، وانتهى الأمر به أن أصبح هو يشرب الويسكى معها أكثر مما اعتاد أن يشرب!

ما يدريه أن يجىء يوم يسلم فيه لها، ويتزوجها دون أن يدرى كيف تزوجها، تماما كما استسلم لها فى كثير مما قاومه ورفضه بشدة وإصرار!

إنها امرأة مخيفة فعلا. تستسلم لتقاوم، وتتقهقر لتنقض، وتنهزم لتحقق نصرها الكبير. توهم الرجل أنها خاتم فى أصبعه يحركه كيف يشاء، ثم يكتشف الرجل أن الخاتم هو الذى يحرك الرجل، وليس الرجل هو الذى يحرك الخاتم!

* * *

وعض عادل على شفتيه. واشعل سيجارة.. ونظر إلى السيجارة بين أصابعه. هو يتصور أنه يحرق السيجارة بينما السيجارة هى التى تحرقه يتوهم أن السيجارة فى يده، بينما الواقع أنه عبد لهذه السيجارة!

وخطر بباله خاطر أقلقه! ماذا لو أصبح قراره بقطع علاقته بالأميرة فضيلة أشبه بالقرارات التى كان يصدرها بالاقلاع عن التدخين!!

كان يدخن عشرين سيجارة فى اليوم وذات يوم قرر أن تكون السيجارة التى فى فمه هى آخر سيجارة يدخنها فى حياته.

ونزع السيجارة من فمه وألقاها على الأرض وداسها بقدمه.. ومضت بضعة أيام دون أن يدخن سيجارة واحدة.. ثم عاد يدخن سيجارة. واحدة.. ثم عاد يدخن خمسا وعشرين سيجارة كل يوم!

أصدر بعد ذلك عشرات القرارات بالاقلاع عن التدخين. كان ينقطع يوما، أو ثلاثة أيام، أو أسبوعا، أو شهرا، ثم يعود ليدخن بشراهة أكثر مما كان قبل أن يصدر قراره النهائى بالامتناع عن التدخين.

وهكذا أصبح يدخن الآن ستين سيجارة فى اليوم، بفضل القرارات النهائية التى أصدرها، ثم رجع عنها!

وتأمل عادل دخان سيجارته الذى يتصاعد فى دوائر وحلقات، وساءل نفسه: ترى كم يعيش قراره النهائى بقطع علاقته بالأميرة فضيلة؟ ترى هل يعود إليها بشراهة، كما عاد إلى السيجارة بشراهة؟

وانتفض.. تصور لو أن عشرين فضيلة فى اليوم تحولت إلى ستين فضيلة فى اليوم.. لو أنه هجر فضيلة كعشيقة ثم عاد إليها كزوج.. نفس النسبة التى رفعت عدد السجائر التى يدخنها من عشرين سيجارة إلى ستين سيجارة!

وتخيل نفسه زوجا للأميرة!

سيصبح معروف باشا.. الثانى!

وسوف يجىء بعده معروف باشا الثالث.. والعاشر، والعشرون!

وخيل إليه أنه يسمع نكتة أطلقها عليه صديقه المهندس خليل مدبولى المشهور بطول اللسان.. سوف يسميه عادل الحادى والثلاثين فهذا ترتيبه الرسمى فى عدد العشاق الذين تقبلوا الأميرة الحسناء!

وتصور أنه يسمع ضحكات عالية إنه يعرف أصحاب هذه الضحكات إنها ضحكات أصدقائه المهندسين فى شركة الهندسة الكهربائية!

ورأى أمامه صورة المهندس جورج اسحاق وهو يضحك، وصورة

المهندس طاهر كريم وهو يبتسم ابتسامته الصفراء، وصورة صديقه المهندس خليل مدبولى وهو يقهقه قهقهته العالية التى لها طابع خاص.. ثم رأى صورة سكرتيرته ماتيلدا والدموع تملأ عينيها من شدة الضحك.. ثم خيل إليه أن الشعب المصرى كله يضحك من الاسكندرية إلى أسوان!

وأغمض عينيه، وسد أذنيه بكفيه، ومع ذلك استمر يسمع الضحك، ويرى وجوه الضاحكين الساخرين!

ووجد نفسه يضحك هو الآخر.. يسخر من صورته فى ثياب زوج الأميرة!

وتصور نفسه جالسا يلعب البوكر فى الدور الأول من قصر الأميرة بينما الأميرة مشغولة فى المفاوضة على شراء أسهم شركة أخرى مع شاب آخر فى شقتها!

وعاد يسمع الضحكات من جديد وأحس بخجل من نفسه!

ما الذى جعله يهوى إلى هذا الحضيض الملكى!.. لقد عرف قبل الأميرة عشرات النساء، ولكنه لم يشعر بالهوان الذى يشعر به اليوم. لم يحس بأنه فى خطر. كان شعوره الدائم أنه فى أمان، كأن ذراعى المرأة التى يعرفها هما مخبأ يخفيه من الغارات الجوية... ولكنه مع الأميرة لا يشعر أنه يختبئ فى مخبأ.. إنه يختبئ فى قنبلة.. ويتوقع أن تنفجر القنبلة فى أى لحظة وتحوله إلى رماد!

وشعر كأن القنبلة انفجرت فعلا وهو فى داخلها.. أحس بأنه يمتلئ بالنار والألم والدوى والاختناق والدمار والموت!

هل أضاعته هذه المرأة فعلا؟ هل هو جالس فوق انقاضه! هل حولته إلى شظايا! هل سممت حياته، فأصبح لا يستطيع أن يعيش إلا على هذا

السم الذى تنفثه من جسدها وفمها !.. إنه لا يزال يعشقها، وهو يكرهها، لا يزال يحن إليها وهو يهرب منها.

* * *

ودق جرس الباب..

وأسرع يفتح الباب لقسمت، ورآها وفى يدها لفافة !

ورأى النظارة السوداء فوق عينيها...

واستراح لرؤيتها. لم يغضب لأنها جاءت بالنظارة السوداء.. بل على العكس خيل إليه أن قسمت حملت إليه نسيما منعشا. إنها أول مرة تتعطر، إن عطرها يملأ أنفه، اختفت من أنفه رائحة الخوف التى كان يشمها منذ دقائق !

وأراد أن يصحبها إلى الصالون

ودفعته بيدها وقالت وهى تبتسم:

ـ إن موعدى معك فى الداخل وتقدمته إلى الداخل !

وأراد أن يقبلها.. فأفلتت منه وهى تقول:

ـ لن تقبلنى إلا بعد أن أخلع النظارة !

ومد يده لينزع النظارة فتراجعت إلى الخلف، وقالت:

ـ لقد غيرت رأيى !

ـ لن تخلعى النظارة !

ـ لا.. سأخلعها بنفسى !

ثم سألته : أين الحمام؟

وأشار إلى باب الحمام.

وفتحت حقيبتها وترددت قليلا... ثم أغلقت الحقيبة وفتحت اللفافة التى فى يدها...

وأخرجت بيجاما من الحرير الأبيض...

قال عادل فى دهشة :

ــ هل أحضرت بيجاما معك؟

ــ إنها ليست بيجامتى!

ــ بيجامة من؟

ــ بيجامتك أنت... هل نسيت إن الليلة هى موعد زفافك؟ التقاليد جرت أن العروس تشترى بيجامة الزفاف للعريس!

وفتح عادل فمه فى دهشة... همومه مع الأميرة فضيلة أنسته كل شىء عن أن الليلة هى الليلة الموعودة. مضت أيام وأحداث على حوارهما عن لقائهما الأول.. كان مصراً أقبل ذلك على أن يبدأ معها من النهاية. كان يلح عليها أن تخلع نظارتها. كان يغضب إذا جاءت بهذه النظارة السوداء.. كان يريد أن يبدأ الحب من أوله. كان يريد أن يمضى السهرة يحدثها عن قرارة النهائى بقطع علاقته مع الأميرة فضيلة، ويشرح لها الأسباب التى جعلته يتخذ هذا القرار وسيقول لها إنه قرر أن يبدأ علاقته معها، وسوف يقبلها طبعا وسوف يحاول أن يجعلها تخلع نظارتها!

ولكنه لم يكن مهيأ ذهنيا لتكون هذه الليلة هى ليلة زفافه.. كان عقله

مشغولا بدفن غرامه مع الأميرة.. وكان يقدر أنه سيقيم فى قلبه مأتما... ولم يتخيل أنه سيحتفل أثناء تشييع جنازة حب بزفاف جديد!

ولم تفهم قسمت سبب دهشة عادل وقالت له:

ـ مالك واقفا هكذا؟ لماذا لا ترتدى البيجاما، حتى أعرف إذا كانت على مقاسك؟

وأمسك عادل بالبيجاما ووقف مبهوتا واستطاع أن ينطق ويقول:

ـ إنها بيجامة جميلة!

ـ ستكون أجمل وأنت فيها!

ـ أظن أن المفروض أن أشترى لك قميص الزفاف!

ـ يبدو أن هذا هو زفافك الأول.. العروس هى التى تشترى قميص زفافها!

ـ ومتى تشترين هذا القميص؟

ـ اشتريته إنه معى!

ـ هل ارتديته تحت ثوبك؟

ـ لا... إنه فى حقيبة يدى.

ـ هذه الحقيبة الصغيرة تتسع لقميص نوم؟!

ـ ماذا تظن أننى سأرتدى لك.... ناموسية؟

ـ إنك استعددت لكل شىء!

ـ هذا زفافى الأول.

وعادت قسمت تنظر إليه بدهشة وتقول:

ـ مالك لا تتحرك.. لماذا لم ترتد البيجاما؟

ـ سأرتديها!

ـ إن وجهك يا عادل احمر فجأة! الذى لا يعرفك يتصور أن هـذا هـو زفافك الأول.. وأننى لى سوابق فى حفلات الزفاف!

ـ إننى لم أتصور أن يتم كل هذا بهذه السرعة!

ـ إنك الذى أصررت على أن نبدأ القصة من آخرها!

ـ ولكننى كنت أود أن أقلب بيدى الصفحات.. حتى أصل إلى الصفحة الأخيرة!

ـ إننى أشعر أنك وصلت إلى الصفحة الأخيرة منذ مدة طويلة!

ـ منذ متى؟

ـ من يوم أن رقصنا معا فى سهرة الأميـرة شـويكار.. فى تلك الليلـة استسلمت لك!

ـ لم تقولى لى هذا فى تلك الليلة، بالعكس كنت تهاجمين الرجال!

ـ لم يكن هجوما، كان زغاريد تطلق عادة ليلة الزفاف!

ـ وما الذى جعلك تنتظرين حتى الآن؟

ـ أنت اللى جعلتنى أرملة.. فى ليلة زفافى!

ـ ولعنتنى.. طبعا!

ـ لعنت نفسى!

ـ لماذا؟

ـ لأننى لم أخلع النظارة فى اليوم الأول!

ـ وستخلعينها الليلة؟

ـ سأخلعها ليلة زفافى!

ـ الليلة فقط!

ـ ستكون كل ليلة معك هى ليلة زفافى!

ومشت قسمت بخطوات سريعة إلى مائدة التواليت، وأخذت مشطا وفرشاة، وأسرعت إلى الحمام. وقبل أن تغلق بابه أطلت برأسها وهى تقول:

ـ سأغيب عنك نصف ساعة!

ـ لماذا نصف ساعة؟!

ـ سأستغرق نصف ساعة فى خلع نظارتى....

وأغلقت قسمت باب الحمام..

* * *

ووقف عادل وسط الغرفة يحمل البيجاما فى يده، وهو لا يتحرك من مكانه!

لقد غيرت قسمت الغرفة.. منذ لحظات كان يملأ هذه الغرفة جو ثقيل..

كان يشعر منذ بضع دقائق أنه رجل مسحوق مستسلم، مقهور، حفنة من تراب بقايا رجل!

وإذا به يرى جسمه ينتصب من جديد. كأنه خلع قناع المهزوم، ووضع على وجهه قناع المنتصر... كأن جثة عشقه للأميرة فضيلة اختفت فجأة من غرفته. وتحول الموت إلى حياة جديدة!

وبدأ يخلع ملابسه، ويرتدى البيجاما الجديدة..

ونظر إلى المرآة، ودهش عندما رأى كتفيه المنحنيتين انتصبتا فجأة، ورأى عينيه اللتين أضناهما السهر عاد إليهما البريق.

عجبا! استطاعت هذه المرأة الدميمة، الرثة الثياب، أن تبعثه من جديد على قيد الحياة، كأن هذه المرأة غسلته بكلمة واحدة.. لم تذكر إلا أن الليلة هى ليلة زفافها!

قالت هذه الكلمة بلهجة ساحرة، صوتها الناعم أضفى جمالا على وجهها الكئيب، إن صوت المرأة يغير ملامحها، يعمى عيوننا فلا ترى إلا جمال هذا الصوت وما فيه من رقة وسحر ونعومة تنسينا حتى لون بشرتها!

وانفتح باب الحمام..

ولم تدخل قسمت شاهين.. دخلت امرأة أخرى.!

لا... مستحيل أن تكون هذه قسمت شاهين!

وتراجع عادل إلى الخلف مبهورا .. رأى امرأة رائعة الجمال تدخل فى قميص نوم أزرق شفاف، وقد أسدلت شعرها الجميل على كتفيها.

رأى عينين لم ير أجمل منهما فى حياته.

عينين ناعستين حالمتين واسعتين غارقتين فى كحل أسود بخط عـريض حول العينين على الجفنين الأعلى والأسفل.

رأى ظلالا ساحرة حول العينين، اللون الأبيض على الجفـن الأعلـى، والأخضر على المنطقة تحت الحواجب!

ماذا فعلت هذه المرأة حتى جعلت عينيها بكل هـذه الفتنـة والسـحر والاغراء؟ إن كل ما فى عينيها جميل.. الحواجب، الرموش، لون العينيـن، لمعانهما العجيب.

ونظر إلى شفتيها!

ورأى فما مكتنزا رسمت حدوده بالقلم الأحمر الداكن..

لم تكن امرأة، وإنما كانت الجمال مجسما!

كيف استطاعت أن تخفى هذا القوام الجميل خلف ملابسها الرثة؟

إنه يرى صدرها لأول مرة.. صدرا بارزا، كفاكهة شهية تدعو الأيدى إلى اقتطافها!

ثم يرى ساقيها وكأنهما منحوتتان بـأصابع فنـان تخصص فى رسـم السيقان المثيرة للنساء!

ولم يفتح عادل فمه. أخرسته الدهشة. كل ما فعله أنه عض على شفتيه، وكأنه يندم على الأيام التى مضت دون أن يستمتع بكل هذا الجمال!

ومالت قسمت برأسها إلى الخلف وقالت:

ـ يظهر أننى لم أعجبك؟!

ـ إننى لا أصدق عينى!

ـ هل تفضلنى بالنظارة؟

ـ إننى سأحطم هذه النظارة!

ـ لن تحطمها... لو حطمتها فكأنك حطمتنى!

ـ لماذا؟

ـ لأننى سأعود إلىٰ النظارة!

ـ مستحيل!

ـ المستحيل أن يرانى الناس بغير هذه النظارة!

ـ لماذا تريدين أن تخفى هذا الجمال؟

ـ كنت أبحث عن رجل يحبنى لشخصى.. لا لجمالى!

ـ كنت تعاقبين الرجال!

ـ كنت أمتحنهم!

ـ ولكن، ما الذى جعلك تتخفين وراء قناع من الدمامة، وتصرين على أن تضعى نظارة سوداء على عينيك وترتدى ملابس رثة؟

ـ أمى!

ـ أمك هى التى طلبت منك أن تفعلى ذلك؟

ـ كانت أمى جميلة جدا... وكان أبى يعبدها.. ثـم احتـرق وجههـا فشوهها، وبدأ أبى يخونها.. ولم تحتمل هذه الحياة، فانتحرت!

ـ ومن قال لك هذا؟

ـ قرأت مذكراتها!

ـ ولهذا قررت أن تشوهى نفسك!

ـ لكيلا يحدث لى ما حدث لأمى!

ـ ولهذا كرهت كل الرجال؟!

ـ نعم!

ـ إنك تعذبين نفسك عندما تحبسين كل هذا الجمال داخل قناع كئيب!

ـ أنا لا أعذب نفسي... إنما أعذب الرجال!

* * *

قال عادل وهو يعانقها:

ـ هل أنت سعيدة؟

قالت قسمت:

ـ إننى لم أولد إلا الليلة!

ـ أما أنا فمازلت أتصور أننى أحلم!

ـ كل ما أتمناه أن أجعل هذا أطول حلم فى حياتى!

ـ سوف يصبح حلمى الوحيد!

ـ لا أصدق. الرجال يحلمون كثيرا. أما المرأة فإنها تحلم مرة واحدة فى حياتها!

ـ كانت أحلامى كابوسا !

ـ ولكن لى شرطا !

ـ هذا هو عيب النساء.. ينتهزن اللحظة التى يكون فيها الرجل مخـدرا ليملين شروطهن !

ـ يقولون إن العناق هو خير مناسبة لاملاء الشروط !

ـ أعرف شروطك مقدما وموافق عليها !

ـ أنت لا تعرف شروطى !

ـ أنا أعرفها جيدا !

ـ ما هى ؟

ـ أن أقطع علاقتى بالأميرة فضيلة !

ـ لا...

ـ أن أقطع علاقتى بكل النساء.

ـ لا..

ـ إذن ما هى شروطك؟

ـ أن تستمر فى علاقتك بالأميرة فضيلة وبسائر النساء !

الفصل العشرون

كان عم عبده جالسا فى زنزانته يقرأ فى جريدة (الصباح) أخبار الحرب. اعتاد منذ دخوله السجن أن يقرأ صحف الصباح فى الليل بعد أن يقرأها جميع زملائه المسجونين. لم يكن مهتما بأن يقرأ الصحف فى موعد صدورها فهو يرى بصمات يد الرقيب على كل خبر. المصريون أصبحوا كالزوج المخدوع آخر من يعلم ما يجرى فوق أرض بلادهم.

الانجليز منعوا نشر الخرائط حتى لا يعرف المصريون أن الالمان يحتلون جزءا من أرضهم، وأنهم يقتربون من مدينة الاسكندرية. لولا الشاويش إبراهيم الذى يواظب على سماع اذاعة برلين لما عرف عم عبده حقيقة ما يحدث فى ميدان القتال. كل ما فى الصحف أكاذيب. الصفحة الوحيدة الصادقة فى الجريدة هي صفحة الوفيات. وأحيانا تمتد يد الرقيب إلى هذه الصفحة وتحذف منها اسم مكرم عبيد إذا كان المتوفى أحد أقاربه!

وكان عم عبده يقرأ تصريحا لفهمى بك ويصا وزير الوقاية، يقول فيه إن مدينة القاهرة أصبحت مدينة منيعة، بفضل دفاعها العسكرى ودفاعها المدنى..

وما كاد يصل عم عبده إلى نهاية التصريح الخطير حتى دوت صفارات الانذار. وأسرع يطفئ النور.. وسمع صيحات ترتفع فى داخل العنبر تصيح «اقفل النور يا ابن الكلب»!

ثم سمع صوت انفجارات متتالية. وأحس بأن الزنزانة تهتـز. وتـوالت طلقات المدافع.. وأطل عم عبده من نافذة الزنزانة فرأى أنوار المصـابيح الكاشفة يجرى شعاعها فى السماء خلف طائرة، والطائرة تحاورها وتداورها، والاشعة البيضاء حائرة تتجه إلى اليمين وإلى اليسار كأنها طفل وضع على عينيه عصابة سوداء، ويلعب لعبة الاختفاء فى السماء!

وسمع صوتا يرتفع من الطابق الأول يقول:

ـ يارب طربقها يارب!

وصاح آخر:

ـ اجعل عاليها سافلها!

وصاح ثالث:

ـ جاء الفرج يا أولاد!

وابتسم عم عبده.. هؤلاء التعساء يرون الوسيلة الوحيدة للخلاص ممـا هم فيه أن يهدم كل شيء يتصورون أن قنابل الالمان سوف تفتح لهم أبواب السجن.

واستمر الدوى. ونظر إلى قضبان نافذة الزنزانة فبدت فى الظلام كسيوف مضيئة. البريق يملأ الافق، إنه بريق طلقات المدافع المضادة. السماء تتلون بألوان بيضاء وحمراء. مسجون يصرخ ويقول: قنبلة سقطت فوق السجن!

* * *

ويسمع صوت مفتاح يدور فى باب زنزانته، ورأى شبحا يدخل، وعرف من صوته أنه الصاغ حامد الجزماتى نائب المأمور، سمعه يقول هامسا:

ـ أخرج بسرعة يا عبده بك!

وأسرع يتبع نائب المأمور. واعتقد أن الانسان فى الجزماتى تغلب على الحيوان فيه، وأنه سيفتح الاقفاص التى يقيم فيها المسجونون لينزلوا إلى الدور الأرضى، ولكنه فوجئ بأن الصاغ الجزماتى لم يفتح لمسجون سواه.

وسأله هامسا:

ـ الا تنوى أن تفتح لباقى المسجونين؟

قال نائب المأمور:

ـ التعليمات تمنع ذلك!

ـ ولماذا فتحت لى؟

ـ أنت شىء آخر!

ـ ولكن لو وقعت قنبلة على السجن وشبت النار، فسوف يحترق هؤلاء الالوف فى زنازينهم!

ـ هذا شىء لا يهم المصلحة. كل ما يهمها إلا يهربوا.

ـ يموتون، ولا يهربون!

ـ هذه هى الأوامر!

واجتاحت السجن هزة عنيفة. واهتز السلم الحديدى الذى ينزل عليه عم عبده خلف نائب المأمور. وخيل اليه أن الجدران تهتز، كأن زلزالا عنيفا وقع!

واستند عم عبده إلى الجدار وتوقف..

وجذبه الصاغ الجزماتى من يده وقال:

ـ أسرع.. قد ينهدم السجن!

ـ أين سنذهب؟ إلى المخبأ؟

ـ لا.. لا يوجد مخبأ هنا.. سنجلس فى جامع السيدة صفية الموجود فى الطابق الأول.

ـ وباقى المسجونين؟

ـ ما لنا وما لهم؟

ـ إنهم زملائى!

ـ أنت عبده بك.. هم صعاليك!

ـ أنا صعلوك مثلهم.

ـ العفو يا عبده بك!

ووصل عم عبده إلى جامع السيدة صفية، ووجد فيه كل الحراس والصولات.. وسمع أحد الصولات وأحد الحراس يتحدثان:

ـ نحن فى أمان هنا!

ـ نعم لأن الالمان لا يضربون الجوامع!

ـ هل هم مسلمون؟

ـ هتلر أسلم.. وهذه هى تعليماته للطيارين.. لم يحدث مرة واحدة أن أصابت قنبلة مسجدا من المساجد!

ـ لعلها بركات الأولياء المدفونين فى المساجد!

ـ أخطأ مرة طيار ألمانى وألقى صاروخا على جامع سيدى العباس.. فما كان من سيدى العباس ألا أن أخرج يده من الضريح وأبعد الصاروخ.. وعندما سمع هتلر بما فعله الطيار الالمانى أعدمه رميا بالرصاص!

وتدخل عم عبده فى الحديث وقال للصول.

ـ هل أنت متأكد أن القنابل لا تصيب المسجد.

ـ متأكد مائة فى المائة!

ـ إذن لماذا لا تجىء بالمسجونين وتضعهم فى المسجد؟

ـ هؤلاء مجرمون!

ـ هل هم محكوم عليهم بالاعدام؟

ـ لا..

ـ إذن لماذا تدعونهم يموتون فى زنازينهم، وتختفون وحدكم فى مسجد السيدة صفية.

ـ لاننا الحكومة!

ـ تعيش الحكومة ويموت الشعب؟

ـ هؤلاء ليسوا من الشعب. إنهم مجرمون!

ـ مجرمون من الشعب!

ـ نعم.. ولكن المحكوم عليه يفقد كل حقوقه!

ـ حتى حقه فى الحياة!

ـ حقه فى أن يذهب إلى المخبأ.. لو كانت الحكومة ترى أن من حق المسجونين أن يلجأوا إلى المخبأ لبنت لهم فى السجن مخبأ.. ومادامت لم تنشئ لهم مخبأ فمعنى ذلك أنها ترى أن لا مانع من أن تسقط عليهم القنابل ويموتوا!

وتضاعف دوى المدافع..

.وتعالى صراخ المسجونين داخل زنزاناتهم.

وقال الصول لاحد الحراس:

ـ اذهب إليهم وقل لهم إن أى واحد منهم سيفتح فمه سوف نجلده غدا!

قال عم عبده ساخرا:

ـ قد لا يجيء الغد أبدا.. قد تسقط قنبلة الآن علينا وتتولى جلدنا جميعا!

وارتعش الصول وكأنه رأى الموت يقترب من عنقه لأول مرة، وخشى إذا مات أن يحاسبه الملكان على أمره بجلد المسجونين فقال للحارس:

ـ لا داعى لأن تذهب وتهددهم الآن!

وأقبل الصاغ حامد الجزماتى وجلس إلى جوار عم عبده وقال له هامسا:

ـ يظهر أن الالمان سيدخلون القاهرة الليلة؟.. إن هذا الهجوم الجوى هو تمهيد لدخولهم العاصمة سيدخلون الليلة، وستصبح أنت وزيرا غدا. لا تنس وعدك لى بتعيينى مأمورا لسجن الاستئناف!

ـ أنت تفكر الآن فى الترقية.. وأنا أفكر هل ستسقط علينا قنبلة أم لا؟

ـ لن تسقط علينا قنبلة!

ـ لاننا فى مسجد السيدة صفية!

ـ لا.. لأن الالمان يعرفون بالطبع أنك هنا.. ولا يمكن أن يلقوا قنبلة على صديقهم!

ـ أنا صديقهم؟

ـ سعادة المأمور قال إنك صديق شخصى لهتلر!

ـ وكيف عرف ذلك؟

ـ إنه قرأ المنشور الذى هاجمت فيه الانجليز!

ـ وهل من يهاجم الانجليز يصبح صديقا لهتلر؟

ـ هكذا قالت النيابة!

ـ هل تحب الانجليز؟

ـ أحبهم ماداموا يحكموننا.. وأكرهم عندما يخرجون من بلادنا!

ـ أليس لك رأى؟

ـ أنا موظف!

ـ وهل الموظف يخلع رأيه على باب الوظيفة؟

ـ القانون المالى ينص على هذا

ـ عندما يدخل الالمان سوف تصبح نصيرا للالمان؟

ـ من يتزوج أمى أقول له يا عمى!

ـ لابد أن تكون أمهاتنا من الغوانى.. لكثرة عدد الغزاة الذين دخلوا بلادنا!

ـ هذا مثل شعبى!

ـ إنه مثل أطلقه العبيد ليعتذروا به عن عبوديتهم واستخذائهم!

ـ إننى عبد المأمور!

ـ وماذا سيحدث لك إذا سقطت الآن قنبلة على السجن وقتلت ألف مسجون، لانك تركتهم مقفلا عليهم داخل الزنازين!

ـ لن يحدث شيء! كل ما سوف يحدث أن مدير المصلحة سيجيء ويحصى عدد الجثث، فإذا وجدها مطابقة لعدد التمام فسيهنئنى!

ـ على أنك قتلت ألف مسجون!

ـ لا.. سيهنئنى على أن أحدا منهم لم يهرب من السجن!

ـ هل هذا هو ما تعلمته من الانسانية؟

ـ هذا ما تنص عليه تعليمات المصلحة!

ـ أن يموت المسجون.. ولا يهرب!

ـ ألا يحققون معك إذا مات أى مسجون هنا!

ـ لا، مطلقا.. تقوم الدنيا وتقعد إذا هرب مسجون واحد.. ويحرم المامور من الترقية عدة سنوات.. وربما يرفت من وظيفته!

ـ وإذا مات ألف مسجون!

ـ لا يجرى أى تحقيق.. إلا فى حالة واحدة؟

ـ ما هى هذه الحالة؟

ـ إذا مات وكان فى ذمته عهدة لم يسلمها!

* * *

دخلت الانوار الكاشفة غرفة نوم عادل من النافذة المفتوحة كأنها بوليس الآداب يضبط عاشقين فى الطريق العام!

وأضاءت الانوار الغرفة وكانت قسمت بين ذراعى عادل يتبادلان الحب..

وفتحت قسمت عينيها المغمضتين

وسمع العاشقان صوت مراقب الوقاية يصيح من الدور الارضى

ـ اقفل النور!

وقال عادل:

ـ لماذا تخالفين تعليمات مصلحة الوقاية وتضيئين النور؟

ـ اننى لم أضىء النور!

ـ انك فتحت عينيك.. فخرج منهما النور!

ـ هل تريد منى أن أضع نظارتى على عينى أثناء الغارة؟

ـ اننا مجانين حقا لاننا فضلنا أن نبقى فى غرفتنا على أن نذهب للمخبأ!

ـ لأنك أنت مخبئى الوحيد!

ـ وماذا سيقولون عنا إذا سقطت علينا قنبلة الآن؟

ـ سيقولون مات فيها.. وماتت فيه!

ـ ستكون فضيحة لرب السماء!

ـ لا تهمنى الفضيحة.. مادمت لن أسمعها!

ـ إنها أول مرة فى حياتى أبقى فيها مع امرأة أثناء دوى القنابل واطلاق المدافع!

ـ أنا لم أسمع القنابل وأنا بين ذراعيك.. لم أسمع إلا دقات قلبك!

ـ لم تكن هذه دقات قلبى.. كانت صفارة الانذار!

ـ عندما أكون معك لا أسمع إلا صوتك.. ولا أرى سواك!

ـ ألم تشعرى بالخوف؟

ـ لم أشعر بالامان.. إلا فى تلك اللحظات!

ـ ألم تفكرى فى الموت؟

ـ فكرت فى الحياة!

ـ إن أعصابك قوية!

ـ حبى.. أقوى من أعصابى!

ـ إنها ليلة جميلة فعلا. السماء صافية والقمر بدر، إنها ليلة للحب.

ـ يظهر أن ليالى الحب هى ليالى الحرب.. ألم تلاحظ أن الطائرات الالمانية لا تجىء لنا إلا فى الليالى الصافية الجميلة؟

ـ لعلهم يقصدون أن يعكروا ليالى العشاق!

ـ ربما يكون العشاق جميعا مثلنا!

ـ لا أتصور أن العشاق فى هذه الليلة يفضلون البيوت على المخبأ!

ـ لو عرفوا الحب كما عرفناه.. لما فكروا فى المخابىء!

ـ حالة الجنون!

ـ الحالة التى يسمع العاشق فيها دقات قلب من يحب، وتعلو على صوت المدافع ودوى القنابل!

ـ سوف أبقى أذكر هذه الليلة طوال حياتى!

ـ وستقول إننى أكبر مجنونة عرفتها!

ـ سأقول إنك ألذ امرأة عرفتها!

* * *

ودوت صفارات الامان..

وأضاء عادل المصباح الكهربائى الذى بجواره، ورأى عينى قسمت الحالمتين، وصدرها الجرىء، وبشرتها اللامعة. وضمها إلى صدره وهو يقول:

ـ أنت رائعة فى الظلام، ورائعة فى النور.. رائعة فى كل وقت!

ـ حتى بالنظارة؟

ـ أعوذ بالله، لاتذكرينى بالنظارة!

ـ ولكنك قلت لى إنك أحببتنى وأنا بالنظارة؟

ـ كنت فدائيا!

ـ إذن لن تصافحنى إذا رأيتنى بالنظارة!

ـ أصافحك، ولكنى لا أقبلك.. إننى أتمنى أن تتركى هذه النظارة إلى الابد..

ـ لقد وعدتك بأن أخلعها معك فقط.. وأنا أخلعها وأنا (الآنسة كاف) وأضعها على عينى وأنا (قسمت شاهين). لا أريد أن يعرف (الآنسة كاف) إلا رجل واحد هو أنت! أما قسمت فهى لكل الناس!

ـ ولكن مأمور سجن الاستئناف يسميك (الآنسة كاف)!

ـ اننى معك (كاف) أخرى! إننى سعيدة بأن أعيش بشخصيتين، شخصية لك وشخصية للعالم كله.. معك الحبيبة، ومع الناس العدوة، عدوة كل الرجال! معك الحبيبة ومعهم الطاهرة! معك المرأة ومعهم سكرتيرة مجلس إدارة ملجأ المتسولين!

ـ ولكنى أتمنى أن يراك الناس جميلة كما أنت فى الحقيقة!

ـ سأكون للناس بالنظارة وبالثوب المحتشم.. وسأكون لك بلا نظارة وبلا ثياب، لا أريد أن يرانى كما أنا إلا الرجل الذى أحبه!

ـ ولكنى أريد أن أصحبك إلى كل مكان، أن أرقص معك فى شبرد.. أن أتعشى معك فى سميراميس.. أن نذهب معا لنسهر فى الاوبرج!

ـ أنا لا أريد أن أراك إلا هنا.. فى هذه الشقة!

ـ ولا تخرجين معى!

ـ يمكنك أن تخرج مع الأميرة فضيلة !

ـ ولكنى لا أريد أن أخرج إلا معك !

ـ إننى أريد أن أكون ملابسك الداخلية، لا ملابسك الخارجية.. ملابسك الداخلية هى التى تلتصق بجلدك.. أما ملابسك الخارجية فللناس جميعا !

ـ أن الذى يعشق انسانا يحب أن يكون معه فى كل مكان !

ـ ولكنى أحبك وأنت وحدك. لا أشعر برغبة فى أن استعرض حبى أمام الناس. لا يهمنى أن يقولوا إن عادل علاء الدين يحب قسمت شاهين إننى أريد الباب الخلفى لقلبك، وأترك لغيرى الباب الامامى !

ـ أنت امرأة غريبة. أمنية كل امرأة أن تحمل اسم الرجل الذى تحبه. أن تظهر بجانبه أمام العالم. هناك نساء كثيرات يتحملن خيانة أزواجهن فى سبيل أن يحتفظن بالمظاهر يرضين ألا يأخذن من الرجل إلا اسمه، تاركات ما بقى منه لنساء أخريات.

ـ ولكننى اختلف عن كل امرأة أخرى. لو كنت مثل كل امرأة أخرى لما وضعت هذه النظارة السوداء على عينى طوال هذه السنين. أريد رجلى من داخله لا من خارجه !

ـ ولكنى أريدك من الداخل والخارج معا !

ـ أنت أشبه بالرجل الذى يأكل الموز بقشره ! أنا أريد ثمرة الموز نفسها.. وأرمى قشرة الموز للناس !

ـ ليتزحلقوا فيها !

ـ لا أقصد ذلك ! وإنما أنا أجد لذة فى أن احتفظ بسعادتى لنفسى.. هناك

من يملك مليون جنيه ويمشى فى الشوارع يعلن أنه يملك مليون جنيه، ويكتب فى الصحف أنه يملك مليون جنيه. وإذا قابل غريبا قدم نفسه بقوله: أنا المليونير فلان.. وهناك من يملك مليون جنيه، ويستمتع بها دون أن يعلن للناس أنه مالك الملايين. توجد نساء يرتدين ملابس أنيقة ليغظن السيدات الاخريات لا لتستمتع هى بالثوب وبجماله.. توجد نساء يتعطرن ليشم الناس عبيرهن لا ليستمتعن بهذا العبير. أنا متعتى أن ارتدى الثوب لنفسى، واتعطر لنفسى، وأحب لنفسى!

ـ تخافين حسد المحرومين!

ـ أنا لا اؤمن بالحسد. أنا أخاف أن أجرح إحساس المحرومين. أن يعرفوا أننى سعيدة وهم أشقياء. أن يرونى غنية وهم فقراء. أن يشهدونى اتبختر فى أغلى الملابس وهم شبه عرايا.. أن يلمسوا هنائى فى الحب وهم محرومون من نعمة الحب!

ـ وإذا ابتليتم بالمعاصى فاستتروا

ـ وإذا أنعم الله عليكم بنعمة فاستتروا أكثر!

ـ بالعكس.. وأما بنعمة ربك فحدث..

ـ إننى أتحدث بنعمة الله مع الرجل الذى أحبه.. ولكنى أعطى دائما عذرا للطبيعة البشرية! اننى موضع سر نساء كثيرات لانهن يعتقدن اننى امرأة دميمة لاحظ لها مع الرجل. ولو عرفت أى واحدة منهن أن فى مسحة من جمال لما وثقت بى واحدة منهن! لهذا أعرف كيف تستقبل سيدات المجتمع نبأ أن واحدة منهن سعيدة فى حبها! مثل هذا النبأ يحول السيدات إلى حيات كل واحدة منهن تريد أن تقتل بسمها العاشقة السعيدة! كل

واحدة منهن تشترى سكينا لتغمده فى المرأة السعيدة أو فى الرجل السعيد! كل منهن تطلق الاشاعات والأكاذيب على هذا الحب.. فإذا لم يمت مقتـولا بالسكاكين مات مختنقا بغازات الاكاذيب الخانقة!

ــ ان رأيك سيئ فى نساء المجتمع!

ــ لأننى أعرفهن جيدا!

ــ إذن أنت تعيشين بينهن متنكرة خلف نظارتك السوداء لتخدعيهن!

ــ أنا لا أخدعهن بدمامتى... أنا اسعدهن بهذه الدمامة! أنا الآن امرأة خفيفة على قلوبهن جميعا.. أنا خارج المباراة! لا أنافس أى امرأة أخرى! أى امرأة تستطيع ان تأتمننى على حبيبها أو زوجها! لولا ذلك لما ائتمنتنى اميرة عبد العاطى عليك!!

ــ ماذا تفعل أميرة لو عرفت أننى أحبك؟

ــ سأصبح أشبه (بالتشلكتس) فى فم المجتمع! كل امرأة منهن ستمضغ سمعتى، ستلوث اسمى.. ستطلبك نساء فى التليفون، وستقول لك كل واحدة ان قسمت شاهين كانت عشيقة فلان، وهى الآن تخونك مع علان! لن تصدق فى بداية الامر، ولكن الطرق المستمر على الباب يفتح الباب.. سوف تشـك فى.. وفى الوقت نفسه ستتصل بى صديقات لى، وتروى كل صـديقة حـكاية عنك.. وسوف أبدأ أشك فيك... وهكذا يموت الحب!

ــ ماذا تفعل أميرة لو عرفت إننى أحبك إلى هذه الدرجة؟

ــ الحب يجعل عقول العشاق فارغة! الحب يحولنا إلى اطفال نصدق كل شىء!

ــ الحب ثقة!

ـ إلى ان تضع الناس أنوفهم فيه.. الحب هو جرح مفتوح ف القلب.. وكثرة الايدى التى تعبث بالجرح تسممه.. حتى ولو كانت هذه الايدى أيدى الاطباء!

ـ إذن تريدين إخفاء حبنا!

ـ كما أخفى مجوهراتى! أنا اضعها ف البنك، ولا أتزين بها أبدا!

ـ لانك تخشين اللصوص!

ـ أخشى اللصوص.. وأخشى ان أعذب الناس بسعادتى!

ـ ولهذا ستبقين أمام الناس جميعا عدوة الرجال!

ـ ومعك سأكون حبيبة الرجال.. كل الرجال.. لانني أرى أنك انت وحدك كل الرجال!

ـ ولكنى اخشى عليك أن تتعبى من هذا التمثيل!

ـ أنا لا أمثل هذه هى طبيعتى إننى لم أشعر أننى امرأة الا معك وحدك ولا أشعر بهذا الشعور أمام أى انسان آخر.. لا رجل.. ولا امرأة!

ـ وبهذه الطريقة تحافظين على سمعتك!

ـ إننى أحافظ على سمعتك أنت! سوف تفقد سمعتك كدون جوان وزئر النساء وكازانوفا اذا عرفت النساء عنك أنك عشيق قسمت شاهين، المرأة الدميمة رثة الثياب. صاحبة النظارة السوداء!

ـ إننى زهدت ف حياتى كزئر نساء: لأول مرة ف حياتى أشعر أن سعادتى ف امرأة واحدة!

ـ إنني امرأتان فى امرأة واحدة. «الآنسة كاف».. «وقسمت شاهين»!

ـ سأحتمل قسمت من أجل الآنسة كاف!

ـ نصفى شوك.. ونصفى ورد!

ـ لا ورد بلا شوك!

ـ ولكننى مصممة على أن تمضى فى حياتك.. أن ترى الاميرة فضيلة كما كنت تراها.

ـ لم أعد استطيع!

ـ يجب ان تستمر فى علاقتك بها!

ـ إننى فى دهشة من أن تقول امرأة لرجل تحبه أنها تريده أن يكون على علاقة بامرأة اخرى!

ـ إننى أفضل أن تراها بموافقتى. على أن تراها من وراء ظهرى!

ـ لقد حاولت الاميرة أن تتصل بى عدة مرات وكنت أهرب منها.. وكذلك اتصل بى زوجها معروف باشا وهربت منه!

ـ لا تهمنى أخبارها!

ـ غريبة! ألا تشعرين بالغيرة منها؟

ـ لا أشعر بوجودها!

ـ ولكنها تغار منك!

ـ إن من حقها أن تغار منى.

ـ لماذا ؟

ـ لأنني أخذتك منها.. وهى لم تأخذك منى !

ـ إن المرأة تغار من كل امرأة قبلها.

ـ لا.. بل من كل امرأة بعدها !

ـ إن أم كلثوم لها أغنية تقول فيها على لسان الشاعر احمد رامى « غاير من اللى قبلى.. حتى ولو كنت جاهلة » !

ـ لو طبقت عليك هذه القاعدة يا عادل لوجب على أن أغار من نساء مصر جميعا !

ان رأيك سيئ جدا.. انت تتصورين اننى عشقت نساء مصر كلها !

ـ إن رأيى فى النساء سيئ جدا !

ـ لأن ذوقهن سيئ !

ـ لأن ذوقهن مثل ذوقى ! سوء حظى إننى أحببت رجلا تحبه كل النساء !

ـ ومع ذلك تقولين إنك لا تشعرين بالغيرة؟ ما رأيك أننى أغار عليك !

ـ مادامت هذه النظارة السوداء على عينى.. فسوف تحمينى من الرجال ! إننى أصبح بفضلها فوق مستوى الشبهات !

ـ الرجل لا يغار من الرجال فقط ! انما يغار على المرأة التى يحبها من كل شىء.. من عملها الذى يأخذ بعض وقتها، من صديقاتها اللواتى تأتمنهن على أسرارها من المرآة التى تطيل الوقوف أمامها اكثر مما تطيله فى وجه حبيبها، من الثوب الذى يلتصق بجسدها !

ـ من النظارة؟

ـ ومن النظارة أيضا.. كنت أفضل أن أتولى أنا حمايتك بدلا من هـذه النظارة!

ـ إنك لا تستطيع أن تحمينى من ألسنة الناس.. ولكن هـذه النـظارة السوداء تحمينى من ألسنتهم السوداء!

ـ وماذا يخيفك من ألسنة الناس؟

ـ سمومها.

ـ ما من سيدة محترمة فى هذا البلد إلا وتناولتها ألسنة الناس بـالحق وبالباطل!

ـ الألسنة تذبح كما تذبح السيوف!

ـ الألسنة أشبه بالغبار. ترتفع ثم تهبط على الارض وتداس بالاقدام!

ـ ولكن الغبار يترك أثرا.. الماء فوق الغبار يحوله إلى طين!

ـ دموعنا هى التى تحول هذا الغبار إلى طين! لولا اهتمـامنا بهـذه الألسنة لما تحول التراب إلى طين! الألسنة لم تحول القديسة إلى فـاجرة، ولا الشيطانة إلى ملاك!

ـ إننا فى الشرق نحسب حسابا كبيرا لألسنة الناس!

ـ إننا نخاف من ألسنة الناس اكثر مما نخاف من الله! ولهذا نشأت كل تقاليد مجتمعنا رعبا من ألسنة الناس!

ـ ربما ألسنتنا فى مصر أحد من ألسنة الناس فى البلاد الأخرى.

ـ الألسنة واحدة فى كل الافواه! طول اللسان فى مصر مثل طوله فى انجلترا أو فرنسا أو سويسرا أو السويد أو النرويج. ولكننا نحن نشجع الالسنة بخوفنا منها، نجعل لهذه الألسنة قوة القانون وسلطة الآلهة!

ـ إننا فعلا جعلنا من ألسنة الناس ضمائرنا التى نخشاها!

ـ نحن نفعل كل ما يفعله غيرنا فى البلاد الاخرى، مع فارق واحد. هم يضيئون النور ونحن نطفئ النور.. هم يتكلمون بصوت عالٍ ونحن نهمس بنفس الكلمات.. إن الطبيعة الانسانية واحدة فى كل مكان.

ـ ربما خوفنا من ألسنة الناس هو الذى يجعلنا نتردد فى ارتكاب الخطايا!

ـ الظلام هو الذى يشجع على الجريمة. الخطايا فى الظلام أكثر من الخطايا فى النور.. إن المرأة فى بلادنا تخاف أن تمشى مع رجل غريب فى الشارع، ولا تخاف أن تنام بجواره فى فراش فى غرفة مقفلة الابواب.. نحن لا نخاف الله.. ولا نخاف القانون.. ولا نخاف ضمائرنا. وانما نخاف ألسنة الناس!

ـ إننى أتمنى أن أعيش فى مجتمع بلا ألسنة!

ـ هذا ما يريده الطغاة. هذا هو نظام دكتاتورية هتلر وموسولينى، نظام قطع ألسنة الناس!

ـ هل الناس فى ايطاليا وألمانيا لا يتكلمون؟

ـ انهم يخافون من الكلام!

ـ ولكن المحور استطاع بقطع ألسنة الناس أن يكسب الحرب!

ـ لن يكسب الحرب!

ـ الناس يؤكدون أن جيوش المحور ستدخل القاهرة غدا.

ـ لن يكسب المحور الحرب.. حتى ولو دخلت جيوشه القاهرة!

ـ من الذى سيكسب الحرب؟

ـ الشعوب الحرة..

ـ هل لديك أخبار خاصة؟

ـ لا.. إنها نظرية هندسية. الشعوب المقيدة لا يمكن ان تهزم الشعوب الحرة! الطاقة المقيدة لا تهزم الطاقة المنطلقة. قد تكسب الدكتاتورية معركة ومائة معركة، ولكن النازيين لا يمكن أن يكسبوا الحرب!

ـ ولكن النازيين ينتصرون فى كل مكان، فى روسيا، فى البلقان، فى أوربا وفى افريقيا.

ـ ولكنهم سينهزمون فى بلادهم!

ـ إن جيوش الدكتاتورية أقوى من جيوش الديموقراطية!

ـ ليكن.. ومع ذلك فسيكون النصر للديموقراطية..

ـ كيف تنتصر الديموقراطية وهى مهزومة فى كل معركة!

ـ إنها تنتصر دائما فى المعركة الحاسمة.. المعركة الاخيرة!

ـ كنت أتمنى هزيمة الانجليز!

ـ سوف يكسب الانجليز الحرب!

ـ لو كسبوا الحرب فستكون مصيبة كبرى على مصر.

ـ لماذا؟

ـ لاننا يومئذ لن نستطيع أن نطرد المنتصرين من بلادنا!

ـ اننا ثرنا على الانجليز يوم أن انتصروا فى الحرب العالمية الاولى! يوم خرجت بريطانيا أقوى دولة فى العالم! الامبراطورية التى لا تغرب الشمس عن أملاكها. سيدة البحار! أعلن النصر البريطانى يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ وبدأت ثورة مصر على المنتصرين يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨.. بعد النصر العظيم بثمان واربعين ساعة كانت مصر أول أمة فى العالم ثارت على بريطانيا عقب انتصارها العظيم!

ـ ولهذا تريد أن ينتصر الانجليز فى هذه الحرب لنثور عليهم!

ـ نعم، لأن شعبنا لا يعرف أن يثور.. إلا على الأقوياء! هذه صفة غريبة يمتاز بها شعبنا إنه لا ينقض على مهزوم! هو نوع من الكبرياء غريب. هذا الشعب مثلا ثار على نابليون فى جبروته. وخضع فى أثناء الحرب العالمية الاولى أمام جنرال بريطانى هلفوت اسمه الجنرال ماكسويل! أعلن الانجليز يومها الحماية البريطانية علينا فلم نتحرك خلعوا الخديو ولم نتحرك أوقفوا الجمعية التشريعية التى كانت أشبه ببرلمان صغير فلم نغضب نهبوا مزروعاتنا واستولوا على ماشيتنا، وسخروا شبابنا فى ميادين القتال بغير أن نفتح أفواهنا!

ألم نفعل أى شىء ضد الجنرال ماكسويل قائد القوات البريطانية الذى أذل بلادنا كل هذا الذل؟

ـ لا شيء أبدا.. الا أن احمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى الحالى، كان شابا فى تلك الأيام واستطاع أن يوقع زوجة الجنرال ماكسويل فى شباكه، وعشقته عشقا جنونيا، وكانت تطارده علنا فى نادى الجزيرة! والشباب المثقفون فى تلك الأيام كانوا سعداء بهذا الغرام.. وتصوروا بعقليتهم التى تعتقد أن الشرف فى العضو التناسلى للمرأة أن الشاب احمد حسنين انتقم لشرفهم جميعا عندما لوث شرف القائد العام لقوات الاحتلال!.. ولكن كل هذا الذل قد تغير فى اليوم الذى انتصرت فيه جيوش بريطانيا وانقض هذا الشعب المستسلم على جيوش الاحتلال! خضعنا لجيش الاحتلال ٣٧ سنة عندما كان عدد القوات البريطانية خمسة الآف جندى! وثرنا على جيش الاحتلال عندما أصبح عدد قوات الاحتلال مائتى ألف جندى!

ـ إذن، نحن شعب لا يعرف متى يضرب ضربته، لا نعرف كيف ننتهز الفرصة!

ـ إننا لا نضرب خصومنا الا وهم واقفون! اذا ركعوا على الارض ركعنا بجوارهم!

ـ هذه غفلة!

ـ بعض المؤرخين يسمون هذه الصفة (غفلة). وبعضهم يسمونها فروسية وشهامة.. وبعضهم يسمونها سوء توقيت أو عدم تقدير للعواقب.. وغيرهم يسمونها غرورا.. وأنا اعتقد أننا ورثنا مدنيات كثيرة. مدنيات الدول التى غزت بلادنا عبر التاريخ. حاربناها وورثنا بعض صفاتها. مدنيات كثيرة فيها الغفلة، وفيها الشهامة، فيها التهور، وفيها التردد، فيها الغرور وفيها

عدم الثقة بالنفس، فيها عذوبة النيل وجماله، وفيها عواصف البحر الابيض وعمق البحر الاحمر فيها نسيم الوادى وفيها أعاصير الصحراء. كل هـذا فينا ! وأحسن ما فينا يظهر عادة فى أسوا أوقاتنا، وأسوا ما فينا يـظهر فى أجمل أوقاتنا !

الفصل .. الواحد والعشرون

دقت الساعة الثامنة صباحا، ولم يفتح الشاويش إبراهيم باب زنزانة عم عبده فى سجن الاستئناف ! دهش عم عبده. لابد أن الشاويش إبـراهيم فى أجازة طارئة.. لابد أن الحارس الجديد لا يعرف أن الشـاويش إبـراهيم اعتاد ان يفتح باب زنزانة عم عبده فى الساعة السابعة من صباح كل يـوم، قبل أن يفتح باب أى زنزانة أخرى فى الطابق الثانى.

كان الشاويش إبراهيم يفعل هذا كل يوم، فإذا كان اليوم التـالى، يـوم راحته الاسبوعية، نبه على الحارس الجديد بأن تكون زنزانة عم عبده هـى أول زنزانة تفتح فى الدور.

وكان هذا الامتياز اليومى يبيح لعم عبده أن يخرج من زنزانته، ويذهب إلى الحمام المفتوح للمسجونين، ويستحم على انفراد.. ويغلق عليه الباب، وبذلك يتحول الحمام العام إلى حمام خاص، لا يزاحمه فيـه المسـجونون الآخرون الذين يهرولون إلى الحمام ويتزاحمون ويتضاربون ويتعاركون لأن كل واحد منهم يريد أن يسبق الآخر إلى دخول دورات المياه القليلة العدد. وعندما كان ينتهى عم عبده من حمامه اليومى ويعـود إلـى زنـزانته كان الشاويش إبراهيم يفتح زنزانات باقى المساجين فيتدافعون إلى الحمام.

ولكن اليوم فقط يسمع عم عبده صرير المفـاتيح فى أبـواب الـزنزانات

الأخرى، ويسمع أصوات المسجونين الصاخبة وهى تندفع إلى دورة المياه، ولا يزال باب زنزانته مغلقا بالضبة والمفتاح!

وزادت دهشة عم عبده عندما سمع صوت الشاويش إبراهيم وهو يسب ويصخب، وسباب الشاويش إبراهيم هو السلام الملكى الذى يفتتح به يوم السجن. فيلعن آباء المسجونين وأمهاتهم، ويهددهم ويتوعدهم بالويل والثبور. وهذه هى طريقته اليومية فى أن يقول للمسجونين: «صباح الخير».. وبعد أن يلعن الشاويش إبراهيم آباء المساجين وأمهاتهم يتجه إلى عم عبده ويقول له: «ألف نهار أبيض يا عم عبده»!.

إذن فالشاويش إبراهيم ليس فى إجازة.. إنه موجود فى السجن ولم يفتح باب زنزانة عم عبده. لابد أن حدثا هاما قد وقع وانسى الشاويش إبراهيم أن يفتح باب زنزانته، وأن يقول لعم عبده: ألف نهار أبيض يا عم عبده بك!

كيف نسيه الشاويش إبراهيم فى ذلك اليوم؟

وسمع عم عبده صوت الشاويش إبراهيم يصيح «انتباه»... ثم سمع وقع قدميه وهو يهرول إلى ناحية باب زنزانته، ويفتح الباب، ويضرب حذاءه فى الحذاء الاخر ويرفع يده بالتحية العسكرية ويقول: «تمام يا أفندم»!

ثم رأى عم عبده الصاغ الجزماتى نائب المأمور يدخل الزنزانة، وهو متجهم الوجه، حاد النظرات، وفوجىء به يقول فى جفاء:

ـ الم تسمع كلمة «انتباه» يا مذنب؟!

وأعتقد عم عبده أن نائب المأمور يوجه الحديث إلى مسجون آخر.. لم يسبق لنائب المأمور أن ناداه «يا مذنب» كان دائما لا يناديه الا «يا عبده بك» أو «يا سعادة عبده بك»!

ولم يجد عم عبده فى الزنزانة سواه، وسوى نائب المأمور.

وبقى عم عبده جالسا فوق سريره، وقد امتلأ وجهه بالدهشة والاستغراب. وأذهلته المفاجأة.. فبقى مشلولا فى مكانه بغير حراك.

واتجه اليه نائب المأمور، ومد يده نحوه، وجذبه من قميصه بعنف وصرخ فيه :

ـ هل أنت أطرش!

ـ لا.. إننى أسمع جيدا!

ـ الم تسمع كلمة «انتباه»؟

ـ سمعتها.

ـ لماذا لم تقف؟ مفروض أن تقف عندما تسمع كلمة «انتباه» وترى أمامك أحد الضباط!

ـ إننى مسجون منذ عدة شهور ولم يطلب منى أن اقف عندما اسمع كلمة «انتباه»!

ـ كل مذنب يجب أن يقف عندما يسمع كلمة «انتابه»!

ـ ولكننى لست مذنبا!

ـ أنت مجرم!

ـ أنا متهم.. ولم تصدر المحكمة بعد حكمها بإدانتى!

ـ كل من يدخل السجن مجرم إلى أن تثبت براءته!

ـ فى كل العالم كل متهم برىء إلى أن تثبت إدانته!

ـ اخرس.. انت تنتقد قوانين حكومة جلالة الملك!

فوجىء عم عبده بالشاويش إبراهيم يهجم عليه ويقول:

ـ اخرس يا مجرم!

وتلفت الصاغ حامد الجزماتى حوله فى غضب وصرخ:

ـ من هو الحمار الذى سمح لهذا المسجون بأن تكون فى زنزانته مائدة؟ وكرسى؟ وسرير؟.

وكاد عم عبده يرد عليه ويقول له: ان الحمار الذى أصدر هذه الأوامر هو سعادتك.. ولكنه أمسك لسانه عندما رأى الشرر يتطاير من عينى نائب المأمور:

وقال الشاويش إبراهيم:

ـ إنها غلطتى يا أفندم!

وصرخ نائب المأمور فى غضب:

ـ غلطتك؟ إنها ليست غلطة! إنها جريمة! إنها مخالفة صريحة للأوامر والتعليمات! سوف اثبتك فى دفتر البلاغات! سوف احبسك! سوف أخرب بيتك!

ـ لن تتكرر هذه الغلطة مرة أخرى!

ـ إن هذه المخالفة عقوبتها الجلد.. ألا تعرف القوانين العسكرية يا حمار؟

ـ أعرفها يا أفندم!

وذهل عم عبده! كيف يعترف الشاويش إبراهيم بجريمة لم يرتكبها. كيف يقبل أن يصبح حمارا!.. والمأمور ونائب المأمور هما اللذان أمرا بالسرير والمائدة والكرسى!

إن من قواعد النظام فى السجون الطاعة التامة. فإذا قال رئيسك أنك حمار، فأنت حمار فعلا، وواجبك أن تركب ذيلا فى مؤخرتك وأن تنهق كما يفعل الحمار، فإذا اعترضت على هذا فهو مخالفة للضبط والربط! وهو تطاول على مقام الرؤساء، وهو عصيان عن تنفيذ الأوامر!

وعاد نائب المأمور يصرخ ويقول للشاويش إبراهيم:

ـ ألا تعلم أن هذا المذنب ليس من حقه أن يكون فى زنزانته لا سرير ولا كرسى ولا مائدة؟

ـ المتهمون تحت التحقيق مباح لهم هذه الاشياء!

ـ أنا قلت إن هذا ليس من حقه!

ـ اذن. فهذا ليس من حقه!

ـ لماذا تقف كالحمار؟! تحرك! نفذ التعليمات!

ـ سوف نخرج السرير والمائدة والكرسى من الزنزانة فورا!

ثم تلفت نائب المأمور حوله، ووقعت عيناه على المرآة المعلقة على الجدار فصرخ وكأنما لدغته أفعى:

ـ ومرآة أيضا؟ والله عال!..

إن هذا لم يعد سجنا.. إنه أصبح فندق شبرد.. اسحب هذه المرآة فورا يا شاويش!

ـ أمرك يا أفندم!

ومد الشاويش إبراهيم يده ونزع المرآة من الحائط..

ولم يفتح عم عبده فمه.. حملقت عيناه الصغيرتان فى وجه الصاغ حـامد الجزماتى.. كان يبحث فى وجهه عن حمرة الخجل، فلم يجد لها أثـرا.. إن الصاغ حامد الجزماتى هو الذى حمل له هذه المرآة. وهو الذى ثبتها بيديه فوق الحائط. وهو الذى غضب لان الزنزانة ليس فيها مرآة تليق بمكانة عبده بك. وهو نفسه الذى يغضب الآن لوجود المرآة، وهو الذى يأمر بنزعها مـن الحائط. وراح الصاغ الجزماتى يصيح :

ـ هذه فوضى! هذه ممنوعات! هذه مخالفة صريحة للائحة! هذا خروج على القانون! أنا لا يمكن أن اتسامح فى أى عدوان على القانون! لابـد أن أحقق مع المسئولين ليلقوا جزاء ما صنعت أيديهم!

اندفع إلى داخل الزنزانة عدد من الحراس والمسجونين يفكون السرير، ويحملون أجزاءه، ويحملون الكرسى، والوسادة والمرتبة، والمائدة، وحـوض الغسيل، والرف الخشبى الذى كان يضع عم عبده فوقه الصابونة ويعيثـون بملابسه، ويلقونها على الأرض.

كل هذا والصاغ حامد الجزماتى يقف فى وسط الزنزانة، وقد وضع يـده خلف ظهره، يهدد بالأوامر والتعليمات، وقد اتخذ لنفسـه وقفـة نـابليون بونابرت وهو يقود معركة حربية.

وأدار الصاغ الجزماتى عينيه فى الغرفة التى خلت فجأة من كل شـىء وقال :

ـ هل أخذتم كل شىء؟

وابتسم عم عبده ساخرا !.

لم يبق فى الزنزانة من أثاث سواه وتوقع أن يأمر نائب المأمور بحمله هو الآخر خارج الزنزانة، ولكن نائب المأمور اكتفى بأن خرج وأمر باغلاق باب الزنزانة !

* * *

وجلس عم عبده على الأرض يتأمل غرفته الجرداء فى ذهول.. لم يبق فى الزنزانة أى شىء !

وهز عم عبده رأسه فى عجب وراح يفرك عينيه بيده لابد أنه يحلم غير معقول أن يفعل به الرجل الطيب الصاغ حامد الجزماتى كل هذا اليس هو الرجل الذى كان ينحنى على يده ويقبلها كلما رآه !! أليس هو الذى كان يتزلف اليه صباح مساء ويشيد بوطنيته وعبقريته ؟ أليس هو الذى فتح له باب الزنزانة، دون جميع المسجونين، فى يوم الغارة الكبيرة على مدينة القاهرة، وقال له إنه تجب المحافظة على حياتك لتكون ذخرا للبلاد ؟ ألم يقل له عند انتهاء الغارة إن حياتك يا عم عبده هى أثمن شىء فى هذا الوطن؟

كيف رخصت حياته فجأة وأصبحت بسعر التراب؟ كيف تحول فجأة من كنز إلى صفيحة زبالة ؟ كيف هبط فجأة من سعادة عبده بك.. إلى مذنب ومجرم أثيم؟

لقد ارتفع من قبل من شحاذ إلى بك بلا سبب يدريه، وها هو ذا يهبط من سعادة البك إلى هلفوت بنفس السرعة ! كأن حياته تحولت إلى مصعد يرتفع إلى الطابق الأعلى ثم يهوى به إلى الطابق الأسفل.. وهو لا يعرف من الذى يضغط على الزر، من الذى يعبث به كل هذا العبث !

لقد كان راضيا بمركزه كمتسول .. كان سعيدا بفقره وحرمانه وجـوعه. ولكنه عندما أصبح فجأة موضع الاجلال والاحترام شـعر بـدهشة فى أول الأمر، ثم تحولت الدهشة إلى رضا، ثم تحول الرضا إلى سعادة..

وعندما هبط فجأة إلى مكانه القديم أحس بتعاسة لم يشعر بها فى حياته. كأن هذه الأيام القليلة التى كان فيها موضع اجلال واحترام هى حياته كلها، وكأنه نسى فيها عمرا من التسول والتشرد والبؤس والفقر والحرمان!

لقد كان من قبل يجد راحة لا حد لها فى النـوم فـوق الـرصيف.. كان لا يبرد عندما ينام بلا غطاء ولا تغطية إلا رياح الشتاء!.. كان يحس بالريح كأنها تعبث بجسمه النحيل، وتداعبه.. لم يشـعر يـوما بـأن العـواصف تصفعه.. كان يشعر كأنها تقبله.. ولكنه الآن يفتقد السرير الذى كان ينـام عليه، ويفتقد المرتبة، ويفتقد البطاطين.. بل هو لأول مرة فى حيـاته يشـعر ببرودة الاسفلت!

هل الشهور القليلة التى امضاها فوق السرير وتحت البـطاطين جعلـت جسمه حساسا للبرد.. أضعفت مقاومته، هل الشيخوخة لا تجـىء للنـاس الذين يعيشون فى العراء، وانما هى تبحث عن سقف غرفة تعيش تحته؟

فى أول الأمر كان عم عبده يضيق بلقب «عبده بك»، يسخر منه. ولكن مع الأيام التصق به اللقب، وعندما انتزعه نائب المأمور منه أحس كأنه ينتـزع قطعة من جسمه!

وشعر عم عبده بخجل من نفسه.. انه لم يفقد فى هذا السجن حريته فقط، وانما فقد قدرته على المقاومة.. فقد فلسفته!

* * *

واستيقظ عم عبده من خواطره على صوت صيحة عـالية مـدوية تصرخ « انتباه ».

كانت هذه « الانتابه » أعلى كثيرا من « الانتباه » الأولى التى أعلنت مقدم نائب المأمور.

لقد علم السجن عم عبده ان درجة الصوت فى كلمـة « انتبـاه » تعنـى درجات المسئولين فى السجن .. تعلو وتهبـط مـع درجـات منـاصبهم.. « فالانتباه » العالية تعنى قدوم أحد الضباط، و « الانتباه » الصارخة تعنـى نائبالمأمور،و« الانتباه » المدوية تعنى البك المأمور أما « الانتبـاه » التـى تشبه صفارة الانذار بغارة جوية، فهى التى يطلقها الشاويش عند حضـور سعادة مدير مصلحة السجون!

وفهم عم عبده من كلمة « انتباه » المدوية ان البكباشى يوسف البلحاوى مأمور السجن جاء ليعتذر اليه عن وقاحة نائبه، وقلة أدبـه، وليعيـد اليـه المائدة والكرسى والسرير!..

وانفرجت أساريره عندما سمع خطوات الشاويش إبراهيم وهو يعدو نحو باب زنزانته ويفتح الباب..

ودخل المأمور يتبختر..

وقام عم عبده من الأرض ورفع يده بالتحية، وقد تهلل وجهـه لـوصول المنقذ المنتظر، ولكن المأمور لم يرد التحية...

ونظر المأمور إلى الشاويش إبراهيم وقال له:

ـ هل نظفتم الزنزانة

قال الشاويش إبراهيم

ـ تماما يا أفندم!

وتطلع المأمور بأشمئزاز إلى الجدران وقال:

ـ إنها ليست نظيفة!

ـ ننظفها!

ـ احضر المبيضين فورا.

ـ ليبضوها بالجير!

ـ لا.. تبيض أولا بالجير، ثم المصيص، ثم تدهن بالزيت!

ـ بالزيت؟

ـ نعم بالزيت!

ـ والاضاءة فى هذه الزنزانة ليست كافية!

ـ اللمبة قوة ٢٥ شمعة!

ـ استبدلوها فورا بقوة مائة شمعة.. والنافذة الخشبية مكسورة!

ـ نصلحها فورا!

ـ لا.. توضع نافذة جديدة هنا حتى لا يدخل منها الهواء!

وتلفت المأمور إلى الغرفة الخالية وقال:

ـ اريد ان تكون هذه الزنزانة أحسن زنزانة فى السجن خلال ساعتين!

ـ سنجعلها احسن زنزانة!

ـ لا يكفى أن تكون أحسن زنزانة .. أريدها أن تكون أحسن من غرفة نائب المأمور!.. قولوا لكل النقاشين والمبيضين والنجارين ورجال الكهرباء فى السجن أن يتركوا كل الأعمال التى فى أيديهم ويتفرغوا لهذه الغرفة!

ـ سننفذ أوامرك فى الحال..

ـ وأريد ان تضعوا هنا سريرا جديدا، ومرتبة جديدة، ووسادة جديدة، وملايات جديدة، وكرسيا جديدا، ومائدة جديدة..

ـ فورا!

ـ ولا تنس ان تضع فوق الجدار مرآة مناسبة.. يوجد فى غرفة نائب المأمور مرآة كبيرة انزعها من هناك واحضرها وضعها فوق جدار هذه الزنزانة..

ـ امرك يا سعادة البك!

واحس عم عبده برغبة فى ان يهجم على البكباشى يوسف البلحاوى مأمور السجن، ويعانقه ويقبله ويحيى فيه نبله وشهامته ورجولته

ولكنه تملك نفسه واكتفى بأن ينظر إلى المأمور النبيل نظرة تفيض شكرا وعرفانا.. لقد اعاد له المأمور اعتباره.. صان كرامته التى داسها نائب المأمور بقدميه.. عاقب نائب المأمور على وقاحته بان أمر بنزع المرآة التى فى غرفة نائب المأمور. لتوضع فى زنزانة عم عبده الذى نزع منه نائب المأمور المرآة منذ دقائق!

لم يكن عبده يتصور أن المأمور بهذه الرجولة.. كان يعتقد أن المأمور سيكتفى بأن يعيد له المفروشات التى سحبها منه نائب المأمور.. ولكن المأمور الشهم لم يتركه ليشكو، بل بادر باصدار أوامره بطلاء الغرفة

بالزيت، وبتجديد أثاثها، وبتجنيد جميع المسجونين الفنيين في السجن للعمل في إصلاحها وتزيينها!

ورفع عم عبده يده إلى رأسه شاكرا في صمت..

ولكن المأمور النبيل لم يرد على الشكر، كأنه أراد أن يقول لعم عبده: لا شكر على واجب!

واستنتج عم عبده أن المأمور يقصد أن يتجاهله، لكي يظهر أمام الحراس بأنه يصدر أوامر رسمية مقصودا بها ادخال تحسينات في غرف السجن، ولا يقصد أن يرعى باهتمام مسجونا معينا بالذات!..

وخرج المأمور من الزنزانة وترك عم عبده سعيدا.. وقد شعر أن المأمور وضع في قلبه سريرا ومائدة وكرسيا ومرتبة ووسادة!

* * *

وشعر عم عبده برغبة في أن يصاهر البلحاوى بك مأمور سجن الاستئناف، لام نفسه لأنه تردد في أن يتزوج زينات شقيقة المأمور.. إذا كان المأمور بهذا النبل وهذه الأخلاق الفاضلة وهذا الوفاء، فلا بد أن تكون أخته صورة منه!

لقد أخطأ في الحكم على البلحاوى بك عندما رفض أن يتزوج زينات. ولكن الذنب ليس ذنبه وحده. إنه سأل قسمت شاهين عندما زارته عن رأيها في هذا العرض، فحذرته من هذا المأمور. وقالت له إنه رجل انتهازى، وأنه أراد أن يصاهره اعتقادا منه أنه من كبار أنصار الالمان في مصر، وأنه سيكون وزيرا عندما يدخل الجيش الالمانى مدينة القاهرة. واقتنع عم عبده برأى قسمت، لأنه يثق في آرائها، وذهب إلى المأمور وقال له إنه لا يفكر في

الزواج وهو مسجون. وكان المفروض أن يغضب المأمور، لكنه لم يغضب، ولم يشأ أن يخلط بين المسائل الشخصية والمسائل العامة وقد أثبت بتصرفه أنه رجل نبيل..

وبدت زينات أمام عيني عم عبده أكثر جمالا!

وسمع عم عبده المفتاح يدور فى الباب.. واطل الشاويش ابراهيم برأسه وقال:

ـ هات نمرتك يا عبده.

عبده؟! ألم يسمع الشاويش ابراهيم ما قاله المأمور؟ ألم يسمع الأوامر التى أصدرها المأمور بأن تكون زنزانته أكثر أناقة من غرفة نائب المأمور؟ كيف يسميه الشاويش ابراهيم «عبده» فقط بعد أن أعاد له المأمور كرامته، واعتذر على رؤوس الاشهاد عن وقاحة نائب المأمور!

وعاد الشاويش ابراهيم يكرر:

ـ هات نمرتك يا عبده؟

ـ ليس لى نمرة!

نمرتك.. يعنى البطانية!

ـ لقد أخذتم البطانية!

ـ يعنى ملابسك! يعنى كل شيء لك فى الزنزانة!

ـ لماذا؟

ـ لأنك نقلت إلى الطابق الرابع؟

ـ حتى يتم طلاء غرفتى واصلاحها ؟

ـ لا.. نهائيا !

ـ كيف انقل من غرفتى نهائيا ؟ ألم تسمع بآذنك المأمور يأمر بـأحضار النقاشين والمبيضين والكهربائيين والنجارين؟ ألم تسمع المأمور يـأمرك باحضار أثاث جديد لى ؟

ـ ليس لك !

ـ لمن اذن ؟

ـ لهذه الزنزانة !

ـ ولكنى أنا صاحب هذه الزنزانة !

ـ لم تعد صاحبها نقلوك منها !

ـ نقلنى نائب المأمور !؟

ـ لا.. نقلك المأمور !

ـ لا يمكن أن يكون المأمور هو الذى نقلنى : إنه مقلب ضدى دبره نائب المأمور ! لابد أن ذهب الان وابلغ سعادة المأمور أنكم تكسرون أوامره !

ـ المأمور شخصيا هو الذى أصدر هذا الامر:

ـ ماذا قال لك؟

ـ قال : انقلوا المجرم عبده من زنزانته إلى الدور الرابع :

ـ مستحيل أن يقول هذا.. إن هذه زنزانتى !

ـ إنها لم تعد زنزانتك.. إنه أمر بهذه الاصلاحات من أجل سجين آخر

ـ من هو هذا السجين؟

ـ الحاج دعبس أبو نظيرة!

ـ من هو دعبس هذا؟

ـ هل يوجد فى مصر من لا يعرف الحاج دعبس أبو نظيرة؟

ـ مسجون سياسى؟

ـ لا.. أكبر تاجر مخدرات فى مصر!

ـ وهل هو مسجون هنا؟

ـ لا.. وصلت التعليمات أنه سينتقل إلى هنا بعد ساعتين!

ـ ولهذا أمر المأمور بطلاء الزنزانة واعدادها لتاجر المخدرات؟

ـ هذا أقل ما يجب!

ـ هل فرشتم له الرمل أمام السجن؟!

ـ هل أنت تسخر من الحكومة!

ـ هل الحكومة هى التى طلبت أن يقيم فى زنزانتى؟

ـ الحكومة قالت إنه يجب أن يقيم فى أحسن زنزانة!

ـ إذا كانت الحكومة مهتمة براحة الحاج دعبس كل هذا الاهتمام فلماذا تضعه فى السجن؟

ـ لأنه يبيع مخدرات

ـ ولماذا تحتفل به كل هذا الاحتفال؟

ـ لأنه يملك عشر عمارات!

ـ وهل هذا السجن إحدى عماراته؟

ـ هذا ليس شغلك

ـ هل له كرامات؟

ـ طبعا له كرامات: إنه ولى من أولياء الله الصالحين.

ـ ولهذا يتاجر فى المخدرات!

ـ هو رجل صالح.. محسن وهو يحسن على الفقراء:

ـ يبيع لهم الحشيش بالنقد ويوزع عليهم الطعام مجانا!

ـ هو يبيع الحشيش للقادرين.. ويعطى الطعام للمحتاجين:

ـ هذا شىء عظيم:

ـ إنه يشبه شخصية اللص الشريف الذى كان يسرق الأغنياء ليطعم الفقراء:

ـ وهل يوجد فى السجن حشيش؟

ـ سوف يوجد فيه حشيش بعد تشريف الحاج دعبس!

ـ وهل سيبيع الحاج دعبس الحشيش للمسجونين!

ـ الحاج دعبس يوزع الحشيش مجانا على المسجونين والحراس والضباط إنه رجل محسن كبير!

ـ يظهر أنك تعرفه جيدا.

ـ طبعا أعرفه. لقد جاء إلى هذا السجن ثلاث مرات قبل هذه المرة!

ـ وكيف كان يخرج كل مرة؟

ـ فى كل مرة يبيع عمارة ويخرج!

ـ ثم تعود الحكومة وتدخله السجن من جديد

ـ كلما احتاجت الحكومة إلى قرشين وضعت الحاج دعبس فى السجن!

ـ ولهذا أخرجنى البكباشى البلحاوى من زنزانتى!

ـ أنت تقيم هنا مجانا! أما الحاج دعبس فهو يدفع أجر الغرفة كما يدفعها فى فندق شبرد أو فندق سميراميس!

ـ ويدفع البقشيش طبعا للخدم .. وللسفرجية.. وللمتردوتيل البلحاوى!

ـ اخفض صوتك ياعم عبده والافسأدخل السجن معك!

* * *

ما كاد عم عبده يصل إلى الطابق الرابع حتى تسمر فى مكانه. وجد نفسه فى زنزانة طولها عشرة أمتار وعرضها أربعة أمتار. وحشر فيها مائتا مسجون. كأنها علبة سردين أو أوتوبيس فى ساعة خروج الموظفين وجوه كالحة لحى طويلة أجساد عارية ملابس ممزقة، روائح كريهة. السجن له رائحة غريبة، مزيج من رائحة الدم والدموع. رائحة جثث واشباح. ورائحة أنصاف الموتى وهى تختلف عن رائحة الاحياء. رائحة فيها عفونة. فيها طعم الهواء المحبوس. وهى فى الطابق الرابع أثقل من الرائحة فى الطابق الثانى كأن زحام جثث الاحياء جعل الرائحة نفاذة. أو كأن للجوع والحرمان والفقراء

رائحة كريهة أكثر مما لرائحة الموت وفقد الحرية !

لقد رأى عم عبده خارج السجن ألوانا وأشكالا من الفقراء والحرمان نام فى عشش الترجمان حيث يتكدس الناس فى جحور كالقبور. نام فى عزبة الصفيح حيث يتكوم السكان فى غرف الصاج، فوق الطين والوحل، فى بيوت لها نصف سقف ولها نصف جدار. نام فى لوكاندة الجنة بسيدنا الحسين هذا الفندق الغريب الذى يملكة الخواجا أنستاس اليونانى، ولا يكاد يرى الزبون حتى يسأله غرفة بسرير أو بغير سرير ! السرير بخمسة قروش وبغير سرير بقرشين. ويختار الزبون غرفة بسرير. ويدخله صاحب الفندق فى غرفة أنيقة فيها سرير. ولا يكاد يستغرق فى النوم، حتى يجىء صاحب الفندق مع خادمه ويحملانه من الفراش ويضعانه فوق الارض ويتكرر هذا مع كل زبون. فإذا استيقظ الزبائن فى الصباح وجدوا سبعة عشر منهم على الارض. بينما الخواجا أنستاس اليونانى صاحب الفندق نائم فى السرير الوحيد فى الفندق !

ولكن الزنزانة رقم ٤٠١ فى الطابق الرابع فى سجن الاستئناف كانت تختلف عن كل ماراه عم عبده فى حياته ! كانت أشبه بسفينة العبيد التى رآها ذات مرة فى فيلم «الكونت دى مونت كريستو» فى سينما أولومبيا بعابدين !

كان المسجونون مكدسين فوق بعضهم البعض. لم يكونوا نائمين، إنما كانوا مدفونين. كانت أفواههم مفتوحة كالغرقى واجسادهم متصلبة كالاخشاب. فقدت عيونهم بريقها. على وجوههم قطرات لا تعرف هل هى عرق أم دموع ! بعضهم مقطوع الايدى، بعضهم مقطوع الساق. بعضهم أعمى أو نصف أعمى، مجموعة من المشوهين الذين لم يتشوهوا من الخارج، بل تشوهوا من الداخل، الحرمان والاهمال داخل السجن حطمهم. حولهم الى بقايا رجال.. الجدران مزينة ببقع الدم والقاذورات وبقايا

البصاق. ثم رأى على الجدار الذى بجواره جيوشا لاعدد لها من الحشرات والهوام.

وتنهد عم عبده حسرة على هذه الحشرات، ما الذى جاء بها الى الطابق الرابع؟ انها هنا سوف تموت من الجوع كما يموت هؤلاء البؤساء من الجوع. هنا لايصل الى المسجون البائس إلا أقل من الكفاف. طعام المسجونين يسرقه الحراس والمسجونون المحظوظون ويبيعونه للمسجونين القادرين، ويتقاسمون الارباح. ولايبقى لمئات المسجونين المنبوذين إلا العيش الحاف. لن تجد هذه الحشرات الغبية ماتمسك به رمقها. ما أغباها، إنها لم تعرف بحاستها أين تجد الطعام.

ثم اكتشف عم عبده أنه هو الغبى لاالحشرات. لقد وجد طوابير من هذه الحشرات فوق اجساد المسجونين، كانها وجدت فى هذه الاجسام شبه الميتة مايكفيها من غذاء وشراب!

ولم يحتمل عم عبده أن يبقى فى هذه الزنزانة اكثر مما بقي، أحس أنه كاد يختنق، وخرج يستنشق فى الردهة الخارجية بعض الهواء النقى. ورأى امامه الشاويش ابراهيم يسأله ضاحكا:

- هل السجن الكبير أحسن من السجن الصغير!

- إن هذا ليس الطابق العلوى من السجن.. انه الطابق السفلى!

- الدنيا تمشى الان بالمقلوب!

- ولكنى لا أعرف أى جريمه أرتكبتها حتى ينقلنى المأمور إلى هذا الجحيم!

- إن المأمور لم ينقلك!

ـ من الذى نقلنى؟

هتلر!

ـ هتلر هو الذى أخرجنى من زنزانتى؟

ـ هتلر هو الذى خلا بك! ألم تعرف الاخبار؟

ـ أى أخبار؟

ـ الجنرال مونتجمرى انتصر فى موقعة العلمين. هزم جيوش روميل فى الصحراء.. وهى تفر أمامه الأن كالفيران!

ـ متى حدث هذا؟

ـ فى الليلة الماضية! الاخبار مكتوبة فى كل الصحف!

ـ ربما تكون دعاية بريطانية؟

ـ كل إذاعات العالم أكدت هذا

ـ وإذاعة برلين؟

ـ قالت إن روميل انسحب ليقصر خطوطه.

ـ ربما انسحب.. ليهاجم من جديد!

ـ لو حدث هذا فسوف تعود إلى زنزانتك الأولى من جديد .. وتصبح «عبده بك» مرة أخرى ..كل شىء متوقف على ما سوف يفعله هتلر!

ـ وما علاقتى بهتلر؟

ـ المأمور قال إنك صديق هتلر.

ـ ولكنى لاأعرف هتلر.. ولم أره طوال حياتى!

ـ هل تريد أن أصدقك أنت.. وأكذب سعادة البك المأمور؟

ـ هل أنت واثق أن المأمور نقلنى من زنزانتى بسبب هتلر.. أم بسبب الحاج دعبس تاجر المخدرات؟

ـ إن المأمور ما كاد يقرأ أنباء انتصارات الانجليز فى صحف الصباح حتى استدعانى وقال لى ياشاويش ابراهيم يجب أن تعلم أننا نؤمن بالمساواة التامة، وليس عندنا خيار ولا فاقوس، وأن النظام هو النظام، ويجب أن تعامل عم عبده كمسجون عادى!..

ـ وهل المساواة أن يضع الحاج دعبس فى زنزانتى، ويضعنى فى الطابق الرابع؟

ـ لقد قال لى المأمور إنه ظهر أن عم عبده رجل نصاب، وأنه لا يحمل لقب البكوية!

ـ ولكن المأمور هو الذى اطلق على لقب «عبده بك»!

ـ أنا أنفذ التعليمات!

ـ ولهذا لم تفتح لى باب الزنزانة فى الصباح؟

ـ أنا عبد المأمور!

ـ وهل كانت التعليمات أن تفتح لى باب الزنزانة قبل المسجونين بساعة؟

ـ كانت جيوش الالمان ستدخل الاسكندرية.

ـ وما العلاقة بين دخول الالمان الاسكندرية وخروجى أنا من الزنزانة ؟

ـ هذه دائما قاعدة معاملة السياسيين عندنا فى السجن ! إذا قويت الحكومة أسأنا معاملتهم، وإذا ضعفت أحسنا معاملتهم.. اذا بقيت الحكومة أبقيناهم فى الزنزانة، وإذا خرجت الحكومة أخرجناهم من الزنزانة.

ـ وأدخلتهم الحكومة فى السجن !

ـ طبعا هذه هى تعليمات السجن دائما . وأنا أعمل فى المصلحة من ١٧ سنة !

ـ واذا انتصر الالمان غدا ؟

ـ فستصبح بطلا !

ـ وإذا انتصر الانجليز؟

ـ ستصبح مجرما !

ـ وماذا أنا الان !

ـ أنت الأن مجرم.. مجرم جدا !

الفصل الثانى والعشرون

كان مطعم نادى «سبورتنج» بالجزيرة مزدحما بالآكلين، الموائد غاصة بضباط انجليز وأمريكيين وفرنسيين ويوغوسلافيين ويونانيين. عدد الطرابيش قليل جدا بين الجالسين. كأن المصريين خجلوا أن يظهروا أنهم أصحاب البلد على أرض بلادهم، فخلعوا طرابيشهم ووضعوها على مقاعد بجوارهم.

المعروف عن هذا النادى أنه يرحب بالعسكرى الانجليزى ويتأفف من الباشا المصرى. أى صعلوك انجليزى يقبل على الفور، وكبار الموظفين المصريين يقفون فى طابور طويل فى انتظار أن تقبل عضويتهم فى هذا النادى المقام على أكبر أرض مصرية فى عاصمة مصر! إدارة النادى تتسامح عادة مع المصريين الذين تخرجوا فى جامعات انجليزية، ولذلك لا يبقون فى قائمة الانتظار أكثر من عام أو عامين!

نساء جميلات فاتنات تناثرن حول الموائد. وكأنهن أوان ملونة من الورود وضعت على الموائد لتفتح شهية الآكلين. ولكن الطعام الفاخر يملأ كل الأطباق. مائدة ذات عدة رفوف تمشى فوق عجل صغير، وتحمل أطباق «الهورديفر» فاتح الشهية، وتدور على الآكلين. سفرجية نوبيون بقفاطين بيضاء محاطة بأحزمة حمراء وفوق رؤوسهم عمامات بيضاء كبيرة، يتحركون فى خطوات رشيقة فى قاعة الطعام وكأنهم يرقصون الباليه.

وزارة التموين التى توزع الطعام على الشعب المصرى بالقطارة، تصاب بكرم حاتمي عندما تتعامل مع نادى سبورتنج الذى يتردد عليه ضباط جيوش الحلفاء. وكلما زادت انتصاراتهم فى ميدان القتال ضاعفت الوزارة كميات ما يحصل عليه النادى من الكافيار الروسى والنبيذ الاسكتلندى والكونياك الفرنسى.

وفى ركن فى قاعة الطعام جلس المهندسون جورج اسحاق وخليل مدبولى وطاهر كريم وابراهيم حسن يتناولون الغداء، وأمامهم زجاجة ويسكى «جون هيج» وزجاجة كونياك «كورفوازييه» لم يبق منهما سوى قطرات. وكانوا قد انتهوا من التهام طبق السلاطة الروسية الذى قدم اليهم مع أصناف الهورديفر. وكانوا يتحدثون عن مستقبل مصر بعد أن انتصر الحلفاء فى العلمين..

وقطع المهندس خليل مدبولى حديثهم وقال:

ــ لا تنظروا وراءكم الآن! إن عادل علاء الدين يجلس هنا على مائدة مختفية خلف أحد الأعمدة.. ومعه سيدة لا أستطيع أن أرى وجهها من المكان الذى أجلس فيه. وتظاهر المهندس طاهر كريم بأنه يلتفت خلفه لينادى السفرجى، ثم أدار وجهه إلى زملائه وقد بدت عليه الدهشة وقال:

ــ غير معقول!

قال المهندس ابراهيم حسن:

ــ هل هى الأميرة فضيلة؟

قال المهندس مدبولى وهو يضحك:

ــ الأميرة فضيلة! إنها عفريتة صورة الأميرة فضيلة!

ومال المهندس ابراهيم حسن برأسه ليرى وجهه السيدة وقال :

ـ أعوذ بالله ! لقد قضى عادل على سمعة شركة الهندسة الكهربائية. كان المهندسون مشهورين بأنهم ذواقون فى النساء.. لو أن المساهمين فى الشركة رأوا هذه المرأة الدميمة مع مديرنا، لباعوا أسهمهم فى الشركة !

وعاد المهندس مدبولى يحملق فى السيدة ويقول
إنها سيدة تضع فوق رأسها القناع الواقى من الغازات الخانقة !

وابتسم المهندس جورج وقال :

ـ إنه ليس قناعا واقيا من الغازات الخانقة ! هذا هو وجهها الحقيقى ! ألا تعرفونها ؟ إنها الآنسة قسمت شاهين. سكرتيرة مجلس إدارة ملجأ المتسولين !

وضرب مدبولى كفا بكف وقال :

ـ ماذا جرى لعادل حتى يخرج مع هذا النسناس إلى مكان عام !

قال ابراهيم حسن :

ـ هل هذا معقول؟ بعد الأميرة فضيلة الفاتنة يخرج عادل مع هذا القرد ؟

قال طاهر :

ـ لعله أراد أن يخزى العين. إنها «خمسة وخميسة» يحملها معه ليقاوم الحسد.. لقد حسده الرجال عندما كانوا يرونه طوال الشهور الأخيرة يلازم الأميرة فضيلة ويراقصها فى كل مكان !

قال ابراهيم حسن :

ـ إن عادل علاء الدين مشهور بأنه يعيش فى المستقبل. يحسب دائما حساب الغد! لعله سمع الاشاعة التى تقول إن هتلر لديه مخزن من الأسلحة السرية اسمه «المخزن ١٣» وأنه لو فتح باب هذا المخزن فسوف تخرج مفرقعات تشوه وجوه البشرية كلها! ولذلك أراد أن يجرب امرأة مشوهه.. حتى يتعود من الآن على نساء المستقبل المشوهات!

ورفع المهندس جورج كأس الويسكى التى أمامه وقال:

ـ اعتقد أن عادل مل مصاحبة الفاتنات من ملكات الجمال، واشتاقت نفسه إلى ملكات البشاعة... كما يمل المليونير البدراوى باشا عاشور أكل الخرفان والديوك الرومى كل يوم ويشتاق إلى طبق فول مدمس... أن لون قسمت شاهين يشبه لون الفول المدمس!

صاح مدبولى:

ـ هذا ليس فولا مدمسا، إنه فسيخ!

لم أعرف أبدا عن عادل أنه يحب الفسيخ!

ـ ولم يجى بعد موعد شم النسيم!

ـ اعتقد أنه دعا هذه المرأة للغداء متورطا!

ـ واجبنا أن ننقذه.

ـ ولكنه لم يستغث بنا!

ـ فلننتظر حتى يستغيث بنا!

ـ يالكم من أوغاد! لو رأيتم زميلا لكم فى الشركة يقع فى حفرة فهل تتقدمون لانقاذه أم تنتظرون حتى يصرخ ويقول: الحقونى!

ـ إنها ليست حفرة.. إنها بالوعة مصلحة المجارى!

ـ انظروا إليه.. إنه يجلس أمامها صامتا.. كأنه فقد النطق!

ـ عندما يقع الانسان فى هوة يفقد النطق!

ـ ألا ننتظر حتى ننتهى من تناول الطعام... ثم بعد ذلك نذهب وننقذه؟

ـ لو انتظرنا فقد لا نلحقه على قيد الحياة! إننى أعرف أن عادل يصاب بشبه اغماء عندما يرى امرأة قبيحة. إنه يعيش على الجمال..

ـ إنه يختنق إذا جلس خمس دقائق مع امرأة بشعة!

ـ إذن تعالوا ننقذه الآن...

وقام المهندسون الأربعة من مائدتهم، واتجهوا إلى المائدة التى يجلس إليها عادل مع قسمت، وتقدموا لمصافحته...

وقام لتحيتهم، وقدمهم واحدا واحدا إلى قسمت.. وسحبوا أربعة مقاعد وجلسوا فيها قبل أن يدعوهم عادل إلى الجلوس..

وبدت على عادل الدهشة... وهمس مدبولى فى أذنه:

ـ الصديق لوقت الضيق!

ولم يفهم عادل ماذا يقصد مدبولى.. والتفت مدبولى إلى قسمت وقال لها ضاحكا:

جئنا يا أنسة قسمت ننقذك من مديرنا العام!

ـ تنقذونى من عادل؟ لماذا؟

ـ لقد خيل لنا أننا نسمع صوت استغاثة... وكان مصدر الاستغاثة مـن

هذه المائدة، فجئنا على الفور بصفتنا بعثة إنقاذ !

وابتسمت قسمت وقالت :

ـ لعل عادل هو الذى استغاث ! قال عادل ضاحكا !

ـ إنهم جاءوا يغرقونني لا لينقذوني ! على كل حال لقد جئتم فى الوقت المناسب !

وظهرت على طاهر كريم علامات الرضا عن نفسه ! لقد كان هو صاحب اقتراح بعثة الانقاذ !

وعاد عادل يقول :

ـ كنت أقول لقسمت إنه بعد انتصار العلمين سيبقى النحاس رئيسا لوزارة مصر خمس سنوات.. وكانت تعارضنى فى هذا الرأى.

قال جورج :

ـ سيبقى عشر سنوات !

قال طاهر:

ـ سيبقى يحكم مصر إلى آخر يوم فى حياته... إننى مستعد أن أراهنك على هذا.

قالت قسمت :

ـ سوف تخسر الرهان.

ـ إن الانجليز لن ينسوا خدمات وزارة الوفد أثناء هزيمتهم.

ـ الانجليز ليس لهم أصدقاء دائمون ولا أعداء دائمـون، وإنمـا لهـم مصالح دائمة!

ـ هل تعنين أن النحاس لن يبقى فى الحكم إلى نهاية حرب اليابان؟

ـ ولا إلى نهاية حرب ألمانيا!

قال ابراهيم حسن:

ـ كنت أتصور أن نهاية هتلر وموسولينى ستكون نهـاية علـى مـاهر واسماعيل صدقى، لأنهما راهنا على الحصان الخاسر وهو انتصار المحور، وأن المستقبل سيكون، للنحاس وأحمد ماهر اللذين كانا يؤمنان بـانتصار الديمقراطية.

قالت قسمت وهى تشعل سجارة:

ـ إننى ألاحظ أنكم تتكلمون عن المتسقبل بلغة الماضى! تتصـورون أن ممثلى ما قبل الحرب هم الذين سيمثلون روايات ما بعد الحرب. إن نهـاية الحرب ستكون نهاية كل الوجوه المعروفة على مسرح السياسة المصريـة! سوف يظهر ممثلون جدد فى روايات جديدة!

قال عادل معترضا:

ـ ولكن الحرب لم تخلق طبقة جديدة من الزعماء فى مصر.

قالت قسمت:

ـ من يدريك؟ لعل هذه الطبقة تولد الآن تحت الأرض.. وفجأة سـوف تنشق الأرض ويخرج منها رجال جدد لم نرهم ولم نسمع عنهم، إننى أعتقد أن الحرب تغير كل شىء! إنها لا تدك المدن فقط، إنها تدك الشـخصيات

السياسية أيضا.. بعد الحرب ستبنى مدن جديدة وسيبنى رجال جدد.

ـ ولكننا لم نشترك فى الحرب ... ممكن أن يحدث هذا فى بلاد العالم التي حاربت، ولكننا فى مصر عشنا فى مقاعد المتفرجين!

ـ الحرب تغير كل شيء! الذين يحاربون والذين يتفرجون. فى الماضى كانت الحرب لا تؤثر إلا فى المقاتلين وحدهم، ولكن الحرب الحديثة غيرت هذا المفهوم. ضحاياها فى المدن أكثر من ضحاياها فى ميدان القتال. وسوف يحدث نفس الشيء بالنسبة للزعماء والقيادات، للذين يحاربون والذين يتفرجون. قنابل الحرب ستدمر المنتصرين والمهزومين والمتفرجين على حد سواء..

ـ المدافع تفتك بالجنود.

ـ وتشوه القواد!

ـ حتى القائد المنتصر؟

وضحك المهندس طاهر كريم ساخرا من تأكيد قسمت وقال:

ـ أتظنين أن الحرب ستقضى على ستالين وتشرشل لو انتصرا فيها؟!

ـ إن انجلترا أسقطت لويد جورج رئيس وزرائها الذى كسب الحرب العالمية الأولى. وفرنسا أسقطت بطلها كليمنصو الذى كسب لها النصر فى تلك الحرب، وضنت عليه بأصواتها ليكون رئيس الجمهورية الفرنسية.

ـ الانجليز والفرنسيون مشهورون بنكران الجميل.

والألمان أيضا.. بعد أن انتصر بسمارك فى حرب السبعين وجعل ألمانيا فوق

الجميع، فوجى بامبراطور ألمانيا يحيله إلى المعاش وسط تصفيق الجماهير..

ـ قال ابراهيم حسن:

ـ إن الانجليز ينظرون إلى تشرشل كنبى!

من عادة الشعوب أن تضرب الأنبياء بالطوب. والنبى الذى لم يضرب بالطوب ليس نبيا. إنما هو مدعى نبوة!

ـ ولكن تشرشل هو أول من نبه شعبه الغافل إلى نوايا هتلر العدوانية!

ـ الشعوب تعجب بالرجل الذى يرى أبعد مما ترى. ولكنها لا تحبه! إنها تفضل دائما رجلا طيبا مثلها. على نياته مثلها. يمكن استغفاله مثلها. إنها تقدس العباقرة بعد أن تدفنهم وتطمئن إلى أنها وارتهم التراب، ولهذا لا مستقبل لأنبياء الأمس فى عالم الغد، كل شىء فى عالم اليوم سوف يتبدل غدا.. حتى الملوك!

قال المهندس مدبولى وهو يهز رأسه:

ـ إنك على حق ياآنسة قسمت إن الملك فاروق قال أمس وهو يلعب البوكر فى نادى السيارات، إنه بعد الحرب لن يبقى فى العالم سوى خمسة ملوك: ملك انجلترا، وملوك الكوتشينة الأربعة!

قال طاهر:

ـ كيف يتغير كل شىء وبريطانيا دخلت الحرب ليبقى كل شىء فى العالم على ماهو عليه؟ العالم سوف يتغير إذا انتصر هتلر، وسوف يستمر كما هو اذا انتصر الانجليز.

قال جورج اسحاق :

ـ إننى أوافق الآنسة قسمت على وجهه نظرها. الحرب تغير الناس. كل الناس، تغير أفكارهم، تبدل تقاليدهم، تهز معتقداتهم، تقضى على قادتهم وزعمائهم. وإننى أتصور أن يكون العالم فى المستقبل على صورة المنتصرين. العالم سيكون ابن المنتصر أيا كان. ولهذا سيكون على شاكلته. لو انتصر الألمان والايطاليون لأصبحت دول العالم فاشستية ونازيه. ولو انتصرت أمريكا وانجلترا وروسيا فسوف تصبح دول العالم صورا فوتوغرافية للمنتصرين. بعضها جمهوريات ديمقراطية كالولايات المتحدة، وبعضها ملكيات دستورية كانجلترا، وبعضها شيوعية كالاتحاد السوفيتى.

وضحكت قسمت وقالت :

ـ العالم سيكون له ثلاثة آباء أو أبوان اثنان.. ولهذا سيكتسب من كل أب ملامح مختلفة ! قد يرث من أمريكا جنونها، ومن روسيا استبدادها، ومن انجلترا حب السيطرة !

ـ سيكون عالما مشوها !

ـ عالم ابن حرام... مادام المنتصر ليس واحدا بل عدة أشخاص !

قال المهندس طاهر:

ـ لا يهمنى شكل العالم.. الذى يهمنى هو شكل مصر ! ماذا سنصبح نحن فى مصر.. هل سنصبح مثل أمريكا ؟ أم مثل روسيا ؟ أم مثل بريطانيا ؟

وابتسم مدبولى وقال :

ـ سنصبح مثل المهزومين ؟ مثل هتلر وموسولينى ! إن مصيبتنا أننا نقلد الدول الكبرى، فى خيبتها دائما فينا «خيبة أبيل» مثل «السكس أبيل».

وقهقه المهندس طاهر، وقال:

إن كلمة «خيبة أبيل» تذكرنى بأننى كنت فى طهران سنة ١٩٣٩ أثناء زفاف الأميرة فوزية أخت الملك فاروق للأمير شاهبور ولى عهد إيران. ومشيت فى تلك الأيام مع عدد من المصريين الذين كانوا فى طهران لهذه المناسبة. ولاحظنا فى أحد الشوارع الكبرى لافتات مكتوب عليها «خيبة مصر»! وذهلنا أن نجد بعد كل خطوات فى الشارع لافتة تعلن (خيبة مصر)وتصورنا أن الشعب يرى فى هذا الزواج خيبة لمصر ما بعدها خيبة!.. ثم علمنا بعد ذلك أن خيبة مصر باللغة الايرانية معناه شارع مصر.. وأن حكومة إيران أرادت أن تكرم مصر بمناسبة الزفاف الملكى فأطلقت اسم مصر على أكبر شارع فى طهران.. وهكذا تكرر اسم «خيبة مصر» فى كل مكان فى الشارع الكبير.

قال المهندس جورج:

ـ إن الموضوع الذى كنا نتكلم فيه لا يحتمل المزاح! ماذا تتصورون أن تكون صورة العالم بعد الحرب.. أى مذهب سيسود العالم؟

قال طاهر كريم بلهجة التأكيد:

ـ طبعا سوف تنتشر الفوضوية.

واعتدلت قسمت فى جلستها، وتكلمت وكأنها تلقى درسا على تلاميذ وقالت:

ـ الفوضوية مذهب ظهر فى أواسط القرن التاسع عشر وأول من وضع مبادئه هو عامل مطبعة فرنسى اسمه بيار جوزيف برودون.

قال طاهر ساخرا:

ـ متى ولد عامل المطبعة هذا..

وتجاهلت قسمت سخريته وقالت :

ـ ولد فى باريس سنة ١٨٠٩ ومات سنة ١٨٧٥ وكان يدعو إلى تحطيم السلطة، ويدعو إلى مجتمع فوضوى، تغيب فيه السلطة السياسية. ولكن الرائد الحقيقى لمبدأ الفوضوية هو بوكانين الروسى، الذى دعا لقيام الدولة الفوضوية، والذى أعلن العداء لكل حكومة، ولكل سلطة للدولة، وكل نظام حكم، والذى كان يقول : إن من رأيه أن الشعب سيكون سعيدا إذا زالت كل سلطات الدولة. لا دين، ولا ملكية، ولا جمهورية، ولا حكومة، ولا بوليس، ولا جيش.

وصمت الجالسون دهشة من سعة اطلاع قسمت.. كانت تشرح النظريات السياسية وكأنها تقرأ فى كتاب، تذكر التواريخ، وتستشهد بأقوال الفلاسفة، وتضايق المُهندس طاهر كريم من أن هذه الفتاة الدميمة ذات النظارة السوداء سيطرت على المجلس، وأنها تحفظ النظريات السياسية كما يحفظ هو نظريات الهندسة، فقاطعها قائلا :

ـ كل ما تقولين يا آنسة معروف جيدا.. إن هذه نظرية كارل ماركس وانجلز!

قال قسمت :

ـ على العكس. إن كارل ماركس هاجم نظرية بوكانين فى الفوضوية. وقد وضع رسالة اسمها «رسالة من ماركس إلى بولت» هاجم فيها أفكار بوكانين، وقال إنه لا وجود لبوكانين كعقائدى.

قال طاهر متحديا :

ـ بوكانين عاش شيوعيا ومات شيوعيا.

قالت قسمت :

ـ لقد تم فصل بوكانين فى مؤتمر الشيوعية الدولية المنعقـد فى مـدينة لاهاى سنة ١٨٧٢.

وأرتج على المهندس طاهر كريم، وقهقه المهندس مدبولى وقال له :

ـ إنك طبعا لم تفهم كلمة واحدة مما قالته الآنسة قسمت ! إنها تريد أن تقول لك باللغة العربية إنك حمار !

وضحك المهندسون الجالسون، واحمر وجه المهندس طاهر كريم، وأراد عادل أن ينقذ الموقف فقال :

ـ إن المهندسين هم الذين سيرسمون صورة المستقبل !

قالت قسمت :

ـ أصحاب النظريات السياسية هم الذين سيرسمون صورة المستقبل.. ويتولى تنفيذها المهندسون !

قال مدبولى :

ـ يبدو أنك ياآنسة قسمت خبيرة فى السياسة.

ـ لست خبيرة.. إننى أقرأ فى وقت فراغى !

ـ قولى لنا أنت ما هى صورة العالم فى المستقبل.. أى نظام سوف يسود العالم بعد الحرب ؟

وأخذت قسمت رشفة من كوب الماء الذى أمامها وقالت :

ـ هذا سؤال صعب ! كأنك تسألنى عن أى موضة للفساتين سوف تسود بعد الحرب؟

قال مدبولى :

ـ إنها أول مرة أسمع فيها أن الأنظمة السياسية تشبه فساتين السيدات !

ـ النظام السياسى هو زى يختاره الشعب، وترتديه الدولة ! والشعوب مثل النساء تحب أن تغير أزياءها !

ـ إن موضة الفساتين تتغير كل عام !

ـ وموضة الأنظمة السياسية تتغير عقب كل حرب.. أو فى كل جيل ! الموضة الجديدة تحرق الموضة القديمة دائما.

ـ ولكن نساء العالم لا يتبعن زيا واحدا !

ـ وكذلك دول العالم. بعض النساء محافظات، يرتدين فى القرن العشرين الفساتين التى ترتديها جداتنا فى القرن التاسع عشر... مثل انجلترا التى لا أتوقع أن تغير زيها بعد الحرب.. سوف تتمسك بالخطوط الكلاسيكية التقليدية، وتحدث تغييرات قليلة فى شكل الثوب ولكن دون أن تبدل أساس الفستان نفسه !

ـ ومن هم ملوك الموضة السياسية فى العالم يا آنسة !

ـ إنهم المفكرون والسياسيون والكتاب. وهؤلاء يشبهون ملوك الأزياء فى باريس. ملك الموضة لا يفرض إرادته ولا نزواته على فستان المرأة. إن ما يفعله هو أنه يحس الرغبة الدفينة فى المرأة ويسبقها إليها. يضع

احتياجاتها وأحلامها وأفكارها داخل الفستان. والمفكر أيضا ليس طـاغية يفرض فلسفته على الشعوب، وإنما هو يلبى طلبات الشعوب قبل أن تنـطق بها. فهو يقوم بنفس ما يقوم به ملك الأزياء الذى لا يحمل سوطا يرغم بـه المرأة على اختيار موضة معينة، وإنما يقـرأ أفـكار المـرأة وأحـلامها وشهواتها وأمانيها ويسطرها فى خطوط تتحول إلى فستان ! وكما أن ملـوك الموضة يقصرون الفستان ويطولونه، ويضيقونه ويوسعونه، فكذلك أصحاب الأفكار السياسية يفعلون بالحريات ما يفعله مقص ملك المـوضة بقمـاش الفستان، يضيقون الحريات على الشعوب، أو يوسعونها، يـطولونها حتـى تجرجر على الأرض، أو يرفعونها حتى تظهر عورات الشعوب !

قال المهندس جورج :

ـ كنت أظن أنك خبيرة فقط فى السياسة وإذ بك خبيـرة فى المـوضة.. ولكن ما رأيك، هل تتصورين أن فستان الديمقراطية هو موضة الشعوب بعد الحرب ؟

قالت قسمت :

ـ ما دامت نساء العالم لا يخضعن لموضة واحدة، فلا يمكن لشـعوب العالم أن تخضع لزى واحد من أزياء الحكم ! كل جسم له موضة تنـاسبه ! ما يناسب القصيرة لا يناسب الطويلة ! وما يجعل النحيفة جميلة، يجعـل البدينة مضحكة ! فالديمقراطية مثلا هى فساتين واسعة تبيح للشـعب أن يتحرك فيها بسهولة. والدكتاتورية فساتين ضيقة محـزقة تـزيد المـظهر الخارجى للمرأة جمالا، ولكنها تكتم أنفـاسها وتمنعهـا مـن الحـركة.. وأما موضة الفوضوية..

وقاطعها المهندس مدبولى قائلا :

ـ أن تسير المرأة عارية بلا فستان!

وضحك مدبولي واستطرد:

ـ أموت فى الفوضوية!

وقهقه الجالسون وابتسمت قسمت ونظرت من وراء زجاج نظارتها السوداء إلى عادل الذى فهم نظرتها وأسرع يقول:

ـ والشيوعية؟

ـ الشيوعية هى فستان مفتوح من الصدر والظهر. ضيق عند اليدين. ضيق عند الساقين. مقفل عند العنق. من السهل أن ترتديه. لكن من الصعب أن تخلعه. يقيك برد الشتاء ويحميك من حرارة الصيف. ولكنه يمنعك من الحركة. تستطيع فى داخل هذا الفستان أن تنحنى، ولكنك لا تستطيع أن ترفع رأسك. ويمتاز عن فستان الديمقراطية أنه يظهر مفاتن المرأة ويخفى عيوبها.

ـ وفستان الرأسمالية؟

ـ هو فستان يحمى جزءا من الجسم ويعرى باقى الأجزاء، يغطى الجزء الأعلى فلا يصاب بالبرد، ويعرى الجزء الأدنى فيصاب بالروماتيزم أو الكساح! له فراء يدفئ الرأس.. فلا يصاب الرأس بالزكام. ولا فراء على الذيل الذى لا يحمى السيقان من العواصف والرياح. الفستان جميل أنيق أشبه بثياب الجوارى فى حريم السلطان، له ذيل طويل.. يحتاج دائما لمن يمشى وراء صاحبة الفستان ليحمل لها الذيل، فإذا داست قدم غريبة على ذيل الفستان سقط الفستان، وأصبحت صاحبته شبه عارية، وهو فستان يصلح للمرأة التى تعيش فى قصر، ولا يصلح للمرأة التى تعمل فى المصنع،

يصلح للركوب فى عربات الرولزرويس الفاخرة، ولا يصلح للفقيرات اللاتى يتعلقن فى سيارات الأوتوبيس وعربات الترام! إنه زى رائع جدا للقرن الثامن عشر، ولكنه لا يصلح للقرن العشرين، إلا للدول صاحبة الملايين.

ـ والاشتراكية؟

ـ هى موضة البنطلونات. تظهر أنوثة المرأة، وتسمح لها بحرية الحركة. تجعلها قادرة على الجرى والقفز. وقيمة هذه الموضة فى أنها عملية واقتصادية.

قال المهندس جورج:

ـ أخشى ما أخشاه أن تسود فكرة الحكومة الدينية.. وتصبح موضة العصر القادم فى بلادنا هى الجبة والقفطان! إننى ألاحظ أن الجمعيات الدينية نشطت فى أثناء الحرب.

قالت قسمت:

ـ من الطبيعى أن يلجأ الناس فى الحرب إلى الدين! إنه الملجأ الوحيد الذى يحميهم أثناء سقوط القنابل.

* * *

كان عادل يرقب الحوار صامتا. كان معجبا بقوة شخصية قسمت ودقة معلوماتها وسعة اطلاعها. كأنها وهى تتكلم قد خلعت نظارتها السوداء، وتجردت من ثيابها، وبدت له كما تبدو وهى بجواره فى شقته. المرأة الذكية لها سحر خاص. الذكاء يكسب أحيانا وجه المرأة ملاحة وفتنة، كأنه يركب لها رموشا صناعية. كأنه أمهر حلاق فى العالم يتفنن فى تصفيف شعرها. كأنه خبير مكياج يطلى وجهها بالألوان والمساحيق التى تخفى عيوب

تقاطيعها. كأنه يعطرها بعطر مثير..

وكان عادل يحملق فى وجوه زملائه ليرى تأثير حديث قسمت فيهم. وكان المهندس جورج اسحق يفتل شاربه بيده، وهذه طريقته عندما يسمع أغنية تعجبه أو موسيقى تطربه.

وكان خليل مدبولى يرمى برأسه إلى الوراء، وينفث سيجارته فى الهـواء، وهذه عادته عندما ينتشى بعد أن يشرب زجاجة كاملة من الويسكى.

وكان المهندس ابراهيم حسن يتطلع إلى قسمت مبهورا، ويلعب بأصابعه فى أذنه اليسرى، وهذه طبيعته عندما يرى امرأة فاتنة تمر أمامه..

وكان المهندس طاهر كريم يجز على أسنانه. إن هوايته الكبرى إدهاش الناس بما لديه من معلومات ولكنه فوجى بامرأة تعرف الأجـوبة علـى كل الأسئلة وخاصة الأسئلة التى لا يعرف هو أجـوبتها. وكان يتصـور أنـه يستطيع أن يتصدر كل حديث ببعض « الحداقة »، «والفهلوة».. وإذا به يرى أن كل السهام التى أطلقها قد تحطمت أمام سعة اطلاع قسمت.

وحدث عادل نفسه قائلا :

ماذا سيفعل هؤلاء لو خلعت قسمت نظارتها السوداء.. لو رأوا عينيهـا الجميلتين الساحرتين.. لو شهدوا جسمها الرائع الفتان..

وأحس برغبة فى أن تخلع قسمت نظارتها، لتضاعف دهشتهم... وقال لها ضاحكا :

ـ لماذا لا تخلعين يا قسمت نظارتك؟

واحمر وجه قسمت، ونظرت إلى ساعتها وقالت :

ـ إننى تأخرت. عندى الآن اجتماع مجلس إدارة جمعية المتسولين!

ووقفت، وقال عادل وهو يخرج محفظته ليدفع الحساب:

ـ إننى سأجيء معك لأوصلك!

وصافحتهم قسمت وخرج معها عادل.

وقال المهندس جورج:

ـ إنها أنستنى طول الوقت إنها امرأة دميمة الخلقة!

قال المهندس مدبولى:

ـ إنها نجحت فى أن تجعلنا نصاب جميعا بالعمى.. فتسحرنا بحديثها وتنسينا أنها تشبه أم قويق.

قال المهندس ابراهيم حسن:

ـ إنها امرأة ساحرة فعلا.. إن الله عندما يعطى المرأة الذكاء يسلب منها الجمال! وعندما يعطى المرأة قوام الغزال يعطيها عقل الحمار! وإذا أراد أن يجعل امرأة خفيفة الدم جعلها تشبه القرد

قال المهندس طاهر كريم:

ـ إنها امرأة مثقفة.. ولكنى لا أستطيع أن أنام فى فراش، وبين أحضانى دائرة المعارف البريطانية!

* * *

ومشى عادل إلى جوار قسمت، فى طريقها إلى باب النادى، وقبل أن يصل عادل إلى سيارته قال لها بصوت فيه زعشة:

ـ هل أنت ذاهبة إلى اجتماع مجلس إدارة؟

ـ لا .. إننى ذاهبة إلى البيت!

ـ ولماذا كذبت وقلت إنك ذاهبة إلى اجتماع مجلس إدارة؟

ـ إننى اضطررت عندما طلبت منى أمام أصدقائك أن أخلع نظارتى.. شعرت برغبة فى الهروب.

ـ إذن لنهرب إلى الشقة!

ـ ولكن ليس هذا هو موعدنا، إن موعدنا فى العاشرة مساء، إن الذى حدث لى الآن وأنت تتحدثين هو شىء غريب. شىء لم يحدث لى قبل الآن... إنى أفهم أن تثيرنى ذراع امرأة عارية أفهم أن يهزنى صدر امرأة مكشوف، أفهم أن أنتشى من ساقى امرأة مكشوفتين.. ولكنى لأول مرة فى حياتى، أشعر بتلك التشنجات الغريبة، تلك الرعشات المثيرة، هذا النداء المجنون وأنا أرى امرأة تكشف عن ذكائها! إننى شعرت وأنا أجلس إليك أستمع إلى آرائك برغبة فى أن أضمك إلى صدرى. كأنك لا تشرحين أفكارا سياسية، كأنك تنادينى قائلة: تعال نمارس بعض الحب يا حبيبى! أحسست برغبة فى أن أضمك إلى صدرى، فى أن أحتضنك بين ذراعى، إن العقل له فتنة عجيبة مثل الجسد تماما، فيه إثارة، فيه نداء صارخ، فيه نوع من العرى المفضوح.. هيا إلى الشقة الآن.

ـ بشرط؟

ـ ما هو الشرط!

ـ أن استمر فى شرح نظرياتى السياسية..

وقرصها عادل فى ذراعها، وكأنه يعبر عن رأيه فى الشرط الذى فرضته !

انفلتت من يده وهى تضحك وقالت :

ـ ما أكذبكم أيها الرجال عندما تتحدثون عن ذكاء النساء فقط!

الفصل الثالث والعشرون

ضغط عادل على الزر الداخلى لمصعد عمارة ايموبيليا المشير إلى الطابق العاشر، وتحرك المصعد إلى أعلى، ومد عادل يده يحاول انتزاع نظارة قسمت.

وتراجعت قسمت برأسها إلى الخلف وقالت، وهى تبعد عادل عنها:

ـ انتظر حتى نصل إلى الشقة!

ـ لا استطيع الانتظار.

ـ لا تستطيع أن تنتظر دقيقة؟

ـ أريد أن أقبلك الآن.

ـ إنك دائما فى عجلة

ـ أريد أن أعوض السنوات التى فاتت من عمرى بغير أن اقبلك!

ـ ألم تكفك ألوف الشفاه التى قبلتها، وتركت بصماتها على شفتيك؟

ـ قبلة واحدة منك محت كل هذه البصمات.

ـ كم امرأة قبلى قلت لها هذه الجملة نفسها؟

ـ قلتها ألف مرة.. ولم أصدق سوى هذه المرة!

ـ وكيف أعرف أنك صادق هذه المرة.

ـ سلى قلبك!

ـ قلبى مغرض يحكم لمصلحتك باستمرار!

ووصل المصعد إلى الطابق العاشر، وانفتح الباب، ثم انغلق أوتوماتيكيا، وعاد المصعد يهبط من جديد ولم يحس العاشقان المتعانقان بانفتاح الباب وانغلاقه إلا عندما بدأ المصعد فى الهبوط انفلتت قسمت من بين ذراعى عادل وقالت:

ـ انظر ماذا فعلت؟! المصعد يهبط بنا إلى الطابق الأرضى من جديد.

ـ لابد أن المصعد غضب لأنك رفضت أن تقبلينى!

ـ ألم يكف المصعد ان رآنى بين ذراعيك!

ـ إننى أريد أن أقبلك فى كل مكان، فى الشارع. فى السيارة فى المصعد، فى البيت، فى الأرض وفى السماء!

ووصل المصعد إلى الطابق الأرضى وانفتح بابه أوتوماتيكيا، وبعد لحظات عاد يغلق ويصعد من جديد. ثم توقف امام الطابق العاشر، وخرجت قسمت، وخلفها عادل الذى أسرع يخرج مفتاحه ويفتح باب الشقة ثم حمل قسمت فوق يديه، ومشى بها فى الصالة.

وصاحت به قسمت محتجة:

ـ إلى أين تذهب بى.

ـ إلى الداخل!

ـ دعنى إننى أريد أن أحدثك أولا فى أمر هام!

- الشقة هى خير مكان لبحث الموضوعات الهامة!

ـ هذا موضوع لا يصلح للبحث إلا على الأرض.

ـ لقد اعتاد الحكام والملوك فى الماضى أن يحكموا بلادهم من السرير.. ولعل هذا هو السبب الذى جعلهم يسمون مركز الحكم «سرير الملك»!

ـ نحن لسنا ملوكا!

ـ إنك ملكة على قلبى!

ـ احذر ان تجعلنى ملكة؟ فهذا عصر انهيار الملوك!

ـ ان عرشك مستقر لأنه فى قلبى!

ـ قلوب الرجال أشبه بصينية اللونا بارك التى تقذف الواقفين فوقها.. دعنى أتحدث معك أولا!

ـ أنا أعرف الموضوع الذى تريدين أن تتحدثى فيه، وهو مصير العالم!

ـ أنا أريد أن أحدثك عن مصير رجل واحد!

ـ أنا طبعا!

ـ لا.. عم عبده!

ـ لعن الله عم عبده. إنه دائما يجىء إلينا فى الوقت غير المناسب

ـ لقد جاء فى الوقت المناسب عندما تقدم وادعى أنه صاحب المنشور الذى كتبته ضد الانجليز.

وتوقف عادل، وأجلس قسمت على مقعد فى الصالة، وجلس على الأرض تحت قدميها، وقال ساخرا :

ـ ألا يستطيع عم عبده أن ينتظر حتى ينتهى لقاؤنا؟

ـ كيف أنام وعم عبده نائم على الاسفلت؟

ـ الاسفلت ليس بالشيء الجديد على عم عبده.. لقد أمضى طوال حياته ينام فوق الاسفلت.

ـ إنك نسيت إنه فى السجن بسببى.

ـ لم أنس ذلك.

ـ ونسيت إنه تحمل عنى جريمتى

ـ إننى أقدر تضحيته.

ـ كيف تريدنى إذن أن أتركه نائما فوق الأسفلت وأمضى وقتى معك.

ـ الغارة لم تمنعك من موعدنا معا.

ـ ولكننى الآن لا استطيع أن أنام بعد أن علمت بالمعاملة السيئة التى يلقاها عم عبده فى سجن الاستئناف!.. وبعد أن رفض مأمور السجن أن يسمح لى بمقابلته.. وبعد أن رفض قبول الطعام الذى أحمله له.

ـ لقد اتصلت بمأمور السجن تليفونيا ووعدنى بأنه سيمر على فى بيتى بعد انتهاء عمله فى السجن.

* * *

ودق جرس باب الشقة، وفتح عادل الباب وقال :

ـ كنا ف سيرة القط.. جاء ينط!

ودخل البكباشى يوسف البلحاوى مأمور سجن الاستئناف، وصافح قسمت وهو يقول لعادل:

ـ لم أكن أعرف أنك تسكن ف السماء!

قالت قسمت ساخرة:

ـ الملائكة وحدهم هم الذين يصعدون إلى السماء!.

قال البلحاوى وهو يتخذ مجلسه على أحد المقاعد:

– تقصدين أننى أول شيطان صعد إلى السماء.

– قال عادل:

ـ إن قسمت ساخطه عليك لأنك أسأت معاملة عم عبده!

ـ وأنا ساخط عليك لأنك أسأت معاملتى!

ـ أنا أسأت معاملتك! لقد تصورت أنك ستشكرنى!

ـ إنك فصلت أخى من شركة الهندسة الكهربائية!

ـ لأنه اختلس سبعمائة جنيه من أموال الشركة!

ـ مادمت عاملت شقيقى كمجرم فأنا عاملت عم عبده كمجرم!

ـ ولكن عم عبده لم يختلس أموال السجن.

ـ ارتكب جريمة أكبر! خان الوطن! هاجم حلفاءنا الانجليز!

ـ إنك كنت تناديه يا عبده بك بعد أن هاجم الانجليز.. فما الذى تغيـر الآن!

ـ انتصر الانجليز!

ـ هل هذا هو السبب الوحيد!

ـ أحد الأسباب.

ـ وبقية الأسباب!

ـ أنك رفت اخى من الشركة.. ولم تجاملنى!

ـ لقد جاملتك بما فيه الكفاية. لم أبلغ النيابة. اكتفيت بفصله، وسددت مبلغ السبعمائة جنيه من جيبى لخزانة الشركة. كيف كنت تـريد منـى أن أجاملك أكثر من هذا!

ـ ان تبقيه فى الشركة!

ـ كيف تطلب منى أن أبقى لصا فى الشركة؟

ـ انه ليس اللص الوحيد فى الدولة الذى يشغل منصبا.

وتدخلت قسمت وقالت:

ـ إن البك المأمور على حق.. الدولة مليئة باللصوص!

ـ المفروض أن يكون اللصوص فى السجن لا فى المناصب.

قال المأمور:

ـ عندى فى السجن اللصوص الصغار.. أما اللصوص الكبار فهم فـوق العقاب.. إننى وبخت أخى وشتمته وصفعته على وجهه عندما علمت بحادث الاختلاس!

ـ لأنه سرق سبعمائة جنيه.

ـ لانه لم يسرق سوى سبعمائة جنيه!

ـ كنت تريد أن يسرق أكثر!

ـ كنت أريد منه أن يشرف الأسرة ويصبح أحد كبار اللصوص!

ـ هل تظن أنه لو سرق من الشركة عشرة آلاف جنيه كنت أسكت عن جريمته.

ـ كنت سترقيه!

ـ وإذا سرق مائة ألف جنيه!

ـ كنت ستجعله عضوا فى مجلس إدارة الشركة!

ـ من قال لك هذا؟

ـ إنه العرف فى أثناء الحرب.. والعرف له قوة القانون!

ـ ماذا كنت أقول للمساهمين فى الشركة لو عرفوا أننى أبقيت موظفا مختلسا فى خدمة الشركة؟

ـ كنت تقول لهم إنه قريب أحد الوزراء.. وكانت الجمعية العمومية ستصدر قرارا بشكرك لأنك حافظت على مصالح الشركة بتعيين أحد أقارب الوزراء موظفا فيها!

ـ إن واجبى نحو الشركة التى عينتنى مديرا أن أبعد الموظف الذى يختلس أموالها!

ـ وأنا واجبى كمأمور عينته الحكومة أن أنقل العدو الذى هاجمها من الطابق الثانى فى السجن وهو طابق البهوات، إلى الطابق الرابع وهو طابق الحشرات!

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أعنى إذا أعدت أخى إلى الشركة.. أعيد عم عبده إلى الطابق الثانى مع كل الامتيازات التى كان يستمتع بها !

وتدخلت قسمت فى الحديث وقالت غاضبة للمأمور:

ـ فهمت الآن لماذا قلت إنك لا تعرف سيدة باسم « الآنسة كاف » ولماذا لم تفتحوا لى الباب الكبير الذى لا يدخل منه الا البغل والمأمور.. ولماذا قلت للشاويش إنه ليس من حقى زيارة عم عبده الا مرة فى الاسبوع ومن خلال السلك كما نزور القرد فى حديقة الحيوان.

ـ ما دام عادل بك ينفذ قانون الشركة، فأنا مضطر أن أنفذ قانون المصلحة !

ـ ولكن، هل قانون المصلحة أن تعامل المسجونين كالحيوانات !

ـ أقل من الحيوانات ! العجل المذبوح الذى يدخل السجن تستقبله لجنة برئاسة ضابط. ويستقبله طبيب. ونحمله فوق رؤوسنا إلى المطبخ.. أما السجين فهو لا يرى الضابط إلا ليصفعه على وجهه. ولا يرى الطبيب إلا ليعطيه العلاج دون أن يكشف عليه !

قال عادل :

ـ إننى وجدت حلا للمشكلة.. وهو أن أدفع لك كل شهر المرتب الذى كان يتقاضاه شقيقك من الشركة.. بغير أن يعود إلى عمله !

ـ وكرامته ؟ وشرفه. وسمعته ؟

ـ أدفع لك خسمة جنيهات فوق المرتب بدل كرامة وشرف وسمعة !

ـ إذن اتفقنا.. ابتداء من غد سيعود عم عبده إلى الطابق الثانى، وسيكون له سرير ومرتبه ومائدة وكرسى ومرآه.

ـ وسيصبح اسمه عبده بك.

ـ لا.. سيكون عبده باشا!

قالت قسمت محتجة:

ـ انا لا أقبل ان ينفذ الاتفاق من الغد.. يجب ان ينفذ من اليوم.

ـ ولكننا أغلقنا السجن ووضعنا التمام وأغلقنا بابه بالشمع الأحمر!

ـ افتح السجن بأى ثمن!

ـ هذا سيتكلف مصاريف!

وأخرج عادل محفظته، وأخرج منها ورقة مالية ودسها فى يد البلحاوى بك..

وضحك البلحاوى بك وقام من مقعده وقال:

ـ مادام المفتاح فى يدنا.. فإننى ذاهب لأفتح باب السجن الآن!

وانحنى البلحاوى بك وهو يودع قسمت ويقول:

ـ سنفتح غدا باب السجن على مصراعيه عندما تدخل الآنسة كاف!

* * *

وابتسمت قسمت وقالت:

ـ إننى فى ذهول.. لم أكن أتصور أن الفساد وصل فى البلد إلى هذه الدرجة!

ـ ان هذا من طبيعة الحرب.. الحرب تفسد كل شيء!

ـ حتى الذمم؟

ـ أول ما تفسده هو الذمم!

ـ إنها أول مرة فى حياتى أرى رجلا يبيع ذمته.. إنه يبيع ذمته ببساطة وكأنه يبيع رطلا من البلح!
كنت أتصور أن الذى يبيع ذمته ينظر حوله فى قلق لأنه يرتكب جريمة ولكن البلحاوى كان يتكلم وكأنه يتفاوض فى صفقة مشروعة!

ـ فى أثناء الحرب يحدث ظلام تام!

ـ وفى ظل هذا الاظلام تحدث السرقات!

ـ من عادة اللصوص الكبار ان يختفوا فى النهار، وينتشروا فى الظلام!

ـ هذه نتيجة وجود الرقابة ووجود المعتقلات ووجود الاحكام العرفية، وكل وسائل الاظلام.

ـ إن الحكمة فى هذا الاظلام التام ألا يرى العدو المواقع الهامة!

ـ ولكن هذا الاظلام التام مقصود به الا يرى الشعب الصفقات الهامة والسرقات الهامة والرشاوى الهامة والجرائم الهامة!

ـ الظلام يشجع على ارتكاب الجرائم. لصوص الخزائن لا يعملون إلا فى الظلام.. لصوص الفراخ وصغار النشالين هم وحدهم الذين يسرقون فى النهار!

ـ إذن فالحكومة بهذه الاجراءات هى التى تشجع على السرقة!

ـ إنها هى التى تطفى الأنوار.

ـ ولكنك قلت لى إن رئيس الحكومة نزيه.

ـ إنه نزيه شخصيا، وأنا مؤمن بطهارته واستقامته.

ـ كيف إذن يسمح بهذه السرقات؟

ـ إنه مجنى عليه مثلنا، إنه لا يعرف؟

ـ كيف لا يعرف؟

ـ لأن هناك رقابة صحفية وأحكاما عرفية.

ـ ولكنه هو الحاكم العسكرى الذى فرض الأحكام العرفية والرقابة العسكرية.

ـ الانجليز هم الذين فرضوها!

ـ ليخفوا جرائمهم؟

ـ ليشجعوا الضعفاء منا على الجريمة، ليفسدوا رجالنا حتى يسهل القضاء عليهم!

ـ ولكن رئيس الحكومة عندما كان زعيما للمعارضة كان يطالب بإلغاء الرقابة على الصحف، وبإلغاء الأحكام العرفية.

ـ عندما يجلس الزعيم عادة فوق مقعد الحكم ينسى كل ما قاله فى المعارضة!

ـ ومتى يعود ويتذكر أقواله؟

ـ عندما يخرج من الحكم!

وأخرج عادل علبة سجائره، وقدم سيجارة لقسمت، والتقط سيجارة وسبحا مع الدخان وهو يسبح فى الغرفة.

وفجاة قالت قسمت :

ـ لقد خرجنا عن الموضوع الأصلى.

ـ إننا فى صميم الموضوع !

ـ خطرت ببالى فكرة.. مادام كل شىء فى أثناء الحرب أصبح يشترى بالمال. فلماذا لا نحاول أن نشترى حرية عم عبده بالمال؟

ـ تريدين أن نتفق مع مأمور السجن على أن يهربه

ـ كلا.. لماذا لا نبحث عن مسئول نساومه على أى مبلغ من المال لتحفظ قضية عم عبده؟ إننى مستعدة أن أبيع كل مجوهراتى ليخرج من السجن !

ـ القضاء فى بلادنا هو الحصن الوحيد الذى لم يقع بعد فى يد الفساد !

ـ لا أقصد القضاء، أقصد الدولة. ما دمنا لا نحصل على حقنا من العدالة مجانا، فلماذا لا نحاول أن نشتريها بالمال؟

ووقفت قسمت فجأة وقالت لعادل.

ـ هل تذكر ياعادل عندما استولى الجيش البريطانى على الكابلات من شركتك؟ إن هذه الخسارة جعلتك تتحرك فورا، وتذهب إلى وزير المالية وإلى رئيس الوزراء لتنقذ شركتك من هذه الخسارة! لماذا لا نفعل الآن نفس الشىء؟ مصر الآن معرضة للخسارة، وأنت لك أسهم فى هذا البلد كما لك أسهم فى شكرة الهندسة الكهربائية !

ـ ماذا تريدين منى أن أفعل !

ـ تذهب إلى صديقك رئيس الوزراء وتبصره بكل ما يحدث !

ـ وما الفائدة !

ـ أنت قلت لى إنه مجنى عليه مثلنا، ولا يعرف ما يفعله الذين حوله، فما الذى يمنع من أن تقول له بصراحة كل ما تسمع.

ـ لقد قالها له كثيرون قبلى وغضب عليهم وفصلهم من مناصبهم.

ـ ولكنك لست موظف حكومة.. إنه ليس فى قدرته أن يفصلك من عملك !

ـ إنه قادر على أنه يعطل كل مصالح الشركة مع الحكومة.. ويفلسها !

ـ ليكن !

ـ وقد يضعنى فى السجن.

ـ ليكن !

ـ وربما أصبح مع عم عبده فى زنزانة واحدة.

ـ ليكن.. وبعد ذلك يتقدم غيرك ويفعل نفس ما فعلته ويدخل السـجن.. وبعد ألف رجل مثلك سوف يرى الحاكم الحقيقة !

وأين نجد الألف رجل؟

ـ اضرب المثل.. ويتبعك الألوف !

ـ لقد ضرب عم عبده المثل، ولم يتبعه أحد !

* * *

مضت عدة أيام اختفت فيها قسمت عن عادل.

تخرج من بيتها فى ساعة مبكرة من الصباح وتعود إليه فى ساعة متـأخرة من الليل. كل ماعرفه عنها أنها تزور عم عبده فى سجن الاستئناف بانتظام.

ولما تصادف أن عثر عادل على قسمت فى التليفـون أجـابته إجـابات مقتضبة بأنها مشغولة فى أمر هام وأنها تحبه ولكنها مضطرة للانقطاع عـن زيارته!

واعتقد عادل أن قسمت مشغولة فى جمع تبرعات لملجأ المتسـولين. أو أنها تبحث عن طريقة تشترى بها الافراج عن عم عبده!

وكان يعجب لهذه الفتاة الغريبة. إنها إذا انصرفت إلى شىء أعـطته كل تفكيرها، وكل روحها، وكل اهتمامها، وكل أيامها ولياليها!

هى فى مكتبها بملجأ المتسولين راهبة، وفى بيته غانية!

ـ وهى بالنظارة السوداء فيلسوفة وبغير النظارة السوداء فاجرة!

فى غرفة الصالون حكيمة وفى غرفة مكتبه مجنونة، كأن ثوبها ونـظارتها السوداوين يغيران شخصيتها ويحولانها من النقيض إلى النقيض.

الآنسة قسمت امرأة جادة وهبت نفسها للناس، كرست حياتها للخـدمة العامة عصبية المزاج، تتحدث وكأنها تحارب. أشـبه بـدائرة معـارف فى السياسة والاقتصاد والأدب والعلم ملابسها مشوشة كمـلابس الفـلاسفة والعلماء!

والآنسة كاف امرأة كلها أنوثة، يكشف جسدها العارى عـن كل أسرار الجمال، كل شىء فيها يصرخ بالعاطفة والحب، شعرها الأسود، رمـوشها،

عيناها، أنفها، فمها، أسنانها، ذقنها، عنقها، صدرها، عطرها، الذى يشبه العطر الذى ينبعث من رسالة غرام، صوتها الذى يشبه أنغام موسيقى راقصة مثيرة، كلامها الناعم الذى يشبه المخمل، كأنها ولدت للحب ولا تعرف فى الحياة شيئا إلا ممارسة الحب.

وكان عادل يحاول أن يعرف أى الشخصيتين هى الشخصية الحقيقية وأيهما الشخصية الزائفة. هل المرأة هى الأصل والنظارة السوداء هى القناع.. أم أن قسمت هى الحقيقة والآنسة كاف هى الاسم المستعار؟

ولكنه كلما اقترب من إحدى الشخصيتين خيل له أنها الشخصية الأصلية. إنها ليست دكتور جيكل ومستر هايد، شخصية للخير وشخصية للشر. على العكس إن فيها صفة بارزة فى الحب. إنها تحب ملجأ المتشردين كما تحب عادل. تتحدث عنه كأنه حبها الأول. وهى تعشق مصر عشقا مبرحا، كأن هذا العشق هو غرامها الوحيد. وكل حب لها هو حب جارف جبار يستولى على فكرها، ويسيطر على حياتها، ويسرى كالدم فى عروقها!

هل يستطيع القلب أن يحبها بثلاثة أنواع مختلفة من الحب فى وقت واحد؟

هل المرأة تختلف عن الرجل؟

الرجل ممكن أن يعشق عمله ويحب امرأة فى وقت واحد. وبعض الرجال يضحون بعملهم من أجل امرأة، وبعضهم يضحى بامرأة من أجل مستقبله. لا بد أن تتميز عاطفة عن عاطفة، وينتصر حب على حب. فالقلب ليس فيه إلا مقعد واحد من مقاعد الدرجة الأولى.. ويمكن للقلب أن يتسع بعد ذلك لبعض الواقفين!

ولكن هذه المرأة فى قلبها ثلاثة مقاعد للدرجة الأولــى. فى مقعــد يجلس عشيقها، فى مقعد ثان يجلس وطنهــا، وفى المقعــد الثــالث يجلس ملجــأ المتشردين !

وهى قادرة على أن تعطى كل واحد من هؤلاء نفس الحب، ونفس العشق ونفس الاستعداد للتضحية والفداء !

فى قدرة بعض الغانيات أن يعشقهن ثلاثة رجال فى وقت واحد. إن تعطى الواحدة منهن كل عاشق من العشاق الثلاثة نفس الوقت ونفس الاهتمــام ونفس الهناء.. ولكنها فى قرارة قلبها تفضل واحدا منهم.. وينتهى بها الأمر أن تحتفظ بواحد منهم وتطرد الاثنين من حياتها !

أما قسمت فهى تحتفظ بالثلاثة معا !

لقد سألها عادل مرة :

ـ لو خيرتك أن تختارى بينى وبين ملجأ المتسولين.. فمن تختارين ؟

وسكتت قسمت قليلا وقالت :

ـ اختاركما انتما الاثنين !

وسألها عادل من جديد :

ـ أنت تحبين مصر وتحبيننى.. لو قضت مصلحة الوطن أن تتخلى عنى فماذ تفعلين ؟

ـ اتخلى عنك..

ثم أضافت وقالت فى تأكيد :

ـ وبعد ذلك أطلق على رأسى الرصاص!

وأحس عادل بأنها كانت فعلا تعنى ما تقول. وأنها امرأة لا تعيش لحب واحد.. وإنما هى تعيش لثلاثة أنواع من العشق فى وقت واحد!

الفصل الرابع والعشرون

ذهب عادل إلى نادى السلاح فى حديقة الأزبكية ليشهد مباريات الشيش. كان يهوى هذه الرياضة عندما كان فى كلية الهندسة وانقطع عن ممارستها بسبب كثرة مشغولياته، ولكنه استمر يحضر المباريات التى تقام فى نادى السلاح من وقت لآخر..

ودهش عادل عندما رأى بين اللاعبين أحمد محمد حسنين باشا رئيس ديوان الملك، وقد ارتدى ملابس الشيش البيضاء، ووضع على وجهه القناع الأسود، وأمسك سيفه بيده. دهش كيف استطاع هذا الرجل الغريب أن يجد وقتا لممارسة اللعبة التى كان أحد أبطالها العالميين فى شبابه.

وبارز حسنين شابا من أبطال اللعبة وانتصر عليه. ثم بارز لاعبا ثانيا وانتصر عليه. وتقدم لاعب ثالث ورابع وخامس وانتصر عليهم الرجل العجوز جميعا. وتعادل مع السادس!

وراقبه وهو يبارز، إنه يتقهقر بسيفه، ويتظاهر بالدفاع، ويتلقى الضربات، ويلف ويدور وتحسب أنه حوصر من خصمه. وفجأة ينقض بسيفه على الخصم بالضربة القاضية..

وانتهت المباريات، وخلع حسنين القناع، وبدأ يجفف العرق المتساقط من رأسه، ورأى عادل أمامه فابتسم وقال:

ـ انتهيت يا عادل ! أصبحت عجوزا !

ـ إذا كنت تعتبر نفسك انتهيت بعد أن انتصرت على خمسة شبان فى سن أولادك وتعادلت مع السادس.. فماذا يقول هؤلاء الشبان عن أنفسهم !

ـ منذ سنوات قليلة كنت أستطيع أن أهزم عشرة أبطال دون أن تسقط منى قطرة عرق واحدة.

ـ إننى لاحظت أنك تلعب بالسيف بنفس الطريقة التى تلعب بها فى السياسة، تحاور وتناور، تتأخر وتتقهقر، تلف وتدور، تتظاهر بأنك كدت تسقط مستسلما تحت وقع الضربات، وفجأة تنقض على خصمك فى اللحظة التى يتصور فيها أن المباراة قد انتهت بانتصاره !

ـ إن فشلى الدائم هو سر نجاحى فى الحياة ! حياتى مجموعة من الفشل ! عندما اكتشفت واحة فى الصحراء ادعت امرأة انجليزية أنها هى التى اكتشفتها. ودعتنى لأحضر الحفلة التى أقيمت تكريما لها بمناسبة هذا الاكتشاف !

ـ وهل حضرت الحفلة !

ـ طبعا حضرتها !

ـ لأن هذه الرحالة الفاتنة كانت عشيقتك أثناء الرحلة !

ـ لأننى لم أقل فى حياتى عن امرأة إنها كاذبة !

ـ وتركتها تنعم وحدها بهذا الانتصار !

ـ لا.. ذهبت إلى الصحراء واكتشفت واحة أكبر وأهم من الواحة الأولى.

ـ وهل أخذت معك الرحالة الانجليزية؟

ـ لا.. أخذت معى صورتها!

ومضى حسنين إلى غرفة الملابس ليبدل ملابس الشيش بعد أن طلب من عادل أن ينتظره..

وبعد لحظات خرج حسنين من غرفة الملابس أنيقا، وقد اختفى الفارس، وظهر رئيس الديوان الملكى، بشعره الفضى، وقامته التى تشبه الحربة، وتقدم نحو عادل ووضع يده على كتفه وقال له:

ـ ما هى أخبار الأميرة فضيلة؟

وذهل عادل. لقد التقى قبل ذلك عدة مرات برئيس الديوان فى سهرات مختلفة ولم يطرح عليه هذا السؤال! إنه لم يسأله هذا السؤال عندما كان يظهر معها فى المجتمعات وعندما بدأت الناس تلوك علاقتهما.. فما الذى يجعل رئيس الديوان الملكى يوجه إليه هذا السؤال، بعد أن مضت عدة أسابيع على انقطاع علاقته بها..

ولاحظ أن حسنين يركز عينيه الصغيرتين الذكيتين فى وجهه، وكأنه يريد أن يقرأ الجواب فى عينيه..

وشعر كأن حسنين يحاصره بسؤاله.. فقال:

ـ لماذا تسألنى هذا السؤال؟

ـ لأنك الوحيد الذى تعرف الجواب!

ـ إنه شرف لا أدعيه... وتهمة لا أدفعها!

ـ إننى لاحظت أن الأميرة فضيلة اختفت فجأة عن جميع المجتمعات.. وظننت أنك السبب!

ـ لماذا أكون السبب؟

ـ قد تكون أمرتها بألا تظهر فى المجتمعات!

ـ هل معقول أن أصدر أمرا لامرأة!

ـ الأميرات لا يخضعن لأوامر الملك.. ويخضعن عادة لأوامر الرجال الذين يحببنهم!

ـ إن أخبار معاليك قديمة!

ـ لا يهمنى أن تكون أخبارى قديمة أو جديدة.. كل ما يهمنى أن تقطع علاقتك بها!

ـ هل الملك غاضب لهذه العلاقة؟

ـ الملك لا يحدثنى فى مثل هذه المواضيع.

ـ إذن معاليك تحدثنى بصفة شخصية.. لا بصفة رسمية!

ـ بصفتى عضوا معك فى جماعة الرواد...

ـ إذا كان الأمر كذلك، فإننى أقول لك إننى قطعت علاقتى بها.

ـ إننى أهنئك!

ـ هل كنت تخشى أن يقطع الملك رأسى أذا علم بعلاقتى بها؟

ـ إننى لا أخشى عليك من الملك.. إنما أخشى عليك من الأميرة!

ـ إن رأيك فى الأميرة فضيلة سيئ

ـ على العكس، إن رأيى فيها أنها أميرة جميلة جدا وذكية جدا.

ـ وخطرة جدا!

ـ إنك وجدت الوصف المناسب!

ـ إننى أشكرك على هذه النصيحة... ولو أنها جاءت متأخرة!

ـ إن عيبى أن تفكيرى بطىء!

ـ إنك أشبه بسلحفاة تتنقل بطائرة، البسطاء هم الذين يرون السلحفاة، والخبثاء هم الذين يرون الطائرة!

ـ لو كنت أضع عقلى فى طائرة لانقضضت عليك فى أيام علاقتك بالأميرة فضيلة، ونصحتك بأن تبتعد عنها!

ـ أنا أعرف أنه ليس من طباعك أن تضرب الحديد وهو ساخن!

ـ من عادتى أن أترك أصدقائى يتعلمون من أخطائهم.. إنك لن تعرف النار إلا إذا لسعت أصابعك!

ـ ولكن نار الأميرة لم تلسعنى بعد..

ـ بعض الناس لا يشمون رائحة الحريق إلا بعد أن يتحولوا إلى رماد!

ـ يبدو أنك لا تصدقنى عندما أقول لك إننى لم أر الأميرة فضيلة منذ حوالى شهرين.

ـ لا أستطيع أن أصدقك وأكذب نفسى!

ـ لا أفهم.

ـ منذ شهر واحد كنت أتناول العشاء على مائدة الأمير يوسف كمـال فى قصره بالزيتون، وتصادف أن مكانى على المائدة بجوار الأميـرة فضـيلة. وطلبت منى أن استأذن الملك فى أن يوافق على طلاقها من زوجها معـروف باشا لأن طلاق الأمراء والأميرات لا يتم إلا بموافقة الملك.

ـ وما شأنى بطلاقها؟

ـ سألتها عن السبب فى طلبها الطلاق فقـالت إنهـا تحـب عـادل علاء الدين.. وأنها قررت أن تتزوجه!

ـ ولكنها لم تخبرنى بشىء من هذا.

ـ إن بعض الأميرات يتصورن أنهن يستطعن الزواج والطلاق بـأوامر ملكية... الأميرة تصدر أمرها بالزواج.. وعلى الرجل الطاعة والخضوع!

ـ ولكنك تعرفنى... أنا لست الرجل الذى يخضع لمثل هذه الأوامر.

ـ وأعرف الأميرة.. إنها أشبه بالقضاء والقدر!

ـ تقصد إنها تستطيع أن تستصدر أمرا ملكيا بالزواج، ويجىء رجـال الحرس الملكى، ويكتفوننى ويرغموننى على الزواج بها؟

ـ المرأة الذكية ليست فى حاجة إلى سلاسل لتدخل الرجل إلى زنـزانة الزواج.

ـ أدهشنى أن تتقدم الأميرة بهذا الطلب إلى الملك بعـد أن قـطعت علاقتى بها!

ـ لعلها وجدت أن هذه هى الطريقة لاستعادتك!

ـ وهل أبلغت رغبتها للملك؟

ـ كلا... إننى اعتدت أن أضع مثل هذه الرغبات فى درج مكتبى.. ولو أننى أبلغت الملك بكل رغبات الأميرات والنبيلات لأصبحت جميع أميرات مصر مطلقات!

ـ وماذا تنصحنى أن أفعل؟

ـ لا تعد إلى لقائها. إن أزواج الأميرات هم أتعس الأزواج فى العالم!

ـ وقلت لحسنين باشا:

ـ ولكنك متزوج من ابنة أمير. الأميرة شويكار.

ـ كانت زوجتى لطيفة سيدة ممتازة ولولا أنها ابنة أميرة لما افترقنا أبدا!

ـ لقد سمعت أن زواجكما كان نهاية قصة حب!

ـ كانت أكبر قصة حب فى حياتى، كانت ابنة سيف الله باشا يسرى سفير مصر فى أمريكا. وكنت أنا السكرتير الأول للسفارة. وولد حبنا فى واشنطن. ولم أكن أرى فيها سوى فتاة رائعة. كانت أمها الأميرة شويكار مطلقة من سيف الله باشا ومطلقة من الملك فؤاد. وكانت أفقر أميرة فى مصر. وكان الملك فؤاد يطاردها. ومع ذلك لم أهتم بكل هذا وتزوجتها.

وعشنا حياة جميلة. ولكن كانت هذه الجنة تتحول إلى جهنم بسبب أقاربها! حدث مرة أن كنت مع الملك فؤاد فى باريس، وكنا فى فندق جورج سانك، وإذا بالأميرة فوقية ابنة الملك وشقيقة زوجتى من أمها تقول لى أمام كل الموجودين بلهجة آمرة: حسنين! إصعد إلى جناحى فى الطابق الثالث، واحضر فرائى! صعد الدم إلى رأسى، إن شقيقة زوجتى تعمدت إهانتى

وتكليفى بمهمة لا يقوم بها إلا خادم لأننى أعمل أمينـا أول فى قصر أبيهـا كأنها اعتبرت كل موظفى القصر خدما عند أبيها. وتمالكت نفسى ولم أصفعها على وجهها. وناديت خادما من خدم الفندق وطلبت منـه أن يصـعد إلـى الطابق الثالث ويحضر فراء الأميرة. وعندما جاء الفراء حملتـه ووضـعته بنفسى على كتفيها وقلت لها هامسا: لو لم تكونى امرأة لصفعتك على وجهك. ولكننى لا أصفع إلا رجلا مثلى... ولهذا يمكنك أن تقولى للكونت شامبلياس إننى سوف أصفعه على وجهه فى أى مكان أراه!

ـ من هو الكونت شامبلياس!

ـ كان عشيقها!

ـ لماذا لم تهددها بأن تصفع زوجها محمود فخرى باشا سـفير مصر فى باريس؟

ـ لأننى أعرف أن زوجها لا يهمها وكان يسعدها أن أصفعه على وجهه ولم تستطع أن تشكونى إلى أبيها الملك. لأنها كانـت تخشـى أن يعـرف بعلاقتها بالكونت الأسبانى. ولقد ذهبت الأميرة فوقية إلى عدد من الأمراء والأميرات وقصت عليهن أننى أهنتها أمام كبار رجال الدولة فى فندق جورج سانك!.. وغضبوا على.. ولم يغضبوا على الأميرة المصرية التى تعشق شابا أسبانيا!

ـ ولكنك لم تصفع المرأة الانجليزية مسز روزينا فوريس التى سرقت منك المجد فى رحلتك الأولى للصحراء، اكتفيت بأن تصفعها بأت تقوم بـانتصار آخر.

ـ الأميرات يختلفن عن الرعية، أى امرأة مـن أى شـعب يمـكن أن

تصفعها بنظرة ! أما جلود الأميرات فهى جلود سميكة يجب أن تغمد الخنجر فيها لتشعر الواحدة منهن بوخزة الدبوس !

ـ إن آراءك فى الأمراء غريبة ! لا يصدق أحد أن الرجل الذى تزوج ابنة أميرة. وعاش طوال حياته يعمل فى قصر الملك تكون هذه آراءه فى الملوك والأمراء !

ـ إننى ابن بولاق، وأغطى ابن بولاق ببدلة التشريفة الكبرى الموشاة بالقصب والمغطاة بالأوسمة والنياشين. والذين لا يعرفوننى يتحدثون إلى البذلة التى أرتديها، والذين يعرفوننى جيدا يتحدثون إلى ابن بولاق المختفى داخل البدلة الموشاة بالقصب !

ـ وهل أنت فى السياسة ابن بولاق أم ابن القصر؟

ـ عندما انجح أكون تصرفت كابن بولاق.. وعندما أفشل أكون تصرفت كابن قصر عابدين !

ـ ومع النساء؟

ـ اتصرف مع الملكة كأنها ابنة بولاق.. واتصرف مع ابنة بولاق كأنها ملكة !

ـ وبهذه الطريقة استطعت أن تبهر الانجليز!

ـ اننى اخاطب الانجليز باسلوب البدوى الذى تعلمته فى رحلاتى إلى الصحراء.. الانجليز يشبهون الصحراء يتوه فيهم الانسان.. هم احيانا اشبه بالرمال المتحركة من يعتمد عليهم يغوص ! وهم احيانا اشبه بالواحة، تصلح لان تكون محطة فى الطريق، ولا تصلح للاستقرار، فيهم عمق الصحراء وسحرها، وفيهم غدرها وعواصفها والصحراء صديقة من يعرف

مسالكها وعدوة من يجهل طرقها، وعود الانجليز هى سراب من الصحراء خدعت كثيرين وضللت الكثيرين ! وفى بعض الاحيان اشبه المرأة بالصحراء، لا تغضب حتى ترضى، ولا تثور حتى تهدأ. تحب من يصبر عليها، تعاند من يضيق بها. كل قدم عليها تترك اثرا، فى كل منهما فتنة وسحر وغموض!

– لعل هذا السبب فى انك تحب المرأة والصحراء معا !

– ان امنية حياتى ان اعتزل منصب رئيس الديوان الملكى واقيم بقية حياتى فى خيمة وسط الصحراء

– مع اميرة فاتنة ؟

– لا، مع غجرية.. ان الاميرة لا تعرف انصاف الحلول. اما أن تضع الرجل تاجا فوق راسها، واما ان تضعه حذاء فى قدميها.. وأنا لا احب ان اكون تاجا ولا أحب أن اكون حذاء.. احب المرأة الغجرية التى تنتقل معى من مكان إلى مكان حافية القدمين، تجهل التقاليد، وتحتقر قواعد البروتوكول، ولا تعرف آداب الجلوس.. ان اجمل امرأة هى الطبيعية. ولقد التقيت فى رحلاتى فى الصحراء بنساء غجريات.. تصلح الواحدة لأن تكون من كواكب هوليود الفاتنات !

* * *

– عاد عادل إلى مكتبه وهو يسبح فى دوامة من الافكار. لقد اجاب حسنين على كثير من الاسئلة التى شغلته فى وقت من الاوقات، ولكنه ترك اسئلة اكثر اهمية بالنسبة له بغير جواب.

– كانت الاميرة فضيلة قد قالت له مرة إن افراد الاسرة المالكة المصرية فى ذهول كيف استطاع هذا الرجل احمد حسنين أن يسيطر سيطرة كاملة

على الملكة نازلى، فتحبه ترهبه، وتعشقه وتخشاه، وتبدو أمام الناس كأنها الملكة، وتظهر أمامه كأنها جاريته ! لقد عاشت نازلى ١٧ سنة سجينة فى قصر الملك. لا تغادر جناحها الا بأذن الملك. ولا تخرج من القصر الا بأمر الملك. يتدخل الملك فى اختيار صديقاتها وانتقاء وصيفاتها. منعها أن تخرج مكشوفة الوجه الا عندما تسافر معه إلى اوربا. وحدث أن نشرت لها بعض الصحف الأوروبية صورة تظهر وجهها فأمر الملك فؤاد بمنع دخول هذه الصحف إلى مصر.

وكان فى بعض الاحيان يمنع شقيقها الصغير شريف صبرى من رؤية اخته عدة سنوات . وحدث مرة أن قال حسن انيس باشا وكيل الوزارة فى مجلس الوزراء انه رأى وجه الملكة. فما كان من الملك الا أن احال وكيل الوزارة إلى المعاش، ومنعه من دخول القصر إلى أخر يوم فى حياة الملك. ولكى يمنع الملكة من أن تظهر أمام الرجال منع حضور النساء المصريات فى مآدب القصر حتى لا يضطر إلى اظهار الملكة !

وكانت الملكة شابة، مليئة بالحيوية وحب الحياة. تحب الرقص ولا تستطيع أن ترقص. تعشق الحفلات ولا تستطيع أن تحضرها، تحب المرح واللهو ولا تراهما الافى افلام السينما التى تعرض فى سينما القصر.

وما كاد يموت الملك فؤاد حتى انطلقت الملكة وكأنها حصان جامح كان مسجونا فى اسطبل، وما كاد يرى باب الاسطبل مفتوحا حتى انطلق كالسهم. اذا ضربته بالسوط اندفع يشق طريقه. وإذا ربت على رأسه تردد لحظة ثم وثب. لقد انطلق إلى الغابة. ولن يقبل ان يعود إلى الاسطبل من جديد. حاول شقيقها شريف صبرى أن يكبح جماحها فرفسته. حاول الامير محمد على بصفته رئيس مجلس الوصاية أن يمسك بزمامها فداسته. حاول ابنها

الملك أن ينبطح على السرج. فألقته على الارض. كانت تـريد ان تعـوض حرمانها الطويل. المرأة المحرومة من الحرية لا تكفيها قطرة من الحـرية، انما هى تلتهم الحرية حتى تشرق بها.

وساعد على اندفاع الملكة أن الدم الفرنسى الحار يجرى ف دمها، وقـد ورثته عن جدها لامها الكولونيل سيف الفرنسى احد قواد نابليون الذى اسلم وتسمى باسم سليمان باشا .

وكان حسنين فى ذلك الوقت رائد الملك، وخيل إليه أنه يستطيع أن ينسى نازلى انها امرأة ويذكرها انها ملكة. وإذا بنازلى تقع اسيرة هواه.. تجـن بالرجل الاسمر الطويل جنونا كاد يفقدها عقلها. وإذا بهذه المـرأة التـى لا تخضع لاحد تخضع لهذا الرجل. وتتحول من حصان جامح إلى قط وديع. تستأذنه فى الثوب الذى ترتديه. تخاف أن تضـحك ضـحكتها المثيـرة فى حضوره. تتوقف عن الانطلاق إلى الحياة المجنونة التـى ارادت بهـا أن تعوض سنوات حرمانها.

وتسربت قصة الغرام الملكى إلى الشارع. وخرجت أغنية شعبية تقول!

فـــاروق يـــانور العيـــــن
امـــك تحـــب اثنيـــــن
علـى مـــاهر واحمـد حســنين!

ولم يكن على ماهر عشيق الملكة!

ولكنه كان عدوا للوفد فأرادت الالسنة ان تحرقه ايضا.

وفوجىء الملك فاروق بامه تقول له انها قررت ان تتزوج من حسنين لانـه

ابى ان يكون عشيقها. وكان عليه ان يختار بين أن يوافق على زواج أمه من رائده، أو ان يتركها على حل شعرها، ووافق على هذا الزواج على مضض. وتولى الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الازهر عقد هذا الزواج، وإذا بحسنين يمارس كل حقوقه كزوج، زوج من اولاد البلد. وإذا بهذه المـرأة الثائرة تهدا وتستكين. تنسى معه انها ملكة، بل تعامله كأنه اله. تطلب ثوابه وتخشى عقابه، إذا اخطأت ركعت تحت قدميه تستغفره. وإذا غضب عليهـا امضت الليل تبكى وكأن ابواب السماء اغلقت فى وجهها.

وكان الملك يغار من حسنين، كما يغار كل ولد من زوج امه، ولولا سلطته على الملكة الوالدة لامتلأت صحف العالم بأنباء مغامراتها..

وكانت الأميرة فضيلة وكل المتصلين بالقصر يسألون عن سر سحر هـذا الرجل إنه زئر نساء عالمى .. له قدرة غريبة على سحر النساء. شـخصيته تشبه شخصية رجل خرج من قصة الف ليلة وليلة. فقد سحر نساء لنـدن فى شبابه. وعندما كان سكرتيرا أول للسفارة المصرية فى واشنطن كانت صحف امريكا تتحدث عنه كأنه عمر الخيام الجديد. ولكن كل هذه الصفات التـى اشتهرت عنه فى شبابه لا يمكن أن تبقى ملتصقة به بعد أن جاوز الخمسين .

ولكن كلمة واحدة قالها حسنين لعادل جعلته يعتقد أنه وضع يده علـى مفتاح اللغز.. لقد قال إنه يعامل الملكة كأنها بنت بولاق ويعامل بنت بـولاق كأنها الملكة!

اذن. فقد سحر هذا الرجل ملكة مصر عندما عاملها كأنها فتاة تـرتدى الملاءة اللف السوداء، وتطرقع بشبشبها وهى تمشى فى حوارى بولاق!

الملكة اعتادت ان ترى رجالا ينحنون امامها. يقبلون يديها، يسـارعون إلى تلبية رغباتها، يتنافسون فى تملقها... وإذا بها ترى بين هؤلاء جميعـا

رجلا يختلف عنهم. ينسى انها ملكة ولا يذكر الا انهـا امـرأة. لا يجـرى وراءها وانما يتركها هى تجرى وراءه. يأمرها كأنها جاريته. يعاملها كأنهـا دونه مركزا ومقاما. المرأة بطبيعتها تعشق فى شبابها الرجل الـذى يشـبه اباها. ولكنها عندما تكتمل انوثتها تحب الرجل الذى لا يشبه احدا عـرفته من قبل. رجلا لا شبيه له. رجلا يختلف عن كل الرجال. تماما كما تحب ان ترتدى ثوبا يختلف عن الثياب التى ترتديها النساء الاخريات. ويزيد فى قيمة هذا الرجل عندما يكون معشوق النساء. عندما تسمع أن اجمل نساء المدينة يطاردنه، فهى عندما تأخذه لنفسها إنما تحرم كل نساء العالم من الـرجل الذى يحلمن به فهى تجد فى الظفر بمثل هذا الرجل انتصارا لها علـى كل امرأة فى الدنيا.. ان هذه شهادة لها بأنها اجمل منهن جميعا. واكثر انـوثة منهن جميعا. ولهذا فإنه فضلها هى عليهن جميعا!

وابتسم عادل ساخرا من نفسه، انه يشغل راسه بمشكلة حسب نـازلى لحسنين، وينسى مشكلته هو، مشكلته مع الاميرة فضيلة!

لم تكن الاميرة فضيلة مشكلة الا عندما قال له حسنين انهـا ارادت أن تستأذن الملك فى الطلاق من زوجها، والزواج من عادل!

انها مشكلة تحيره فعلا. لقد تصور انه طوى إلى الابد قصته مع الاميرة عندما غير رقم تليفونه السرى فى مكتبه، وعندما غير رقم تليفونه فى شـقته، وعندما توقف عن الذهاب إلى اى مكان يعرف ان الاميرة تتردد عليه..

وقد تصور أن الاميرة يئست منه وبدأت قصة غرام جديدة. ولكن حسنين اكد له ان حديث الاميرة عن رغبتها فى الزواج منه كان بعد اسـابيع مـن انقطاع هذه العلاقة.

ماذا تقصد هذه الاميرة من بعث قصتها التى طويت إلى الحيـاة مـن

جديد؟ اى امراة قطع عادل علاقته بها قبل هذه المرة اوهمها انـه يقـطع علاقته بها لمصلحتها، أو انه اكتشف انه لا يصلح لها. وانها مـلاك وهـو شيطان، أو انه يخشى ان تتسرب أنباء هذه العلاقة فتسيء إلى سمعتها التى يحرص عليها، أو انه لم يستطع ان يوفق بين رغبته فى ان يراها كل يوم وبين ان يذهب إلى عمله كل يوم. فتتصور المرأة التى يتركها انه يضحى بقلبه فى سبيل سعادتها، ويدوس على عواطفه من اجل هنائها!

وقد خرج من كل علاقة قبل هذه العلاقة، وعلى رأسه هـالة المـلائكة الأبرار. ما من مرة طعن امرأة فى كبريائها. كان دائما يضع كمية كافية مـن البنج المخدر فى المرأة قبل ان يمسك سكينة ويفصل بينه وبينها..

ولكنه مع الاميرة فضيلة لم يستطع أن يجرب طريقته فى عمليات الفصـل الجراحية. كأنه كان يشعر بأنها اذكى من ان يخدعها بمخـدر.. أو انهـا اخطر من ان يتبع معها وسائله فى احالة العشيقات إلى المعـاش أو إلـى التقاعد أو إلى الاستيداع! لقد لجا معها إلى طريقة لم يلجأ إليها مـع أى امرأة اخرى.. وهى ان يهرب منها!

لأول مرة فى حياته شعر أنه جبان لا يستطيع ان يواجه المـرأة بحـكم الاعدام! كان يعرف أنه لن يستطيع مقاومة سحرها، لن يجرؤ على أن يتلـو عليها الحكم الذى اصدره بإنهاء علاقته بها..

وقد يكون السبب فى تردده هذا أنه لم يصدر هذا القرار! إن حبه للانسة كاف هو الذى انقذه من الاميرة! هو حلقة النجاة التى القيت إليه وهو يغرق فى بحر هذه الاميرة الخطرة. لولا اندماجه العجيب بقسمت لما استطاع ان ينجو من براثن الاميرة الفاتنة.

لقد عرفت قسمت كيف تعالجه من هذا المرض العضال. انها لم تشترط

عليه أن يقطع علاقته بالاميرة، بل على العكس الحت عليه فى أن يداوم الاتصال بها لو انها الحت عليه ان يقطع علاقته لتشبث بهذه العلاقة لان كل ما هو ممنوع مرغوب.. ولكنه زهد فى الاميرة عندما اتاحتها قسمت له. صمم ان يقاطعها. عندما رأى قسمت تلح عليه فى أن يلتقى بها!

لقد وجد فى الآنسة كاف أو فى قسمت الجديدة اشياء كثيرة كان يبحث عنها. اشياء كثيرة لم يجدها فى الاميرة ولا فى أى امرأة أخرى عرفها..

عرف قبل ذلك نساء صحيات كالطعام المسلوق.. المرأة منهن سهلة الهضم، ولكن لا طعم لها!

وعرف نساء كطبق الملوخية.. لذيذات ولكن يوجعن البطن!

وعرف نساء اشبه بالمخللات.. حراقات، يلهبن الشفه.. يتعبن المصران الغليظ!

وعرف نساء اشبه بطعم لحم الخنزير.. شهيات الطعم، ولكن الاكثار من أكلهن يؤدى إلى الاصابة بالدودة الشريطية!

كل امرأة عرفها لها طعم طبق واحد. لها نكهة خاصة بها. لها مذاقها المستقل.

ولكن قسمت هى مأدبة عامرة بكل الوان الطعام. فيها طعم كل نساء العالم فيها الطبق الحراق، والطبق الشهى، والطبق الصحى والحلوى والفاكهة. معها لا يشعر لاول مرة فى حياته بالرغبة فى التغيير! انها الفول المدمس والكافيار معا! الطعام الشعبى الرخيص والطعام الفاخر الثمين. الرجال يتنقلون بين النساء لان معدتهم تحب تغيير انواع الطعام، التغيير يفتح شهيتهم. قليل من الرجال هم الذين يقنعون بطبق واحد لا يأكلون

سواه. لعلهم المرضى بالمصارين. أو لعلهم من المتصوفين الذين يجدون فى التمسك بطبق واحد دليلا على الزهد فى الحياة!

وقبل أن يحب قسمت كان شرها يأكل كل يوم صنفا. واحيانا يأكل صنفا فى الغداء وصنفا مختلفا فى العشاء!

لقد وجد فى الأميرة فضيلة فى وقت من الاوقات طبق الكافيار الروسى الثمين. وتصور انه قادر على أن يفطر بالكافيار، ويتغدى بالكافيار ويتعشى بالكافيار!

وإذا به يجد فى قسمت طعم الكافيار.. وطعم عشرات من الوان الاطعمة التى يحبها!

ربما يكون قد عشق قسمت، لانه الوحيد الذى ذاق طعمها! ربما لانها اول عذراء فى حياته.. ولكنه كان طوال عمره لا يطيق طعم العذراوات!

وهو لم يحب قسمت عندما كانت الانسة قسمت.. لقد عشقها عندما أصبحت السيدة قسمت!..

أيكون قد أحب طعمها لانه هو الذى طهاه بيده؟ هو الذى اختارها نيئة؟ هو الذى وضعها على النار؟ هو الذى قلبها بيديه وهى تحترق؟ هو الذى ذاقها بعد أن اصبحت فوق فرن هواه؟

انه فى بعض الاحيان يتصور أنه هو الذى خلق الآنسة كاف! اودع فيها روحه وحبه وشوقه واحلامه وخياله عن المرأة، فجاءت هذه المرأة التى تختلف فى طعمها عن أى امرأة اخرى مرت فى حياته!
الخالق يعشق المخلوق لأنه يجد فيه صورته!

الفنان يجن باللوحة التى رسمها بيده!

المثال يذوب هوى فى التمثال الذى نحته من الحجر!

الشاعر يبكي وهو يسمع قصيدة الغزل التى نظمها!

الطاهى يترنح وهو يذوق الطعام الذى صنعه!

الملحن يتأوه وهو يشنف اذانه بموسيقاه!

كل واحد من هؤلاء يعيد نفسه فيما خلقه. يجد فيه بعض ملامحه وبعض صوره وبعض روحه وبعض انفاسه..

ولكن عادل لم يخلق قسمت. هى التى خلقت الآنسة كاف عندما نـزعت نظارتها السوداء.. وكانت اشبه بالاجابة على كل اسئلتـه اشـبه بصـورة جمعت كل احلامه عن المرأة التي يتمناها ليهواها!

هل اكتشفت الاميرة فضيلة حقيقة العلاقة التى بينـه وبيـن قسـمت، فأرادت ان تنتقم منه..

واختارت طريقة القصور فى الانتقام !

اللغة الوحيدة المعترف بها فى القصور هى لغة الدسائس والمـؤامرات والمقالب وتدبير المكائد!

فى القصر لا يحارب احد احدا فى النور. كل من فى القصر لا يـكف عـن الابتسام. وكل من فى القصر يحمل خنجرا وراء ظهره!

سكان القصور لا يعرفون طريقة المواجهة. ولا يـؤمنون بـأن الخـط المستقيم هو اقرب مسافة بين نقطتين كما يعتقد المهندسون. انهم يلفـون ويدورون. ويراوغون ويداهنون ويتعانقون وهم يغمدون فى ظهـور بعضـهم البعض السكاكين!

لماذا لا تكون الاميرة فضيلة قصدت بطلبها من رئيس الديوان الملكى أن يستأذن الملك فى الموافقة على طلاقها من زوجها معروف باشا وزواجها من عادل علاء الدين لكى تنتقم من عادل علاء الدين وتقضى عليه؟

إن عادل عرف ما حدث لعمر الفلسطينى الذى احبته الاميرة فضيلة عندما التقت به فى مدينة القدس، وكيف ان الملك طرده إلى خارج الحدود، وحرمه من دخول الاراضى المصرية لانه علم بقصة غرامه بالاميرة ابنة عمه؟

إذا كان الملك فعل كل هذا بالشاب الفلسطينى من اجل مغامرة صغيرة، فماذا سيفعل بعادل علاء الدين، عندما يعلم ان الاميرة لا تحبه فقط، بل هى تطلب الطلاق من زوجها معروف باشا لكى تتزوج من المهندس عادل علاء الدين!

المنطق يقول إن الملك سوف يبطش بعادل!. إنه قادر بنفوذه، وسلطانه على أن يطارده فى كل مكان أن يضع شركة الهندسة الكهربائية فى القائمة السوداء. أن يحرض رجاله الموجودين فى المناصب الكبرى على أن يقاطعوا هذه الشركة!

لا يمكن ان تكون الاميرة قصدت بحديثها مع حسنين باشا أنها ترغب فى ان تتزوج من عادل!

لا يمكن أن تكون اعتقدت أن عادل ابتعد عنها لأنها متزوجة.. فإذا تطلقت من زوجها عاد إليها!

انها المدرسة التركية القديمة فى الدسائس!

كان السلطان عبد الحميد يلقى بخصومه فى البوسفور لتأكلهم الاسماك!

وكان رجال القصر يكتفون بأن يوصلوا إلى السلطان «دسيسة» ضد أى خصم من خصومهم!

لا يقولون للسلطان ان فلانا يتآمر عليه، بل يكتفون بالقول ان فلانا رفع رأسه إلى النافذة التى تطل منها بنت السلطان!

ويسرع السلطان ويأمر بالقبض على العاشق ويلقيه فى البوسفور.. ثم بعد ذلك يبدأ التحقيق!

* * *

عاد حائرا إلى مكتبه ولغز الاميرة فضيلة يحتل كل تفكيره

ثم سمع تليفونه يدق دقا متواصلا ورفع سماعة التليفون وسمع صوت معروف باشا زوج الاميرة يقول له:

ـ مبروك يا عادل! الف مبروك! عندى لك خبر سعيد لك؟! كلفتنى صاحبة السمو الملكى الاميرة فضيلة ان ابلغك انها حامل!

الفصل الخامس والعشرون

لاحظت السكرتيرة ماتيلدا الوجوم والاكتئاب والارتباك على وجه عـــادل، عندما انتهى من محادثته التليفونية مع معروف باشا، أصفر لـــون وجهـــه. وضع سيجارة فى فمه. أشعل السيجارة بيد مرتعشة. وسألته السـكرتيرة فى لهفة :

ـ أخبار سيئة؟

ـ جدا !

ـ خاصة بشركتنا؟

ـ لا .. خاصة بشركة أخرى.

ـ هل أنت مساهم فيها؟

ـ كنت مساهما فيها !

ـ وماذا يهمك أن تفلس شركة بعد أن تركتها؟

ـ عندما تفلس شركة.. يقبضون على المساهمين القدماء!

ـ ولكنك غير مسئول!

ـ أرجو ذلك !

ـ إنها أول مرة منذ عملت معك أرى خبرا يهزك!

ـ مصدر الخبر هزنى.. أكثر من الخبر نفسه!

وخرجت السكرتيرة وتركت عادل مع هواجسه. ماذا تقصد الأميرة فضيلة من ابلاغه أنها حامل! هل قصدت أن تقول له أنها حملت منه!؟ ولماذا اختارت أن تبلغه هذا النبأ بواسطة زوجها؟ هل هى تريد أن تهدده! هل تريد أن تغريه بالعودة اليها!

ولكن متى حملت إنه لم يرها منذ شهرين! اتكون حاملا من شهرين! ايكون هذا هو السبب الذى جعلها تطلب من حسنين باشا أن يستأذن الملك فى طلاقها من زوجها لتتزوج عادل والد الجنين الذى فى بطنها؟ أيكون حملها هو سبب اختفائها من الحفلات والاماكن العامة فى الاسابيع الأخيرة!

ـ واضطرب عادل عندما خطر بباله أن حسنين كان يعلم بقصة الحمل هذه عندما أخبره باعتزام الاميرة فضيلة على الطلاق. وأنه كرجل نبيل، يجب الا يجرح اصدقاءه، لم يشر إلى هذا النبأ، وإنما اكتفى بأن يحذره من علاقته بالاميرة الخطيرة!

وعجب للمصادفة الغريبة أن يسمع بنبأ حمل فضيلة بعد دقائق من سماعه برغبتها فى الطلاق من زوجها، والزواج منه!

لابد أنها كاذبة. لابد أنها تدعى الحمل لكى تنتقم منه، ولكى تعاقبه على أنه هجرها، لكى تجعله يعود اليها ذليلا يتوسل إليها أن تتخلص من حملها.

إنه طوال علاقاته النسائية كان يحرص أول ما يحرص عليه الا تحمل امرأة منه. كان لا يريد هذه المشاكل. كان يرتجف من خاطر أن يكون له ابن حرام. ابن لا يحمل اسمه، ولا يعيش معه، ولا يراه. ابن من لحمه ودمه

يدمغه طابع العار، يصمه بالوصمة التى تلتصق به طوال حياته.

كان طوال حياته يشعر بعطف غير عادى علـى اللقـطاء. وكان يحمـل الرجال المستهترين مسئولية هؤلاء الضحايا الابرياء.. وكان يتبرع دائمـا لملاجى اللقطاء. كأنه يدفع ضرائب متأخرة بالنيابة عن امثاله من الـذئاب الذين قبضوا ارباح الجسد، وتهربوا من دفع الضرائب المقررة على هـذه الارباح!

وكان فخورا بينه وبين نفسه أنه على كثرة ما عرف من نساء لم يترك فى واحدة منهن أثرا من آثار جريمته.. كان أشبه باللص المحترف الذى يرتدى دائما قفازا فى يده، حتى لا يترك بصمات فى مكان الجريمة!

ولم يخطر بباله ابدا أن يتخذ هذه الاحتياطات مع الأميرة فضيلة فهـى متزوجة من عدة سنوات، ولم ترزق اولادا، وهى ليسـت مبتـدئة فى عـالم العشق، فقد اعترفت له أنها عرفت ثلاثين رجلا قبله.. وأنه الرقم الـواحد والثلاثون!

ولم يتصور عادل أن من الممكن الا تحمل الاميرة من كل هؤلاء، وتحمل منه هو دون سواء!

ولقد سمعها تقول له مرة أنها لم ترزق اطفالا لأنها لا تـطيق الاطفـال، لأنها تعتقد أن عملية الولادة تشوه جمال جسدها الذى تحرص عليه أكثـر مماتحرص على كل ثروتها!

وأحس عادل برأسه يلتهب بما يشبه الحمى، عندما تخيـل أن أم ابنـه ستكون امرأة عرفت ثلاثين رجلا قبل ابيه!

لا.. مستحيل أن يكون هذا الجنين ابنه! لابـد أن الأميـرة دخلـت فى

مغامرة جديدة بعده، وأن هذا الجنين هو نتيجة المغامرة الجديدة!

لا.. إنها امرأة كاذبة ! إنها لم تحمل اصلا. وإنما اخترعت هذه القصة لتنكد عليه حياته ولتشغله بالتفكير فيها، واختارت زوجها المغفل ليقوم بدوره في هذه المسرحية !

واستراح عادل لهذا الاحتمال وبدا يقلب اوراق الشركة التى فوق مكتبه، لينسى فيها هذه الوساوس والاوهام.

ولم يستطع أن يقرأ الكلمات التى امامه ! اختفى اسم «شركة الهندسة الكهربائية ليمتد» المطبوع فى أعلى الورقة وخيل اليه أنه يقرأ اسم «شركة فضيلة ليمتد»..

لم يعد يستطيع أن يقرأ الارقام المدونة فى العطاءات.. وجلس يحسب على اصابعه المدة التى مضت من يوم آخر لقاء مع فضيلة حتى اليوم، كأنه يحسب كم أصبح عمر الجنين فى بطن فضيلة !

– ووجد نفسه يفكر كيف يقنع الاميرة فضيلة بالتخلص من الجنين أى طبيب يمكن أن يأتمنه على هذا السر ويتولى عملية الاجهاض..؟

وشعر فجأة بالرعب ! إنها أول مرة فى حياته يفكر فى ارتكاب جريمة قتل ! أنه لا يطيق أن يرى فرخة تذبح أمامه ! أنه ثار على الأميرة فضيلة لأنها اصطادت بطة فى الفيوم وقتلتها برصاص بندقيتها. إنه اقشعر عندما تصور أنه سيلمس يد القاتلة ! هاهو ذا الان يفكر فى أن يقتل أنسانا لا بطة، إنسانا من لحمه ومن دمه !

وعاد يندم على علاقته بالاميرة فضيلة ! ليته ما عرفها. ليته ما عشقها. لقد كان سعيدا بعلاقاته مع بنات الشعب. بنات طيبات. لا يعرفن الدسائس،

لا يدبرن المكائد. لم تحاول واحدة منهن أن تضعه أمـام الأمـر الـواقع وتدعى الحمل.. لم تستطع واحدة منهن أن تفسده.. حتى الممثلة اجـلال فوزى ملكة الاغراء، كانت امرأة نبيلة معه، لم تحاول أن تستغل علاقتها به. لم تفاخر يوما بأنها صديقته خشية أن تلوث سمعته!

ولكن هذه الأميرة جعلته قاتلا.. جعلته يفكر فى ارتكاب جـريمه قتـل! صحيح أن عمليات الاجهاض عمليات منتشرة ومعترف بها، ولكنه يمقتهـا.. إنه لا يحرم على الآخرين حقهم فى الاجهاض، ولـكنه هـو نفسـه يحس ببشاعتها. وخاصة أن يشترك فى قتل ابنه.. ابنه هو

وحار ماذا يفعل! هل يتجاهل النبأ أم يتحراه؟!

ربما لا يكون هذا الجنين ابنه. ربما أن الأميرة سعيدة بـأنها حملـت فكلفت زوجها بان يبلغ جميع أصدقائها بنبأ الحادث السعيد، وخطر ببـال معروف باشا أن يبلغ النبأ لعادل، باعتباره من أصدقاء العائلة، وسوف يفرح لسعادة الأسرة بالحادث السعيد!

إنه رجل متفائل بطبيعته. من عادته أن يرى اشتداد ظلمه الليل عـلامة أكيدة على قرب ظهور الفجر. ماله الأن يخرج على طبيعته، ويفترض أسـوا الأمور. لعل مخاوفه كلها لا أساس لها .لعل تحذير حسنين له هو الذى جعله يعيش فى عالم اسود من التشاؤم!

لماذا يحمل جملة «الأميرة حامل» أكثر مما تحمل!

ربما تكون دعابة من الأميرة!

إن دعابات الملوك والأمراء ثقيلة الدم عادة!

ثم ما هو السبب الذى جعل معروف باشا ينهـى المحـادثة بسرعـة..

ولا ينتظر حتى يقدم له عادل التهانى بمناسبة الحادث السعيد؟

لابد أنه مقلب من الأميرة! لابد أن زوجها الغبى خشى أن يفتضح المقلب أمام اسئلة عادل فاسرع ينهى المحادثة..

ورأى عادل فى هذا الاحتمال الجديد ضوء شمعة فى ظلام أفكاره

ولم تلبث الشمعة أن انطفأت عندما تذكر حديث حسنين عن رغبة الأميرة فى الطلاق والزواج منه!

لايمكن أن يكون هذا أيضا دعابة! لن تجرؤ الأميرة فضيلة على ادخال رئيس الديوان، بل الملك نفسه، فى دعابة من دعاباتها السخيفة!

طوى عادل كل الأوراق التى أمامه..

وتصور أنه طوى معها الأميرة فضيلة نفسها!

وما كاد يختفى شبح فضيلة من خياله، حتى برز له شبح قسمت! هل يروى لها ما حدث! هل يخفى عنها ما حدث؟ هل يذكر لها قصة تفكير فضيلة فى الطلاق ويخفى قصة الحمل أم يروى قصة الحمل ويخفى قصة استئذان فضيله فى الطلاق لتتزوج منه!

لقد اعتاد أن يقول لقسمت كل شىء. منذ أن أحبها فتح لها قلبه لم يكذب عليها مرة واحدة وهو يجد لذة فى الصدق مع هذه المرأة أكثر مما كان يجد لذة فى الكذب على باقى النساء اللاتى عرفهن!

ترى ما هو رد فعل قسمت اذا عرفت الحقيقة كلها.

المصيبة الكبرى أن تكشف اسراره وتعرف أخباره وتتتبع خطواته .ولقد

تصور فى وقت من الأوقات أن كل نساء مصر اصبحن عيونا لهـا، يعملن فى خدمتها.

والمرأة قليلة الثقة بنفسها ، تلجأ عادة إلى هذه الوسائل متوهمة أنهـا الطريقة الوحيدة لتحتفظ بمكانها فى قلب من تحب.. وهى لاتفهم أن خـوفها الدائم على مكانتها هو الذى يشجع على الانقضاض عليها. أن كثيرا مـن هذا النوع من النساء هو الذى كان يشجع عادل على خيـانتهن. فـطبيعة الانسان أن يجد لذة فى أن يفلت من أى حصار مضروب عليه. ولولا الحصار لما فكر فى أن يخترقه. لولا الباب المغلق لما خطر له أن يقفز مـن النـافذة تماما كما يؤدى خنق الحريات فوق الارض إلى قيام الجمعيات السرية تحت الأرض.. لقد خان عادل عصمت شفيق أكثر مما خان أى امرأة قبلها، فمـا من امرأة تعقبته، وضيقت عليه الخناق، كما فعلت عصمت معه..

أما قسمت فقد تركته حرا، فوجد لذة لا حد لها فى أن يخلص لها. قبلتـه كما هو بكل نقائصه وعيوبة. ولم تحاسبه حساب الملكين كما تفعـل بـاقى النساء كأنها تشعر أنها أقوى من كل امرأة. أى امرأة فى العالم لو واجهـت مثل هذه الظروف ستغضب سيلعب الفأر فى عبها ،ستهتز ثقتهـا فى الـرجل الذى تحب، ستملؤها المخاوف والشكوك.. الشك لا يحيى الغرام ــ كمـا تقول أم كلثوم فى أغنيتها القديمة ــ إنما هو يقتله ويدفنه فى التراب.

ولكن قسمت ليست أى امرأة ما يغضب النساء التـافهات لا يغضـبها. لا تضيع وقتها فى آثارة مشاكل الغيرة الصغيرة. كل امرأة عرفها كانت تغار من كل امرأة قبلها. تخلق أى مناسبة لتتحدث عن ماضيه.. كانت زينب كامل تغار من وراء البحار! إنها تحاسبه فى القاهرة سنة ١٩٤٢ عـن الفتيـات اللاتى عرفهن فى انجلترا سنة ١٩٣٠. فاذا كانت بجـانبه ومـرت شـقراء

انتفضت وسألته هل الشقراء تذكرك بالفتاة التى عرفتها فى لندن مـن عشر سنوات وأمضت اللقاء كله تحاول أن تستنطقه، وكأنه موعد غرام مع النائب العام، لا مع زينب كامل!

وعصمت شفيق كانت تخلط بين الحب واعمال المخابرات! لذتها قبلهـا. فنحن لا نغار ممن هم دوننا إنما نغار ممن نعتقد أنهم يتفوقون علينا. قـد تغار السيدة من خادمتهالأنها تعتقد أن فيها أنوثة أكبر من أنوثتها! قد يغار الشاب من الشيخ، لانه أغنى منه. فلابد أن تعبر الغيرة عن شعور بـالنقص فى ناحية من النواحى. وفى بعض الأحيان تصبح غيرة المرأة مـن امـرأة أخرى هى جهاز تنبيه لرجل غافل لم يشهد فى المـرأة الأخـرى الجمـال المخبوء إلى أن تنبهه اليه امرأته الغيور. فاذا كانت غيره المرأة من امـرأة أخرى تعميها فانها تفتح عيون الرجل!

إن عادل لا ينسى ذات ليلة كان يجلس فيها مع الممثلة اجلال فوزى ملكة الأغراء فى قاعة الطعام بفندق هليوبوليس قبل قيام الحرب.

واشارت اجلال إلى الهام حافظ وهى ترقص الفالس مع زوجها وقـالت لعادل:

يظهر أن هذه المرأة كانت عشيقتك!

قال لها ساخرا:

ـ إنها المرة الأولى فى حياتى التى أراها فيها.

ـ اذا لم تكن عشيقتك فى الماضى ..فهى عشيقتك فى المستقبل

ـ أنت تغارين من خيالك

ـ إننى لست حمارة ! أنها تنظر اليك نظرات حب واعجاب ! تكاد تـأكلك بعينيها !

ولم يكن عادل قد لاحظ شيئا من هذا، ولم تكن الهام حافظ قد استرعت نظره. ولكن غيرة الممثلة اجلال فوزى كانت اشبه بضوء كشاف جعله يرقب الهام، ويتابعها بنظراته المختلسة، ليعرف ما هى هذه المرأة التى تريد أن تأكله بعينيها كما قالت ملكة الأغراء..

ومنذ ذلك اليوم بدا عادل يطارد الهام، حتى تعرف بها، واحبته واحبها.. وذات ليلة كانت بين ذراعيه وراحا يستعيدان قصة الحب من أولها وقال لها عادل : النظرة التى صوبتها إلى وأنا جالس مع اجلال فوزى فى فندق هليوبوليس .. هى التى فتحت قلبى !

قالت له الهام بدهشة : ولكنى لم ارك فى تلك الليلة ! رأيت اجلال فوزى ولم ار احدا بجوارها !

قال عادل فى ذهول : ولكنك كنت تنظرين إلى بحب وأعجاب .. حتى ان اجلال قالت لى ان عينيك تكادان ان تأكلانى !

وضحكت الهام وقالت : كنت انظر إلى الممثلة اجلال فوزى. كنت قد رأيتها فى الليلة السابقة فى فيلم «عمر من الحب» وسحرتنى بجمال تمثيلها وفتنتها.. فما كدت اراها فى مطعم فندق هليوبوليس حتى اخذت املأ عينى بصورتها !

وسكت عادل ولم يقل لالهام انه لولا ان اجلال فوزى نبهته إلى هذه النظرة لما تعقبها، وانه مدين بهذه العلاقة لغيرة امرأة أخرى.

* * *

مرت هذه الذكريات امام عادل، وهو يقارن بين قسمت وبين كل النساء..

لو أن قسمت كانت امرأة كباقى النساء، لما خطر بباله ان يروى لها ما دار بينه وبين أحمد حسنين رئيس الديوان عن رغبه الأميرة فى الطلاق والزواج منه، ولما ذكر لها تلميحا أو تصريحا أى شىء عن الحادث المنتظر للأميرة فضيلة..

وقرر ان يذكر لها القصة كاملة .. ثم عدل وقرر ان يذكر لها القصة على مرتين، وبذلك يقسم المصيبة على يومين ثم عدل وقرر ان يكتفى بذكر حكاية رغبتها فى الطلاق ولا يذكر شيئا من رغبتها فى الزواج!

ولم يلبث ان عدل عن جميع هذه القرارات. قرر ان يصمت لا يقول شيئا.. يجب ان ينتظر أولا حتى يتأكد من حكاية الحمل، وبعد ان يتأكد يستطيع ان يتصرف.. ماذا يدعوه لان يفتح الباب الان للعاصفة قبل ان تدق عليه الباب!

فليسكت! لقد علمته الأيام ان خير طريقة ليحتفظ الرجل بالمرأة الا يقول لها شيئا!

وعندما التقى عادل بقسمت فى المساء وجد نفسه، بغير تفكير، يروى لها القصة بكل تفاصيلها ودقائقها، كأنه يجلس امام كاهن على كرسى الاعتراف.

وبقيت قسمت تسمعه وهى صامتة. لم تسأله سؤالا. لم تطلب ايضاحا. لم تقاطعه. وكأنها تسمع قصة لا تعنيها..

وانتهى من روايته، ورفع عينيه إلى وجهها، ليرى اثر المصيبة عليها،

فوجد وجهها تحول إلى قناع من الشمع، اختفت منـه كل التعبيـرات والانفعالات ..

واستمرت فى صمتها..

وسألها فى لهفة:

ـ ما رأيك!

قالت فى هدوء:

ـ رأيى ان فضيلة مؤلفة مسرحية بارعة، ومخرجة مسرحية ابرع!

ـ اذن انت تعتقدين انها اخترعت الحمل!

ـ اعتقد انها قصدت ان تحمل منك!

ـ اذن فانت تظنين ان قصة الحمل حقيقية؟

ـ متاكدة!

ـ لماذا؟

ـ لأن معروف باشا اتصل بى ايضا وأبلغنى تليفونيا النبا السـعيد كما ابلغك.

ـ ولماذا لم تقولى لى هذا؟

ـ انتظرت حتى اسمع القصة منك!

كما أبلغنى، فمعنى ذلك انه لا عـلاقة لـى بهـذه المسـألة.. وان المقصود هو ابلاغ البشرى لجميع الاصدقاء!

ـ اعتقد ان فضيله قصدت ان أعرف الخبر.. لا ستنتج على الفور انك والد الجنين، وبذلك اقطع علاقتى بك!

ـ هذا اخراج مسرحى فعلا!

ـ وماذا تنوى ان تفعل؟

ـ انوى ان انتظر

ـ حتى تضع مولودها!

ـ حتى اعرف الحقيقة..

ـ وكيف تعرف الحقيقة وهى فى بطنها؟

ـ شعورى انها كاذبة!

ـ وشعورى انها صادقة!

ـ ان هذا مستحيل

ـ فى مثل هذه العلاقات، المستحيل هو الذى يحدث دائما!

ـ وماذا تريدين منى ان افعل؟

ـ أذهب اليها!

ـ ولكنى قطعت علاقتى بها

ـ الدليل انها تعتبر علاقتك بها قائمة انها ابلغتك نبأ الحادث السعيد!

انها ابلغتنى لتثير فضولى!

ـ وأبلغتنى لتثير ثائرتى.. عليك!

ـ ذهابى اليها فى هذه الظروف دليل على انها نجحت فى خطتها.

ـ ابلاغك بنأ الحادث السعيد هو دعوة لك فى الحضور. لتقديم التهانى على الاقل.

ـ لماذا لا تذهبين انت اليها وتعرفين الحقيقة؟

ـ المرأة لا تقول للمرأة الحقيقة.. انها تقولها دائما لرجل!

- إذا فشلت فسأذهب أنا!

ـ هل أنت خائف من أن تواجهها؟

ـ لست خائفا.. انما انا اغلقت هذا الباب ولا اريد ان افتحه!

ـ ولكنه مفتوح الان على مصراعيه

ـ ذهابى اليها اعتراف منى بأن الجنين ولدى

ـ هل تنكر انه ولدك؟

ـ أننى حائر!

ـ تتمنى ان يكون (لا)..
وتخشى ان يكون (نعم)

ـ لا استطيع ان انكر أو اعترف!
أشياء كثيرة فى داخلى تقول: (لا يمكن ان يكون هذا صحيحا).. وأشياء اخرى تقول: (ربما كان هذا صحيحا) اننى اعيش فى لحظات من الشك!

ـ ان الشك ليس فى مصلحتك!

ـ يقولون ان الشك دائما فى مصلحة المتهم!

ـ فى هذه الجريمة لا يوجد متهم ومجنى عليه. كل منكما متهم ومجنى عليه فى وقت واحد..

ـ لماذا تسمينها جريمة.. انها ليست جريمة.. انها اصابة خطأ!

ـ ولكنك تريد ان تحولها من جنحة أصابة خطأ إلى جريمة قتل.. قتل مع سبق الاصرار!

ـ انك تتكلمين عن فضيلة.. كأنها فتاة قاصر غررت بها!

ـ اننى لا اتكلم عن فضيلة.. وانما اتكلم عن تفكيرك فى اجهاضها

ـ اننى لم اقل اننى قررت ان اجهضها. اننى قلت لك عن خاطر مر ببالى.. وقد قلت لك اننى ضد الاجهاض!

ـ وضد ان تلد لك هذه المرأة ابنا!

ـ لا اطيق ان تكون هذه المرأة بالذات اما لابنى!

ـ اباء كثيرون كرهوا أمهات أبنائهم ولم يفكروا فى قتل هؤلاء الابناء!

ـ كل ما اريد ان اتأكد منه ان هذا الجنين ليس ابنى!

ـ وإذا تأكدت انه ابنك

ـ سأجن! لقد عشت طوال حياتى اكره الاسرة المالكة.. فإذا بأول ابن من صلبى يصبح من الاسرة المالكة! فإذا لعنت الاسرة المالكة كنت

العن ابنى. وأذا حاربتها كنت احارب ابنى. لقد احببتك لانك تكرهين هؤلاء الامراء!

ـ وساكرههم الان اكثر!

ـ وكيف تكون حياتى إذا ولد ابن، وحرمت ان اراه، وحرمت ان اشترك فى تربيته، وشب كاولاد الامراء منحلا جاهلا تافها.

ـ ان الاميرة فضيلة امرأة ذكية جدا. كانت تعلم جيدا ان هذا سيكون شعورك عندما تعلم انها تنتظر حادثا سعيدا.. وكانت واثقة انك لن تتخلى عن ابنك منها!

ـ وماذا يفيدها كل هذا الذكاء

ـ لن تجد أمامك الا سبيلا واحد لكى تحافظ على هذا الولد.

ـ ما هو

ـ ان تتزوجها!

ـ انها مجنونة!

ـ بالعكس، انها عاقلة جدا

ـ ولكننى انا لست مجنونا!

ـ لقد قلت لى منذ لحظات انك ستجن إذا تأكدت ان هذا الجنين ابنك!

ـ كنت اعتقد يا قسمت انك تعرفيننى جيدا.. انا لست الرجل الذى يرتكب هذه الحماقة!

ـ انني اعرفك جيدا.. وأعرف الاميرة فضيلة جيدا أيضا!

ووقفت قسمت فجأة تتهيا للانصراف..

ونظر اليها عادل فى دهشة وقال:

ـ لماذا تنصرفين الآن؟

ـ لتذهب إلى الأميرة فضيله

ـ سأذهب غدا. الوقت الآن متأخر..

ـ افضل ان تذهب الآن

ـ انني اريد ان امضى هذه الساعات معك.

ـ لن تكون معي، بعضك سيكون معى، وبعضك سيكون مع الجنين الذى فى بطن الاميرة فضيلة.. وقد تعودت عندما اكون معك، ان تكون لى وحدى!

ـ قلقى يضايقك!

ـ يضايقنى ان اراك ابا للمرة الأولى!

ـ عجبا! انت لم تغارى من فضيلة فى وقت من الاوقات!

ـ اننى لا اغار من فضيلة.. وانما اغار مما فى بطنها!

ـ هل كنت تتمنين لو كان الجنين فى بطنك انت؟

ـ نعم كنت اتمنى ذلك!

ـ لم يفت الوقت!

ـ فات الوقت!

ـ العمر كله امامنا

ـ كنت اتمنى ان يكون ولدى منك هو ولدك الأول.

ـ ما الفرق بين الولد الأول.. والولد الأخير؟! اننى لست ملكا يرث العرش ابنى الأول.. ولست فى انجلترا حيث يرث الولد الاكبر اللقب والثروة وكل شىء، ولا يرث باقى الأولاد شيئا!

ـ المسألة التى تهمنى ليست مسألة ميراث.. المسألة اننى كنت اتمنى ان يخفق قلبك بشعور الابوة لأول مرة، لابن من دمى لا من دم غريمتى!

ـ ولكنها ليست غريمتك.. انت اخذتنى منها!

ـ وهى اخذت ابنك! اننى فى هذه اللحظة اتمنى ان اعيدك لها.. واحتفظ بابنك فى بطنى!

ـ اننى منحتك يا قسمت قلبى وحياتى، فكرى وعمرى. اننى تصورت اننى اسعدتك بحبى.

ـ جعلتنى اسعد امرأة فى العالم.. ثم جعلتنى اشقى امرأة فى العالم!

ـ أنت تعلمين ان هذا حدث قبل ان تبدأ علاقتنا بأسابيع!

ـ ولو كان حدث قبل علاقتنا بالف سنة!

ـ انا لم اخنك مع فضيلة

ـ انك اعطيتها ما لم تعطه لامرأة أخرى.. حتى انا.. انت اعطيتنى

صورة فوتوغرافيه لك من ورق، واعطيتها هى صورة لك من لحم ودم!

ـ انت اخذت الرجل.. وهى اخذت الجنين!

ـ سوف يصبح الجنين رجلا!
سوف يبقى منك فيها أكثر مما يبقى منك فى!

ـ انت تتكلمين كأنك واثقة ان هذا الجنين ابنى.. انتظرى حتى نعرف الحقيقة!

ـ اننى عرفت الحقيقة كلها حيرتك قالت الحقيقة. قلقك قال الحقيقة! رعشة صوتك وانت تتحدث عن الجنين فى بطن الأميرة فضيلة قالت كل الحقيقة! انت تعيس وسعيد فى وقت واحد! انت تعيس انت تتمنى ان تكون فضيلة كاذبة، وتتمنى فى الوقت نفسه ان تكون صادقة! انت تريد ان تحتفظ بى.. وتحتفظ بالجنين!

ـ انك تتخيلين اشياء غير حقيقية!

ـ انت الذى تتخيل اشياء غير حقيقية! انا افتح عينى لارى الحقيقة.. وانت تغمض عينيك حتى لا تراها. أذهب الان وانظر إلى المرآة.. سوف تجد نفسك قد تغيرت.. لست انت عادل علاء الدين زئر النساء! الدون جوان! المغامر! الذئب! ان فيك صورة جديدة، صورة الأب!

ـ تعجبك هذه الصورة!

ـ اكرهها!

ومضت قسمت فى طريقها إلى خارج الشقة، وجرى عادل خلفها

ليمنعها من الخروج، فدفعته بيدها وقالت:

ـ أرجوك.. دعنى وشأنى!

ـ ان شيئا جرى لعقلك!

ـ ان شيئا جرى فى قلبى!

ـ ماذا جرى؟

ـ الم تسمع صوت شيء ينكسر هذا هو حطام قلبى!

* * *

جلس عادل، عقب خروج قسمت، ساهما!

ماذا جرى لهذه المرأة؟! هل هو الذى تغير أم هى التى تغيرت؟ هذه المرأة الحكيمة العاقلة المتزنة التى كان يعجب بقوة أعصابها، التى وجد فيها كل ما لم يجده فى أى امرأة اخرى، التى لم تشعر بأى غيرة نحو عشرات النساء اللاتى عرفهن قبلها، التى كانت تحرضه على ان يحتفظ بعلاقته بالأميرة فضيلة مع استمرار علاقته بها، التى ضحت من أجله بكل شيء.. هل من المعقول ان تغار من جنين لم يولد بعد لا يعرف حتى الآن هل هو ابنه... ام انه لا علاقة له به!

لا يمكن انها تشك فى ان ما حدث قد حدث بعد ان أحبها، وبعد ان اسلمت نفسها له. لا يمكن ان تتصور انه كان يخونها خلف ظهرها مع الأميرة فضيلة. انه لم يلاحظ انه أصبح يتحدث عن الجنين كآب... لم يعتبر ما حدث حادثا سعيدا وانما هو يعتبره مصيبه وقعت عليه من السماء! انه اشبه برجل خرج من بيته إلى مكتبه فداسه الترام، فهو لم

يعرف قبل خروجه من البيت ان الترام سيدوسه، ولو انه عرف لما خرج من البيت. وملايين الناس يخرجون من بيوتهم ويذهبون إلى مكاتبهم ولا يدوسهم الترام!

وما حدث له هو حادث قضاء وقدر! لا ذنب له فيه. لم يفكر فى يوم من الايام ان يكون ابا، ولا يريد حتى الآن ان يكون ابا!

ولكن كلمات قسمت جعلته يبحث فى مكنونات نفسه! لعلها قرأت فى داخله ما لم يشعر به بعد.. صحيح انه منذ ان سمع بقصة حمل الأميرة انشغل بها عن كل شيء اخر. وراح يفكر هل سيكون الجنين بنتا أو ولدا... وتمنى ان يكون ولدا!

وتمنى ان يكون طويل القامة مثله ومثل الأميرة، وتمنى ان يكون له لون عينيها وسمار وجهها!

ولكنها خواطر مرت عليه بسرعة خواطر ابعدها عن رأسه ولم تبق فيه سوى بضع ثوان ولم تتكرر هذه الخواطر. نسى انها خطرت بباله، ولم يذكر هذا الا بعد حديث قسمت.

صحيح انه استبعد فكرة الاجهاض لانه لا يحبها لذاتها، بل لانه يمقت القتل.. يمقت اعدام القاتل، يمقت منظر الطير المذبوح، يهرب من رؤية جثة ميت. لعل السبب فى هذا انه يحب الحياة ويكره الموت يحب الخلق ويكره العدم.. كانت هذه أفكاره دائما قبل ان يعرف ان له ولدا فى بطن الاميرة فضيلة!

ولكن قسمت استنتجت من كل هذه المشاعر انه أصبح ابا، وانه اب لولد ليس من دمها، وان هذا الولد سوف ينتزعه منها! أو أنه جاء

ليشاركها فيه كل ذلك قبل ان يولد الولد ! قبل ان نعرف إذا كان ولدا أو بنتا، قبل أن نتأكد انه ابن عادل أو ليس ابنه !

لابد ان هناك لحظات معينة تصاب فيها المرأة بجنون مفاجىء ! هناك أشياء تفقد احكم امرأة فى العالم صوابها ! فى لحظة واحدة تختفى من المرأة العبقرية والحكمة والموهبة والذكاء وتصبح كأى امرأة جاهلة، إذا عرفت ان ضرتها انجبت ولدا لزوجها تفقد عقلها، وتتصرف كالبلهاء، وتتكلم كالمجانين، وتفكر كالمعتوهين !

المرأة تصمد كالجبل، وتثبت امام العواصف، وتتجلد امام المحن... ثم تنفجر فجأة بشكة دبوس إذا وصل رأس الدبوس إلى روحها !

ان روح المرأة هى عبارة عن بالون فى داخلها. قلبها ووجدانها وشعورها وعواطفها.. وشكة الدبوس قادرة على ان تفجر هذا البالون !

ولكن الضرب بالمطرقة فوق راسها يزيدها ثباتا. والضربة الهائلة فى ظهرها تجعلها تندفع فى طريقها ولا تنكفىء على وجهها. والزوابع التى تهب عليها من كل مكان تضاعف صلابتها وعنادها !

- إنها تتحمل كل شىء إلا شكة الدبوس هذه !

وتأكد عادل ان قصة حمل الأميرة فضيلة كانت هى شكة الدبوس !

* * *

كانت الساعة العاشرة مساء عندما وصل عادل إلى قصر الأميرة فضيلة فى الجزيرة، ولقد ذهب إلى هناك على الرغم من انه قال لقسمت انه لن يذهب الا فى الصباح ولم يهتم بأن يذهب فى هذا الموعد المتأخر..

وفتح له الشماشرجى الباب وحياه باشتياق..

وسأل عن الأميرة فقال الشماشرجى انها فى الطابق العلوى، وان الباشا فى مكتبه...

وقاده إلى الصالون الكبير..

وبعد لحظات أقبل معروف باشا فتح ذراعيه وهو يقول:

ـ أهلا.. أهلا!

ـ اننى أسف اننى جئت فى هذا الوقت المتأخر..

- على العكس أننى سعيد أنك جئت لأشكرك بنفسى.

- تشكرنى على ماذا؟

ـ على الحادث السعيد! اننى اعرف ان الذى حدث كان بفضلك!

وربت بيده على كتف عادل وهو يقول ضاحكا:

ـ هل تظن ان الأميرة تخفى عنى شيئا!!..

ـ انا لا أفهم شيئا!

ـ ان الأميرة اخبرتنى بكل شى.. كل شىء!!

الفصل السادس والعشرون

وضع معروف باشا ذراعه حول كتفى عادل علاء الدين فى اعزاز، واتجه به إلى السلم المؤدى إلى الطابق العلوى فى قصر الاميرة.. وعندما اقتربا من الدرجة الأولى من السلم، وضع الباشا أصبعه على فمه وقال لعادل هامسا:

ـ تعال نصعد على أطراف أصابع أقدامنا حتى نفاجئ الأميرة!

وعجب عادل للطلب الغريب، ولم يستطع أن يعترض أو أن يسأل عن السبب، فمنذ أخبره زوج الأميرة أن حملها قد تم «بفضله»، وأن الأميرة أخبرته بكل شيء، وهو مشدوه، يمشي وكأنه منوم تنويما مغناطيسيا، يتحاشى أن يستفسر أو يوجه سؤالا، بل يحرص على ألا تلتقى عيناه بعينى الزوج الذى يعلم كل شيء!

وكان مما يضاعف ذهوله تصرفات الباشا الزوج معه. فاليد التى كان يتصور أنها ستلكمه بعنف فى وجهه تربت فى حنان على كتفه. والرجل الذى دنس فراشه هو نفسه الذى يصحبه إلى غرفة نوم زوجته!

ومضى عادل يصعد درجات السلم مستسلما على أطراف أصابعه.. واتجه به الباشا إلى غرفة نوم الأميرة التى يعرفها جيدا.، ثم طرق باصابعه على الباب طرقات خفيفة، ولم يفتح الباب حتى سمع صوت الأميرة يقول له بالفرنسية: «أدخل»!

وأزاح الباشا عادل بجانب الباب، وأشار إليه بأصبعه أن يختفى، ثم فتح الباب وأطل برأسه وقال:

ــ عندى مفاجأة لك يا حبيبتى!

ــ أى مفاجأة؟

ــ المفاجأة التى تسعدك.

وإذا بالأميرة الراقدة فى مخدعها تصيح بصوت يزغرد:

ــ لابد أنه عادل علاء الدين!

وتسمر عادل فى مكانه عندما سمع اسمه. كيف عرفت الأميرة أنه هــو! كيف توقعت أنه سيحضر إليها؟ إنه هو شخصيا لم يقــرر الــذهاب إليهــا إلا منذ خمس دقائق!

دفعه الباشا بيده إلى داخل الغرفة، وقال هو يضـحك:

ــ تماما.. إنه عادل بك.. مصدر سعادتنا!

سمع عادل باب الغرفة يغلق خلفه. ولم يصدق أذنيه. ونظر وراءه فــوجد أن الزوج فعلا لم يدخل معه إلى غرفة نوم زوجته، بل أغلق البــاب وتــركه معها!

وبقى عادل واقفا فى مكانه، كأن الأحداث المفاجئة المتتالية شلت ساقيه. وألقى نظرة على الفراش الكبير، ورأى الأميرة فى قميص نوم وردى شــفاف يكشف عن مفاتن جسدها، وقد رقدت فوق الفراش وأسندت رأسها إلى عدد من الوسائد، وتركت بعض خصلات شعرها تسقط فوق وجهها فتخفى نصف الوجه، وتظهر النصف الآخر، كما تفعل السحب السوداء عندما تغطى جزءا

من نور القمر، فيضىء الجزء الباقى أضعاف ما كان يضىء!

وبدت الأميرة أكثر فتنة وشبابا مما رآها فى يوم من الأيام. كانت أشبه بتفاحة ناضجة فى طبق من الفضة تنادى الآكلين، أكثر مما كانت امرأة راقدة فى فراش. إنها لم تكن بكل هذا الجمال فى آخر مرة التقى بها. هل هو الحادث السعيد الذى ملأها بكل هذه الحيوية، أم أن الأيام التى امتنعت فيها عن السهر هى التى جعلت لبشرتها كل هذه الفتنة الصارخة!

ومدت الأميرة يدها إليه كأنها تدعوه.. وتقدم نحوها وهو يتعثر، وهو يقسم نظراته بين وجهها الرائع وبطنها وكأنه يتصور أنه يستطيع بنظرة أن يرى ما فى داخل بطنها!

ووضعت الأميرة يدها فى تراخ بيد عادل، وتركت يدها فى يده، وكأنها نسيتها بين أصابعه. وأحس بيدها تلتصق بيده وكأنها تقبلها، ثم تزداد التصاقا وكأنها تعانقها، ثم أحس بأن يدها لا تكتفى بالقبلة والعناق، بل أنها تسلط على جسده كله كهرباء لذيذة..

وأحس بيده تتخدر فى كفها تخديرا لذيذا، وأيقظه من هذه الاغفاءة الحالمة صوت الأميرة الناعم الساحر وهو يقول:

ـ كنت واثقة أنك ستجىء!

وضايقته ثقتها بنفسها فقال لها متظاهرا بالبرود:

ـ ما الذى جعلك واثقة كل هذه الثقة؟

ـ قلبى!

ـ ماذا قال لك قلبك؟

ـ إنك لابد أن تجىء.. لن تعرف اننى حامل حتى تسرع فى الحضور.

ـ لاطمئن عليك!

ـ لتطمئن على ولدك!

ـ ولدى؟

ـ هل تشك أنك الاب الوحيد؟

ـ متى حدث هذا؟

ـ فى الليلة التى كنا نقف فيها معا بشارع النيل فى الجيزة!

ـ كيف عرفت؟

ـ الدكتور نجيب باشا محفوظ طبيب الملكة!

ـ قال إنه ابنى!

ـ حدد اليوم.. وكنت أخشى أن يحدد الساعة!

ـ ما يدريك.. أن هذا الحمل ليس من زوجك؟

ـ بل هو منك أنت..!

ـ وماذا فعل زوجك عندما عرف أنك حامل؟

ـ رقص من الفرح!

ـ إن زوجك قال لى أن هذا الحادث السعيد تم بفضلى..

ـ إنها الحقيقة.. وأنا مستعدة أن أقولها فى كل مكان!

ـ فى كل مكان؟ هل أنت مجنونة؟

ـ إننى أعقل مما تتصور!

ـ لو كنت عاقلة لما فضحت الدنيا!

ـ هل هي فضيحة أن أصبح أما؟

ـ كيف تكونين عاقلة، وتقولين لزوجك إنه لولاى لما حملت!

ـ لانك علمتنى أن أكون صريحة!

ـ هذه ليست صراحة.. أنها حماقة!

ـ ماذا كنت تتصور أن أفعل؟

ـ أن تخفى الجريمة!

ـ كيف أخفيها وهى تكبر كل يوم فى بطنى؟

ـ الا تذكرى اسمى!

ـ لم أتعود أن أخفى اسم صاحب فضل على!

ـ اننى أفضل أن أكون فاعل خير!

ـ ماذا يضايقك أن أشيد بفضلك!

ـ يضايقنى اننى لا استطيع أن أضع عينى فى عينى زوجك!

ـ ولكنه الآن يحبك أكثر!

ـ لا يهمنى أن يحبنى أكثر اننى أشعر بخجل غريب منه! لقد أحسست أنه قتلنى عندما عانقنى! وذبحنى عندما تركنى وحدى معك فى غرفة النوم وأغلق الباب!

ـ هذا دليل على الثقة!

ـ ثقة الزوج المخدوع بعشيق زوجته تجعل العشـيق تعيسـا إذا كان صاحب ضمير!

ـ ولكنه لا يعرف أنك عشيقى؟

ـ كيف لا يعرف أننى عشيقك.. وهذا الجنين ه هو ابنى!

ـ ما أجمل صوتك عندما تنطق بكلمة «ابنى»! إنها أحلى كلمة سمعتها منك فى حياتى!

ـ أنا لا أفهم ماذا قصدت بأن تقولى لزوجك كل شىء!

ـ أنا لم أقل له كل شىء..

ـ قلت له إن هذا الحمل تم بفضلى.. ولولاى لما حملت!

ـ نعم قلت له هذا..

ـ وبعد ذلك يأخذنى بالاحضان!

ـ إن هذا أقل مما يجب أن يفعله!

ـ أنه زوج نموذجى..

ـ أنه فعل ما يجب أن يفعله أى جنتلمان!

ـ جنتلمان، الجنتلمان يقتل عشيق زوجته!

ـ ولماذا يسمونه جنتلمان؟

ـ لانه لم يقتل الزوجة الخائنة!

ـ انك لم تفهمه!

ـ بل افهمه جيدا!

ـ انه يحترمك جدا..

ـ يحترمني لانني جعلتك ترزقين ولدا؟

ـ نعم!

ـ لقد سمعت عن أزواج مغفلين، ولكن زوجك هذا هو الأول من نوعه!

ـ ان ما حدث له حدث لكثيرين غيره!

ـ إنها المرة الأولى التي أسمع قصة كهذه!

ـ هل كل المشكلة التي تضايقك هي أن زوجي عرف أنك أب الجنين الذي في بطني؟

ـ نعم!

ـ إذن فلا مشكلة هناك!

ـ كل هذا الا تسمينه مشكلة!

ـ إن زوجي يعتقد أن هذا الجنين هو ابنه هو!

ـ ولكنه قال إن الحمل تم بفضلي!

ـ لانني قلت له أنك احضرت لي دواء من انجلترا، وأن هذا الدواء هو الذي جعلني أحمل!

ـ ولكنك قلت إن هذا الحمل مني!

ـ بل قلت له إن هذا الدواء يطيل مدة الحمل

ـ وصدقك؟

ـ طبعا.

ـ وإذا طلب منك أن يرى الدواء؟

ـ أقدم له أحد مساحيق التجميل التى عندى!

ـ انك امرأة خطيرة.

ـ كل امرأة فى مكانى ستفعل ما فعلت!

ـ إن قدرتك على الكذب عجيبة!

ـ الحب يعلمنا كيف نكذب!

ـ ما يدرينى أنك تكذبين على أيضا كما كذبت عليه، وأن هذا الجنين ليس ابنى؟

ـ لا يهمنى أن تصدق أنه ابنك أو لا.. كل ما يهمنى أنه ابنى أنا!

ـ من حقى أن أعرف!

ـ ما دمت تعتقد أنه ليس ابنك فلا حقوق لك!

ـ ماذا تعنين!

ـ أعنى اننى لم أطلب منك أن تعترف به. لم أطلب منك نفقة. لم أطلب منك أن تتحمل أى مسئولية!

ـ إذن لماذا دعوتنى إلى الحضور؟

ـ لانني تصورت أنك ستسعد إذا عرفت أنك ستصبح أبا!

ـ انني أب من منازلهم! أشبه بالتلاميذ الذين يتقدمون إلى الامتحان دون أن ينتسبوا إلى مدرسة انني أعرف شعور الابن غير الشرعي. ولكني لم أعرف قبل الآن شعور الاب غير الشرعي!

ـ وماذا يمنعك أن تكون أبا شرعيا؟

ـ كيف ذلك؟

ـ ان تتزوجني!

ـ وما فائدة هذا الزواج؟

ـ تعيش مع ولدك في بيت واحد!

ـ وعندما يبلغ عمره سبع سنوات يأخذه معروف باشا طبقا للقانون!

ـ انني استطيع أن أحصل منه على تنازل عن حضانة الولد!

ـ إذن لقد فكرت في كل شيء!

ـ نعم.. وعندما أخبرني الدكتور نجيب محفوظ انني حامل، طلبت من حسنين باشا رئيس الديوان الملكي أن يستأذن من الملك بأن يوافق على طلاقي لاتزوجك!

ـ وهل أخبرته أنك حامل؟

ـ نعم!

ـ ولماذا لم تخبريني قبل أن تخبري رئيس الديوان؟

ـ فضلت الا اخبرك بأى شيء حتى يتم طلاقى، فلا تتصور أننى أحرجك لتتزوجنى !

ـ وماذا قال لك حسنين ؟

ـ نصحنى أن اتخلص من الجنين !

ـ وماذا قلت له ؟

ـ قلت له اننى أفضل أن افقد لقب الامارة على أن افقد ابنى !

ـ ولماذا لم تحاولى الاتصال بى قبل الآن ؟

ـ لاننى مشغولة بحب جديد !

ـ هل من حقى أن أعرف اسم العاشق الجديد !

ـ ان من حقك أن تعرفه لانك تعرفه جيدا !

ـ عمر الفلسطينى ؟

ـ لا.

ـ من هو إذن ؟

ـ ابنى !

ـ ابنك ؟

ـ اننى أعيش الآن فى قصة غرام لم أعش مثلها طوال حياتى ! ولا معك ! لأول مرة فى حياتى أشعر اننى أمتلك رجلا ! وهذا الرجل فى بطنى ! إنه لى وحدى لا يشاركنى فيه أحد.

ـ وكيف عرفت أنه ولد ؟

ـ الدكتور نجيب محفوظ قال إنه ولد ـ ٨٠ فى المائة أنه ولد!

ـ ولكن الاطباء لا يستطيعون الجزم فى مثل هذه الأمور!

ـ أنه هو الذى قام بتوليد أمى.. وقال لها قبل الولادة بثمانية شهور اننى سأكون بنتا!

ـ الم تفكرى فى التخلص من الجنين؟

ـ لم أفكر لحظة واحدة!

ـ لانك خشيت من عملية الاجهاض على حياتك.

ـ بالعكس، لقد قال لى الدكتور نجيب محفوظ إنه يخشى على من عملية الولادة، وقلت له إننى أفضل أن أموت ويعيش ابنى!

ـ انك تغيرت كثيراً!

ـ أصبحت أما!

ـ وهذا هو السبب الذى جعلك تمتنعين عن الحفلات الراقصة والسهرات!

ـ من أجل غرامى الجديد!

ـ ولكنى ألاحظ أن حبك لى قد فتر.. حتى عرضك فكرة الزواج منى عرضتها على وكأنك تدعيننى إلى حفلة شاى.. وتتركين لى الحرية فى أن احضرها أو اعتذر عن عدم الحضور!

ـ لأن قلبى لا يتسع لرجلين فى وقت واحد!

ـ إذن لم يعد يهمك أن اتزوجك أو لا أتزوجك.

ـ لم يعد يهمنى أى شىء سوى ابنى!

ـ ومتى مات حبى؟

ـ عندما ولد الجنين!

ـ إذن دعوتنى اليوم لتقولى لى إن حبك لى قد مات!

ـ لا.. دعوتك لأقول لك اننى اعترف بفضلك، واننى لن أنسى ما فعلت لى مدى حياتى.. وأن من حقك أن تتزوجنى إذا أردت أن تكون قريبا من ولدك.. ومع ذلك فاننى لن أغضب إذا رفضت أن تتزوجنى اننى أعلم أن لديك اسبابا وجيهة تمنعك من زواجى!

ـ ما هى هذه الأسباب الوجيهة؟

ـ أعلم أنك فى دوامة! أعلم أنك فكرت فى أن تجهضنى، ثم ترددت فى أن تقتل طفلا بريئا لا ذنب له فيما فعلنا!

ـ فكرت فى كل هذا فعلا!

ـ وأعلم أنك قلت لنفسك لا يمكن أن اتزوج هذه المرأة بعد أن اعترفت بلسانها بكل ماضيها.. ربما لو كنت كذبت عليك، وقلت لك إنك أول رجل فى حياتى لتزوجتنى!

ـ انك تقرئين أفكارى.

ـ أصبحت أفهمك أكثر عندما أصبح ابنك فى احشائى. وأعرف اننى لن أكون سعيدة معك إذا تزوجتك.

ـ كنت تقولين لى فى الماضى إنك ستكونين أسعد امرأة إذا أصبحت زوجك.

ـ كان ذلك قبل أن أقع فى حبى الجديد اننى الآن لن استطيع أن أعطى أى رجل إلا جزءا قليلا من حبى واهتمامى! لقد وجدت الرجل الذى كنت ابحث عنه.. وجدت ابنى!

معنى هذا أنه لن يكون لك عشاق بعد اليوم!

ـ كل هذا انتهى، ستكون كل أيامى ولياليى لولدى!

ـ كانت حياتك فى أن ترقصى كل ليلة!

ـ لن أرقص بعد اليوم!

ـ تخافين على الجنين؟!

ـ أخاف على سمعة ابنى لا أريد أن يشير إليه الناس بأصابعهم ويقولون هذا ابن الأميرة العابثة!

ـ وماضيك؟ وعشاقك الثلاثون؟

ـ الواحد والثلاثون.. لقد نسيت نفسك!

ـ نعم، ماذا سيقول الناس عنهم؟

ـ عندما يكبر ابنى ويصير فى الواحدة والعشرين من عمره سيكون الناس قد نسوا كل شىء عن الأميرة العابثة. الجرائم تسقط بعد عشر سنوات. والجنح تسقط بعد خمس سنوات، والماضى كله يسقط بعد ٢١ سنة.

ـ لا أصدق أنه يمكنك أن تغيرى من طباعك وأفكارك ومغامراتك ونزواتك لأنك أصبحت أما!

ـ سترى بنفسك! تعال فى أى وقت لتتأكد أننى تغيرت!

ـ ولكنك تقولين أنك لن تعرفى الرجال بعد اليوم.. فكيف تستقبليننى الآن؟

ـ باعتبارك والد ابنى.. هذا حقك الشرعى!

ـ لن تسمحى لى بأن أقبلك!

ـ تستطيع أن تقبلنى فى جبينى!

ـ إنك تمزحين!

ـ لم أكن فى حياتى جادة كما أنا اليوم!

ـ إذن قررت أخيرا أن تخلصى لزوجك؛

ـ سأخلص لابنى!

ـ بقاؤك بلا عشاق هو إخلاص لزوجك!

ـ سأخونه كلما نظرت إلى ابنى!

ـ إننى لاأفهمك!

ـ لأنك لم تكن أما فى يوم من الأيام!

ـ المفروض أننى أب.. ومع ذلك لا أفهمك!

ـ لن يمكنك أن تفهمنى.. للأمومة رائحة لا تشمها إلا أنف الأم إنه عطر غريب له رائحة لذيذة. رائحة تفوح من داخلى.. أشمها وحدى إنها أجمل من كل روائحى وعطورى، إنها تخدرنى.. تسحرنى. تحملنى إلى سماء جديدة.

ـ إنك أصبحت شاعرة، لعلك تضيعين وقتك فى قراءة الشعر!

ـ لا وقت عندى للشعر إننى أضيع وقتى فى حياكة الملابس لابنى!

ـ أنت الأميرة فضيلة تمضين وقتك فى حياكة ملابس طفلك؟

* * *

ومدت الأميرة يدها تحت السرير وأخرجت عددا من ملابس الأطفال التى صنعتها بيديها، واختارت منها «بلوفر» أزرق من الصوف وأمسكته بفخر واعتزاز وضمته إلى صدرها وقالت:

ـ سيحتاج إلى «بلوفر». لأنه سيولد فى الشتاء.

ثم مدت يدها تحت السرير، وأخرجت «بلوفر» أزرق من نفس الصوف، وأمسكته في يديها..

وقال عادل ضاحكا:

ـ هذا «بلوفر» رجل كبير. هل تحيكين مختلف المقاسات للمولود حتى سن الواحدة والعشرين!؟

قالت وهى تحنى رأسها فى حياء:

ـ لقد صنعت هذا «البلوفر» لك؟

ـ لى.. أنا؟

ـ نعم. لقد بقيت كمية من الصوف فصنعت لك «بلوفر»..

ـ المفروض أن تصنعى «بلوفر» من المقاس الكبير.. فإذا بقى صوف زيادة تصنعين منه «بلوفر» للطفل الصغير!

ـ إننى أبدأ بولدى أولا.. وما يفيض منه أقدمه لك.

ـ وهذا ما سوف تفعلينه بعواطفك!

ـ عواطفي له وحده.. دعني أرى هل «البلوفر» يناسب مقاسك؟ اخلع الجاكتة.

وخلع عادل الجاكتة وارتدى البلوفر فوجده مقاسه تماما، فقال في دهشة:

ـ كيف عرفت مقاسي؟

ـ ذراعاى اللتان عانقتاك طويلا حفظتا مقاس صدرك!

ـ إنك تذكرينني بقصيدة لعباس محمود العقاد.. صنعت له حبيبته «بلوفر» بيديها فكتب يقول:

ألم أنل منك فكرة؟

في كل شكة ابرة؟

وكل عقدة خيط؟

وكل جرة بكرة؟

نسجته بيديك؟

على هدى ناظريك

إذا احتواني فإني

ما زلت في أصبعيك!

ـ ولكنك لم تعد في أصبعي!

ـ ولا في قلبك؟

ـ فى ابنى فقط!

ـ بدأت أغار من ابنى!

ـ إنك تعترف الآن أنه ابنك.

ـ الجنين الذى يغيرك كل هذا التغيير لابد أن يكون ابنى!

ـ لأنه يتحكم فى!

ـ لأنه حولك من مجنونة إلى عاقلة وهذا ما فشلت فيه!

ـ ربما أكون أول امرأة تتشكل بصورة ولدها!

ـ لو أنك كنت بهذه الصورة التى أراها الآن لتغير وجه التاريخ!

ـ تاريخ مصر؟

ـ لا.. تاريخى أنا!

ـ لتزوجتنى؟

ـ طبعا!

ـ ولكن، كان من المستحيل أن أصل إلى هذه الصورة التى وصلت إليها، دون أن أمر فى كل المغامرات التى مررت بها!

ـ السر أنك كنت تبحثين دائما عن رجل تملكينه. ولعلك فى تبديلك وتغييرك الرجال كنت تقلبين الرجال بين يديك، باحثة عن رجل يكون لك وحدك.. تتولين تربيته وتنشئته، وتهذيبه، وتأديبه، وضربه فى بعض الأحيان! ولم تجدى هذا الرجل حتى أنك عندما تزوجت تعمدت أن تختارى رجلا بلا شخصية، يمشى خلفك، يطيع أوامرك، يستمد وجوده منك، ومع ذلك لم

تجدى فى زوجك ما تبحثين عنه... وعندما وجدتنى أمامك خيل إليك أنك قادرة على أن تصنعى هذا الرجل الذى تملكينه. الطين الذى تصنعين منه التمثال الذى تحلمين به.. ولكن التمثال لم يلبث أن ثار على المثال.. وعندما حملت تصورت أن الجنين الذى فى بطنك هو العجينة الطيعة التى تتشكل فى يدك كما تريدين، فعشقت العجينة قبل أن تصبح تمثالا.

– إنك نسيت أننا بدأنا علاقتنا بصفعة منك على وجهى، يظهر أن الذين يصفعون ينسون ما فعلت أيديهم، والذين ينالون الصفعات على وجوههم هم وحدهم الذين يذكرون الصفعات دائما!

– أنا لم أنس الصفعة! ولعلك وجدت لذة فى ترويض هذا المتوحش وتحويله إلى حيوان أليف! إننى أعرف سيدة هولندية كانت تقتنى أسدا صغيرا خلعت أنيابه، وكانت نجد لذة فى أن تجره وراءها ككلب مطيع.

– أنا لم أحاول خلع أنيابك فى يوم من الأيام! لقد كنت أحب هذه الأنياب!

– حتى عندما أغرسها فى جسدك!

– كانت لذتى الكبرى أن تغرسها فى جسدى! كنت أسعد بك وأنت تشتمنى كأنك تغمرنى بكلمات المديح! كنت أتطلع إلى الاحمرار الذى تركته صفعتك على وجهى، وكأنه بصمات شفتيك على خدى!

– إنك لم تقولى لى كل هذا وأنت تحبيننى!

– عندما يجتمع العاشقان لا يحتاجان إلى كلمات!

– ولهذا تتكلمين الآن.. لأن العشق قد انتهى!

ـ نعم!

ـ وسوف تنسيننى مع الأيام!

ـ أنا المرأة الوحيدة الى لا أستطيع أن أنساك، ولو حاولت أن أنساك، عندما يهجر العاشق امرأة فإنها تقلب خطاباته القديمة، تخرج صوره. وتبحث عن كلمة الاهداء الأخيرة.. تذهب إلى الشجرة التى حفرا عليها اسميهما فى الحديقة.. أما أنا فليس عندى خطاب منك، ولا صورة لك، ولا شجرة حفرت عليها اسمك مع اسمى فى صورة قلب.. إنك كتبت أبلغ خطاب حب يكتبه رجل لامرأة، تركت أجمل صورة، حفرت اسمك فى أجمل مكان.. تركت ابنك فى جسدى.

ـ إنك تعذبيننى بهذا الكلام!

ـ لأن الحقيقة تحرق أصابعنا دائما!

ـ إننى أكره أن تتحدثى دائما عنى بالفعل الماضى، كأننا لن نرى بعضنا بعد الآن!

ـ أنا وأنت أشبه بعاشقين حجزا غرفة لاثنين فى غرفة واحدة، غرفة واحدة ستبقى لنا طول الحياة. هذه الغرفة هى ابنى وابنك!

ـ ولكنك قررت أن تبقينى خارج الغرفة!

ـ أنت فى هذه الغرفة دائما شئت أم لم تشأ! أنت مقيم دائما فى ولدك الذى اعتقد أنه سيكون صورة منك!

ـ قد يكون ولدا جميلا.. ويصبح صورة منك أنت!

ـ لقد قررت أن يكون شبهك وسيكون شبهك!

ـ إنك عدت تتكلمين لغة الأميرة.. لغة الأوامر! إنك الآن تصدرين أمرا إلى القدر!

ـ إننا عندما نصلى نستعمل فعل الأمر ونقصد به الرجاء! ألا تقول ارحمنى يارب! انصفنى يارب! احمنى يارب!

ـ كأنك تصلين أيضا!

ـ بدأت أصلى منذ اليوم الأول الذى عرفت فيه أنى حامل!

ـ أنت تمزحين!

ـ إننى رأيت الله!

ـ أنت أول كباريه فى حياتى رأيته يتحول إلى مسجد!

ـ إن المصيبة الكبيرة تجعل بعض المؤمنين يكفرون.. والنعمة الكبرى تجعل الملحدين يؤمنون!

ـ أعرف أن الحب يصنع المعجزات! يشفى المريض، ينطق الأخرس، يحول الرجل العادى إلى عبقرى، ولكنى، لم أعرف قبل اليوم أن جنينا فى بطن امرأة يفعل فيها كل ما فعله فيك.. وينجح فيما فشل فيه الرجال!

ـ لا أشعر أن فى بطنى جنينا.. أشعر أن فيه حياة!

ـ أنت تتكلمين كأنك أصبحت طاهرة.

ـ وهذا الابن.. معبدى!

ـ إن حبك تحول إلى جنين!

ـ قد تظن أننى مجنونة إذا قلت لك إننى أسمع منذ الآن نبض ابنى

وأتصور أنه يكلمني.. وأمضي ساعات من يومي أتحدث مع هذا النبض، أناديه، أدلله، أحاوره، وأقص عليه مشروعاتي له.. قلت له ذات يوم «إنني تبت عن حياتي الماضية»، واعتقد أنه سمعني. وأنني ارتبطت أمامه بوعد شرف لا يمكن أن أخل به.. قلت له إنني سأكون عاقلة من أجله.. فاضلة من أجله.. سأحاول أن أصبح «فضيلة» مثل اسمي.. بعد أن كنت أسخر من اسمي، وأقول إنهم اطلقوا على هذا الاسم كما يطلقون على الزنجية اسم «قمر» وعلى العبد اسم «سيد».. وعلى الظالم اسم «عادل»!

ـ إذن أنت تعتقدين أنني ظلمتك؟

ـ نعم ظلمتني.. لأنك لم تظهر فى حياتى قبل الآن بعدة سنوات!

ـ تندمين على ما فعلت!

ـ لا.. أندم فقط لأنني لم أصبح أما منذ وقت طويل.

ـ إنك مفتونة بهذه الأمومة.. ربما تشفين منها بعد أن تضعى ولدك.. وربما تضعين بنتا!

ـ سيكون ولدا!

ـ وإذا كانت بنتا!

ـ سوف استدعيك مرة أخرى!!

الفصل السابع والعشرون

دخل الشاويش ابراهيم زنزانة عم عبده يحمل نسخة من جريدة «المقطم» وناوله إياها وهو يقول:

ـ اقرأ «المقطم» إن فيه أخبارا هامة.

ـ قال عم عبده وهو يتصفح الجريدة:

ـ هل انتهت الحرب.

ـ قال الشاويش ابراهيم:

ـ كلا.. أعلنت الحرب! أعلنوا الحرب عليك!

ـ من الذى أعلن الحرب؟

ـ الحكومة طبعا.

وانصرف الشاويش ابراهيم، وراح عم عبده يقلب صفحات جريدة «المقطم»، ثم قفز من فوق فراشه، وأمسك الجريدة فى يده يقرؤها، وهو يمشى فى زنزانته ذهابا وإيابا.. كانت عيناه تتسعان من الدهشة. يتوقف لحظة ويعيد قراءة السطور من جديد ويستأنف السير بعد ذلك.

إنه وجد فى الجريدة صفحة كاملة عن قضيته. عناوين بالحروف الكبيرة

تعلو الصفحة. وبهت عم عبده كلما مضى فى القراءة. إنهم ينسبون إليه اعترافات لم يدل بها. يقولون على لسانه تصريحات لم يقلها. يلفقون له عدة تهم لم يسمع بها.

وعاد عم عبده يقرأ من جديد وهو لا يصدق عينيه. لا بد أنهم يتحدثون عن قضية أخرى غير قضيته.. وعن عم عبده غيره!

الاسم اسمه. والسن المذكورة هى سنه. وصفاته الجسمانية مضبوطة. كل ماقيل عن طوله وعرضه، ولون بشرته، وتقاطيع وجهه صحيح لا شك فيه. والمنشور الذى اتهموه بطبعه ويحرض على كراهة الانجليز صحيح أيضا.

ولكن الاعترافات المنسوبة إليه لا أساس لها من الصحة. إن جريدة «المقطم» تقول إن المتهم عم عبده اعترف بأنه يعمل لحساب هتلر، وأنه متصل بالألمان، وأنه أخذ منهم الرشاوى ليعمل لصالحهم، وأنه تواطأ مع الألمان ليدخلوا القاهرة على حين غفله من أهلها، وأنه قام باتصالات سياسية عرضت أمن الدولة للخطر إذ تخابر مع الأعداء فى وقت الحرب، وأن مهمته هى العمل على خراب مصر وإثارة الفتنة فيها لتصبح مستعمرة ألمانية تابعة للمحور!

ذهل عم عبده لهذه الاتهامات الكاذبة والاعترافات المختلقة، إن هواية بعض الناس ألا يهاجموا إلا المقيدين فى السلاسل الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسم. لذتهم أن يتحدوا المكممين الذين تمنعهم كماماتهم أن يفندوا التهم الباطلة، يشبهون الضباع التى لا تأكل إلا جثث الموتى!

كيف يستطيع أن يدافع عن نفسه وهو فى زنزانته؟ إنه لايستطيع أن يكتب خطابا إلى الجريدة يفند فيها هذه التهم ويرد على هذه الأكاذيب! القانون يمنح كل انسان حق الرد على ما تنشره أى صحيفة. يوجب عليها أن تنشر

الرد فى نفس المكان، وفى نفس المساحة، وألا تعرض رئيس التحرير للسجن!

ولكن فى ظل الأحكام العرفية يصبح هذا القانون حبرا على ورق! الرقيب الذى تعينه السلطات العسكرية يصبح رئيس التحرير الحقيقى، هو الذى يسمح بالنشر ويمنع النشر. هو القانون، هو الاله الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء وما دام الرقيب قد أمر بنشر هذه الصفحة ضد عم عبده، فمعنى هذا أنه أمر الهى لا يقبل مناقشة، ولا يجوز لأحد أن يعترض عليه!

تذكر عم عبده كيف أن الرقيب كان يفرض على الصحف المصرية أن تنشر اتهامات لزعماء المعارضة وتتحداهم أن يردوا.. فإذا أرسل الزعماء ردودهم وفندوا هذه الاتهامات، منع الرقيب نشرها.. وتبقى هذه التهم معلقة فوق رؤوس الأبرياء، ثم تجىء الحكومة فى اليوم التالى وترغم الصحف على نشر بيانات تقول: تحديناكم أن تردوا على الاتهام فعجزتم عن الرد أيها الجبناء!

ولكن إذا كانت الحكومة تتبع هذه الأساليب الملتوية مع الزعماء، فما قيمة هذا الرجل الضعيف المتشرد، حتى تعبئ الحكومة قواها وتهاجمه فى زنزانته؟

هل يمكن أن تخشى الحكومة القوية هذا السجين فى زنزانته؟؟ هل الحاكم القوى الجبار عندما يظلم الأبرياء، يخاف منهم وهم فى قيودهم، أكثر مما يخاف منهم وهم فى عالم الأحرار؟ هل للمظلومين قوة سحرية تهز المقعد من تحت الظالم، هل يمكن أن يتحول انينهم الخافت إلى صوت الرعد فى أذنه، ولهذا يسارع ليبطش بهم فى أعماق زنزاناتهم ليخرس حتى هذا الأنين؟

* * *

ومضى عم عبده يقرأ تاريخ حياته المنشور فى جريدة « المقطم ». تفاصيل كثيرة من حياته ليس فيها كلمة واحدة صحيحة.

الجريدة تقول إنه كان موظفا فى مصلحة البريد، وفصل منها بتهمة مخلة بالشرف!

وابتسم عم عبده ساخرا. إنه لم يكن موظفا فى مصلحة البريد، ولم يدخل فى حياته مصلحة البريد، بل إنه لم يرسل فى حياته خطابا بالبريد، بل إنه لم يفكر أن يتسول أمام مصلحة البريد أو أمام أى مكتب بريد.

لقد كانت منطقة نفوذه فى التسول مقتصرة على ميدان الأوبرا، والمسافة بين ميدان الأوبرا وميدان العتبة الخضراء حيث تقع مكاتب مصلحة البريد حوالى كيلو متر، وهذه المنطقة هى منطقة اختصاص الشحاذ عم برهومة وأولاده المسئولين عن ميدان العتبة الخضراء!

بل هو لم يعمل فى يوم من الأيام فى أية وظيفة حكومية، ولم يفكر فى أن يتسول أمام أى إدارة حكومية لأنه يعرف أن أغلب الموظفين يعيشون حياة تشبه حياة المتسولين، وأغلب المترددين على مكاتب الحكومة هم متسولون مختلفو الأشكال والأحجام.. ولم يكن طبيعيا أن يتسول من المتسولين، أو أن يبيع الماء فى حارة السقايين!

ما الذى جعل جريدة تعينه بدون مناسبة موظفا فى الحكومة؟ لعلها عينته لتفصله من خدمة الحكومة بتهمة مخلة بالشرف!

ولكن، ما هى الجريمة المخلة بالشرف التى تشير إليها جريدة « المقطم » إنها تركت التهمة عائمة ليفسرها كل قارئ على هواه. سوف يقول اللصوص إنه نصاب، وسوف يقول النصابون إنه لص.. سوف يقول قارئ إنه مزور،

وسوف تقول قارئه إنه هتك عرض قاصر. وسوف تعتقد الأغلبية أنه كان يدير بيتا للدعارة السرية!

الرقابة على الصحف علمت القارئ المصرى أن يقرأ بين السطور، فإذا كان الخبر فى سطر واحد قرأ بين الكلمات! وهو يعتقد أنه مادامت الصحف مقيدة، فلا يمكن أن تقول كل الحقيقة. فلو أن الحكومات أرادت أن تقول الصحف الحقيقية، لأطلقت لها الحرية، ولما فرضت عليها الرقابة والقيود. ولهذا، فإن القارئ يقرأ الصيحفة بخياله أو بذكائه أو بالفهلوة، ولهذا يقرأ كل قارئ الخبر الواحد بطريقة مختلفة، فالذى يؤيد الحكومة يقرأ نقس الخبر على عكس ما يقرؤه القارئ الذى لا يؤيد الحكومة!

وتذكر عم عبده كيف أن حكوماتنا هى التى تكذب وليست الصحف. عندما كان رئيس الحكومة يقول إن وزارتى لم تكن فى يوم أقوى مما هى الآن، كان القراء يعرفون على الفور أن الوزارة على وشك الاستقالة! وعندما كان صدقى باشا يقول أن المفاوضات قادمة لا ريب فيها، كان القراء يتأكدون أن الانجليز لن يفاوضوا صدقى باشا! وعندما تصدر الحكومة بلاغا رسميا تنفى ما نشرته جريدة يقطع قراء الجريدة بأن ما نشرته هو الخبر الصحيح.. ولو أن كاتبا فكر فى أن يجمع جميع تصريحات رؤساء الوزارات والوزراء ويضعها فى كتاب لشعر مسيلمة الكذاب أنه لا يستحق هذا اللقب فى كتب التاريخ!

ولكن ماذا يهم عبده لو صدق الناس ما نشرته جريدة «المقطم» أو لم يصدقوه؟ إنه لا يهمه رأى الناس. يهمه شخص واحد هو الآنسة كاف!.

لن تصدق قسمت هذه الأكاذيب إنها تعلم أنه برىء وأنه لا يعمل لحساب هتلر، ولا يدعو لتصبح مصر مستعمرة ألمانية.. إنها وحدها تعلم أنه لم يكتب هذا المنشور!

ولكنه يخشى أن تصدق أنه كان يعمل فى مصلحة البريد وفصل منها بتهمة مخلة بالشرف.. لا بد أن يقول لقسمت فى أول لقاء معها بأنه لم يكن يعمل فى مصلحة البريد!

وعاد عم عبده يقرأ بقية الموضوع المنشور. وقرأ تحت عنوان «حياته الخاصة»، ما يأتى!

«وقد دلت التحريات الواسعة الدقيقة التى قام بها سعادة الحكمدار اللواء رسل باشا، وسعادة الأميرالاى أبلت بك نائب الحكمدار والأميرالاى سليم زكى بك رئيس القسم السياسى وكبار معاونيه من الضباط الأكفاء المشهود لهم بالمهارة فى التحقيقات فى القضايا السياسية الكبرى، أن المتهم كان يمضى لياليه فى الأندية الليلية والمواخير. وقد اعترفت راقصة فى صالة بديعة مصابنى أنها كانت على اتصال بالمتهم، وأنه كان ينفق عليها عشرات الجنيهات فى الليلة الواحدة وأنه أخبرها بأنه يعمل لحساب هتلر، ويتآمر لدخول الجيش الألمانى إلى مصر، وأنها ما كادت تعرف هذه الحقائق عنه، حتى قطعت على الفور علاقتها به، وضحت بكل الأموال التى ينفقها عليها عندما تأكدت أنه يتآمر على سلامة الوطن»!

وقهقه عم عبده بصوت عال!

ترى، من هى هذه الراقصة الوطنية التى داست بقدمها على مئات الجنيهات من أجل مصلحة الوطن؟

أنه بحكم عمله فى ميدان الأوبرا حيث تقع صالة بديعة، كان يعرف وجوه كل الراقصات وأسماءهن، بل وتاريخ حياتهن وأسماء عشاقهن!

كان يراهن عندما يلتحقن بصالة بديعة، وعندما يتحولن إلى كواكب

ونجوم. رأى بعضهن يدخلن الصالة حافيات. ويخرجن منهـا فى سـيارات فاخرة! يدخلن وليس معهن أجر الترام ويخرجن ومعهن ألوف الجنيهـات! يدخلن دميمات ويخرجن ملكات جمال!

كانت صالة بديعة هى مصنع الجمال فى تلك الأيام. وكان للسيدة بـديعة مصابنى صاحبة الصالة قدرة عجيبة على أن تخرج من الفسـيخ شربـاتا! كأنها تحمل عصا سحرية لا تضعها على رأس الفتاة الكسيرة، الخجـول، الصامتة الرثة الثياب، حتى تتحول إلى امرأة ترقص، وتكشف عن مفـاتنها وتتكلم السبع لغات!

وكانت بديعة لها نظرة غريبة فى المرأة، بنظرة واحدة تستطيع أن تعـرف من تصلح لتكون غانية ومن لا تصلح إلا لتكون ست بيت! المرأة القـادرة على أن تجلب الزبائن والمرأة التى تطفش الزبائن! الفتاة التـى تصـلح لترقص فى مكان آخر!

وكان ضباط الحلفاء وجنودهم يجيئون إلى القاهرة فى اجـازاتهم مـن ميدان القتال فى الصحراء عطاشا للخمر، جوعى للنساء، وكانـوا يتـرددون على صالة بديعة.

وربحت بديعة أموالا طائلة، ولولا إسرافها وحبها للبذخ وكرمه لأصـبحت من صاحبات الملايين وكانت تعشق الرجال أضعاف ما تعشق المال. وكانت تحب قاضيا شابا يصغرها بثلاثين سنة. وفى سبيل هذا الهـوى الجـارف أهملت الاشراف بنفسها على شئونها المـالية. وسرقهـا بعض مـوظفيها، وأصبحوا أكثر ثراء منها، ولم يهمها هذا فقد كانت كل سعادتها فى الـرجل الذى عشقته وأخلصت له الحب وفضلته على كل رجال العالم... وبعـد ذلك تركها وتزوج فتاة لا علاقة لها بالفن أو بالرقص!..

وأمضت بديعة باقى سنوات حياتها تبكى على الحب الضائع، ولا تبكى على الملايين التى سرقت منها.

وكان عم عبده يتابع من بعيد قصة غرام بديعة.. ويتابع من بعيد أيضا قصص غرام عشرات الراقصات اللائى يعملن معها... ولكن من تكون الراقصة التى شهدت ضده، والتى اختلفت الروايات غن علاقته بها!

إن الراقصة الوحيدة التى يعرفها معرفة شخصية من هؤلاء الراقصات جميعا هى الراقصة المشهورة «نشوى عبده»

إنه يذكر يوما كان واقفا يتسول فى مكانه المعتاد فى ميدان الأوبرا.

كان جو القاهرة صيفا، والوقت ظهرا وحرارة الشمس طردت الناس من ميدان الأوبرا، كأنهم ذابوا فى أشعة الشمس الحارقة. ورأى عم عبده أمامه فتاة ترتدى ملاءة لف سوداء، وفى قدمها شبشب، وبدت متهالكة، ذابلة، واجتمع عليها الفقر والبؤس والهزال. وتقدمت نحوه فى ذلة ومسكنة وسألته فى صوت هامس مرتجف، وهى تنظر فى فزع حولها!

ـ أين صالة بديعة؟

وعجب عم عبده أن تسأل فتاه ضائعة مسكينة عن صالة بديعة فسألها!

ـ لماذا تسألين عن صالة بديعة؟

ـ قالت فى صوت متهالك:

- أريد أن أشتغل راقصة!

ـ هل أنت مجنونة؟ أتعرفين ما معنى راقصة؟ معناها أن تتعرى من كل ثيابك!

ـ أعرف ذلك!

معناها أن تحترقى فى هذه الأضواء وتذوبى كما تذوب الشموع وتبيعى شبابك الحقيقى ببنكنوت مزيف. تسهرين حتى تصابى بالسل وتشربين الخمر حتى تتحولى إلى قدح مكسور!

ـ أعرف كل ذلك!

ـ أنت فتاة صغيرة لا تعرف ماذا تفعل!

ـ إننى أريد أن أعمل!

ـ أنصحك أن تعملى خادمة فى أحد البيوت.. هذا أشرف لك من أن تكونى راقصة!

إننى أعمل خادمة فى أحد البيوت!

ـ ولماذا تريدين أن تتركى عملك؟

ـ إن صاحبة البيت تضربنى كل يوم!

اعملى خادمة فى بيت آخر!

ـ كل صاحبات البيوت سواء الخلاف الوحيد بينهن أن واحدة تضرب بالمقشة، والثانية تضرب بالشبشب، والثالثة تضرب بالقبقاب!

ـ وكيف ضربتك السيدة التى تعملين عندها الآن!

ـ تضربنى بيد الهاون!

وكشفت الفتاة عن ساقها، وأصيب عم عبده بالرعب عندما رأى علامات زرقاء وحمراء وسوداء على ساق الفتاة!

وأشفق عم عبده عليها، ولكنه تردد أن يشير إلى مكان صالة بديعة وقال لها:

ـ مالك وحياة الراقصات، إنها حياة الظلام!

وبكت الفتاة وقالت:

ـ حياة الظلام أهون من حياة العذاب!

ـ إنك سوف تتعرضين كل ليلة لما هو أسوأ من الضرب!

ـ لو ذقت الضرب بيد الهاون! لما قلت هذا الكلام!

وشهقت الفتاة بالبكاء، وانهمرت الدموع من عينيها، كانت تتكلم وهي ترتعش من البرد. ترتعش في جو شديد الحرارة كانت الكلمات تخرج من شفتيها بصوت منقطع.. تتساقط كأنها بقع من الدم!

وارتجف عم عبده أمام دموعها، وأمسكها من يدها، ومضى بها إلى صندوق عم عبدون بائع الكازوزة وأمسك إناء به ماء بارد، وغسل به وجهها، ليخفي آثار الدموع من عينيها، وطلب منها أن تخلع ملاءتها السوداء، فخلعتها. ورأى أن ثوبها لا بأس به، فقام يفك باصابعه ضفائرها، وترك شعرها الطويل يسقط وراء ظهرها، فبدت أجمل كثيرا مما كانت..

ومشى بها أمام محل كوداك، ورأى في واجهة المحل مرآة فطلب منها أن تنظر إلى نفسها الآن في المرآة!

فصرخت الفتاة وهي تقول: لقد أصبحت الآن جميلة جدا!

وصحبها عم عبده إلى الباب الخلفي لصالة السيدة بديعة.. ثم توقف لحظة وقال:

ـ ما اسمك؟

ـ شلبية!

ـ شلبية؟! انه اسم فلاحى جدا!

ـ اننى فلاحة من مطاى فى مديرية المنيا.

ـ وما اسم ابيك؟

ـ ياسين!

ـ ياسين؟ إن هذا اسم سفرجى! المفروض أن يكون والد الراقصة باشا أو بك ليرتفع سعرها فى السوق. وما اسم جدك؟

ـ اسمه الوحش!

ـ هذا الاسم لا يتفق مع اسم ياسين!

ـ كان جدى رجلا طيبا مؤذن جامع القرية!

ـ إذا احتفظت باسم الوحش فسوف يهرب منك الزبائن! المفروض أن تكون كل راقصة كالوحش تفتك بالزبائن، ولكن تخفى انيابها تحت اسم مستأنس!

ـ إذن ماذا اسمى نفسى؟

ـ نسميك (أميرة)

ـ مستحيل أن اتسمى باسم أميرة!

ـ لماذا؟ انه اسم جميل.. ولا توجد راقصات بهذا الاسم!

ـ إن الست صاحبة البيت التى ضربتنى بيد الهاون اسمها أميرة!

ـ عاشت الاسامى!

ـ ابحث عن اسم آخر!

ـ ما رأيك فى اسم «نشوى»؟

ـ ما معنى هذا الاسم؟

ـ لا أعرف بالضبط.. إنه الشعور الذى يحس به شارب الخمر بعد أن يسكر!

ـ إذن هذا اسم حرام!

ـ وهل تظنين أن الرقص حلال!؟

ـ إذن سيكون اسمى «نشوى».. نشوى الوحش!

ـ أعوذ بالله! أن نشوى الوحش تكون عادة بعد أن يفتك بالفريسة! لقد قلت لك إن نجاح الراقصة الحقيقى هو أن تخفى عن الزبون انيابها!

ـ ما هو اسمك؟

ـ اسمى عم عبده.

ـ إذن سيكون اسمى الجديد «نشوى عبده»!

ـ ابحثى لك عن اسم ارستقراطى!

ـ هذا الاسم هو الوحيد الذى يعجبنى.. نشوى عبده!

ـ وظن عم عبده يومها أن الخادمة شلبية تداعبه. بقولها إنها اختارت

اسمه، ومشى معها إلى الباب الخلفى لصالة بديعة وهو يحمل ملاءتها السوداء، وتركها تدخل الصالة وحدها. ووقف أمام الباب ينتظرها. وطال انتظاره. ومضى ربع ساعة، ثم نصف ساعة، ومضى ربع ساعة، ثم ساعة، وفجأة خرجت شلبية تقول لعم عبده:

ـ ان ست بديعة تريد أن تراك؟

ـ ترانى أنا !؟

ـ نعم، إنها تنتظرك الآن!

ـ هل تريد بديعة أن تعيننى راقصة عندها؟

ـ إنها رفضت أن تعيننى راقصة بحجة أنى صغيرة، وتخشى أن أكون هاربة من أهلى، ويجىء أهلى ويطالبون بى، أو أن أكون تحت السن القانونية، وهى تقول إنها لا تريد مشاكل، فكذبت عليها وقلت لها أننى جئت مع أبى، وهو ينتظر أمام الباب، فطلبت منى أن أدعوك لمقابلتها!

ـ ماذا تريدين منى أن أقول لها؟

ـ تقول انك أبى!

ـ أرتكب جريمة تزوير!

ـ إذا لم ترتكب أنت جريمة تزوير فسأرتكب أنا جريمة قتل!

ـ تقتليننى؟

ـ لا.. أقتل نفسى!

ـ أنا لا أقبل أن تكون ابنتى راقصة؟

ـ ولكننى لست ابنتك!

ـ أنت تطلبين أن أكون والدك!

ـ لمدة خمس دقائق!

ـ وإذا زادت عن خمس دقائق!

ـ تبرأ منى!

ـ إن صناعتي شحاذ، لا والد راقصات! ابحثى لك عن أب آخر!

وبكت شلبيه. انهمرت من عينيها الدموع بغزارة.. وتحرك قلب عم عبده فقال لها:

ـ ان عينيك أشبه بحنفية المياه! تفتحينها فتسقط الدموع، وتغلقينها فتنحبس الدموع! ماذا سيقول الناس إذا راوك تبكين فى الشارع! سيتصورون اننى ضربتك!

ـ ليتك ضربتنى! انك جرحتنى!

ـ أنا لم أجرحك. كل ما قلته اننى لا أريد أن أرزق راقصات فى هذه السن!

ـ انك تخليت عنى. كلمة واحدة منك تنقذنى من ضرب الست أميرة كل يوم!

ـ يا ابنتى أنا رجل متسول!

ـ ما أجمل كلمة «ابنتى» من شفتيك. كل ما أريد منك أن تقول هذه الكلمة أمام الست بديعة!

ـ مستحيل !

ـ أليس من حقى أن أتسول منك؟ لو كان المحسنون قساة القلوب مثلك لمت من الجوع !

ـ إذن، سأقبل، شرط أن تكون هذه آخر مرة أكون فيها أباك !

* * *

ودخل عم عبده إلى الصالة، فوجد السيدة بديعة مصابنى جالسة على مقعد وهى تدخن الشيشة.

كانت يومها فى الاربعين من عمرها. السهر الطويل والخمر الكثيرة لم يفقدا بشرتها نضارتها. الحب الدائم كان يمحو ما يكتبه العمر والسهر والخمر. كانت محتفظة بجمالها وأنوثتها ورشاقتها، ولها ابتسامة ساحرة ترقص فوق شفتيها..

وقالت بديعة :

ـ لم أوافق على قبول ابنتك «نشوى» لأنها صغيرة السن.

ـ إن عمرها ٢١ سنة !

ـ إنها تبدو فى السابعة عشرة !

ـ وأنت يا ست بديعة تبدين كأنك فى العشرين !

واهتزت بديعة طربا من كلمة الاعجاب التى قالها الرجل العجوز، كأنها شربت زجاجة من الويسكى.. وقالت وهى تعيد النظر إلى جسم شلبية، وكأنها تعريها بنظراتها من ثيابها :

ـ ان ابنتك نشوى جسمها جميل. سوف أعينهـا بمـرتب جنيهيـن فى الشهر!

وصاح عم عبده محتجا.

ـ جنيهان!؟ هذا غير معقول!

وجذبته شلبية من قميصه وكأنها تطلب منه أن يقبل العرض.

وصرخ عم عبده فى شلبية بغضب.

ـ اخرسى! هذه مسائل لا تفهمين فيها! عندما يتكلم الـكبار يجـب أن يسكت الصغار!

وخرست شلبية..

وقالت بديعة:

ـ لا استطيع أن أدفع أكثر من جنيهين!

ـ لقد كنا الآن فى «صالة ببا» وقالت لنا السيدة ببا عـز الـدين إنهـا مستعدة أن تدفع لها خمسة جنيهات!

وما كادت بديعة تسمع اسم منافستها ببا عز الدين حتـى صرخـت كأن عقربا لدغتها!

ـ عرضت عليها ببا خمسة جنيهات.

ـ ولم أقبل لان الوسط لم يعجبنى.. وقلت إننى أفضل أن تأخذ نشـوى أربعة جنيهات وتتعلم الرقص من أستاذة الرقص فى الشرق!

ـ من أجل خاطرك سأعطيها أربعة جنيهات!

قال عم عبده باشمئزاز:

ـ أربعة جنيهات فقط؟

وابتسمت بديعة وقالت:

ـ وسأعطيها عمولة خمسة وعشرين فى المائة عن كل مشروب يفتحه الزبائن لها. إن عندى راقصات يربحن ٣٠٠ جنيه فى الشهر من عمولتهن على المشروب!

وتظاهر عم عبده بأنه يقبل هذا الاتفاق على مضض..

وخرجت شلبية مع عم عبده وهى تكاد تطير من الفرح..

وعند الباب انحنت شلبية، واخرجت من ثنية جوربها جنيها، وقدمته إلى عم عبده، وهى تقول:

ـ أنا معى مائة قرش هى كل ما أملك.. هذا هو أجرك على قيامك بدور أبى! لقد كنت ممثلا بارعا، أبرع من يوسف وهبى فى الأفلام. اننى فى لحظات صدقت أنك أبى فعلا!

ودفع عم عبده يدها التى تحمل الجنيه وقال:

ـ اننى تقاضيت أجرى كاملا!

ـ أنا لم أر الست بديعة تعطيك شيئا!

ـ أنت التى اعطيتنى أجرى وزيادة!

ـ أنا؟

ـ يكفينى اننى رأيت هذه الابتسامة على شفتيك.. إنها تساوى عندى ألف جنيه!

وأرادت شلبية أن تقبل يد عم عبده، فدفعها محتجا، فهجمت عليه وعانقته والدموع فى عينيها!

* * *

ومضت الأيام.

واختفت الخادمة شلبية!

وظهرت الراقصة نشوى عبده.. وتابع عم عبده نشوى وهى تصعد درجات السلم، واحدة بعد واحدة!

كان يحرص على أن يراقبها من بعيد، فإذا اقتربت منه أخفى وجهه، أو اطلق ساقيه للريح. ورآها وهى تخرج من الصالة بعد انتهاء العرض وهى ماشية على قدميها ترتعش من البرد، ثم رآها وهى تركب عربة حانطور، ثم رآها وهى تركب عربة سيارة أجرة، ثم رآها وهى تستقل سيارة بويك مع أحد أصدقائها. ثم رأى عدة سيارات انيقة تتزاحم عند باب الخروج، وكل صاحب سيارة يحاول أن ينال شرف توصيل الراقصة نشوى عبده إلى دارها!

ورآها وهى تدخل الصالة فى ثوب مهلهل، ثم فى ثوب أنيق، ثم فى ثوب فاخر، ثم فى معطف من الفيزون الثمين!

ورأى اللوحة الزجاجية التي توضع فيها صور الراقصات فى واجهة صالة بديعة، وقد خلت من صورتها. ثم رأى صورة صغيرة لها محشورة بين الصور الكبيرة للراقصات المعروفات، ثم بدأت الصورة تكبر وتكبر حتى أصبحت أكبر صورة من صور الراقصات فى صالة بديعة.. لا توجد صورة أكبر منها إلا صورة بديعة نفسها!

ورأى اسم نشوى عبده فى الاعلانات التى تعلق على الجدران. بدأ اسمها مكتوبا بحروف صغيرة.

لا تكاد تستطيع أن تقرأ حروفه إلا بنظارة مكبرة. ثم بدأت الحروف تكبر وتضخم حتى أصبح اسم نشوى يحتل مكان الصدارة فى اعلانات صالة بديعة!

ورأى المجلات المسرحية تنشر صورها، وتهتم بانباء مغامراتها، وتتحدث عن التغييرات التى تحدث فى قلبها بنفس الاهتمام الذى تتحدث فيه الصحف عن التغييرات الوزارية.. وذات يوم رأى مع بائع الصحف مجلة «الصباح»، أكبر مجلة مسرحية فى تلك الأيام، ووجد صورة نشوى عبده تحتل الصفحة الأولى!

وكان فى جيب عم عبده يومها قرش صاغ وحيد احتفظ به ليشترى عشاءه، وأخرجه من جيبه، واشترى مجلة «الصباح» ودفع فيها القرش الوحيد..

وبات ليلتها بغير عشاء.. ولكنه أغمض عينيه وأصابعه تحتضن هذا العدد من المجلة التى على غلافها صورة الفتاة التى كان والدها لمدة خمس دقائق!

وكانت سعادة عم عبده الكبرى أن يرى الجماهير تتزاحم أمام الباب الخلفى لصالة بديعة لترى الراقصة نشوى عبده وهى خارجة أو داخلة. وكان يحرص على أن يقف فى الصفوف الخلفية بحيث لا تراه، وكان يطرب عندما يسمع الجماهير المعجبة وهى تتحدث عن جمالها، وتطرى رشاقتها وتتنهد منتشية بسحرها وجاذبيتها وانوثتها.

ولم يفكر مرة واحدة فى أن يشهدها وهى ترقص. كان لا يريد أن يراها

عارية على المسرح. كان لا يطيق أن يلمحها جالسة مع زبون مخمور وهو يحاول أن يعبث بصدرها أو يميل برأسه على رأسها. كان يحس بشعور عجيب، كأنها مازالت ابنته.. كأن الخمس دقائق التى مثل فيها دور الأب امتدت وامتدت كل هذه السنين!

وكان فى استطاعته أن يدخل إلى صالة بديعة ويشهد الرقص إذا شاء شولح بائع الفزدق فى الصالة والذى يقوم بوظيفة «المطيباتى» ويقود التصفيق والهتاف ويلعلع صوته بصيحات الأعجاب لبعث الحماس فى المتفرجين، هو صديقه القديم، وكثيرا ما الح عليه أن يدخل معه ليتفرج على «الهلس» كما كان يسميه شولح..

ولم يشأ عم عبده أن يرى نشوى فى «الهلس».. كان يكفيه أن يستدرج شولح من وقت إلى آخر فيعلم منه أن الراقصة نشوى طفت على جميع الراقصات.. ولم يبق بينها وبين أن تصل إلى مكانة الراقصة الأولى تحية كاريوكا إلا ثلاث زجاجات شامبانيا فى الليلة الواحدة وكانت مكانة الراقصة وقتها تحسب بعدد ما يفتحه لها الزبائن من زجاجات الشامبانيا!

وتغيظ عم عبده من تحية كاريوكا ملكة الراقصات فى مصر، وتمنى أن يجىء يوم تزيح نشوى عبده الملكة وتجلس على العرش مكانها! وكلما سمع الناس تمدح تحية كاريوكا أحس كأنها تشتمه هو!

وذات يوم رأى شبه مظاهرة فى ميدان الأوبرا، ورأى الناس تحيط بسيدة وتصفق لها وعرف على الفور أنها نشوى عبده، وجرى نحو المظاهرة، وإذا به يكتشف أنها تحية كاريوكا.

وأحس بخيبة أمل شديدة، ووجد نفسه يصيح فى الجماهير:

ـ ماذا جرى لعقولكم؟ تصفقون لراقصة؟

وإذا بالجماهير تنهال على عم عبده ضربا وصفعا وركلا! وخرج عم عبده من المظاهرة أشبه بمشوهي الحرب!

وشعر بالخجل من نفسه. إنه يستحق فعلا هذه العلقة. كان يعتبر هتاف الجماهير لنشوى عملا عظيما، فإذا هتفوا لمنافستها اتهم الجماهير بالفسق والفجور والضلال! كل ما يفعله الذين نحبهم هو حلال أو كل ما يفعله الذين لا نحبهم هو الحرام!

ومع كل هذا التعصب للراقصة نشوى لم يفكر عم عبده في لقائها أو في أن ينتفع بثمن هذا الحماس. وكم من أيام مضت عليه وهو يتلوى من الجوع، أيام يضرب فيها المحسنون عن الاحسان، كأنهم يتآمرون عليه ليموت من الجوع.. ومع ذلك لم يخطر بباله أن يذهب إلى الراقصة المشهورة نشوى عبده ويطلب منها أن تعطيه الجنيه الذى رفضه في يوم من الأيام!

* * *

وذات صباح، كان عم عبده يقف يتسول على ناصية ميدان الأوبرا وشارع عدلى، ورأى سيارة سوداء كبيرة طولها ستة أمتار، وبغطاء أبيض، تقف أمامه فجأة، وتحدث فراملها صوتا أشبه بالصراخ.

وتقفز منها الراقصة نشوى عبده وتعدو نحوه، وتفتح ذراعيها، وتهجم عليه وتعانقه وتقبله وتقول له في صوت يرقص فرحا:

ـ عم عبده؟ عم عبده؟ أين أنت يا عم عبده!

وذهل عم عبده لهذه المفاجأة التى لم يتوقعها. وماتت الكلمات فوق شفتيه، وتساقطت الدموع من عينيه وتجمع الناس حول الراقصة نشوى،

وأخذوا يشيرون باصابعهم فى دهشة إلى الراقصة المعروفة التى تقبل الشحاذ فى الطريق العام!

وأمسكته نشوى من يده وقالت:

ـ تعال معى!

ـ إلى أين؟

ـ إلى بيتى.. اننى أبحث عنك فى كل مكان! لا يمكن أن أتركك! تعال اركب معى فى سيارتى!

ـ إن ملابسى غير لائقة، ستوسخ السيارة!

ـ إنها ستتشرفها!

ـ إننى أعدك بأن أحضر إلى زيارتك بعد انتهاء عملى!

ـ متى ينتهى عملك؟

ـ الساعة الخامسة مساء!

ـ اننى انتظرك فى بيتى. عنوانى عمارة سيف الدين، بجاردن سيتى على النيل. كل الناس يعرفون أين أسكن إلا أنت. لن أترك بيتى إلى أن تجىء!

وفتحت حقيبتها، وأخرجت كل ما فيها من نقود وحاولت أن تعطيها له فأبى وقال باسما!

ـ لا تخجلينى أمام الناس. سآخذها عندما القاك فى بيتك اليوم.

ـ هل تخجل أن تأخذ نقودا من راقصة؟

وسكت عم عبده ولم يرد. وأخذت الراقصة نشوى تنظر إلى ملابسها

الأنيقة، إلى فرائها الثمين إلى مجوهراتها الغالية، إلى سـيارتها الفـاخرة الفارهة.. ثم القت نظرة على عم عبده، فى ملابسه الرثة، إلى رأسه الاشيب، بنظرة الرفض الحازمة.

وتنهدت نشوى وقالت وكأنها تحدث نفسها:

ـ إن كل شيء تغير يا عم عبده!

ـ فعلا تغير كل شيء يا ست نشوى!

ـ ولكنك أنت وحدك لم تتغير.. مازلت كما أنت!

الفصل الثامن والعشرون

كان عم عبده يتمنى ان تنشق الأرض وتبتلعه. كان فخورا بأن الراقصة نشوى عبده تذكرته بعد كل هذه السنوات. كان سعيدا ان تغمره بكل هـذا العطف والحنان والاهتمام أمام الجموع المذهولة الواقفة فى شارع عـدلى باشا.

ولكنه يريد ان ينهى هذا الموقف بأسرع ما يمـكن، حتـى لا تفتضـح الحقيقة، فتقول نشوى ان عم عبده المتسول هو الذى اخذها من يدها ألى صالة بديعة، وانها كانت ذات يوم تعمل خادمة، وتضربها الست أميرة بيـد الهون !

نعم، ان هذه الحقيقة تشرفه، وترفع من قدره، ولكنها بلا شـك، سـوف تسىء إلى مكانة الراقصة المعروفة التى أصبح يشار إليها بالبنان !

لا يمكن ان تقبل الجماهير ان تحمل على اكتافها امرأة كانـت خـادمة وتضرب بالمقشة والشبشب ويد الهون !

الجماهير عندما تحب فنانة تتصور انها أحبت ملـكة.. وتنسى فى غمـرة حبها وإعجابها ماضى هذه الفنانة.

وأغلب الفنانات عندنا، فى تلك الأيام، كن يتبارين فى اخفاء أصولهن عـن الجماهير. فالتى بدات على مسارح روض الفرج تشطب هذه الفترة كلهـا،

وتدعى انها بدأت الفن على مسرح رمسيس عندما انشأه يوسف وهبى بك! والتى ولدت فى زقاق يتفرع من حارة فى قسم عابدين، تزعم انها كانت مولودة فى قصر يجاور قصر عابدين، والتى كان ابوها ماسح أحذية معروفا فى شارع عماد الدين، تقسم اغلظ الايمانات بأن بابا كان يملك مصنعا لصنع الاحذية يعمل فيه عشرات العمال!

ما من فنانة كانت ترضى فى تلك الأيام بأن تعترف بخروجها من أسرة فقيرة أو من أسرة متوسطة، أو تقبل بأن تكتب عنها مجلة أنها اضطرت لاحتراف الفن لأنها كادت تموت من الجوع!

إذن، فلا يجوز ان تعرف الجماهير المحتشدة حقيقة العلاقة بين الراقصة المشهورة والمتسول والصعلوك!

وتوسل عم عبده إلى الراقصة نشوى بأن تتركه وتعود إلى سيارتها وقبلت أن تنصرف بعد الحاح، وقالت وهى تنصرف:

ـ اننى انتظرك ياعم عبده!

وعادت نشوى إلى سيارتها بين صفوف المعجبين وطالبى التوقيع على الاوتوجرافات، وانطلقت بسيارتها وهى تلوح لعم عبده حتى اختفت السيارة!

* * *

وتنفس عم عبده الصعداء... وانزوى فى حارة جانبية، هربا من فضول الجماهير وأسئلتهم واستيضاحاتهم. وما كاد يبتعد عن الجموع، حتى وجد امامه رجلا متوسط العمر، محدودب الظهر، فى وجهه اثار مرض جدرى قديم..

وتوقف الرجل امامه، وكأنه يقطع عليه الطريق، وسأله بلهجة أمرة:

ـ ما اسمك؟

ـ عم عبده!

ـ ماذا تفعل؟

ـ على باب الله!

ـ من أين تعرف الراقصة الكبيرة نشوى؟

وصدم عم عبده بهذا السؤال الفضولى، وتضايق من طريقة الرجل المجهول فى توجيه السؤال انه لا يريد ان يعرف احد اين عرف نشوى، ولا كيف عرفها. هذا هو السر الذى لا يعرفه سواه وسواها!

وهو يجد لذة فى ان يحتفظ بهذا السر له وحده. ان أحلى الاسرار، فى نظرنا، هى التى لا يعرفها سوانا!

ولم يجب عم عبده..

وعاد الرجل يطرح السؤال نفسه، بنفس الصفاقة والسماجة!

ونظر اليه عم عبده فى تأفف واشمئزاز وقال له:

ـ وما شأنك انت؟

ـ إن هذا من صميم عملى!

ـ هل انت مخبر فى البوليس!

ونظر اليه الرجل فى احتقار وقال له:

ـ انا الاستاذ كامل زقزوق مندوب جريدة «المقطم» الفنى!

ـ وماذا يهم جريدة المقطم إذا صافحت راقصة فى الطريق العام؟

ـ هذا حادث هام ساكتبه غدا فى جريدة « المقطم ».. ويهمنى ان أعرف من انت.. هل انت قريبها؟

وذعر عم عبده! قريبها؟ ماذا سيقول الوسط الفنى إذا قالت جريدة « المقطم » الغراء ان قريب الراقصة العظيمة هو رجل صعلوك! ياللمصيبة الكبرى التى ستحل على سمعة نشوى عبده! ان هذا الخبر سوف يهدم الملكة، التى أجلسها على العرش.. سيعرف الجمهور انها من أسرة من الصعاليك! يا فرحة تحية كاريوكا!

وابتسم عم عبده وهو يستعيد ذلك اللقاء الذى تم بينه وبين الراقصة المشهورة نشوى عبده فى شارع عدلى، وتلك القبلة التى طبعتها على خده فى الطريق العام، وذهول الجماهير وهى ترى الراقصة الفاتنة تعانق الشحاذ الصعلوك، والاحراج الذى احس به من أسئلة الأستاذ كامل زقزوق المندوب اللحوح لجريدة « المقطم »!

لقد كره يومها جميع الصحف وجميع الصحفيين. كان كامل زقزوق مزيجا من وكيل النيابة وضابط المباحث والملكين اللذين سيتوليان حسابنا بعد الموت.. كانت الاسئلة تخرج من فمه كما يخرج الرصاص من المدفع الرشاش!

وحاول عم عبده ان يحاور الصحفى الفضولي ويداوره، والصحفى يحاصره ويضيق عليه الخناق، وأخيرا قال له::

ـ سأقول لك الحقيقة بشرط ان تعدنى بأن تكتم السر!

ـ اعدك بأننى لن أكتب الا ما نتفق عليه!

ـ لقد كنت اعمل طاهيا عند الباشا والد الراقصة نشوى عبده

ـ هل ابوها باشا؟!

ـ هذا هو السر!

ـ لن يعرف أحد هذا السر!

ـ لو نشرت اسم والدها فسوف يقتلها الباشا والدها، وستكون انت المسئول عن جريمة قتل!

ـ أعدك بأنى لن انشر اسمه.. اننى اريد ان اعرف الاسم لمعلوماتى الشخصية فقط.

ـ ان اسمه عبده باشا.

ـ عبده باشا ماذا؟

ـ إننى لم اسمع بهذا الاسم.

ـ ألم تذهب إلى حى العباسية؟

ـ نعم.

ـ الم تسمع عن ميدان اسمه ميدان عبده باشا؟

ـ نعم، سمعت..

ـ انه هو الرجل الذى سمى الميدان باسمه! انه يملك عمارات طائلة! وقد تبرا من نشوى بعد ان اشتغلت راقصة!

وانصرف الاستاذ كامل زقزوق سعيدا بأنه حصل على سر خطير..

وفى اليوم التالى، استلف عم عبده نسخة من جريدة «المقطم» من بائع الصحف فى ميدان الأوبرا، وقرأ فى الصفحة الأخيرة نبا بعنوان «تواضع

راقصة معروفة » جاء فيه :

تجمهر المارة صباح أمس فى شارع عدلى باشا، عندما راوا الراقصة المعروفة نشوى عبده الراقصة بصالة بديعة، تقف فجأة بسيارتها الفارهة ماركة «كرايسلر» وتقفز منها لتعانق رجلا بائسا رث الثياب يقف امام محل «جروبى» الحلوانى المشهور.

«وتبين ان هذا البائس كان يعمل منذ سنوات طاهيا عند سعادة والد الراقصة الكبيرة.»

وقد نفحته بمبلغ من المال كما هو معروف عنها من الكرم والسخاء والعطف على الفقراء والمحتاجين.

وأبدت الجماهير الواقفة فى الشارع تأثرها الشديد لتواضع الراقصة المعروفة، ومروءتها، وانسانيتها، مما يدل على انها انسانة عظيمة، كما هى راقصة عظيمة، تظهر فنها الاصيل ورقصها الشرقى الساحر كل ليلة فى كازينو بديعة بميدان الأوبرا.

ولا يذيع « المقطم » سرا إذ يقول ان المعروف عن الراقصة نشوى انها من اسرة ارستقراطية كبيرة معروفة وأنها اخفت ذلك، بسبب عدم موافقة اسرتها على احترافها الرقص، مع انه يعتبر فى أوروبا من ارقى الفنون وأعظمها » !

ويومها قهقه عم عبده من غفلة الصحفى الأستاذ كامل زقزوق الذى صدق، بسذاجته الأكذوبة التى اخترعها عن عم عبده باشا والد الراقصة نشوى. ولكنه ما كاد يعيد قراءة الخبر مرة بعد مرة حتى اكتشف انه هو المغفل وليس الاستاذ زقزوق.. لقد استطاع الاستاذ زقزوق ان يحول هذا

الخبر البرىء إلى ورقة بنكنوت فقد كتبه بطريقة يستطيع بها ان يقبض من الاستاذ وديع سعد صاحب توكيل «كرايسلر» الفاخرة التى تركبها الراقصة الكبيرة، وان يقبض من محل «جروبى» أجر أعلان لأنه ذكر اسمه فى الخبر، ويقبض من كازينو بديعة اجر اعلان عما ذكره عن رقص نشوى فى كازينو بديعة. ثم يقبض من نشوى نفسها ثمن المديح الذى غمرها به، وثمن سكوته عن عدم ذكر اسم والدها سعادة عبده باشا عبده! وستدفع نشوى بطبيعة الحال.. ولن تكذب انها ابنة باشا يملك ميدانا فى حى العباسية اسمه ميدان عبده باشا! واكتشف عم عبده أن الصحف والمجلات صدقت الأكذوبة المنشورة فى جريدة «المقطم» وأصبحت تطلق على نشوى «الراقصة الارستقراطية»!

ولم يذهب عم عبده ليزور الراقصة نشوى فى شقتها الفاخرة فى عمارة سيف الدين. كان يحس بأنه لو قبض ثمن الخدمة التى اداها لها فى أول عملها بالرقص، فسوف يفقد اللذة التى كان يحس بها. لقد كان فخورا بما فعل.. بأنه جفف دموع امرأة. بأنه مد يده لمخلوقة استنجدت به. كان سر هنائه انه اشترك فى زراعة بذرة، وأنه رأى البذرة تتحول إلى وردة، يراها من بعيد.. غيره يلمسها.. غيره يشم عبيرها، غيره يقطفها.. ولكنه هو يختلف عن كل هؤلاء بأنه أعطى ولم يأخذ. انه زرع ولم يقلع!

وسمع عم عبده خطوات تقترب من باب الزنزانة، فطوى جريدة «المقطم» بسرعة، واخفاها تحت وسادته. ولم تلبث الخطوات ان اختفت وعاد عم عبده يفكر فى نشوى..

ثم تنبه إلى نفسه. وسخر من قلة عقله. أنه يفكر فى الراقصة نشوى، وينسى المصيبة التى نشرتها جريدة «المقطم» عن قضيته.

عاد يفكر فيمن تكون تلك الراقصة الكاذبة التى ادعت انه قال لها انـه يعمل لحساب هتلر!

ولم يستطع ان ينام فى تلك الليلة. كان يدور فى زنزانته. كأنه نمر فى قفص. نمر طعن بحربة والدم ينزف منه، ولا يستطيع ان يقتحم قضـبان القفص، ليقضى على الذين طعنوه.

إنه برىء! صحيح انه احتضن تهمة ظالمة بأنه طابع المنشـور، ولـكنه فعل ذلك من أجل الآنسة قسمت. هناك فرق بين ان يتحمل راضيا ذنبا لـم يرتكبه، وبين ان يفرض عليه ذنب جديد. كأنهم لم يكتفوا بـأن يحبسـوه، ويصروا على ان يشنقوه! لا يكفيهم اتهامهم اياه بأن يقولوا انه هاجم البلد كله!

سوف يطلب من قسمت عندما يلتقى بها فى الزيارة صباح اليوم التالى ان تذهب الى جريدة (المقطم) وتقابل رئيس التحرير، وتعرف منـه سر هـذا الهجوم الذى انهال عليه فجأة، وتحاول ان تنشر تصحيحا للوقائع.

سوف يطلب إلى قسمت ان تذهب وتقابل الراقصة نشوى، وتطلب منهـا ان تبحث من بين زميلاتها من الراقصات فى صالة بديعة عمن قبلت ان تقوم بتمثيل دور شاهدة الزور فى قضيته.. ان نشوى الان صاحبة نفوذ فى الصالة، وهى قادرة على ان تعرف هذه المجرمة، وقادرة على ان تهددها بالفضيحة إذا مضت فى طريق الزور. ان القانون يعاقب بالسجن مرتكب شهادة الـزور، ولابد ان نشوى سترحب بأن تقوم بهذه المهمة. لقد احس عندما قبلتـه فى شارع عدلى انها تعامله كأنه لا يزال اباها.. كانـت تعـانقه والـدموع فى عينيها!.

لاحظ عم عبده عندما جاءت قسمت تزوره فى غرفة المأمور أنها حـزينة

شاحبة. كان اللمبات الكهربانية التى كانت تضىء فى داخلها انطفات فجـأة، وتحرك ساقها وهى جالسة فى عصبية.. وسألها:

ـ هل قرأت جريدة المقطم؟

ـ نعم..

ـ هل صدقت ما قالوه عنى؟

ـ كيف أصدق وانا كاتبة المنشور؟ معنى المكتوب اننى انـا قسـمت شاهين اجيرة، وعميلة، وأعمل لحساب هتلر، واريد ان تكون مصر مستعمرة المانية!

ـ وهل صدقت اننى كنت عشيقا لراقصة فى صالة بديعة انفـق عليهـا عشرات الجنيهات كل ليلة؟

ـ ان السجل الموجود فى ملجأ المتسولين ينفى كل هذا الكلام الفارغ!

ـ ولكنك وحدك التى تعلمين اننى برىء!

ـ لن يصدق احد هذا الكلام. عندما تقول الحكومة عن رجل انه مجـرم يعرف الرأى العام على الفور انه برىء!

- ولكن بعض السذج سوف يصدقون!

ـ التافهون وحدهم هم الذين يصدقون التفاهات.

ـ ولكن التافهين أغلبية ساحقة!

ـ قد يدهشك ان تعلم انهم اقلية مسحوقة. شعبنا شعب ذكى!

ـ حتى لو ضللوه!

ـ ان ذكاءه لا يلمع الا عندما يرى حملات التضليل!

ـ اذن تريدين منى ان أسكت!

ـ كلا.. إذا سكت انت فلا يمكن ان اسكت انا.

ـ ماذا نفعل؟

ـ ذهبت إلى مكرم باشا وقال ان من رأيه ان نرفع قضية على جريدة «المقطم»!

ـ وماذا اكسب من هذه القضية؟

ـ مكرم باشا يقول انك تستطيع ان تحصل على تعويض كبير!

ـ انا لا اريد تعويضا، انا اريد شرفى!

ـ الرجل الشريف لا يفقد شرفه بمقال تنشره جريدة!

ـ إننى أريد ان تذهبى إلى جريدة «المقطم» وتعرفى سر هذه الحملة!

ـ اننى أعرف سرها دون ان أذهب!

ـ وما هو سرها؟

ـ ان الحكومة عندما وجدت ان ليس لديها ادلة ضدك قامت بهذه الحملة. لو انها كانت واثقة من ادانتك لا نتظرت حكم القضاء!

ـ ولهذا جاءت بشاهدة زور لا اعرفها!

ـ الا تلاحظ اننا فى المناقشات العادية عندما نجد ان حججنا ضعيفة نبدأ فى الشتائم والسباب؟

ـ هل تعرفين الراقصة نشوى عبده؟

ـ أعرفها جيدا.. لقد اشتركت فى احياء بعض الحفلات الخيرية التى اقامتها الجمعية، ورفضت ان تتقاضى أجرا.

ـ انها سيدة نبيلة.

ـ ولكن تحية كاريوكا انبل منها!

ووجم عم عبده. المظاهرة التى تهتف بحياة تحية كاريوكا تتبعه فى كل مكان حتى إلى سجن الاستئناف .. كان يحتمل ان يثنى كل الناس على تحية كاريوكا ولكنه لا يحتمل أن تثنى عليها قسمت، الفتاة التى يحترمها ويعجب بها، الفتاة التى ضحى بحريته من أجل ان يفتدى حريتها..

ولم تلحظ قسمت وجوم عم عبده فمضت تقول:

إن نشوى عبده ترقص لملجأ المتسولين مجانا، ولكن تحية كاريوكا ترقص لنا مجانا، وتتبرع للجمعية، وتبيع تذاكر حفلاتنا الخيرية. وعندما تكون مفلسة وهذا يحدث لها كثيرا، تخلع ساعتها الذهبية المرصعة بالماس من يدها وتقول لنا: خذوها وبيعوها واصرفوا الثمن على المتسولين، بشرط ألا يعرف أحد أننى فعلت ذلك!

ـ إن تحية كاريوكا تربح أكثر من نشوى!

ـ نشوى تنشر اعلانا فى الصحف تدفع ثمنه لتقول إنها أحيت مجانا حفلة ملجأ المتسولين الخيرية!

ـ إنك متحيزة!

ـ هل تعرف تحية كاريوكا؟

ـ كلا... أعرف نشوى.

ـ تعرفها جيدا؟

ـ قابلتها مرتين فى حياتى!

ـ أين؟

ـ فى الشارع!

ـ وهل تستطيع أن تحكم على الناس من الشارع؟

ـ مهنتى أن أقف فى الشارع، ومن فوق الرصيف أحكم على الناس!

ـ بما يدفعون؟

ـ نعم..

ـ إنك لا تستطيع أن تحكم على الانسان بما يدفع!

الدليل على ذلك أنك حكمت على تحية كاريوكا بما دفعت!

ـ لو كنت تعرف تحية، وعرفت أنك فى السجن، لجاءت وزراتك، واقتحمت الأبواب حتى ولو كان يحرسها الجيش البريطانى كله.

ـ إن نشوى لا تعرف أننى مسجون!

ـ ماذا تريد منى أن أقول لها؟

ـ أن تطلبى منها أن تبحث عن الراقصة التى ستشهد ضدى... وسوف ترين بنفسك أنها امرأة عظيمة!

ـ إنى أفضل أن أكلف بهذه المهمة تحية كاريوكا.

ـ ولكننى لا أعرفها!

ـ إنها تخدم الذين لا تعرفهم أكثر من الذين تعرفهم!

ـ أنا أفضل أن تذهبى لنشوى!

ـ إننى لا أحب أن أذهب إليها.

ـ إذن فاطلبى من عادل أن يذهب إليها.

ـ أنا لا أتحدث إلى عادل!

ـ هل أنتما متخاصمان؟

ـ نعم.. للأبد!

ـ ماذا فعل؟

ـ إنه ينتظر مولودا!

ـ هل أنت حامل؟

ـ لا.. هو.

ـ هو الحامل؟!

ـ لا.. إن امرأة أخرى حملت منه.

ـ كيف عرفت؟

ـ هو الذى أخبرنى!

ـ لولا أنه يحبك لما أخبرك!

ـ ما زلت تدافع عنه بعد أن علمت بجريمته.

ـ أعتقد أنه يحبك.

ـ هل الذى يحب امرأة يرزق بولد من امرأة أخرى.

ـ هل خانك معها؟

ـ خاننى.. قبل أن تبدأ علاقتى به!

ـ هذه ليست خيانة.. مسئولية الرجل تبدأ بعد العلاقة بالمرأة التى يحبها!

ـ لو كان يحبنى حقيقة لأجهضها.

ـ ربما رفضت أن تجهض نفسها!

ـ لا توجد امرأة تستطيع أن تقول لرجل تحبه لا!

ـ هل هى تحبه؟

ـ لا أعتقد.

ـ إذن، فهى تستطيع أن تقول له: لا!

ـ ولكنه أصبح يحب الجنين الذى فى بطنها. تصور شعورى عندما أعرف أن الرجل الذى أحبه، يحب شيئا فى بطن امرأة أخرى.

ـ تغارين من جنين؟

ـ أغار من كل كف يصافحها، من كل نظرة يلقيها على غيرى، من كل كلمة يقولها لامرأة سواى عن ماضيه، من حاضره، من مستقبله.

ـ ولهذا تعاقبينه بالقطيعة؟

ـ نعم..

ـ ألا تعرفين أنك تعاقبين نفسك؟!

إننى عندما رأيتك اليوم تصورت أنك صدقت ما هو مكتوب عنى فى جريدة «المقطم». رأيتك شاحبة، حزينة، مريضة!

ـ إننى لست مريضة.. أنا ميتة!

ـ ولكنك أنت التى حكمت على نفسك بالموت.

ـ هو الذى حكم على حبنا بالموت!

ـ حبك لم يمت.. الموتى لا يتكلمون ولا يتعذبون!

ـ إننى أول ميت يتعذب!

ـ دعينى أتحدث معه!

ـ لا فائدة. لقد أصدرت قرارى الأخير!

ـ كيف تحاربين الطغاة وتتشبهين بهم؟ أحكام الطغاة دائما نهائية!

ـ أرجوك ألا تكلمنى فى هذا الموضوع.

ـ ولكنى سأكلمه هو!

ـ إذا كلمته أنت فيمكنك أن تكلفه بأن يتحدث مع الراقصة نشوى فى موضوع قضيتك، لأنه يعرف نشوى.

ـ يعرفها جيدا؟

ـ كانت عشيقته فى وقت من الأوقات!

ـ ولهذا تحبين تحية كاريوكا!

ـ ولهذا أكره نشوى!

* * *

ذهبت قسمت إلى جريدة «المقطم». سألت عن الأستاذ خليل ثابت بك رئيس التحرير، فقيل لها إنه مشغول فى كتابة مقاله اليومى، وأحالها على الأستاذ فرنسيس يعقوب سكرتير التحرير.. واستقبلها رجل فى الستين من عمره.. محدودب الظهر، فسكرتير تحرير جريدة «المقطم» شأنه شأن سكرتيرية التحرير يحمل الجريدة فوق ظهره، ولكن الأستاذ يعقوب كان يبدو أنه يحمل جبل المقطم فوق ظهره لا جريدة «المقطم». وحدها.

اشتعل رأسه بالشيب، ونزع الزمن مساحات من شعر رأسه، وحفر الدهر خطوطا وتجاعيد فى وجهه. ويبدو أن الزمن كان يعبث بالأستاذ يعقوب، فقد حرص على أن ينزع شعره بغير نظام، فأصبحت الأمكنة الخالية فى رأسه من الشعر أشبه بالبقع الصفراء!

فى عينيه الواسعتين مأتم دائم، إنه أشبه برجل يمضى طوال حياته فى تقبل العزاء.

وشعرت قسمت وهى تدور بعينيها فى الغرفة أنها تجلس فى شىء قديم. كل ما فى الغرفة فيه رائحة الماضى، رائحة لها طعم غريب، مزيج من رائحة القبور ورائحة السراديب. المكتب مهشم المقاعد أشبه بملجأ لمشوهى الحرب بعضها ينقصه أرجل، وبعضها ينقصه أيد.. الجدران ملأى بالشقوق والحفر، وكأن الأستاذ يعقوب غطى جدران غرفة مكتبه بصوره الفوتوغرافية!

قالت قسمت:

لقد نشرت جريدة «المقطم» أمس تحقيقا عن قضية عم عبده كله أكاذيب!

وخرج من فم الاستاذ يعقوب صوت رهيب كأنه يخرج من قبر قائلا:

ـ إن «المقطم» لا ينشر إلا الحقائق.

ـ ولكن المنشور فى الجريدة عن هذه القضية كذب مائة فى المائة!

ـ أنا واثق أنه صحيح مائة فى المائة!

ـ كيف تثق؟

ـ لأن هذا هو كلام الحكومة والحكومة لا تكذب!

ـ يدهشنى أن يقول صحفى قديم مثلك أن الحكومة لا تكذب! ألم تقل الحكومة أن أسعار المأكولات ستنخفض فإذا بها ترتفع؟ ألم تقل الحكومة إنها اتخذت الاحتياطات لحماية القاهرة من الغارات، وإذا بالغارات تنهال علينا؟ ألم تؤكد الحكومة أنها ستلغى الرقابة على الصحف، وإذا بها تجعلها أشد وأقسى مما كانت؟

ـ هذه ليست أكاذيب! هذه تصريحات سياسية. الكذب المفيد نوع من الصدق! الحكومة تكذب لمصلحة الشعب! تماما عندما أكذب على ابنى وأقول له إن الغول سيأكله إذا لم يغسل يديه وساقيه كل مساء قبل النوم.

ـ إذن فالحكومة تعامل الشعب كأنه طفل صغير!

ـ نعم.. ولهذا فإن «المقطم» عندما يكتب عن رجال الحكومة يسميهم «أولياء الأمور»!

ـ ولكن ما كتبتموه عن عم عبده هو كذب فى كذب.

ـ الكذب عندما تنطق به الحكومة يصبح صدقا !

ـ لقد تعلمنا فى طفولتنا أن الصدق منج.

ـ الصدق ينجى الأفراد وينكب الحكومات ! لو أن الناس عرفوا الحقائق كما هى لأمسكوا فى زمارة رقبة الحكام وأصبحت الدولة فوضى !

ـ إذن فأنت نشرت معلومات عن هذه القضية، وأنت تعلم أنها معلومات كاذبة !

ـ لم أفكر أنها كاذبة أو صادقة. كل ما فكرت فيه هو أن هذه معلـومات رسمية أم غير رسمية ؟ إذا كانت غير رسمية فواجبى أن اتأكد من صحتها، أما إذا كانت معلومات رسمية فمسئولية نشرها تقع على الحكومة !

ـ إذن، لماذا لم تقولوا فى أول المقال أن هذه المعلومات جـاءتنا مـن الحكومة ؟

ـ الحكومة ترفض أن تنسب لها هذه المعلومات. الذى حدث أن الرقيب جاءنى أول أمس بهذه المعلومات مكتوبة على الآلة الـكاتبة، وأمـرنى أن أنشرها حرفيا فنشرتها كما هى، حتى بأخطائها اللغوية.. لأن الـرقيب لـم يسمح لنا حتى بتصحيح الأخطاء.. وقال لا يجوز لصحفى أن يصحح لغـة الحكومة !!

ـ حتى عندما تخطئ الحكومة فى اللغة، تصبح الأخطاء اللغوية هى اللغة الصحيحة !

ـ طبعا.. إن العالم اللغوى سيبوية لا يملك سلطة، ولا حول له ولا قوة. كل ما يستطيع أن يفعله أن يلعنا وهو فى قبره.. أما الحكومة فإنها تستطيع، إذا غضبت، أن تضعنا فى السجن، تلفق لنا تهمة ونعترف بها !

ـ كنت أظن أن مهمة الرقيب أن يحذف ما لا تريد الحكومة نشره!

- ومهمته أيضا أن ينشر ما تريد الحكومة نشره!

ـ ولكن ما مهمة الصحفى إذن؟

ـ مهمة الصحفى أثناء الرقابة أن يطيع تعليمات الدولة!

ـ أنت منحاز انحيازا كاملا إلى جانب السلطة!

ـ ما دامت الدولة هى التى تستطيع أن تغلق أى صحيفة، وأن تخرس كل فم. فأكون مجنونا إذا وقفت ضدها، لو وقفت ضدها فسأقف وحدى!

ـ ستقف مع الشعب!

ـ الشعب يحتاج لمن يقف معه!.. ماذا فعل الشعب للصحف الى عطلها اسماعيل صدقى ومحمد محمود وغيرهما؟ ألوف المحررين والعمال فقدوا أرزاقهم ولم يفعل لهم الشعب شيئا!

ـ إذن أنت تقف مع السلطة لأنك تخافها!

ـ أننى أقف بجانب السلطة بكل قواى عن اقتناع.

ـ إذن أنت مقتنع بكل ما تفعله السلطة!

ـ كلا.. أنا مقتنع بأنها الشىء الباقى الدائم.

ـ هل تظن أن هذه الحكومة دائمة؟

ـ لا.. تتغير الحكومات وتتبدل الوزارات.. ولكن السلطة تبقى دائما!

ـ كنت أتصور أن الحكومة ترشوكم لتقفوا معها.. أو أنها تهددكم لتدافعوا عن تصرفاتها.. ولكننى لم أتصور أننى سألتقى بصحفى مقتنع بأن

يدافع عن السلطة سواء أخطأت أو أصابت!

ـ إننى أعتقد أن المظالم والجرائم التى ترتكبها الحكومة ضرورات يؤسف لها، ولكن الحكومة تضطر إليها من أجل المحافظة على سلامتها!

ـ ولهذا فإنك توافق على ظلم عم عبده. ما دام فى مصلحة هذا البلد.

ـ تماما.. الدولة فى أحيان كثيرة تهدم البيوت لتنشئ شوارع جديدة!

ـ وماذا تكسب الحكومة من هدم عم عبده؟

ـ لابد أنها تكسب شيئا. وإلا لما طلبت تخصيص صفحة كاملة من «المقطم» لمهاجمة عم عبده!

ـ ولكنك ظلمت عم عبده يا أستاذ يعقوب!

ـ أنا لن أظلمه، ولكن الحكومة هى التى ظلمته!

ـ ولكنك اشتركت فى هذا الظلم، كنت الخنجر الذى أغمدته الحكومة فى ظهر برىء!

ـ القانون لا يعاقب الخنجر.. وإنما يعاقب من أمسك بالخنجر!

ـ إنكم قلتم إن عم عبده كان موظفا بالبريد وفصل من وظيفته لأسباب مخلة بالشرف.. أن هذا كله كذب!

ـ الحكومة من اختصاصها تعيين الموظفين وطردهم وهى عندما قالت هذا الكلام، استعملت حقها، فعينت عم عبده ثم طردته.

ـ ولكنه لم يرتكب جرائم مخلة بالشرف.

ـ الحاكم من حقه أن يحدد الجرائم المخلة بالشرف، وأن يغيرها

ويبدلها كما يغير ويبدل أسماء الشوارع !

ـ إن هذه فلسفة انهزامية لم اسمع بها من قبل الآن !

ـ الجريمة الواحدة يتغير اسمها طبقا لما يراه الحاكم. حكومة يوسف باشا وهبة اعتبرت المصريين الذين يقطعون خطوط السكك الحديدية فى ثورة ١٩١٩ خونة يحكم عليهم بالأعدام.. وحكومة سعد زغلول اعتبرتهم أبطالا يجب أن يعينوا فى وظائف الحكومة ! حكومة صدقى اعتبرت رجال الادارة الذين زوروا الانتخابات موظفين أكفاء يتسحقون الترقيات الاستثنائية، وحكومة النحاس اعتبرتهم مجرمين وقدمتهم إلى محكمة الجنايات ! الحكومة فى عهد الخديو عباس اعتبرت من يقول «يسقط الخديو» مجرما يدخل السجن، والحكومات فى عهد الملك فؤاد اعتبرت من يقول «يحيا الخديو» مجرما يحكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة ! وهكذا فجرائم اليوم هى فضائل الغد، وحسنات اليوم هي ذنوب الغد.

ـ معنى ذلك أنك لا تريد أن تكتب تكذيبا لهذه الأكاذيب !

ـ من حقك أن تكتبى التكذيب، ولكن الرقيب سوف يحذفه !

ـ ربما يوافق على نشره !

ـ الرقيب لا يسمح أبدا بمعارضة أى رأى تقوله الحكومة !

ـ إذن، فهذا الذى نشرتموه هو حكم لا يقبل استئنافا ولا نقضا !

ـ أحكام الحكومات نهائية ولكنها عادة تسقط مع سقوط الوزارة !

ـ إننى أدهش أن تنزل الحكومة إلى درجة أن تلفق تهمة لبرىء تصور أنكم قلتم أن عم عبده له عشيقة تعمل راقصة فى صالة بديعة وأنها شاهدة

الأثبات ضده، ونشرتم كلاما لا أساس له على لسانها.. مع أن هذه الراقصة المزعومة شخصية خرافية لا وجود لها!

ـ لا.. أن الراقصة موجودة فعلا!

ـ كيف عرفت أنها موجودة فعلا!

ـ أنا واثق أنها موجودة!

ـ وأنا واثقة أنها مخترعة!

ـ لقد كان اسم الراقصة مكتوبا فى المقال فى أول الأمر.. ثم جاء الرقيب بتعليمات جديدة بحذف اسم الراقصة، فحذفنا الاسم فى المطبعة:

ـ ما هو اسمها؟

ـ إنها راقصة معروفة جدا!

ـ من هى؟

ـ نشوى عبده!

ـ نشوى عبده؟ هل أنت متأكد إنها نشوى عبده؟

ـ متأكد.. متأكد جدا!

الفصل التاسع والعشرون

اشفقت قسمت أن تحطم قلب عم عبده، أن تقول له أن معبودته هي قاتلته، إنها المرأة التى كان يعتمد عليها، لتنقذه من التهمة الملفقة، هي شاهدة الأثبات عليه!

لم تشأ أن تعود إليه وتبلغه بما أخبرها به سكرتير تحرير جريدة « المقطم » من أن الراقصة نشوى عبده هى التى ادعت أن عم عبده قال لها إنه يعمل لحساب الالمان، لم تجرؤ أن تصارحه بأن بطلته التى كان يتشاجر فى الشوارع من أجلها، والتى تحمل الركل والصفعات والشتائم والضرب فى ميدان الأوبرا من أجل حماسه لها هى نفسها التى ركلته وصفعته واغمدت فى ظهره الخنجر المسموم، أن الصفعة التى تصيبنا من إنسان لا نعرفه تؤلمنا، والتى تصيبنا من انسان نعرفه تجرحنا، والتى تصيبنا من انسان نحبه تقتلنا!

منذ ساعات قليلة هاج عم عبده عليها وماج، لأنها فضلت الراقصة تحية كاريوكا على الراقصة نشوى عبده، كأنها كفرت بالله. كأنها اشركت به.

وفى أول الأمر لم تلاحظ اصفرار وجه عم عبده عندما أثنت على الراقصة تحية، ولكنها أحست فى نهاية الحديث من اختلاج صوته، من رعشة يده، من امتقاع وجهه من طريقة نطقه باسم نشوى إنه فجع فى أن قسمت لا تشاركه

كل اعجابه بالراقصة التى لم يرها الا مرتين فى الشارع!

وتمتمت قسمت كأنها تحدث نفسها. الرجل لا يفهم المرأة كما تفهم المرأة المرأة، إنها مذ رأت الراقصة نشوى للمرة الأولى لم تحبها، ولم تعرف لماذا لم تحبها، ولكن فى المرأة حاسة تشبه حاسة الشم عند القطط. كأن لكل امرأة رائحة مميزة. شيئا فيها لا تشمه الا أمرأة مثلها. وعندما شعرت أنها لا تحب الراقصة نشوى لم تكن تعرف يومها أنها كانت احدى عشيقات عادل علاء الدين، ولم يكن يهمها فى ذلك الوقت عادل، ولم تكن أحبته حتى تكره نشوى. وهى بعد أن أحبته لم تكره عشيقاته، ولو كرهت كل عشيقاته لكرهت كل صديقاتها ومعارفها!

إنها لا تعرف لماذا لم تحب الراقصة نشوى فى ذلك الوقت، لم تكرهها لأنها راقصة. فتحية كاريوكا راقصة ومع ذلك هى مفتونة بها. ولم تكرهها لأنها لم تتعاون مع جمعية ملجأ المتسولين. إنها على العكس تبرعت بالرقص مجانا فى بعض حفلات الجمعية الخيرية، ومع ذلك كانت تجد أن تحية رقصت فى الحفلات لتساعد المتسولين، بينما رقصت نشوى لتعلن عن نفسها. كل من الراقصتين فعلت نفس الشيء، ومع هذا لقد رقصت تحية من قلبها ورقصت نشوى من جسدها! وما كادت نشوى تنتهى من دورها حتى خرجت من حفلة الجمعية الساهرة مسرعة، بينما بقيت تحية، ووقفت فى البار تبيع كئوس الويسكى بأثمان غالية مساعدة للجمعية واستطاعت بفتنتها الطاغية أن تنتزع من جيوب الباشوات البخلاء مئات الجنيهات تبرعا لجمعية.. ثم أصرت على أن تزور فى اليوم التالى الملجأ، وترقص للعجائز والمشوهين، وتقبلهم وتعانقهم، واستطاعت فى هذه الدقائق أن تزرع الحياة فى قلوب ميتة، وأن تعيد الابتسامة الى شفاه تعسة، أن تقول كلمة حلوة لكل

محروم من كلمة حنان! ففى قدرة كل واحد منا أن يصنع الخير، ولكن قليلين منا يعرفون كيف يصنعون الخير، كيف يتقدمون به. فرق أن أقدم لك وردة، وأن أقبلها قبل أن أقدمها إليك! فرق أن انزع ما فيها من شوك قبل أن أقدمها إليك وأن أقدمها بكل ما فيها من شوك. فرق أن أقدم لك أجمل وردة فى الحديقة، وأن أقدم أى وردة فيها!

الوردة هي دائما وردة، ولكنها تختلف من يد إلى يد. هناك أصابع تقبض على الوردة وكأنها تخنقها، وأصابع تمسك الوردة كأنها تعانقها!

وقد كان الأجر الذى تبرعت به الراقصة نشوى، هو نفس الاجر الذى تبرعت به الراقصة تحية كاريوكا، ولكن قسمت أحست بأن نشوى تبرعت للجمعية ببضعة جنيهات، وأن تحية تبرعت بألوف الجنيهات ،وذلك لأن تحية عرفت كيف تمسك الوردة، وكيف تقدمها!

ولكن هذا الخلاف فى طريقة الراقصتين لم يكن وحده السبب فى أن قسمت لم تسترح الى نشوى عبده..

ربما يكون الاعلان المأجور الذى نشرته نشوى بعد الحفلة الخيرية هو الذين ضايق قسمت، إنها لم تنتظر حتى تشكرها الجمعية على تبرعها، مع سائر الفنانات، وإنما نشرت فى الصحف خبرا مستقلا قالت فيه إن الراقصة المعروفة اشتركت فى إحياء حفلة جمعية ملجأ المتسولين، ورفضت أن تتقاضى اجرا، وأصرت على أن تدفع أجر التخت من جيبها الخاص، والمعروف أنها تتقاضى فى الحفلة الواحدة مائة جنيه!

وكانت قسمت تعرف جيدا أن أجر الراقصة نشوى وتختها هو ثلاثون جنيها! ولكنها أرادت أن ترفع سعرها على أكتاف المتسولين! وكأنها أرادت أن تسترد التبرع بأن ترفع أجرها عن الحفلات المقبلة!

وحتى هذا التصرف الصبياني لايكفى لكى يجعل قسمت لا تستريح لنشوى، بل هو شيء لا يمكن أن تحدده، لايمكن أن تضع أصبعها عليه.

لعل فى داخل كل واحد فينا قارئ كف، أو قارئ فنجان، أو ضارب ودع، أو فلكيا يحسب النجوم. أى فى داخل كل أنسان محطة رادار، قادرة على أن ترى الغارة المعادية على مسافات طويلة، وربما قبل سنوات طويلة، وهى تنبهنا وتنذرنا. وأغلبنا لا يسمع صفارة الأنذار، واذا سمعها يسخر منها ثم يتذكر أنه سمع صفارة التنبية بعد أن تكون سقطت القنابل فوق رأسه!

لابد أن قسمت عندما رأت الراقصة نشوى لأول مرة سمعت جهاز الرادار فيها يحذرها منها. وكأنه يرى أنه بعد عدة سنوات ستكون هذه الراقصة شاهد الأثبات ضد عم عبده الذى تحمل بالنيابة عنها مسئولية المنشور المضبوط.

* * *

وقررت قسمت أن تذهب إلى نشوى وتقابلها، وتحاول أن تقنعها بأن تعدل عن شهادة الزور.

واتصلت من مكتب الجمعية تليفونيا ببيت الراقصة المشهورة. وقالت خادمتها اعتدال إن الست فى البروفة وأنها ستكون فى البيت بعد ربع ساعة..

واستقلت قسمت سيارتها، وأسرعت إلى شقة نشوى فى عمارة سيف الدين المطلة على النيل فى حى جاردن سيتى الأنيق.

وفتحت الخادمة اعتدال باب الشقة، ومن نظرة واحدة القتها قسمت على اعتدال عرفت أنها ليست خادمة الراقصة فقط، إنها هى سكرتيرتها، ومديرة أعمالها، وكاتمة أسرارها، وكبيرة الياوران!

امرأة فى الأربعين من عمرها، كل شيء فيها يبتسم ويرحب، ويقول «اتفضلوا !». لها ضحكة رنانة يختلط صوتها مع صوت صرير الباب عند فتحه. مكورة الجسم، مدورة الوجة، تمشى وكأنها تدور حول نفسها. وعندما سألتها قسمت عن الراقصة نشوى قالت لها : تفضلى ! ودعتها للدخول ولم تفهم قسمت من كلمة «تفضلى» هل نشوى موجودة أو غير موجودة..

وقادتها إلى صالون. وفوجئت بالصالون مزدحم. وخيل اليها من أول نظرة أن عدد الجالسين فى الصالون أكثر من خمسين شخصا، ثم تبينت بعد أن جلست فى أحد المقاعد أنهم لا يتجاوزون عشرة أشخاص. كلهم من الرجال. وكانت قسمت المرأة الوحيدة بينهم. ورأت الجالسين يتأملونها. عشرون عينا فى وقت واحد تتجه اليها، تقيس طولها وعرضها، تحملق فيها تحاول أن تخترق جلدها.

واعتقدت فى أول الأمر أنهم أفراد تخت الراقصة. وحاولت أن تمتحن ذكاءها فأخذت تبحث فيهم عن حامل الطبلة، وعن عازف القانون وعن لاعب الكمان، ثم تبينت من الحديث الذى بدأ يدور حولها أنهم ليسوا أعضاء الفرقة الموسيقية للراقصة. إنهم أعضاء الفرقة الغرامية للراقصة ! كلهم زبائنها فى صالة بديعة اعطتهم مواعيد مختلفة، حتى لا يلتقى أى واحد منهم بالآخر، وإذا بالراقصة تتأخر فى العودة إلى بيتها، وتختلط المواعيد، ويتصادم العشاق، كما تتصادم السيارات عندما تتوقف علامات المرور!

وكانت الخادمة اعتدال تدخل كل خمس دقائق وتخدر العشاق المنتظرين، مؤكدة أن الست فى الطريق!

وبدت العصبية على رجل قصير القامة، وله كرش مستدير، وعلى عينيه نظارة طبية، وقال للخادمة اعتدال محتجا :

ــ مضت عليك ساعتان وانت تقولين إن الست فى الطريق!

قالت الخادمة اعتدال فى دلال:

ــ هل مللت من ساعتين ياموسى بك؟

ــ أنت تعلمين أننى رجل مشغول جدا ويظهر أن الست نشــوى نســيت موعدها معى..

وضربت اعتدال صدرها بيدها وقالت:

ــ كيف تنساك ست نشوى إنها تقول أنها تذكرك دائما كلما دخلت محل الأدب!

وضج الجالسون بالضحك، ولم تفهم قسمت ما هى النكتة التى يضحكون لها، وتصورت فى أول الأمر أن موسى بك هو مدير مصلحة المجارى أو موظف كبير فيها. وبعد لحظات انطلقت ضحكة مدوية من رجل طويل القــامه، أزاح طربوشه إلى الوراء فظهرت خصلات من شعره الاحمر..

ومال عليه رجل بدين وقال له:

ــ ما الذى يضحكك الأن ياعلوى بك!

وقال علوى بك وهو لا يزال يضحك:

ــ لم أفهم نكتة اعتدال الا الآن!

لقد نسيت أن موسى بك كون ثروته عندما جمع فى أول الحــرب كل أوراق التواليت من المدينة، عندما كان ثمن اللفة قرشين، وأخفاها فى مخازنه، ولم يبعها الا عندما وصلت قيمة لفة ورق التواليت إلى عشرة قــروش.. وهــكذا استطاع باستغلال أحقر أنواع الورق أن يصبح صاحب مئات الألوف مــن

الجنيهات، وأصبح الآن مقاولا يبنى البيوت والعمارات!

وابتسم الرجل البدين وقال هامسا:

ـ ملك الملوك إذا وهب، لا تسألن عن السبب! الله يعطى من يشاء، فقف على حد الأدب!

وحاولت قسمت جاهدة أن تخفى ابتسامتها، وهى تتأمل موسى بك تاجر ورق التواليت.. الذى استطاع أن يدخل إلى قلب الراقصة نشوى عن طريق دورة المياه!

وتململ رجل يجلس بجانبها، يرتدى جبة وقفطانا وعلى رأسه طربوش طويل، ووضع ساقه اليمنى فوق ساقة اليسرى، ثم عاد وأنزل ساقه اليمنى، ورفع فوقها ساقه اليسرى. وأخرج منديلا ملونا كبيرا من جيبه، ومخط فيه بصوت يشبه صفارة الانذار، وتأمل فى مخاطه باعجاب، ثم طوى المنديل ووضعه فى جيبه، وصاح بصوت أجش: يا اعتدال!

وأقبلت الخادمة اعتدال عليه، وهى تهتز، فقال لها هامسا، ولكن صوته لأجش وصل الى اذن قسمت:

ـ قولى لى بصراحة.. هل ستحضر الست أم أنها لن تحضر؟

- قالت اعتدال فى حماس

ـ بشرفك يا نعمان بك .. إنها قادمة فى الطريق!

ـ أرجوك الأ تقسمى بشرفى!

ـ إذن أقسم بشرفى أنا!

ـ شرفك أنت مثل شرفى أنا!

ـ إذن أقسم لك برأس الست نشوى!

ـ هذا فعلا قسم مصدق!

ـ إنها فى الطريق إلى هنا:

ممكن أن تكون فى الطريق إلى هنا وتصل بعد أربعة أيام: كأن تكون فى أوربا مثلا: وممكن أن تكون فى الاسكندرية وتصل بعد ثلاث ساعات: وممكن..

إنها ليست فى أوربا، وليست فى الأسكندرية، إنها فى مصر فى صالة بديعة.

ـ ولكن المسافة بين صالة بديعة فى ميدان الأوبرا وبين هذا البيت فى جاردن سيتى هى خمس دقائق فى التاكسى، وعشر دقائق فى العربة الحانطور ونصف ساعة مشيا على الأقدام. وقد مضى على ثلاث ساعات وأنت تقولين لى الست فى الطريق!

ـ ولماذا نسيت أن تذكر المسافة التى تستغرقها عربة كارو؟

ـ أنا لا أحب الهزار يا اعتدال!

ـ وهل يعيبك أنك ملك العربات الكارو فى مصر؟ أنا وحياتك أفضل ركوب العربة الكارو على السيارة الرولز رويس:

ـ الله يحفظك يا اعتدال!

ـ إن العربة الكارو تحرك عاطفة المرأة. إنها تهز المرأة أكثر مما تهزها زجاجة ويسكى كاملة!

ـ ربما لو ركبت نشوى عربة كارو لرق قلبها!

ـ إن قلب الست نشوى ابيض مثل اللبن الحليب!

ـ ولكنى لم أذق قطرة من هذا اللبن!

ـ أنت رجل متعجل جدا يانعمان بك!

ـ إننى أفتح لها فى الصالة منذ شهر!

ـ إن الحب الصحيح هو الذى يركب عربة كارو... أما الحب الذى يركب طيارة فهو الحب الطيارى!

ـ لو كنت أركب عربة كارو لكنت وصلت منذ زمن طويل!

ـ بشرفك يانعمان بك إنها قالت لى اليوم فقط أن نعمان هـو أول رجـل حقيقى عرفته فى حياتها!

ـ قلت لك أرجوك الا تقسمى بشرف!

ـ إذن بشرف ست نشوى!

ـ العن!

* * *

ودق جرس الباب، وقطعت اعتدال حديثها الهامس مع نعمان بك. وقالت:

ـ إنها الست.. وسوف تخبرك بنفسها!

وأسرعت تعدو إلى الباب. ولم تدخل نشوى، إنما دخل شاب أنيق طـويل القامة، أشقر الشعر، أنيق الملبس، حلو الصورة، قـال وهـو يـرفع يـده بالتحية!

ـ السلام عليكم.

ولم يرد أحد من الجالسين التحية، وتظاهر كل واحد منهم بأنه يهمس فى أذن الجالس بجواره. وعاد الشاب الانيق يقول:

ـ السلام عليكم.

ولم يرد أحد. كأنهم يصرون على تجاهله. واتخذ مقعدا بجوار موسى بك بائع ورق التواليت، وقال بصوت عال!

ـ أهلا موسى بك!

وهز موسى بك رأسه ولم يقل شيئا!

والتفت الشاب الانيق إلى الجالسين، وراح يحيى كل واحد منهم برأسه، وهم يتمتمون أو يهزون رؤوسهم، أو لا يجيبون على الاطلاق..

ودهشت قسمت لهذه المقابلة الباردة التى أجمع عليها جميع الجالسين. ولم يظهر على الشاب الأنيق أنه فوجئ بهذا اللقاء الجاف وكأنه متعود عليه، ونظر إلى ساعته وقال:

ـ نونو.. ستحضر حالا!

وتوقعت قسمت ان الجالسين سوف يسعدون بهذه البشرى السارة ولكنهم أطبقوا أفواهم، كأن وجود الشاب الأنيق نكد عليهم حياتهم جميعا!

وتطلعت قسمت إلى وجوههم الصامتة، ورؤوسهم المنكسة، وأحست بأن كل الجالسين يحبون الراقصة ويكرهون بعضهم البعض ولكنهم يمقتون هذا الشاب الأنيق أكثر مما يمقتون بعضهم بعضا.

ومال نعمان بك ملك العربات الكارو، الذى كان يجلس إلى جوار قسمت، على رجل أشيب، تبدو عليه العصبية من طريقة تدخينه لسجارته. وقال له هامسا:

ـ إذا جاءت الشياطين هربت الملائكة!

ـ وهل نحن جميعا ملائكة؟

ـ طبعا نحن ملائكة بالنسبة لهذا الشيطان!

ـ لأنه يستمتع باللحم.. ونحن لا نذوق سوى المرق!

ـ بل لأننا نحن ندفع.. وهو يقبض!

ـ هل تظن أنه البنك الذى تضع فيه نشوى اموالها؟

ـ إن قماش البذلة التى يرتديها أنا الذى أهديته لنشوى لتصنع منه (تايير)!

ـ الساعة التى فى يده هى التى أهداها موسى بك لنشوى!

ـ إن لحم أكتافه من أموالنا!

ـ وهو صفيق لايخجل من أن امرأة تنفق عليه!

ـ ألم تلاحظ أنه يتصرف وكأنه صاحب البيت؟

ـ إنه دق الجرس عند قدومه ..ومعنى ذلك أن نشوى لم تعطه المفتاح!

ـ ما يدريك أن هذه حركة قصد منها أن نفهم ما فهمته؟ إذا لم يكن معه مفتاح الشقة.. فلا بد أن معه مفتاح الغرفة الأخرى!

ـ أراهن أنها بلا مفتاح!

ـ لأنها لا تريد أن تضيع الوقت فى قفل الباب وفتحه!

ـ كم مضى عليك تفتح لها فى الصالة!

ـ ستة أشهر!

ـ ولم تدخل الغرفة بعد؟!

ـ لم أدخل ألا هذا الصالون!

ـ لقد مضى على شهر أفتح لها وأشعر أنني لا أستطيع أن أصبر أكثر مما صبرت!

ـ إنها تستغل أننا نحبها!

ـ إنني أشعر برغبة بأن أمسك هذا الشاب المخنث (أسامة) من يديه ورجليه وألقيه من نافذة الدور السادس!

انك تقرأ أفكارى!

ـ لماذا لا نثور عليها إنها تستغل سكوتنا، إنها تلهو بنا جميعا، تضرب كل واحد منا بالآخر، لو أننا اتفقنا كلنا عليها لما استطاعت أن تفعل بنا كل ما تفعله. ولكنها توهم كل واحد منا أنها تحبه وهى لا تحب أحدا!

ـ إنها تحب أسامة!

ـ ولا أسامة! إنها تحب نفسها فقط!

ـ إنها ليست مسئوليتها إنما هى مسئولية المغفلين الذين يصدقونها!

ـ اننى انفقت عليها حتى الآن ثلثمائة جنيه!

ـ وأنا انفقت خمسمائة جنيه.

ـ فى شهر واحد؟

ـ فى ٢٩ يوما!

ـ نحن مغفلون فعلا !

ـ نحن الصعيدى الذى اشترى الترام !

ـ المدهش أنها هى الصعيدية.. وكأنها تنتقم من أهل القاهرة الذين باعوا الترام للصعيدى.. وتسترد المال الذى فقده كل مغفل جاء إلى القاهرة من الصعيد !

ـ ولكنهم يقولون إن والدها هو عبده باشا صاحب ميدان عبده باشا فى العباسية !

ـ وأمها من الصعيد !

ـ يظهر أن أباها اشترى الترام عندما تزوج أمها !

ـ إن هذا هو آخر يوم أدخل فيه هذا البيت يا نعمان بك.

ـ وهذه آخر مرة أذهب فيها إلى صالة بديعة يا مرتضى بك.

وشعرت قسمت أن الثورة إنتشرت فى الصالون ! كان دخول الشاب الانيق أسامة حرك النخوة فجأة فى العشاق العشرة. بدأ كل واحد منهم يخرج ساعته الذهبية ويفتحها وينظر إليها ويحتقن وجهه، ويغلقها، ثم يضعها فى جيبه فى غضب. علوى بك يضغط على شفته وكأنه يعض أسنانه. مرتضى بك العصبى تضاعف عدد المرات التى يهز فيها ساقيه فى الثانية الواحدة ! نعمان بك وضع أصبعه فى فمه وراح يقضم أظافره. موسى بك راح يدق الأرض بقدمه. ورجل خامس يشبه الكرنبة يلعب بعصبية فى عقدة رباط رقبته. وسادس بدأ يهرش فى رأسه بهدوء، ثم زاخ يهرشه بعنف، وكأنه يشد شعره. وسابع له وجه خنزير وقد أخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة ولكنها فى مجموعها لعنات على اليوم الأسود الذى ذهب فيه إلى الصالة وعرف

الراقصة نشوى. وثامن عجوز يسعل باستمرار، وقد بدا عليه قرف عجيب، كأنه تحول فجأة إلى تمثال لرجل قرفان، فى بيت ليس فيه ليمونة واحدة. وتاسع وعاشر يتهامسان فى حدة، والشرر يتاطير من عيونهما.

وأحست قسمت بأنها تشهد مولد ثورة فى صالون الراقصة نشوى. المعجبون افاقوا فجأة من النشوة، وتبينوا أن خمر هذه الراقصة هى خمر مغشوشة ! وأسعدها أنها ستشهد مصرع شاهدة الاثبات ضد عم عبده. إنها رأت فى وجوههم جميعا كأنهم اكتشفوا خداعها، وعرفوا تضليلها، وتبينوا زيفها.. وأنهم جميعا يحملون شيكات بلا رصيد.. شيكات على بنك وضعه الشاب المخنث أسامة تحت الحراسة، وعين نفسه حارسا على أموال الاعداء، وناظرا للوقف له الشروط العشرة دون سواه !
وأن فى وجودهم سخطا مكتوما، ويخارا محبوسا يستعد للانفجار، وتمردا على واقع قبلوه على مضض.

كل واحد منهم كان يتصور أنه يلعب الدور الأول على مسرح نشوى ولكن ظهور الشاب المخنث أسامة على المسرح، وتأخرها فى الحضور جعلهم يحسون بأنهم يقومون بدور (الكومبارس). إنهم الاصفار على يمين العدد الذى تضاعفت قيمته.. إنهم المغفلون الذين تستغلهم الراقصة كل ليلة، وتسرق ما فى جيوبهم، لتملأ بها جيوب الشاب المخنث الرقيع الذى فضلته عليهم جميعا.

ونقلت قسمت عينيها بين الثائرين العشرة، لتعرف من منهم الذى سيتولى الثورة ضد الملكة الغانية ورأت فى قسمات وجوههم أن كلا منهم ثائر، غاضب، يستعد للانقضاض !

* * *

ودق جرس الباب.. ثم دخلت الراقصة نشوى، وعلى شفتيها ابتسامة فاجرة، وفوجئت قسمت بالثوار العشرة يتخاذلون ويتضاءلون ويتسابقون إلى تحيتها، وتقبيل يدها، وتهنئتها بسلامة الوصول!

وقالت نشوى بصوت يذوب دلالا:

ـ تأخرت عليكم؟

وصاح العشاق العشرة فى وقت واحد: أبدا.. أبدا!

كأنهم يرددون هتافا متفقا عليه، وكأنهم جميعا لم يصلوا إلى بيت نشوى إلا قبل وصولها بدقيقة واحدة!

وقال مرتضى بك الذى قال من دقائق إن هذه آخر مرة يدخل فيها هذا البيت:

ـ اننى كنت مستعدا أن انتظرك إلى الصباح يا نشوى!

وقال نعمان بك:

ـ لم أفهم أغنية أم كلثوم التى تقول (أنا فى انتظارك)!

أنا فى انتظارك خليت!
نارى فى ضلوعى وحطيت!
ايدى على خدى وعديت!
بالثانية غيابك ولا جيت!

واحتج موسى بك وقال:

ـ إن أم كلثوم تقول بعد ذلك (ياريتنى عمرى ما جيت) هل معنى ذلك أنك تندم يا نعمان بك على حب نشوى؟

وصرخ نعمان بك:

ـ ابعد عنى يا موسى بك! أنت تريد بأى ثمن أن تـدس بينـى وبيـن نشوى.. إننى ندمت على اننى اضعت السنوات الكثيرة من حياتى لاننى لم أحب نشوى قبل الآن!

واعتقد الرجل الذى له وجه يشبه الخنزير أن هذه فرصته ليذبح موسى بك باعتباره أخطر العشاق، لانه يحتكر ورق التواليت فقال:

ـ انت اعترفت الآن بانك لم تفهم أغنية (أنا فى انتظارك) إلا وأنت تنتظر نشوى. معنى ذلك أن الأغنية تنطبق على شعورك ساعة الانتظار!

إن أم كلثوم تقول فى آخر أغنيتها:

تواعدنى سنين وأيام
وتجينى بحجج وكلام!
وتسلم وتمر قوام
أو تخلف، وتقول لى نسيت!

وانطلق موسى بك نحو نشوى يقول لها متوسلا:

ـ هذه مؤامرة ضدى! هذه دسيسة! كلهم يغارون منى!
أنا لم يخطر ببالى أبدا هذا الكلام الذى تقوله أم كلثوم.

ـ ولكنك قلت انك لم تفهم أغنية (أنا فى انتظارك) إلا اليوم،

ـ اختلط على الأمر! أنا لا اقصد أغنية (أنا فى انتظارك) أنـا أقصـد أغنية «الاهات».

ـ هذا العن! أن أم كلثوم تقول فى هذه الأغنيـة (يـا اللـى أسست

وهديت).؟ يا اللى عمرت وأخليت) !

وتدخل علوى بك وقال :

ـ يا نهار أسود ! تجرؤ وتقول لست نشوى (يا اللى أسست وهــديت) ؟ انت رجل مقاول مبان.. وتعرف معنى هذا الكلام الخطير !

وشعر موسى بك بأن العشاق التسعة تجمعوا عليه، يحاولون الوقيعة بينه وبين نشوى. لابد أنهم يموتون كمدا وحسدا منه عندما سـمعوا الخــادمة اعتدال تقول إن نشوى تذكره كلما دخلت التواليت !

وقطع الشاب المخنث أسامة سيل الاتهامات الموجهة إلى مـوسى بــك، وقال :

ـ انت تأخرت فعلا يا نونو.. لقد قلت انك ستكونين فى البيــت الســاعة الثالثة بعد الظهر والآن الساعة الثالثة وخمس دقائق !

ونزلت هذه الجملة كالصاعقة على العشاق العشرة ونسوا الخلاف الذى بينهم ! وتذكر موسى بك أن نشوى حددت له الساعة العاشرة وتذكر علوى بك أنها حددت له العاشرة والنصف وتذكر مرتضى بك أنها حددت لــه الســاعة الحادية عشرة. وتذكر نعمان بك أن موعده كان الحــادية عشرة والنصــف وتذكر كرنبة بك ـ أى الرجل الذى يشبه الكرنبة ـ أن نشوى حددت لــه الساعة الثانية عشرة ظهرا تماما.

إذن فهى قد خدعتهم جميعا ! لطعتهم جميعا ! تركتهم ينتــظرونها عــدة ساعات. جعلتهم يعلنون رضاءهم عن هذا التأخير والاهمال !

أما الرقيع أسامة فهو وحده الذى كان يعلم الموعد الحقيقى لعودتها إلى بيتها، وهو يلومها لأنها تأخرت خمس دقائق !

وأحست نشوى بذكائها أن وجود أسامة فى الصالون يسمم الجو على عشاقها، فقالت له بلهجة آمرة، وهى تخرج خمسة جنيهات من حقيبة يدها، وتعطيها إياه!

ـ أسامة اذهب إلى جروبى وأحضر لى دستة جاتوه.. أننى أريد أن اتغذى اليوم جاتوه..

وصدع أسامة بالأمر وخرج،

وتنفس الموجودون الصعداء كأن حجرا ثقيلا كان يضغط على قلب كل واحد منهم. وتولت نشوى ازاحته!

وبدأوا من جديد يهاجمون موسى بك تاجر أوراق التواليت!

كل هذا ولم تشعر نشوى بأن قسمت فى الغرفة. فقد أحاط العشاق بنشوى يغمرونها بكلمات الملق والمديح والاعجاب..

والتفتت نشوى نحو قسمت وقالت فى دهشة:

ـ انت هنا يا قسمت هانم؟! اننى لم أرك!

وأقبلت عليها تصافحها بشوق وتقول:

ـ لابد أنك جئت بشأن فرح.

ـ لا، بشأن مأتم!

ـ مأتم؟.. هل أصبحت الراقصات تحيى المآتم الآن؟

ـ إنها وصية الفقيد.. وأنا مضطره أن انفذها!

ـ هل طلب فى وصيته أن أحيى أنا مأتمه؟

ـ أنت دون سواك!

ـ لست أفهم.

ـ إنها قصة طويلة أحب أن اتحدث معك فيها على انفراد!

ـ إذن، انتظرى حتى انتهى من الزبائن!

وضحكت نشوى وقالت للعشاق المنتظرين:

ـ سأتحدث فى التليفون وأعود اليكم فورا!

* * *

وجلس العشاق العشرة ينتظرون. ضحكات وبسمات الراقصة خدرتهم جميعا. تحول الثوار الغاضبون إلى مستسلمين راضين. تاجر ورق التواليت راح يمسح حذاءه فى بنطلونه كما يفعل التلاميذ عند حضور ناظر المدرسة. علوى بك أخرج مشطا من جيبه وراح يسرح شعر رأسه. كرنبه بك نظر إلى منديله الذى يتدلى من جيب جاكتته اليسرى، وضاعف من المساحة التى تتدلى من المنديل الخارج من الجيب. نعمان بك عدل الجبة التى يرتديها وراح ينفضها من رماد السيجارة الذى سقط عليها.

كل واحد من العشرة كان يتهيأ لموعد الغرام. كل واحد منهم نسى فى هذه اللحظات أن له تسعة شركاء آخرين، وأن العاشر سيجىء بعد وقت قليل يحمل دستة جاتوه من جروبى. كأن الراقصة عندما صافحت كل واحد منهم قالت له كلمة سر! كأنها قالت لكل واحد منهم أنه وحده هو الذى سينتظر وأن الباقين سينصرفون!

وعجبت قسمت لبراعة نشوى، لقدرتها العجيبة على استغفال الرجال،

لانها استطاعت أن تستقبل عشرة عشاق فى وقت واحد، وتوهم كل واحد منهم أنه الحبيب الوحيد!

وبعد دقائق أقبلت الخادمة اعتدال وهمست فى أذن الرجل الذى يشبه الخنزير همسة، سمعها الموجودون الذين صمتوا جميعا عندما دخلت الصالون، سمعوها تقول له:

ـ عونى بك.. يطلبونك فى التليفون!

وقفز عونى بك من مقعده، وخرج من الغرفة! وأخرج مرتضى بك ساعته من جيبه. وكأنه يريد أن يحسب طول المحادثة التليفونية، وهل هى ثلاث دقائق.. أم أنها مكالمة خارجية!

وتغامز الجالسون. لقد فهموا على الفور أن التليفون الذى يطلب عونى بك الخنزير هو نشوى بنفسها! لماذا بدأت به؟! إنه ليس الأكبر سنا، وليس الاكثر ثروة، وليس الاكثر «فتحا» لزجاجات الشامبانيا فى الصالة. إنه أقبحهم خلقة وأحقرهم مظهرا.

وتضايق موسى بك من أن الخنزير كان أول الذين يتشرفون بالمقابلة السنية. إنه هو الذى قال على لسانه أغنية أم كلثوم «أنا فى انتظارك» التى تقول فيها «تواعدنى بسنين وأيام.. وتجينى بحجج وكلام»! انه لاحظ أن نشوى ضحكت من كل قلبها وهى تسمع دعابة الخنزير الثقيلة. هل أعجبتها خفة دمه؟ هل هى تريد أن تغيظ موسى بك بأن تبدأ باستقبال الخنزير دون الجالسين جميعا؟

وبعد دقائق رأوا عونى بك يمر أمامهم، فى طريقه إلى باب الشقة، كأن ماشيا يترنح. كأنه لم يشرب لأول مرة الويسكى المغشوش!

وامتلأت وجوه العشاق التسعة بالكآبة. وتصور كل واحد منهم بخياله ماذا كانت المحادثة التليفونية التى جرت بين الخنزير بك وبين الراقصة نشوى! المتشائمون ظنوا أنه صبر وظفر ونال المنى. والمتفائلون ظنوا أنها أعطته موعدا الليلة! والواقعيون اعتقدوا أنه سعيد كل هذه السعادة لانه لم يدفع شيئا!

ثم دخلت الخادمة اعتدال ودعت نعمان بك، وامتلأ وجه نعمان بك بالسعادة والهناء عندما قال فى خبث: تليفون؟

قالت الخادمة اعتدال!

ـ لا.. أن سائق سيارتك يريد أن يكلمك!

وخرج نعمان بك صاحب العربات الكارو منطلقا بسرعة تاكسى!

ولاحظ مرتضى بك أن الحديث طال ومضت ثلاث دقائق، وست دقائق وعشر دقائق، ولم يظهر نعمان بك.

وضحك مرتضى بك ضحكة ساخرة وقال:

ـ يظهر أن سائق سيارة نعمان بك يفأفئ فى الكلام!

ـ ان نعمان بك بطىء فى الكلام مثل عرباته الكارو!

ـ لا تنسوا أن نعمان بك بدأ حياته عربجيا!

ـ أخشى أن «يسوق» فيها!

وضج الحاضرون بالضحك، ثم رأوا نعمان بك وهو يمشى أمامهم فى الصالة فى طريقه إلى الباب الخارجى يخب فى جبته وقفطانه، ثم يتوقف أمام باب الصالون ويرفع يده بالتحية قائلا!

ـ تصبحوا على خير!

ووجم الجالسون ماذا يقصد نعمان بجملة «تصبحوا على خير؟» لعله يقصد أنه بقى مع الراقصة من العصر حتى المساء! لعله أراد أن يسخر منهم! إنه يبدو سعيدا هنيئا كأنه طاف العالم مع نشوى فوق عربة كارو!

ورأت قسمت الخادمة اعتدال، وهى تستدعى العشاق واحدا واحدا، وكل واحد منهم يبقى دقائق مع نشوى، ثم ينصرف وهو يكاد يطير من الفرح! وامتلأت قسمت بشعور الفضول. كانت تريد أن تعرف ماذا تفعل نشوى أو تقول خلال هذه الدقائق، ما هى الكلمة السحرية التى تحول هؤلاء الاغبياء المغفلين إلى منتشين، فرحين، سعداء! كأنها تحقنهم بحقنة أفيون.. أو كأنها تعطيهم نفسا من سيجارة حشيش!

وتصورت قسمت كأنها جالسة فى عيادة طبيب مشهور. هؤلاء العشاق هم الزبائن. الخنزير بك ونعمان بك دفعا أجر كشف خاص، فدخلا قبل غيرهما، والخادمة اعتدال هى الممرض الذى يخدر المرضى، والراقصة نشوى هى التى تكتب الدواء!

ولكن ما هو هذا الدواء العجيب سريع المفعول الذى يحول المرضى إلى أصحاء!

وبعد ساعة كاملة كانت نشوى انتهت من الكشف على العشاق العشرة، وأرسلت فى استدعاء قسمت..

واستقبلتها نشوى فى غرفة النوم، وقد أرتدت قميص نوم يكشف عن مفاتنها! وما كادت نشوى تراها حتى تقدمت إلى قسمت تحاول أن تقبلها!

وتراجعت قسمت إلى الوراء!

وقالت لها نشوى وهى تضحك!

ـ من كثرة ما أعطيت اليوم من قبلات.. وجدت نفسى أحـاول أن أقبلك أنت أيضا!

وابتسمت قسمت وقالت:

ـ إن هذا يذكرنى بما حدث مرة للدكتور عبد العزيز اسـماعيل بـاشا الطبيب الباطنى المشهور. إن من عادته كلما رأى مريضا أن يقول له: اخلع ملابسك؟ ثم يتركه فى غرفة، ويذهب إلى غرفة أخرى ليكشف، على مـريض آخر، وعندما ينتهى منه يعود للمريض الذى خلع ملابسه ويـكشف عليـه! ويتركه ليرتدى ملابسه، ويدخل غرفة ثالثة فى العيادة ويطلب من المـريض الثالث أن يخلع ملابسه وهكذا!.. وذات مرة رأى رجلا فى العيادة فقال لـه: إخلع ملابسك!

قال الرجل: ولكن..

قال الدكتور: لا تقل «ولكن».. أخلع ملابسك فورا!

وتركه الدكتور عبد العزيز إسماعيل فى الغرفة يخلع ملابسه وذهب يكشف على مريض آخر، ثم عاد إليه فوجده عاريا، فسأله:

ـ ماذا عندك؟

ـ عندى تلغراف!

ـ تلغراف!

ـ نعم اننى عامل التلغراف جئت أسلمك برقية!

ـ لماذا لم تقل لى هذا؟

ـ أنت لم تترك لى فرصة لاتكلم، أصررت أن أخلع ملابسى فخلعتها.

وضحكت نشوى وقالت :

ـ ولكنى لا أطلب من زبائنى أن يفقدوا عقولهم !

ـ لعلك تكتفين بفقد عقلك !

ـ أنا لم أفقد عقلى مع واحد منهم !

ـ ولكنى رأيتهم يخرجون من عندك كالسكارى !

ـ إن دخولهم عندى يساوى نصف زجاجة الويسكى !

ـ والنصف الآخر؟

ـ أقبلهم قبلة خاطفة !

ـ هل هذا وحده هو الذى يسكرهم؟

ـ واشتم فى التسعة الباقين.. وأقول إنهُم ثقلاء.. ولولا وجودهم لاستمتعنا بوقت طيب !

ـ ولا شىء غير هذا؟

ـ لا شىء أبدا !

ـ إنك امرأة خطيرة !

ـ ان قلبى طيب !

ـ انك تبيعين قلبك للمشترين!

ـ اننى أبيع قصورا فى الجنة

ـ ولهذا تدخلين الزبائن إلى النار!

ـ لذة الرجل فى العذاب.

ـ عذاب الانتظار؟

ـ لذتهم الكبرى أن يقفوا أمام باب القصر ويتزاحمون!

ـ ومتى تسمحين لهم بالدخول؟

ـ عندما يموتون!

ـ كنت مثلك أكره الرجال! ولكن بعد أن عرفتهم أصبحت أعتقد أنهم لا يستحقون هذا التعذيب!

ـ أنا لا أكرههم. على العكس اننى أحبهم. ومن كثرة حبى لهم. لا أحبهم إلا بالجملة!

ـ ولهذا تأخذين ما فى جيوبهم بالقطاعى!

ـ أنا لا أضع يدى فى جيب الرجل أبدا.

ـ هو الذى يضع جيبه فى يدك!

ـ الرجل يدفع بسخاء للمرأة التى لا تطلب منه أن يدفع، ويساوم المرأة التى تطلب منه شيئا!

ـ إنك أستاذة فى علم الرجال!

ـ الرجال هم الذين علمونى كيف أعاملهم! إذا أعطتهم المرأة كل شىء لا يعطونها شيئا! وإذا لم تعطهم شيئا، أعطوها كل شىء؟.. وكل الذين رأيتهم عندى اليوم أعطونى كل شىء دون أن اطلب منهم أى شىء، أو أعطى أحدا منهم كل شىء!

ـ أظن أن سر المهنة يمنعك أن تقولى كم ربحت فى هذه الساعة؟

ـ ألف جنيه!

ـ الف جنيه فى ساعة واحدة؟! إن الكاتب العالمى برنارد شو يتقاضى خمسين جنيها فى الساعة!

عمر الكاتب مائة سنة، وعمر الراقصة خمس سنوات فقط!

ـ يبدو أنك تحبين المال!

ـ المال لا يهمنى!

ـ مادمت لست فى حاجة إلى المال، فلماذا ترتكبين جريمة من أجل الحصول على المال؟

ـ جريمة؟ أى جريمة؟

ـ لهذا جئت لمقابلتك. لاحدثك فى شأن شهادة زور أدليت بها من أجل المال!

ـ أنا لا يمكن أن أشهد زورا، ولو بمليون جنيه.

ـ ولكنك شهدت زورا ضد رجل برىء اسمه عبده، وقلت إنه أبلغك أنه يعمل لحساب الالمان!

ـ هذه ليست شهادة زور. إنها شهادة حق املاها ضميرى!

ـ إنها كذب!

ـ اننى لا أكذب! اننى معروفة باننى امرأة صادقة!

ـ انت تكذبين على عشاقك!

ـ هذا ليس كذبا ! الكذب هو من صفات العشاق !

ـ ولكن هذا الذى كذبت عليه ليس عشيقك !

ـ كان عشيقى !

ـ إنه لم يرك إلا مرتين فقط فى حياته.. وفى الشارع !

ـ عندما يقول الرجل أنه رأى امرأة مرتين.. فمعنى ذلك انه عرفها طوال حياته !

ـ اننى اعتقد أن الحكومة هى التى جعلتك تـؤدين هـذه الشـهادة الكاذبة !

ـ أنا لا تهمنى الحكومة ! اننى لبيت أمر ضميرى ! اننى لا أعرف أحدا من رجال الحكومة !

ـ وهنا دخلت الخادمة اعتدال وقالت :

ـ الصاغ عبد الفتاح الشبهاوى فى الصالون!

وبدأ على الراقصة نشوى الارتباك ! اصفر وجهها. تلعثمت فى الحـديث، ومدت يدها إلى قسمت تودعها ورفضت قسمت أن تمد يدها !

وقالت قسمت ساخرة :

ـ اننى أتركك الآن.. لضميرك !

ـ ضميرى ؟

ـ نعم اننى أصبحت أعرف اسم ضميرك ! اسمه الصاغ عبـد الفتـاح الشبهاوى.. الضابط فى القسم السياسى. المتخصص فى تلفيـق القضـايا السياسية الكبرى !!

الفصل الثلاثون

اسرعت الراقصة نشوى، تبدل قميص نومها الوردى، وارتدت قميص نوم من «الشيفون ترجال» الابيض، المطرز بالترتر الفضى الكبير، انه اغلى قميص نوم عندها. تحتفظ به لمقابلة الحكام والناس العظام!

انه القميص الحادى عشر الذى ترتديه اليوم! لقد حرصت أن تقابل كل واحد من زبائنها بقميص نوم بلون مختلف، حتى إذا ثرثر واحد منهم أمام الآخر بأن نشوى قابلته بقميص نوم مشجر، عرف أنه يكذب لان نشوى استقبلته بقميص نوم سادة! وهكذا يتصور كل واحد من العشاق العشرة، أنه وحده، دون سواه الذى استقبلته نشوى بقميص النوم!

وهزت نشوى رأسها، وهى تقف أمام المرآة، وقالت وهى تحدث المرآة وتضحك: أنها احتياطات ضرورية، للمحافظة على سمعتها، فسمعتها هى رأس مالها!

وفكت شعرها الاسود الطويل، ومشطته بمشط فضى، وانسدل على ظهرها شبه العارى، كما ينسدل ستار الماضى على ذكريات جميلة!

واختارت أغلى عطر عندها، وراحت تسكبه تحت كتفيها، وعلى صدرها، وفى ثنايا شعرها.. ثم استدعت خادمتها اعتدال وقالت لها

هامسة، وهي في طريقها إلى الصالون:

ـ عندما يجيء اسامة قولي له انني خرجت.. ان لدي موعدا هاما يمكنه ان يحضر إلى الصالة بعد منتصف الليل..

ودخلت إلى الصالون وكأنها ترقص ... وما كادت ترى الصاغ عبد الفتاح الشبهاوي بقامته المديدة، وشاربه الصغير، ونظراته التي تشبه نظرات الصقر، حتى اندفعت إليه وقد فتحت ذراعيها، وارتمت تقبله وتعانقه في لهفة وشوق.

وجلسا في أريكة واسعة، ومدت نشوى ذراعها وأحاطت بها الشبهاوي الذي قال في جفاء:

ـ من كان هنا؟

ـ آنسة اسمها قسمت شاهين. سكرتيرة جمعية ملجأ المتسولين.

ـ لا أقصد الآنسات والسيدات.. أقصد الرجال!

ـ لا أحد...

ـ كان هنا حوالي عشرة رجال!

ـ أنهم رجال التخت!

ـ لم يكونوا من رجال التخت!

ـ هل تضعني تحت المراقبة؟

ـ ان نوع السجائر التي في منافض السجائر من نوع أرقى كثيرا مما يدخنه رجال التخت! في المنافض بقايا سجائر لاكي سترايك، وسجائر

شستر فيلد، وسجائر كاميل.. وهذه انواع لا يعرفها رجال التخت!

ـ انهم، كما تعلم، يأخذون سجائر من كل نوع من زبائن الصالة

ـ رجال الفرق الموسيقية عندنا يدخنون سجائر سمسون!

ـ أنت تتهمنى فى الوقت الذى كنت ادافع فيه عنك!

ـ من كان يشتمنى؟!

ـ كانت هنا قسمت شاهين ولامتنى لاننى سأشهد فى قضية العميل الالمانى!

ـ وكيف عرفت أنك سوف تشهدين؟ اننى امرت بحذف اسمك من الجريدة!!

ـ لا أعرف كيف عرفت!

ـ وما الذى جاء باسمى فى هذا الموضوع؟

ـ لا أعرف.. وانما هى قالت لى انها تعلم أن هذه قضية لفقها الصاغ عبد الفتاح الشبهاوى!

ـ سأقطع لسانها!

ـ وقالت ان الرجل مظلوم!

ـ لابد انها عضو فى العصابة.. ان هذه معلومات سوف تفيدنا كثيرا فى القضية!

ـ اننى بصراحة خائفة من شهادة الزور هذه.

ـ من قال أنها شهادة زور؟! انها قضية مضبوطة مائة فى المائة. كل

ما هناك انك ستقولين المعلومات التى تأكدنا منها بانفسنا...

ــ ولكنى لا أعرف هذا الرجل!

ــ هذا غير مهم!

ــ وماذا يحدث اذا جاء امام المحكمة .. ووضعه القاضى بين عدد من الناس .. وطلب منى أن أخرج لهم عبده هذا؟

ــ ان كل هذا حسبنا حسابه!

ــ ماذا افعل عندئذ؟

ــ ساجىء لك بصورة فوتوغرافية للمتهم!

ــ الصورة لا تكفى.

ــ ساجىء لك بجميع اوصاف المتهم وهو عار من ملابسه! فإذا انكر انه يعرفك قلت للمحكمة ان فى جسمه توجد علامات مميزة.. توجد مثلا أثار جرح قديم طوله اربعة سنتيمترات تحت الصرة! وعندئذ سيطلب منه القاضى ان يخلع ملابسه.. فيجد الجرح فى المكان الذى حددته!

ــ ولكن هذه الحكاية سوف تهدمنى أمام الناس!

ــ لقد وعدتك بالا يعرف احد بأمر شهادتك. وان الرقابة ستمنع ذكر اسمك.

ــ ولكن قسمت شاهين عرفت اننى شاهدة اثبات!

ــ سوف نضعها فى السجن.. ونعلمها الا تفتح فمها!

ــ اننى خائفة يا عبد الفتاح!

ـ كنت اتصور اننى سأتزوج امرأة شجاعة!

ـ لماذا لا تتزوجنى الآن ؟

ـ قلت ان زواجى الآن يضر بالقضية! سوف يقول المحامون ان شاهدة الاثبات الوحيدة هى زوجة ضابط فى البوليس السياسى!

ـ وسوف يقولون هذا بعد الحكم!

ـ بعد الحكم لن يجرؤ احد ان يفتح فمه!

ـ وماذا لو حكموا ببراءة هذا الرجل؟

ـ لن يجرؤ اى قاض على الحكم فى هذه القضية بالبراءة. أنها قضية امن الدولة. قضية تهم الحكومة كلها. لقد وعدنى اللواء رسل باشا الحكمدار بأن يرقينى ترقية استثنائية بعد الحكم..

ـ اننى اخاف أن ينهال على المحامون بالاسئلة!

ـ اننا اخترناك لانك اذكى راقصة .. لا اجمل راقصة فقط؟ ثم ان المحامين لن يجرؤوا على أن يفتحوا أفواههم عندما نفاجئهم باعتراف المتهم!

ـ لكن قسمت تقول أنه لم يعترف!

ـ والمتهم نفسه لا يعرف انه اعترف!

ـ كيف لا يعرف؟

ـ لقد قال فى التحقيق جملة كفيلة بأن تضع رأسه فى المشنقة!

ـ ماذا قال؟

ـ قال ان هدفى هو خيانة الوطن!

ـ هل قال ذلك فعلا؟

ـ أنه لم يقل ذلك بالضبط.. قال «أن هدفى هو صيانة الوطن» واتفقنا مع كاتب التحقيق على أن يغير كلمة «صيانة» بكلمة «خيانة».. تغيير حرف واحد فى التحقيق! ولكن حرف الصاد الذى تحول إلى حرف «الخاء» خرب بيت المتهم!

ـ انك عبقرى فى التزييف!

ـ ليس هذا تزييفا.. هو وضع النقاط فوق الحروف! عندما يفعل واحد من الشعب هذا يسمونه تزييفا أو تزويرا.. ولكن عندما تفعله الدولة فإنما هى تحمى الوطن؟

ـ ولكن الجريمة واحدة!

ـ ابدا.. الجريمة تختلف باختلاف مرتكبيها.. عندما يضع رجل يده فى جيب رجل آخر ويأخذ ما فى جيبه من نقود يسمى القانون هذا الفعل «سرقة» أو «نشلا»! ولكن عندما تضع الحكومة يدها فى جيب المواطن وتأخذ ما فيه فهذه اسمها «ضرائب».. وعندما يضرب مواطن مواطنا آخر فهذه جريمة اعتداء على حياة مواطن، ولكن عندما أضرب أنا هذا المواطن فهذا عمل مقصود به المحافظة على الامن العام! وعندما يفتح مواطن خطاب مواطن آخر، أو يتجسس على احاديثه التليفونية، فالقانون يعتبره مجرما يعتدى على حقوق المواطنين، ولكن عندما ترتكب الحكومة نفس الشىء فهى تحرص على سلامة الدولة! وعندما يرفع تاجر سعر اللحم مليما فهو مجرم يتلاعب بالاسعار، وعندما ترفع الحكومة ثمن علبة

السجائر خمسة قروش فهى توازن الميزانية ! الجرائم كلها مباحة عندما ترتكبها الحكومة وهى كلها ممنوعة ومعاقب عليها عندما يرتكبها الشعب !

ـ ما أجمل أن يكون الانسان هو الحكومة !

ـ ستكونين الحكومة عندما نتزوج !

ـ أى زبون فى الصالة يرفض أن يدفع الحساب فهو يسرق أموال الحكومة !

ـ طبعا !

ـ وأى راقصة تشتمنى تكون بذلك تشتم الحكومة !

ـ ونقبض عليها.. ونضعها فى السجن !

ـ وماذا نفعل لو قلدتنى جميع الراقصات وتزوجن من ضباط بوليس؟

ـ ليس كل ضباط بوليس هو الحكومة ! صاحب النفوذ فقط هو الحكومة.. فى مصر عشرة آلاف ضابط بوليس.. ولكن فيهم عشرة فقط من أصحاب النفوذ !

ـ انت واحد منهم؟

ـ هذه القضية ستجعلنى واحدا منهم !

ـ ولهذا تريدنى ان اشهد فى القضية؟

ـ أنا اريدك ان تشهدى لتصبحى بطلة أمام سعادة الحكمدار ! لو طلبت أن اتزوجك الآن فسوف ينقلنى الحكمدار من البوليس السياسى... ولكن بعد شهادتك سيفرح سعادة الحكمدار انى تزوجت بطلة.. ساعدت

البوليس والعدالة وخدمت الوطن.. ووضعت خائنا فى السجن!

ـ هذا يستدعى أن أشهد فى قضايا اخرى!

ـ هذه القضية ستفتح لى أبواب الترقيات الاستثنائية!

ـ وسوف يشنقون هذا الرجل طبعا!

ـ هذا اقل ما يجب!

ـ اخشى أن أرى جثته دائما معلقة فى فراش نومنا!

ـ انني شنقت كثيرين.. ونسيت حتى اسماءهم!

ـ وماذا تفعل لو سقطت هذه الوزارة وجاءت وزارة اخرى؟

ـ سوف تستعين بى الوزارة الجديدة لشنق خصومها؟

* * *

ما كادت قسمت تذهب فى اليوم التالى إلى سجن الاستئناف وتخبر عم عبده عن أن شاهدة الاثبات ضده هى نشوى عبده، وأنها قابلتها، وحاولت أن تقنعها بالعدول عن الشهادة فأصرت على أن تشهد، وكيف انها اكتشفت ان الصاغ عبد الفتاح الشبهاوى هو الذى يتولى تلفيق القضية معها.. ما كاد عم عبده يسمع كل هذه التفاصيل حتى جلس صامتا مشدوها!

ـ لا يمكن أن تفعل نشوى هذا!

ـ لقد فعلته فعلا!

ـ لا يمكن ان تفعله معى أنا!

ـ المرأة التى تقبل ان تشهد زورا ضد رجل لا تعرفه.. مستعدة ان تفعل ذلك مع رجل تعرفه!

ـ ولكنها إذا عرفت اننى أنا عم عبده فلن تقبل الشهادة!

ـ انك مخدوع فيها!

ـ أنا قابلتها مرتين فى الشارع! وهى تعلم اننى احبها!

ـ وأنا قابلتها فى بيتها ورأيتها كيف تعامل الذين يحبونها! كيف تخدعهم، كيف تعبث بهم، كيف تسرقهم جميعا!

ـ ولكن هؤلاء يريدون شيئا منها .. وأنا لم أرد أى شىء! أنا احببتها بلا غرض! أنا رفضت أن أخذ منها مائة قرش.. ورفضت أن أخذ منها كمية من البنكنوت قد تصل إلى مائة جنية! لا يمكن أن تكون قلوب الفنانات مختلفة عن قلوب البشر!

ـ انها ليست فنانة.. انها غانية!

ـ وما هو الفرق بين الفنانة والغانية؟

ـ الفنانة لها قلب. والغانية لها جسد.. الفنانة تحرق نفسها لتضىء للناس النور، والغانية تحرق الناس لتضىء لنفسها الطريق... فراش الفنانة قطاع خاص، وفراش الغانية قطاع عام.. الفنانة تعشق الرجل، والغانية تعشق ما فى جيب الرجل.. الفنانة تبذل نفسها للرجل.. والغانية تخلع فستانها لتشترى فستانا جديدا.. الفنانة تتعرى لتحب، والغانية تتعرى لتعيش.. الصفة البارزة فى الفنانة هو الاخلاص. إذا احترفت الفن هوته وقدسته، وإذا احبت رجلا عشقته وألهته. والصفة البارزة فى الغانية هو الغدر. تدوس زميلاتها لترتفع، تخون الرجال اخلاصا لذاتها،

الوفاء عندها نوع من العبط، والصداقة عندها هى الاستغلال!

ـ لا يجوز ان نصدر حكما مطلقا على الناس! لا نستطيع ان نقول عن فئة انها مخلصة، وفئة اخرى انها خائنة. رب ملاك فيه اخلاق الغوانى، وغانية لها اخلاق الملائكة.. ان قلبى يقول لى أن نشوى لا تعلم اننى المتهم فى هذه القضية!

ـ لابد انها قالت أنها تعرفك ليجعلوها شاهدة ضدك.

ـ أرجوك ان تذهبى إليها مرة اخرى.

ـ لا أريد ان أرى وجهها ثانية

ـ استحلفك بأن تضغطى على أعصابك. أن تقولى لها أن عبده المتهم هو عم عبده.. الذى منحها اسمه عندما كانت الخادمة شلبية ياسين الوحش! انه هو الذى ذهب معها إلى الست بديعة.. الذى كذب على الست بديعة!

ـ الغانية دائما ضعيفة الذاكرة!

ـ لا يمكن أن تنسى هذا اليوم!

ـ انها تنسى اسماء عشاقها!

ـ لا تظلميها!

ـ ما أعجب الرجل عندما يحب امرأة يدافع عنها حتى ولو كان خنجرها فى ظهره!

ـ أذهبى لها من أجل خاطرى!

ـ لولاك.. لما قبلت هذه المهمة الثقيلة!

* * *

ـ خرجت قسمت من سجن الاستئناف..

ـ وخرج عم عبده من غرفة نائب المأمور فى طريقه إلـى الـزنزانة، وسمع ضجة فى فناء السجن، ورأى عددا من المسجونين يحملون زميلا لهم، ملفوفا فى بطانية سوداء.. ويتجهون به إلى طبيب السجن، وهـرول عم عبده خلفهم، يسألهم فى لهفة عما حدث. قال المسجونون فى صـوت متهدج يذرف دمعا. أن المسجون مسعود حسب الله سقط علـى الارض فجأة بلا حراك..

ـ ووضع المسجونون زميلهم على مائدة بيضاء فى العيادة، وتجمهروا حول المائدة، كل واحد فيهم يفتى فى سبب ما حدث..

ـ وزمجر رجل ضئيل الجسم. ضامر الوجه، قاسى التقاطيع، وقـال فى عبارات متدافعة كرصاص المدفع الرشاش!

ـ اسكت اخرس! ولا كلمة! هذه عيادة وليست سينما اخرجوا مـن هنا فورا!

وتردد المسجونون فى مغادرة العيادة. انهم يريدون أن يبقوا جميعـا ليطمئنوا على زميلهم مسعود

وبرز الممرض المنشاوى، وهو رجل عجوز يشبه المومياء، وفى عينيـه قسوة جزار، وصرخ فى المسجونين بصوت يشبه الرعد، ارتجت له جدران العيادة الصغيرة!

ـ من لا يخرج فورا سوف نجلده!

وارتعش المسجنون من التهديد. أن وظيفة المنشاوى المكتوبة هـى ملاك الرحمة! ولكن وظيفته الحقيقية فى السجن هى سوط العذاب!

وأسرع المسجونون يخرجون وأخلوا العيادة.

ـ وتحرك الدكتور كامل قاسم طبيب أول السـجن فى تثـاقل، وأزاح البطانية السوداء من فوق المسجون مسعود، وكشف عليه فى ثوان، ثـم رفع رأسه وقال بغير اهتمام!

ـ مات!

ومد يده وغطى وجه المسجون مسعود بالبطانية السوداء، بـلا مبـالاة. والتفت إلى زميله الدكتور عطوة وقال له وهو يضحك:

ـ قل لى مرة أخرى النكتة التى كنت ترويها أن ضوضاء المسجونين عند دخولهم منعتنى من سماع آخر النكتة!

وقهقه الدكتور عطوة وقال:

ـ اننى لا أقول النكتة مرتين!

قال الدكتور كامل مشيرا إلى الجثة المغطاة وهو يضحك:

ـ ان المرحوم دخل فى الوقت غير المناسب!

ـ النكتة عندما تقال للمرة الثانية تصبح سخيفة!

ـ إذن سأقول لك آخر نكتة سمعتها!

ويدأ الدكتور قاسم يروى آخر نكتة بذيئة سمعها، وضحك الدكتور عطوه

بصوت عال. وقهقه الدكتور قاسم.. وابتسم الممرض المنشاوى تأدبا! فالناس درجات فى كل شيء، حتى أمام النكت (فإذا قهقه طبيب أول. يكتفى الطبيب الثانى بالضحك، ويكتفى الممرض بالابتسام!

ومضى الطبيبان يتبادلان رواية آخر النكت البذيئة، بينما أخرج الدكتور كامل قاسم قلمه الحبر، وبدأ يكتب فى التذكرة الطبية الخاصة بالمسجون مسعود عدة عبارات باللغة العربية واللغة الانجليزية ملخصها أنه مات بالسكتة القلبية!

وناول الدكتور كامل التذكرة إلى الدكتور عطوة فوقع عليها بأنه كشف على المسجون فوجد أنه مات بالسكتة القلبية..

ثم توقف وقال:

ـ ولكن التذكرة فاضية!

وأسرع الممرض يقول:

ـ سنملأها فورا يا دكتور!

ـ ان لجنة الجرد ستجيء غدا لجرد الادوية فى صيدلية السجن.

ـ فاهم يا دكتور!

وعاد الدكتور كامل قاسم يقول:

ـ انقلوا الميت إلى زنزانته.. وتخطر المصلحة والحانوتى لاتخاذ اللازم!

وأسرع الممرض المنشاوى يفتح باب العيادة، وطلب من عدد من المسجونين المتجمعين حول باب العيادة أن يحملوا المرحوم، ويضعوه فى

الزنزانة المجاورة لغرفة الاعدام، على أن يغلق الشاويش باب الزنزانة حتى لا يعبث أحد بالجثة! إن الموتى يجب أن يكون لهم احترامهم حتى ولو كانوا مسجونين!

وأجهش المسجونون بالبكاء. وتقدموا يحملون جثة المرحوم مسعود فى رفق، وهم يتلون آيات من القرآن، ويستمطرون الرحمة عليه.

وصرخ فيهم الدكتور كامل قاسم،

ـ ما هذه الضجة؟ كلب ومات!
دعونا نعمل فى هدوء! هذا مكان عمل.. لا مأتم ولا محزنة!

وصمت المسجونون. ومضوا يحملون جثة زميلهم. ويمشون فى هدوء!

وفتح الممرض المنشاوى أحد الادراج، وأخرج عشر تذاكر طبية بيضاء.. وتناول قلما، وبدأ يدون فى التذاكر جميع الادوية التى سرقها من الصيدلية منذ آخر جرد، وجميع الادوية التى أخذها الاطباء لزبائنهم خارج السجن. وجميع الادوية التى أخذها مأمور السجن ونائب المأمور والضباط من أدوية المساجين لمعالجة عائلاتهم!

وأثبت الممرض فى التذاكر تواريخ وهمية ادعى أنه تم فيها صرف هذه الادوية للمسجون مسعود، وأضاف أن المريض كان مريضا بالذبحة الصدرية. وبالسكر، وبالاملاح، وبالضغط، وبالمصران الاعور، وبالمصران الغليظ، وبالاثنى عشر، وبالصفراء، والانفلونزا، وباسنانه، وبعينيه.. وبكل الامراض التى سرقت أدويتها من صيدلية السجن!

ثم أثبت فى التذاكر أن الدكتور كامل كان يكشف على مسعود يوميا، وأنه حلل البول ٣٩ مرة، وحلل الدم ١٣ مرة، وكشف بالاشعة ٧ مرات..

وفى دقائق كان قد ملأ التذاكر العشر البيضاء وقدمها للدكتور كامل قاسم الذى وقع على التذاكر عشرات الامضاءات وهو يقول:

ـ لقد قمنا بواجبنا نحو هذا المسجون خير قيام!

ـ وأصبحت عهدة الصيدلية مضبوطة!

ـ سوف نتلقى خطاب شكر من لجنة الجرد!

ـ وخطاب شكر من الادارة الطبية.

ـ وسيقول مدير المصلحة فى تقرير لوزير الداخلية إن السجون مهتمة بصحة المسجون كمستشفيات الدرجة الأولى!

وجلس الممرض المنشاوى يعد كتابا يبلغ فيه مصلحة السجون نبأ وفاة المسجون مسعود حسب الله. ويعدد أمراضه وما بذله الاطباء من جهود جبارة لانقاذ حياته. وما صرفوه له من أدوية تبلغ مئات الجنيهات!

ووقع الدكتور كامل الخطاب وناوله إلى الممرض وهو يقول:

ـ هذا الخطاب يجب أن يرسل حالا إلى المصلحة.. ينتقل به جندى على الفور وعلى وجه السرعة.. لا تعتمد على أحد يا منشاوى. اذهب وتأكد بنفسك أن الحارس الذى يحمل الخطاب خرج من السجن إلى المصلحة مباشرة!

* * *

دخل الشاويش فتوح برهومة إلى الزنزانة المجاورة لغرفة الاعدام، ليقرأ الفاتحة على روح الفقيد..

ووقف فى خشوع يقرأ الفاتحة أمام جثة الميت.

ثم انحنى على الجثة، ومد يده إلى جيبه الداخلى. وأخرج حافظة نقوده، وفتح الحافظة وهو يتلفت حواليه..

وتهلل وجهه، وجد فى الحافظة أربع ورقات من فئة الخمسة الجنيهات.. وخمس ورقات من فئة العشرة القروش..

وأخذ الخمسين قرشا ووضعها فى جيبه. ثم أعاد العشرين جنيها إلى محفظة النقود، وأعادها إلى جيب الفقيد..

وعاد يقرأ الفاتحة على روح الميت من جديد، وزاد خشوعه. وتضاعفت العبارات التى يترحم بها على الفقيد

وعاد ينظر حواليه، وعندما تأكد أن احدا لا يراه، انحنى من جديد على الجثة، ومد يده إلى المحفظة وفتحها، وأخذ منها خمسة جنيهات، وأعاد الباقى إلى المحفظة، ثم وضعها فى جيب الفقيد الكريم!

ووقف الشاويش فتوح فى خشوع من جديد، وقرأ الفاتحة مرة أخرى، وأضاف إليها سورة ياسين..

واعتقد الشاويش فتوح أن من حقه بعد أن قرأ على الفقيد سورة ياسين، أن يتقاضى أجرا، فمد يده إلى الجثة. وأخرج المحفظة وأخذ منها خمسة جنيهات أخرى.. وانتظر قليلا وتلفت حواليه.. وأخذ خمسة جنيهات ثالثة.. وانتظر نصف دقيقة وأخذ آخر خمسة جنيهات فى محفظة الفقيد..

ومد يده بالمحفظة الخالية ليدسها فى جيب الفقيد. ثم توقف. أنبه ضميره. تحركت فيه روح انسانية.. أشفق على الفقيد أن يذهب إلى الآخرة مفلسا!

مد يده إلى جيبه وأخرج الخمسين قرشا التـى سرقهـا فى أول الامـر. ووضعها فى داخل المحفظة، وأعادها إلى جيب الفقيد، وغـطاه بـالبطانية السوداء فى احترام شديد.

وشعر الشاويش فتوح بالرضا عن نفسه. لقد اثبت أنه رجل قنـوع. لـم يضعف أمام اغراء المادة.. اكتفى بأن سرق من الفقيد عشرين جنيها.. وترك له خمسين قرشا.. قد يحتاج إليها عندما يذهب إلى الآخرة!

وسمع الشاويش فتوح وقع أقدام تقترب من الزنزانة، فأسرع يبتعد عـن الجثة، ووقف فى خشوع يتظاهر بأنه كان يقرأ الفاتحة على روح الفقيد..

ودخل الباشجاويش فهمى قريطم وقال:

ـ هل فتشت المسجون؟

ـ لا.. لم أفتشه!

ـ يجب أن تفتشه.. فقد تكون معه ممنوعات!

ـ لو وجدنا ممنوعات فلا يمكن معاقبته بعد أن مات!

ـ على كل يجب أن نؤدى واجبنا

وانحنى الباشجاويش فهمى قريطم على جثة الفقيد.. ورأى فى يده ساعة ذهبية تلمع. فخلعها من يده وتأملها ليتأكد أنها ذهبية وعندما اطمأن لـذلك دسها فى جيبه بسرعة وغطى الجثة وهو يقول:

ـ لا داعى للتفتيش، يجب احترام الموتى!

ثم خرج من الزنزانة وهو يقول فى تأثر:

ـ اغلق الزنزانة يا فتوح، وأمن عليها، حتى لا يسرق أحد شيئا من المرحوم.. انت تعلم أن المسجونين كلهم من اللصوص، وهم لا يرحمون الأموات والاحياء!

وأسرع الشاويش فتوح، يغلق باب الزنزانة، ويدير المفتاح عدة مرات فى القفل، وهو يلعن المسجونين اللصوص!

وما كاد ينصرف الباشجاويش فهمى قريطم ومعه الشاويش فتوح، حتى أقبل الصول شحاته ومعه أحد الحراس

وفتح باب الزنزانة فى هدوء.. ودخل الصول.. بينما وقف الحارس يحرس الطريق!

وانحنى الصول شحاتة على الجثة، ودس يده فى جيبه، واخرج المحفظة، وفتحها، فوجد فيها الخمسين قرشا، وعاد يقلبها فى احتقار ثم التفت إلى الجثة وقال:

ـ خمسون قرشا فقط يا ابن الكلب؟ انت مسجون صعلوك فعلا!

وتطلع الصول شحاته إلى «البول أوفر» الصوف الذى يرتديه الفقيد وتردد قليلا. ثم مد يده وامتحن نوع الصوف فوجده من النوع الفاخر، وتذكر أنه يصلح لولده وحيد، فانحنى على الجثة.. وجردها من «البول أوفر».. واخفاه داخل سترته العسكرية!

وتهيأ للخروج، ثم توقف. فقد وقعت عيناه على حذاء الفقيد. فوجده حذاء جديدا. أن مقاسه قريب من مقاس حذاء نجله توفيق!

وأسرع الصول شحاته، وجرد الفقيد من حذائه، ثم جرده من الجورب الذى يرتديه!

واستبطأ الحارس خليل رفاعى الصول شحاته فدخل الزنزانة وقال:

ـ سبع.. أم ضبع؟

ـ فأر!

ـ ألم تجد معه أى شيء؟

ـ انه مفلس!

ـ الله يلعنه!

ـ لم أجد سوى حذاء!

ـ إذن ساخذ أنا بنطلونه! إنه من الصوف الثمين!

ـ أنت أولى من الحانوتى

وجرد الحارس خليل رفاعى الفقيد من بنطلونه! وأعجبته، الفانلة، التى يرتديها. وحملق فيها. ثم بدأ ينزعها:.

وصاح فيه الصول شحاته:

ـ اترك الفانيلا!

ـ ان ثمنها حوالى الجنيهين.

ـ ماذا نقول لو دخل المأمور الآن ووجده عاريا؟

ـ نجيء له ببذلة ميرى من بذلات المسجونين!

وهرول الحارس رفاعى إلى الخارج، ثم عاد يحمل بذلة زرقاء ممزقة من بذل المسجونين. وتعاون الصول والحارس على تجـريد الفقيـد مـن كل

ملابسه. وألبسوه بذلة السجن الممزقة!

وقبل أن يخرج الصول ركل الجثة بقدمه وهو يقول فى حسرة!

ـ لماذا لا يموت المسجونون الاغنياء؟.. إن كل الذين يموتون من المسجونين الفقراء المعدمين!

وأغلق الصول شحاته باب الزنزانة.. وما كاد الصول والحارس يبتعدان عن الزنزانة بضع خطوات حتى سمعا دقا متواصلا!

وتوقف الاثنان.. واتسعت حدقات عيونهما.. وأشار الحارس بأصبع ترتعش إلى الزنزانة التى فيها الميت!

وتسمر الاثنان فى مكانهما من الرعب!

وعاد الدق من داخل باب زنزانة الميت من جديد..

وأطلق الصول شحاته ساقية للريح وهو يصرخ:

ـ عفريت.. عفريت!

وجرى الحارس رفاعى خلفه وهو يردد فى رعب:

ـ عفريت.. عفريت!

وتجمع المسجونون والحراس على صوت الصراخ.. وقالوا إنه عفريت فى غرفة تنفيذ الاعدام!

وقال الصول شحاتة وهو يتصبب عرقا:

ـ انه عفريت المسجون مسعود حسب الله!

ولاحظ المسجونون أن الصول شحاتة يحمل حذاء بيديه ويشير بفـردتى الحذاء بحركات عصبية!

ولاحظ الصول شحاته أن المسجونين ينظرون إلى الحذاء، فأخفاه وراء ظهره. ثم عاد يحاول أن يدس كل فردة من فردتى الحذاء فى جيب من جيوب بنطلونه، ثم اشتد به الفزع فرمى الحذاء على الأرض!

وتجرأ مسجون، وتقدم علي أطراف قدميه إلى الزنزانة التى ينبعث منها الصوت، وقال فى صوت مرتعش:

ــ من أنت؟

وسمع المسجونون والحراس صوتا يخرج من داخل الـزنزانة يقـول فى كلمات متقطعة:

أنا.. أنا.. أنا مسعود!

مسعود من؟

أنا مسعود حسب الله!

ووجم المسجونون والحراس من الرعب الميت يتكلم!

وقال أحد المسجونين وهو يبتلع ريقه:

ــ ان هذه الزنزانة مليئة بالعفاريت.. لأنها بجوار غرفة تنفيذ الاعدام!

ــ إن روح المحكوم عليهم بالاعدام تخرج أحيانا.. أن إحـدى الارواح دخلت زنزانتى وأنا نائم وسرقت سجائرى!

ـ ولكن هذا لا يشبه صوت مسعود حسب الله ! إن صوته أجش قـوى ! وهذا صوت ضعيف:

ـ ان صوت عفريت الانسان يختلف عن صوت الانسان!

ـ لأنه يخرج من تحت الارض!

وأقبل الصول شحاتة ومعه الممرض المنشاوى وعدد من الحراس.. وقال الممرض المنشاوى ساخرا:

ـ أين هو العفريت؟!

ـ داخل الزنزانة!

ـ إن العفاريت فى رؤوسكم!

ـ لقد سمعنا صوتا ينبعث من الزنزانة.

ـ انكم تتخيلون أصواتا.. الموتى لا يتكلمون..

وأزاح الممرض المنشاوى المسجونين ودخل إلى الزنزانة..

وفوجىء برؤية الميت مسعود حسب الله واقفا على قدميه. واصفر وجـه الممرض. وارتعشت ساقاه. وقال بصوت متلعثم:

ـ من أنت؟

ـ أنا مسعود حسب الله!

ـ ولكن مسعود حسب الله قد مات!

ـ أنا حى.. أنا لم أمت!

ـ هل أنت يا جاهل تفهم أحسن من الدكتور كامل قاسم طبيب أول السجن؟

ـ ماذا قال؟

ـ قال إنك مت!

ـ ولكنى لم أمت.. أنا هو.. أنا اكلمك!

ـ أنك مت فى الاوراق الرسمية! المصلحة تعلم الآن أنك ميت، وقد حذفنا اسمك من كشف المسجونين!

ـ إذن افرجوا عنى!

ـ نفرج عنك ميتا.. لا حيا

ـ ولكنى حى فعلا!

ـ وأنت ميت رسميا!

ـ يجب أن تصدقنى!

ـ كيف أصدقك أنت المسجون وأكذب الطبيب الأول! كيف أكذب الاوراق الرسمية؟

ـ إذن افرجوا عنى!

ـ أنت الآن ميت فعلا! إن حياتك سوف تسبب اشكالات لا حد لها! سوف تلخبط الدفاتر! سوف تلخبط السجلات! سوف تبوظ نظام السجن!

ـ وماذا تريد منى أن أفعل؟

ـ أن تموت!

ـ كيف أموت!

ـ هذه مشكلتك أنت.. وليست مشكلتنا!

ـ اننى أطلب مقابلة المأمور!

ـ سوف يظن المأمور اننى مجنون عندما ادعوه لمقابلة رجل ميت!

ـ اننى أكاد أجن!

ـ خير لك أن تموت عاقلا من أن تعيش مجنونا!

ـ اننى سأفضح الدنيا!

ـ خير لك أن تسكت وتغلق فمك.. وتترك لى حل المشكلة!

ـ لا تتركنى هنا مدة طويلة!

ـ اعتمد على.. كل ما عليك أن تفعله أن ترقد كما كنت وتغطى وجهك بالبطانية السوداء!

واغلق الممرض الباب فى هدوء، ومشى يتعثر فى خطواته، ورفض أن يجيب على اسئلة المسجونين عن العفريت، وذهب إلى العيادة، وأغلق بابها خلفه، وقال للدكتور كامل قاسم، هامسا:

ـ مسعود حسب الله عاد إلى الحياة!

ـ لا يمكن! أنا واثق أنه مات!

ـ وأنا واثق أنه حى!

ـ انت لا تفهم فى الطب.. انت ممرض فقط!

ـ كان واقفا فى الزنزانة على قدميه.

ـ مستحيل!

ـ وكان يتكلم!

ـ هذه مصيبة!

ـ مصيبة كبرى!

ـ لقد قررت فى السجلات الرسمية أنه مات. وكتبنا شهادة رسمية بوفاته.. وأبلغنا المصلحة أنه مات! سوف أحال إلى مجلس تأديب!

ـ ولكنى أنا سأدخل السجن! إن لجنة جرد الادوية ستزور السجن غدا.. إن رئيس اللجنة رجل رذيل.. وعندما سيجد هذه الكمية الهائلة من الادوية التى سجلنا فى الدفاتر أننا صرفناها للمسجون مسعود حسب الله سوف يستدعيه ويسأله.. وسنذهب جميعا فى داهية!

ـ انك تعجلت فى ارسال الخطاب إلى المصلحة!

ـ انت يا دكتور الذى طلبت منى أن ارسل الخطاب على وجه السرعة!

ـ ربما لم يخرج الحارس الذى يحمل خطابى بعد.. اسرع الحق به!

ـ اننى صحبت الحارس إلى باب السجن، وتأكدت بنفسى من خروجه مع خطابك.. إن هذه كانت أوامرك!

يجب أن نستنجد بالمأمور!

ـ انه فى نفس المصيبة!

وقف المأمور، ونائب المأمور، والصول شحاتة مذهولين!

كيف يعود المسجون مسعود حسب الله فجأة إلى قيد الحياة، ياله من مسجون قليل الادب، قليل الحياء، عديم الذوق، يزعج السلطات، ويعبث بالسجلات الرسمية، ويخرج على اللوائح والانظمة والقوانين!

ـ لقد كتب البكباشي يوسف البلحاوى، مأمور السجن، بخط يده على شهادة الوفاة، انه انتقل بنفسه وعاين جثة المسجون، وتأكد أنه فارق الحياة، وليس فيه اصابات.. والورق وصل الآن إلى المصلحة، فالمسافة بين السجن والمصلحة لا تزيد عن عشر دقائق!

صحيح أن المأمور لم ينتقل من مكتبه. ولم يعاين المسجون، ولكنه اعتمد على شهادة الطبيب الاخصائى الذى أكد أن مسعود قد مات!

والصاغ حامد الجزماتي. نائب مأمور السجن، حانق على المسجون مسعود لانه تجرأ وعاد إلى الحياة إنه ما كاد يسمع بوفاته، حتى ذهب إلى الزنزانة التى كان يقيم فيها، وجمع كل ما فيها من سجائر وملابس ومعلبات طعام وارسلها مع سجان إلى البيت! ولقد راه المسجونون وهو يجمع هذه الأشياء، وقال لهم إنه يجمع حاجات مسعود ليسلمها إلى اسرته!

والصول شحاته. فزع أيضا بعودة مسعود إ إلى قيد الحياة. سوف يضطر أن يعيد اليه البلوفر والحذاء، والجورب، والخمسين قرشا!

والباشجاويش فهمى قريطم مفجوع من نبأ عودة مسعود من الآخرة إلى الدنيا! لابد أن مسعود رآه، وهو ينزع من يده ساعته الذهبية! ياله من ميت مخادع كذاب ليس له كلمة!

والشاويش فتوح صعق عندما علم بأن مسعود حي! ماذا سيفعل فتوح إذا ابلغ مسعود عن سرقة العشرين جنيها؟ لقد كان هو المسئول عن حراسة الزنزانة التى بها جثة الميت!

والحارس رفاعى منكوب هو الآخر ببعث مسعود من الموت ! إنه رجل سيئ الحظ لم يكد يتسلم البنطلون المسروق والملابس الداخلية التى تساوى ثلاثة جنيهات.. حتى عاد الميت إلى الحياة ليطالب بها !

والممرض المنشاوى يضرب كفا بكف ! إنه رجل منحوس فعلا ! الرجل الذى مات اليوم خصيصا لينقذه من لجنة الجرد، خلا به، وعاد إلى قيد الحياة !

والدكتور كامل نسى النكت البذيئة كلها، وجلس حزينا كئيبا تعسا ! ما أغرب القدر ! الاطباء يفرحون إذا شفى أحد مرضاهم.. ومستقبله هو مهدد بالخطر إذا عاد مريضه الميت إلى قيد الحياة !

واتفق الجميع على أن عودة مسعود إلى الحياة، هى قلة ذوق لا تغتفر، وهى دليل جديد على أنه مجرم فعلا ! وهى فوق ذلك مخالفة صريحة لجميع اللوائح والقوانين وخاصة لائحة مصلحة السجون !

وصاح الممرض المنشاوى فجأة :

ـ ما لكم كان على رؤوسكم الطير ! مادام الطبيب الاخصائى قد قرر أن مسجوننا قد مات، فيجب أن يموت !

ونظر الموجودون إلى بعضهم البعض فى دهشة !

ـ واتجه الممرض حامد المنشاوى إلى الزنزانة..

ومشى خلفه المأمور، ونائب المأمور، والطبيب الأول، والصول شحاتة، والباشجاويش قريطم والشاويش فتوح، والحارس رفاعى.

وفتحوا باب الزنزانة التى فيها مسعود..

واغلق الممرض باب الزنزانة خلفه..

وابتسم الممرض المنشاوى فى وجه مسعود حسب الله وقال لـه فى رقـة بالغة:

ـ ان الادارة كلها مهتمة بصحتك!

ـ صحتى جيدة والحمد لله!

ـ ولكنها ستكون أحسن بفضل هذه الحقنة!

ـ ما هى هذه الحقنة؟

ـ حقنة فيتامينات!

ـ لست فى حاجة إلى فيتامينات!

اعتمد على! أقسم لك بالله أنك لن تبقى فى السجن ٢٤ ساعة أخرى!

ومد المسجون مسعود ذراعه مستسلما إلى الممرض المنشاوى..

وحقنه الممرض بحقنة كانت فى جيبه..

وبعد دقائق كان مسعود قد تخدر تماما.. وسقط على الأرض!

وأطبق الممرض بيديه الغليظتين على رقبة مسعود حتى اسلم الروح.

وانحنى عليه بعد ذلك، وفتشه تفتيشا دقيقا، ولم يجد سـوى المحفـظة الخالية، وهز رأسه فى مرارة وقال:

ـ بلد ليس فيه اخلاق.. يسرقون ميتا!!

وفى هدوء فتح الممرض المنشاوى باب الزنزانة، وقال مبتسما للمأمور:

ـ انه ميت يا سعادة البك!

ـ هل أنت متأكد!

ـ متأكد جدا.. مادام الطبيب أول قال إنه مات فمعنى ذلك أنه مات!

ـ إذن فكل شيء مضبوط!

ـ كيف يكون السجن تحت إدارة سعادتك.. ولا يكون كل شيء فيه مضبوطا!

وتنفس المأمور الصعداء!

وابتسم الطبيب أول اعجابا بتقدم الطب فى مصلحة السجون!

وهز نائب المأمور رأسه معجبا بالعناية والرعاية التى يلقاها المسجونون!

وتحسس الصول شحاتة الخمسين قرشا التى فى جيبه.. ومشى يبحث عن الحذاء الذى رماه أمام الزنزانة!

ووضع الباشجاويش فهمى قريطم يده فى جيبه وتأكد من وجود الساعة الذهبية الثمينة.

ـ ونظر الشاويش فتوح إلى حذائه الذى يخفى فيه العشرين جنيها!

وألقى الحارس رفاعى نظرات خاطفة إلى بنطلونات المسجونين تحت التحقيق، وتمنى لو ماتوا جميعا ليأخذ جميع بنطلوناتهم!

الفصل الحادى والثلاثون

مشى عم عبده فى فناء السجن كالمجنون، زائــغ العينيــن، مضــطرب الخطوات. لقد رأى بعينيه عدة جرائم ترتكب فى وضح النهار. جرائم سرقــة وتزوير وقتل. رأى الممرض المنشاوى وهو يملأ تذكرة المسجون مســعود الطبية بعشرات الأدوية التى لم تصرف له. رأى الحراس يجردون مســعود من أمواله وملابسه. رأى الممرض المنشاوى وهو يخنق مســعو د بيــديه. ينفذ فيه الاعدام بلا حكم، بلا جريمة، بلا ذنب!

لم ير وحده هذه الجرائم كلها .. رآها معــه عشرات مــن المســجونين والحراس. رأوا ملاك الرحمة الممرض يتحول إلى شيطان للعذاب.. يستولى لنفسه على كل سلطات عزرائيل!

رأى الرجال الذين تنحصر وظيفتهم فى حراسة القانون يدوسون بأقدامهم على القانون. الحراس الذين يحرسون المجرمين يتحــولون إلــى شركاء فى الجريمة ومتسترين عليها.. لقد رأى مأمور السجن وهو يصافح القاتل، بعد أن أتم جريمته.. كأنه يثنى على بطولته، ويشيد بشهامته. رأى نائب المأمور الذى سرق معلبات السجين القتيل وسجائره.. وهو يضرب بيده على ظهــر القاتل. وكأنه يقول له: «أكثر الله من أمثالك فى مصلحة الســجون».. رأى الدكتور كامل قاسم، وهو ينظر إلى الممرض القاتل فى اعجاب، كأنه أحيــا ميتا ولم يقتل حيا.. رأى الصول شحاته وهو يعانق القاتل، والبــاشجاويش

قريطم وهو يقبله، والشاويش فتوح وهو يقول فى حماس : «لم أعرف فـائدة وجود الممرضين فى السجون إلا الآن»

كيف يحدث هذا ؟ لقد أصبح المنشاوى عريس السجن. الحراس يزفونه. كأنه أنقذ السجن من مصائب لا عدد لها، كأنه رد الحياة إلى الذين مـاتوا رعبا. عندما علموا بأن المسجون مسعود عاد إلى قيد الحياة!

وتطلع عم عبده فى وجوه زملائه المسجونين، الذين رأوا ما رآه. حاول أن يقرأ فى عيونهم بشاعة الجريمة التى شهدوها. حاول أن يسمع من أفواههم رأيهم فى هذه الجناية الوحشية، وفوجئ بعيونهم صامتة، وشفاههم مـطبقة كأن الأمر لا يعنيهم، كأن القتيل ليس واحدا منهم. انصرفوا إلى شـؤونهم كأن جريمة قتل لم تقع أمام أعينهم! بعضهم يتشاجر على نصيبه فى الأكل. بعضهم يحاول أن يملأ قروانته بأكثر مما يستحق من الفول المدمس المليء بالسوس. الباعة من المسجونين مضوا ينادون على بضـائعهم المهـربة. يبيعون الشاى الممنوع، يتاجرون فى الزيت الذى نهبوه من الفول المدمس، يساومون فى ثمن اللحم الذى سرقوه من المطبخ. عاد السجن إلـى حيـاته العادية. كأن جريمة قتل لم تحدث أمامهم. كأن زميلا من زملائهم لا يرقد فى زنزانة مخنوقا بيد ممرض السجن!

ورأى بعض المسجونين يضحكون... لعلهم لم يجـرؤوا علـى البـكاء فالتجأوا إلى الضحك هاربين من الدموع، إن المقيد بالسلاسل عندما تنهال عليه الضربات، ولا يستطيع أن يردها، يصاب بحالة هستيريا تجعله يضحك بدلا من أن يلعن جلاديه... يقهقه وهو يريد أن يصرخ. ينكت بدلا من الندب والنواح.

ورأى ثلاثة من المسجونين يلعنون القتيل ويثنون على القاتل. ولم يدهش عم عبده لأن هؤلاء المسجونين بالذات يقفون هذا الموقف المخزى من الجريمة. إن الثلاثة هم من جواسيس الادارة. مهمتهم أن ينقلوا إليها ما يفعله زملاؤهم، وفى مقابل هذا تبيح لهم الادارة أن يتاجروا بالممنوعات. تصرح لهم بمخالفة القوانين بحجة أنهم يساعدون على تنفيذ القوانين. بينما الحقيقة أن المسجونين أبرياء من التهم التى يلفقها لهم الخباصون وإنما هو الدخان الأسود الذى يعمون به الادارة، ليستطيعوا فى ظله أن يعتدوا على القانون! فالخباصون فى كل سجن هم المجرمون الحقيقيون فيه. يبلغون عن المخالفات ليرتكبوا الجرائم، يتهمون مسجونا فقيرا بأنه يبيع الدخان للمسجونين، من أجل أن يباح لهم بيع الحشيش والأفيون!

* * *

ولم ير عم عبده فائدة من أن يتحدث إلى الخباصين، كل كلمة يقولها لهم، سوف يبيعونها للادارة ويبيعون عم عبده معها! وتركهم واتجه نحو الحاج دعبس أبو خطوة تاجر المخدرات الكبير، وكان الحاج دعبس يشرب كوبا من الشاى الساخن، بصوت مرتفع، وتقدم نحوه عم عبده وقال:

ـ هل رأيت؟

ـ لم أر شيئا!

ـ لقد كنت واقفا بجوارى.

ـ لم أر شيئا!

ـ أنت رأيت كل شىء كما رأيت أنا تماما!

ـ إن نظرى ضعيف!

ـ إن نظرك قوى جدا.. ستة على ستة!

ـ فى هذا المكان يجب أن تكون أعمى وأصم وأبكم، لتعيش!

ـ ولكننا لا نعيش هنا!

ـ أفضل أن أعيش أعمى على أن أموت مفتوح العينين!

ـ إنك رأيت جريمة قتل تقع أمامك!

ـ إنها ليست الجريمة الأولى ولن تكون الأخيرة!

ـ هل رأيت من قبل ممرضا يقتل مريضا؟

ـ رأيت ذلك كثيرا.

ـ فى السجن؟

ـ فى السجن وخارج السجن!

ـ ولم يعاقبوا القاتل؟

ـ عاقبوا الذين شهدوا ضد القاتل!

ـ ماذا فعلوا بالذين شهدوا على مثل هذه الجريمة؟

ـ إذا كانوا رحماء جلدوهم، وإذا كانوا قساة قتلوهم!

ـ وماذا يفعلون بالقاتل؟

ـ يمنحونه ترقية!

ـ ولكنى لن أسكت.

ـ لن يصدقك أحد.

ـ سوف يشهد معى كل المسجونين.

ـ سوف يشهدون ضدك !

ـ ولكنى أدافع عنهم.

ـ ولهذا سيتهمونك !

ـ كل واحد منا معرض أن يقتلوه كما قتلوا مسعود !

ـ إلا إذا دفع ثمنا لحياته !

ـ ولكن أغلب المسجونين من الفقراء المعدمين.

ـ الفقير لا حق له فى الحياة !

ـ هذا ظلم !

ـ إنه ليس الظلم الوحيد ! فى هذا المكان الظلم هو القاعدة... والعدل هو الاستثناء..

ـ ولكن هذا اعتداء على حقوقنا !

ـ المسجون فى السجن ليس له أية حقوق ! إنه يترك حقوقه عند بوابة السجن مع ساعته وخاتمه !

ـ وكيف نحصل على حقوقنا ؟

ـ نشتريها !

ـ لماذا لا يتقدم جميع المسجونين بشكوى جماعية يوقعونها ؟

ـ لائحة السجن تمنع الشكاوى الجماعية.

ـ والشكاوى الفردية؟

ـ يجلد أصحابها، حتى يعدلوا عن رأيهم!

ـ سوف أثير هذه الجريمة فى الصحف!

ـ سوف يحذفها الرقيب!

ـ ولكن هذه مسألة لا علاقة لها بالحرب.

ـ ستقول الحكومة أن الأعداء سوف يستفيدون بها ويشهرون بالحكومة!

ـ ماذا نفعل إذن؟

ـ نتلهى.. ونسكت!

ـ إنى أخطأت بالحديث معك!

ـ لماذا؟

ـ لأنك تاجر مخدرات صناعتك تخدير الناس!

ـ وأنت تريد أن توقظهم!

ـ أنت رجل واسع الثراء.. تستطيع أن تشترى الأيدى التى تخنق المسجونين.

ـ وأجعلها ترتفع لى.. بالتحية العسكرية!

ـ المأمور محسوبك. والحراس يعيشون على البقشيش الذى تنفقه بسخاء!

ـ إننى أشترى حياتى!

ـ كل شيء أصبح يباع!

ـ حتى الحرية؟

ـ ولا يمكن لصاحب النفوذ مثلك أن يعض زملاءه أصحاب النفوذ!

ـ الكلاب لا تعض بعضها بعضا!

ـ إنني سوف التجئ إلى الفقراء مثلي. هم وحدهم أصحاب المصلحة في العدالة.

ـ العدالة غالية الثمن في هذه البلاد، لا يستطيع الفقراء دفع ثمنها!

ـ إنهم يستطيعون أن ينالوا العدالة بالصراخ... الصراخ مجاني في هذه البلاد!

ـ إن ألسنة الفقراء مقطوعة! المذبوحون لا يستطيعون الصراخ!

ـ إنك تكسر مجاديفي!

ـ أخشى أن تبتلعك الحيتان!

ـ أنا أعرف أن لا مصلحة لك في دخول العدالة إلى هذا المكان. لو دخلت العدالة إلى هنا لحرمت من كل امتيازاتك، لما دخلت لك زجاجات الويسكي، لما استقبلت صديقاتك كل يوم في غرفة المأمور بعد اغلاق السجن. أنت صاحب مصلحة في بقاء الظلم!

وأشعل الحاج دعبس أبو خطوة سيجارة حشيش، ونفخ دخانها في وجه عم عبده، ثم مد يده بالسيجارة إليه وهو يقول:

ـ خذ نفسا!

ـ لكى أفقد الوعى؟!

ـ كلا... لتصبح مثل باقى المسجونين!

ـ هل تقصد أنهم كلهم حشاشون!

ـ كلنا فقدنا ارادتنا.. ولكن نوع الحشيش يختلف! بعضنا يخدره الحشيش، وبعضنا تخدره التجارب، وبعضنا يخدره الخوف وبعضنا يخدره الجوع!

ـ ولكنى لا أزال صاحيا!

ـ إلى أن تصادف نوعا من الحشيش الذى يخدرك!

ـ إن الجريمة التى جئت بسببها إلى هنا أننى حاولت أن أنبه الغافلين، وأوقظ النائمين، وأنبه المخدرين!

ـ إنها أكبر جريمة فى القانون!

* * *

وتركه عم عبده يائسا من اقناعه بأن يشهد معه، ولمح المسجون طه أبو العلا. هذا المسجون المسحوق الذى يعطف عليه دائما لبؤسه وفقره ومرضه. إنه يعمل فى تنظيف دورة المياه فى الطابق الثانى. يحمل جرادل المسجونين القادرين فى مقابل سيجارة. بهذه السيجارة يستطيع أن يأكل طعام السجن الذى لا يشبع طفلا. بهذه السيجارة يفتدى نفسه من صفعات الحراس وركلاتهم كلما التقوا به. رآه فى ثيابه الممزقة، فى قدميه العاريتين فى لونه الأصفر الذابل، فى عينيه المليئتين بحزن دائم، جعله يبدو دائما كتمثال رجل مسحوق، رجل بال فوقه الحراس والمسجونون على حد سواء.

رجل مصلوب بلا صليب. رجل مضروب بلا سياط.

ولهذا كان عم عبده يحس باشفاق دائم على المسجون طه أبو العلا ـ يدعوه أحيانا لمشاركته طعامه الفاخر الذى تحمله له الآنسة كاف. لقد منحه مرة «بول أوفر» جميلا أرسله له المهندس عادل علاء الدين. ليقيه برد الزنزانة القارس. وفوجئ بطه وقد باع «البول اوفر» الذى يبلغ ثمنه خمسة جنيهات بخمس سجائر! وغضب عم عبده على طه لهذه الحماقة. وقال طه والدموع فى عينيه أن الممرض المنشاوى رفض أن يسلمه دواء الصدر الذى أمر به الطبيب إلا إذا دفع خمس سجائر، ولاحظ عم عبده أنه كلما قدم سيجارة إلى طه أبو العلا أنه كان يتنفس نار السيجارة أكثر مما كان يهف دخانها! كانت رئتاه تحترقان مع كل نفس. يسعل دما، يبيع اللبن الذى يصرف لمريض الصدر مقابل سيجارة. يبيع البرش الذى ينام عليه وينام على الأسفلت ليحصل من الممرض المنشاوى على جرعة دواء. الدواء يصرف للمسجون على الورق فقط، الطعام الصحى يملأ دفاتر السجن الرسمية، وتخلو منه قروانة المسجون المريض. كان طه يحقد على الممرض المنشاوى. يرى فيه الظلم مجسما كأنه اجتمعت فيه كل شرور البشرية، وقسوتها، وطغيانها، وجبروتها!

إذن، فإن طه خير شاهد يمكن ان يستعين به عم عبده على اثبات جريمة القاتل.. واقترب منه، وأعطاه سيجارة، ثم سأله:

ـ هل رأيت جريمة خنق مسعود؟

ـ رأيتها من أولها إلى آخرها!

ـ وهل عرفت القاتل؟!

ـ المنشاوى...

ـ وهل ادهشك ما رأيت؟

ـ لم أدهش طبعا.. لقد رأيته من قبل وهو يقتل المسجونين بـالجملة... رأيته هذه المرة وهو يقتلهم بالقطاعى!

ـ وفيم فكرت عندما رايته يرتكب هذه الجريمة؟

ـ فكرت في ان اقتله.. واخلص المسجونين منه!

ـ إن القانون هو الذى سيتولى عقابه.

ـ القانون يقتل الابرياء.. ولا يقتل القتلة!

ـ سأتقدم ببلاغ إلى النائب العام

ـ ماذا ستقول في البلاغ؟

ـ ساقول ان الممرضين يقتلون المرضى.

ـ النائب العام يعرف ذلك.

ـ لا يمكن ان يعرف النائب العام ان هذه الجرائم ترتكب في السجن.

ـ لو كان يعرفها فلماذا لا يحقق فيها؟

ـ كيف يحقق فيها، وهو لا يعرفها؟

ـ انه يرسل إلى هنا كل شهر رئيس نيابة يزور السجن!

ـ ومن اين يعرف رئيس النيابة مادام المسجونون لا يتكلمون؟

ـ انه يمر ومعه ضابط!

ـ ولماذا نخاف من الضابط؟

ـ الويل لمن يفتح فمه ويقدم شكوى لرئيس النيابة!

ـ هل يعرف رئيس النيابة هذا؟

ـ طبعا.

ـ إذن لماذا يزور السجن؟

ـ ليكتب فى الدفاتر انه زار السجن ووجد ان كل شىء يسير طبقا للقانون.

ـ الا يرى بعينيه ان كل شىء فى السجن مخالف للقانون.؟

ـ العيون أحيانا تخاف ان ترى ان تمثال العدالة هو امرأة معصوبة العينين، وبعض رجال العدالة ينزعون العصابة ويضعونها على عيونهم لكيلا يروا، ما لا تريد الحكومة ان يروه!

ـ حتى ولو كانت جريمة قتل؟

ـ مادام القاتل موظفا فى الحكومة!

ـ ولكن عندى شهود راوا الجريمة بأعينهم..

ـ لن تجد من يشهد معك!

ـ أنت سوف تشهد معى!

ـ أنا لا يمكن أن أشهد ضد إدارة السجن.

ـ ولكنك قلت لى من دقائق انك كنت تريد ان تقتل القاتل!

ـ اقتله.. ولا اشهد ضده!

ـ كأنك لا تخاف المشنقة.. وتخاف الادارة!

ـ لو شهدت ضد الادارة فسوف يحرمونني من وظيفتى!

ـ وظيفتك؟ هل تهمك هذه الوظيفة الحقيرة؟

ـ انها وظيفة خفير مراحيض الطابق الثانى!

ـ كنت أظن انك تخاف على وظيفتك إذا كنت وزيرا!

ـ المسائل نسبية فى الحياة. المسجون الذى يحرس دورة المياه فى السجن يشعر ان وظيفته لا تقل عن وظيفة وزير الاشغال الذى تتبعه مصلحة المجارى!

ـ ولكنك قلت لى مئات المرات انك ثائر على الظلم الموجود فى السجن!

ـ نعم.

ـ وترفض ان تشهد بالحقيقة؟

ـ أشهد بها امامك... ولكن لا استطيع ان أشهد بها أمام الادارة!

ـ ان خوفنا من ان نواجه الكبار بالحقيقة هو الذى يجعلنا نعيش صغارا!

ـ لقد قلت الحقيقة مرة واحدة فى حياتى.. ودفعت ثمنها!

ـ ما هو الثمن؟

ـ وجودى فى هذا السجن. لقد كنت خفيرا فى نقطة بوليس قرية ابو حسن فى مديرية المنوفية ورأيت ضابط النقطة يطلق الرصاص من بندقيته ويقتل

الفلاح إبراهيم حزين. كان الضابط يحب زوجة الفلاح عطيات. ويـريد أن يزيل زوجها من طريقه. وطلب منى الضابط أن أشهد ان القاتل هو سـمير العدوى. وهو فلاح فقير ورفضت أن أؤدى شهادة الزور. وشـهد زميلـى الخفير توفيق السيد بما أراد الضابط. واعدم الفلاح المظلوم. وبعد اسابيع لفق لى الضابط تهمة قتل أخرى، وجاء بالخفير توفيق السيد وشهد ضـدى وحكم على بالاشغال الشاقة!

ـ وماذا حدث لشاهد الزور؟

ـ عينه الضابط شيخا للخفراء!

ـ ولهذا لا تريد ان تشهد على الممرض المنشاوى!

ـ لو شهدت عليه لحكم على بالأعدام!

وضرب عم عبده كفا بكف. القادرون لا يريدون ان يشهدوا بالحقيقة خوفا على مصالحهم، والمعدمون لا يريدون ان يقـولوا الحقيقـة خـوفا علـى أعناقهم! كان الحقيقة أصبحت بغير إنصار! أصبحت كالمنبوذين فى الهند الذين يخاف الناس أن يلمسوهم حتى لا يصابوا بـاللعنة: كان الحقيقـة مسجونة فى سجن الاستئناف هى الاخرى، أو كانها مخنوقة كمـا خنقـوا المسجون مسعود، وملقاة بجوار جثته فى الزنزانة المجاورة لغرفة الاعدام!

ولكن الممرض المنشاوى هو الذى خنق مسعود. فمن هو الـذى خنـق الحقيقة؟ هل خنقها المسجونون الخانقون، أم خنقهـا المجتمـع الـذى لا يعرف قيمة الحرية، الذى يتصور ان الحرية هى ترف لا قيمة له من أجل لقمة العيش ـ كانهم لا يعرفون ان الحرية هى حياة كل واحد منهـم. لـو كانت هذه الحرية موجودة، لما سرق الحراس اطعمتهم، لما نهب الممرضون

ادويتهم، لما عاشوا فى زنزاناتهم كما تعيش الحيوانات! ان هؤلاء المساكين لا يعرفون ان الحرية هي شهادة ميلاد لكل واحد منهم، وبغيرها لا يعتبر الانسان على قيد الحياة. الذين يتصورون ان لقمة العيش اهم من الحرية واهمون، والذين يتوهمون ان القادرين اكثر شجاعة فى الدفاع عن حريتهم من المعدمين مغفلون. الاستبداد يحول القادرين والمعدمين إلى عبيد ضعفاء متخاذلين، يشغل الفقير بالبحث عن لقمة العيش، ويشغل القادر بالدفاع عما يمتلك. كل واحد منهم مشغول بنفسه، الاستبداد جعل كلا منهم يتضاءل إلى مرتبة الدابة. التى لا يهمها من يركبها، كل ما يهمها ان تجد طعامها! الفرق بين المعدمين والقادرين فى دنيا العبودية كالفرق بين حمار بغير بردعة، وحمار ببردعة موشاة بالقصب. حمار يحمل على ظهره السباخ وحمار يحمل على ظهره صاحب العزبة! يتساوون بأنهم جميعا من الحمير. كل واحد منهم يضرب على رأسه! ما الفرق بين العصا التى يحملها الفلاح الذى يسير وراء السباخ، وبين العصا التى يحملها صاحب العزبة؟ الم الضربات واحد فى الحالتين! حمار السباخ بلا كمامة، وحمار البك صاحب العزبة له كمامة مذهبة وله مقود من الجلد الانيق. ولكن كلا من الحمارين يشعر انه فاقد ارادته، فاقد حريته، لا يستطيع ان يسير الا فى الطريق الذى اختاره له راكبه!

ولكننا لسنا حميرا اننا آدميون نحن بخضوعنا واستسلامنا نلغى عقولنا، ونتحول إلى حمير تساق. نحن بسكوتنا نضع الكمامات فى أفواهنا، كمامات غير منظورة. الخوف هو الذى يفرضها على أفواهنا. حكامنا يفعلون بنا ما كان يفعله الفلاح ليلة زفافه، يجىء بقطة بريئة ويذبحها امام عروسه، فتصاب بالرعب طوال حياتها، وتسير خلف زوجها مغمضة العينين!

واحس عم عبده بأنه احد هذه القطط التى يريد الحاكم ان يذبحها

ليخيف الشعب، ويمشي وراءه مغمض العينين!

* * *

وفوجىء عم عبده بيد تضربه على ظهره، وكأنها توقظه من أفكاره. والتفت خلفه فوجد زميله السجين ماهر نجيب، المحامى المتهم فى قضية قتل من أجل الشرف.. وسمعه يقول له بصوت عال:

ـ هل رأيت حادث القتل!؟ هل يمكن ان نسكت على هذه الجريمة؟ لو سكتنا فسيكون مصيرنا جميعا مصير مسعود..

وارتجف عم عبده. ان ماهر نجيب يقول بصوت مرتفع نفس الكلمات التى كان يهمس بها، ولم يجد لها صدى فى الحاج دعبس ابو خطوة تاجر المخدرات، أو فى طه ابو العلا نوبتجى دورة المياه. ايكون العلم هو الذى جعل ماهر نجيب المحامى، يرى ما لايراه تاجر المخدرات أو حارس المراحيض هل العلم يجعلنا اشجع من الجهلاء؟ وتذكر عم عبده انه لا يحمل شهادة ومع ذلك فقد تشجع ولعن الجريمة، ومأمور السجن ونائبه والطبيب الأول والطبيب الثانى يحملون شهادات عليا، ومع ذلك فانهم لا يسكتون فقط على الجريمة، وانما هم شركاء فيها.

واحس عم عبده بسعادة لأنه وجد له حليفا على الظلم، وأقبل على ماهر نجيب يشد على يديه، وكأنه يشكره لأنه تكلم والمسجونون سكوت وتحرك وهم سكون، ووقف وهم قعود. أحس بسعادة انه وجد شجاعا بين متخاذلين، جريئا بين جبناء، وقال له:

– إذن أنت مستعد للشهادة.

– مستعد جدا!

هل توقع معى بلاغ للنائب العام!

- إننى مستعد أن أوقع بلاغا إلى الملك أيضا.

ـ إذن اكتب البلاغ. فانت محام تعرف صيغة مثل هذه البلاغات.

ـ ماذا اكتب؟

ـ اكتب اننا رأينا جريمة قتل.

ـ من هو القاتل؟ هل هذا سؤال؟ لقد رأيته بعينيك!

ـ يجب ان نتفق أولا على من هو القاتل!

ـ هذه المسألة ليست فى حاجة إلى اتفاق.. انت رأيت الممرض المنشاوى وهو يخنق مسعود..

- ولكن ليس معنى هذا أن المنشاوى هو القاتل!

ـ كيف لا يكون قاتلا.. وقد رأيته بعينيك يخنق مسعود؟

ـ قد يكون المنشاوى هو القاتل وقد لا يكون! قد يكون القاتل هو الذى منح هذا الممرض مرتبا قدره أربعة جنيهات فى الشهر، وله ثمانية أولاد، وبذلك اضطره ان يسرق أدوية المساجين ليطعم أولاده.

واضطره ان يقتل مسعود ليخفى جريمة السرقة ولينقذ حياة أولاده الثمانية من الموت جوعا! وقد يكون القاتل هو الوزير الذى وضع لائحة السجون، واعتبر المسجونين منبوذين، محكوما عليهم بالموت المدنى، محرومين من كل حقوق الانسان!

وقد يكون القاتل هو المجتمع الذى جعل من كل موظف مهما صغر شأنه

الها يملك فى يديه حق الحياة وحق الموت! وقد يكون القاتل هو نظام التمريض فى بلادنا الذى جاء بعدد من الوحوش واطلق عليهم لقب ممرضين! وقد يكون القاتل هو انا وانت وغيرنا من المسجونين الذين سكتنا على ظلم أقل، فاصبنا بظلم أكبر. فالظلم يبدأ صغيرا ثم يكبر بفضل خضوع المظلومين وخنوعهم! وقد يكون قتلة مسعود هؤلاء جميعا!

ـ إننى أطلب منك ان تشهد على جريمة قتل واحدة وانت تريد ان تحولها إلى عدة جرائم قتل!

ـ انا مستعد ان أشهد فى كل الجرائم التي رايتها.. لا فى جريمة قتل واحدة؟

ـ كانك لا تكتفى ببلاغ للنائب العام!

ـ ان الامر يحتاج إلى كتاب!

ـ إننى جئت هنا فى تهمة كتابة منشور من صفحة واحدة..

ـ منشور واحد لا يكفى.. نحن فى حاجة إلى كتاب!

ـ وما هو الحل؟

ـ ان نحطم اقفاص السجن!

ـ ولكننا فى داخل هذه الاقفاص.

ـ التاريخ يقول ان كل الذين حطموا الاقفاص هم الذين ذاقوا مرارة هذه الاقفاص!

الفصل الثانى والثلاثون

تسللت أشعة الشمس من نافذة غرفة نوم قسمت، كما يتسلل العاشق إلى نافذة الحبيب. وتسربت من خلف الستائر الخضراء، وزحفت فى بطء إلى الفراش الواسع الذى كانت تنام فيه. وألقت ضوءا خافتا على الجسد شبه العارى، الذى فشلت فى أن تخفى جماله الغلالة الحريرية الشفافة، بل كأن قميص النوم الأحمر تآمر مع الضوء الخافت ليظهر فتنة المرأة النائمة فى الفراش.

وحركت قسمت رأسها فوق الوسادة فى نشوة امرأة سكرى، وكأن شعاع الشمس طبع على شفتيها قبلة ساخنة. وارتسمت على الشفتين الشهيتين الناضجتين ابتسامة، كأن قبلة الشمس بللت الشفتين برحيق الحب. واستنشقت قسمت نفسا طويلا، وحركت أنفها وكأنها شمت رائحة عطر نفاذ انساب إلى كل جزء من جسدها.. وكأن أشعة الشمس حملت معها هذه الرائحة الجميلة التى امتزجت فيها أنفاس الورود فى حديقة البيت مع نسيم الصباح..

وفتحت قسمت عينيها نصف فتحة وألقت نظرة حالمة على الفراش ثم مدت ذراعها فى تراخ، وراحت تتحسس المرتبة، ومضت أصابعها تتحس الفراش، كأن أصابعها الخمس هى خمسة من العميان يبحثون عن شىء ضاع منهم فى الظلام.

أين ذهب هذا الرجل؟ وقفزت من فراشها فى هلع، ونظرت حولها فى دهشة، وكأنها اكتشفت عندما رأت أثاث غرفتها أنها ليست هى الغرفة التى أمضت فيها ليلتها.. وعضت على شفتيها، وكأنها تلعن أشعة الشمس التى اقتحمت نافذتها، وأيقظتها من الحلم اللذيذ، الذى عاشت فيه عدة ساعات!

كانت تحلم بعادل علاء الدين.. أمضت ساعات طويلة بين ذراعيه فى شقته بعمارة إيموبيليا.. لا تزال حرارة قبلاته فى شفتيها.. لا تزال حلاوة ضماته فى صدرها.. لا تزال تشعر بيديه تضغطان على ذراعيها، لا تزال تشعر بأصابعه تلعب فى خصلات شعرها..

إنها أول مرة فى حياتها تحلم بعادل علاء الدين. كثيرا ما تمنت أن يجيىء إليها فى الحلم، ولم يجىمرة واحدة. كأنه اعتاد أن يعربد فى الليل مع عشرات النساء ولم يجد وقتا ليجيىء إليها فى موعد الأحلام!

لقد قيل لها إنه من الممكن أن تحلم المرأة بالرجل إذا ركزت كل أفكارها فيه قبل أن تغمض عينيها وهى تركز أفكارها بالليل والنهار فى عادل علاء الدين ومع ذلك لا يجيىء. كأنه ينتقم منها، ويهرب منها فى الحلم بعد أن هربت منه فى الحقيقة!

كانت تحلم كل ليلة، تحلم بكل شيء إلا بالرجل الذى تمنت أن تراه فى الأحلام. كانت تحلم بعم عبده فى سجنه. تحلم بالراقصة نشوى، تحلم بالصاغ عبد الفتاح الشبهاوى الذى لفق قضية عم عبده.. بل إنها حلمت بالممرض المنشاوى من كثرة ما سمعت عنه من عم عبده بعد حادث خنقه للمسجون مسعود! بل إنها كثيرا ما حلمت بالأميرة فضيلة! حلمت بها ترتدى ملابس ممرضة وتخنقها بيدها!

ولكنها المرة الأولى التى ترى فيها عادل علاء الدين فى الحلم. ما الذى

جعله يغير عادته ويحضر إلى أحلامها؟ هل أحس بالشوق لها كما أحست بالشوق له؟ هل أحس بأنه فى حاجة إليها فأسرع إلى صدرها يحتمى فيه؟ إنها لم تسمع صوته منذ سبعة شهور. صوته المليء بالرجولة.. لم تلمس يده، يده التى كانت تصافحها وكأنها تعانقها وتسند خدها إلى شعر يده، فتحس كأن كل شعرة فيه تلثم خدها. لم تتمرغ بين ذراعيه، آه من هاتين الذراعين، إنها عندما تدخل بينهما تحس كأنها دخلت فى أبواب النعيم.. لم تذق قبلاته، قبلاته التى كانت تميتها وتحييها، ترفعها إلى السماء وتهبط بها إلى الأرض، قبلاته التى كانت تنسى فيها الدنيا وكأنها تخدرها وتملأها بنشوة لذيذة رائعة. إنها افتقدت كل شيء فى عادل علاء الدين. حتى رائحة صابون الحلاقة الذى كان يستعمله كانت تملأ أنفها بهذه الرائحة فتحس بأنها أجمل رائحة فى الدنيا.. رائحة الرجل الذى عشقته، الرائحة التى كانت تبقى فى أنفها يوما كاملا بعد أن تقابله، وكأن رائحته المعطرة ملأت الدنيا كلها!

أما اليوم فإنها لا تشم إلا رائحة الموت! تحس كأنها أصبحت مجموعة من الجثث فى امرأة واحدة.. كأن جسدها تحول إلى مدفن مليء بالقبور والهياكل العظمية!

كان حب عادل جعل منها عدة نساء فى امرأة واحدة.. ماتت قسمت شاهين.. ولدت الآنسة كاف ذات الشخصية المتعددة. العاشقة التى ولدت لتحب عادل علاء الدين، الصديقة التى كرست حياتها من أجله. الغانية التى تفننت فى أن تجعله يستمتع بكل نساء الدنيا فى امرأة واحدة. الأم التى تتلهف عليه ولا تريد أن يغيب عن عينيها لحظة واحدة، الأخت التى كانت تحس بأنها توأمته. الابنة التى كانت تنظر إليه كأنه مثلها الأعلى.

كانت الآنسة كاف كل هؤلاء النساء لعادل. ثم فجأة مات كل هؤلاء. متن بالسكتة القلبية تحولن إلى موتى بلا حراك. لا يصرخن ولا يبكين، فالموتى لا يعرفون الدموع ولكنها تظلم عادل إذا قالت إنه القاتل. إنه هو الذى قتل المخلوقات الجميلة التى خلقها فى داخلها. إنها هى التى قتلتهم.. هى التى خنقتهم بيديها. كما خنق المرض المنشاوى المسجون مسعود.. قتلت معهم الآنسة كاف.. وبعثت قسمت إلى قيد الحياة، قسمت بكل بشاعتها، بكل حقدها على الرجال، بكل سخطها على العشق والعاشقين!

إنها لم تطق أن ترى عادل بعد أن عرفت أن الأميرة فضيلة حملت منه بعد أن شعرت أنه مهتم بهذا الجنين.. أحست بأن هذا الحمل قطع كل ما بينها وبينه. إن هذا الجنين هو رمز خيانة عادل علاء الدين، وسيكبر الرمز كل يوم، وسيخرج إلى الحياة، وسيتحرك، وستنمو الخيانة كل يوم: وكلما عرفت قسمت من صديقاتها أن بطن الأميرة فضيلة تكبر، كان عذابها يكبر، وشقاؤها يكبر، وحقدها على كل الرجال يكبر. وكأنها شعرت أن حب عادل لها قد سكنت نبضاته، يوم تحرك هذا الجنين، وإن هذا الحب يتضاءل كلما نما هذا الجنين.. لم تعد تشعر أنها أم عادل، أصبحت تشعر أنها أم ثكلى فقدت أبنها الوحيد. لم تعد تحس بأن عادل أبوها. لقد مات هذا الأب وأصبحت يتيمة. لم تعد تشعر بانه زوجها أمام الله. لقد مات زوجها وأصبحت أرمل. لم تعد تحس بأنها عاشقة معشوقة، بل أصبحت تحس بأنها عاشقة مهجورة.. أصبحت تشعر بكل عذاب هؤلاء البائسات الشقيات. تبكى بكل دموعهن. تزفر مجموع زفراتهن. كل كلمة حلوة سمعتها من شفتيه انقلبت إلى سكين ' كل ضمة لذيذة فى صدره تحولت إلى جحيم. كل شىء انقلب إلى ضده. كانها عندما فقدت الحب، فقدت حواسها الخمس.. ما فائدة العينين إذا كانت لا ترى بهما من تحب؟.. ما فائدة الشفتين إذا

كانت لا تقبل بهما من تهوى؟. ما فائدة حاسة السمع إذا لم تسمع بها صوته القوى المثير؟ ما فائدة اللمس إذا لم تلمسه؟ ما فائدة حاسة الشم إذا لم تملأ جسدها برائحته!

لقد طاردها عادل خلال هذه الشهور. طلبها فى التليفون مئات المرات، فكانت تنكر نفسها.. حرصت على ألا ترد على التليفون.. لم تعد تبقيه بجوار مخدعها طوال الليل. كانت تخشى أن تسمع صوته فتضعف، وتنهار، وتعود إليه صاغرة. لقد تعودت ألا تقول له (لا) أبدا! المرات التى قالت له فيها (لا) نغمتها بصوتها حتى بدت كأنها ألف (نعم)!

وكتب عادل لها عشرات الخطابات وكانت تمزق الخطابات قبل أن تفض المظاريف. كان قلبها يتمزق وهى تمزق الخطابات. ولكنها كانت تعرف أن كل كلمة سيكتبها لها سوف تقنعها! لو أنه اعترف بجريمته. فستغفر له جريمته. لو أنه اعتذر عنها فسوف تقبل عذره. لو أنه شتمها فسوف تسعد بشتائمه لأنها ستعلم - أنه يشتمها لأنه يحبها!

وهى لا تريد أن تعرف أنه يحبها.. لو عرفت ذلك فسوف تذهب إليه مغمضة العينين، تركع أمامه، تبكى تحت قدميه. تعود كما كانت الآنسة كاف ذات الشخصيات المتعددة، التى لا عمل لها فى الحياة إلا عادل علاء الدين!

ولأنها لم تجرؤ على أن تواجهه فى الحقيقة، كانت تتمنى أن تراه فى الحلم، وها هو قد جاء فى الليلة الماضية. وما كادت تراه حتى استسلمت له. إنها لم تذكر إنها حدثته فى الحلم عن فضيلة، ولا ن الجنين، ولا عن قرارها بقطع علاقتها به.

كأن كل هذا كان حلما.. وكأن حبهما هو الحقيقة الوحيدة. وها هى تستيقظ لتكتشف أن عادل علاء الدين فعل فى الحلم ما عجز عن أن يفعله فى الحقيقة. لقد بعث المخلوقات التى قتلتها إلى قيد الحياة من جديد! إنها تشعر لأول مرة منذ سبعة شهور أنها عادت الآنسة كاف. إنها لم تعد تكره الرجال. إنها لا تغار من الأميرة فضيلة. إنها لا تغار من الجنين. ما اتفه عقل قسمت شاهين التى كانت تغار من جنين.. إنها الآن الآنسة كاف، بكل ما فيها من أنوثة طاغية، بكل ما فيها من شوق ولهفة. عادت تحس بأنها تشم رائحة الحياة تنبعث فيها من جديد. اختفت رائحة الموت التى كانت تخنقها.. النساء المقتولات فى داخلها عدن إلى قيد الحياة. أصبحت تشعر أنها مرة أخرى، أم عادل علاء الدين وابنته، وأخته، وعابدته، وصديقته، وغانيته، وشريكته فى الحياة.

وأمسكت بيدها مرآتها، وتطلعت فيها. اختفى فجأة ذبولها. أمس فقط نظرت فى نفس المرآة فرأت نفسها قد جفت وذبلت، كما تجف وتذبل الزهرة عندما تحرم من الماء أو من الشمس والهواء. ها هى عادت تتفتح من جديد، وكأنها وجدت الماء والشمس والهواء.. وجدتها فى الحلم مع عادل علاء الدين!

هل من الممكن أن يفعل بها الحلم كل ما فعل؟ أن تتحرك حياتها بعد أن ركدت؟ أن تمتلئ أيامها بعد أن خلت؟ أن تضيء لياليها بالنور بعد أن امتلأت بالسواد والظلام؟ إذا كان الحلم فعل بها كل هذا؟ فماذا سوف تفعل بها الحقيقة لو أنها عادت إليه؟!

وأحست بأن المرآة تبتسم فى يدها. كأن كل شيء فى غرفتها سمع جملة (لو عادت إليه) فرقص فرحا. كأن الوسادة التى سقطت عليها دموعها عرفت

أنها لن تبللها بهذه الدموع. الفراش الذى مل سهادها، وتقلبها ذات اليمين وذات اليسار. عرف أنه سوف يستريح من كثرة هذه التقلبات والتنهدات والزفرات.

* * *

ودقت قسمت الجرس . ودخل الخادم يحمل إليها مائدة الافطار وبجوارها جريدة الصباح.. ووضع المائدة فوق فراشها، وفتح ستائر الغرفة فامتلأت بالنور. ثم ألقى الخادم نظرة على سيدته، وشهق.

ورأت قسمت الدهشة فى عينى خادمها العجوز الذى حملها على كتفيه وهى طفلة فرأت الذهول يملأ وجهه فسألته:

ـ ماذا حدث؟

ـ إننى أنا الذى أسألك ماذا حدث؟

ـ لم يحدث شىء!

ـ كيف لم يحدث شىء؟ لقد حدث كل شىء.

ـ ماذا تقصد؟

ـ لست أنت التى كنت نائمة فى هذا الفراش!

ـ هل جننت؟!

ـ لقد رأيتك فى الليلة الماضية عندما دخلت من باب البيت.. وصعدت معك إلى باب غرفة النوم وأغلقت بنفسى الباب عليك. والفتاة التى أوصلتها إلى غرفة النوم ليست أنت! كنت شبحا وأصبحت امرأة! كنت ليلة أمس تصعدين درجات سلم البيت وكأنك تشيعين جنازة. أما صباح اليوم فإنك

أشبه بعروس فى صباح اليوم التالى لزفافها!

ـ ربما دخل العريس من النافذة وأنت نائم!

ـ لابد أن شيئا قد حدث! لابد أنك خرجت من البيت بعد أن تركتك!

ـ إننى لم أغادر الفراش.

ـ لابد أنك كنت مسحورة.. وزال السحر!

ـ ربما أكون الآن مسحورة!

ـ إنك عدت جميلة كما كنت منذ سبعة شهور!

ـ كيف عرفت أن جمالى ذهب منذ سبعة شهور؟

ـ لا يمكن أن أنسى ذلك اليوم الذى عدت فيه إلى البيت وتصورت أنك تموتين. كان وجهك أصفر. كانت شفتاك ترتعشان. كانت عيناك منطفئتين. اعتقدت يومها أنك مريضة جدا. أخبرت الباشا أننى أعتقد أنك تموتين. وجاء الطبيب وكشف عليك، ثم قال إنه لم يجد فيك أى مرض. ولكنى كنت أراك تذبلين يوما بعد يوم. اختفت ابتسامتك، أحسست أنك أصبحت بلا روح، لاحظتك على المائدة لا تأكلين كما تعودت أن تأكلى... ثم أراك اليوم وكأن أمراضك كلها قد زالت فى ليلة واحدة.. الدم عاد يجرى فى عروقك بشرتك ناصعة، عيناك تلمعان من جديد: إنك لست المرأة التى دخلت أمس إلى هذا الفراش!

ـ إنك تتخيل أشياء غريبة!

ـ لا... إننى أرى بعينى أشياء عجيبة!

وخرج الخادم العجوز من الغرفة بخطوات أسرع من خطواته

عندما دخل. كأن السعادة مرض معد. وكأنه أصيب برذاذ من سعادة سيدته. ودهشت قسمت أن يرى خادمها العجوز فيها كل ما رأته من تغيرات حدثت فى داخلها. وكأنه أطل بعينيه فى أعماقها. وكأنه شم هو الآخر رائحة الحياة تتغلب على رائحة الموت التى كانت تنبعث منها، وتطردها..

كيف عرف خادمها كل الذى عرفه؟ كيف قرأ فيها قصة التغيير العجيب الذى حدث لها بين يوم وليلة؟

ثم سمعت دقا على الباب، ولم ينتظر خادمها أن تدعوه للدخول، فدخل وهو يحمل فى يده آلة التليفون...

وذهلت عندما رأت آلة التليفون والسماعة فوق الآلة. إن معنى ذلك أن أحدا لم يطلبها. لقد أحضر لها الخادم آلة التليفون دون أن تطلبها. على الرغم من أنه كان يعلم بأوامرها منذ سبعة شهور بأنها لا تريد آلة التليفون! ما الذى جعله يجيء اليوم بآلة التليفون؟.. وقالت له وكأنها توبخه:

ـ ولكنى لم أطلب منك إحضار التليفون!

ـ أعرف ذلك.

ـ لماذا أحضرته؟

ـ لأنك تريدين أن تتكلمى فى التليفون.

ـ كيف عرفت؟

ـ عندما عرفت انك عدت إلى قيد الحياة... لان الموتى لا يتكلمون!.

ـ ولكننى لا أريد ان اتحدث مع احد!

ـ اننى واثق من انك تنتظرين مكالمة!

ـ قد يدهشك ان تعلم اننى لا أنتظر مكالمة من احد!

ـ اذن فأنت تريدين ان تطلبى احدا!

ـ انك تخرف!

ـ اننى افكر بقلبى!

ـ من هى السيدة التى انتظر ان تحدثنى.. أو التى تظن اننى اريـد ان حدثها؟

ـ انها ليست سيدة.. انه رجل!

ـ ومن هو الرجل؟

ـ عادل علاء الدين بك!

- كيف عرفت إنه هو؟

ـ لانك قلت لى منذ سبعة شهور: إذا سأل عنى عادل علاء الدين فقل له إننى غير موجودة!

ـ وما الذى يجعلنى اتحدث اليه اليوم؟

ـ الذى حدث فى الليلة الماضية!

ـ وماذا تظن انه حدث فى الليلة الماضية؟

ـ لا أعرف.. ولكنى واثق انه حدث شىء!

ـ ان شيئا لم يحدث على الاطلاق!

ـ إننى اعرفك منذ كنت طفلة.. واعرف متى تكذبين ومتى تقولين الحق!

ـ وانت تظن اننى كاذبة عندما اقول لك : لم يحدث شيء !

ـ لا أظن.. وانما انا واثق انه حدث شيء ! سأتركك الآن لتتكلمى فى التليفون !

* * *

وتركها الخادم العجوز وخرج. تركها مذهولة. كانت فعلا تريد علاء الدين. كانت فعلا تريد أن تتحدث مع عادل علاء الدين. كانت فعلا تريد ان تطلب التليفون من الخادم ولكنها لم تقل له شيئا من هذا فكيف عرف كل هذا ؟ هل يتحول الخادم الذى يخدمنا سنوات طويلة الى رجل يقرأ أفكارنا، يغوص فى داخلنا، يفهمنا بغير ان نفتح افواهنا ؟ ام اننا عندما نحب انسانا يزيل الحب الحواجز التى بيننا وبينه. نرى أشياء لا يراها الذين لا يحبونه. نسمع كلمات لم ينطق بها !..

إن خادمها اذهلها بهذه المناقشة، وكأنها قصت عليه قصة حبها مع عادل علاء الدين، وقصة خلافها معه !

هل يعرف هذا الخادم العجوز الحب ! هل ذاقه كما ذاقته ؟ هل تعذب فى ناره كما تعذبت وأصبح يفهم لوعتها ويحس بشقائها، ولهذا جاء بالتليفون، لأنه يعرف انه يوصلها إلى الطبيب الوحيد، الذى هو الداء والدواء معا ؟!

ونظرت الى الساعة. وجدت انها لا تزال السابعة والنصف صباحا. لا يزال عادل نائما. سوف تنتظر عشر دقائق حتى يستيقظ.. لا تريد أن توقظه من النوم، انها تريد ان تحدثه وهو يقظان...

وأمسكت الجريدة بيدها، وأطلت بلا اهتمام على عناوين الصفحة الاولى ! انها تتحدث عن توقع انتهاء الحرب ! الحرب العالمية الثانية

لا تهمها الآن، انها مشغولة بانتهاء الحرب التى أعلنتها بلا مناسبة على عادل علاء الدين ! لقد انتهت هذه الحرب ! انها هى التى ستستسلم فيها بلا قيد ولا شرط ! إنها تشعر إنها مجرمة الحرب الوحيدة ! لقد اشعلت هذه الحرب بحماقتها وغيرتها العمياء، من جنين لا يزال فى بطن أمه !

وقلبت قسمت صفحات الجريدة فى تثاقل، ووصلت إلى صفحة المجتمع، وخطر ببالها ان تبحث عن اعلان مجانى وعدت الجريدة بنشره عن الحفلة الساهرة التى ستقيمها جمعية ملجأ المتسولين فى الأسبوع القادم. وتسمرت عيناها أمام نبأ فى أول صفحة المجتمع بعنوان «الاميرة فضيلة ترزق بمولود ذكر» !

وجمت وهى تقرأ العنوان. كأنها لم تتوقع ان تلد الأميرة فضيلة ! كأنها تمنت فى عقلها الباطن ان يموت الجنين فى بطن أمه !..

وها هى الأميرة فضيلة تلد، وتلد ذكرا ! تماما كما توقع عادل علاء الدين عندما كان يتحدث عن الجنين ويسميه «ابنى»... عندما غضبت منه وثارت عليه !

ومضت تقرأ الخبر، والجريدة ترتجف بين يديها. وكانت تقرأ كل سطر مرتين وثلاث مرات. وخيل اليها ان حروف الخبر تهتز أمام عينيها، وإنها لا تفهم ما قرأت. فقد كانت تقرأ الكلمة الواحدة عدة مرات... وكلما مضت فى القراءة سقطت دموعها على الخبر ! «رزقت صاحبة السمو الملكى الأميرة فضيلة قرينة سعادة معروف باشا، بمولود ذكر، فى الساعة العاشرة من صباح أمس.

«وتولى الدكتور نجيب باشا محفوظ الاشراف على عملية الولادة وقد اطلق على المولود اسم «عادل علاء الدين معروف».

«ونحن نهنىء صاحبة السمو الملكى الأميرة فضيلة وقرينها معروف باشا بمولودهما الأول، جعله الله من أولاد السعادة وانبته نباتا حسنا»..

وسقطت الجريدة من يدى قسمت، ودفنت رأسها فى فراشها تبكى وتنتحب بصوت عال...

إن الأميرة فضيلة لم تلد فقط، وانما ولدت ذكرا، واطلقت عليه اسم عادل علاء الدين!

لا يمكن ان تكون الأميرة فضيلة فعلت هذا بغير الاتفاق مع عادل! هو الذى وافق على ان يحمل ابن الخطيئة اسمه. هو الذى شجعها على ان تفعل ذلك. هذا دليل واضح على انه عاد اليها. على انه أصبح صديق الاسرة الأول الذى لا يفارقها، وهكذا لم يجد زوجها غرابة فى ان يكون اسم ابنه البكر عادل علاء الدين تيمنا بأسم صديق الاسرة الوفى!

هل جن عادل حتى يطلق اسمه على ابنه السفاح من الأميرة، ام حبه للاميرة اعماه عما فى هذه التسمية من سخرية؟ ام ان شعور الابوة فيه، قد تغلب على الخوف من الفضيحة، فلم يعد يهمه أى شىء، لم يعد يهمه ما سوف يقوله الناس، كل ما يهمه ان يوقع بامضائه على الجريمة التى ارتكبها مع عشيقته الأميرة! أم أن عادل يريد ان يجرح قسمت فوق ما جرحها، ويمضى فى الاستهانة بشعورها... فهو يعلم اكثر من أى إنسان آخر ما يعنى عندما يطلق اسمه على ابن الأميرة البكر. كأنه يريد ان يقول لقسمت ان علاقته بالأميرة فضيلة هى علاقة دائمة، وانه من أجل استمرار هذه العلاقة فهو مستعد ان يعمل اى شىء، حتى ان يضع اسمه على الابن الحرام الذى ولدته الأميرة!

وشعرت قسمت بأنها تكره عادل أكثر مما كرهته فى أى يوم فى حياتهابل

ان شعورا جديدا أضيف إلى شعور الكراهية، هو شعور الاحتقار. أصبحت تحتقر عادل لأنه قرن اسمه بامرأة يعرف ماضيها القذر. يعرف مغامراتها العديدة يعرف انها غيرت الرجال كما غيرت أحذيتها. تضع الرجل تحت قدمها، وتدوس عليه، ثم تخلعه، وتلقيه بعيدا، لتجيء بحذاء جديد! كيف رضى عادل علاء الدين لنفسه بهذا الهوان؟ لابد انه أحب الأميرة فضيلة حبا جنونيا اعماه عن رؤية ما يفعل. الناس لن يرحموا فضيلة من السنتهم. إنهم لن يصدقوا ان المولود هو ابن زوجها معروف باشا. سوف يقولون انه ابن شركة مساهمة لا ابن رجل واحد! سيؤكدون ان كل عاشق من عشاق الأميرة له سهم في المولود الجديد. وان عادل علاء الدين هو العاشق المفضل الذى قبل ان يضع اسمه على أول منتجات الشركة المساهمة!

انها ليست ثائرة من أجل نفسها فقط، وانما من أجل رجل احبته ومنحته قلبها، وكل شيء. تصورت انه مثل أعلى بين الرجال اختارته وحده من دون رجال العالم.. وإذا بهذا الرجل ينهار فجأة، يتحول من إله إلى صنم، من رجل فوق الشبهات إلى أضحوكة تتندر بها المجالس والمجتمعات!

* * *

ودق جرس التليفون فاضطربت... ومدت يدها إلى السماعة، ووجدت صديقتها أميرة عبد العاطى تفاجئها بقولها وهى تضحك ساخرة:

ــ هل قرأت خبر ولادة الأميرة فضيلة؟

ــ نعم قرأت الخبر.

ــ ما رأيك فى الاسم الذى اطلقته على المولود؟

ــ ما رأيك انت!

ـ رأيى انه نكتة الموسم!

ـ لم أفهم النكتة!

ـ النكتة انها اسمته «عادل علاء الدين معروف»! أى أن ثلثى المولود للمهندس عادل علاء الدين والثلث للباشا الزوج!

ـ ان لسانك طويل يا أميرة!

ـ البلد كله يتحدث عن هذه التسمية العجيبة!

وما كادت تضع قسمت سماعة التليفون حتى دق جرس التليفون مرة ثانية، وسمعت صوت صديقتها زينب كامل تضحك فى التليفون دون أن تتكلم، ضحكات عالية متواصلة، كانت تحطم أعصاب قسمت... ثم بدأت زينب تقول:

ـ لقد جن الناس... فى الماضى كانوا يقولون إذا بليتم فاستتروا ... أما اليوم فإنهم يقولون إذا بليتم فانشروا الخبر فى الصحف... انها أول مرة يعلن اسم عشيق احدى اميرات الأسرة المالكة ببلاغ رسمى... ان الاميرة فضيلة قصدت بتسمية ابنها باسم «عادل علاء الدين» ان تحذر جميع نساء مصر من الاقتراب من عادل، لانه أصبح ملكا خالصا لصاحبة السمو الأميرة... وأى محاولة لمغازلته هى عيب فى الذات الملكية!

وحاولت قسمت ان تضحك، ولكن المرارة كانت تملأ فمها. كانت تريد ان تصرخ، ان تلطم وجهها، وهى تسمع هذه الكلمات الساخرة التى تتناول الرجل الذى احبته ولا تزال تحبه... تحبه وتكرهه فى وقت واحد! تشفق عليه وتحقد عليه.. كأن قلبها يلعنه ويهواه فى كل دقة من دقاته!

ودق جرس التليفون للمرة الثالثة وسمعت صديقتها فاطمة عبد الرسول

ابنة إسماعيل باشا عبد الرسول تقول لها :

ـ لم أكن أعرف أن الأميرة فضيلة بكل هذا الذكاء والدهاء.. لقد اطلقت اسم عشيقها على ابنها ... وهكذا ضمنت الا تخطئ إذا نادت زوجها باسم عشيقها ! ان ابتسام سعد الله تطلقت من زوجها لانها قالت له : انا أعبدك يا محمد

ـ وهل يطلق زوج زوجته لأنها تقول له انا اعبدك؟

- لأن اسمه كان محمود، أما محمد فقد كان عشيقها !

- لا أظن أن معروف باشا من الأزواج الغيورين مثل زوج ابتسام عبد الله.

ـ ان الأميرة فضيلة ابتكرت طريقة تريح كل الزوجات العاشقات !

انها الآن تستطيع ان تقول امام زوجها : «اعبدك يا عادل علاء الدين.. اموت فيك يا عادل علاء الدين.. انت لذيذ جدا يا عادل علاء الدين !

ـ وماذا تفعل الأميرة إذا غيرت عادل بعاشق آخر؟

- تستبدل اسم ولدها باسم العاشق الجديد !

وانتهى حديث فاطمة عبد الرسول، ليدق جرس التليفون مرة أخرى وتسمع صوت صديقتها الهام حافظ تقول لها :

ـ فضيحة ! فضيحة الموسم !

ـ ما هى هذه الفضيحة ؟

ـ الم تقرئى جريدة «الاهرام»؟

ـ قرأتها..

ـ الم تعرف اهم خبر؟

ـ توقع انتهاء الحرب!

ـ «الأهرام» نشرت أن عادل علاء الدين هو عشيق الأميرة فضيلة!

ـ هل قالت جريدة «الأهرام» ذلك!

ـ قالته بالحرف الواحد.. وقد قرأت الخبر بنفسي!

ـ قالوا انها عشيقته!

ـ قالوا انها عشيقته.. ع.. ش.. ى.. قاف.. تاء. تاء مربوطة ايضا!

ـ لا اتصور ان الصحف تنشر صراحة بأن فلانا هو عشيق ابنة عم الملك!

ـ لقد قالت «الأهرام» ذلك.. بالحرف الواحد!

ـ إن جريدة «الأهرام» امامى وليس مكتوبا فيها ذلك.

ـ وأمامي ايضا جريدة «الأهرام» وفيها الخبر مكتوب بالخط العريض

ـ اين!

ـ فى الصفحة الأولى!

ـ عنوان الصفحة الأولى هو توقع انتهاء الحرب.

ـ ربما تكون الطبعة التى عندى غير الطبعة التى عندك!

ـ اقرئى لى نص ما هو مكتوب عندك!

ـ الواقع انني لم اقرأ المكتوب وانما صديقتي عصمت شفيق هي التي أبلغتني الخبر، فارسلت الخادم يشتري لي «الأهرام»!

ـ وقرأت الخبر بغير ان تقرئيه!

ـ لأنني أثق في عصمت شفيق!

ـ ان الخبر مكتوب في الصفحة الخامسة فاقرئيه.. في العمود الخامس من الصفحة الخامسة تحت عنوان «المجتمع».

وسكتت الهام حافظ، وراحت تقرأ الخبر المنشور بصوت عال.. وما كادت تنتهي من قراءته حتى قالت:

ـ لقد قلت لك انني واثقة من صديقتي عصمت شفيق.. انها لا تكذب على ابدأ!

ـ كيف لا تكذب عليك وقد قالت لك انه مكتوب في «الأهرام» ان المهندس عادل علاء الدين هو عشيق الأميرة فضيلة!

ـ وهذا هو المكتوب حرفيا في «الأهرام».

ـ كيف تقولين انه مكتوب حرفيا.. وانت قرأته الان بنفسك!

- واضح من الخبر أنهم يقصدون أن يقولوا هذا!

- ولكنهم لم يقولوه!

ـ لابد ان الرقيب شطبه!

ـ ومع ذلك قرأته برغم ان الرقيب شطبه!

ـ أي شخص نصف متعلم يمكنه ان يفهم الخبر كما فهمته! الم تفهمي

من الخبر ان «الأهرام» تريد ان تقول ان المهندس عادل علاء الدين هو عشيق الأميرة فضيلة؟

ـ لم أفهم هذا!

ـ لأنك لا تعرفين عادل علاء الدين كما اعرفه!

ـ فعلاً، انا لا اعرفه!

* * *

وانهت قسمت المحادثة التليفونية وعجبت من نفسها ما الذى جعلها تدافع عن عادل علاء الدين، ما الذى جعلها تتضايق من عبارات السخرية التى وجهتها اليه بعض صديقاتها؟ لقد كانت تريد ان تقول نفس هذه العبارات الساخرة ولكنها تألمت وهى تسمعها من شفاه أخرى. أحست بأن كل واحدة منهن تطعنها بخنجر، كل كلمة قيلت فى عادل كأنها قيلت فيها، كأن كل حجر يلقى عليه يصيبها، كل طعنة توجه اليه تجرحها وتجعلها تنزف دما! لقد تصورت انها سوف تشمت فيه عندما تنهال عليه النكات، وإذا بها لا تشعر بالشماتة، بل تشعر بالحزن والالم والعذاب. كأن هذه السهام موجهة إلى ابنها، إلى ابيها، إلى اخيها إلى زوجها، إلى صديقها إلى إلهها المعبود!

عجبا... لا يزال عادل علاء الدين كل هؤلاء بعد كل ما حدث!

ونظرت إلى آلة التليفون الصامت..

وتذكرت انها كانت قررت ان تتحدث إلى عادل قبل ان تقرأ النبأ فى الجريدة.. انها لا تستطيع أن تحدثه الآن، لا تستطيع أن تسمع صوته!

لقد سمعت ما فيه الكفاية، سمعته من أفـواه صـديقاتها السـاخرات الضاحكات العابثات.

ودقت الجرس واستدعت الخادم وقبل ان تنطق بكلمة واحـدة، وتقـول للخادم: خذ التليفون.. ولا اريد ان اتحدث مع أحد..

قبل ان تنطق بهذه الجملة، فوجئت بالخادم يدخل الغرفة، ويتجه إلى آلة التليفون ويحملها ويتجه إلى الباب.

وذهلت لتصرفه!

كيف عرف انها لا تريد آلة التليفون فى غرفتها!

كيف عرف انها عدلت عن الحديث مع عادل علاء الدين فى التليفون؟ لابد انه قرأ الخبر المنشور فى النسخة الأخرى من الجريدة التى يقدمها لوالدها الباشا مع الافطار..

لابد انه كان يتصنت على الباب وسمع الاحاديث التى دارت بينها وبيـن صديقاتها..

واستوقفته وقالت:

ـ من قال لك اننى لم اعد فى حاجة إلى التليفون؟

ـ لم يقل لى هذا أحد.

ـ إذن لماذا تأخذ التليفون؟

ـ لأنك لم تعودى فى حاجة للتحدث مع عادل علاء الدين بك!

ـ كيف عرفت ذلك؟.

ـ لأنه ينتظرك الآن فى الصالون!

الفصل الثالث والثلاثون

جلست قسمت فوق فراشها ساهمة.. كانت شبه مصعوقة بعد أن سمعت أن عادل علاء الدين ينتظرها فى صالون بيتها.

ما الذى جعله يطرق بابها بعد هذا الغياب الطويل؟ لماذا اختار هذا اليوم المشئوم دون بقية الأيام؟ لماذا اختار هذه الساعة الحزينة.. الساعة التى علمت فيها أنه أصبح أبا؟

سبعة شهور كاملة مرت على فراقها له، ولم يخطر بباله أن يحضر إلى بيتها. اكتفى بالتليفونات التى لا ترد عليها. وبالرسائل التى تمزقها قبل أن تفضها. لو أنه جاء إليها فى أى يوم قبل هذا اليوم لركعت تحت قدميه.. ولكن الرجال لا يعرفون كيف يدخلون قلوب النساء.. يفضلون أن يقفزوا إليها من النافذة، أو يتسلقوا المواسير إلى سطوح القلوب، بدلا من أن يدخلوا من الباب.. الباب المفتوح على مصراعيه!

ما الذى جاء به؟ أيكون قد جاء ليراها مذبوحة عقب قراءتها نبأ ولادة الأميرة فضيلة وتسمية ابنها عادل علاء الدين؟.أم أنه أراد أن يسبق جريدة الصباح فيمهدها لتقبل هذا النبأ القاتل؟ أيكون قد جاء معتذرا عن نشر الخبر؟ أيكون قد جاء يواسيها فى حزنها وفجيعتها، كما يمشى القاتل فى جنازة ضحيته !؟

أم هى النظرية المعروفة فى علم الاجرام التى تقول إن المجرم يحوم دائما حول مكان جريمته!

وانتفضت غاضبة. واعتزمت أن ترفض مقابلته. إنها لا تريد أن تسمع منه أية كلمة. لقد قالت الجريدة كل شيء، قالت الكلمة الأخيرة! لا تريد أن ترى وجهه. لا تطيق أن تراه بعد أن أصبح أبا. إنها لم تطق أن تراه والجنين لا يزال فى بطن الأميرة فضيلة، فكيف تراه بعد أن خرج الجنين إلى الحياة.. خرج يحمل اسمه هو!

ولا تريد أن يراها تبكي. دموع النساء تريح الرجال. تشعرهم بقوتهم، كأنها تغسل أيديهم من آثار الدم التى تركتها جرائمهم.. لا تريد أن تنفجر فيه، وتصب عليه كل لعناتها. لتتركه حائرا يتخيل كل لعنات الدنيا وهى تنصب فوق رأسه. الرجل بطبيعته يخاف عقاب المرأة المجهول، ويهزأ بالعقاب الذى يعرفه. الكلمات التى لم يسمعها من فم المرأة الغاضبة ترهبه أضعاف ما ترهبه نفس الكلمات بعد أن يسمعها. لتتركه غارقا فى حيرته لتعذبه بالخيال أضعاف ما عذبها بالحقيقة!

ومدت يدها، لتدق الجرس، وتستدعى خادمها، وتطلب إليه أن يبلغ الزائر أنها لا تستطيع مقابلته لأنها مريضة! ثم سحبت يدها فجأة عن الجرس، كأنها تكهربت من سلك وهمى. ما الذى يجعلها تهرب من مواجهته؟ لقد كانت طوال حياتها أنثى شجاعة جريئة، لا تخاف أحدا . تذهب بقدميها إلى الخطر. ولا ترهبه. صحيح أنها أصبحت الآن قتيلة مذبوحة... فماذا يخيف القتيل من أن يواجهْ القاتل؟ المفروض أن القاتل هو الذى لا يطيق أن يعيش مع الجثة التى قتلها فى مكان واحد إنه يغطى عينيه حتى لا يراها إنه يهرب منها.. فإذا استطاعت الجثة أن تلاحق القتيل فإنها تعذبه.. وهى

تشعر فى هذه اللحظة أنها ترغب فى أن تعذب عادل كما عـذبها. أن تـذيقه بعض المرارة التى ملأت فمها..؟

وقامت من فوق الفراش، وفتحت دولاب الملابس، ووقفـت تسـتعرض أثوابها. ومدت يدها وأخرجت الثوب الأبيض الـذى كان يحبـه، والـذى طالما تغنى بجمالها فيه، وقال لها ذات مرة إنه يبرز كل مفاتنها كأنه قيمص نوم شفاف .. لقد كانت ترتدى هذا الثوب يوم زفافها إليه.. ما أعجب القدر أن يصبح ثوب زفافها كفنها. نفس الثوب الذى ارتدته فى يوم زفاف الحـب، سوف ترتديه فى يوم جنازة الحب!

ووقفت أمام مرآتها. وبدأت تتزين كما كانت تتزين قبل أن تدخل شـقة عادل وتركت شعرها الأسود يسقط فوق كتفيها.

وأحست بأنها جميلة جدا، جميلة كما كانت فى الحلم.. لم تستطع صدمة الخبر المنشور عن المولود أن تفقدها هذا الجمال الذى اكتسبته فى الحلم. دموعها التى سقطت بغزارة من عينها، لم تفقد عينيها سحرهما، بـل إنهـا زادتهما لمعانا. كل ما حدث أن أنفها محمر من تأثير البكاء، واستطاعت أن تخفى احمراره بقليل من الكريم والبودرة.

ومدت يدها بحكم العادة، وتناولت نظارتها السوداء وضعتها فوق عينيها. ثم عادت وخلعتها!. فضلت أن يراها عادل جميلة جدا.. حتى وهى مذبوحة!

وهبطت درجات السلم. قررت أن تتماسك أمامه. أن تخرس آهـاتها. أن تخفى الجرح الذى ينزف منها. يجب أن تتحكم فى أعصابها. سوف تمثل دور عدم المبالاة. وما أشبهها بامرأة تحاول أن تبتسـم لقـاتلها، وفى ظهـرها خنجره الذى ينزف منه الدم!

إن عادل يتوقع أن يراها فى هذه اللحظة امرأة محطمة مهزومة منهـارة

ولكنها تريد أن يراها فى نفس الصورة الجميلة التى رآها فى حلم الليلة الماضية !

* * *

ودخلت إلى الصالون، وعلى شفتيها ابتسامة مصطنعة، دفعت كثيرا من أعصابها ثمنا لها. وتقدم إليها يصافحها. وفوجئت به شاحبا، واجما، هزيلا، أصفر الوجه، كأنه أمضى السبعة الشهور الماضية مريضا فى فراشه بمرض خطير. وكتمت شهقة كادت تنطلق. إنها كادت تنسى القرار الذى أصدرته منذ دقائق.. وتأخذه بين ذراعيها، وتسأله فى لهفة عما حدث له، ولكنها تمالكت نفسها. ضغطت على أعصابها. واكتفت بأن مدت إليه يدا متخاذلة تصافحه والابتسامة المصطنعة واقفة فوق شفتيها !

وفاجأته بقولها :

ـ مبروك !

وهوت على رأسه كلمة «مبروك» كمطرقة هائلة.. لقد توقع أن تقول له كلمات كثيرة. ما عدا هذه الكلمة بالذات. وصمت قليلا. وكأنه يحاول أن يستعيد النطق الذى فقده فجأة وقال فى تلعثم :

ـ مبروك على ماذا ؟

ـ لقد أصبحت أبا !

ـ إننى لم أنم طوال الليل.

ـ من الفرحة ؟

ـ من الألم !

ـ إنها لأول مرة يشعر فيها الرجل بآلام الوضع!

ـ أنت تسخرين منى فى وقت غير مناسب.

ـ أنا لا أسخر.. إننى لم أكن جادة فى يوم من الأيام كما أنا اليوم!

ـ ولذلك تهنئيننى بالمولود!

ـ هل تنكر أنه ابنك؟

ـ لا أنكر..

ـ ألا يتقدم الناس بالتهنئة للأب عندما يرزق ولدا؟

ـ تصورت أننى أستحق التعزية!

ـ لو كنت تظن أنك تستحق التعزية لما أطلقت عليه اسمك!

ـ أنا لم أجن حتى أطلق عليه اسمى!

ـ لقد تصورت أنك شجاع. عادة يهرب الرجال من جرائمهم، ولكنك وقعت بإمضائك الصريح على الجريمة!

ـ إننى لم أوقع.. إنما وقعت!

ـ كل إنسان معرض للوقوع!

ـ عجبا! لقد تصورت أن تلومينى لا أن تنتحلى لى الأعذار.

ـ كيف ألومك على أمر لا ذنب لك فيه!

ـ أقسم لك يا قسمت أنه لا شأن لى فى كل ما حدث.

ـ إنك الآن اعترفت أنك والد الطفل!

ـ لا أقصد هذا.. أقصد أننى لست الذى اقترح تسمية المولود باسمى!

ـ أعتقد أن الأميرة هى التى فعلت ذلك!

ـ ولا الأميرة فضيلة.. إن زوجها معروف باشا هو الذى أصر على أن يكون اسم الطفل عادل علاء الدين!

ـ إنه زوج نموذجى!

ـ إنه لا يشك فى!

ـ ولهذا أطلق على المولود اسمك!

ـ لقد قال لى إنه يؤمن بأننى صاحب الفضل فى أن زوجته رزقت بمولود.. بعد سنوات طويلة لم تحمل فيها!

ـ إذن هو يعلم!

ـ لا يعلم.. لقد أخبرته زوجته أننى أحضرت لها زجاجة دواء يسبب الحمل!

ـ ولم يعلم أنك داخل الزجاجة!

ـ ما زلت تسخرين منى.. كأنك لا تصدقينى!

ـ بالعكس إننى أصدقك.

ـ إذا كنت تصدقيننى فلماذا هجرتنى سبعة شهور؟

ـ لأننى صدقتك!

ـ ولهذا لم تردى على خطاباتى. ولا على تليفوناتى؟

ـ لقد كنت غبية ! سامحنى !

ـ إننى سامحتك قبل أن تطلبى هذا.. كلما أحببنا تضاعف استعدادنا للغفران !

ـ كنت أظن أنه كلما تضاعف الحب قلت فرص المغفرة !

ـ الدليل على عكس هذا إنك سامحتنى !

ـ إننى سامحتك لأننى اقتنعت بأن هذا الحادث وقع فى وقت لم تكن بينى وبينك فيه علاقة.

ـ إن هذه هى النتيجة التى يصل إليها من يحب حقيقة ! إن هذا دليل لا شك فيه على أنك تحبيننى !

ـ هل كنت فى حاجة إلى دليل؟!

ـ العاشق يحتاج كل يوم إلى دليل !

ـ ولماذا جئت اليوم؟

ـ لأطلب يدك !

ـ إنك جئت متأخرا !

ـ ولكننى كنت أريد أن أتزوجك من اليوم الأول !

ـ لم تقل لى ذلك !

ـ كان يجب أن تفهميه !

ـ هذه الأشياء لا تترك للاستنتاج.

ـ ما الفرق بين أن أطلب يدك اليوم وأطلبها منذ سبعة شهور؟

ـ فرق كبير! لو كنت طلبت يدى قبل أن تعرف أن الأميرة فضيلة حامل، لعرفت أنك تريد أن تتزوجنى لأنك تحبنى.. أما الآن فإننى أشعر بأنك تريد أن تتزوجنى لتخفف عنى صدمة أنك رزقت من فضيلة بمولود يحمل اسمك!

ـ إن هذا منطق مقلوب! المفروض أن تشعرى بسعادة لأننى طلبت يدك، بعد أن عرفت أننى رزقت بولد، وأنت تعرفين جيدا أن الأميرة فضيلة كانت مستعدة أن تطلق زوجها، وتتزوجنى، وأننى رفضت!

ـ ولماذا رفضت!

ـ لأنى أحبك!

ـ وماذا يحدث لو أننى تزوجتك ولم أرزق ولدا أو لم أحمل منك على الاطلاق؟ سوف تشعر دائما بالندم لأنك لم تتزوج أم ابنك!

ـ إنك تعقدين الأمور!

ـ إننى أبسطها!

ـ لا يهمنى سواء رزقت منك ولدا أو لم أرزق أولادا على الاطلاق!

ـ ولكن هذا يهمنى.

ـ كل الذى يجب أن يهمك الآن هو أن نتزوج.

ـ قلت لك إنك جئت متأخرا!

ـ الحب ليس قطارا له مواعيد كمواعيد قطارات السكك الحديدية!

ـ إنه طائرة إذا فقدت أحد أجنحتها تهشمت ومات كل من فيها.

ـ ولكننا لم نمت، لا نزال على قيد الحياة.

ـ ليس كل الأحياء على قيد الحياة!

ـ أنت لا يبدو عليك أنك ميتة. إنك مليئة بالحياة!

ـ لم أقل إنني مت! ولكن حبي لك قد مات!

ـ ولهذا غفرت لى أن الأميرة فضيلة رزقت منى بمولود!

ـ نعم، لأن الموتى لا يحقدون على الأحياء!

ـ ولكن حبي لك لم يمت. إن حبك مات بالسكتة القلبية!

ـ سوف يموت حبك بالشيخوخة!

ـ أنت تتكلمين لغة غريبة.

ـ أيام الفراق تدخل إلى اللغة كلمات جديدة!.. نحن نفهم بعضنا بسرعة عندما نفترق.. الزمن أشبه بالمسافات، فهو يبعد الناس. وكلما طال الزمن كبرت المسافة. أنا الآن لا أسمعك كما كنت أسمعك عندما كنت بين ذراعيك! الشهور السبعة التي فرقتنا أضعفت سمعي، وغيرت لغتك.. أصبح كل منا يعيش في كوكب آخر له لغة مختلفة! في الماضي لم أكن احتاج لكلمة منك لأفهمك. ولم تكن محتاجا لتسمع صوتي لتتعرف الرد على سؤالك. أما اليوم فأنت تحتاج إلى قاموس لتفهمني! قد يحدث أحيانا أن تحب امرأة رجلا أجنبيا لا تفهم كلمة واحدة من لغته. ومع ذلك تفهمه أكثر مما تفهم رجلا آخر من أبناء جنسها يتكلم لغتها!.. فالحب هو قاموس يفسر للعاشقين كل كلمة لا يفهمها سواهما! ولهذا فأنت تقول لي الآن أنني أتكلم لغة غريبة!

ـ إن القاموس لا يزال معي.. لأنني لا أزال أحبك!

ـ لو كان القاموس معك لما قلت لى إننى أتكلم لغة غريبة. ولكن يبدو أن نصف القاموس معك ونصفه مع المولود!

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد أنه ابتداء من اليوم سوف تفهم نصف كلامى.. ونصف كلامه!

ـ لقد اتفقنا على أن هذا الموضوع قد مات وانتهى!

ـ كيف يموت الموضوع.. وقد ولد بالأمس فقط؟

ـ إذن أنت قررت أن تنهى علاقتك بى اليوم فقط!

ـ هاأنت لا تزال لا تفهمنى! أنا لم أقل هذا. لقد أنهيت علاقتى بك منذ سبعة شهور وأنت تعلم ذلك.

ـ ولكننى كنت واثقا أننا سوف نستأنف العلاقة!

ـ الموتى لا يعودون إلى قيد الحياة!

ـ إننى حائر معك، ساعة تقولين لى أنك غفرت لى خطيئتى مع الأميرة فضيلة، وساعة تقولين إنك حكمت على حبنا بالاعدام لأن فضيلة حملت منى! أنت تعذبيننى بأحكام متوالية بالبراءة والادانة. لا تكادين تنطقين بحكم الاعدام وأهيئ نفسى للموت حتى تفاجئينى بالعفو. ولا أكاد استرد أنفاسى فرحا بالعفو، حتى تبادرينى بحكم اعدام جديد. إنك تعذبيننى!

ـ إننى لا أعذبك. أنت الذى تعذب نفسك. لقد أصدرت قرارى ولا تريد أن تفهمه!

ـ وما هو قرارك؟

ـ أنني لا أستطيع أن أتزوجك؟

ـ لماذا؟

ـ لأن فى بطنى جنينا!

ـ جنين؟! ابن آخر!

ـ اطمئن إنه ليس ابنك!

ـ ماذا تعنين؟

ـ لقد افترقنا منذ سبعة شهور.. ولو كان ابنك لكانت بطنى الآن كبيرة جدا.. ولكنت قد لاحظت الحمل بنفسك، إن الجنين عمره شهران فقط!

ـ مستحيل!

ـ لا شىء مستحيل!

ـ لا يمكن أن أصدق أنك خنتنى!

ـ إننى لم أخنك!

ـ كيف لا تكونين قد خنتنى وأنت تعترفين أن فى بطنك جنينا من رجل آخر!

ـ لم تكن بينى وبينك أى علاقة!

ـ أنت لست قسمت التى أحببتها!

ـ أنا الآنسة كاف التى خلقتها أنت!

ـ لم أخلقك هكذا!

ـ إننى يا مولاى، كما خلقتنى!

ـ تستسلمين لرجل آخر، وتحملين من رجل آخر، إنك امرأة فاجرة جدا!

ـ لماذا تغضب كل هذا الغضب؟ لقد سامحتك منذ دقائق لأنك فعلت من قبل نفس ما فعلت أنا اليوم!

ـ عندما حدث ما حدث مع الأميرة فضيلة لم تكن بينى وبينك أى علاقة!

ـ وعندما حدث ما حدث.. لم تكن بينى وبينك أية علاقة. كانت علاقتى بك منقطعة منذ خمسة شهور!

ـ وتركتنى أحبك وفى بطنك جنين من رجل آخر!

ـ وأنت تركتنى أحبك، وفى بطن الأميرة فضيلة جنين منك!

ـ لم أكن أعرف!

ـ الجهل ليس عذرا!

ـ ومن هو هذا الرجل؟

ـ ليس من حقك أن تسأل من هو؟!

ـ إن هذا حقى!

ـ عندما يتنازل الملك عن عرشه يفقد كل حقوقه!

ـ أنا لم أتنازل عن العرش.. أنت التى خلعتنى عن عرشى!

ـ ولكنك تتكلم كأنك ما زلت ملكا!

ـ من هو هذا الرجل؟

ـ يجب أن استأذنه أولا قبل أن أخبرك!

ـ إننى لم استأذن الأميرة فضيلة قبل أن أخبرك أنها حملت منى!

ـ كانت غلطة!

ـ ما هو قصدك من إخفاء اسمه؟ أنت تقصدين أن تعذبيننى أكثر مما عذبتنى! أنت تريدين أن أنظر فى وجه كل رجل فى الشارع وأقول أنه هو الذى أخذك منى! سوف تجعليننى أشك فى كل صديق لى!

ـ إننى حرصت على ألا يكون صديقك، حتى لا أسىء إليك!

ـ لا تسيئين إلى؟! أى رجل مصرى أخذك منى سيجعلنى أكره المصريين جميعا! أكره أبناء بلدى، لأن واحدا منهم سلب منى المرأة التى أحبها!

ـ إننى حرصت ألا يكون مصريا!

ـ إذن هو عربى؟

ـ ولا عربى!

ـ أجنبى!

ـ إنه ضابط فى الجيش البريطانى.

ـ تستسلمين لضابط فى الجيش البريطانى؟ لضابط من جيش الاحتلال؟ لأحد الرجال الذين يدوسون كرامة بلادك وشرفها بالأقدام؟ أنت قسمت شاهين التى كتبت منشورا يلعن الاحتلال، وبسبب هذا المنشور يعيش رجل برىء فى السجن، ينتهى بك الأمر أن تستسلمى لأحد ضباط جيوش الاحتلال؟!

ـ إن قلب المرأة لا يشبه الموانى والمطارات، ولا يفحص جوازات السفر قبل أن يسمح لأصحابها بالدخول!

ـ لقد كنت أفضل أن تنامى مع سكان مصر جميعا.. ولا تنامى مع جندى انجليزى واحد!

ـ إن سكان مصر من المصريين كانوا سوف يسألوننى من الذى سلبنى عذريتى، وكنت سأقول لهم عن اسمك.. وأنا يهمنى أن أحافظ على اسمك وكرامتك وسمعتك بين الناس!

ـ أنا لا يهمنى اسمى وكرامتى، وسمعتى. أنا يهمنى اسمك أنت، وكرامتك أنت، وسمعتك أنت!

ـ إن أحدا لن يعرف هذه العلاقة إلا أنت!

ـ والجنين الذى فى بطنك.. هل تتخلصين منه؟

ـ كلا.. إننى مثلك لا أحب أن أقتل الأجنة فى بطون أمهاتهم!

ـ وماذا ستقولين للناس؟

ـ سأقول لهم أنه ابنى!

ـ ابنك من الحرام؟

ـ لا.. الضابط الانجليزى سيتزوجنى!

ـ تتزوجين رجلا من غير دينك!؟

ـ سوف يعتنق دين الاسلام!

ـ إذن فأنت تظنين أنه يحبك لأنه سيترك دينه من أجلك!

ـ كل ما أعجبنى فيه أنه لم يسألنى أين ذهبت عذريتى؟

ـ لو كان يحبك لسألك!

ـ شعرت أنه يحترمنى لأنه لم يسألنى.. إننى امرأة لا أحب أن أبدأ حياتى مع الرجل الذى أتزوجه بكذبة. أرفض أن أبنى حياتى ومستقبلى فوق أكذوبة. كنت سأرفض أن أخدع الرجل الذى تزوجنى بعملية تجميل صناعية كنت سأواجهه بحقيقتى كاملة. وأى رجل مصرى أو شرقى ما كان يقبل أن يتزوج امرأة بهذا الماضى. ولو قبل هذا اليوم، فسوف يعيرها بهذا الماضى غدا!

ـ أنت تحملينني الآن مسئولية زواجك من ضابط من ضباط الاحتلال!

ـ أنا لا أحملك أية مسئولية. إنك لم تعتد على. بل إننى أشعر أننى أنا المعتدية! أنا التى كنت أريدك قبل أن تريدنى. أنا التى جريت وراءك. إن لدى الشجاعة دائما بأن أحمل على كتفى مسئولية كل عمل قمت به!

ـ لماذا لم تخبرينى قبل أن تفعلى ما فعلت؟

ـ لو أخبرتك لتصورت أننى أهددك أو أساومك.. وأنا أرفض أن أبنى علاقتى مع رجل على المساومة والتهديد!

ـ كنت سأتزوجك فورا!

ـ كنت ستتزوجنى لتداوى ما تعتقد أنه غلطتك! وأنا لا أعتقد أنك ارتكبت غلطة!

ـ إن غلطتى أننى أحببتك كل هذا الحب! إننى وضعتك فوق كل النساء، فإذا بك امرأة كباقى النساء! تصورت أنه لا يمكن أن تخطئى كما يخطى

البشر، وإذا بك لا تخطئين فقط، وإنما ترتكبين جريمة!

ـ عجبا! أنت ثائر كل هذه الثورة لأننى فعلت مع الضابط البريطانى نفس ما فعلت مع الأميرة فضيلة، أنا عذرتك وأنت لم تعذرنى! أنا غفرت لك وأنت لا تريد أن تغفر لى! لقد كنت أتصور أنك سوف تقول لى إنك مستعد أن تتزوجنى بالرغم من كل ما حدث!

ـ أتزوجك وفى بطنك ولد من رجل آخر؟

ـ هل لو أجريت عملية إجهاض تتزوجنى؟!

ـ إننى تمنيت أن أتزوج من قديسة!

ـ والآن تشعر أننى شيطانة؟

ـ إننى أشعر أنك لست أنت التى أحببتها!

ـ كأنك أحببتنى لأننى لم أعرف رجلا سواك!

ـ إننى أحببتك لأننى شعرت أننى الرجل الوحيد فى حياتك!

ـ وكرهتنى لأنك عرفت أن هناك رجلا سواك؟

ـ أنا لم أكرهك. أنا أحتقرك!

ـ ولماذا لم أحتقرك وأنا أعرف أنه كانت لك مع مئات النساء علاقات؟

ـ لأننى رجل!

كنت أظن أنك تؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأة!

ـ أؤمن بها فى كل شىء. إلا فى هذه المسألة!

ـ إن المساواة تبدأ من هنا!

ـ إنها تنتهى هنا!

ـ هل تظن أن المرأة عندما طالبت بالمساواة مع الرجل كانت تقصد أن يكون لها حق الانتخاب وحق أن تكون نائبة فى البـرلمان وحـق أن تـكون وزيرة؟

ـ هكذا قالت لنا المرأة وصدقناها!

ـ إنها كانت تخدعكم! المساواة الحقيقية، والمقصودة هى التى تبـدأ بالمساواة فى الجسد! حقوق الجسد أهم من حقـوق الانتخـابات ولهـذا سيجىء يوم لا يحاسب فيه الرجل المرأة على ماضيها، تماما كما لا تحاسبه الآن على ماضيه!

ـ أنا لا أحاسبك على ماضيك. أنا أحاسبك على حاضرك!

ـ لأنك تعلم أننى بلا ماض!

ـ ليتك كنت امرأة لها ماض!

ـ كنت تزوجتنى؟

ـ نعم!

ـ لماذا لم تتزوج الأميرة فضيلة؟

ـ لأننى كنت أحبك!

ـ أنت الآن تستعمل الفعل الماضى لأول مرة!

ـ إن اعترافك اليوم بالجنين الذى فى بطنك قتل حبى!

ـ لا ألومك على هذا الشعور. لقد شعرت بنفس هـذا الاحســاس ذات يوم!

ـ متى؟

ـ عندما اعترفت لى بأن الجنين الذى فى بطن الأميرة فضيلة هو ابنك!

ـ هل أخبرت عم عبده بما حدث لك؟

ـ لم أخبره.. ولكننى سوف أخبره!

ـ أرجوك ألا تخبريه!

ـ إننى لا أستطيع أن أخفى عنه أى شىء!

ـ سوف تقتلينه فى سجنه! سوف يعرف أنه ضحى مـن أجـل امـرأة لا تساوى هذه التضحية! امرأة كانت تنـادى بـإخراج جيش الاحتـلال البريطانى من مصر، وانتهت بأن احتلها الجيش البريطانى

ـ إنك تتكلم عما حدث بمرارة غريبة!

ـ إننى غاضب لكرامة بلدى!

ـ كأنك ما كنت تغضب هذا الغضب لو أن الجنين الذى فى بطنى هو ابن رجل مصرى!

ـ كنت سأغضب لكرامتى، وفرق بين الغضب لـكرامة رجـل واحـد، والغضب لكرامة أمة بأسرها!

ـ لم أتصور أنك تكره الانجليز كل هذه الكراهية!

ـ إننى أشعر بأن الجيش البريطانى اغتصب زوجتى وأمـى وابنتـى

وأختى فى وقت واحد! إننى أشعر برغبة فى أن أقتل أى انجليزى ألقـاه فى الطريق الآن!

– كأننا لا نشعر بالعدوان على بلادنا إلا إذا أصبنا برذاذ مـن هـذا العدوان، إن أبرز عيوبنا أننا لا نحس بالظلم إلا إذا أمتد إلينا. فإذا أصاب غيرنا بقينا نجلس فى مقاعد المتفرجين! لو أن كل واحد منكم شـعر بـأن احتلال جندى أجنبى لأرض بلادكم أشبه باحتلال هذا الجندى للمرأة التى تحبونها لما بقى الاحتلال ٧٠ عاما!

ـ أنت تلقين على درسا فى الوطنية، وفى بطنك انجليز ى صغير!

ـ إن الذى فى بطنى مصرى.. بطن المرأة هو وطن الجنين الذى ينبـت فيه.

اطمئن إن الذى سيخرج من بطنى سيحب مصر أكثر مما تحبها أنت!

ـ إنك تدافعين عن الذى فى بطنك بحرارة غريبة!

ـ هل تغار من جنين؟ لقد لمتنى فى الماضى لأننى كنت أغار من الجنين الذى فى بطن الأميرة فضيلة!

* * *

ولم يجب عادل على سؤال قسمت الساخر، بل قفز من مقعده، واتجه إلى باب الغرفة، وأسرع فى خطواته دون أن يلتفت وراءه.. وقامت قسمت لتعـدو وراءه. ولكنها ترددت، تسمرت فى مكانها.. وسـقطت علـى الأرض تبـكى وتنتحب.

لماذا كذبت عليه؟ لماذا اخترعت هذه القصة التى لا أساس لها؟ لماذا أوهمته أنها حامل؟

ولطمت قسمت وجهها بيديها! ثم أسرعت تعدو إلى الطابق الثانى، ودخلت غرفة نومها، وأغلقت الباب بالمفتاح، ودفنت وجهها فى الفراش وراحت تذرف دموعها بصوت مجروح!

ثم رفعت رأسها ومسحت دموعها وأخذت تسأل نفسها:

ـ هل جنت؟ ما الذى جعلها ترفض أن تتزوج عادل؟ لقد كانت مستعدة أن تعيش معه طوال حياتها عشيقة بغير زواج. ما الذى جعلها تصاب بحالة سادية غريبة، تجعلها تجد لذة فى تعذيبه. تكويه بنفس النار التى أكتوت بها. تنتشى برؤيته وهو يحترق أمامها.

إنها لن تدبر هذه الكذبة ولم تفكر فيها، قبل أن تقذفه بها. كانت كذبة لا إرادية. كانت تريد أن تداعبه وتسخر منه، ولكنها ما كادت ترى وجهه يشحب حتى شعرت برغبة غريبة فى أن تجهز عليه، أن تنتقم منه، أن تذيقه من نفس الكأس التى ذاقتها طوال هذه الشهور السبعة!

لماذا فعلت به هذا؟ إنها لا تكرهه. إنها تحبه. تحبه أكثر مما أحبته فى أى يوم مضى.

أتكون قد أدخلته النار لتطهره من الألم؟ إنها لم تطهره إنما حرقته حولته إلى رماد!

لقد رأت فى عينيه صورة رجل مجروح، محطم، مهزوم، ومع ذلك لم تشفق عليه. بل مضت تغمد فيه خنجرها. وكأنها تمزقه إلى قطع صغيرة!

كأنها تأكل بقاياه.. كأنها تشرب من دمه! لم تشعر طوال حياتها أنها

امرأة قاسية كما كانت اليوم. هل من الممكن أن يتحول حب عظيم إلــى كل هذه القسوة والوحشية!

لقد كانت سعيدة وهى تراه يتلوى أمامها من الألم. كأنه شــاة صــغيرة تشويها أمامها على النار، فى إحدى رحلاتها إالى الصــحراء! وكلمــا رأت النار وهى تلتهم الشاة المذبوحة أحست بالرضا والهناء وكأنهــا تــرى فى دقائق كل العذاب الذى كابدته خلال سبعة شهور ينتقل إلى عادل!

ووجدت نفسها تواجه موقفا غريبا!' إنها حائرة بين الندم على جريمتها، والاصرار عليها!

شىء فيها يقول لها: أنت مجنونة!

وشىء فيها يقول لها: إنك لم تكونى عاقلة فى يوم كما كنت اليوم!

شىء فيها يجذبها لتسرع إليه، وتركع أمامه، وتعترف بأنها كذبت عليــه، وضللته، وأن رجلا سواه لم يلمسها.

وشىء آخر يجذبها لتمضى فى طريق انتقامها!

إنها عندما قرأت خبرالمولود أحست بأنها تقرأ نبــأ نعيهــا! صــفحة المجتمع فى الجريدة كانت بالنسبة لها صفحة الوفيات، ضحكات صاحباتها فى التليفون كانت أشبه بنواح وعويل وعديد فى مأتم.

ولكن كل هذا لم يحولها إلى المرأة المتوحشة. وإنما الذى أثارها هــو عرضه للزواج منها. أحست أن عادل لم يعرض عليها الزواج لأنه يحبهــا، ولكن لأنه يشفق عليها. لم يكن يقوم بدور العــاشق. وإنمــا بــدور عــربة الاسعاف عندما ترى امرأة صدمتها عربة التــرام، كأنــه أراد أن يضــمد كرامتها المجروحة برباط الزوجية، كما يضمدون الجريح برباط من الشاش!

أمنية كل امرأة أن تتزوج الرجل الذى تحب. ولكنها لا تحب أن تتـزوج وهى تنزف دما ! لا تحب أن تجلس فى الكوشة وهى ملفوفة بالضمادات بدلا من ثوب الزفاف. لا تحب أن تتزوج لأن الرجل أشفق عليها، بل لأنه أحبها..

الكلمة الواحدة تختلف باختلاف الظروف. الزمن ينغمها ويعـطى لهـا معانى مختلفة ! الرجل قد يقول لامرأة فى وقت معين « أنا أحبك » فتبدو هذه الكلمة الحلوة أشبه بالصفعة، لأنه قالها فى الوقت غير المناسب. وقد يقـول نفس الكلمة فى وقت مناسب فيصبح لها طعم الألف قبلة !

إن كلمة (دايما) تبدو جميلة إذا قلتها فى فرح، وتبدو وقحة إذا قلتهـا فى مأتم !

كلمة (امرأة) تملأ المرأة نشوة وهى بين ذراعيك. ولكنها تعتبر إهانة إذا قلتها لامرأة فى الطريق العام !

لقد قال لها عادل (أنا أريد أن أتزوجك) فى اليوم الذى عرفت فيه أنه رزق فيه مولودا من الأميرة فضيلة، وأطلق على المولود اسمه. إنه يوم عـاصف لا يصلح للحب ولا لعروض الزواج والأتربة التى ملأت الجو من أثر الزويعة أفقدت الكلمات معانيها.

أصبحت الكلمة الحلوة ذبحة السكين !

وأحست قسمت بأنها أخطأت بالأكذوبة التى اخترعتها عـن عـلاقتها بالضابط الانجليزى والجنين الذى فى بطنها. كان يكفى أن ترفض عـرض الزواج فى مثل هذا اليوم المشئوم !

ولكنها مضت شوطا بعيدا فى الطريق الوعر الذى اختارته لنفسها. ولـم يعد فى استطاعتها أن تتراجع..

لو اتصلت بعادل اليوم تليفونيا وأخبرته بالحقيقة فسوف يكرهها أكثر مما كرهها اليوم!

ليس أمامها الآن إلا أن تمضى فى الطريق.

وتذكرت أنها وضعت نفسها فى مأزق!

لابد أن تبحث الآن عن طريقة للخروج من المأزق!

ومسحت دموعها. وعادت فجأة الابتسامة إلى شفتيها، وعادت، مع الابتسامة، المرأة المتوحشة فيها!

فى كل امرأة امرأتان، ملاك وشيطان، امرأة مستسلمة، وامرأة عنيدة. امرأة تغفر، وامرأة تنتقم.

وقامت قسمت واقفة على قدميها..

وخرجت من الغرفة بقدم ثابتة.

قدم المرأة المتوحشة التى اختارت طريق الانتقام..

خرجت تبحث عن..

ضابط انجليزى تستأجره!

وجنين.. تشتريه!

الفصل الرابع والثلاثون

امتلأت حديقة فندق شبرد القديم بالمصابيح الملونة الخضراء والحمراء والصفراء والزرقاء.

أقيم سرادق ضخم ،مصنوع من قماش السرادقات الملون بأشكال هندسية غير منتظمة، ولكنها تعطى الحديقة جوا سحريا شرقيا، كأن أيام ألف ليلة وليلة عادت إلى قيد الحياة.

أشجار الحديقة زينت بقراطيس وعمائم وطراطير ملونة وكأن على بابا واربعين حرامى يختبئون فى كل شجرة من شجر الحديقة.

فى كل ركن من الحديقة الواسعة لعبة تشرف عليها فتاة جميلة، أو بار أمريكانى تقف فيه امرأة شقراء كأنها زجاجة شامبانيا، أو غادة فى ملابس صفراء كأنها زجاجة ويسكى أو فتاة ترتدى ثوبا واسعا من عند صدرها كأنها زجاجة كونياك!

عدد من الفتيات تنكرن على هيئة نوع من أنواع الخمور. حتى يشجعن السكارى على التزاحم على أنواع مختلفة من البارات، حيث تباع كأس الويسكى بثمن الزجاجة، وتباع زجاجة الشامبانيا بثمن صندوق زجاجات الشامبانيا، وحيث يحتار المشاهد هلى سيذوق الخمر من الكئوس الجميلة أم من أفواه النساء الجميلات؟

والحديقة مليئة برجال فى ملابس السموكن ونساء فى فساتين السهرة. وموسيقى تعزف فيرقص الناس وهم يمشون أو يمشون وهم يرقصون والخدم يحملون الصوانى على أيديهم ويتمايلون. كل شىء فى الحفلة يتمايل ويرقص حتى غصون الأشجار. وأغلب الحاضرين من الشباب. فهى الحفلة الساهرة التى تقيمها جمعية ملجأ المتسولين. ولحفلات هذه الجمعية طابع خاص، فهى حفلة يقيمها الشباب للشباب ومن صفات الشباب المرح واللهو والصخب والجمال!

ومشت قسمت تحملق فى وجوه الرجال تبحث عن ضابط انجليزى عن أى ضابط انجليزى! إنها تريد أن تعثر عليه بسرعة، قبل أن يحضر عادل علاء الدين. تريد أن تجده، وتتعرف به، ويدعوها إلى الرقص، ويخاصرها وتلتصق به وهى ترقص معه، ويدور بها فى الحلبة على أنغام الموسيقى.

كل هذا يجب أن يتم فى بضع دقائق! لا وقت عندها للاختيار ولا للانتظار. إنها تريد فى هذه اللحظة أى ضابط انجليزى، حتى اذا جاء عادل رآها بين ذراعى الضابط الانجليزى الذى ادعت أنها تحبه، وأن فى بطنها جنينا منه!

لقد كذبت عليه. فيجب أن تثبت له بالدليل القاطع أنها صادقة بأن تجعله يرى بعينيه شريكها فى جريمة الخيانة!

أنها أصيبت بحالة من السادية أصبحت لذتها اليوم أن تعذب عادل. وقد كانت لذتها فى الماضى أن تسعده!

إن رغبة الانتقام تدفعها إلى أن تمضى فى كذبتها إلى نهاية الشوط. كانت فى الماضى تريد أن تعطيه كل شىء واليوم تريد أن تأخذ منه كل شىء!.. كانت تنتشى وهى تمرر أصابعها على شعره ،والآن تنتشى إذا أغمدت

اظافرها فى جسده. كانت تتمنى أن ترى نظرة الهناء فى عينيـه، وهـى الآن تتمنى أن ترى نظرة الشقاء فى نفس العينين!

إنها لا تكرهه. لا تزال تحبه، تعبده. ولكن منذ ولد هذا الطفل أصبحت تشعر أنها لم تعد امرأة من نار كما كانت. إنها أصبحت جبلا مـن الثلـج! أحست بهذا الشعور عندما واجهت عادل فى بيتها، ولم ترتم بين ذراعيه، ولم تحترق بنظراته ولم تذب وهى تسمع صوته. وجدت لذة فى أن تشكه بلسانها الذى تحول إلى دبوس ،ثم تحول إلى خنجر، ثم تحول إلى سيف أغمدته فى قلبه!

وخطر ببالها فى أول الأمر أن تنتقم منه بأن تصاحب كل رجل! أن تـكون فضيحة متنقلة! كى تعذبه بفضيحتها كما عذبها بمولوده! أن تجعله يشـعر بعذاب الضمير لأنه الرجل الذى حولها إلى امرأة! الذى فتح أمامها حيـاة العشق! ولكنها لم تجرؤ على أن تمشى فى هذا الطريق شعرت بأنها لا تنتقم منه، إنما هى تنتقم من نفسها. لو أنها أصبحت مضغة فى الافواه فسـوف يجد عادل لنفسه عذرا ومبررا! ثم إنها تشعر أنها أصبحت جسما من الثلج! أى جسد سوف يلتصق بها سوف تخمد أى نار فيه. لم تعد الشمس اللاهبة المحرقة التى تبعث الحياة والدفء لكل من تشع عليه. لقد أصبحت هيـكلا عظميا. كل الاسلاك التى فى داخلها قد احترقت، ومهما احتكت الاسلاك بها فلن ينبثق النور!

إن فى قلبها بقعة مظلمة. لا تعرف كيف سقطت فى قلبهـا. وكيف كبـرت البقعة حتى ملأت قلبها كله وجعلته أسود.. جعلته ينبض بالكراهيه بعد أن كان ينبض بالحب.

منذ أن قرأت نبأ مولد ابن الأميرة فضيلة لم تر عادل فى أى مكان ولكنها كانت تجده فى كل مكان تذهب اليه! تراه فى كل رجل يمشى بجـوار فتـاة

جميلة ! تراه فى كل شاب يراقص امرأة حسناء ! تراه فى كل سيارة فيها عاشقان متعانقان ! تراه فى إعلانات دور السينما عن فيلم جريتا جاربو وهى تقبل جون جيلبرت تختفى صورة الممثل جون جيلبرت من الاعلان ويخيل اليها أنها ترى عادل علاء الدين يقبل الممثلة العظيمة جريتا جاربو! كل رجل فى الشارع يشبه عادل علاء الدين. كل طفل صغير تحمله أمه يشبه ابن الاميرة فضيلة، الذى لم تره، ولا تريد أن تراه ! كانت تحس بأن عادل يطاردها فى كل مكان ! كأنه يتعمد أن يراها ويتفرج على تعاستها وبؤسها وشقائها !

وعندما كانت تركب سيارتها كانت تتعمد ألا تنظر إلى وجوه الناس.. ولكنها كانت دون أن تدرى تحملق فى وجوه الناس باحثة عنه. تهرب منه واليه فى وقت واحد، تختفى منه وتطارده. تتأجج فى صدرها نيران جحيم من البغض. وفى الوقت نفسه يلهب صدرها نار من الحب والشوق ! ومع هذا التضارب فى عواطفها كانت تريد أن تضايقه الليلة، تنكد عليه السهرة!

* * *

وجالت قسمت بعينيها بين الحاضرين فى الحفلة فلم تجد ضابطا انجليزيا واحدا. ولعنت الجيش البريطانى كله، من الماريشال مونتجمرى إلى أصغر جندى فيه. هؤلاء الذين يملأون الحفلات والسهرات والمآدب عندما لا تريد أن ترى وجوههم، ثم يختفون فجأة عندما تحتاج إلى واحد منهم!

لقد سلمت منذ بضعة أيام مائة تذكرة لهذه الحفلة لصديقتها مارى خياط عضو الجمعية وطلبت منها أن تبيع هذه التذاكر لضباط القيادة البريطانية فى الشرق الأوسط، وأبلغتها مارى خياط أن ادارة الترفيه بالقيادة اشترت المائة تذكرة وسددت ثمنها.. فلماذا لم يحضر الضباط الانجليز المائة إلى الحفلة

لتختار منهم واحدا تغيظ به عادل علاء الدين؟

هل اكتفت القيادة البريطانية بشراء التذاكر علـى سـبيل التبـرع، وعاملت الجمعية كما تعامل الجمعيات الخيرية الصغيرة، فتشترى سـكوتها بشراء بعض التذاكر، وتلقيها فى سلة المهملات؟

وفجأة رأت أمامها زميلتها زينب كامل تقول لها:

ـ لعلك تبحثين عن عادل علاء الدين!

ـ أننى لا أبحث عنه.. لأننى أعرف أنه لن يحضر!

ـ كنت مثلك أظن أنه لن يحضر وأن الأميرة فضيلة سوف تمنعـه مـن الحضور!

ـ لماذا تمنعه؟

ـ لأنها منذ رزقت مولودها امتنعت عن حضور الحفلات والسهرات

ـ ربما لانها مشغوله بارضاع طفلها!

ـ الأميرات لا يرضعن أطفالهن. إنهم يقولون أن الأميرة فضـيلة تمضى وقتها فى العبادة والصلاة: تصورى أننى سمعت أن عادل يصلى مع الأميرة فضيلة.. ويقوم زوجها بدور الامام!

ـ أنت تشنعين دائما يا زينب!

ـ أنا لا أشنع! إن السفرجى الذى يعمل عندى هو شقيق السـفرجى الذى يعمل عند الأميرة فضيلة، وهو الذى يروى لى هذا.

ـ لهذا لن يحضر عادل هذه السهرة.. لأن فندق شبرد ليس فيه مسجد!

ـ لقد التقيت بعادل بعد ظهر اليوم فى نادى الجـزيرة، وأكد لـى أنـه سيحضر الحفلة. وأنه ألغى كل مواعيده حرصا منه على حضور هذه السهرة الجميلة! وقال إنه سيجىء الساعة العاشرة مساء.

ـ قد يحضر ومعه الأميرة!

ـ طبعا.. ستجىء معه وسيجىء معهما الامام!

وضحكت زينب كامل ضحكتها الرنانة.. وتركت قسمت ساهمة واجمة!

وأحست قسمت بأن طبيعتها البركانية تتحرك فيها. أحست برغبة فى أن تدمر كل شىء أمامها تريد أن تحطم الحفلة على رؤوس الموجودين، تـريد أن تكسر المصابيح، تريد أن تخرس الموسيقى اللاهية العابثة!

أحست كأنها أشبه بثور مذبوح ينتفض، يريد أن يحطم كل شىء قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

إنه لن يحضر وحده. وسيحضر ومعه غريمتها. سيراها جـالسة وحـدها سيشمت فيها. سيسخر من أكذوبتها المخترعة. سيميل برأسه على فضـيلة وهو يتحدث إليها.

سيدعو فضيلة للرقص سيخاصرها أمامها. سيتحدثان طبعا عن المولود وهما يرقصان! يجب أن تجد الآن ضابطا انجليزيا. يجب أن تجده من تحت الأرض. إنها لا تشترط أن يكون شابا، ولا تشترط أن يكون وسيما. إنها لم تصفه فى أكذوبتها لعادل. ولا يهمها شكل الحبيب المجهول. الحب أعمـى. كل ما يهمها أن يكون ضابطا إنجليزيا، حتى ولو كان ضابطا بيـد واحـدة وساق واحدة!

كانت عيناها تمشيان فى أرجاء الحفلة، وكأنهما ذلك المنادى الذى يمشى

فى الحوارى والأزقة بحثا عن الأولاد التائهين. كأن عينيها تناديان:

«ياأولاد الحلال، ما حدش شاف ضابط انجليزى تائه؟»

ونظرت إلى ساعتها، فوجدت أنها تقترب من العاشرة مساء. لم تبق الا بضع دقائق ويحضر عادل ومعه الأميرة فضيلة!

* * *

واتجهت قسمت إلى بواب فندق شبرد، لتسأله عن أسماء الضباط الانجليز المقيمين فى فندق شبرد، ومشت نحوه فى خطوات ثابتة ثم قالت له باللغة الأنجليزية:

ـ أريد أن أعرف أسماء الضباط الأنجليز الذين يقيمون هنا.

ونظر إليها البواب اليونانى باندهاش واستغراب. وبدا عليه أنه لم يفهم سؤال قسمت الغريب.

وقدمت قسمت نفسها إليه وهى تقول:

أنا سكرتيرة جمعية ملجأ المتسولين التى تقيم حفلتها الساهرة فى حديقة الفندق. ولى صديق ضابط انجليزى، وأريد أن أطمئن هل هو حى أم أنه قتل فى المعارك الأخيرة؟

وتأثر البواب اليونانى، ونظر إلى قائمة نزلاء الفندق التى أمامه، ثم إلى الصناديق الصغيرة التى يودع فيها النزلاء مفاتيح غرفهم عند مغادرة الفندق، ثم قال وهو يهز رأسه آسفا:

ـ لا يوجد الآن أحد منهم فى غرفته.

ـ ومتى يعودون؟

ـ إنهم عادة لا يعودون إلى الفندق الا بعد منتصف الليل.

ونكست قسمت رأسها، وكأنها ناءت بخيبة الامل الجديدة، التى ألقت بثقلها عليها. وصاح البواب اليونانى:

ـ تذكرت! يوجد فى الغرفة رقم ٢٠٧ الملازم جاك ستيوارت! ولكنه مريض وملازم للفراش!

وتهلل وجه قسمت وقالت:

ـ لا يهمنى إذا كان مريضا.. أو ملازما للفراش. كل ما يهمنى أنه على قيد الحياة!

واستدارت قسمت، واتجهت إلى المصعد. وطلبت من عامل المصعد أن يحملها إلى الطابق الثانى. وخرجت من المصعد. ومضت تتطلع إلى الأرقام المثبتة على أبواب الغرف، إلى أن وصلت إلى الغرفة ٢٠٧.

وتسمرت أمام باب الغرفة. وقفت مترددة. شعرت بالرعب من فكرة دخول غرفة نوم رجل غريب. ماذا سوف يظن هذا الضابط الانجليزى عندما يرى فتاة فى مخدعه؟ لو كان رجلا محترما فسوف يطردها من الغرفة. ولو كان رجلا فاسقا فلن يتركها إلا بعد أن يتقاضى ثمن حماقتها! إنهم يقولون: «لا شرف فى الحب ولا فى الحرب»! المحارب فى أثناء المعركة يفعل أشياء لا يخطر بباله أن يفعلها فى أيام السلام. كأن رائحة البارود تحول الانسان إلى وحش. ولولا أنه أصبح وحشا لما أطلق النار على إنسان آخر لا يعرفه. إنه فى أثناء الحرب يتغير. تسقط فيه أشياء كثيرة، تتهاوى مبادئ تموت عواطف، فمن يضمن لها أن هذا الضابط لن يغتصبها بعد أن تدخل غرفته؟

وقررت أن تعود أدراجها. عدة مرات قررت أن تعود أدراجها، وعدة مرات

قررت أن تدخل مخدع الضابط المجهول، تتنازعها الرغبة فى الانتقام من عادل والخوف من المخدع المجهول. وانتصر الخوف فيها على رغبتها فى الانتقام. واستدارت عائدة إلى المصعد، وقد عدلت نهائيا عن المغامرة. سوف تترك الحفلة كلها وتعود إلى بيتها، بعد أن تمر على صديقاتها وتهمس فى آذانهن بسر خطير، وهى أنها ارتبطت بموعد هام، وسوف تطلب من صديقاتها كتمان هذا السر. وهى تعرف صديقاتها جيدا سوف يثرثرن بالسر عقب خروجها مباشرة، ويسمع عادل بالقصة وقد كبرت عند وصوله إلى السهرة!

وابتسمت، كأن الفكرة قد أعجبتها. إنها أكثر أمانا، وأسلم من الدخول فى غرفة نوم رجل غريب..

وفى طريقها إلى المصعد سمعت صراخ طفل رضيع ينبعث من إحدى الغرف المغلقة. وتسمرت فى مكانها. تذكرت مولود الأميرة فضيلة. كأنها سمعت صوت عادل علاء الدين الصغير. المولود الذى فرق بينها وبين عادل. شعرت أن صوت الرضيع فجر قنبلة فيها. عاد البركان الذى فى داخلها ينفث نارا وحمما ولهبا من جديد أحست بأن هذا الرضيع صفعها وركلها وعضها حتى قبل أن تنبت له أسنان!

ووجدت نفسها تتجه بخطوات سريعة إلى باب الغرفة رقم ٢٠٧، وتطرق الباب. وسمعت صوتا يقول فى لغة انجليزية، وفى لهجة خافتة ادخل!

ودخلت..

ورأت شابا انجليزيا أشقر، راقدا فى فراشه. وما كاد الشاب يراها حتى بدا عليه فزع عجيب، وأسرع يشد الملاءة البيضاء، ويغطى بها نفسه، تماما كما تفعل أى امرأة عارية عندما ترى رجلا غريبا يدخل إلى غرفة نومها!

وشعرت قسمت بأمان واطمئنان من فزع الضابط الشاب ورعبه، فإن من طبيعة الانسان الخائف، أن يشعر بالأمان والاطمئنان عندما يرى شخصا أمامه أكثر منه خوفا وهلعا!

وقال الشاب وهو يتلعثم:

ـ أظن أنك أخطأت فى رقم الغرفة يا سيدتى. هذه الغرفة رقم ٢٠٧.

وابتسمت قسمت وقالت:

ـ إننى لم أخطئ الغرفة!

ـ لعلك أخطأت الشخص ساكن الغرفة!

ـ ولا الشخص.

ـ تريدين مقابلتى أنا!

ـ ألست الملازم جاك ستيوارت؟

ـ نعم أنا هو.. ولكن من أنت؟

ـ هذا لا يهم!

ـ كيف لا يهم. إنه مهم جدا.

ـ ما هى أهميته؟

ـ سيدة تدخل غرفة نومى ولا أعرف اسمها.

ـ هل تخاف أن أكون الماريشال روميل؟

ـ إننى لا أخاف الماريشال روميل. ولا من الجيش الألمانى كله!

ـ وتخاف من امرأة!

ـ أخاف منها فى غرفة النوم!

ـ عجبا لكم أيها الرجال، إنكم تطاردون المرأة، وتحاصرونها وتهاجمونها لتحملوها إلى غرفة النوم. فإذا جاءت إليكم فى غرفة النوم من تلقاء نفسها أصبتم بالفزع!

ـ أرجوك أن تخبرينى ما هو اسمك؟

ـ وهل تسأل كل امرأة تدخل غرفة نومك عن اسمها؟

ـ طبعا يجب أن أسألها.. فنحن فى حرب كما تعلمين!

ـ أتظن أننى جاسوسة؟

ـ إن الجاسوسة الألمانية ماتاهارى، كانت تدخل غرف الضباط الانجليز فى الحرب العالمية الأولى، وقد خلعت ملابسها!

ـ ما دمت احتفظت بملابسى، فيجب أن تطمئن إلى إننى لست ماتاهارى!

ـ لو كنت جاسوسة.. فأنت جاسوسة خفيفة الدم!

ـ إننى قسمت شاهين سكرتيرة جمعية ملجأ المتسولين فى القاهرة.

ـ فهمت جئت تجمعين تبرعات!

ـ لا أريد نقودا!

ـ ملابس قديمة!

ـ ولا ملابس قديمة!

ـ إذن ماذا تحتاج إليه الجمعية؟

- تحتاج إلى ضابط انجليزى!

ـ ماذا يفيد المتسولين من ضابط انجليزى؟

ـ يشحذون به!

ـ لا أفهم!

ـ العادة فى بلادنا أن تستأجر المتسولات أطفالا، تضع الطفل على كتفها وتشحذ به، فالناس تعطف على الأمهات أكثر مما تعطف على الشحاذة التى ليس لها طفل! وأنا أريد أن استأجرك الليلة!

ـ وتحملينني فوق كتفيك؟

ـ لا.. سأرقص معك!

ـ ويتبرع الناس لجمعية عندما يرونني أرقص معك!

ـ ستنهال التبرعات على الجمعية!

ـ ولكن لماذا اخترتني أنا دون باقى الضباط الانجليز؟

ـ أنت الضابط الانجليزى الوحيد الموجود فى الفندق الآن!

ـ هذا صحيح. لقد ألغيت فجأة أجازات جميع الضباط لسوء الحظ!

ـ أتعتبر رقصك معى سوء حظ!

ـ بالعكس! لو حدث هذا منذ عامين لكانت الليلة أسعد ليلة فى حياتى!

ـ وما الفرق بين الليلة. وليلة من عامين؟

ـ فرق السماء.. من الأرض!

ـ إن الحفلة الساهرة تقام في حديقة الفندق فلن تتعب في الانتقال من غرفتك إلى هناك..

ـ أنت لست مصرية!

ـ بل أنا مصرية مائة في المائة!

ـ غريبة! إنني أعرف أن المصريات يهربن من الضباط الانجليز ويكرهن الانجليز.. وأنت تقولين لي إن الناس عندما يرونني أرقص معك سينهالون عليك بالتبرعات!

ـ نحن نكرهكم كامبراطورية.. ونحبكم كأفراد!

ـ ولكني جئت إلى بلادكم لأحارب من أجل الامبراطورية!

ـ ولكني سأرقص مع رجل.. لا مع الامبراطورية!

ـ وهل يوجد في السهرة فتيات جميلات مثلك!

ـ أجمل مني كثيرا.. سترى أجمل نساء القاهرة من كل الجنسيات!

ـ لهذا لا يمكن أن أحضر الحفلة!

ـ تكره النساء؟

ـ كلا.. أعبدهن.. أعبدهن. للأسف!

ـ ولماذا «للأسف»؟

ـ هذا سؤال شخصي لا أستطيع الاجابة عليه!

ـ هزيمة فى الحب؟

ـ لا هزيمة فى الحرب!

ـ ولكن الحرب لم تنته بعد.

ـ أما أنا. فقد انتهيت!

ـ لا أفهم!

ـ إننى سعيد أنك لا تفهمين. لو فهمت لغادرت غرفتى فى الحال!

وفوجئت قسمت بالضابط الشاب يجهش بالبكاء كأنه طفل صغير!

كانت قسمت تتمنى أن ترى رجلا يبكى أمامها. كانت تحلم بيوم يبكى فيه جميع الرجال فى العالم حتى يعرفوا عذاب الدموع. وكانت تتصور أن الرجال لا يبكون، وإنما هم الذين يجعلون النساء يذرفن الدموع. كانت تحس دائما بأن حلقها جاف. الظمأ يقتلها إلى دموع رجل! لو شربت هذه الدموع لروتها وأسكرتها! وها هى ترى أمنيتها تتحقق. ترى دموعا حقيقية أمامها.

ولمعت عيناها ببريق عجيب، وكأنها ترى هذه الدموع تنقلب إلى نار، وتنظر متلذذة إليها وهى تأكل وجه الشاب الباكى. وخيل إليها أن وجه الضابط اختفى، وحل مكانه وجه عادل علاء الدين.

وإذا بالدموع تنهمر، وتتحول إلى شهيق مستمر.

ثم اختفت رغبتها العارمة فى التحطيم والتدمير واشعال الحرائق فى الرجال. ونسيت فى لحظات أنها تشهد مصرع الجنس الآخر الذى تمقته. أحست فجأة بأنها أمام إنسان يبكى. وأحست بأن شرايينها تنتفض، وأوصالها ترتعش. وأن الثلج الذى يملؤها بدأ يذوب.. وأحست أن قلبها

يتمزق وهى ترى هذا الشاب الجميل الرقيق القوى، صاحب الجسم الرياضى الممشوق، ينتحب أمامها. وبلا إرادة وجدت نفسها تجلس إلى جواره فى الفراش، وتسأله فى حنان لماذا يبكى.

وجفف الشاب دموعه. وهز رأسه عدة مرات كما يفعل الأطفال عندما يرفضون الجواب على أسئلة أمهاتهم. وعادت تلح عليه ثم أخرجت منديلها من حقيبة يدها، ومسحت به دموعه.

وكأن هذه الحركة البسيطة فتحت كل الأبواب الموصدة فى قلبه، وحطمت كل الأقفال التى كان يضعها فى لسانه فقال:

ـ إننى جريح!

ـ كلنا جرحى!

ـ ولكن جرحى أنا أكبر من جروح الآخرين!

ـ إننى مثلا كلى جرح واحد. كلى أنزف دما!

ـ كل جروح الدنيا تشفى إلا جرحى!

ـ أنت شاب فى ريعان شبابك.. والزمن هو طبيب التجميل الذى يتولى إخفاء آثار الجروح!

ـ حتى هذا الطبيب لن يستطيع أن يزيل ما فى من تشوهات!

ـ إن التشوهات فى جسد الانسان يمكن إزالتها. أما التشوهات التى فى القلوب فهى التى لم يظهر بعد طبيب لتجميلها! إن من نتيجة الحرب ظهور طب جديد اسمه طب التجميل. بعد سنوات قليلة سيكون فى استطاعة جراحى التجميل أن يغيروا شكل الأنوف، أن يخفوا التجاعيد، أن يزرعوا

الشعر فى رؤوس الصلع.. أن يدخلوا ما يشاء الانسان من تعديلات فى مظهره الخارجى.. سوف يصنع مبضع الجراح المعجزات.. أما الذى لم يكتشف بعد فهو جراحة الروح!

ـ إن التشوه الذى أصبت به هو فى جسدى وفى روحى!

ـ أن ضربة المبضع فى يد جراح ماهر سوف تخفى كل أثر للتشوه فيك!

ـ ما قيمة أن يخفى الجراح التشوه وأنا أشعر به!

ـ سيجىء يوم تنساه!

ـ إن هذا التشوه لا يمكن أن أنساه أبدا!

ـ كل شىء نستطيع أن ننساه إلا الهزيمة فى الحب!

ـ إنها قصة طويلة وقصة قصيرة فى وقت واحد، وأخجل أن أقصها عليك!

ـ اعتبرنى طبيبة.

ـ إنها قصة لا تقال أمام امرأة!

ـ لا توجد قصة لا تقال أمام امرأة إلا إذا كانت قصتها هى!

ـ فى شهر مايو سنة ١٩٤١ قام الجيش البريطانى، ومعه قوات فرنسا الحرة بغزو سوريا. وكانت تسيطر عليها قوات حكومة فيشى الموالية للمحور. وكنت ضابطا للمدفعية فى هذا الجيش. وتقدمنا من شرق الأردن، واتجهنا إلى الشمال عبر مدينة درعا. وفوجئنا بنيران قوية تنهال علينا من مدفعية الفرنسيين. واضطررنا إل التوقف فشلت كل محاولاتنا لاختراق نيران الفرنسيين. واختارنى القائد البريطانى مع عدد من جنود الجيش

الأردني، لكي نعبر بادية الشام ونهاجم تدمر، ونحتلها ونتجه غربا منها إلى حمص. واضطر الفرنسيون إلى الانسحاب. وشعرت الكتيبة التي أقودها أنها حققت نصرا عظيما. واختارني القائد البريطاني لأكون رغم صغر رتبتي قائد الكتيبة التي تدخل حمص.. وكان الفرنسيون قد انسحبوا أمامنا.. وعند أبواب حمص انفجر لغم تحت قدمي. ولم أعد أعرف من حولي. لم يبق منهم شيء.. تناثرت الأيدي والأذرع والسيقان والرءوس، حتى أصبح من المستحيل أن تعرف رأس من هذا ويد من ذاك!

لم أعرف إذا كانت هذه يدي أم ساقي أم رأسي! ووجدت نفسي في المستشفى العسكري في دمشق. وتحسست رأسي فوجدته في مكانه.. وتحسست يدي وأصابعي وساقي فوجدتها جميعا! وتصورت أنني نجوت! وطلبت مرآه وتطلعت إلى وجهي فلم أجد جروحا ولا خدوشا.. وحمدت الله وصليت له شكرا. ثم اكتشفت بعد ذلك الكارثة، عرفت أن شظية من اللغم انفجرت تحت بطني، وأكلت النار رجولتي!

وكدت أفقد عقلي! تمنيت لو فقدت ذراعي أو يدي.. تمنيت لو أن اللغم كان قد قتلني! ونقلوني من مستشفى دمشق إلى مستشفى حلوان العسكري، وبقيت فيه شهورا وشهورا!

أطباء التجميل يدخلون ويخرجون.. أنا لا أريد تجميلا. أنا أريد أن تعود إلى رجولتي! إنني أحب فتاة في مدينة شيفيلد اسمها ديانا سميث.. كانت طالبة معي في الجامعة. خطبتها واتفقنا على الزواج بعد انتهاء الحرب.. وهي تكتب لي مرة كل أسبوع وتقول إنها تنتظرني. إنها ستتزوجني يوم وصولي إلى انجلترا. في كل خطاب من الخطابات تحدثني عن شهر العسل. عن الليالي التي تحلم أنها سوف تمضيها بين ذراعي. كل خطاب من هذه

الخطابات أشبه بخنجر تغمده فى قلبى. كل خطاب منها أشبه برحلة إلى بحر الهلاك. كل قبلة فى خطاباتها تسممنى! كل عناق يخنقنى! إننى لا أجرؤ أن أكتب لها وأقول إننى لم أعد رجلا، سوف تخبر بالأمر زملائى فى الجامعة.. سوف تعرف المدينة كلها مصيبتى.. سوف لا أطيق أن أعود إلى بيتى.. إلى أمى، إلى أبى، إلى إخوتى!

إننى أخجل من أن أعترف لها بالحقيقة. أخجل منها! أخجل من نفسى، أخجل من الدنيا كلها!

وسكت الضابط الشاب وجفف دموعه بمنديل قسمت.. وإذا بقسمت تضمه إلى صدرها وتقبله فى فمه!

وذهل الضابط الشاب وقال:

ـ كيف تقبليننى بعد أن عرفت كل ما عرفت؟

ـ لأننى أريدك هكذا!

ـ هكذا!

ـ هكذا بالضبط

ـ هل فهمت ما حدث لى؟

ـ فهمته قبل أن ترويه لى!

ـ كيف فهمت!

ـ دموعك قالت لى كل شىء!

ـ إنك امرأة غريبة! كنت أتصور أن الرجل فى نظر المرأة هو الجنس!

ـ الجنس ليس كل شيء! إن المرأة تعبد أحيانا رجلا لم تحصل على قبلة واحدة من شفتيه، وتحتقر رجلا يقاسمها الحياة.

ـ ولكنها تحلم دائما بأن يحل الرجل الذى تحبه مكان الرجل الذى تكرهه.

ـ قد يدهشك أن تعلم أن القلوب تستطيع أن تقوم بالعملية التى يقوم بها الجسد! قلوب شهوانية فى أجساد من جليد. قلوب ظمأى وعطشى فى أجسام تروى كل ليلة بخطيئة مجنونة أو بحلال ممقوت! قلب المرأة له أشواقه وبركانه وناره مثل جسدها. وقد يثور بركان الجسد، وبركان القلب خامد. وقد ينفجر بركان القلب وينفجر حمما نارية لا هبة والجسد ميت بلا حراك!

ـ ولكن السعادة أن ينفجر البركانان فى وقت واحد.

ـ هذا يحدث نادرا فى الحياة! كثيرا ما يتحرك كل بركان من البراكين فى وقت يختلف عن ثورة البركان الآخر.

ـ لا أصدق أن امرأة تعجب برجل مذبوح.

ـ الرجل فى نظر المرأة هو ألف صنف وصنف! وهو دكان تتوقع أن تجد فيه كل شيء تريده! تريد أن تجد فيه اللحم والفاكهة. الوردة وسكين المطبخ، مكياج وجهها وطلاء حذائها! تريده معبدا وكباريه فى وقت واحد. والجنس هو واحد من الألف صنف التى تريدها! فإذا وجدت الجنس وحده ولم تجد الأشياء الأخرى بحثت عن محل آخر! ولكنها إذا وجدت التسعمائة والتسعة والتسعين صنفا فى المحل، ولم تجد الجنس، لا تغير المحل!

ـ إن هذه هى المرأة الملاك!

ـ إن نصف المرأة ملاك ونصفها شيطان! وفى قدرة الرجل وحده أن

يخرج الملاك منها أو يخرج الشيطان!

ـ هل تتصورين أن خطيبتى ديانا تقبل أن تتزوج منى بعد ما حدث لى؟

ـ لنفرض أنك تزوجت بها ثم حدث لك ما حدث.. فهل كانت تطلقك؟

ـ أعتقد أنها كانت تطلقنى!

ـ إذن، فهى لن تتزوجك!

ـ وسوف أحتقرها لأنها تخلت عنى! وبهذا لا أفقدها وحدها، وإنما أفقد صورتها الجميلة. إننى استطيع أ ن أعيش على ذكرى أيامنا الحلوة معا، ولكنى أموت كمدا إذا انتهت قصتنا هذه النهاية الدامية!

ـ إذن يجب ألا تعرف، يجب أن تفسخ خطبتك لسبب آخر!

ـ أى سبب آخر؟

ـ أنا.. مثلا!

ـ أنت.. ماذا تستطيعين أن تفعلى؟

ـ أستطيع أن أقوم بدور حبيبتك وأظهر فى المجتمعات معك.. وتلتقط الصور لنا.. ويتحدث زملاؤك عن غرامك بفتاة مصرية.. وتقع صورة لى وأنا أعانقك فى يد ديانا فتغضب وتثور وتفسخ خطبتها معك. وبذلك تشتهر بأنك زئر نساء.. لا رجل فقد رجولته!

ـ إنها فكرة عبقرية.. ولكن ما الذى يجعلك تفعلين من أجلى كل هذا؟

ـ لأننى أحتاج إليك لتقوم بهذا الدور!

ـ لتفسخى خطبتك؟

ـ لا.. لأستعيد الرجل الذى أحبه !

ـ ولكن بحالتى الراهنة لا يمكن أن أثير غيرة رجل !

ـ نحن مجتمع يهمه البذلة الرسمية وليس الرجل الذى فى داخلها تخيفه البندقية.. حتى ولو خلت من الرصاص !

ـ إننى فعلا بندقية خلت من الرصاص !

ـ ولكننى سأحارب بها !

ـ إننى موافق على هذه الشروط !

ـ إن لى شروطا أخرى !

ـ ما هى ؟

ـ أن تحاول، عندما نذهب إلى الحفلة، أن تقبلنى وأنت ترقص معى !

ـ هذا شرط لذيذ !

ـ وأن تقول إنك تريد أن تتزوجنى !

ـ هذا شرط سهل جدا !

ـ وأن تقول إنك أب الجنين الذى فى بطنى !

ـ هل فى بطنك جنين ؟

ـ نعم.. ابنك !

الفصل الخامس والثلاثون

مالت الأميرة فضيلة برأسها على رأس عادل علاء الدين، وقالت له هامسة :

ـ هل ترى.. ما أراه؟

ـ ماذا ترين؟

ـ قسمت شاهين؟

والتفت عادل إلى حيث تشير الأميرة، فرأى قسمت بين ذراعى ضابط انجليزى، يرقصان متلاصقين. وتأملت الأميرة الضابط الشاب. كان الرجل وسيما جدا. شعره كالحرير الذهبى، ذا عينين زرقاوين وفم صغير، شفته العليا قرمزية رقيقة مقوسة، وشفته السفلى قرمزية ممتلئة تبدو الشفتان منتشيتين وكأنهما انتهتا من قبلة لذيذة. خده المشرب بالحمرة التصق بخد قسمت، وأحاطت يده التى تشبه الزنبقة بخصرها. وتنهدت الأميرة وقالت:

ـ يظهر أن قسمت كسبت وحدها الحرب العالمية الثانية!

وأحس عادل كأن سكينا حادة تتحرك فى داخله، تغوص فيه، تمزقه اربا اربا، ظهر وجه قسمت أمامه فى أول الأمر مهزوزا مضطربا، كان وجهها يختفى خلف سحابة من الدخان أو يختبئ خلف هالة من الغمام. وعجب أنه

لا يرى من مقعده القريب تقاطيع وجهها. هل دخان سيجارته هـو الـذى أخفى ملامحها، أم أن انفاسه الملتهبة تحولت إلى دخان أبيض يحجبهـا عنه ؟

وحدق فيها من جديد. واستطاع بعد جهد أن يرى وجهها. إنها ليسـت صورة المرأة التى عرفها وأحبها. إنها صورة امرأة أخرى. ليسـت هـذه قسمت القديمة ذات النظارة السوداء، ولا هى الآنسة كاف التى خلقها مـن أشواقه وصنعها من هواه. تذكر تلك الليالى التى كان يلتقيان فيها بشـقته. وكيف كان يطفىءنور الغرفة ويجلس فى الظلام يرى وجهها يشع بـالبراءة، كأن قبلاته الملتهبة لم تدنسها وكأنها وهى بين ذراعية غانية ولا تكاد تفلت من ذارعية حتى تعود قديسة من جديد.

لا.. هذه المرأة التى يراها الليلة ليست قسمت ولا الآنسة كاف. إنهـا امرأة ثالثة يراها للمرة الأولى فى حياته. امرأة خطرة لا تنتمـى إليـه ولا ينتمى إليها. امرأة من عالم آخر هو عالم الشياطين. امرأة فاجرة وهى تفتح عينيها. امرأة أشد فجورا وهى تغمض نفس العينين !

امرأة خلقت لتعذب الناس، لتخدعهم، لتشقيهم، لتدوسهم بقـدميها. كم تغيرت ملامحها ! كم تبدل وجهها !

كم اختلفت تصرفاتها عن المرأة التى عرفها ! كيف جرؤت أن تضع خدها على خد هذا الضابط الانجليزى وهى ترقص ؟ إنها لم تفعل ذلك أبدا معـه خلال مئات المرات التى رقصت فيها معه. كيف رضيت أن يضمها الضابط الانجليزى بهذه الطريقة الشائنة أمام هذه الجموع الغفيرة ؟

وقطع صوت معروف باشا زوج الأميرة عليه سلسلة أفكاره وسمعه يقول :

ـ ألا تلاحظ ياعادل بك أن غصون الأشجار تتمايل وكأنها ترقص!

والتفت عادل إلى الأشجار ولم يرها تتمايل وترقص، بل رآهـا تـرتجف وترتجف!

وعجب عادل كيف أن شخصين يجلسان معا على مائدة واحدة، ويـريان الشيء الواحد بنظرة مختلفة! كأنه ليست في عيوننا عدسات تلتقـط صـور الأشياء، بل مرايا نرى فيها مافي داخلنا. لعل الجـالسين في فنـدق شـبرد لا يرون وجه قسمت كما يراه لعلها تفتنهم في الوقت الذي يشمئز هو فيه من منظرها. لعلها تخلب ألبابهم في نفس اللحظة التي تجعله يشعر برغبة شديدة في البكاء!

كل من في السهرة سعداء بالسهرة ما عداه. الموسيقى التي يـرقصون عليها تحولت في أذنه إلى أنغام الجنازات. الضحكات العالية بـدت أشـبه بالصراخ والعويل. أحس بأن أشياء كثيرة في داخله تتحطم وتتـكسر. إنـه يسمع صوت هذه الأشياء وهي تتمزق وتنقطع في أعماقه. وأحس فجأة بفراغ ضخم في روحه. كأن العالم الذي كان يعيش في داخله تعرض إلـى زلـزال عنيف. تهاوت الأبنية الشاهقة. سقطت البيوت. تحو ل الناس إلـى جثـث وأشباح. كل شيء في أعماقه تحول إلى خراب وعدم!

ودهشت الأميرة فضيلة عندما رأت لون وجهة يشحب. تصـورت في أول الأمر أن الأنوار الملونة ألقت ظلالها على وجهه. ولكنها رأت العرق يتساقط من جبينه بغزارة. ورأت جسمه ينتفض فقالت له ملتاعة:

ـ ماذا حدث يا عادل؟ هل أنت مريض؟

وتماسك عادل، وقال إنه يشعر ببرد خفيف، وأنه يستطيع أن يعالج هـذه الحالة الطارئة ببضع كئوس من الويسكي.

وأمسك زجاجة الويسكى التى فوق المائدة، وأراد أن يسكب بعضها فى كأس الأميرة، فابعدت كأسها وهى تقول باسمه:

ـ هل نسيت أننى لم أذق الخمر منذ أصبحت أما!

وهز عادل رأسه. لقد نسى فى هذه اللحظة كل شىء. وأفرغ بعض ما فى الزجاجة فى الكأس ولم يمزجه بالصودا كما كان يفعل دائما، ورفع الكأس وشربها جرعة واحدة.

وأحس أن الخمر تخفف ألم السكين الذى كان لا يزال يمزقه. فالخمر هى مخابىء يهرب إليها الذين لا يستطيعون مواجهة الواقع. وهم يختفون فى داخل الكئوس الزجاجية متوهمين أنهم اختفوا فى مخابىء من الأسمنت المسلح، ولا يعرفون أنهم يختفون فى بيوت من زجاج!

وعادت الأميرة تقول وهى مبهورة:

ـ أن هذا الضابط الانجليزى مزيج من نجوم السينما وأبطال الرياضة!

وأطارت هذه الكلمات الخمر من رأسه. وأحس كان الأميرة هوت على رأسه بمطرقة هائلة. وشعر أنه يكرهها، كما يكره قسمت. كما يكره الضابط الانجليزى، كما يكره فندق شبرد كله بما فيه ومن فيه!

وتدخل معروف باشا وقال:

ـ صحيح أن هذا الضابط رجل فاتن جدا! الشاب الانجليزى الوسيم عندما يكون جميلا يقترب من أن يكون امرأة جميلة! ولكن هذا الشاب جمع بين الرجولة والجمال فى وقت واحد.

ولمعت عينا الأميرة وقالت:

ـ إنه جميل فعلا. أنه أجمل رجل رأيته فى حياتى. تـرى كيف عثـرت قسمت على هذا الكنز؟!

وتضايق عادل من هذا المديح والاطناب فى وصف الضابط الانجليـزى الشاب. إنه وحده الذى يعرف علاقة قسمت به، والجنين الذى فى بطنها منه. وأحس بالغيرة تنهش فيه، تأكله، تعذبه.

كانت كلمات الاعجاب بالضابط الانجليزى أشبه بقنابل تسـقط فـوقه، تصيبه إصابات مباشرة تدمره، تحوله إلى أشلاء!

وأراد أن يغير موضوع الضابط الانجليزى بموضوع آخر، كأنه يهرب من الغازات المتلاحقة إلى مخبأ أمين، فقال:

ـ إن كل القاهرة هنا الليلة فى هذه الحفلة!

ولم تترك الأميرة عادل يستريح فى مخبئه الأمين الذى لجأ إليه، وعـادت تنتزعه منه وهى لا تزال متجهة بكل عينيها إلى الضابط الانجليزى، وكأنها تأكله:

ـ أعتقد أن القاهرة كلها لن يكون لها حديث إلا عن الضـابط الجميـل الذى كانت ترقص معه قسمت شاهين.

وأدار معروف باشا رأسه، ليتابع قسمت والضابط وهما يدوران معـا فى حلبة الرقص ثم قال فى حماس:

ألا تلاحظون أن الضابط ينظر إلى قسمت نظرات حـب ولـع وعشـق وهيام؟ إنه مفتون بها. يظهر أنها سحرته!

وما كادت الأميرة تسمع هذه الكلمات حتى تحـركت المـرأة اللعـوب المدفونة فى داخلها. عادت إلى قيد الحياة من جديد. شعرت برغبة عارمة فى

أن تنتزع الضابط الشاب من قسمت، لتكون هي حديث المدينة غدا لا قسمت شاهين!

وبحركة غير إرادية، مدت الأميرة يدها إلى كأس الويسكى التى كانت أمام زوجها وأفرغتها فى جوفها. نسيت فى لحظات أنها منذ حملت ابنها طلقت الخمر! نسيت أنها أضربت عن حياة العبث والسهر والمجون. نسيت أنها قررت أن تمضى بقية حياتها فى الصلاة والصوم شكرا لله على النعمة التى أسبغها عليها. وإن كانت أصدرت فتوى بأن علاقتها الغرامية بعادل علاء الدين ليس لها علاقة بقرار الصلاة والعبادة! أحست كأن هذا الضابط الوسيم أصبح الرجل الوحيد فى العالم. يجب أن تتحرك لتستولى عليه قبل أن يفلت منها! يجب أن تحتكره لنفسها ولا تسمح لامرأة أخرى بأن تشاركها فيه!

بل إنها نسيت أنها تحب عادل علاء الدين، ونسيت أنه يجلس إلى جوارها، ونسيت أنها وبخته منذ دقائق عندما أراد أن يسكب لها كأسا من الويسكى!

وقالت لزوجها بلهجة آمرة:

ـ اذهب.. واحضر قسمت والضابط ليجلسا على مائدتنا.

وتحرك معروف باشا من مقعده ليلبى أمر الأميرة، ودمدم عادل معترضا وقال لها هامسا:

ـ يحسن أن نتركهما وحدهما!

ـ ماالضرر فى دعوتهما لمشاركتنا مائدتنا؟

ـ العشاق يكرهون الغرباء فى أيامهم الأولى!

ـ ولكنك لم تكره الغرباء فى أيامنا الأولى!

ـ عندما يزيد عدد الموجودين مع عاشق وعاشقة واحدا. يشعران أن هذا الواحد الزائد هو جمهور كبير!

ـ أنت لم تعترض أبدا على وجود زوجى معنا!

ـ لم أشعر بوجوده!

ـ لسنا غرباء بالنسبة لقسمت إن قسمت صديقتنا، ويهمنا أن نهنئها على ذوقها البديع!

ـ اعتقد أن قسمت سوف ترفض دعوتنا.

إنها لن ترفض، بل يسرها أن تتباهى بالجوهرة التى فى يدها!

ـ أنا واثق أنها لن تحضر لن تجرؤ على الحضور؟

ـ لماذا؟

ـ لأنها تعلم أننى لا أوافق مطلقا بأن تظهر فتاة مصرية بهذا المظهر الفاضح مع ضابط انجليزى!

ـ إنها ترقص معه. ولا أرى فى هذا أى شىء فاضح!

ـ إنها ترتكب فعلا فاضحا فى الطريق العام!

ـ ماذا جرى لك ياعادل! إننى لم أعرف عنك أنك أصبحت من كبار رجال الدين، وأصبحت ترى أن من ترقص مع رجل سوف تدخل جهنم!

ـ إنى لا أثور لسبب دينى. إننى غاضب لسبب وطنى! إننى أجد أن

مراقصة سيدة مصرية محترمة لضابط من ضباط الاحتلال هى لطمة علــى وجه كل مصرى !

ـ لقد رأينا معا من قبل فتيات مصريات يرقصن مع ضباط انجليز ولم تثر كل هذه الثورة !

ـ لم يكن يرقصن بهذه الطريقة الشائنة !

ـ أنت مريض ياعادل ! إنك ترى أشياء لم تحدث ! أعتقد أنه يحسن بـك أن تعود إلى بيتك قبل أن يشتد البرد. لا بد أن حرارتك ارتفعت. لا بـد أن ما تقوله هو تخريفات الحمى !

وسكت عادل على مضض. أيكون فعلا أصيب بالحمى، حمــى الغيــرة، وأصبح يرى أشياء لم تحدث ! أو تكون ثورته ليست بسبب غيرة وطنيــة، ولا غيرة دينية، ولكن غيرة عاشق مهزوم من عاشق منتصر!

وصمت ولم يقل شيئا. ومد يده إلى زجاجة الويسكى وعــاد يفــرغها فى كأسه الجديد، ولم توجه الأميرة إليه حديثا بعد ذلك. واكتفت بأن أشــارت بطرف عينها إلى زوجها، وقفز معروف باشا من مقعده واتجه إلى قســمت والضابط البريطانى فى حلبة الرقص، وهمس فى أذن قسمت يقول لها :

ـ إن الأميرة تدعوك أنت وصديقك للجلوس إلى مائدتها !

وترجمت قسمت إلى الانجليزية ما يقوله معروف باشا، فقــال الضــابط الشاب :

ـ الأمر لك !

وابتسمت قسمت وقالت :

ـ سنجيئكم بعد انتهاء هذه الرقصة!

وعاد زوج الأميرة إليها يحمل لها بشرى قدوم قسمت والضابط بعد انتهاء الرقصة.

وضغط عادل بأسنانه على شفتيه. ثم أفرغ الكأس فى جوفه. ولم تلاحظ الأميرة الطريقة المجنونة التى يشرب بها عادل، فقد كانت مجنونة بنوع آخر من الخمر أسكرها، وهو الضابط الانجليزى الوسيم، فإنها كانت تتابعه بعينيها الشرهتين، وهو ينتقل بقسمت من ركن إلى ركن فى حلبة الرقص.

* * *

وأنهت الموسيقى الدور الراقص واتجهت قسمت مع الملازم جاك ستيوارت إلى المائدة التى يجلس إليها عادل مع الأميرة وزوجها.. وقدمت جاك إلى الأميرة فصافحته وضغطت على يده، ثم قدمته إلى زوجها معروف باشا ثم إلى عادل..

وحرصت الأميرة على أن تجلس جاك إلى جوارها. وجلست قسمت بين عادل وزوج الأميرة. وكأنها حرصت على ألا تجلس فى مواجهة عادل، حتى لا تلتقى عيناها بعينيه.

وقالت الأميرة للضابط البريطانى:

ـ لعل هذه الحفلة أعجبتك!

ـ أعجبتنى! إنها أروع سهرة حضرتها فى حياتى!

ـ هل أنت تصف الحفلة أم تصف قسمت؟

ـ أصف قسمت واصف الحفلة وأصف السهرة! إننى أحب هذا المكان

فعلا. لقد كنت مع الدكتور كروزيل أستاذ الدراسات الاسلامية أمس، فقال لى أن حديقة شبرد هذه كانت عش غرام نابليون بونابرت ! عندما غزا مصر. كان منزل محمد بك الألفى الذى يقيم فيه نابليون مكان الفندق . وقد كان مكان هذه الحديقة عش غرامه، وكان بينهما باب سرى!

قالت الأميرة ضاحكة :

ـ إذن أنت تحاول أن تعيد فتوحات نابليون فى نفس مكان المعركة !

ـ إن تشبيهى بنابليون شرف عظيم ! لقد قرأت عنه أنه كان يسحق النساء فى حبه كما يسحق الجيوش فى المعارك!

وقهقهت الأميرة وضحك زوجها وابتسمت قسمت، واصفر وجه عادل. لم يعجبه أن يتكلم الضابط الانجليزى هذا الكلام المفتوح. وانبرى عادل يقول له متهكما :

ـ لماذا تقلدون نابليون فى الحب ولا تقلدونه فى الحرب!

ـ إنه شرف لنا أن نقلد نابليون فى الحب والحرب.

ـ هل هذا تظاهر بالتواضع؟

ـ إن طبيعة الانجليزى أن يحنى رأسه للمهزوم الذى انتصر عليه.. كما يحنى رأسه للمنتصر الذى هزمه.

ولسعت هذه الجملة عادل كأنها افعى. ونظر إلى عينى قسمت، وكأنه يريد أن يقرأ فيهما السؤال الذى قفز إلى رأسه. هل أخبرت الضابط البريطانى أن عادل هو القائد المهزوم الذى انتصر عليه جاك ستيوارت فى معركتها !

ولم تشأ قسمت أن تريحه بالرد على سؤاله الذ ى يقطر دما. لم يفصح وجه قسمت عن شيء. لا هي انكرت، ولا هي اعترفت. وضاعف غموض تعبيرات وجهها من حيرته.

ونظر الضابط الانجليزى حوله إلى حديقة شبرد وإلى جدران الفندق كأنه ينظر إلى امرأة شرقية جميلة وتنهد وقال:

ـ أشعر كأننى أعيش الآن في سهرة بقصر نابليون عندما كان في القاهرة. إننى قرأت كثيرا عن تاريخ نابليون في مصر. إن طراز فندق شبرد هو نفس طراز قصر الألفى الذى عاش فيه نابليون. إنه يشبهه من الداخل شبها غريبا. نفس النقوش الشرقية نفس الزخارف العربية التى تزين الجدران. الأعمدة البيضاء المزركشة. ملابس الخدم التى تشبه ملابس المماليك. الأخشاب المموهة بالذهب والفضة. الموائد المبطنة بالصدف حتى أشجار البرتقال المزروعة في صناديق خشبية.. حتى نافورة المياه هذه لا تزال في نفس المكان!

قال عادل في سخرية مريرة:

ـ لا ينقصنا إلا نابليون..

قال الضابط الانجليزى:

ـ وزينب؟

وضحكت الأمير فضيلة وقالت:

ـ زينب؟.. زينب كامل عضو جمعية ملجأ المتشردين وصديقة قسمت:

قال عادل في مرارة:

ـ إن الملازم ستيوارت يقصد فتاة مصرية اسمها زينب. كانت ابنة الشيخ البكرى فى عهد نابليون استطاعت بجمالها أن تغزو قلب القائد الغازى! خانت دينها ووطنها نسيت بين ذراعيه شرفها وتقاليد بلادها. وجد نابليون لذة فى أن يذل شعب مصر بأن يجعل زينب معشوقته

قالت قسمت معترضة:

ـ وما أدراك أن زينب فعلت كل هذا من أجل هواها ما أدراك أن زينب ضحت بشرفها لتنقذ شعب مصر من جبروت الطاغية! ما أدراك أنها استسلمت لقائد الاحتلال لتقلم أظافره ولتنزع أنيابه؟ ما أدراك أنها لم تكن جان دارك مصرية، أحرقت نفسها من أجل هذا الشعب؟!

قال عادل باحتقار:

ـ إن حريات الشعوب لا تنتزع بين أذرع الطغاة!

ـ إننى قرأت أن زينب البكرى هى التى أقنعت نابلبون باعتناق الاسلام، وجعلته يلبس عمامة، ويحضر تلاوة القرآن قرأت أن هذه الفتاة المصرية التى لم تكن تبلغ إلا السادسة عشرة من عمرها سحرت الطاغية وجعلته أشبه بالطفل الصغير... وإنها منعت كثيرا من البطش والأذى عن المصريين واقنعت نابليون أن يرحم المصريين من قيود الاحتلال وهوانه!

ـ الذى أعرفه أنه بعد هذه العلاقة مباشرة، هدم نابليون جامع الأزهر بمدافعه، وقتل عشرات العلماء المصريين، وفتك بمئات من المصريين.. فماذا فعلت صاحبتك زينب؟

ـ إن زينب ليست صاحبتى، وإنما الحقيقة هى صاحبتى! إننى أعتقد

أن التاريخ ظلمها.. لأن التاريخ يكتبه الرجال، ولو كتبت النساء التاريخ لتغير وجه التاريخ!

ـ لأن المرأة تجيد الكذب أكثر من الرجل!

ـ أن فى رأيى أن زينب البكرى بطلة. ليس ذنبها أن تعشق الطاغية.. إذا كان كبار العلماء يقبلون يد الطاغية!

ـ لم تفعل زينب شيئا لانقاذ أهل وطنها من غضب الطاغية. إنه أمر بإبادة كل من فى جامع الأزهر. سلط مدافعه على البيوت، دمرها على من فيها من نساء وأطفال. جعل الناس يجرون فى الشوارع هائمين على وجوههم يصرخون «ياخفى الألطاف.. نجنا مما نخاف»! رجال نابليون اقتحموا الأزهر وهم على خيولهم، حطموا القناديل وهشموا قبلة المسجد، وماذا فعلت زينب خلال هذا كله؟ كانت بين ذراعى عاشقها الطاغية فى هذا المكان الذى نجلس فيه الآن بفندق شبرد!

ـ لا تزور التاريخ ياعادل: إن اعتداء نابليون على الأزهر وقع بعد أن قطع علاقته بزينب البكرى بعام على الأقل! أذكر لى حادثة واحدة وقع فيها عدوان على الشعب المصرى أيام كانت زينب عشيقة نابليون؟

ـ إنها هى التى أعطت المصريين المثل فى الاستسلام!

ـ حتى هذا لم تفعله! والدليل على ذلك أنه بعد أن انتهت علاقة نابليون بزينب بعدة شهور قام الشعب فى القاهرة بثورة عارمة. هجم الشعب على الجنرال دبوى محافظ القاهرة، وكانوا يطلقون عليه لقب «شيخ البلد» وقتلوه هو وحرسه. وكان نابليون يومئذ يزور الجيزة وأراد أن يسرع إلى القاهرة فألقى عليه الشعب الأحجار ومنعه من دخول المدينة، واضطر أن يدخلها من الباب الخلفى. وغطت جثث الجنود الفرنسيين شوارع المدينة. وأشعل

الثوار النار فى كل مكان. واقتحم الشعب مقر البعثة العلمية الفرنسية وقتلوا أحد العلماء الفرنسيين وأربعة من المهندسين، وحطموا كل الآلات العامية. وحاصر الشعب المستشفى العسكرى الفرنسى وقتل اثنين من الأطباء.. سيطر الشعب على القاهرة كلها باستثناء القلعة!

وانتهت قسمت من حديثها، وأخذت تعبث بخصلات شعرها. وانحنى عليها عادل وقال ساخرا:

ـ وماذ ا فعلت ست زينب فى هذه الثورة؟ لعلها أعلنت الثورة فى قلب نابليون. عانقته وقبلته وارتمت بين ذراعيه!

ـ إنها ارتمت تحت قدميه. توسلت إليه أن يعدل عن القرار الذى أصدره بقطع رأس ألف ثائر مصرى.. مزق القرار أمامها! إن جميع المؤرخين دهشوا لأن نابليون لم يفتح حمامات الدم. أصبح صفح نابليون عن ثوار القاهرة موضوع الكثير من اللوحات المشهورة فى أوروبا.. ولكن هذه اللوحات تناست الدور الذى قامت به زينب!

ـ إن المؤرخين الفرنسيين أرادوا أن يحيطوا نابليون بهالة من القداسة! لقد قرأت بنفسى فى متحف نابليون أمرا أصدره إلى الجنرال برتييه نائبه، جاء فيه بالحرف الواحد «أرجو أن تصدر أمرك إلى قومندان مدينة القاهرة بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين قبضتم عليهم وبأيديهم السلاح، وأن يؤخذوا بعد هبوط الظلام إلى شاطئ النيل، وتلقى جثثهم المقطوعة الرؤوس فى النهر». إن وثائق التاريخ تؤكد أن نابليون أعدم فى يوم واحد ثلاثمائة مصرى فى تلك الليلة؟. ولعل زينب كانت بين ذراعيه وهو يصدر قراراته بقطع رؤوس أبناء وطنها!

ـ إذن فقد استطاعت زينب أن تنقذ هذه الليلة سبعمائة مصرى من قطع

رؤوسهم! إنها أعطت الجنرال الفرنسى ليلة واحدة لتمنح الحياة لسبعمائة مصرى!

ـ هذا موضوع شائك لا يجوز للنساء أن يتحدثن فيه!

ـ هناك مثل صينى قديم يقول: ممنوع على المرأة أن تتحدث فى أى موضوع .. إلا موضوع الحب!

ـ ولكن هذا ليس موضوع حب إنه موضوع دعارة!

ـ إنه موضوع امرأة مصرية انقذت بحبها حياة سبعمائة مصرى!

كان أشرف لمصر، لو قتل نابليون ألف رجل مصرى، ولم يلوث شرف فتاة مصرية واحدة!

وقاطعه جاك ستيوارت قائلا:

ـ أنا متحمس جدا لزينب!

قالت قسمت لعادل:

ـ وأنت متحمس جدا ضد زينب!

قال عادل:

ـ أنا متحمس ضد كل زينب! ضد كل امرأة تستسلم لأعداء وطنها!

قال جاك ستيوارث ضاحكا:

ـ أحمد الله أننا نحن الانجليز لسنا أعداءكم! نحن حلفاؤكم بحكم معاهدة سنة ١٩٣٦!

قال عادل متجهما:

ـ إن هذه المعاهدة سقطت يوم ٤ فبراير. عندما حاصرتم قصر ملك مصر بالدبابات البريطانية وفرضتم عليه رئيس وزارة!

ـ يومها صفق الشعب المصرى لنا.

ـ لأنه لم يعرف حقيقة ما جرى. تماما كما لم يعرف حقيقة مـا جـرى لزينب البكرى إلا بعد عدة شهور، ولذلك ثار على نابليون!

ـ إنك ياعادل، تشوه سمعة الشعب المصرى! كأنك تـريد أن تقـول إن شرف الشعب هو فى نسائه! الشعب لا يثور لأن الجيش الفرنسى غزا أرضه! ويثور لأن قائده عشق إحدى نسائه!

ـ إن الشعب المصرى تحمل كل شىء من نابليون، ولكنه لم يتحمـل أن يرى قلة حياء الغزاة مع نسائه! إن المؤرخ المصرى الجبـرتى يقـول إن الفرنسيين هاجموا حى بـولاق، وأسروا كل نسـائه وفتيـاته الجميـلات، وجعلوهن محظيات لديهم! إن المصرى يثور الدم فيه عندما يرى ابنة بلـده تعانق جنديا من جنود الاحتلال، ولو كان الأمر بيدى لحلقت رأس كل فتـاة تخرج مع جندى بريطانى!

وتحسست قسمت شعرها وهى تضحك ساخرة وقالت:

ـ الحمد الله.. إن الأمر ليس فى يدك ياعادل!

* * *

وكانت الأميرة فضيلة مشغولة طوال الوقت فى الحملقة فى وجه المـلازم جاك ستيوارت. تلاحقه بابتساماتها، تتابعه بنظراتها، تحاول أن تقـول لـه برموشها أنه أعجبها. ولكنه كان منصرفا عنها بمتابعة المناقشة الحادة من غراميات نابليون فى مصر. ولم يكن أحد من الجالسين، سـوى قسـمت –

يعرف حقيقة المناقشة. أو يتصور أنها ليست مناقشة تاريخية. وإنما مناقشة فى الأحوال الحاضرة! وإن عادل وهو يشتم زينب البكرى إنما يشتم قسمت، وأنه يهاجم نابليون بقسوة وهو يريد أن يهاجم الملازم جاك ستيوارت الذى فعل بقسمت ما فعله نابليون بزينب البكرى!

وقالت الأميرة فضيلة وهى توجه الحديث للضابط البريطانى الذى سلب لبها:

ـ إن عادل ينسى أن المصريات هن حفيدات كليوباترا! كليوبترا عشقت يوليوس قيصر وعشقت مارك انطوان لتنقذ مصر من الغزو الأجنبى! حلم كل فتاة فى مصر أن تكون كليوبترا جديدة!

قال عادل غاضبا، فى صوت يشبه رذاذ الزجاج المكسور:

ـ إن كليوبترا لم تكن مصرية ـ كانت يونانية! وقد دخلت التاريخ من أبواب الغانيات، لا من أبواب الملكات!.. ولقد كان الفرنسيون يسمون زينب البكرى «فتاة القائد المصرية» «كليوباترا الجديدة»، وكانوا يسخرون من والدها الشيخ البكرى! إن كليوبترا وزينب البكرى فضائح فى تاريخنا، لا مثل يحتذى!

قالت قسمت وهى تتحداه:

ـ إننى شخصيا معجبة بزينب البكرى!

ـ سوف يزداد إعجابك بها عندما تعلمين أنه بعد جلاء الفرنسيين عن مصر، خرج الشعب إلى بيت البكرى بحى الجودرية، وهاجموه وكسروا رقبة زينب، ثم ضربوا جثتها بالأحذية والنعال!

قالت قسمت بالعربية وهى تضحك:

ـ هل هذا تهديد؟

ـ لا.. إننى أروى التاريخ!

ـ والتاريخ يعيد نفسه طبعا!

وامتقع وجه عادل، وهو يرى قسمت تضحك وتسخر كأن كل السهام التى وجهها لها قد طاشت. كأنها أصبحت زينب البكرى الجديدة. وفخورة بمغامراتها مع الغازى الجديد. لا يهمها لو كسر المصريون رقبتها. كل ما يهمها أن تستمتع بهوى جاك ستيوارت، بعينيه الزرقاوين، بخده المتورد، بشعره الذهبى برجولته الصاخبة. وفوجىء بالأميرة فضيلة تتخلى عنه هى الأخرى وتقول:

ـ أنا لا أفهم هذا الخلط بين الحب والوطنية! القلب لا وطن له. أعظم رجال العالم أحبوا نساء من غير بلادهم. ولم يلعن العالم امرأة لأن قلبها خفق بحب رجل من غير بلادها! إن رجالنا يفهمون أن العرض هو الأرض!

قالت قسمت فى حماس:

ـ إن كثيرا من رجال مصر الوطنيين تزوجوا من أجنبيات ولم يطعن أحد فى وطنيتهم!.. بعض المتزوجين من انجليزيات كانوا من أشد رجال ثورة ١٩١٩ تطرفا! لماذا يجوز للرجل المصرى أن يتزوج من انجليزية، ولا يصبح خائنا للوطن، ولا يجوز للمصرية أن تتزوج من انجليزى، ولو فعلت ذلك لاستحقت أن تقتل ضربا بالشباشب والمراكيب!

وفهم عادل من حديث قسمت أنها تشير إلى مشروع زواجها من الضابط البريطانى. إلى قصة جاك الذى غزاها واستسلمت له. ووقعت وثيقة

استسلامها بهذا الجنين الذى فى بطنها.. واشتدت كآبته. وحاول أن يغرق هذه الكآبة فى كأس أخرى يشربها!

وسارع جاك ستيوارت متوهما أن يضمد جراح عادل:

ــ من حقك أن تلعن فتاة مسلمة تخالف تعليمات دينكم وتتزوج من ضابط أجنبى من دين آخر.. ولكن ماذا تقول لو أن الضابط الأجنبى اعتنق الاسلام؟

ــ أقول إن هذا نفاق! لا أتصور أن رجلا يترك دينه من أجل امرأة!

ــ هناك نساء يسلبن عقول الرجال! تساوى الواحدة منهن أن يترك الرجل منا دينه ووطنه من أجلها!

ــ كما فعل نابليون عندما تظاهر بالاسلام! ثم بعد شهور مل هوى زينب وعشق فتاة فرنسية أخرى زوجة أحد الضباط، اسمها مدام فوريه!.

ــ لا أقصد نابليون! أقصد قائدا آخر من كبار قواده. أقصد الجنرال مينو. لقد أسلم وتزوج فتاة مصرية من رشيد اسمها زبيدة. وصفها فى رسائله بأنها طويلة القامة، جميلة من جميع الوجوه، لها عينان رائعتان.. سمراء خمرية.. شعرها طويل فاحم.. ويومها قال الجنرال مينو: لن أستطيع أن أنتفع بالرخصة التى منحها لى حقى الجديد بالزواج من أربع؟ إن المرأة المصرية حارة عنيفة.. ولذلك تكفينى زوجة واحدة!

ثم غمز الملازم جاك استيوارت بعينه وقال:

ــ اعتقد أن الجنرال مينو كان على حق!

وانفجرت الأميرة فضيلة وقسمت تضحكان! وابتسم زوجها معروف باشا

واحمر وجه عادل غضبا ! شعر أن جاك ستيوارت لا يصف زبيدة زوجة الجنرال مينو إنما يصف الآنسة كاف... قسمت شاهين. إن هذا هو وصفها بالحرف الواحد.. كلمة كلمة.. حتى فى حديثه عن حرارتها وعنفها

وشعر برغبة فى أن يقوم ويلطم الضابط الانجليزى على وجهه، ثم فوجىء بالأميرة فضيلة تلتفت إلى جاك ستيوارت وتقول له :

ــ تعال.. نرقص هذا التانجو!

ــ إنه شرف عظيم.. ولكن الأمر ليس بيدى !

ــ بيد من !

ــ بيد.. سيدى !

ــ سيدك ؟

ــ إن سيدى هو قسمت ! لقد اشترتنى ! أصبحت عبدا لها ! وليس فى استطاعتى أن أفعل شيئا بدون أمر سيدى.. إننى ياصاحبة السمو، لست إلا مملوكا !

والتفتت الأميرة إلى قسمت وهى تضحك ضحكة صفراء، وقالت لها :

ــ هل تسمحين لعبدك بأن يرقص معى !

ــ إن ذلك يسعدنى كثيرا.

ــ هل أنت مستعدة أن تبيعيه لى ؟

ــ لا أبيعه.. وإنما أؤجره فقط!

وقامت الأميرة، وتبعها الضابط الانجليزى الوسيم إلى حلبة الرقص..

واستأذن معروف باشا ليتحدث مع صديق رآه..

نفخ عادل وقال لقسمت :

ــ إنه رجل قليل الأدب !

ــ من ؟ معروف باشا ؟

ــ أنت تعرفين من أقصد.. صديقك الضابط الانجليزى.

ــ ماذا فعل !

ــ ألم تسمعى بأذنك ماذا قال عنك ؟

ــ لم أسمع !

ــ إنه قال إنك امرأة عاطفية.

ــ وما رأيك أنت ؟

ــ رأيى أنك قليلة الأدب مثله !

ــ لا تنس أنك أستاذى الأول ! كنت أتصور أنك ستكون فخورا بتلميذتك النجيبة !؟

ــ لم أكن أعرف أنك امرأة فاجرة !

ــ ظننت أنك أول من عرف ذلك ! لقد قلت لى كثيرا أنه يسعدك أنك جعلتنى امرأة فاجرة ! إننى يامولاى كما خلقتنى ! لماذا يسعدك أن أكون فاجرة معك، ويشقيك أن أكون فاجرة مع غيرك ؟

ــ إنه رجل مستهتر ' يتباهى علنا بجريمته النكراء !

ـ إنه والد الجنين الذى فى بطنى !

ـ أنت مجرمة !

ـ لماذا يكون لك ولد ؟.. ولا يكون لى ولد ؟

ـ إننى لا أتصور أن يجىء اليوم الذى تخلعين فيه مبادئك ! تخلعين فيه وطنيتك !

ـ يدهشنى أنك تعتبر هذه العلاقة خيانة وطنية ! كأنك تعتبر وطنيتى هى ملابسى، فإذا نزعتها نزعت وطنيتى معها ! إن المرأة ممكن أن تخلع كل ملابسها وتبقى وطنية مع ذلك ! ما أعجبكم أيها الرجال، إنكم لا تفرقون بين العلم والفستان، لو أنكم تموتون من أجل العلم كما تموتون من أجل الفستان لما بقى جندى أجنبى واحد على أرض الوطن ! اقرأ احصاءات الجرائم فى بلادنا تجد أن الرجال الذين قتلوا بناتهم لأنهن أحببن رجالا اخرين أكثر ألف مرة من عدد الذين قتلوا الجنود الغزاة ! اعلم ياعادل أننى لا أخلع وطنيتى عندما أخلع فستانى !

ـ كما فعلت زينب البكرى مع نابليون !

ـ وكما فعلت أنا ! إن عيبكم أنكم تعتبرون الوطنية خطبا وقصائد حماسية. الوطنية هى عمل صامت !

ـ لعلك انتهزت فرصة وجودك مع جاك فى غرفة واحدة وحصلت منه على وعد بجلاء الانجليز عن مصر بعد الحرب !

ـ لا.. حصلت منه على وعد بالافراج عن عم عبده !

ـ هل هو يملك سلطة الافراج عنه ! أنه أحد الوعود الكاذبة التى يقولها الرجل وهو مع المرأة التى يريدها !

ـ إنه صديق ياور سير مايلز لامبسون السفير البريطانى، ويستطيع أن يصدر أمرا إلى وزير العدل!

ـ إننى أؤكد لك أن عم عبده يفضل المشنقة على أن يخرج من السجن بهذه الطريقة القذرة!

ـ ما هى القذارة فيها؟ إنها نفس علاقتى بك! هل للقذارة جنسية هى الأخرى؟ فإذا كانت قذارة مصرية فهى شرف وفضيلة وإذا كانت انجليزية فهى خيانة ورذيلة! متى تفتحون عيونكم وتعرفون أن أعلام الشعوب ترفع فوق قلاعها لا فوق فساتين نسائها!؟

ـ أنت أصبت بالعمى! إن سقوط امرأة مصرية فى يد ضابط انجليزى أشبه بسقوط قلعة!

ـ أخشى أن تكون أنت الذى أصبت بالعمى؟ انظر الآن خلفك!

ونظر عادل خلفه فرأى جاك ستيوارت وهو يقبل الأميرة فى عنقها والأميرة تغمض عينيها وكأنها تحلم!

واضطرب عادل..

ولاحظت قسمت اضطرابه وقالت ساخرة:

ـ إن قلعة أخرى سقطت فى يد الجيش البريطانى!

ـ إنها ليست قلعة.. إنها مدينة مفتوحة!

الفصل السادس والثلاثون

جلس عادل بمفرده على مقعده فى مكتبه. كانت الساعة العاشرة صباحا.. ومع ذلك أحس بأن اضواء الغروب الحمراء انعكست عليه .. احس بانقباض غريب.. عجب ان يحس فى الصباح بأشعة الغروب.

كأن الشروق والغروب لا تصنعهما الشمس وحدها. المشـاعر التـى فى اعماقنا هى شمس اخرى تشرق وتغيب! احيانا نرى الـظلام الـدامس فى الصباح، أحيانا نحس بالشمس المشرقة فى الليـل! ليـالينا لا تحـددها الساعات التى نحملها. وانما تحددها ساعات اخرى فى داخلنا. لها عقـارب ايضا، ولكن عقاربها لا تتحرك. انها تلدغنا، تطفىء النور فى قلوبنا فتحـول حياتنا إلى ليل بهيم لأول مرة فى حياته يشعر أنه بلا مستقبل.. كأن قسمت كانت مستقبله، فلما ذهبت ذهب مستقبله معهـا. انـه يحس بـأنه مشرد بلا بيت، كأن قسمت كانت بيته، وعندما انهار حبها له أصبح بلا مأوى!

كانت حياته قبل ذلك عدة نساء: نساء بعدد الأيام، ينزع كل امرأة وكأنه ينزع أوراق النتيجة المعلقة فى الحائط. وهو على ثقة من أنه سيجد فى اليوم التالى ورقة جديدة وراء الورقة القديمة وهو اليوم يرى الحائط عـاريا مـن النتيجة كأن قسمت كانت كل أوراقها!

وأحس بأن العالم يضيق حوله .. ذلك العالم اللانهائى الملىء بـالحب،

تحول إلى زنزانة. أيكون قد أخطأ لأنه وضع البيض كله فى سلة واحدة؟! أكان على حق عندما كان يتنقل بين امرأة وأخرى كما يقسم الاقتصادى الخبير ثروته بين عشرات من أسهم الشركات المختلفة فإذا انخفض سهم ارتفع سهم آخر، وإذا أفلست شركة احتفظ بثروته من الاسهم الاخرى؟ أكانت غلطته الكبرى أنه أعطى كل حبه وكل قلبه لقسمت، وعندما مضت، أخذت كل شيء معها، ولم تترك له الفتات ليعيش عليه؟

ما أشقى الرجل العاشق عندما يتبين أن المرأة التى أحبها كانت سرابا! انه يكره نفسه أكثر مما يكرهها. يلوم عينيه لانهما لم تكتشفا السراب من بعيد. يسترجع حياته معها، ويتخيل أنه كانت أمامه علامات تؤكد أنه يرى سرابا ومع ذلك أغمض عينيه، لأن المحب يرى بأوهامه لا بعينيه.

ان قسمت استسلمت له بسرعة .. فماذا يمنعها من أن تستسلم للضابط البريطانى بسرعة؟ كيف تصور أنه وحده الذى تفتح له القلعة أبوابها؟ كان يجب أن يعلم أن أبواب قلوب النساء تختلف عن ابواب القلاع. إنها أشبه بالأبواب الاوتوماتيكية فى المحلات التجارية فى أوربا التى تفتح على مصراعيها بعيون سحرية.. ما يكاد زبون يقترب من الباب حتى تنفتح الابواب دون أن تدفعها بيدك!

كان يخدع نفسه عندما توهم أن قسمت تختلف عن باقى النساء اللاتى عرفهن. كان يشم فيها رائحة هواء نقى لم يشمها فى امرأة من قبل! كان يطمئن لها أكثر مما اطمأن إلى أى امرأة اخرى. كان يثق فيها ثقته بنفسه. هل من المعقول أنه كان مخدوعا فى كل هذا؟ هل استطاعت قسمت التى خلقها ان تحطم المثال الذى صنعها من أشواقه وأحلامه. إنه ليس شابا مراهقا يسهل للمرأة أن تخدعه وتعبث به. تجاربه العديدة بين ألوان النساء

كانت لابد أن تحميه من السقوط فى هذا الشرك المنصوب!

وأحس أنه يكرهها كما لم يكره إنسانا من قبل. كرهها لأنها قتلت الآنسة كاف التى خلقها! وكرهها اكثر لانها لا تخجل من جريمتها. إنها تتباهى بها. انها لا تلتقى بهذا الضابط الانجليزى فى الظلام، بل تحرص على أن تعرضه على الناس، تعرضه عليه هو! إنها لا تتستر على فضيحتها، بل تدافع عنها، وتذهب فى جرأتها إلى الدفاع عن كل امرأة غيرها فعلت ما فعلته.. حتى زينب البكرى التى عشقت نابليون!

وضاعف من كرهه لها أنه لم يسمع احدا يهاجم قسمت بعد سهرة جمعية المتسولين فى فندق شبرد. إن الناس الذين يخلقون من الحبة قبة مروا سريعا على حكاية رقص قسمت مع الضابط الانجليزى. لم تهزهم كما هزته لم تثرهم كما أثارته. كل ما فعلوه أنهم كانوا يبدون إعجابهم بوسامة جاك ستيوارت. فهل أصيب الناس كلهم بالعمى، وهو وحده الذى احتفظ بنعمة الابصار، أم أنه هو الاعمى الوحيد، وباقى الناس هم المبصرون؟

واجتاحته فجأة موجة من الحب! شعر فى داخله بهزة خفيفة. خيل إليه أنه يسمع صوت انفجار مكتوم. كأن خلايا دمه تحولت إلى جيوش. جيوش تكرهها وجيوش تحبها جيوش تلعنها وجيوش تلهج بحمدها.

واهتز فى مكانه كأنه أصيب بضربة شديدة لم يتوقعها. كأن قنبلة سقطت على الجيوش التى تكره قسمت وتلعنها وتدمرها كلها!

وعاد فجأة يشعر أنه لا يزال يحبها. كيف يحبها بعد كل ما فعلت؟ إنه لا يحبها فقط. بل إنه لا يزال مجنونا بها.. إنه يجب أن ينتزعها من يد الضابط الانجليزى جاك ستيوارت! كيف قبل أن يستسلم لهذا الغازى؟

كيف قبل الهزيمة بكل هذه السهولة واكتفى بالبكاء والنحيب؟ لماذا لا يقاوم؟

ثم احس بأن المعركة استؤنفت فى داخله بين جيوش أعداء قسمت وجيوش عابديها! وسمع فى داخله دوى انفجار له ألف صدى! وعاد يشعر إنه يكرهها. لا يكرهها. فقط، انما يمقتها ويحتقرها! وأحس برغبة شديدة فى أن يلطخها ويشوهها!

وخطر بباله خاطر عجيب.. لماذا لا يذهب إلى عم عبده ويقص عليه فضيحة الآنسة كاف؟!

* * *

حملق عادل علاء الدين فى وجه عم عبده فى ذهول. إنه ذهب إليه خصيصا ليزوره فى سجن الاستئناف، ويروى له قصة قسمت مع الضابط الانجليزى جاك ستيوارث. قصة الجنين الذى فى بطنها. قصة مشروع زواجها منه. قصة تنكرها لشرفها ووطنها.

وجلس عم عبده يستمع إليه فى صمت، كأن على وجهه قناعا من الثلج. لم ير نظرات الغضب تتطاير كالشرر من عينيه. لم يشهد قسمات وجهه وهى تنكمش ارتياعا للفضيحة الكبرى. لم يسمع كلمة واحدة من كلمات السخط والازدراء والاحتقار لما ارتكبته قسمت.

وأمسك عادل بأنفاسه. وانتظر أن يقول عم عبده شيئا. ولكن عم عبده لم يفتح فمه بكلمة واحدة. واعتقد عادل أن عم عبده فقد النطق من هول ما سمع. ماتت الكلمات فوق شفتيه. وأراد أن يدفعه للكلام فقال له بعد وهلة

ـ ما رأيك؟

ـ رأيى إنه كلام فارغ!

ـ كل هذا كلام فارغ! إذن ما هو الكلام المليان!

ـ الكلام المليان إننى لا أصدق كلمة واحدة مما قلت عن قسمت!

ـ إنها اعترفت بجريمتها، وما قلته لك هو نص اعترافها.

ـ إن جريدة «المقطم» قالت إننى اعترفت بأننى عميل لهتلر. ونشرت نص اعترافاتى التى لم أقل حرفا واحدا منها!

ـ الاعتراف هو سيد الأدلة!

ـ كان الاعتراف فى الماضى سيد الادلة. ولكنه اليوم أصبح أسيرها!

ـ إنها اعترفت بهذا لى.. أنا!

ـ لم أعد أصدق الاعترافات بعد أن ذقت طعمها بنفسى! أغلب المسجونين معى اعترفوا بأشياء لم يرتكبوها. الاعترافات الآن هى قصص يؤلفها محقق مزور ويوقعها متهم مظلوم! إن صوت المعترفين ليس صوتهم إنما هو صوت السياط التى يضربون بها!

ـ أنا لم أضرب قسمت بالسوط حتى تدلى بهذا الاعتراف!

ـ الأيدى التى تحمل السوط ضعيفة الذاكرة دائما!

ـ إننى واثق من جريمتها، إننى متأكد!

ـ هل فتحت بطنها ورأيت الجنين!

ـ لم أفتح بطنها.

ـ ما دمت لم تفتح بطنها فليس من حقك أن تقول إنك متأكد!

ـ أنا سمعتها بأذنى!

ـ لو كانت ارتكبت هذه الجرائم حقا لكنت آخر من يعلم بها. إن الـزوج هو آخر من يعلم!

ـ لم أكن زوجها!

ـ كنت لها أكثر من زوج!

ـ هذا صحيح!

ـ ولهذا فهى تحرص على ألا تعرف أنت بجريمتها حتى لو عرفت بهـا الدنيا كلها!

ـ ولكنها قالت إنها تحرص على أن اكون أنا أول من يعلم بجريمتها!

ـ لانها لم ترتكبها!

ـ كيف أكذب عيني ؟ لقد رأيتها بعينى بين ذراعى الضابط الانجليـزى يرقص معها فى انسجام تام

ـ هل رأى الذين كانوا معك فى المكان ما رأيت!

ـ لا أعرف.

ـ بل تعرف أنهم لم يروا ما رأيت! ولكنك أنت وحدك الذى رأيـت. لان عين العاشق تبالغ دائما فى كل ما تراه. العاشق لا يرى بعينيه، وانما يـرى حينا بشوقه، وحينا بغيرته، وحينا بحبه. وأنت رأيت ما رأيت بعين الغيـرة. والغيرة أشبه بمرايا اللونا بارك، تكبر الأشياء الصغيرة، وتضاعف الأشـياء

التافهة، وتقصر المسافات الطويلة! الغيرة تجعلنا نرى أشياء لم تقع وتؤكد لنا إنها وقعت! لقد تصورت فى شبابى إننى أرى بهية مصقعة الشحاذة التى كانت غرامى الأكبر، وهى تقبل زميلى الشحاذ سلومة! بعينى رأيتها تقبله، ثم اكتشفت أنها كانت جالسة على الرصيف المقابل فى الشارع. ولا يمكن أن تمتد الشفاة وتقطع عرض الشارع! ولكن الغيرة القاتلة جعلتنى أتصور ما لم يحدث. وأثور وكأننى ضبطتها بين ذراعية. وأنا واثق أن الغيرة هى التى جعلتك لا ترى المسافة بين قسمت وبين الضابط الانجليزى وهما يرقصان معا!

ـ تقصد أننى أصبت بالعمى؟

ـ الغيرة هى عمى. إنها تصيب كل جزء من أجسادنا. حتى قلوبنا!

ـ أنت تحدثنى كأننى مراهق.

ـ عندما نحب نتحول إلى مراهقين دون أن ندرى!

ـ إذن أنت تتصور أننى أتخيل أنها اعترفت بخيانتها لى؟!

ـ لم أقل هذا. ولكنى قلت إنها لم تعترف!

ـ إنك تتشكك فى قواى العقلية!

ـ الجنون فى الحب ليس مرضا. بل إنه لذة!

ـ أنت واثق أنها بريئة؟

ـ الف فى المائة!

ـ وإذا جاءت واعترفت أمامك؟

ـ لن أصدقها!

ـ كيف لا تصدقها ؟

ـ لأننى مؤمن بها !

ـ أخشى أن يكون كل منا آمن بصنم !

ـ إن كفرك بصنمك زادنى إيمانا بصنمى !

ـ أن العادة جرت، عندما يكتشف العابد أنه مخدوع فى الصنم الذى عبده، يبالغ أمام الناس فى عبادته، حتى لا يتهموه بالغفلة ! هذا الدفاع الحار عن قسمت ليس إيمانا منك ببراءتها وإنما هو دفاع عن كرامتك أمام نفسك. لانك لا تريد أن تعترف بأن المرأة التى ضحيت من أجلها بحريتك داست عليك عندما التقت بأول ضابط انجليزى !

ـ أنا رجل ليس لى كرامة ! مهنتى شحاذ. والشحاذ يخلع كرامته قبل مزاولة المهنة !

ـ لا يمكن أن تعيش بغير كرامة !

ـ كرامتى. هى الحقيقة !

ـ ولقد أهينت كرامتك !

ـ لا أصدق أن قسمت تفعل هذا !

ـ كما لم تصدق ان الراقصة نشوى تفعل بك ما فعلت !

ـ قسمت ليست نشوى.

ـ كل النساء صنف واحد !

ـ عجبا أن يقول زئر النساء مثلك هذا الكلام.

ـ عند إطفاء النور تتساوى كل النساء!

ـ عند إطفاء النور تختلف كل النساء!

ـ إنك تتكلم كذواقة!

ـ إنني زئر نساء على المعاش!

ـ عجيب أن يثق زئر النساء بالنساء!

ـ زئر النساء هو رجل خبير بالنساء. ولهذا يعرف قيمة النساء، إنه أشبه بتاجر المجوهرات القادر بنظرة واحدة على ان يفرق بين الماس الحقيقي والزجاج ذى البريق!

ـ ما دمت أنا زئر نساء وأنت زئر نساء، فكيف نختلف في حكمنا على قسمت؟

ـ لأنك تعشقها! العشق يعمى عينيك! تحكم عليها بمقدار اقترابها منك وابتعادها عنك. فإذا هى اقتربت فهى قطعة من الماس. وإذا ابتعدت عنك فهى قطعة من الزجاج!

ـ لقد قالت لى قسمت إنها اتصلت بالضابط البريطانى ليتوسط للافراج عنك! إنها تحاول أن تبرر جريمتها!

ـ إنها تعلم أننى أرفض أن أخرج من السجن فوق كتف ضابط بريطانى!

ـ ولكنها تصر على أنها تحب الضابط البريطانى!

ـ هل قالت لك هذا؟

ـ نعم.. بالحرف الواحد !

ـ هذا دليل على انها لا تحبه، وتحبك انت !

ـ تحبنى أنا !

ـ لو لم تكن تحبك لما أخبرتك بكل هذه القصة !

ـ هل أنت مجنون؟

ـ لا... الحب هو المجنون !

ـ إنها بتصرفها هذا حطمت صورتها فى قلبى !

ـ ان المجانين يحطمون كل شىء حولهم ! إن مجنون ليلـى فضـحها وحطمها أمام الناس وهو يتصور أنه يغازلها !

ـ ولكن ما الذى يجعلها تفعل بى كل هذا؟

ـ انها أرادت أن تذيقك من نفس الكأس !

ـ أى كأس !

ـ ألم تقل لها إن فى بطن سيدة أخرى، جنينا منك؟

ـ نعم حدث ذلك !

ـ إنها ترد التحية بأحسن منها ! لقد قلت لها السلام عليكم.. فردت عليك قائلة : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته !

ـ انها امرأة خطرة !

ـ كل امرأة عندما تحب تصبح خطرة !

ـ إنك تنسى أنها اعترفت!

ـ وأنت تنسى أننى اعترفت أننى صاحب المنشور وأنا برىء منه!

ـ لى رجاء يا عم عبده ألا تخبر قسمت اننى جئت لزيارتك.

ـ اعدك بأن أكتم هذا السر!

* * *

غادر عادل سجن الاستئناف، وأسرع إلى بيته، وأحضر مسدسه، ودسه فى جيبه، وذهب إلى فندق شبرد. وسأل بواب الفندق عن الغرفة التى يقيم فيها الملازم جاك ستيوارث، وهل هو موجود فى غرفته. وأجاب البواب، الذى كان يعرف عادل من كثرة تردده على الفندق، بالايجاب .. وصعد عادل إلى غرفة جاك ستيوارث. وتردد أمام الباب، ثم أخرج مسدسه وشهره فى يده، واقتحم الغرفة..

وقفز الضابط جاك ستيوارث من فراشه مذعورا!

وقال له عادل فى هدوء!

ـ أتذكر الثورة التى قامت فى القاهرة لأن نابوليون اعتدى على زينب ابنة الشيخ البكرى؟.. إن ثورة جديدة قامت فى القاهرة!

ـ ثورة؟

ـ نعم ثورة مسلحة.. وقد جئت لأقتلك!

ـ ولكنى لست نابوليون!

ـ أنت فعلت ما فعله نابليون

ـ أنا..؟!

ـ أنت فعلت بقسمت شاهين فعلة نابوليون بزينب البكرى!

ـ أنا؟!

ـ نعم.. وأنت والد الجنين الذى فى بطنها!

ـ أنا؟!

ـ نعم أنت.. وقد اعترفت بذلك. والتقاليد فى بلادنا أن نقتل أى رجل يعتدى على عرض فتاة!

ـ إنها جريمة أتمنى أن أرتكبها!

ـ إنك ارتكبتها فعلا!

ـ من قال هذا؟

ـ قسمت شاهين نفسها.

ـ لا ألومها على أنها قالت ذلك فقد اتفقنا على أن نقول ذلك!

ـ اتفقتما على ماذا؟

ـ على أن ادعى أننى عشيقها ووالد الجنين الذى فى بطنها!

ولقد قبلت أن أقوم بدورى فى المسرحية.... ولكن الشىء الوحيد الذى لم نتفق عليه، هو أن يقتلونى بالرصاص فى نهاية المسرحية.

ـ كيف تتصور أننى ساذج. حتى أصدق ما تقول؟

ـ إنك تجيد الانجليزية كما أرى. إن على المائدة ملفا مكتوبا عليه صور

التقارير الطبية... يمكنك أن تقراها بنفسك، لتعرف إذا كان فى إمكانى أن أكون عاشقا ووالدا لهذا الجنين.

واتجه عادل إلى المائدة، ولا يزال شاهرا مسدسه، وفتح الملف وقلب فى التقارير الطبية، وانفرجت أساريره..

ـ ولاحظ الضابط الانجليزى الفرحة فى وجه عادل فقال له:

ـ يبدو أنك سعيد بشقائى!

ـ إننى سعيد ببراءة المرأة التى أحبها!

ـ لقد شعرت من مناقشتك العنيفة معها فى سهرة جمعية ملجأ المتشردين إنك تحبها.. وأنها تعبدك!

ـ ومع ذلك تركتنى أتعذب!

ـ كنت أنفذ شروط الاتفاق.

ـ لقد نفذته فعلا بكل أمانة، حتى إننى قررت أن اقتلك رميا بالرصاص!

ـ لو أنك قتلتنى لأرحتنى مما أنا فيه!

ـ إننى قرأت فى صباح اليوم أن طبيبا امريكيا أجرى جراحات فى مستشفى كلينيك، لبعض الذين أصيبوا فى المعارك بمثل حالتك، واستطاع ان يعيد اليهم ما فقدوه!

ـ هذا أسعد نبأ أسمعه فى حياتى!

ـ انه منشور فى جريدة «الاجبشيان جازيت» اليوم

ـ ونظر الضابط البريطانى حوله يبحث عن جريدة «الجازيت» ووجدها

ملقاة بجوار الفراش فأسرع يلتقطها. وتطلع فى لهفة إلى الصفحة الأولى. وانتزع عادل منه الجريدة، وأشار إلى خبر منشور فى الصفحة الأولى.

وقرا جاك الخبر المنشور بصوت عال ثم صاح :

ـ هذه حالتى بالضبط! هذه حالتى بالضبط!

واحتضن جاك الجريدة فى صدره، وبدأ يرقص ويدور فى الغرفة وهو يصيح :

سأصبح رجلا ! ساصبح رجلا !

ثم توقف ونظر إلى عادل فى امتنان وقال له :

لا أعرف كيف أشكرك ! إننى مستعد أن أفعل من أجلك الآن أى شىء تطلبه منى

ووضع عادل المسدس فى وسطه وهو يضحك وقال :

ـ اريد منك أن تتحدث تليفونيا مع قسمت الآن !

ـ وأبلغها الخبر المنشور فى « الجازيت »؟

ـ لا.. ستبلغها الخبر بطريقه أخرى.

ماذا أقول لها !

ـ تقول لها إن الأطباء فحصوك اليوم، واكتشفوا أنهم أخطأوا فى تشخصيهم، وأنهم اكتشفوا أنك مازلت رجلا، وتستطيع أن تزاول حياتك العادية منذ الآن !

ـ أنا لا أستطيع أن أكذب عليها !

ـ قلت لى الآن إنك مستعد أن تفعل من أجلي أى شىء أطلبه منك

ـ نعم قلت ذلك.

ـ إذن كرجل شريف، عليك أن تنفذ إتفاقك معى، كما نفذت إتفاقك مع قسمت.

ـ أنا مستعد أن أفعل كل ما تطلب منى!

ـ وتقول لها إنك تريد أن تراها فورا!

وأمسك عادل بسماعة التليفون وطلب من عاملة التليفون رقم قسمت شاهين فى مكتب جمعية ملجأ المتسولين..

وما كاد يسمع صوت قسمت حتى أسرع وأعطى سماعة التليفون إلى جاك، ووضع أذنه على السماعة ليستمع إلى الحديث!

وقال جاك:

ـ إن عندى خبرا سارا جدا!

ـ انتهت الحرب؟

ـ أهم من نهاية الحرب.. إنها بداية العالم! الأطباء كشفوا على اليوم فى مستشفى حلوان العسكرى واكتشفوا أنهم أخطأوا التشخيص، وأننى ممكن أن أزاول حياتى العادية. يمكننى أن أحب.. يمكننى أن أتزوج.. لقد أصبحت رجلا!

ـ أنا سعيدة بأن أسمع هذا النبأ.

ـ إننى أريد أن أراك فورا:

ـ أرجوك الا تتصل بى بعد الآن!

ـ ترفضين لقائى؟

ـ لقد عرفتك بصفة معينة.. وما دامت انتهت هذه الصفة فلا أستطيع أن أعرفك.. الوداع!

ووضعت قسمت سماعة التليفون بعنف!

وقهقه عادل بصوت عال. والتفت إليه جاك مدهوشا وقال:

ـ هل غضبت لأننى أصبحت رجلا:

ـ لأنها فقدت دليل براءتها.

ـ هل عجزى هو دليل براءتها؟

ـ إنها تعتقد ذلك.. إنها ارادت أن تعذبنى باختلاق قصة حملها منك، وكانت تريد أن تمضى مدة فى تعذيبى ثم تجىء لى بعد ذلك ومعها الدليل على براءتها، وهو أنك عاجز جنسيا. وتوقعت أنها ستسخر منى لأننى صدقت أكذوبتها.. ولكنها الآن بعد أن عرفت أن الأطباء اكتشفوا أنهم أخطأوا التشخيص، أصبحت أنت دليلا ضدها بعد أن كنت دليلا معها!

ـ إن طريقتكم فى الغزل غريبة أيها العشاق المصريون.. إنكم تطلقون الرصاص بدلا من تبادل القبلات!

ـ هل كنت تظن أننى سأقتلك بمسدسى؟

ـ اعتقدت ذلك فى لحظات..

ـ خذ مسدسى.. ستجده خاليا من الرصاص!

ـ لقد كنت من ساعة واحدة أتصور أننى سوف أعيش حياتى مسـدسا خاليا من الرصاص !

ـ ومع ذلك استطعت أنت بهذا المسدس أن تقتلنى من الغيرة عدة أيام !

ـ عندما أجرى الجراحة التى تحدثت عنها جـريدة «الجـازيت» فلن أصبح مسدسا مليئا بالرصاص.. بل ساتحول إلى مدفع رشاش !

ـ هذا شيء يسعدنى جدا.. مادمت ستطلق هذا المدفع فى بلادك !

ـ سأعود إلى خطيبتى ديانا سيمث !

ـ وأنا سأعود الآن إلى قسمت شاهين.

ـ إننى فى عجب من نسائكم !.. لقد عانقتنى قسمت وأنا جثة.. ورفضت أن تلقانى وأنا رجل !

ـ إن المرأة المصرية تضعف دائما أمام الاموات !

ـ وهل تهمك الأميرة فضيلة ؟

ـ لا تهمنى !

ـ أعتقد أنها لاتعرف قصتى !

ـ إنها لا تعرف شيئا !

ـ إن زوجها معروف باشا دعانى لتنـاول العشـاء معهـا فى قصرهـا بالجزيرة !

ـ يسعدنى أن تذهب إليها !

ـ ولكنى الاحظ أن لها نوايا عدوانية.

ـ يمكنك أن تؤجل الحب إلى ما بعد إجراء العملية!

ـ مثل هذه المرأة لا تنتظر!

ـ إذن ليس أمامك إلا الهرب!

ـ سوف يكون فى هربى إساءة لسمعة الجيش البريطانى!

* * *

كان عادل سعيدا بالمقلب الذى دبره لقسمت سعادته ببراءتها!

عادت إليه الروح عندما تأكد أنها إختلقت قصة هواها بالضابط الانجليزى، وقصة الجنين المزعوم الذى فى بطنها. ولكنه كان مغيظا لأنها استطاعت أن تعبث به بكذبتها، أن تجعله يتقلب عدة أيام فوق شوك عرف بعد ذلك أنه كان وردا. إن الحب نوع من أنواع الجنون. ولكنه لم يتصور أن تجن المرأة العاقلة كل هذا الجنون لغيظه وتكيد له، أن تشوه صورتها الجميلة لتؤلمه. أن تلوث سمعتها لتذيقه من كأس الغيرة التى شربتها قبله..

واستراح عندما أحس بأن حديث الضابط التليفونى معها أتعبها! إنه يتصورها الآن حائرة ماذا تفعل. لقد أنقلب السحر على الساحر. الضابط الانجليزى الذى كان فى يدها أصبح فى يده هو. فضح مؤامراتها واشترك مع عادل فى مؤامرة جديدة ضدها! الانجليز ليس لهم صداقات دائمة ولاعداوات دائمة، وإنما لهم مصالح دائمة!

وأحس عادل بالولد الشقى فيه يطل منه. إنه يريد أن يمضى فى العبث بقسمت كما عبثت به. وشعر برغبة أن يتفرج عليها فى حالتها الجديدة، وقرر أن يذهب إليها فى مكتبها بمقر جمعية الشحاذين.

وفوجئت به أمامها!

لقد كانت تتمنى أن تراه في كل وقت إلا في هذه الساعة التي أكتشفت فيها أن الضابط البريطاني الذي يمثل دور الرجل أصبح رجلا فعلا!

تمالكت قسمت نفسها وحاولت أن تبتسم ابتسامة تخفي بها مفاجأتها فقالت:

ـ ما الذي جاء بك.

ـ جئت أعتذر!

ـ تعتذر عن أي شيء!

ـ أعتذر عن كل شيء:

ليس بيني وبينك أعذار!

ـ لقد كنت وقحا معك في سهرة شبرد. قلت كلاما ندمت عليه، لم أذق طعم النوم منذ تلك الليلة.

ـ إنك لم تشتمني.. إنما شتمت زينب البكري!

ـ وأنا أعتذر عما قلته عن زينب البكري!

ـ إنها أول مرة أراك لا تتشبث برأيك!

ـ لم يكن هذا رأيا.. كان حماقة!

ـ هل جئت لتقول لي هذا!

ـ جئت لأقول لك أشياء كثيرة.

ـ ماهى؟

ـ إننى أريد أن أتزوجك!

ـ والجنين الذى فى بطنى؟

ـ سوف أتبناه!

ـ لماذا تقدم على هذه التضحية!

ـ إنها ليست تضحية.. إنها نداء قلبى!

ـ وهل سامحتنى على جريمتى مع الضابط الانجليزى!

إنها ليست جريمتك.. إنها جريمتى!

ـ أنت تتحدث لغة غريبة!

ـ أنها لغة الحب عندما يصل إلى أقصاه! أصوات الواقفين على القمة لا يفهمها الذين يقفون عند السفح!

ـ كنت أتصور أن العاشق يغفر لكل انسان.. إلا لمن يحبه!

ـ جرح الحبيب يؤلم أكثر من جرح العدو ولكنه يشفى بأسرع من جرح العدو!

ـ هل تعتقد أننى قصدت أن أجرحك؟

ـ بعض العشاق يكتبون رسائلهم الغرامية بالقلم، وبعضهم يكتبونها بالخنجر!

ـ إنها أول مرة أراك تستسلم بلا مقاومة!

ـ فى العشق يصبح الاستسلام أعظم انتصار!

ـ وماذا أفعل بجاك ستيوارت ؟

ـ إنها مشكلة فعلا !

ـ هل تعرف أنه يحبنى !

ـ أعرف أنه يعبدك.

ـ ولهذا لن يتخلى عنى بسهولة !

ـ لقد فكرت أن أدعوه للمبارزة فإما أن يقتلنـى ويـأخذك.. أو أقتلـه وأخذك !

ـ هل جننت ياعادل.. إنك تعود بنا إلى القرون الوسطى !

ـ إن مصر لاتحتملنى وتحتمله فى وقت واحد. يجب أن أبارزه !

ـ أنت نسيت أنه ضابط وأنت مدني. إنه يستطيع أن يقتلك بسهولة !

ـ إننى عضو فى نادى السلاح. وأجيد لعبة الشيش !

ـ دعنى أقنعه !

ـ إننى سأذهب إليه بنفسى !

ـ أرجو ألا تذهب !

ـ تخشين أن أقتله !

ـ لا.. أخشى أن يقتلك هو !

ـ إننى أرحب أن أموت من أجلك !

ـ لماذا لم تقل لى قبل اليوم إنك تحبنى كل هذا الحب !

ـ لم تتركى لى فرصة !

ـ إن تصرفك هذا يخجلنى ما أعظم موقفك منى. وما أحقر موقفى منك. أنت أخطأت ولم أسامحك. وأنا أخطأت وغفرت لى !

ـ لأننى أحبك أكثر مما تحببيننى

ـ وهل ستحب الجنين الذى فى بطنى؟

ـ سأحبه كأنه ابنى !

ـ وهل تريدنى أن أقطع علاقتى بجاك !

ـ على العكس.. اريد أن تستمرى فى لقائه. لايهمنى إذا قابلته على انفراد بغير وجودى !

ـ عجبا أنها المرة الأولى فى حياتى التى أراك، لا تغار على !

ـ إن ثقتى بك لا حد لها !

ـ لقد قلت لك فى أول علاقتنا إننى أريد أن تستمر فى علاقتك مع الاميرة فضيلة، وكنت أتلوى من الألم والعذاب والغيرة !

ـ أما أنا فقد وصل حبى لك وثقتى فيك إلى درجة أننى لا أخاف عليك من أى رجل آخر .. لأننى أعرف أنه لا يمكن لرجل آخر أن يحبك كما أحبك أنا !

ـ أنت تريد أن تقول لى الآن، أننى عندما غضبت عليك من أجل الولد الذى رزقت به من الأميرة فضيلة، لم أكن أحبك حبا كاملا !

ـ إن الحب درجات.. والمحب يتصور فى كل درجة أنها الدرجة العليا، ثم

يفاجأ بأن هناك درجة أعلى!

ـ كانت أمنينى دائما أن أحبك أكثر مما أحببتنى!

ـ إننى سبقتك فى الصعود إلى درجات الحب!

ـ وما هى أعلى درجات الحب

ـ عندما يشعر المحب أن ذنوب حبيبته هى ذنوبه، وأن خطاياها هى خطاياه. عندما تخطئ فيعاقب نفسه، عندما ترتكب الحماقات فيتصور أنه المسئول عنها!

ـ أنت بكلامك هذا تجعلنى أعبدك من جديد!

ـ بعد ٢٤ ساعة سوف تنسين أنك تعبديننى!

ـ لا تظلمنى يا عادل!

ـ سوف تعودين تغارين من ابن الأميرة فضيلة!

ـ لا.. لن أغار منه بعيد اليوم!

ـ وسوف تقيمين الدنيا وتقعدينها إذا رأيتنى أصافح الأميرة فضيلة أو أى امرأة جميلة!

ـ أعدك بأننى سوف أثق بك ثقة عمياء. بعد أن وثقت بى ثقة عمياء!

ـ أنت امرأة عظيمة!

ـ اذن أنت سامحتنى على الجنين الذى فى بطنى!

ـ من كل قلبى!

– وغفرت لى حبى لجاك ستيوارت !

– ونسيت كل شيء عنه !

– اذن أريد أن اعترف لك !

– لا أريد أن أسمع منك أى اعتراف !

– أريد أن أقول لك كل شيء

– لقد أحببتك كامرأة خاطئة ولا أريد أن أسمع كلمة عن هذا الموضوع بعد الآن !

– أريد أن أقول لك الحقيقة !

– لا أريد أن أسمع الحقيقة !

– سوف تحبنى أكثر إذا عرفت الحقيقة !

– لا يمكن أن أحبك أكثر مما أحبك الآن ياحبيبتى !

– حتى ولو عرفت الحقيقة !

– حتى ولو عرفت الحقيقة !

– ولكنى أؤكد لك أن الحقيقة جميلة أجمل من الخيال !

– ليس دائما ! إن الحقيقة شيء غير ثابت. حقيقة اليوم قد تصبح أكذوبة الغد، وأكذوبة اليوم قد تصبح حقيقة الغد !

– كأنك تفضل أن تحبنى كما تتخيلنى، لا كما أنا فى الحقيقة !

– أحبك كما خلقتك !

ـ مع أخطائى !

ـ إننى خلقتك انسانا ولم أخلقك ألها !..

ـ ولو أثبت أننى اله !

ـ سوف أشعر بحرج أن أعيش مع اله فى مكان واحد !

ـ ولو عرفت أننى بريئة !

ستحرميننى من لذة كبيرة.. لذة العفو!

ـ صدقت يا عادل ! إن للذة العفو نشوة غريبة ! إننى أشعر الآن بسعادة لا حد لها. سعادة لم أشعر بها فى حياتى، لأنك عفوت عنى.. ولأننى عفـوت عنك؟

ـ لو عرف الظالمون لذة العفو لكرهوا أن يكونوا ظالمين؟

الفصل السابع والثلاثون

فوجئت قسمت وهى تقرأ فى صحف الصباح نبأ أزعجها.. قالت الصحف إن محكمة الجنايات حددت يوم أول أكتوبر لمحاكمة عم عبده أمام الدائرة الأولى.

نزل عليها الخبر كالصاعقة.. إن الأستاذ مكرم عبيد المحامى هو الذى درس القضية، وهو الذى يهتم بها اهتماما شخصيا، وهو الذى اعتاد دائما أن يطمئنها بأنه قادر على أن ينتزع البراءة لعم عبده..

ولكن الأستاذ مكرم مقبوض عليه! فقد أصدر الحاكم العسكرى أمرا بالقبض عليه بسبب الكتاب الأسود الذى ملأه بالمطاعن ضد الحكومة. وبسبب حالته الصحية نقل إلى المستشفى الايطالى بالعباسية.. وسمحت له الحكومة بأن يصحب زوجته وكلبه إلى المستشفى، ولكنها منعته من استقبال الزائرين.

وذهبت قسمت إلى مكتبه، وقابلت الأستاذ سيد سليم المحامى وعرفت منه أن مكرم لم يكتب أى مذكرات عن القضية قبل القبض عليه.. كان يعتمد دائما على ذاكرته العجيبة. فهو يحفظ الأحداث وأرقام الصفحات والأدلة فى رأسه، وتخرج من شفتيه أمام المحكمة، وكأنه يستخرجها من أرشيف مرتب يعمل فيه عدد كبير من الموظفين!

وسألت الأستاذ محمد على علوبة باشا المحامى، فقال لها إنه قرأ قضية عم عبده، وأن أخطر ما فيها هو شهادة الراقصة نشوى عبده شاهدة الاثبات. إنها أدلت ضد عم عبده بأقوال محددة دقيقة. وقد حاول كثيرا أن يجد فى هذه الشهادة منفذا يدخل منه ليفند أقوالها فلم يجد. إن أقوالها فى التحقيق ليست شهادة شاهدة وإنما حيثيات حكم ضد عم عبده تقنع أى محكمة، حتى ولو كانت محكمة النقض والابرام!

وامتعضت قسمت من الرأى الذى أبداه المحامى الكبير وقالت:

ـ ولكنها شاهدة زور!

ـ إنها تبدو على الورق شاهدة تقول الحق ولا شىء إلا الحق!

ـ إننى واثقة أن القسم السياسى هو الذى كتب لها الشهادة.

ـ لا أتصور أن بين ضباط القسم السياسى من له مثل هذه العقلية القانونية.

ـ إنهم يستطيعون أن يستأجروا كفاءات قانونية، ويستخدموا خبراء فى القانون ليجعلوا من شهادة الزور شهادة صدق وحق!

ـ لو كانوا فعلوا هذا فإنهم نجحوا فى مؤامرتهم. إن الورق معهم

ـ والحقيقة معنا!

ـ للأسف، إن القضاة يعتمدون على الورق!

ـ وماذا سوف تفعل؟

ـ ليس أمامى إلا أن أناقش الراقصة نشوى أثناء الادلاء بشهادتها أمام المحكمة.

ـ وتظهر كذبها وزورها ؟

ـ أخشى ألا يكون هذا سهلا، إن إجاباتها فى التحقيق تدل على أنها امرأة حادة الذكاء، سريعة الخاطر، عندها دائما جواب لكل سؤال !

ـ ممكن أن تكشف تناقضها !

ـ العجيب أنها أدلت بأقوالها فى عشر صفحات. وليس فى كل أقوالها جملة واحدة تناقض أقوالها الأخرى.. إنها مؤلفة قصصية بارعة. فى روايتها حبكة غريبة وكأنها أستاذة فى فن الكذب !

ـ إن الكذب هو رأس مالها لقد رأيتها فى بيتها ورأيت كيف تستطيع أن تكذب على عشرة رجال فى وقت واحد، وتوهم كل واحد منهم أنه حبيبها الوحيد !

ـ كنت أتصور أن الممثلة هى التى تستطيع أن تفعل ذلك.. لا الراقصة !

ـ الراقصة هى ممثلة ! ولكنها لا تمثل بوجهها فقط، إنها تمثل بكل عضو من أعضاء جسدها !

من حسن الحظ أنها لن تدلى بشهادتها أمام المحكمة وهى عارية من ثيابها !

ـ أعتقد أن أقوالها فى التحقيق ليست أقوالها هى. إنما أقوال عشيقها الصاغ عبد الفتاح الشبهاوى الضابط فى القسم السياسى، والمتخصص فى تلفيق القضايا.

ـ هل يمكنك أن تحصلى على اثباتات كافية عن هذه الصلة ؟

ـ سوف أحاول !

ـ لو حصلنا على هذا الاثبات لأمكننا تجريح شهادتها!

ـ وإذا لم نحصل على هذا الاثبات؟

ـ سوف نخسر القضية!

* * *

وخرجت قسمت من مكتب الأستاذ محمد على علوية منكسة الـرأس. إن محاميا من أعظم المحامين المصريين يقف عـاجزا أمـام شـاهدة زور! ما أتعس الأبرياء عندما يصبح الزور هو السلطان وتصبح الحقيقـة هـى الأسيرة المهيضة الجناح!

وفكرت أن تذهب إلى عم عبده ومضت تقـود سـيارتها إلـى سـجن الاستئناف، ولكنها لم تلبث أن عادت أدراجها. ماذا يستطيع عـم عبـده فى زنزانته أن يفعل؟ كل ما سوف يحدث أنها ستضاعف الهموم التـى فـوق رأسه.

وقررت أن تذهب إلى عادل علاء الدين. فعندما تحب المرأة تتصور أن الرجل الذى تحبه هو اله، أقوى من البشر جميعا. قادر على أن يفعل وحده ما يعجز عنه جميع الناس. هو طبيبها إذا مرضت. وهو درعها إذا صـوبت إليها السهام وهو المظلة التى تحتمى تحتها إذا سـقطت الأمـطار. وهـو المنقذ إذا غرقت. وهو الحكيم إذا واجهت مشاكل بلا حلول!

وقصت عليه ما جرى بينها وبين محمد على علوية باشا المحامى ثم قالت فى عصبية:

ـ أخشى أن علوية باشا لم يقرأ القضية جيدا!

ـ إن علوبة باشا يقرأ قضاياه كأنه قاض!

ـ معنى ذلك أنه يتوقع الحكم على عم عبده.

ـ أعتقد ذلك.. إلا إذا أثبتنا كذب الراقصة نشوى!

ـ ولكن من السهل أن يناقشها محام ذكى أمام المحكمة، ويثبت كذبها؟

ـ ليس هذا سهلا!

ـ ما هى صعوبته؟

ـ نشوى امرأة ذكية جدا.

ـ أذكى من أكبر المحامين فى مصر!

ـ إنها أخبث منهم جميعا!

ـ ولكنها امرأة جاهلة، غير متعلمة. لقد قال لى عم عبده إنها كانت خادمة ولم تدخل مدرسة.

ـ المرأة تتعلم خارج المدرسة أكثر مما تتعلم داخل المدرسة!

ـ تقصد أنها تتعلم كيف تكذب؟

ـ الكذب هو أحد أسلحتها! وعندما تعمل فى الوسط الفنى يصبح الكذب هو كل أسلحتها! الفنانة يجب أن تكذب على عشاقها لتحتفظ بحبهم، وتكذب على جماهيرها لتنال إعجابهم، وتكذب على النقاد ليشيدوا بها فى صحفهم. إن الفن أحد فروع الكذب. كلما استطاعت المطربة أن تتأوه من عذاب الحب وهى سعيدة فى حبها اشتد تصفيق السامعين وإعجابهم. كلما استطاعت الممثلة أن تبدو فتاة مراهقة وهى فى سن الاربعين، دل ذلك

على تمكنها من فنها ! كل شيء على المسرح هو أدوات الكذب !مناظر من ورق توهمك أنها بيوت من حجر! أنوار كشافة ملونة تظهر مفاتن غير موجودة، وتخفى تجاعيد سوجودة ! الشعور المستعارة ! تيجان من صفيح توهم المشاهدين أنها تيجان من ذهب وماس ! وكلما استطاع الفنان أن يقنع المتفرج بالكذبة التى يقولها، دل ذلك على نجاحه وتألقه !

ـ ولكن الجماهير تعرف أن الفنان يمثل !

ـ كثيرا ما ننسى أنه يمثل..

ـ أتظن أن نشوى سوف تفعل هذا فى المحكمة ؟

ـ من المؤكد أنها سوف تفعله.

ـ ويقتنع القضاة.

ـ القضاة بشر.. يجلسون فوق مقاعد عالية !

ـ ليروا الحقيقة ؟

ـ الحقيقة دائما قصيرة القامة.. وكثيرا ما لا يراها القضاة من مقاعدهم المرتفعة !

ـ ولكن، ماذا سوف تستفيد نشوى من إدخال رجل برىء إلي السجن ؟

ـ إنها تؤدى دورا تتقاضى ثمنه !

ـ إننى على استعداد أن أدفع لها ثمنا أكبر لتقول الحقيقة !

ـ ولكننا لا نعرف الثمن الذى تقاضته !

ـ سوف أذهب إليها وأحاول أن أعرف الثمن !

ـ أحب أن أنبهك أننى عرفت نشوى فى يوم من الأيام.. وعرفت أنها امرأة تبيع الأشياء الرخيصة بأثمان غالية! وتبيع الأشياء الغالية بثمن رخيص!

ـ ولكنها تبيع هذه المرة رجلا!

ـ تبيع عم عبده وتشترى بثمنه رجلا!

ـ إنها تشترى الصاغ عبد الفتاح الشبهاوى!

ـ صناعتها بيع اللحوم.

ـ ولكنها فى هذه المرة تبيعه بالجملة!

ـ يجب أن نمنع هذه الصفقة يا عادل.

ـ لا يمكن منع هذه الصفقة إلا إذا بحثنا عن صفقة أخرى تحل محلها!

ـ إنى مستعدة أن أعطيها كل ما أملك لتقول الحقيقة.. أنت وحدك يا عادل الذى يمكنك أن تذهب إليها وتساومها!

ـ بسبب خبرتى فى التجارة!

ـ بسبب خبرتك فى النساء!

ـ خبرتى فى النساء تقول إن الغانية تبيع للمرأة بثمن أرخص كثيرا مما تبيع للرجل!

ـ لأن المرأة بطبيعتها زبونة متعبة!

ـ لأن الغانية عندما تبيع أى شىء لرجل، تضيف إلى الفاتورة ثمن ابتسامتها!

ـ وهكذا تدفعون صاغرين!

ـ المحال التجارية الكبرى تضع بائعات فى الأقسام التى تبيع للرجال!

ـ لأنهم يدققون فى وجوه البائعات أكثر مما يدققون فى جودة البضاعة!

ـ ولهذا أفضل أن تذهبى أنت إلى نشوى.

ـ هل تخشى أن تحاول تجديد علاقتها بك!

ـ إنها قادرة على أن تحاول كل شىء.

ـ إذن سأذهب أنا!

ـ ها أنت لا تثقين بى مرة أخرى!

ـ إنى أثق بك.. ولا أثق بها!

ـ تخافين أن أقع تحت تأثيرها!

ـ منذ أن وقعت تحت تأثيرى أصبحت أخشى أن تفعل بك أى امرأة ما فعلت بك!

ـ أنت مصرة على أنك أنت التى أوقعتنى تحت تأثيرك!

ـ لو تركتك لشأنك لبقيت أنا الآنسة قسمت، ولما بقيت الآنسة كاف ابدا.

ـ إنك نسيت أننى اشترطت لكى أراك أن تخلعى النظارة! وأنت امرأة ذكية فهمت على الفور أننى أريد منك كل شىء من اللحظة الأولى!

ـ إنك قلت هذا لتعجزنى! لتجبرنى على الفرار منك! كنت واثقا ألف فى المائة إننى سأرفض شروطك، فتقدمت بهذا الشرط المعجز لكى أهرب منك،

لكى تتخلص من هذه العاشقة الدميمة ! إنك نسيت أننى أنا التى جئت بقدمى إلى شقتك !

ــ كأنك تجردينني من أى فضل فى علاقتنا الحلوة ! أنت التى أغريتنى!

ــ فضلك الوحيد.. أنك لم تصرخ، ولم تستنجد بالبوليس !

ــ إن رءوس النساء ضعيفة الذاكرة !

ــ أنت مصر على أن يكون لك فضل فى علاقتنا !

ــ لا أريد أن تحرميني من شرف المساهمة فى صنع أجمل ما حدث فى حياتى !

ــ سأعترف لك بالفضل !

ــ كنت على ثقة أنك ستعودين للحق !

ــ فضلك.. هو أنك لم تقاومنى.. استسلمت لى على الفور.

ــ إن هوايتك أن تعكسى الأدوار ! لذتك الكبرى أن تتصرفى معى كما يتصرف الرجل مع المرأة !

ــ إننى أنشد المساواة !

ــ ولكن هذه ليست مساواة، المساواة عندك أن يكون لك حقوق الرجل، وأن يصبح الرجل الذي تحبين « الحريم » !

ــ إننى أجد نشوة حقيقية فى أن أعاملك معاملة تختلف عن معاملة كل النساء فى حياتك ! فى الماضى كنت تجرى وراء المرأة، ولكننى الآن أريد أن أجرى وراءك ! لذتى فى أن أطاردك، أن أغازلك، أن أغريك.. ألم تلاحظ أننى

أحب أن أجدك دائما فى انتظارى ! لم يحدث مرة واحدة أن أنتظرتك ! لماذا ؟ لأننى أجد كل نشوتى فى أن أشعر أننى أفعل بك، ما كنت تفعله أنت بباقى النساء.

ـ شعورك هذا شعور غريب. يدهشنى، يذهلنى ويثيرنى فى الوقت نفسه ! ولكن ممكن أن تشعر به امرأة مسترجلة، ولا أفهم أن تشعر به امرأة كلها أنوثة مثلك.

ـ إننى أحب أن أكون الوحش. أن أكون الذئب وتكون أنت الحمل الوديع !

ـ فى بعض الأحيان يخيل إلى أنك درست ما يفلعه ذئب النساء مع المرأة التى يغويها، وتحاولين أن تفعلى معى نفس الشىء ! المرأة تعجب كثيرا بالرجل صاحب التجارب، الذى يظهر لها الاهتمام الدائم. إذا وضعت سيجارة فى فمها كان أسرع الجالسين إلى إشعالها، وإذا قدمت إلى الغرفة تنازل لها عن مقعده. وإذا أرادت أن تخرج هرع يساعدها فى ارتداء معطفها. وإذا قالت أى كلام فارغ تظاهر أنه يسمع الدرر. وهذا هو نفس ما تفعلينه معى ! تصرين على أن تتركى مقعدك لى، تصرين على أن تشعلى لى سيجارتى، تصرين على أن تحملى معطفى وتساعدينى على ارتدائه حين خروجى معك، وتصرين على أن تجردينى حتى من كل شىء !!

ـ هل تكره ما أفعله ؟

ـ إننى أعبده ولكنه يذهلنى !

ـ أريد أن أكون مختلفة عن كل امرأة عرفتها !

ـ أنت مختلفة عنهن كل الاختلاف ولكنك امرأة !

ـ أنا امرأة تعيش للحب.. وتفهم الحب كما لم تفهمه أى امرأة أخرى؟.. الحب ليس علاقة انسان قوى بانسانة ضعيفة. إنه ذوبان كامل بين رجل وامرأة. يفقد الرجل ارادته ويفقد المرأة ارادتها. يندمجان فى شىء جديد. يختلفان كل الاختلاف عما كانا قبل الحب. لا يكفى أن يندمج أحدهما مع الآخر ويفنى فيه. لا بد أن يحدث التفاعل الكيماوى فى الرجل والمرأة فى وقت واحد. فإذا أصبحت المرأة صورة من الرجل قبل أن يحبها فمعنى ذلك أنه لم يحبها الحب الكافى. إنها تفاعلت فى المادة الكيميائية وذابت بينما هو احتفظ بخصائصه. الحب الكامل هو الذى يصنع منا مخلوقين جديدين، يصهرنا صهرا كاملا، يخلق فينا صفات جديدة لم تكن لنا. فإذا كان من طبيعتنا التردد أصبح من طبيعتنا الاقدام. وإذا كان من صفاتنا التعقل أصبح أبرز صفاتنا الجنون وإذا كنا معروفين بالحياء أصبحنا مشهورين بقلة الحياء! لا بد أن يحدث تغيير هائل فى داخلنا. أشياء كثيرة تتبدل فينا أشياء تختفى وأشياء تظهر.. منذ أحببتك لم أعد قسمت.. وإنما أصبحت الآنسة كاف؟.. وقسمت القديمة تبدو امرأة أخرى لا تشبهنى أبدا. أكرهها وتكرهنى، انكرها وتنكرنى، احتقرها وتحتقرنى! أنا اسميها «مغفلة» وهى تسمينى «مستهترة» أنا اعتبرها جاهلة حمقاء وهى تعتبرنى طائشة مجنونة!

ـ ولكنى أنا لم اتغير!

ـ إنك تغيرت أكثر منى! كنت تعشق نساء الدنيا وأصبحت تعشق امرأة واحدة!

ـ إننى أعشق نساء الدنيا فى امرأة واحدة!

ـ كنت تحب أن تبدل فى أصناف الطعام.. والآن تحب صنفا واحدا من الطعام!

ـ لأننى أجد فيه ألف صنف

ـ إننى سددت شهيتك التى لا تشبع!

ـ إنك فتحت شهيتى أكثر مما كانت!

ـ إذن تغيرت!

ـ نعم تغيرت.. ولكن الشىء الغريب أننى أشعر أنك قتلت الآنسة قسمت، وأنا الذى ورثتها!

ـ أصبحت أنت الآنسة قسمت!

ـ أصبحت الأستاذ قسمت! أصبحت أحب العزلة كما كنت تحبينها! أصبحت لأول مرة فى حياتى أجد لذة فى أن أجلس وحدى أصبحت أكره كل الرجال! تماما كما كنت أنت فى الماضى عدوة كل الرجال!

ـ هذا خبر جديد!

ـ سعادتى الآن أن أجلس معك وحدنا! أصبحت لا أطيق الذهاب إلى السهرات، أصبحت أكره تناول الطعام فى الفنادق الكبرى، أصبحت أكره أن أرقص مع كل امرأة جميلة!

ـ وأصبحت تغار!

ـ هذه هى المصيبة الكبرى

ـ ألم يحدث لك من قبل أن أصبت بحمى الغيرة!

ـ قبل أن أحبك كنت محصنا ضدها!

ـ كأنك لم تذق الحب!

لم يكن لدى وقت للغيرة!

ـ ألم تكن تغار من أزواج عشيقاتك؟

ـ على العكس.. كنت أحبهم!

ـ تحبهم؟

ـ أحبهم، وأشفق عليهم، وأدافع عنهم أمام عشيقاتى، كنت أشعر أننى أقوى منهم، والقوى لا يغار ممن هو أضعف منه. المليونير لا يغار من الشحاذ، وإنما يغار من مليونير أكثر منه ثروة! الشاب لا يغار من الشيخ، وإنما يغار من شاب أصغر منه وأقوى منه. الغيرة هى مركب نقص!

ـ كان نابليون العظيم يغار على جوزفين من ضابط صغير اسمه الملازم شارل!

ـ لأن نابليون كان وحده فى إيطاليا.. والضابط الشاب مع جوزفين فى باريس.. القائد العظيم ممكن أن يشعر بالغيرة إذا كان منافسه يمتاز عليه بالقرب من المرأة التى يحبها.. تتحول المسافة إلى نوع من الامتياز!

ـ وماذا حدث لك الآن!

ـ أصبحت أغار عليك من كل شيء.. كان الحب الجارف جعلنى اتضاءل أمام نفسى، وأحس بان كل رجل اخر أطول قامة منى! كل رجل اخر أجمل منى! كل رجل اخر أكثر شبابا منى! كل رجل اخر يمكن أن ياخذك منى! أصبحت أغار عليك من الخادم العجوز الذى يقدم لك افطارك فى الصباح! أغار عليك من جمعية ملجأ المتسولين

ـ وتغار من عم عبده أيضا؟

ـ نعم أغار منه ! أحبه وأغار منه ! أشعر أنه يشاركنى فى قلبك ! أحس بأنانية عجيبة لم أحس بها فى يوم واحد فى حياتى ! أصبحت أريد أن تكونى كلك لى، كل وقتك لى كل أفكارك لى !

ـ أنت تنسى أن عم عبده هو الذى انقذنى ! هو الذى ضحى بحريته من أجل أن يستبقى لى حريتى.. هو الذى ادعى أنه صاحب المنشور الذى ضبط فى مكتبى !

ـ أعرف ذلك، وهذا ما يجعلنى أغار منه أكثر!

ـ تغار منه لأنه ضحى من أجلى !

ـ لأننى شعرت أنه أنبل منى.. لقد فعل من أجلك الشىء الذى يجب أن أفعله أنا من أجلك، ولهذا أغار من نبله ! أشعر أنه بعمله هذا انتزع من قلبك جزءا كان يجب أن يبقى لى وحدى !

ـ ولهذا السبب لا تتحمس للذهاب إلى الراقصة نشوى.

ـ إننى مستعد أن أذهب إليها.. ولكنى قلت لك إنك أقدر منى على أن تنجحى فى هذه المهمة أكثر منى.

ـ إذن تعال معى !

ـ سوف تضعف قدرتك على المساومة بوجودى.. يمكنك أن تقولى لها أننى أنا الذى كلفتك بهذه المهمة إذا لم تستطيعى أن تتولى اقناعها بنفسك

* * *

عجبت قسمت من حديث عادل معها. لقد أحبته وهو رجل قوى رجل

تخافه، رجل تحسب له ألف حساب، رجل تخشى أن يفلت منها فى أى لحظة، ويعود كما كان زئر النساء من جديد.

كانت تحس دائما أنها تحت سيطرته تحس بين ذراعيه القويتين، بـأنها مخلوقة ضعيفة مستسلمة. تجد أحيانا لذة لا حد لها فى قسوته وهو يضمها إلى صدره، فى عنفه وهو يلتهمها بشفتيه. متعتها الكبرى فى أن تتضاءل فيه وتذوب. تحس فى ضعفها بجواره برعشة مثيرة، رعشة فيها كهـرباء، فيهـا لسعة لذيذة، فيها رهبة ممزوجة بنشوة

كان يبدو لها أن عادل ليس حبيبها فقط، إنه أبوها الحقيقى. اسم والدها شاهين باشا عبد اللطيف المكتوب فى شهادة ميلادها، حبر على ورق. ولكن اسم أبيها الحقيقى هو عادل علاء الدين المكتوب فى قلبها إنها تحس معـه بنفس ما تحسه الطفلة مع أبيها، عندما تتصور أنه قادر أن يفعل كل شىء، عندما تتوهم أنه عملاق قوى. إنه إله يصنع معجزات، إنه فوق أخطاء البشر انها لا تخاف أباها شاهين باشا كما تخاف عادل، لأنها تشعر إن عادل هو الذى خلقها، هو الذى جعلها الأنسة كاف، امرأة مصنوعة من الحب!

ولهذا عجبت عندما قال لها عادل إنه أصبح يغار عليها! الرجل الـوحيد الذى تجد فيه الأمان خائف! إنه أصبح مثلها، يريد أن يكون كل شىء فيها له وحده.. يتخيل لصوصا يسرقون منه ما يمتلك! الجمعية تسرق منه بعض المرأة التى يحبها. عم عبده يسرق منه بعض الوقت الذى من حقه وحـده. إنه مثلها يريد أن يكون كل حياتها، كل أفكارها، كل اهتمامها!

إنها فى أوقات تمنت لو كان عادل عاطلا! لم يكن المـدير العـام لشركة الهندسة الكهربائية. لم يكن المهندس الاستشارى العالمى. كانت تـريد أن تكون هى مكتبه الذى يبقى فيه كل يوم ١٨ ساعة! هى مجـالس الادارات

التى يعقدها ! هى المواعيد الهامة التى يحرص على حضورها هى كل تليفون يدق فى مكتبه، هى كل مشروع يدرسه، هى كل الرسوم التى تعرض عليه !

وها هو عادل يشعر فجأة بهذه الأنانية التى تسميها ضعفا. كان الحب لا تختلف أعراضه بين الرجل والمرأة. الحب يكوى الرجل كما يكوى المرأة. الحب عندما يكبر فى الرجل والمرأة تتشابه صورته فى كليهما. الرجل العاشق يبكى أحيانا كما تبكى النساء. يحس بأن الحب يشويه ويحرقه ويلسعه تماما كما تشعر المرأة !

لقد تخيلت أن أعضاء الحب فى قلب الرجل تختلف عن أعضاء الحب فى قلب المرأة. المرأة تعطى والرجل يأخذ. المرأة تبكى والرجل يمسح الدموع. قلب المرأة ينزف دما وقلب الرجل يتفتت كما تتفتت الصخور.

ولكنها اليوم أحست وهى تسمع عادل يتحدث بأن لا شىء يفرق بين المرأة والرجل فى الحب. كل ماهنالك أن الحب عند الرجل يرتدى بنطلونا والحب عند المرأة يرتدى فستانا، وإذا خلعا البنطلون والفستان تشابه الحب فى الرجل والمرأة معا، بحيث لا تختلف مشاعر الحب عند المرأة عن مشاعره عند الرجل عندما يصلان إلى درجة واحدة من الحب.

وانتفضت قسمت. أحست بقشعريرة لذيذة. أحست بأن حبها وحب عادل وصل إلى قمة الحب. ألم يغفر لها زلتها المزعومة مع الضابط جال ستيوارت؟ لولا أنه يعبدها لما غفر لها ذنبا لا يغفره رجل لامرأة أبدا !

سوف تذهب الآن إلى الراقصة نشوى. سوف تقنعها بأن تعدل عن شهادة الزور. الحب يجعلها أقوى مما هى، وأكثر فصاحة مما هى. ألا يفعل الحب المعجزات !

واستقبلتها الراقصة نشوى بترحاب. ولكنها ما كادت تفتح موضوع شهادتها أمام محكمة الجنايات حتى قطبت نشوى جبينها. وقالت

ـ إننى سوف أقسم أمام المحكمة بأن أقول الحقيقة ولا بد من أن أقول كل الحقيقة..

ـ وما هى الحقيقة !

ـ الحقيقة هي أن عبده قال لى إنه يعمل عميلا للألمان !

ـ أخشى أن تكون ذاكرتك خانتك !

ـ إن أقوى شيء هو ذاكرتى !

ـ إن عبده الذى تقولين إنه يعمل من أجل الألمان.. ليس هو عبده المسجون !

ـ أنا واثقة أنه هو!

ـ هل تعرفين أن عم عبده هذا هو شحاذ !

ـ لا يهمنى أن أعرف أن العملاء يتنكرون فى عدة أشكال !

ـ سوف يدهشك أن تعلمى أن عم عبده هذا هو رجل صاحب فضل عليك

ـ لا يوجد رجل له فضل على.. إننى مدينة لما وصلت إليه لهاتين الساقين فقط !

ـ قد يكون هناك رجل غير هاتين الساقين !

ـ إننى أدوس بقدمى فوق الرجال ولا أرتفع فوقهم !

ـ أتتذكرين يوما فى ميدان الأوبرا منذ عدة سنوات ؟ جاءت فتاة حافيا

ترتدى ملاءة لف سوداء، ترتجف، وقالت لشحاذ إنها تريد أن تعرف الطريق إلى صالة بديعة ، وأن اسمها شلبية الوحش، وأنها تعمل خادمة فى بيت الست أميرة، وأن الست أميرة ضربتها بيد الهاون وأنها تريد أن تعمل راقصة.. وأعطاها الشحاذ اسما جديدا هو (نشوى).. وذهب معها إلى السيدة بديعة مصابنى وأقنعها بقبولها راقصة وتظاهر بأنه والدها واختارت الخادمة اسم الشحاذ ليكون اسمها.. وأصبح اسمها نشوى عبده؟. إن عبده هذا هو الذى سوف تشهدين ضده فى محكمة الجنايات.. وشهادتك هى التى سوف تضع حول عنقه حبل المشنقة!

وارتجفت نشوى وهى تسمع القصة. واصفر وجهها، ثم تحول الاصفرار إلى سواد عجيب..

واعتقدت قسمت بأنها كسبت نصف المعركة فمضت تقول:

ـ تصورى أى مكافأة سوف تكافئين بها عم عبده الذى تحملين اسمه..

هو اعطاك المجد.. وأنت تعطينه تهمة الخيانة! هو فتح أمامك طريق الحياة، وأنت تفتحين أمامه طريق الموت. هو كذب أمام بديعة وادعى أنه والدك ليجعل منك نجمة مشهورة وأنت سوف تكذبين أمام محكمة الجنايات لتجعلى منه مجرما حقيرا!!

هل نسيت أنه رفض أن يأخذ منك مليما واحدا عندما قابلته بعد ذلك بسنوات فى ميدان الأوبرا؟. هل هذه هى مكافأته على كل ما فعل من أجلك؟.

وتمالكت الراقصة نشوى نفسها وأحست بأنها ماتت عدة مرات وهى تسمع حديث قسمت. كان الحديث أشبه بسياط تلهبها وتلسعها، وتشويها!

وفتحت فمها لتتكلم.. وقالت كلاما فى صوت متهدج محشرج، لم تسمعه قسمت.. فعادت تسألها أن ترفع صوتها!

قالت نشوى:

ـ لم أكن أعرف أن عم عبده المتهم هو عبده الشحاذ فى ميدان الأوبرا

ـ الآن وقد عرفت ستعدلين عن شهادتك!

ـ لا أستطيع أن أعدل عن شهادتى إننى مستعدة أن أفعل من أجله أى شيء! مستعدة أن أدفع أتعاب أكبر المحامين فى مصر ليقوموا بالدفاع عنه!

ـ عجبا! تطلقين عليه الرصاص وتدفعين مصاريف العلاج! إن رصاصك لا يجرحه، إنما يقتله! إن ما تدفعينه سيكون مصاريف تشييع الجنازة!

ـ لا أستطيع أن أفعل له أكثر من هذا!

ـ لماذا؟

ـ لأن الأمر ليس بيدى!

ـ بيد من إذن؟

ـ لا أستطيع أن أتكلم!

ـ أنا أعرف أنه بيد الصاغ عبد الفتاح الشبهاوى! إنه هو الذى لقنك هذه الشهادة الكاذبة، من أجل من يرقونه من صاغ إلى بكباشى إنه يشترى نجمة نحاسية على كتفه بحياة رجل برىء!

ـ أرجوك ألا تتكلمى ضد عبد الفتاح الشبهاوى أمامى!

ـ لأنك تحبينه!

ـ ولأنه يحبنى!

ـ إننى على استعداد أن أدفع عشرة آلاف جنيه لتقولى الحقيقة!

ـ مال قارون لا يكفينى!

ـ ماذا تريدين إذن لتقولى الحقيقة؟ كم تطلبين؟

ـ إننى لست فى حاجة إلى مال.. إننى لا أعرف ما أفعله بأرباحى الضخمة!

ـ أفهم أن يبيع فقير ذمته ليأكل ولكنى لا أفهم أن تفعل ذلك فنانة يسجد أمامها الأثرياء!

ـ هل أحببت ياآنسة قسمت؟

ـ نعم أحببت..

ـ وهل تترددين فى أن ترتكبى جريمة إذا طلب منك رجل تحبينه أن ترتكبى جريمة؟

ـ هذا سؤال غريب! إننى لا أحب رجلا مجرما!

ـ المرأة عندما تحب لا تطلب من الرجل صحيفة سوابقه!

ـ إذن أنت مصممة على أن تقتلى رجلا بريئا أحسن إليك من أجل إرضاء رجل تحبينه!

ـ كل امرأة عاشقة سوف تفعل ما أفعل..!

ـ إننى كنت واثقة فى أنك امرأة لا قلب لها.. ولكن المهندس عادل علاء

الدين قال إنه يعرفك. وهو الذى كلفنى بأن أحضر لمقابلتك..

ـ هل عادل علاء الدين مهتم بعم عبده!

ـ مهتم به مثل اهتمامى!

ـ وهل هو مستعد أن يدفع ثمن عم عبده؟

ـ أنا التى ستدفع الثمن!

ـ أنا لا أريد منك شيئا..

ـ إذن ماذا تريدين؟

ـ أريد.. أريد عادل علاء الدين..

الفصل الثامن والثلاثون

ذهلت قسمت للثمن الذى تطلبه الراقصة نشوى!

ـ أحست أنها تغوص بقدميها فى أرض من الوحل، كأن الأرض التى تدوس عليها بقدميها فى صالون نشوى قد ابتلت فجأة! أصبح كل شىء حولها موحلا ومبتلا. شمت فجأة رائحة القذارة تنبعث من كل مكان فى الصالون، من نشوى نفسها!

توقعت أن تطلب نشوى مبلغا أكبر من العشرة آلاف جنيه، توقعت أن تطلب اسهما فى شركة الهندسة الكهربائية التى يملكها عادل. توقعت أن تطلب أى شىء، أما أن تطلب عادل علاء الدين ثمنا للحقيقة فى محكمة الجنايات فهذا ما لم تكن تتوعقه على الاطلاق!

وأحست قسمت أنها تكره نشوى أكثر مما كرهتها فى أى يوم من الأيام، إنها لا تكرهها فقط، بل هى تحتقرها وتزدريها.

وتمالكت قسمت نفسها، بعد جهد جهيد، وقالت:

ـ إن خيال المؤلف شكسبير عندما أراد أن يرسم صورة لجشع الانسان لم ينزل إلى هذه الصورة. إن شكسبير تصور المرابى اليهودى شايلوك يقتطع رطلا من لحم المدين فى قصة تاجر البندقية. ولكنه لم يتخيل أن تجىء امرأة وتطلب رجلا كاملا ثمنا لأن تقول الحقيقة؟

قالت نشوى :

ـ إن قول الحقيقة سوف يفقدنى رجلا.. كل ما أفعله أن أحصل على رجل مقابل رجل!

قالت قسمت :

ـ المهندس عادل علاء الدين مدير عام شركة الهندسة الكهربائية أغلى كثيرا من الصاغ عبد الفتاح الشبهاوى الضابط فى القلم السياسى!

ـ تذكرى أننى لم أفقد عبد الفتاح وحده.. سوف يطاردنى البوليس، سوف يحرر لى بوليس الآداب ألف محضر ومحضرا! سوف تخرب الحكومة بيتى! سوف تحرض الحكومة صحفها على أن تهاجمنى وتلوثنى! أنا أريد أن أعيش! أريد أن أستمتع بالحب والحياة!

ـ ولكن ما الذى يجعلك تختارين عادل علاء الدين بالذات؟

ـ إنه الرجل الوحيد فى حياتى الذى تركنى! أنا التى أهجر الرجال وليس الرجال هم الذين يهجروننى!

ـ تريدين أن تستعيدى كرامتك بعودته إليك؟

ـ أريد أن أستعيد اعتبارى، هذا الرجل هز ثقتى بنفسى عندما هجرنى. جعلنى أشعر بالهزيمة لأول مرة فى حياتى.. المرأة لا يمكن أن تنسى هزيمتها الأولى.

ـ ولهذا تريدين أن يصبح عشيقك من جديد.

ـ أنا لا أريد أن يكون عشيقى.

ـ تريدينه لليلة واحدة؟

ـ أريد أن يتزوجنى!

ـ يتزوجك.. أنت؟!

ـ هذا هو شرطى!

ـ إنه لا يمكن أن يقبل هذا الشرط!

ـ لقد قلت إنه مهتم جدا ببراءة عم عبده.

ـ ليس معنى ذلك أن يقضى على مستقبله من أجل عم عبده.

ـ لماذا إذن تطلبين منى أن أقضى على مستقبلى من أجل عم عبده؟

ـ الوضع مختلف!

ـ لا فرق بين تضحيته وتضحيتى!

ـ من حق كل انسان أن يزن تضحيته بنفسه! أنا أعتبر أن ما أفقده بقول الحقيقة هو أضعاف ما يفقده بزواجه منى؟

ـ إننى أرفض هذا الثمن الباهظ!

ـ أنا لم أعرض شيئا للبيع. أنت التى جئت تقنعيننى بالبيع!

كيف يمكن لامرأة مثلك أن يخطر ببالها مثل هذا العرض الغريب؟

ـ ما غرابته؟ إننى أستبدل علاقة شرعية بعلاقة شرعية؟

- تتزوجين رجلا رغم أنفه؟

ـ لست أول امرأة تزوجت رجلا رغم أنفه.

ـ إنه لن يقبل هذا.

ـ دعيه هو يرفض.. لماذا تتولين الاجابة نيابة عنه؟

ـ لأننى واثقة أنه سيرفض.

ـ لأننى راقصة!

ـ ليس هذا.. إنه يحب امرأة أخرى!

ـ لا مانع عندى من أن يحبها!

ـ تتزوجين رجلا يحب امرأة أخرى؟

ـ عندما يتزوجنى أستطيع أن أجعله لا يحب امرأة أخرى!

ـ لو كنت تستطيعين أن تفعلى هذا.. لاحتفظت به عندما كان عشيقا لك!

ـ يومها لم أتخذ احتياطاتى.!

أما اليوم فسوف أتفرغ لهذه المهمة.

* * *

وسكتت قسمت كأنها تمنع كلمات سباب كثيرة تنطلق من فمها كمدفع رشاش.

ووقفت الراقصة نشوى، ومشت تتبختر فى أرجاء الصالون ذهابا وايابا وهى تقول وكأنها تحدث نفسها:

ـ حرم المهندس عادل علاء الدين بك! لقب لا بأس به! إنه أقل قليلا فى المقام من «راقصة مصر الأولى»!

وتميزت قسمت من الغيظ، وقالت والشرر يتطاير من عينيها :

ـ إن تحية كاريوكا هى راقصة مصر الأولى !

قالت نشوى فى سخرية :

ـ سوف تصبح راقصة مصر الأولى بعد أن أصبح حرم المهندس عادل علاء الدين !

ـ إنك تبنين كباريه من الأحلام وترقصين فيه !

ـ كل قصر بنيته من الأحلام.. سكنت فيه.

ـ ولكن هذه المرة سوف تسكنينه وحدك !

ـ مسكين عم عبده ! لا أحد يريد أن يضحى من أجله !

ـ تذبحين عم عبده وتبكين عليه ؟!

ـ أنا لم أذبحه.. أنا عرضت عليك طريقة لخلاصه وأنت ترفضين أن تخلصيه من السجن !

ـ إنك فاجرة !

ـ هذه هى مهنتى !

ـ مهنتك أن ترقصى على المسرح لا فوق جثث الرجال !

ـ الرقص على المسرح هو واحد من المائة من صناعتى، والتسعة والتسعون فى المائة الباقية هى ذبح الرجال فى الصالة !

ـ وتقدمين لهم خمرا مغشوشة !

ـ كل شيء فى الكباريه مغشوش المشروبات، عدد الزبائن، المواعيد التى تمنحها الراقصات للزبائن !

ـ وشهادتك فى قضية عم عبده مغشوشة أيضا ؟

ـ لا تذكرينني بعم عبده.. لأنك تمزقين قلبى !

- لو كان لك قلب لما تمسكت بهذا الشرط !

ـ ولو كان لك قلب لما رفضت هذا الشرط !

ـ إنني لم أطلب منك سوى أن تقولى الحقيقة !

ـ وعندما طالبتك بأن تدفعى ثمن الحقيقة رفضت أن تدفعى !

ـ لأنك تطلبين اعدام رجل برىء مقابل انقاذ رجل برىء من الاعدام !

ـ إن مئات الرجال يتمنون أن يتزوجوا بى !

ـ ولكن ليس فيهم رجل مثل عادل علاء الدين !

ـ إن وكيل وزارة الأشغال عرض على أن يتزوجنى ورفضت ! إنه مهندس أعظم من عادل، وهو أستاذ عادل باعترافه !

ـ من قال لك هذا ؟

ـ عادل نفسه !

ـ ولماذا لم تتزوجى وكيل وزارة الأشغال ؟

ـ لأننى كنت أحب عادل !

ـ وهل كان يحبك ؟

ـ كل رجل عرفنى أحبنى !

ـ ولماذا تركك إذا كان يحبك ؟

ـ خاف منى ! خاف منى وهرب !

ـ لماذا لم تطارديه ؟

ـ كنت مغرورة.. تصورت أنه سوف يجىء، لابد أن يجىء.. ومضت الأيام ولم يحضر.. ودارت الأيام.. وسوف يضطر إلى الحضور !

ـ إنه لن يحضر !

ـ لماذا أنت واثقة كل هذه الثقة ؟

ـ لأنه يحبنى أنا !

ـ سوف تكون مهمتى سهلة جدا !

ـ إنك فرحتى لأننى منافستك ؟

ـ فرحت لأنه لا منافسة لى !

ـ كأننى لا أملأ عينيك ؟

ـ أنت ما زلت طفلة يا ابنتى ! ما زلت فى سنة أولى حب !

ـ أنت تثيرين أعصابى بغرورك !

ـ وأنت تهدئين أعصابى بسذاجتك !

ـ هل أنا ساذجة ؟

ـ الدليل على سذاجتك أنك تصورت عندما قلت لى إنك تحبين عادل،

أنك تقولين لى خبرا لا أعرفه، أنه خبر قديم جدا!

ـ متى عرفته؟

ـ عندما قلت لك إننى أريد عادل! تغير وجهك، اصفر لونك، كنت أشبه بامرأة مذبوحة.

ـ ومع ذلك مضيت فى ذبحى!

ـ تشبثك به جعلنى ازداد تشبثا به! إن الرجل الخالى لا يثيرنى، .. يثيرنى الرجل المشغول.. لذتى كلها فى المعركة التى انتصر فيها على منافستى!

ـ وإذا قلت لك إننى أحبه.. فلن تتمسكى بأن يكون هذا هو ثمن قولك الحقيقة؟

ـ سوف أتمسك به أيضا..

ـ لماذا؟

ـ لأننى لن أصدقك لقد قلت لك إننى سآخذه.. وسوف أخذه!

ـ أنت تتكلمين عن عادل وكأنه زبون فى الصالة؟

ـ كل رجل هو زبون فى صالة ما!.. صالة بديعة هى صورة المجتمع المصرى! الراقصات هن الزعماء، والزبائن هم الشعب المغفل!.. مبادئ الأحزاب هى زجاجات الخمر المغشوشة، التى يدفع الشعب ثمنها! بائع الفزدق المطيباتى هو أجهزة الاعلام!.. الجمهور يعلم أن الخمر مغشوشة، والراقصات كاذبات، والبرنامج قديم، ومع ذلك، يملأ الجمهور الصالة كل مساء! يغنى ويرقص ويصرخ ويتشاجر كأن ما يراه أمامه هو الحقيقة..

لا يكاد يفيق فى الصباح، حتى يغيب عن الوعى فى المساء!

ــ أنت تتكلمين عن جمهورك وكأنك تحتقرينه

ــ احتقره بينى وبين نفسى.. وأحنى له رأسى وأنا فوق المسرح!

ــ وتسرقين ما فى جيوبه!

ــ قلت لك فى المرة الماضية إننى لا أضع يدى فى جيوب الزبائن!

ــ الزبائن هم الذين يضعون جيوبهم فى يدك.. وأنت الآن تضعين يدك فى قلبى وتحاولين أن تسرقى رجلى!

ــ كان رجلى قبل أن يكون رجلك!

ــ أنت أول لصة من نوعها!.. تعلنين عن تصميمك على السرقة قبل ارتكابها!

ــ إننى ألعب على المكشوف!

ــ ولهذا تتعرين من كل شىء لتظهرى كل شىء!

ــ أنا أتعرى من كل شىء لأخفى كل شىء!

ــ لست أفهم!

ــ طريقتى دائما أن أفصح عن نواياى فاضلل من يقف فى مواجهتى.. لأن العادة ألا يفصح أحد عن نواياه! أنا لا أسرق إلا فى النور! ولا أسرق إلا أولاد الذوات!

ــ لماذا أولاد الذوات؟

ــ لأن بينى وبينهم دينا قديما!

ـ ثأر قديم!

ـ إننى لم أنس أى صفعة على وجهى، أى لكمة على أسنانى.. أى كى بالنار على فخذى منذ كنت أعمل خادمة فى بيوت الذوات!

ـ وتردين الآن الصفعة واللكمة بكيك بالنار!

ـ إننى لا أوجعهم كما أوجعونى!

ـ وما ذنب عادل علاء الدين؟ إنه لم يصفعك ولم يلكمك.. ولم يكوك بالنار!

ـ إنه هجرنى.. وطعم الهجر أقسى من الكى بالنار!

ـ إذن هى فرصتك الذهبية للانتقام من عادل.

ـ ليس من عادل فقط!

ـ منى؟

ـ أنت بريئة.. من سوء حظك أنك جئت فى طريقى!

ـ ممن تنتقمين أيضا؟

ـ من الست أميرة.. السيدة التى ضربتنى بيد الهاون وجعلتنى أفر من بيتها وأعمل راقصة فى صالة بديعة..

ـ إن واجبك أن تشكرى ست أميرة لا أن تحقدى عليها، لولاها لما وصلت إلى كل هذا المجد!

ـ كل هذا المجد لم ينسنى عذاب الضرب بيد الهاون، وهذا هو الذى يجعلنى أتمسك بعادل علاء الدين!

ـ وما العلاقة بين عادل وأميرة التي ضربتك؟

ـ إنها شقيقة عادل قد يدهشك أن عادل رآنى عدة مرات فى بيت شقيقته الست أميرة، كنت أقدم له القهوة، كنت أفتح له الباب، ولكننى كنت فتاة ذليلة، تعيسة بشعة لم تستلفت نظره.. ولما أصبحت راقصة كبيرة وأراد أن يصاحبنى تصورت أنه عرف من أنا، ولكنه لم يعرفنى! وشعرت يوم بدأت علاقتى به بسعادة غامرة أن يصبح عشيقى هو الرجل الذى كنت أقدم له القهوة فى يوم من الأيام. أحسست بأن هذا العشق أعاد لى كرامتى واعتبارى، ضمد جراح يد الهاون التى ضربتنى بها شقيقته الست أميرة. نسيت حقدى كله. نسيت شقائى كله. وفجأة تركنى وذهب. ذهب بلا سبب!

ـ قد يكون اكتشف أنك الخادمة التى كانت تعمل فى بيت شقيقته!

ـ لم يعرف!

ـ سأقول له!

ـ قولى له.. ولكنى سوف أقول للست أميرة بعد أن أتزوج من عادل علاء الدين.. أننى واثقة أن هذا سيؤلمها أكثر مما آلمنى ضربها لى بيد الهاون!

* * *

خرجت قسمت من بيت نشوى كالمحمومة. رأسها يكاد ينفجر، أطرافها تؤلمها، شعرت فى لحظات برغبة فى أن تقبض بيديها على رقبة نشوى وتخنقها.. إنها مزيج من المرأة والأفعى. حديثها يقطر سما، كلامها عن عادل كان أشبه بطعنات الخنجر. أحست بأنها كانت فى لقاء مع ا لشيطان، لا يمكن أن يكون الشيطان أكثر ضراوة وشرا وخبثا من هذه المرأة. كيف

استطاعت أن تحتملها وهى تتحدث ببساطة عن رغبتها فى الزواج من عادل، لا لانها تحبه، بل لأنها تريد أن تنتقم منه، تريد أن تذل أخته أميرة وتؤلمها كما ألمتها يوم ضربتها «بيد الهاون»!

وحارت قسمت ماذا تفعل !؟

ـ لن تشترى حرية عم عبده ببيع عادل علاء الدين

لن تشترى حرية رجل فى السبعين مقابل حياة شاب فى الثلاثين! وهو ليس أى شاب، أنه حبيبها، وروحها، وقلبها، حياتها. كيف يمكن أن تقتل رجلا وامرأة مقابل حرية رجل ان عاش خمس سنوات، فلن يعيش عشر سنوات؟

انها تتمنى أن تحرر عم عبده من قيوده، ولكنها ليست مستعدة أن تضحى بحبيبها ولو لمدة ساعة واحدة يمضيها بين ذراعى هذه المرأة القذرة! انها مستعدة أن تضحى من أجل عم عبده بكل ما تملك، ما عدا أن تضحى بحبها. إنها لم تشعر فى لحظة من اللحظات بأنها تحب عادل كما تشعر فى هذه اللحظة. كأن تحدى نشوى لها أضرم النار فى قلبها. أنها احست برغبة فى أن تتملكه وحدها دون سواها، أكثر مما احست فى أى لحظة من قبل.

وضمت ذراعيها فوق صدرها بحركة غير ارادية، كأنها تحمى عادل المختفى فى قلبها من الايدى التى تريد ان تنتزعه منها. وكأن أطماع نشوى فى عادل جعلتها تشعر بقيمة عادل أكثر مما شعرت به فيما مضى. كان عادل بالنسبة لها بذرة الحب التى زرعها فيها الاله والشيطان معا! بذرة تحولت إلى شجرة، فيها طعم الجنة وطعم النار! اما اليوم فإنها لا تدافع عن الشجرة، وانما تدافع عن نفسها، عن حياتها. لقد اصبح عادل كل حياتها،

ومن يأخذه، يأخذ حياتها كلها!

... كانت تشعر فى أول الامر بحبه فى قلبها، ولكنها تشعر الآن بهذا الحب فى رأسها، وفى كل جزء من أجزاء جسدها، إنها تحب كل شىء فى هذا الرجل، حتى الخطيئة نفسها تحبها لانها تشاركه فيها!

وقررت قسمت أن تخفى عن عادل حديثها مع نشوى، ولكنها أحست بأن هذا السر يقلقها، يعذبها، لا تستطيع أن تحتمله وحدها. إن المرأة عندما تبوح بالسر لا تفعل هذا لانها لا تستطيع أن تمسك لسانها، وانما لانها أضعف من أن تحمل فوق رأسها وحدها سرا ثقيلا، كبيرا.

وفكرت أن تذهب إلى عم عبده لتروى له ما جرى. واشفقت على عم عبده أن تخبره بحقيقة أمر الراقصة نشوى التى كان معجبا بها، والتى تلقى الضربات والركلات والصفعات فى ميدان الاوبرا دفاعا عنها.

وخشيت قسمت شيئا آخر أهم من كل هذا ! خشيت أن يتضايق عم عبده لان قسمت تضن بأن تضحى بحبيبها عادل علاء الدين من أجله!

قد يقول لنفسه انه ضحى بحريته من أجل انقاذها، وهى لا تريد ان تضحى بحبيبها من اجل ان تنقذه!

وخيل إليها ان عم عبده يكون غبيا جدا إذا تصور انها لا تقدر التضحية التى قدمها من اجلها!

ولكنها تعرف بحكم ترددها المستمر على سجن الاستئناف، أن الزنزانة تجعل من المسجون انسانا حساسا، تجعل اعصابه فوق جلده بعد أن كانت تحت جلده. جو الوحدة القاتل يجعله قلقا، متشائما. كل شىء يصغر داخل الزنزانة ولكن شيئا واحدا فيها يكبر ويكبر ويتضاعف!

يدخل المسجون إلى الزنزانة وهو يحمل هما واحدا، فإذا اقفل عليه الحارس الباب تزايدت الهموم وتوالدت وتضاعفت.. رائحة الزنزانة النتنة تجعل الهم الصغير يتحول إلى هم كبير. تبالغ فى المتاعب. فالزنزانة هى الظلام، والهموم هى الميكروبات الصغيرة التى تتوالد فى الظلام وتموت فى ضوء الشمس. والشمس بالنسبة للمسجون هى الحرية. وهى لا تشرق عليه ابدا لان اشعتها تنكسر امام الجدران العالية والابواب المغلقة.

لو أخبرت قسمت عم عبده بحديث نشوى فسوف يتعذب أكثر مما يتعذب! كأنها تستانف معه عمليات التعذيب التى قام بها ضابط القسم السياسى يوم قبضوا عليه، عندما اعترف بانه صاحب المنشور!

* * *

وزارته فى السجن، واكتفت بان تحدثه عن تحديد جلسته أمام محكمة الجنايات وكيف أن محمد على علوبة باشا المحامى هو الذى سيترافع عنه، لان مكرم باشا لا يزال مقبوضا عليه..

هز عم عبده رأسه بغير اهتمام وقال:

ــ انني لست فى حاجة إلى محامين!

ــ لابد من محام يعرف القانون!

ــ القانون فى أجازة!

ــ ولكن المحامى يستطيع دائما أن يقطع هذه الاجازة!

ــ لو كان هناك قانون لما كنت انا فى السجن!

ــ القانون مقبوض عليه فى كل مكان. ولكنه حر امام ساحة القضاء!

ـ اخشى أن تكون حصون العدالة قد وقعت كلها فى يد الاستبداد !

ـ حصن واحد لم يستسلم بعد وهو حصن القضاء ! ولو سقطت كل هذه الحصون واحدا بعد واحد، وبقى حصن العدالة، فهذا يكفينا !

ـ وماذا تستطيع العدالة أن تفعل اذا كانت الدولة تحولت إلى عصابة !

ـ انت تنسى مواقف القضاة فى بلادنا ! تنسى ان الشيخ المراغى وهو قاض شرعى حكم على الملك فؤاد ! تنسى أن سعد زغلول وهو رئيس للوزراء اتهم الدكتور هيكل رئيس تحرير السياسة بأنه قذف فى حقه بأن قال عنه انه دجال ونصاب، وافاق، ومشعوذ، ومحتال، وبرأ احمد طلعت باشا رئيس محكمة الجنايات الدكتور هيكل وقال إن سعد زغلول ما دام أختار أن يشتغل بالسياسة فواجبه أن يتحمل لغة السياسيين ! وتنسى أن اسماعيل صدقى رئيس الوزراء سنة ١٩٣٠ قدم محمد محمود باشا زعيم المعارضة إلى محكمة الجنايات لانه خطب وقال إن حكومة اسماعيل صدقى لا ترضاها أمه من البغايا، ثم اضطر رئيس الوزراء إلى سحب القضية من محكمة الجنايات لانه عرف أن القضاة سيحكمون ببراءة محمد محمود. وتنسى أن وزيرين فى وزارة عبد الفتاح يحيى باشا قدما حفنى محمود رئيس تحرير جريدة « السياسة » إلى محكمة الجنايات لانه يتهمهما بالرشوة والفساد، فبرأت المحكمة رئيس التحرير وأدانت الوزيرين بتهمة الرشوة والفساد.. كل هذا يدل على أن فى مصر قضاة !

ـ مادام فى مصر قضاة فما حاجتى إلى المحامين !

ـ المحامى سوف يناقش شاهدة الاثبات نشوى عبده.

ـ لا احتاج إلى محام لتعدل عن شهادتها !

ـ انت تحتاج إلى مائة محام لا إلى محام واحد!

ـ يكفى أن انظر إلى نشوى.. وتعرف اننى المتهم حتى تعدل عن الشهادة!

ـ سوف تتأثر بسحر نظراتك!

ـ كلا.. سوف تتذكرني وتعدل عن شهادتها وتقول الحقيقة كلها!

ـ ما الذى يجعلك متأكدا منها!

ـ اعتقد انها امرأة نبيلة!

ـ ما اغبى حكم الرجال على النساء!

ـ لا تنسى اننى كنت زئر نساء فى شبابى!

ـ اكاد اتصور أنك لم تعرف امرأة واحدة فى حياتك!

ـ يمكنك أن تسألى فى هذا الموضوع غرامى الأول.. بهية مصقعة.. انها لاتزال حتى الآن تتسول أمام جامع الحسين!

ـ اننى مختلفة معك فى رأيك فى نبل الراقصة نشوى!

ـ هذا هو الموضوع الوحيد الذى نختلف فيه.

ـ وسوف تثبت لك الأيام اننى على حق.

ـ سوف تثبت الأيام أن نشوى امرأة نبيلة!

وأحست قسمت بأنها تريد أن تنفجر فى عم عبده، وتصارحه بكل ما قالته الراقصة نشوى، وبشروطها لتقول الحقيقة، ولكنها استطاعت أن تمسك الكلمات على طرف لسانها، قبل أن تنطلق منها، وأسرعت تنهى المقابلة.

حتى لا تواجه عم عبده بالحقيقة المؤلمة، وهى أن معبودته هـى الجـزار الذى قرر أن يذبحه!

وعندما التقت قسمت فى المساء بعادل فى شقته كانت قد اتخذت قـرارا نهائيا بألا تخبره بشروط الراقصة نشوى لتقول الحقيقة..

ــ وروت له الحوار الذى جرى بينها وبين نشوى، واكتفت بـالقول بـأن نشوى مصممة على أن تقول إن عم عبده ابلغها انه يعمل لحساب الالمـان، وأن امرها ليس فى يدها لتعدل عن أقوالها!

وفجأة وجدت نفسها تقول له:

ــ ان نشوى مستعدة ان تقول الحقيقة بشرط!

ــ ما هو هذا الشرط.

ــ ان تتزوجك!

ــ تتزوجنى أنا؟

ــ نعم!

ــ انها تطلب ثمنا غاليا جدا!

ــ كنت أظن أن الحقيقة غالية فى بلادنا.. ولم اتصور انها بهذا الثمـن الباهظ!

ــ قلت لك إن نشوى تبيع الأشياء الرخيصة بثمن غال!

ــ ولكننى قلت لها اننى ارفض أن تعطيها ساعة واحدة ثمنا للحقيقة!

ــ اننى مستعد ان اعطيها هذه الساعة!

ـ لعلك تحن إليها !

ـ لو كنت أحن إليها لقبلت اقتراحك بأن اذهب إليها.

ـ لتكون زيارة وتجارة !

ـ اننى عندما اقطع علاقتى بامرأة لا اعود إليها ابدا !

ـ ومع ذلك نتركها معلقة، انها مجنونة بك !

ـ مثل هذه المرأة لا تستطيع أن تجن الا بنفسها !

ـ قالت لى إنك الرجل الوحيد الذى تركها !

ـ اذن هى تريدنى لتطردنى !

ـ تقول إنها تريد أن تنتقم من شقيقتك اميرة، لانها كانت خادمة عندها، وضربتها «بيد الهاون» !

ـ لا اتذكر اننى رأيتها عند أختى اميرة لقد قلت لها مرة اننى اذكر اننى رايتها فى مكان قبل هذه المرة.. فقالت لى ضاحكة :

انك رأيتنى فى فندق شبرد.

ـ لعل هذا السبب فى أنها كانت تحرص طوال علاقتى بها على ان تتحدث عن والدها عبده باشا !

ـ وهل صدقتها.

ـ ان فيها رائحة ميدان عبده باشا فى العباسية !

ـ ولماذا تركتها.

ـ لانني لاحظت انها تريد أن تعلن علاقتها بى للناس جميعا. كأنها تريد أن تغيظهم وتكيد لهم جميعا!

ـ قالت لى نشوى انها تقصد أن تكيد اختك اميرة وحدها!

ـ الحقد يبدا بسيطا، ثم يصبح مركبا! يحدث أن يشعر طفل باساءة فى طفولته، فيشب يكره الناس كلهم الذين اساءوا إليه والذين لم يسيئوا إليه. لذته أن يشقى العالم كله عقابا له على الاساءة التى اصابته. يذيق الناس كلهم طعم الحرمان الذى ذاقه. يحمل المجتمع كله ظلم فرد واحد. وقد يكون الذى اساء إليه اقرب الناس إليه. يتكون فى داخله حقد يبدا ضد من اساء إليه، وكلما كبر، كبر الحقد معه، حتى يشمل الناس جميعا.

ـ إن نشوى وصلت إلى الثروة والمجد الفنى.

ـ كل هذا لا يسعدها. يسعدها أن تشقى أكبر عدد من الناس. تضربهم كما ضربتها سيدتها، تهينهم كما اهانتها سيدتها، وتؤلمهم كما آلمتها اميرة. انها تجمع العشاق حولها، لا لتسلب نقودهم، وانما لتسلبهم سعادتهم، لتسلبهم كرامتهم، لتذلهم، لترى رجالا محترمين يركعون تحت قدميها، لتسمع الشفاه التى لعنتها وهى خادمة، تسبح بحمدها بعد أن أصبحت راقصة مشهورة.

ـ شعرت ان سعادتها فى تحطيم كل شىء جميل. تريد أن تكون كل امرأة مهجورة، وكل عاشق تعيسا!

ـ أخشى أن تكون تشبثت بزواجى عندما احست انك تحبيننى'

ـ لقد وجدت نفسى فجاة اعترف لها باننى احبك!

ـ لماذا اعترفت؟

ـ لاغيظها ! لاصدمها ! لادافع عن حبى !

ـ انك جعلتها ترفع الثمن !

ـ ولكننى شعرت بسعادة لاحد لها وأنا اقول لها اننى احبـك ! كأننـى اعلن انتصارى عليها للدنيا كلها !

ـ ليس أمامنا الآن، الا أن اذهب إليها بنفسى!

ـ لا يمكن ان أسمح لك بلقائها.

ـ خمس دقائق !

ـ ولا دقيقة واحدة !

ـ انها لن تخطفنى !

ـ اننى اخاف عليك منها !

ـ سوف اقاومها !

ـ مقاومة الرجل للمرأة تزيدها وحشية واصرارا !

ـ اعدك بأننى لن اسقط فى شراكها !

ـ اننى اموت إذا ذهبت إليها.

ـ هذه هى الطريقة الوحيدة لانقاذ عم عبده من الاعدام.

ـ تنقذه من الاعدام.. وتعدمنى أنا..

ـ اذن. ماذا نفعل لانقاذه؟

ـ سأذهب أنا.. سأذهب إلى محكمة الجنايات.. واعترف امامها أن عم عبده برىء، واننى أنا كاتبة المنشور!

الفصل التاسع والثلاثون

دخلت الأميرة فضيلة إلى مكتب توفيق دوس باشا المحامى، فى عمارته الضخمة المطلة على شارع طلعت حرب، الذى كان اسمه شارع سليمان باشا، وشارع فؤاد، الذى أصبح اسمه ٢٣ يوليو الآن.

وكانت العمارة هادئة على غير عادتها. مئات من مكاتب المحامين والأطباء أغلقت أبوابها. الساعة الآن الثالثة ظهرا، وهو الموعد الذى تموت فيه الأعمال فى شارع الأعمال.

وكانت الأميرة تضع فوق عينيها الجميلتين نظارة سوداء كبيرة تخفى وجهها، وتلف رأسها بايشارب أسود يغطى كل وجهها وشعرها. كان الناظر إليها يعتقد أنها عاملة عند إحدى الخياطات التى تمتلئ بها العمارة.

وحرصت الأميرة على ألا تدق جرس مكتب المحامى الكبير. اكتفت بأن تدق بأصبعها على زجاج الباب دقات خفيفة.. وكأنها علامة متفق عليها.

وفتح الباب الخادم حرص على ألا يحييها، ولا يفتح فمه. كان التعليمات التى لديه أن يكون أعمى لا يرى، وأخرس لا يتكلم!

ـ وقالت الأميرة هامسة:

ـ قل لمعالى الباشا فاطمة هانم هنا

ولم يرد الخادم بكلمة، وإنما اتجه إلى الغرفة المقفلة التى يجلس فيها دوس باشا. وقبل أن يصل إلى الباب، كان دوس باشا يفتح باب مكتبه ويتجه متهللا إلى الأميرة بوجهه الأسمر، وبعينيه اللتين تشعان بالذكاء، وعلى وجهه دهشة وقال وهو يصافح الأميرة، ويدعوها إلى أن تتقدمه إلى مكتبه، قال بانجليزية فصيحة:

ـ ماهذه الأسرار التى تحيطين بها نفسك ياصاحبة السمو؟

ووضعت الأميرة أصبعها على شفتى دوس باشا وقالت:

ـ لا تنادينى بياصاحبة السمو.. أنا اسمى فاطمة هانم.

ـ خادمى لا يعرف الانجليزية!

ـ إننى دهشت أن أرى خادمك فى المكتب!

ـ خادمى غبى جدا لا يفهم مايسمع وقد مضى عليه وهو يعمل عندى ثلاثون عاما وهو يزداد غباوة عاما بعد عام!

ـ إننى أحب الخدم الأغبياء!

ـ والنساء الغبيات!!

ـ الرجل يتمنى أن يتزوج امرأة غبية ويحب امرأة ذكية.. هل يوجد فى المكتب سواك؟

ـ أنت تدخلين فى رواية بوليسية!

ـ ألا تحب الروايات البوليسية!

ـ بشرط ألا أكون أحد أبطالها!

ـ جئت إليك لأننى أئتمنتك وحدك على أسرارى!

ـ أنت تحيطين زيارتك لي بغموض غريب! عندما قلت لى فى التليفون إنك تريدين مقابلتى لأمر هام جدا، عرضت عليك أن أحضر أنا إلى قصرك فإذا بك تقولين إنك تفضلين أن يكون اللقاء خارج قصرك. عرضت عليك أن تحضرى إلى بيتى فى الزمالك، فقلت لى إن المسألة سرية جدا وأنت لا تريدين أن تراك زوجتى وأولادى وبناتى! وعرضت عليك أن نتقابل فى مكتبى فاشترطت أن يكون اللقاء بعد انصراف جميع المحامين والموظفين الذين يعملون فى مكتبى، وبعد انتهاء ساعات العمل! ما هو الضرر فى أن تحضرى لمقابلتى فى النور! لماذا تخفين وجهك تحت «الايشارب» الأسود والنظارة السوداء؟ لماذا تصرين على تغيير اسمك وتجعلينه فاطمة هانم بدلا من الأميرة فضيلة؟ المفروض إننى محاميك ومن حقى أن ألقاك فى أى وقت!

ـ إنها مسألة خطيرة وسرية لا يعرفها أحد!

ـ ولا زوجك معروف باشا!

ـ الزوج آخر من يعلم...

ـ هل هى استشارة قانونية؟

ـ إنها استشارة غرامية!

ـ إن المطربة اسمهان كانت تستشيرنى فى مسائلها الغرامية.. وكانت مشورتى لا تعجبها!

ـ إذن أنت متخصص فى الاستشارات الغرامية!

ـ متخصص فقط فى القضايا المدنية والقضايا الجنائية والقضايا العسكرية!

ـ والقضايا الشرعية؟

ـ والقضايا الشرعية أيضا!

ـ إذن أنت متخصص فى مشكلتى.. مشكلتى متصلة بالمسائل المدنية والمسائل الجنائية، والمسائل العسكرية، والمسائل الشرعية!

ـ يبدو أنها مسألة دولية!

ـ وهى أيضا فيها طابع دولى!

ـ إنها لغز يحيرنى!

ـ ذكاء معاليك يستطيع أن يحل كل الألغاز!

ـ قضية طلاق!

ـ قضية زواج!

ـ أنت متزوجة الآن!

ـ سوف اتطلق!

ـ هل زوجك موافق على الطلاق؟

ـ يجب أن يوافق!

ـ كيف تتأكدين أنه سيوافق؟

ـ لأنه يحبنى!

ـ الزوج الذى يحب امرأة لا يطلقها!

ـ لقد ربيت معروف باشا كما أربى الكلب! أناديه فيحضر! وأشير إليــه فيخرج!

ـ ولكن الكلب يعض فى بعض الأحيان.

ـ زوجى كلب أليف لا يعض ولا يعوى.. يطيعنى طاعة عمياء!

ـ أشك فى أنه يقبل الطلاق بسهولة.

ـ إننى مستعدة أن أدفع له.

ـ خلو رجل!

ـ سمه كما تشاء! خلو رجل! تعويض! معاش؟

ـ المسألة ليست سهلة. إن لك ولدا منه!

ـ كثيرات من الأمهات اللاتى لهن أولاد حصلن على الطلاق!

ـ ولكن الموقف معك يختلف.

ـ ماهو الاختلاف؟

ـ الاختلاف إنك أميرة

ـ إننى بشر قبل أن أكون أميرة!

ـ طلاق البشر يقرره، المأذون، وطلاق الأميرات يقرره مجلس البلاط!

ـ وهل تظن أن مجلس البلاط سوف يعارض طلاقى؟

ـ هذا يتوقف على رأى الملك. إن مجلس البلاط، هــو مجمــوعة مــن

الطراطير، تنفذ أوامر الملك!

ــ سوف يوافق الملك على الطلاق عندما يعلم أننى وزوجى متفقان على الطلاق. إننى مصممة على أن يكون معروف باشا هو صديقى الأول حتى بعد طلاقى منه!

ــ إذا كنت تحبينه كل هذا الحب فلماذا تطلقينه؟

ــ أنا أحبه ككلب.. لا كزوج!

ــ إذن فمشكلة الطلاق ليست صعبة!

ــ هذه ليست المشكلة!

ــ ماهى المشكلة اذن؟

ــ مشكلة الزواج؟

ــ ولكننا لم ننته من الطلاق حتى نفكر فى الزواج.

ــ إننى أطلب الطلاق من أجل الزواج، وإذا لم أتأكد من الزواج من الرجل الذى اخترت ، فلا داعى للطلاق!

ــ ومن هو الرجل الذى تريدين الزواج منه؟

ــ الكابتن جاك ستيوارت الضابط بالجيش البريطانى!

ــ وبريطانى أيضا!

ــ أعرف أنك تكره الانجليز..

ــ إننى لا أكره الانجليز.. ولكن حكومة بريطانيا طلبت القبض على أثناء الحرب!

ـ لأنك هاجمتهم أثناء الحرب !

ـ لم اهاجمهم ! كل ماحدث أننى زرت ألمانيا قبل الحرب، وصرحت بعد عودتى إلى مصر، بأننى لا حظت أن الطيران الألمانى متقـدم جـدا عـن الطيران الانجليزى، وثار الانجليز واتهمونى بالدعاية للمحور، ولم يصـدقوا ما قلته إلا عندما هدمت الطائرات الألمانية بلادهم، وحولت مـدنها إلـى خرائب وانقاض !

ـ أنا مثلك لا أحب الحكومة الانجليزية.. ولكنى اعبد الـكابتن جـاك ستيوارت !

ـ إننى لا أعترض على الزواج من وجهة سياسية.

ـ تعترض عليه من وجهة وطنية ؟

ـ اعترض عليه ومن وجهة واقعية. إننى ضد الزواج من الأجانب !

ـ ولكننى أحبه !

ـ الحب الذى لا يتكلم لغة واحدة لا يعيش طويلا !

ـ إننا نتكلم لغة واحدة هى لغة الحب !

ـ ولكنك تعبرين عنها بالعربية.. وهو يعبر عنها بالانجليزية ! المفـروض أن يلتصق الرجل بالمرأة التصاقا كاملا، ولكن إذا تزوج انجليزى بمصريـة فإنه يحتاج إلى قاموس يضعه بينه وبينها !

ـ فى الحب لا تحتاج الشفاه إلى كلمات !

ـ هذه الآراء لا يقرها مجلس البلاط

ـ ولكن رئيس مجلس البلاط هو الأمير محمد على، وهو يحب الانجليز.. ولا يجرؤ أن يرفض زواج أميرة مصرية من ضابط بريطانى !

ـ لن يثير الأمير محمد على جنسية الضابط.. سوف يقول إنه لا يجوز أن تتزوج أميرة مصرية من رجل مسيحى !

ـ سوف يعتنق الاسلام !

ـ كثيرون من المسلمين يعتقدون أن المسلم هو من ولد مسلما.. لا من اعتنق الاسلام !

ـ لا يهمنى ما يقولون !

ـ اعتقد أن الرأى العام المصرى سوف يثور إذا تزوجت أميرة مصرية من ضابط بريطانى من جيوش الاحتلال !

ـ لا يهمنى الرأى العام !

ـ ومجلس البلاط لا يجرؤ أن يوافق على هذا. إن بين أعضائه رئيس مجلس الشيوخ ووزير العدل وشيخ الأزهر !

ـ سوف أتزوج برغم مجلس البلاط !

ـ سوف يجردك الملك من لقبك

ـ إن لقبى يقيد حريتى ويمنعنى من الحركة !

ـ ولكنه يزيدك جمالا !

ـ عندما أدخل غرفتى لا أصحب لقبى معى !

ـ وسوف يجردك الملك من كل أموالك، سوف يحجر عليك، سوف يضع قيما على ثروتك.

ـ لن يجرؤ!

ـ لقد فعل ذلك بأميرات غيرك!

ـ سوف أفضحه فى كل الدنيا!

ـ إن مشكلتك تشبه مشكلة الأميرة صالحة! من سخرية القدر إننى محاميك.. وكنت محاميا للأميرة صالحة أيضا.

ـ وكسبت لها القضية؟

ـ خسرتها!

ـ لماذا.. أليس فى مصر عدالة!

ـ فى قضايا الأمراء يجلس الملك فى مقعد القاضى!

ـ ماذا حدث للأميرة صالحة!

* * *

قال دوس باشا:

ـ إنها قصة طويلة. منذ عشرات السنين، كانت الأميرة صالحة امرأة جميلة فاتنة. وكانت صاحبة أجمل عينين فى مصر! وكانت عيناها تظهران من اليشمك الأبيض الذى تلف به وجهها كأنهما منارتان تملأن الدنيا بالنور. وكانت أغرب صفاتها أنها جمعت بين الجلال والجمال! العيون الفاجرة ما تكاد تراها حتى تتأدب! الشفاه الجائعة ما تكاد تقترب منها حتى تبتل!

فيها شىء يجذب الرجل ليأخذها بين ذراعيه وفيها شىء أقوى يوقفك مكانك عندما تقترب منها ! كانت بين الأميرات الجميلات أشبه بالسهل الممتنع فى أسلوب اللغة العربية ! تظن أنها سهلة جدا وصعبة جدا فى وقت واحد !

وكانت تمضى نصف العام فى القاهرة، ونصفه فى باريس، وكان لها بيت جميل أنيق فرشته وكأنه صورة مصغرة من قصر سلطان فى قصة ألف ليلة وليلة !

وكانت تملك فى باريس اسطبلا ضخما للجياد العربية. وكانت خيولها تحصل على الجوائز الأولى فى السباق. وكانت هوايتها أن تعنى بنفسها بتربية هذه الخيول. وكانت فارسة ممتازة، وكانت تبهر أمهر الفرسان بقدرتها العجيبة على التحكم فى الجياد..

وكانت السيارات غير معروفة فى تلك الأيام بين الطبقة الارستقراطية فى باريس، وكانت الأميرة تستقل دائما عربة موشاة بالذهب، يجرها حصانان عربيان مطهمان.

وكانت الأميرة تبدو فى عربتها الفاخرة أشبه بامبراطورة. وكان جمالها وسحرها وأناقتها تسلب عقول أهل باريس. كان كل رجل فى باريس يطمع فى أن يتعرف إلى الأميرة المصرية الساحرة، ولكن منظرها الملكى المهيب كان يفرض على الرجال احترامها، كان حولها حرس مسحور يقطع رقاب كل من يقترب منها، فكان الباريسيون يكتفون بأن يقفوا فوق رصيف الشارع، يخلعون قبعاتهم، ويحنون رءوسهم، وكأنهم يحيون موكب الجمال !

وذات يوم رآها ضابط روسى شاب فى أحد شوارع باريس، ففتن بجمالها، وجن بسحرها، وذهل أن الواقفين فى الطريق يقفون مبهورين، بلا حراك، كأن هذه الأميرة المصرية نومتهم جميعا تنويما مغناطيسيا !

وتبع الضابط الروسى عربة الأميرة وعرف بيتها، وحام حول البيت، وسأل الجيران، فعرف أن هذه الساحرة هى أميرة مصرية شابة، وإنها ابنة الأمير حليم شقيق الملك فؤاد ملك مصر، وأرملة الأمير ابراهيم أغنى أمير مصرى فى تلك الأيام!

وسأل: هل لها عشاق؟

فقيل له: نعم. كل الخيول التى فى اسطبلها! إنها تمضى مع هذه الخيول أغلب ساعات اليوم!

ولم يصب الضابط بالذعر عندما علم من تكون الساحرة الحسناء. بل أسرع يضع خطة ليغزو بها قلب الأميرة الجميلة!

واكتشف أن خير طريقة للحرب هى الهجوم الخاطف.. ووصل إلى هذه الحقيقة قبل أن يصل إليها هتلر بعشرات السنين!

وذهب الضابط الروسى الشاب إلى بيت الأميرة فى باريس، وطلب التشرف بمقابلتها لأمر هام!

وعندما أبلغت وصيفة الأميرة صاحبة السمو أن ضابطا روسيا يريد مقابلتها فورا، تصورت أنه يحمل لها رسالة من الغراندوقة أو لجأ شقيقة قيصر روسيا، وصديقتها القديمة!

وفوجئت الأميرة بالضابط الروسى الشاب يقول لها:

ــ جئت لاستأذن سموك فى شراء أحد جيادك! إن جيادك هى أجمل جياد رأيتها فى حياتى! إنها لا تمشى إنها ترقص! إنها لا تجرى، إنها تطير!

وسرت الأميرة من إعجاب الضابط الروسى الشاب بجيادها، وذكرت له

أسماء الجياد التى تملكها، وأصل كل جواد، ونسبه، وعدد السباقات التى اشترك فيها، والجوائز التى حصل عليها..

ومكثت الأميرة ساعتين كاملتين، تصف خيولها، وتتغزل فى كل واحد منها، وكأنها ترسم لكل حصان صورة بالألوان، أو كأن كل حصان رجل، له تاريخ وقصة ومغامرة!

وقد كانت الأميرة تهوى الخيول، وتهتم بتربيتها، وتجد سعادة لا حد لها فى الحديث عن خيولها.

وشجعها على الحديث عن الخيول أن الضابط الروسى الشاب بدأ مبهورا بما يسمع، يستزيدها كلما توقفت، وكأنها تغنى له أغنية رائعة من أغانى القوزاق!

وفجأة قال الضابط الروسى الشاب:

ـ ولكن هناك (مهرة) جميلة فاتنة، أثارتنى، هزتنى، أخذت بلبى، ملكت على حواسى، ما كدت أراها حتى جننت بها. جعلتنى لا أنام الليل، أحلم بها. أتمناها. إنى مستعد أن أدفع عمرى كله من أجل الحصول عليها. هذه هى المهرة التى أريدها، ولا أريد سواها..

قالت الأميرة فى دهشة:

ـ أى مهرة؟

قال الضابط الروسى:

ـ أنت!

صرخت الأميرة فى ذهول:

ـ أنا؟!

قال الضابط الروسى فى هدوء:

ـ نعم أنت.. إننى أحبك وأريد أن أتزوجك!

ـ كيف تحبنى وتتزوجنى وأنت لا تعرفنى؟

ـ إننى خبير فى الخيول الأصيلة!

ـ ولكن أين رأيتنى؟

ـ فى عربتك.. فى شارع الشانزليزيه.

ـ فى هذا الشارع تمشى أجمل نساء فرنسا، بل نساء العالم!

ـ لم أر فى الشارع الكبير إلا امرأة واحدة هى أنت!

ـ أنت شاعر!

ـ أنا فارس!

ـ إنك أول رجل شبهنى بالحصان!

ـ لأننى أحب الخيول!

ـ ولهذا أحببتنى؟

ـ المرأة الجليلة أشبه بالحصان الجميل!

ـ ولكنى حصان متوحش!

ـ لذتى أن أروضه!

سوف تقع من فوق الحصان.

ـ سأقع فى الجنة!

ـ لو أنك شبهتنى بأى شىء آخر فى الدنيا لما استطعت أن تفتح قلبى!

ـ إننى أحب أن أدخل إلى قلبك فوق حصان!

ـ الحصان لك! كم تدفع فيه!

ـ شبابى وحياتى!

ـ إنه أغلى حصان بعته فى حياتى!

ـ إننى لم أدفع فيه إلا واحدا من ألف من ثمنه!

ـ حدثنى عن الخيول فى روسيا!

ـ أنا واحد منها!

ـ جميلة وذكية وجريئة!

ـ وتحتمل كثيرا!

ـ إنك تعجبنى!

ـ ستتزوجيننى؟

ـ نعم

ـ متى؟

ـ متى تشاء! أنا المهرة.. وأنت صاحب الحصان!

وتقدم الشاب الروسى نحو الأميرة الفاتنة، ورفع ذقنها، ثم قبلها قبلته الأولى.

ولم تقاومه، وإنما ترنحت وهى تذوب بين ذراعيه، ثم قالت له:

ـ نسيت أن أسألك.. ما هو اسمك؟

ـ اسمى ديورك!

* * *

وسمع ملك مصر، بقصة هوى الأميرة المصرية والضابط الروسى فجن جنونه، وطار عقله عندما علم باعتزامها الزواج منه.

وأرسل الملك على الفور رسولا إلى باريس قابل الأميرة وقال لها وهو يرتجف:

ـ إن جلالة الملك غاضب جدا وثائر جدا. كلفنى أن أبلغك أنك إذا تزوجت هذا الضابط الروسى فسوف ينتزع منك لقب (صاحبة السمو الأميرة)

ـ إن الرجل الذى أحبه لا ينادينى أبدا بيا صاحبة السمو الأميرة! إنه ينادينى (حبيبتى)! وما دام عمى الملك لا يستطيع أن يجردنى من لقب (حبيبتى)، فلا يهمنى أى لقب سواه.

ـ إن الأسرة المالكة سوف تقاطعك وتتبرأ منك.

ـ إن المرأة المشغولة بالحب ليس لديها وقت للتشريفات الملكية!

ـ إن الملك سوف يجردك من كل أموالك فى مصر.

ـ عندما نحب يصبح أى شىء آخر لا قيمة له.

ـ سوف تموتين من الجوع.

ـ سوف أعيش على الحب!

ـ الحب لن يطعمك !

ـ لو أنك ذقته.. أو لو أن جلالة الملك ذاقه مرة واحدة، لعرف أن الحب الذى يمنح الحياة قادر على أن يعطى الطعام !

وتوالت رسل الملك على الأميرة العاشقة، تحذرها وتنذرها، تهددها وتتوعدها، ولكنها طردت الرسل جميعا وقالت إنها مستعدة أن تضحى بكل شىء من أجل حبها !

واعتنق الضابط الروسى الدين الاسلامى، وتزوج المهرة الملكية !

وما كاد ملك مصر يسمع بالنبأ الفاجع حتى كلف رئيس ديوانه بأن يبرق إلى الأميرة صالحة برقية يقول فيها : «تفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم، وأصدر أمرا ملكيا كريما، بتجريدك من لقب الامارة، ومن كل حقوقك».

وأرسلت الأميرة صالحة برقية إلى الملك، لعلها أغرب برقية تلقاها ملك مصر، بل لعلها أغرب برقية أرسلتها أميرة إلى ملك جالس على العرش.

كان نص برقية الأميرة إلى الملك عبارة عن كلمة واحدة هى (طظ) !

* * *

ما كادت الأميرة فضيلة تسمع نص البرقية التى أرسلتها الأميرة صالحة إلى الملك حتى صرخت، واستغرقت فى ضحك متواصل !

ودمعت عيناها من الضحك، فأخرجت منديلا ومسحت به دموعها وهى تقول :

ـ لا أعرف كيف أشكرك يا توفيق باشا.

ـ لأننى رويت لك قصة الأميرة صالحة؟

ـ بل لأنك أرشدتنى إلى نص البرقية التى سوف أرسلها إلى الملك فاروق!

ـ ولكن القصة لم تنته بعد!

ـ يكفى أنها تزوجت من تحب، وعاشا فى التبات والنبات، وخلفا الصبيان والبنات!

ـ كانت الأميرة قد رزقت من زوجها الأمير إبراهيم، بولدين وبنت، هم الأمير محمد على إبراهيم، والأمير عمرو إبراهيم، والأميرة عين الحياة. وكانوا أطفالا يعيشون مع أمهم الأميرة صالحة فى باريس، واتفق ملك مصر مع عدد من رجاله على أن يسافروا متنكرين إلى باريس وهناك يدبرون خطة لاختطاف أولاد الأميرة. وذات يوم خرجت الأميرة لتزور أسطبلها، ومعها زوجها الضابط الروسى الشاب.

وعادت الأميرة إلى بيتها فلم تجد أطفالها الثلاثة.. وقالت المربية إن ثلاثة من الرجال جاءوا وقالوا إن الأميرة تريد أطفالها الثلاثة فى الاسطبل!

ـ وكان مظهر الرجال يدل على الاحترام، فلم تشك فيهم المربية، وسلمتهم الأولاد.. وجنت الأميرة صالحة، وأبلغت البوليس...

وحوصرت الموانئ والطرقات لضبط العصابة التى خطفت الأمراء الثلاثة الصغار!

وفشلت كل المحاولات.. وصل الأطفال الثلاثة إلى القاهرة، وسجنهم الملك فى أحد القصور، ومنعهم من الاتصال بأمهم!

كل ذلك عقابا للأميرة لأنها قالت (طظ) للملك :

قالت الأميرة جزعة :

ــ تقصد أنه من الممكن أن يخطف الملك ابنى !

ــ كل شىء ممكن فى هذا البلد !

ــ لن تستطيع قوة على هذه الأرض أن تأخذ ابنى منى !

ــ إن الملوك لا ينتزعون الأطفال من أمهاتهم فقط.. بل إنهم ينتزعون قلوبهم أيضا !

ــ ماذا تعنى؟

ــ أعنى أن ملك مصر استطاع أن يقنع الأمراء الصغار أن أمهم الأميرة صالحة هى التى طردتهم من بيتها لكى تتفرغ لزوجها الروسى الشاب. وصدق الأطفال الصغار الأكذوبة. وقاطعوا أمهم فترة طويلة.. وعندما كبروا عرفوا الحقيقة، وعادوا يتصلون بأمهم، ولكن بعد أن تمزق قلبها سنوات طويلة !

ــ إننى مستعدة أن أقتل الملك إذا انتزع ابنى منى.

ــ قد لا يكون الملازم جاك ستيوارت مستعدا لأن يدخل كل هذه المعارك من أجلك !

ــ سوف يدخلها من أجلى..

ــ هل أخبرته بالعقبات المنتظرة !؟

ــ إننى لم أخبره بعد بأننى قررت أن أتزوجه !

ـ ماذا تقولين؟ تفكرين فى الطلاق.. وتعلنين الحرب.. وتستشيريننى.. قبل أن تعرف إذا كان هذا الشاب مستعدا أن يتزوجك أو لا؟

ـ إنه لا يستطيع أن يقول لا!

ـ هل تعرفينه جيدا؟

ـ عرفته منذ بضعة أيام!

ـ وكيف تستطيعين الحكم عليه!

ـ لأننى أعرف نفسى!

ـ إن هذا جنون يا صاحبة السمو!

ـ المحبون يتحولون دائما إلى مجانين!

ـ أنت مجنونة فعلا!

ـ لو ذقت الحب مرة واحدة لعرفت طعمه يا باشا..

ـ أعرف طعمه.. وأعرف أن ألذ جنون فى الدنيا هو جنون الحب!

الفصــل الأربعون

مأدبة عشاء فى قصر الأميرة فضيلة.

أضيئت غرفة الطعام بالأنوار الساطعة. الأطباق مــن ذهــب الشــوك والسكاكين من ذهب. شعر معظم المدعوات من ذهب. مجوهرات السيدات تشع بأضواء متألقة، فيصبح جو الغرفة مزيجا من الذهب والنور. الخـدم يرتدون قفاطين سوداء مطرزة بالذهب. الذى يدخل الغرفة ولا يعرف أن هذه ليست غرفة مائدة الأميرة، يتصور أن البنك الأهلى يخفى احتياطى الـدولة من الذهب فى هذه الغرفة!

الأميرة فضيلة فى ثوب ذهبى أنيق، يكشف عن صدرها العاجى وذراعيها البضتين، تجلس على رأس المائدة والى يمينها الأمير محمد على ابراهيم بنظارته الأمريكية، وقامته المتوسطة، وبطنه الكبير والى يسارها المليـونير محمد سلطان، بوجهه الأسمر، وأذنيه الطويلتين، وملامحه التى تجعل بينه وبين توت عنخ أمون شبها غريبا.. ومعروف باشا يجلس فى مواجهة زوجته، وعن يمينه الأميرة فاتنة هان زادة زوجة الأمير محمد على ابراهيم، بجمالها الساحر الذى ورثته عن سلاطين بنى عثمان، وعن يساره حـرم المليـونير محمد محمود خليل بك رئيس مجلس الشيوخ السابق ورئيس ثمانية وعشرين مجلس إدارة شركة مساهمة، أو عضو فى مجلس إدراتها!

وتناثرت على المقاعد بضعة ملايين من الجنيهات، فى شكل أمراء وأميرات، نبلاء ونبيلات، باشوات ووزراء سابقين، وأصحاب ملايين الرجال بملابس الفراك السوداء والياقات البيضاء والنساء فى ملابس السهرة، هذه الملابس التى تخفى ما يجب أن يظهر، وتظهر ما يجب أن يختفى، وتجعلك لا تعرف هل المرأة ترتدى ملابسها أم تخلع ملابسها، وهلى هى فى حفلة ساهرة أم فى غرفة النوم!

وكان الملازم جاك ستيوارت، يجلس بين الآنسة موصيرى إحدى صاحبات بنك موصيرى، وبين الكونتس منشة. وقد تعمدت الأميرة فضيلة أن تجلس جاك ستيوارت فى هذا المقعد بين الآنستين لا لأنهما من صاحبات الملايين، بل لأن الآنسة موصيرى كانت فى الخامسة والستين والكونتس منشة فى السبعين..

وكان جاك مذهولا بهذا البذخ الذى يراه أمامه، فقد كان يعلم أن أصحاب الملايين فى انجلترا يأكلون بيضة واحدة فى الأسبوع؟ وأن مستر تشرشل، رئيس الوزارة يرتدى بنطلونا مرقعا! وأن ملك انجلترا يأكل ببطاقة التموين كالتى يأكل بها عامل منجم الفحم فى مقاطعة ويلز.. ولم يستنكر جاك هذا الاسراف، بل كان سعيدا به. فقد افتقد المظاهر الارستقراطية، والمآدب الملكية، منذ بدأت الحرب، وعاش الانجليز فى بلادهم يربطون الأحزمة على البطون.

وتنهدت الكونتس منشة وقالت بالفرنسية:

ـ متى تنتهى هذه الحرب الملعونة ياربى!

قال لها جاك:

ـ هل لك أولاد يحاربون فى الحرب ياسيدتى!

قالت الكونتس فى استنكار:

ـ إننى آنسة! لم أتزوج بعد!

وأسرع جاك يبدى آسفه واعتذاره للكونتس العذراء، ابنة السبعين ربيعا:

ـ آسف ياآنسة.. تصورت أن أحدا فقدته فى الحرب!

ـ نعم فقدت رائحة «أحبك» الفرنسية!

ـ سقطت قنبلة على زجاجة العطر

ـ لا.. منذ سقوط فرنسا فى يد الألمان لم يعد فى امكانى الحصول على عطر «أحبك»، وهو العطر الوحيد الذى يعجبنى!

ـ لك حق ياآنسة، إن سقوط فرنسا فى يد الألمان مصيبة كبرى!

وبينما كانت المناقشة تدور عن مصيبة سقوط فرنسا، والمصيبة الأكبر وهى عدم وصول عطر «أحبك» الباريسى إلى القاهرة، كانت الأميرة هان زادة تقول لمعروف باشا زوج الأميرة فضيلة:

ـ إن قصركم هذا يشبه قصور الجنة!

ـ قال الباشا: إننى أتصور الجنة رجالا فى ملابس الفراك ونساء فى فساتين السهرة!

ـ وماذا يفعل الملائكة!

ـ يقومون بمهمة الجرسونات!

وضحكت الأميرة هان زادة ضحكة حلوة سمعها أحمد صديق باشا السفير فى وزارة الخارجية، فقال:

ـ كل منا يتصور الجنة فى صورة مختلفة. المسجون يتصورها أرضا بلا أسوار.. الجائع يتصورها مطعما كبيرا.. النساء يتصورنها معرضا للأزياء.. المراهقون يتصورونها صالة رقص.. خصوم الوفد يتصورونها دولة لا يرأسها النحاس باشا! الوفديون يتصورونها دولة يرأسها النحاس باشا.. المفلسون يتصورونها بنوكا تصرف الشيكات بغير رصيد محمد بك محمود خليل يتصورها أى مكان تقيم فيه السيدة سعاد راشد!

ـ وضحك الجالسون حوله.. فقد كانوا يعلمون أن رئيس مجلس الشيوخ السابق وقع فى غرام السيدة سعاد راشد التى كانت تعتبر من أجمل نساء مصر، وتزوجها سرا، على الرغم من أنه يكبرها بأربعين سنة، وأنه تزوجها بغير علم زوجته الفرنسية العجوز!

وسمع محمد محمود بك خليل اسمه من بعيد يردده صديق باشا فقال له:

ـ ماذا تقول عنى يا صديق؟

قال صديق:

ـ كنت أقول إن مجلس الشيوخ فقد قيمته عندما تخليت عن رياسته!

ـ أنا لم أتخل عن الرياسة، الحكومة هى التى طردتنى!

ـ لعلها تصورت أن لا وقت عندك لرياسة مجلس الشيوخ!

ـ ماذا تقصد!.

ـ أقصد .. أقصد.. أنك مشغول فى الشركات التى ترأس مجالس ادارتها !

وضحك الجالسون حول صديق باشا !

وسألت الأميرة فضيلة جارها الأمير محمد ابراهيم هامسة :

ـ ما سر ضحكهم ؟

قال الأمير:

ـ إنهم يتحدثون عن الحب !

ـ وهل الحب مضحك !

ـ إنه يجمع بين قمة المأساة وقمة الكوميديا !

كنت أريد أن أسألك سؤالا شخصيا !

ـ عن الأميرة هان زادة !

ـ لا عن الأميرة صالحة والدتك !

ـ والدتى !

ـ نعم.. إننى سمعت قصتها وأنا معجبة بها !

ـ لقد ماتت قبل أن تولدى !

ـ أعلم ذلك.. ولكنى أعلم أنها داست على لقبها وثروتها من أجل الحب.. أريد أن أسألك : ألم تندم بعد ذلك !

ـ لقد سألتها هذا السؤال.

ـ ماذا قالت؟

ـ قالت إنها كانت تفعل نفس الشيء لو عادت عقارب الساعة إلى الوراء!

ـ على الرغم من أن الملك أبعدك أنت وإخوتك!

ـ قالت لى إن هذا الفراق آلمها ألما قاتلا.. ولكن سعادتها بالرجل الذى أحبته جعلها تتحمل كل عذاب.. قالت لى مرة إن يوما واحدا مع الحب يساوى عمرا من العذاب!

ـ وهل تعتقد أنها كانت تحبك أنت وإخوتك؟

ـ كانت مجنونة بأولادها كانت تكتب لنا خطابا كل يوم لمدة عشر سنوات، ولم تتلق ردا واحدا، لأن الملك كان يمزق خطاباتها لنا. ومع ذلك استمرت تكتب كل يوم خطابا!

ـ ولم يقتلها فراقكم!

ـ قتلها فراقنا، وأحياها حبها للضابط الروسى!

ـ هل رزقت منه بأولاد!

ـ نعم .. رزقت منه بولد اسمه اسماعيل، وقد أطلقت عليه هذا الاسم تيمنا باسم جدها الخديو إسماعيل.

ـ وهل جاء إلى مصر؟

ـ عاش فى أوربا.. وأدخلته أمى الأميرة صالحة جامعة كمبردج فى انجلترا وكانت تتمنى أن تزوجه من أميرة مصرية أو أميرة راها من بنى عثمان. ولم تعجبه أى أميرة راها وبعضهن كانت لا تقل جمالا عن ملكات

الجمال. وكان يقول لأمى : لن أتزوج.. سأعيش طوال حياتى بلا زواج.. لن أتزوج امرأة إلا إذا عشت معها خمس سنوات كاملة، وبعد ذلك اقرر أن أتزوجها أو لا أتزوجها.. وكان الشاب جميلا ورث جمال عينى أمى وتقاطيع وجهها، وقامة أبيه الرائعة.. وكانت كل العرائس المقدمات من صاحبات الملايين، ومع ذلك رفضهن جميعا !

واستطرد الأمير محمد قائلا :

ـ وحدث بعد قيام الثورة الروسية بخمس سنوات أن هربت فتاة روسية وشقيقها إلى لندن

وكانت الفتاة الروسية لا تملك سوى ملابسها، وعملت خياطة فى لندن.. وبينما كانت تسير فى شارع اكسفورد ستريت، رأت سيارة كرايزلر جميلة، يقودها شاب. وخفق قلبها عندما رأت الشاب. شعرت أنه أجمل شاب رأته فى حياتها.. وعادت إلى بيتها وصورة الشاب والسيارة تطاردها كانت تذكر كل صفات الشاب الذى رأته. لون شعره، لون عينيه، شكل ذقنه، وشكل السيارة ورقمها أيضا !

لقد قالت لى إنها لم تجن بالشاب وحده، وإنما جنت بالسيارة أيضا ! بمعنى أن الشاب أصبح جزءا من السيارة، والسيارة جزءا من الشاب ! كأن المرأة لا تحب الرجل وحده، إنما تحبه فى ديكور معين. فلو اختلف المنظر لما أحبت الشاب كل هذا الحب. ولو اختلفت أرضية الصورة، لفقدت الصورة كثيرا من جمالها.. أى أن المرأة لا تحب الرجل وحده، انما تحبه، وتحب ما حوله.. تحبه فى إطار معين، فإذا خرج من هذا الاطار، فقد كثيرا من قيمته !

وفى صباح اليوم التالى كانت الخياطة الروسية الشابة راقدة فى فراشها

تحلم بالشاب الذى رأته فى السيارة الكرايزلر، وتحلم بالسيارة الكرايزلر التى فى داخلها الشاب!

وكان ذلك اليوم يوم عطلة، لا تذهب إلى عملها فى مصنع الخياطة. وسمعت سيارة تقف أمام باب بيتها. وبحركة غير إرادية، وجدت نفسها تقفز من فراشها وتطل من النافذة..

وفتحت فمها من الدهشة. رأت عجبا. رأت أن السيارة التى وقفت أمام بيتها هى نفس السيارة الكرايزلر التى رأتها فى شارع أوكسفورد ستريت. نفس لون السيارة. نفس الرقم الذى حفظته عن ظهر قلب.. والسائق هو نفس الشاب الجميل الذى رأته بالأمس فى شارع اكسفورد ستريت، الذى عاشت صورته فى ذاكرتها، بكل ملامحها وتفاصيلها ودقائقها!

وبغير تفكير أسرعت وخلعت قميص النوم، وارتدت ملابسها، ونزلت تجرى إلى الدور الأرضى.

ولم تجد الشاب الجميل!

وأسرعت إلى باب البيت، وفتحته وخرجت إلى الشارع فلم تجد السيارة الكرايزلر! وشعرت بخيبة أمل لم تشعر بها طوال حياتها.. تصورت أنها كانت تحلم.. تصورت أنها من شدة تعلقها بهذا الشاب تخيلت أنه جاء يطرق بابها!

ورآها شقيقها والدموع فى عينيها... وسألها عما يبكيها، فروت له كل ما حدث وأنها تخشى أن تكون قد جنت.. فقد رأت شابا وسيارة ثم اكتشفت أنه ليس هناك لا شاب ولا سيارة، وإنما كانت تحلم!

وضحك شقيقها وقال لها:

ـ إنك لم تكونى تحلمين!

ـ إذن أين الشاب.. وأين السيارة الكرايزلر؟

ـ لقد جاء الشاب فعلا وقابلنى ولم يبق سوى دقيقة!

ـ وكيف تتركه يذهب!

ـ لم أكن أعلم أنك تحلمين به!

ـ كيف لا يبقى سوى دقيقة؟

ـ إنه طالب فى جامعة كامبردج

ـ هل أنت عرفت اسمه؟ هل عرفت عنوانه!

ـ اسمه اسماعيل ديورك، وهو ابن الأميرة صالحة وضابط روسى صديق لأمنا

ـ يجب أن أراه.

ـ سترينه!

ـ يجب أن أراه فورا!

ـ إنه جاء يقول لى إن والدته الأميرة صالحة تدعونى أنا وأنت لنتناول طعام الغداء معا غدا.

ـ طبعا قبلت الدعوة.

ـ قبلتها..

ـ وهل سيكون إسماعيل هذا موجودا فى الغداء؟

ـ لا أعرف!

ـ كيف لا تعرف؟. هذا مهم جدا! هذا أهم سؤال فى الدنيا!

ـ كل ما أعرفه أن إسماعيل ديورك سيحضر إلى بيتنا غدا، ليوصلنا إلى مأدبة الغداء.

ـ هل سيحضر بسيارته الكرايزلر!

ـ لا أعرف!

ـ اتصل به وقل له يجب أن يحضر بسيارته الكرايزلر! لا أستطيع أن أراه بغير سيارته الكرايزلر!

وفى اليوم الثانى جاء الشاب إسماعيل ديورك إلى بيت الخياطة الروسية.. فى سيارة كرايزلر!

وجلست الخياطة الروسية بجانبه فى المقعد الأمامى. ومنذ تلك اللحظة لم تغادر السيارة الكرايزلر!

فقد أحبها إسماعيل فى اليوم الأول!

وخطبها فى اليوم الثانى!

وتزوجها بعد أسبوع من اللقاء!

وابتسم الأمير محمد على ابراهيم وهو ينهى قصته قائلا:

ـ وهكذا دخل الحب قلب أمى راكبا حصانا.. ودخل قلب ابنها وأخى غير الشقيق، راكبا سيارة كرايزلر!

وتنهدت الأميرة فضيلة وقالت:

ـ هذه أجمل قصة حب سمعتها فى حياتى!

ـ إن الحب خلق حبا!

ـ وهل هما سعيدان حتى اليوم!

ـ لقد مات أخى غير الشقيق إسماعيل وعمره ٤٢ سنة. أصيب بسرطان فى حلقه، ومات بعد ذلك ببضعة أسابيع.. وقابلت أرملته الروسية فى سويسرا منذ شهور.. ورأيت أنها لا تزال جميلة برغم أن زواجها بـإسماعيل دام ٢٢ سنة! وسألتها: ألا تفكرين فى الزواج؟. إنك ما زلت شابة!

قالت لى وهى تبتسم: إن زواجى بإسماعيل لم يدم أكثر من ٢٢ سنة! ولم أشعر إلا أنها ٢٢ يوما.. لقد مات وأنا أظن أننا ما زلنا فى شهر العسل!

قلت لها: لا شك فى أنك تعيسة الآن.

قالت: تعيسة؟ أبدا.. إن اسماعيل غمرنى فى هذه السنين بسعادة تكفينى مائة سنة.. تكفينى أن أكون أسعد امرأة فى العالم إلى آخر يوم فى حياتى!

* * *

وترنحت الأميرة فضيلة وهى تسمع قصة حب أخى الأمير محمد على ابراهيم.

ولاحظ الأمير دمعة تترقرق فى عينى الأميرة، فابتسم وقال.. وكأنه يجفف الدمعة:

ـ وهكذا ترين أن الحب دخل قلب أمى راكبا حصانا، ودخل قلب أخى راكبا سيارة.

قالت الأميرة فضيلة:

ـ وأنت .. كيف دخل الحب قلبك؟

قال الأمير بصوت مشجون بالعاطفة :

ـ دخل الحب قلبى راكبا سفينة !

ـ سفينة حربية !

ـ لا.. سفينة ركاب ! كنت عائدا من أوربا على ظهر الباخرة أسبريا، عندما رأيت هان زادة مع والدها الأمير عمر الفاروق ولى عهد سلطان تركيا المخلوع ! ماكدت أراها حتى أحسست كان عاصفة هوجاء تقتلعنى ! جمال المرأة يكون هادئا كالنسيم أو ساخنا كالرياح الخماسينية أو باردا كتيارات الهواء فى القطب الشمالى. ولكن جمال هان زادة كان أشبه بعاصفة اقتلعتنى من مكانى ! واحببتها فى الصباح، وخطبتها فى العصر، واتفقنا على موعد الزواج فى المساء !

كانت الأميرة فضيلة تتمايل وهى تسمع قصص الحب التى يرويها الأمير محمد ابراهيم. وكانت تسمع هذه القصص وهى تأكل بعينيها الضابط الانجليزى جاك ستيوارت. تتخيله هو بطل كل قصة، وتتخيل نفسها بطلة كل قصة ! كأنه هو يركب الحصان ويركب السيارة ويركب السفينة ويدخل قلبها !

وسمعت الأميرة فضيلة الضابط جاك ستيوارت يقول :

ـ لقد قرأت فى جريدة «التايمز» أن فساتين السهرة ستختفى بانتهاء الحرب !

وتوقفت جميع السيدات عن الحديث. حدثت وقفة رهيبة. صمت كل شىء فجأة. تجمدت الشوك والسكاكين فى أيدى السيدات. بلغ من عمق السكون وشدة وقع التصريح الخطير أن كان فى فم الكونتس منشة قطعة من اللحم

توقفت عن مضغها. وقطعت الأنسة موصيرى حديثها عن أسعار الاسهم بعد الحرب، ولم تتم الأميرة هان زادة الجملة التى كانت تتحدث فيها مع معروف باشا عن مظالم الغازى مصطفى كمال اتاتورك مع امرأة بنى عثمان، وكيف طردهم من تركيا بالملابس التى يرتدونها فقط!

وصمت الرجال احتراما لذهول السيدات عندما سمعن الخبر الصاعق عن أختفاء فساتين السهرة وقطعت الاميرة فضيلة الصمت بقولها:

ـ إننى لا أتصور الحياة بغير فساتين سهرة:

قالت الأميرة هان زادة!

ـ إن فساتين السهرة دليل المدنية والحضارة.. ومعنى الغائها أن يكون عالم بعد الحرب بلا مدنية ولا حضارة!

قال محمد محمود خليل بك باسما:

ـ لا أظن أن فستان السهرة سيختفى.. ستحل مكانه ورقة التوت التى كانت تضعها أمنا حواء!

فال أحمد صديق باشا، وابتسامته تطل من خلف نظارته:

ـ إنها خسارة كبرى! أن ثوب السهرة هو الذى يظهر فى المساء ما يتمنى أن يراه الرجل فى الصباح!

قالت الأميرة هان زادة!

ـ تصوروا هذه السهرة الجميلة بغير فساتين السهرة التى ترتديها النساء.. كانت السهرة ستفقد ثلاثة أرباع جمالها!

قالت الآنسة موصيرى وهى تنظر إلى فستان السهرة المزركش الذى ترتديه :

ـ بل كانت تفقد كل جمالها ! قال صديق باشا فى ابتسامة خبيثة :

ـ أن فستان السهرة هو الثوب الذى ترتديه المرأة فى أول الليل بصعوبة.. وتخلعه فى اخر الليل.. بسهولة !

وضحك الرجال.. وابتسمت النساء.. وقالت الأميرة فضيلة مداعبة صديق باشا :

ـ يظهر يا باشا أنك متخصص فى خلع ملابس النساء !

قال صديق باشا :

ـ إن مهارة زئر النساء تتوقف على السرعة التى يستطيع أن يجرد المرأة من ملابسها !

المفروض فى زئر النساء أن يدرس الأمكنة التى فيها الزراير والمشابك وهى عملية أشبه بعملية النشل تحتاج إلى مهارة فائقة وخفة يد. وكما يستطيع النشال فى لحظة أن يضع يده فى جيب الضحية وينتزع محفظة نقودة دون أن يشعر فمهارة زئر النساء أن يخرج المرأة من داخل ملابسها دون أن تشعر.. فكثير من النساء يغيرن رأيهن أثناء خلع ملابسهن !

قال جاك ستيوارت :

ـ أعرف صديقا لى يستطيع أن يجرد المرأة من ثيابها وهو يصافحها عند باب الشقة !

قالت مدام اسبر نجاى، وهى غانية يهودية، يعشقها خال الملكة وتدعى

إلى المأدب بهذه الصفة :

ـ أعطنى عنوان هذا الشاب :

ضحك صديق باشا واشار إلى جاك وهو يقول :

ـ إن عنوانه فى هذه الغرفة !

واحمر وجه جاك ستيوارت !، واحنى رأسه إلى الأرض.. وتصور الجالسون أنها علامة الخجل والتواضع. ولكنه كان يتعذب فى أعماقه. إنه حقيقة كان خبيرا فى خلع ملابس النساء.. ولكن ما الفائدة ! لن يستطيع أن يزاول هذه الخبرة الا بعد أن يجرى الجراحة المطلوبة فى مستشفى مايو كلينيك.

واهتزت الأميرة فضيلة وتصورت نفسها بين يدى جاك، وهو يمارس هوايته المحببة. أنها ليست فى حاجة إلى هذه الهواية.

وعادت تأكله بعينيها ! إن الحب لم يدخل قلبها راكبا حصانا أو سيارة أو سفينة ! أنه دخل راكبا سلاح الفرسان البريطانى وسلاح النقل والبحرية البريطانية كلها !

وتمنت أن ينصرف المدعوون جميعا، ويأخذوا معهم زوجها، ولا يبقى فى القصر الا جاك ستيوارت !

واستمر العشاء، وأحست الأميرة فضيلة بأنه مضى متثاقلا بطيئا، كانت تشعر بضيق لأن بينها وبين جاك عدة مقاعد. لعنت البروتوكول الذى جعلها تضطر أن تجلس الأمير محمد على ابراهيم عن يمينها والمليونير محمد سلطان عن يسارها. وأحست بان بروتوكول قلبها يختلف عن بروتوكول القصر. بروتوكولها يجعل جاك قريبا منها، قريبا جدا، فى داخلها، فى

أعماقها.. وبدأت تشعر أن جاريها ثقيلان، وأن المدعوين والمدعوات ثقلاء.. إنهم يأكلون ببطء شديد، لماذا لا يلتهمون الطعام بسرعة؟ واتهمت السفرجية بأنهم يمشون حاملين الاطباق بسرعة السلحفاة. لماذا لا يسرعون ياناس؟

وانتهى العشاء أخيرا..

وقام المدعوون والمدعوات إلى الصالون الذى تحول إلى صالة رقص.

ودعا الامير محمد على ابراهيم الأميرة فضيلة للرقص فرقصت معه على مضض.

ثم دعاها أحمد صديق باشا للرقص فرقصت معه. أنه راقص رائع على الرغم من أنه بساق واحدة! لقد قطعت ساقه، ووضعت بدلا منها ساق صناعية، ومع ذلك فهو يتحرك ويقفز كأنه بساقين! ومع أن الرقص مع صديق باشا متعة حقيقية كانت تحرص عليها، الا أنها فى هذه المرة أحست بأنها تريد أن تنتهى الرقصة بأسرع ما يمكن. كانت طوال الوقت تتابع جاك، وهو يرقص مع الكونتس منشة، ثم مع الأنسة موصيرى، ومع أنهما فى السبعين من عمرهما الاأنها أحست بغيرة شديدة، فقد تمنت الا يلمس امرأة سواها!

وانتهت الرقصة، ودعاها صديق باشا لترقص الرقصة التالية معه، فاعتذرت بأنها وعدت الملازم جاك ستيوارت بالرقصة التالية.. واتجهت إليه فوجدته قد قام ليرقص مع مدام اسبرنجاى!

وأحست بالغيرة تأكلها. كرهتها كما لم تكرهها. وكرهت معها خال الملك الذى يعشقها!

ولم تبال بالأصول المرعية فى الرقص، فاتجهت اليهما، وقطعت عليهما الرقصة وهى تقول لمدام اسبرنجاى:

ـ إن أمنية زوجى أن يرقص معك!

قالت المدام:

ـ إننى مستعدة أن أرقص معه الرقصة التالية.

ـ أنه مصر على هذه الرقصة!

ـ ولكنى وعدت جاك بها:

سوف أحل مكانك اذا لم يعترض جاك!

وقال جاك: كيف اعترض! إنه لشرف لى يا صاحبة السمو!

وتعلقت الأميرة فضيلة بكتف جاك وبدأت ترقص معه، بينما وقفت مدام اسبرنجاى مدهوشة من تصرف الأميرة العجيب!

وراحت تبحث بعينها عن معروف باشا الذى يتمنى أن يرقص معها فلم تجده، ومشت تبحث عنه.. ووجدته يلعب البوكر مع بعض الامراء والنبلاء!

وعندما رآها معروف باشا لم يتحرك من مقعده، ومضى فى اللعب.. واقتربت مدام اسبرنجاى منه وقالت له:

ـ قالت لى الأميرة أنك تريد أن ترقص معى هذه الرقصة!

ـ أنا؟.. أنا لم أقل ذلك

ـ لقد قالت لى أن زوجى يتمنى أن يرقص معك!

ـ لابد أنها تزوجت رجلا أخر من وراء ظهرى!

ولم تضحك مدام اسبرنجاى للدعابة، وجزت على اسنانها، وفهمت أن الأميرة خطفت منها الضابط الوسيم!

* * *

مالت الأميرة فضيلة برأسها على كتف الملازم جاك ستيورات، وهى ترقص معه رقصة التانجو، وقالت.

ـ لماذا لم تنشلنى؟

ـ كيف انشلك؟

ـ فهمت من الحديث بينك وبين صديق باشا أنك أمهر نشال فى العالم.. أى من الذين ينتزعون بسرعة المرأة من داخل ملابسها!

ـ كانت هذه هوايتى إلى أن قطعت الحرب يدى!

ـ أن يديك اجمل يدين رأيتهما فى حياتى!

ـ ولكنهما فقدتا الدافع إلى النشل!

ـ ماذا تقصد؟

ـ ألم يخبرك صديقك عادل علاء الدين؟

ـ قال لى إنك شاب ممتاز!

ـ إنه رجل جنتلمان فعلا لأنه كتم سرى!

ـ ماهو سرك؟

ـ شىء لا يقال!

ـ كنت اتصور اننى المرأة الوحيدة التى تقول لها ما لايجوز أن يقال لغيرها.

ـ أخشى أن تصابى بخيبة أمل!

ـ مادمت بين ذراعيك فلن يخيب أملى!

ـ هذه هى المأساة!

ـ أنت رجل غامض!

ـ أننى أخفى عورتى!

ـ عورة العاشق أجمل ماتراه المرأة التى تحبه.. إنها رأسماله!

ـ مأساتى أن لغما نسف رأسمالى

ـ أنت تمزح!

ـ إننى أقول الحقيقة!

ـ كيف خدعتنى؟ كيف أخفيت عنى هذا؟ لقد تركتنى أحبك.. تركتنى أقرر الطلاق من زوجى.. تركتنى أقرر الزواج منك.. لماذا لم تقل لى إنك شيك بغير رصيد؟

ـ لم تسألينى ياسيدتى

ـ أنت رجل نصاب! كاذب! مخادع! حقير! سافل!

وتخلصت الأميرة من ذراعيه، وتركت حلبة الرقص، والملازم جاك يقف فى مكانه متسمرا، وقد ازداد وجهه احمرارا..

وأسرعت الأميرة إلى السلم، وصعدت درجاته بسرعة، ودخلت غرفة نومها

وأرتمت على فراشها تبكى وتنتحب!

وأحست كأنها سقطت فى هاوية سحيقة، قلبها تحول إلى بركان يقذف الحمم. ودموعها نار سائلة تحرق خديها. أحست بأنها سقطت فجأة من سماء أحلامها إلى الحضيض.. حضيض ملىء بصخر مذاب، ! بحمم، بلهب وشواظ!

ولا يمكن! مستحيل! كيف يتحول رجلها فى لحظة واحدة إلى هباء الرجل الذى ارادت أن تضحى من أجله بلقبها وثروتها وابنها وزوجها وبكل شىء.. ليس رجلا!

وسقط الكحل من عينيها والبودرة من وجهها، والاحمر من شفتيها، وامتزجت كل هذه الالوان وجعلت وجهها يبدو مسخا! اختفى فجأة كل ما فيه من جمال وشباب وحيوية

ومضت فى بكائها ونشيجها.. ومضت ساعات وهى لا تكف عن البكاء. وفتح زوجها معروف باشا باب غرفتها وهو يقول:

ـ الضيوف ينتظرون ليودعوك قبل انصرافهم.

ولم ترد عليه، ورفعت وجهها، فذهل معروف باشا عندما رأى زوجته الجميلة وقد تحولت إلى شبح!

وقال فى لهفة: ماذا حدث؟

ولم ترد عليه وانما دفنت رأسها فى وسادتها وراحت تبكى من جديد!

قال معروف باشا، فى صوت متهدج:

ـ ماذا أقول للضيوف يا حبيبتى!

ـ قل لهم.. قل لهم إننى مت !

وهز معروف باشا رأسه فى عجب، وأغلق باب غرفة نوم الأميرة فى هدوء، وهو يردد :

ـ ماتت؟ كيف؟ كيف ماتت زوجتى وأنا ـ عادة ـ أول من يعلم؟!

الفصل الواحد والأربعون

نظر محمد على علوبة باشا المحامى، إلى قسمت فى عطف، وقال لها:

ـ هذا الاعتراف لن يخرج عم عبده من السجن!

وخلا وجه قسمت من التعبير. لم تعبر عن مشاعر خيبة الأمل. بقى وجهها جامدا، كأنها وضعت فوقه قناعا من الثلج.

ومضى علوبة باشا يقول:

ـ اعترافك أمام المحكمة بأنك كاتبة المنشور، وأن عم عبده لا يعرف عنه شيئا، لن يخرج عم عبده من السجن، سوف يدخلك أنت إلى السجن.. وبدلا من أن يكون فى القضية متهم واحد، يصبح فيها متهمان.

ـ هل هذا هو رأيك؟

ـ إنه رأى القانون!

ـ وما هو الحل؟

ـ أن تأتينى بإثبات أن الراقصة نشوى كاذبة، أو أن تحضرى دليلا على العلاقة بين الراقصة نشوى والصاغ عبد الفتاح الشبهاوى الضابط بالقلم السياسى.

ـ أى دليل تريد ؟

ـ صورة فوتوغرافية تجمعهما مثلا..

ولم تنبس قسمت ببنت شفة، وانصرفت من مكتب علوية باشا صامتة، وركبت سيارتها، وذهبت إلى «دار الهلال»، وقابلت المصور محمد يوسف كبير مصورى «دار الهلال». وكانت تعرفه لأنه قام بتصوير كل الحفلات الخيرية التى أقامتها جمعية ملجأ المتسولين، وكانت صوره تنبض بالحياة والجمال.

وكانت تعرف أن أبرز صفات محمد يوسف الأمانة والكتمان والايمان برسالة الصحفى.. فروت له القصة كاملة، وطلبت إليه أن يلتقط صورة للصاغ الشبهاوى مع الراقصة نشوى، وقالت له إن هذه الصورة ممكن أن تنقذ بريئا من الاعدام.

وتحمس محمد يوسف، وقال إنه مستعد أن يخصص كل أوقات فراغه من العمل لهذه المهمة الخطيرة.

وفى كل يوم كانت قسمت تمر على محمد يوسف، وتصحبه معها فى سيارتها، وتتجه السيارة إلى الشارع الذى تقيم فيه الراقصة نشوى..

وتقف السيارة بعيدا عن العمارة، ويمضيان الوقت يرقبان باب العمارة لرؤية الضابط الشبهاوى أثناء دخوله وخروجه!

وتكررت المحاولات دون جدوى!

لم يحدث مرة واحدة أن دخل الشبهاوى إلى بيت الراقصة!

وقال لها محمد يوسف إن الطريقة الوحيدة، هى الاتصال بخادمة

الراقصة ومعرفة مواعيد تردد ضابط القسم السياسى..

وفشلت محاولات محمد يوسف مع اعتدال خادمة الراقصة وكاتمة أسرارها !

كانت اعتدال امرأة حريصة، مستعدة أن تمكث الساعات الطويلة تشيد بالراقصة نشوى وحسن أخلاقها، وتقسم أغلظ الأيمانات بأنها تؤدى فروض الصلاة فى مواعيدها، وتقسم بجميع الأنبياء والأولياء أنها ليس لها عشاق.. ولم تكن مستعدة أبدا أن تقول كلمة واحدة عن حياة الراقصة الخاصة.

والتقط محمد يوسف صور العشاق الكثيرين الذين أقسمت اعتدال أنه لا وجود لهم إلا فى مخيلة أولاد الحرام!

ولكنه لم يستطع أن يلتقط صورة واحدة للصاغ عبد الفتاح الشبهاوى!

وأحست قسمت بأن الشبهاوى ليس سهلا.. وأنه حرص على ألا يتردد على بيت الراقصة، بعد أن تحدد موعد محاكمة عم عبده أمام محكمة الجنايات..

ويئست قسمت، وأرادت أن تنصرف..

وقال لها محمد يوسف:

ـ فلننتظر ساعة أخرى.. إن عملى يبدأ بعد ساعة..

وبقى الاثنان فى السيارة يرقبان باب عمارة الراقصة.

وفجأة صرخت قسمت:

ـ غير معقول!

وقفز محمد يوسف من السيارة والتقط عدة صور للشاب الذى كان يدخل العمارة!

وعاد محمد يوسف إليها وفى عينيه فرحة الانتصار وهو يقول:

ـ لقد التقطت له ١٢ صورة!

ـ إنه ليس هو!

ـ ليس الصاغ عبد الفتاح الشبهاوى؟

ـ لا إنه رجل آخر!

ـ ولكنى رأيتك تضطربين عندما رأيته متجها إلى العمارة. فتأكدت على الفور أنه الصاغ الشبهاوى!

ـ إنه ليس هو!

ـ من هو إذن؟

ـ هو.. هو المهندس عادل علاء الدين مدير شركة الهندسة الكهربائية!

ـ ولماذا اضطربت كل هذا الاضطراب؟

ـ لأنه الرجل الذى أحبه!

ـ خشيت أن يراك معى؟

ـ لا.. إنه لم يخبرنى أنه سيذهب ويقابل الراقصة نشوى!

ـ لعله يحاول أن يقنعها بالعدول عن الاعتراف.

ـ لو كان هذا غرضه لأخبرنى!

ـ ما هو غرضه إذن؟

ـ كان عشيقها فى يوم من الأيام!

ولاحظ محمد يوسف أن قسمت تبكى فقال لها مهدئا:

ـ لماذا تتصورين أن هذا موعد غرام؟ لماذا لا يكون موعد عمل؟

ـ إن موعد العمل لا يخفيه الرجل عن المرأة التى يحبها.. لقد كان معى أمس ولم يقل شيئا!

ـ ربما كان موعدا مفاجئا!

ـ إن قلبى يقول لى إن هذا موعد غرام!

ـ قلوب النساء مثل قلوب الطغاة، تصدر أحكامها وتشنق المتهم، وبعد ذلك تسمع دفاعه!

ـ لقد توسلت إليه ألا يذهب إليها ووعدنى ألا يذهب!

ـ وماذا تريدين أن نفعل الآن؟

ـ ندخل عليهما فى الشقة!

ـ ماذا نقول؟

ـ تقول إن مجلة «الاثنين» أرسلتك لتصور الراقصة نشوى!

ـ ولكن تصوير الراقصات ليس من اختصاصى!

ـ أرجوك أن تذهب إلى الشقة!

ـ وحدى؟

ـ سأجيء معك!

ـ بأى صفة؟

ـ تقول أننى صديقتك!

ـ ولكن عادل علاء الدين يعرف أنك صديقته هو!

ـ صديقته سابقا!

ـ وما هى علاقة ذهابنا إلى الشقة بمسألة قضية عم عبده!

ـ هذه المسألة أهم من قضية عم بعده!

ـ لقد جئت معك لنضبط قضية سياسية.. ولكن هذه قضية غرامية!

ـ أرجوك أن تجيء معى إلى الشقة!

* * *

واستسلم محمد يوسف لدموع قسمت، وصعد معها ألى الطابق الذى تسكن فيه الراقصة.. وتقدم محمد إلى الباب، واختفت قسمت بجوار الحائط.

وضغط محمد يوسف على الجرس.

ولم يجئ أحد لفتح الباب..

وعاد محمد يضغط الجرس من جديد.

وجاءت الخادمة اعتدال وفتحت الباب.

وقال لها محمد يوسف:

ـ أنا محمد يوسف مصور «دار الهلال» جئت أصور الآنسة نشوى لمجلة «الاثنين»!

ـ أهلا وسهلا! أنا أعرفك جيدا!

ـ أرجو أن تبلغى الآنسة نشوى أننى هنا.

قالت اعتدال فى هدوء غريب:

ـ الست ليست هنا!

ـ متى ستجىء؟

ـ لن تجىء الليلة!

ـ أين هى؟

ـ فى صالة بديعة!

ـ هل تسمحين لى بأن أدخل لأتكلم مع «دار الهلال» تليفونيا!

ـ التليفون معطل!

وأقفلت اعتدال باب الشقة قبل أن يقول محمد يوسف كلمة أخرى! والتفت محمد يوسف إلى قسمت وقال لها:

ـ إن نشوى غير موجودة!

ـ أنا واثقة أنها هنا!

ـ يبدو على الخادمة أنها صادقة.

ـ لو رأيتها وهى تحدث الزبائن لعرفت أنها أستاذة فى الكذب!

ـ إذن ماذا تريدين أن تفعلى؟

ـ أريد أن أصرخ!

ـ تصرخين؟

ـ أصرخ وأفضحه وأفضحها!

ـ إننى لا أحب أن أحضر هذه الفضائح!

ـ هل أنت خائف؟

ـ لست خائفا على نفسى.. أنا خائف عليك!

ـ أنا لا يهمنى أى شىء!

ـ ولكن أنا يهمنى عم عبده الذى حدثتنى عنه!

ـ أنا امرأة أولا!

ـ إننى جئت معك باعتبارك بطلة!

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ عائد إلى عملى!

ـ وتتركنى وحدى؟

ـ أترك المرأة... لأن موعدى كان مع البطلة!

ويدأ محمد يوسف يهبط السلم، وأسرعت قسمت تعدو خلفه وهى تقول:

ـ سأجىء معك!

ـ كامرأة.. أم كبطلة؟

وأجابت يائسة:

ـ لا بطلة ولا امرأة.. إنما جثة!!!

* * *

حمل عادل علاء الدين الراقصة نشوى فوق يديه ووضعها فى فراشها وهو يقول:

ـ تجربتى مع الغانية أنها وهى مع الرجل الذى تحبه تكون أكثر استعدادا للاقتناع، مما لو كانت بعيدة عنه!

ـ ليست المرأة وحدها! إن رأس الرجل فوق كتفيه يكون أصلب ألف مرة، مما لو كان مع المرأة التى يحبها!

ـ إذن سوف نصل إلى تفاهم!

ـ لقد وصلنا إلى تفاهم من وقت طويل!

ـ طبعا..

ـ وهجرتنى!

ـ كنت مشغولا!

ـ بالآنسة قسمت؟

ـ لا.. بأعمال الشركة!

ـ وما الذى أعادك إلى؟

ـ شوقى!

ـ شوقك.. أم عم عبده؟

ـ الاثنان معا!

ـ أيهما سبق الآخر!؟

ـ اتخذت من حكاية عم عبده مبررا للعودة إليك!

ـ يالك من كذاب !

ـ هل شعرت أن قبلاتى كاذبة ؟

ـ الغريب فيكم أيها الرجال أن قبلاتكم صادقة وقلوبكم كاذبة !

ـ لم أكن أعرف أنك رجل !

ـ هل كذبت عليك مرة واحدة يا عادل؟

ـ لم تكذبى مرة واحدة... كذبت ألف مرة !

ـ ألم أعدك بأن أقطع علاقتى مع الضابط الشبهاوى؟

ـ حدث..

ـ وحافظت على عهدى، لم أره مرة واحدة بعد ذلك !

ـ كيف أصدقك؟

ـ أعطيتك مفتاح شقتى لتدخل فى أى وقت تشاء.

ـ تستطيعين أن تقابليه خارج الشقة !

ـ يمكنك أن تراقبنى !

ـ أتتصورين أننى أترك أعمالى، لكى أتتبع خطواتك فى كل مكان تذهبين إليه ؟

ـ عندك البوليس السرى !

ـ لا ثقة لى بالبوليس السرى !

ـ لا أعرف كيف أجعلك تثق بى.

ـ قولى الحقيقة فى محكمة الجنايات !

ـ أنت تعرف أنهم سيقطعون رقبتى !

ـ لقد قلت لك إننى سأقف بجانبك إلى الأبد !

ـ وما هو الضمان؟

ـ كلمة الشرف !

ـ كلمة الشرف المنطوقة تعيش دقيقة.. وكلمة الشرف المـكتوبة تعيش العمر كله !

ـ مستعد أن أكتب لك ورقة أضمن بها دخلك من صالة بديعة لمدة عشر سنوات !

ـ قلت لك لا أريد ضمانات مالية !

ـ ماذا تريدين؟

ـ قطعة من الورق !

ـ بنكنوت؟

ـ أغلى من البنكنوت !

ـ كمبيالة.؟

ـ لا، وثيقة زواج !

ـ قلت لك إننى لا أستطيع أن أتزوج ! إننى مستعد أن أعطيك كل شىء ما عدا هذه الورقة !

ـ لا أريد سوى هذه الورقة !

ـ أنا قررت أن أعيش أعزب طول حياتى !

ـ لأنك لا تحبنى !

ـ قلت لك ألف مرة إننى أحبك ! إننى سوف أجعلك المرأة الـوحيدة فى حياتى.. سوف أوفر لك كل ما تحتاجين إليه.

ـ وقلت لك إننى لا أريد كل هذا ! كل ما أريده ورقة !

ـ أنت تعلمين جيدا أننى لا أستطيع أن أتزوج من راقصة!

ـ لأنك تحتقرنى؟

ـ لأنك عشت حياة ليست فوق الشبهات!

ـ أتخاف على سمعتك من كلام الناس؟

ـ نعم أخاف على سمعتى.. ولو كنت تحبيننى حقيقة لخفت أنت أيضا على سمعتى!

ـ إذن تزوجنى زواجا عرفيا!

ـ إن لدى الشجاعة أن أعلن ما أوقع عليه!

ـ إذا كنت تريد أن أشهد فى المحكمة وأقول الحقيقة فتزوجنى أولا!

ـ لو كنت أريد أن أخدعك فإننى أستطيع أن أتزوجك قبل الجلسة، ثم أطلقك بعد أن تدلين بشهادتك!

ـ أنا مستعدة أن أتزوجك لمدة ٢٤ ساعة فقط!

ـ إذن فالمسألة ليست حبا!

ـ حب.. وكرامة!

ـ لا كرامة فى الحب!

ـ لعلك تستنكر على امرأة مثلى أن يكون لها كرامة!

ـ المرأة التى لها كرامة لا تشترط أن تتزوج لتقول الحقيقة!

ـ المرأة التى تحب تفعل كل شىء من أجل أن تحصل على الرجل الذى

تحبه ! ترتكب أى جريمة من أجل هذا الرجل !

ـ ولكن الجريمة التى ترتكبينها ليست من أجلى ! إنما من أجل الضابط الشبهاوى الذى تقولين إنك قطعت علاقتك به !

ـ إننى مستعدة أن أفعل أى شىء لو تزوجتنى !

ـ كأن زواجك منى وحده هو الذى سيجعلك امرأة فاضلة !

ـ لو تزوجتك لأصبحت امرأة أخرى !

ـ الزواج لا يخلق المرأة ولكن الحب هو الذى يخلقها !

ـ أنت تعلم أننى أحبك !

ـ الحب لا يعرف المساومات، أنت تريدين أن تعقدى صفقة لا أن تعقدى قرانا !

ـ أليس من حقى أن أدافع عن حبى؟

ـ الدفاع عن الحب شىء، وشنق رجل برىء شىء آخر !

ـ لا يهمنى أن أقتل ألف رجل لأحصل عليك !

ـ أنت تخيفيننى ! إن حياة الكباريهات، أثرت على تفكيرك ! من كثرة ما ذبحت من الرجال فى الصالة لم تعودى تأبهين بحياة رجل برىء ! رؤوس الرجال فى نظرك أصبحت كرؤوس زجاجات الويسكى والشامبانيا التى تفتحينها كل ليلة ! قسوتك هذه تجعلنى أبتعد عنك. ماذا يضمن لى فى المستقبل أنك لا تفعلين بى ما فعلته بعم عبده وتلفقين قضية ضدى؟

ـ إننى لم ألفق هذه القضية.. الحكومة هى التى لفقتها..

ـ وأنت شريكة فى التلفيق !

ـ إننى أنفذ أوامر الحكومة !

ـ قد تطلب منك الحكومة أن تلفقى قضية ضدى !

ـ لا يمكن أن أفعل ذلك مع رجل أحبه!

ـ وهل كنت تكرهين عم عبده؟

ـ لم أكن أعرف أنه هو!

ـ وماذا فعلت بعد أن عرفت أنه هو؟

ـ عرفت متأخرة.. بعد أن كنت أدليت بأقوالى فى النيابة!

ـ لم يفت الوقت لتقولى الحقيقة!

ـ قلت لك إننى أحتاج لحماية لأقول الحقيقة! قلت لك أننى سوف أفقد عملى كراقصة إذا قلت الحقيقة... قلت لك أننى سأفقد دخلا كبيرا إذا قلت الحقيقة.. قلت لك إننى مستعدة أن أضحى بكل هذا إذا تزوجتنى!

ـ إنك لتفعلين بى ما فعلته بعم عبده!

ـ إن هذه القضية هى رأس مالى..

ـ إنه أحقر رأس مال رأيته فى حياتى.

ـ هذا هو كل ما أملكه!

ـ ما أغربك من امرأة! منذ أيام كنت بين ذراعى تقولين لى: أنا جاريتك افعل بى ما تشاء! أؤمرنى فأفعل من أجلك ما تريد! والآن تشترطين الشروط!

ـ إننى متمسكة بشروطى.. رجل فى مقابل رجل!

* * *

وانتفض عادل غاضبا.. وسمع ضوضاء خارج الغرفة.. مشادة عنيفة لم يتبين أمرها.. ثم سمع دقا متواصلا على الباب.

وأسرع يفتح الباب.

ورأى اعتدال تقول فى صوت مضطرب:

ـ إن سيدة اقتحمت باب الشقة.. وهى مصرة على الدخول!
وقفزت نشوى من الفراش وهى تقول:
ـ سيدة؟ من هى هذه السيدة؟
ـ لم أرها قبل الآن!
ـ اطلبى إليها أن تنتظر فى الصالون، وإذا رفضت.. فاطرديها!
واندفعت السيدة المجهولة إلى داخل غرفة النوم، وقالت:
ـ إنها لا تستطيع أن تطردنى.. يا شلبية!
وتراجعت الراقصة نشوى إلى الخلف وقالت:
ـ ست أميرة!

ـ نعم ست أميرة.. ألم تقولى أن أمنية حياتك أن أراك مع شقيقى عادل علاء الدين هأنا جئت لأحقق لك أمنية حياتك، وأراك مع شقيقى فى غرفة واحدة!

ـ أنا لم أقل هذا!

ـ أنت كاذبة! وقد قلت هذا لقسمت شاهين.. وقالته لعادل.. وعادل قاله لى!

وقالت نشوى بصوت مرتعش:
ـ تفضلى يا ست أميرة اجلسى!
ـ إننى لم أجىء للزيارة.. جئت أسألك أمام عادل أسئلة محددة!
ـ أنا تحت أمرك!

تضاءلت الراقصة الكبيرة فجأة أمام أميرة.. عادت فجأة الخادمة شلبية الوحش فى مواجهة سيدتها! وعجب عادل وهو يرى نشوى التى كانت تتكلم معه من دقائق وكأنها ملكة جالسة فوق عرشها، تنكمش وتنكمش، وتقف ذليلة صاغرة أمام أميرة!

لقد كانت شقيقته أميرة على حق عندما قالت له هذا صباح اليوم إنها تستطيع إذا واجهت نشوى أن تضعها فى مكانها ! لم يصدق عادل شقيقته أميرة، وهى تدبر معه هذه المواجهة.. ولكنه الآن يرى صورة لم يتخيلها !

كانت نشوى ترتعش، ترتجف، تسند ظهرها إلى حائط الجدار، تسند يدها إلى الكوميدينو وكأنها تخشى أن تسقط على الأرض من هول المفاجأة.. كانت فى وجهها صفرة تشبه صفرة الموت.. كأنها ترى فى يد الست أميرة «يد هاون» سحرية سوف تضربها بها !

ومضت أميرة تقول فى صوت حازم:

ــ أنت قلت إننى ضربتك بيد الهاون !

ــ نعم !

ــ ألم تقولى لماذا ضربتك بيد الهاون ؟!

ــ لم يسألنى أحد !

ــ والآن.. أنا أسألك هذا السؤال !؟

ــ ضربتنى لأننى أخطأت !

ــ لم يكن خطأ ! إنما جريمة ! ألم يحدث أننى ضبطتك مرة بين ذراعى كامل السفرجى الذى يعمل فى بيت الجيران ؟

ــ نعم..

ــ هل ضربتك يومها بيد الهوان !

ــ لا.. شتمتنى.. ووبختنى.. ثم سامحتنى !

ــ وألم يحدث بعد ذلك أن رأيت شاكر المكوجى يقبلك أمام باب الشقة ؟

ــ نعم..

ــ هل ضربتك بيد الهاون ؟

ـ لا.. اكتفيت بطرد المكوجى ومنعه من الحضور إلى البيت!

ـ ثم حدث أن أكتشفت سرقة سوار من الماس من دولابى وأبلغت البوليس . وشهدت أنت أمام البوليس أنك رأيت الأسطى طه الطاهى يدخل غرفة نومى ويسرق السوار. وقبض البولس على الاسطى طه وأودع السجن.. وبعد ذلك اكتشفت السوار المسروق فى غرفتك، وقد أخفيته فى ملابسك.. وبكيت وارتميت تحت قدمى تتوسلين إلى ألا أبلغ البوليس بأمرك.. واعترفت أنك اختلقت هذه القصة وشهدت أمام الشرطة كذبا لأن الأسطى طه رفض أن يتزوجك، وأنك أردت الانتقام منه بسرقة سوارى ولهذا لفقت هذه القصة.. واكتفيت بأن أبلغت الشرطة أننى وجدت السوار عندى فأفرجت الشرطة عن الأسطى طه وقبض عليك البوليس وأراد أن يقدمك بتهمة البلاغ الكاذب، وتدخلت حتى أفرج عنك قسم عابدين.. هل حدث هذا أو لم يحدث؟!

ـ نعم حدث!

ـ وهل ضربتك بيد الهاون على فخذك؟

ـ لا.. دفعتنى بيد الهاون فى ظهرى!

ـ ليس فى فخذك!

ـ لا فى ظهرى فقط!

ـ والعلامات السوداء التى كانت فى فخذك؟!

ـ كانت آثار عضة من شاكر المكوجى!

ـ إننى جئت أقول لك كلمة واحدة... إذا شهدت كذبا فى محكمة الجنايات ضد عم عبده فسأقوم أنا فى محكمة الجنايات وأروى القصة كلها، وسأقول إنها ليست المرة الأولى التى تشهدين فيها شهادة الزور.. وسوف يصحبنى إلى المحكمة الأسطى طه وشاكر المكوجى وكامل السفرجى

ليقولوا أمام المحكمة ما يعرفون عنك! سوف تقولين إنهم يشهدون عن خادمة اسمها شلبية الوحش وأنك الراقصة نشوى! إنك عندما خرجت من بيتى نسيت عندى رخصتك كخادمة وفيها صورتك واسمك واسم أبيك، وتاريخ مولدك وبصماتك.

ويومها سيعرف المعجبون بالراقصة نشوى أنها ليست ابنة عبده باشا كما تقول الصحف، وإنما هى فتاة قذرة، لصة، ملفقة!

* * *

ثم خرجت أميرة من الغرفة، وهى تجذب شقيقها عادل أمامها.

وسقطت نشوى على الأرض تبكى وتنتحب وتخفى وجهها بيديها.

وذاب الكحل من عينيها، والأحمر عن شفتيها، والبودرة عن وجهها.. ولم يبق منها إلا الخادمة شلبية الوحش!

الفصل الثانى والأربعون

دخلت قسمت إلى قاعة محكمة الجنايات. لمحها عادل وهى تجتاز باب القاعة. أسرع يتخلى لها عن مقعده فى الصف الأول من مقاعد المحامين إلى يمين منصة القضاء.

وتجاهلت قسمت دعوته، واتجهت إلى الصف الأول من مقاعد المحامين على يسار المنصة، واختارت لنفسها مقعدا ملاصقا لقفص الاتهام.

وعاد عادل إلى مقعده بجوار علوبة باشا المحامى، وعقد ذراعيه على صدره، وراح يتأمل قسمت من بعيد.. وهاله شحوبها ونحولها وهزالها. عاد اللون الأصفر إلى بشرتها. عادت النظارة السوداء الكبيرة إلى عينيها. عاد إليها ثوبها المهلهل الباهت. عاد إليها شعرها المهمل بلا نظام. عاد مظهرها الزرى القديم!

عجب عادل لصورة قسمت الجديدة. تساءل هل الثوب هو الذى يخلق المرأة ،أم أن المرأة تضفى جمالها على الثوب الذى ترتديه ما أعظم الفرق بين قسمت التى يراها الآن فى محكمة الجنايات، وبين الآنسة كاف التى كان يراها بين ذراعيه! كانت ملكة الأناقة وملكة الجمال وشعرها مبعثر منكوش!

إن الفرق بين المرأتين هو الفرق بين زهرة ذابلة وزهرة ناضرة، بين غانية وجثة، وبين حياة وعدم!

أيكون الحب السعيد هو الذى يجعل المرأة رائعة الجمال، هو الحلاق الذى يصفف لها شعرها، هو خبير الميكياج الذى يرسم وجهها بالمساحيق والالوان، هو الخياط الذى يفصل ثوبها ويبرز مفاتن جسدها، هو عامل المانيكير والبديكير، هو بائع العطور وادوات التزين، هو الساحر الذى يحقنها بالنضارة والشباب والاثارة، فاذا انصرف الحب السعيد عن المرأة، صحب معه جميع عماله ومساعديه، من حلاقين ومزينين وخبراء فى الجمال، وترك المرأة محطمة ممزقة مشوهة رثة الثياب؟!

لقد لاحظ فى الأيام الأخيرة أن قسمت بدأت تذبل. كأنها تكبر فى كل يوم عشر سنوات. تجلس معه صامتة لا تتكلم. كأنها قيثارة تمزقت كل أوتارها، ولم يبق منها سوى الخشب الذى تصنع منه الات الموسيقى والتوابيت فى وقت واحد!

كانت فى الأيام الأخيرة تدخل معه إلى شقته صاغرة منكسة الرأس كأنها تدخل غرفة تنفيذ الاعدام.. كانت بين ذراعيه، كلوح من الثلج، أو كجثة بلا حراك!

وكثيرا ما سألها عما جرى لها فكانت تقول إنها متعبة مرهقة، وأنها تمضى كل يومها فى مراجعة أوراق قضية عم عبده والصحف والوثائق.. لتعد لعم عبده دفاعه أمام المحكمة.. ولم يقنع عادل بأن هذا السبب وحده يجعلها تتحول كل هذا التحول.. من ملكة للسعادة إلى تمثال للشقاء!

وخيل له فى أول الأمر أن قسمت اكتشفت أنه عرف أن الضابط جاك ستيوارت فاقد الرجولة، قبل أن يتظاهر بأنه سامحها وغفر لها خطيئتها مع الضابط البريطانى.. وأنها عندما عرفت أن عادل كان يعبث بها ويدعى أنه سامحها على جريمتها التى لم ترتكبها، كان يريد أن يحصل منها على صك

غفران لجريمة ارتكبها فعلا، وهى جريمة ولادة الأميرة فضيلة لابن منه!

ولقد حاول أن يدور ويلف معها حول هذه الحكاية، فوجدها لا تهتم بها، وكأنها قد نسيتها!

وكان يعجب أن تتحول امرأة مليئة بالحياة إلى هذا الجمود. كانت أشبه بامرأة ضائعة تائهة. تجلس معه وهى ليست معه. موجودة وغائبة ساهمة حينا، واجمة أحيانا، تعيسة دائما!

ولم تشجعه حالتها هذه على أن يطلعها على الخطة التى وضعها مع شقيقته أميرة، ولا عن المواجهة التي تمت بينها وبين الراقصة نشوى خشى أن يؤلمها أكثر مما تتألم، فهو يعرف أنها طلبت منه الا يتصل بالراقصة نشوى، وألحت عليه الا يذهب اليها ولا يقترب منها.. ولو أنه قص عليها ما حدث بينه وبين نشوى لضاعت تعاستها. لقد اتصل بنشوى من أجلها. ومثل دور العاشق الولهان بين ذراعيها فى سبيل أن يحصل على براءة عم عبدة الذى ضحى بحريته من أجل قسمت.. والمرأة العاشقة لايهمها النتائج بقدر ما تهمها الوسائل!! لا يهمها أنه نجح فى مهمته وأنقذ حياة عم عبده بقدر ما يهمها أنه قبل نشوى! لا يهمها اذا استطاع أن يخرج الانجليز من مصر، اذا عرفت أنه فعل ذلك خلف ظهرها. المرأة العاشقة تتصور أن كل ما يجرى خلف ظهرها هو خناجر مصوبة إليها!!

وماذا كانت تفعل قسمت لو عرفت أنه لم يعط نشوى قبلة واحدة، وأنما عشرات القبلات، وانه لم يعط القبلات فقط، بل أنه باع جسده لتاجرة الرقيق!

• وماذا كانت تفعل لو أن كل الخيانات التى ارتكبها لم تؤد إلى نتيجة، وإنما الذى صنع المعجزة هو تهديد شقيقته أميرة للراقصة نشوى بأنها

ستفضح قصة الخادمة شلبية الوحش أمام محكمة الجنايات

لو أنه روى لقسمت الحقيقة لثارت فى وجهه، لاتهمته بأنه ارتكب كل هذه الخيانات عامدا متعمدا، من أجل شهواته ولذاته، لامن أجل عـم عبـده.. والدليل أن قبلاته لم تحقق أى نتيجة.. أن يد الهاون وحدها هى التى حققت المعجزات!

* * *

والقى عادل نظرة على قفص الاتهام فوجده خاليا.. ووجد نفسه يضـع قسمت فى قفص الاتهام..

فى رأس كل رجل وامرأة قاعة لمحكمة الجنايات، فيها قفص اتهام وفيها منصة قضاء، وفيها مقعد للمدعى العام! وكل يوم نضـع فى هـذا القفص متهما! ويجلس الواحد منا فى مقعد الادعاء ومقعد القضاة.. نوجه إليه التهم ولا نسمح له بالدفاع عن نفسه! ونحكم عليه بغيـر أن نسـمح لـه بحـق الاستئناف أو النقض! وأحكامنا على الناس ظالمة! فالذى يحتكر لنفسـه حق الاتهام واصدار الاحكام لابد أن يظلم الأبرياء!

والبعض منا فى قلبه بقية من عدالة، فهو احيانا يضـع نفسـه فى قفص الاتهام، ويسمى هذه المحاكمة محاسبة الضمير! ولكننا نجلس هذه المـرة فى مقعد القضاة أيضا.. ونبيح لأنفسنا الاستعانة بمحام، هو نحن أيضـا، وهو حق نحرمه على الآخرين الذين نضـعهم فى قفص الاتهـام وتجـىء أحكامنا خفيفة تحمل مبررات التخفيف.. ونتصور أن المحاكمة كانت عادلة، بينما الواقع أننا أقمنا فى داخلنا مسرحية محاكمة.. لا محاكمة فعلا!

والقت قسمت بنظرها على قفص الاتهام، ووجـدته خـاليا، وأسرعـت بخيالها تضع علاء الدين داخل القفص!

إنه مجرم ارتكب الخيانة العظمى.. رأته بعينيها يدخل شـقة نشـوى.. قابلته عدة مرات بعد هذا فلم يعترف بجريمته. لو أنه اعترف لسامحته ! لو أنه كذب عليها لصدقته ! لو أنه حاول أن يبرر جريمته لبرأته ! ولكنه أخفـى كل شيء، فهو ليس مجرما بحكم الصدفة.. إنما هـو مجـرم مـع سـبق الاصرار.. لقد خان كل امرأة قبلها، فلماذا لا يخونها؟ كيف يـرضى هـذا الرجل أن يلوث نفسه بجسد هذه المرأة الكاذبة المختلقة. لقد أحست وهو يحتضنها بعد ذلك اليوم بأنها لاتنتشى بالتصاق جلده على جلـدها وإنمـا تتعذب كأن شعر صدره تحول إلى مسامير تدق فى صدرها !

وأحست قسمت بأن قفص الاتهام لم يعد فيه عادل وحده. ازدحم بـكل رجال العالم. كل رجال العالم متهمون، كلهم مجرمون، كلهم خونة.. كلهـم كذابون !

لماذا يكذب العاشق على المرأة التى يحبها ؟ لماذا يخفى عنها أشياء؟ إنه لايعرف أنه يجرحها بالكذب أكثر مما يؤلمها بالحقيقة ! أنهـا مسـتعدة دائما أن تنسى وتغفر وتسامح اذا اعترف بالحقيقة، ولكنها تشعر أنه طعـن كرامتها عندما كذب عليها ! حتى ولو كذب عليها ليسعدها !

الكذبة الصغيرة تؤلم المرأة وتعذبها الكذبة الـكبيرة ! بـل إن المـرأة العاشقة قد تنسى الكذبة الكبيرة ولاتنسى الكذبة الصغيرة، كأنها تنسى طعنة الخنجر ولا تنسى ابدا شكة الدبوس !

إنها تنسى الكذبة بأن دافعها شيء واحد، هو أن الرجل الـذى يحبهـا يفترض أنها حمارة، يفترض أنها غبية. يفترض أنها ساذجة، والا لما كذب عليها ! ولهذا فهى تحس أنها أهينت بالكذبة كأن الرجل الذى أحبها وصفها بهذه الأوصاف جميعا !

وشعور المرأة أن حبيبها أهان كرامتها يقتلها وهى على قيد الحياة! والرجال يتصورون أن كرامة النساء تشبه كرامة الرجال، وهم يخطئون فى هذا التصور. كرامة الرجل فى داخله، ولكن كرامة المرأة فى كل مكان! حتى فى فستانها.. حتى فى حذائها.. حتى فى أثاث بيتها!

وهزت قسمت رأسها، وكأنها استراحت بعد أن حكمت على كل رجال العالم بالاعدام!

* * *

وتطلع محمد على علوبة باشا المحامى إلى القفص الخالى. وخيل له أنه يملأ هذا القفص بالمسئولين عما نحن فيه! وابتسم ساخرا.. فقد بدا القفص أضيق كثيرا من أن يتسع لكل المتهمين الذين يجب أن يوضعوا فى هذا القفص!

وخيل له أيضا أن القفص يجب أن يتسع ويتسع حتى يحيط بالبلد كله! إننا جميعا مسئولون !عما نحن فيه! نحن المجرمون والضحايا فى وقت واحد!

إننا نحكم بالاعدام على من يرتكبون مخالفات ضد أشخاصنا! ونحكم بالبراءة على من يرتكبون جنايات ضد خصومنا!

إننا نعتبر الحرية ممتلكات خاصة لنا وحدنا. ونأباها على الذين يخالفوننا فى الرأى أو العقيدة!

إننا نطالب بالدستور، ونحن فى المعارضة. ونعطل أحكام الدستور ونحن فى الحكم!

إننا نريد أن تكون العدالة قديسة اذا تولى خصومنا الحكم، ونريد أن

نجعل العدالة محظية لنا اذا جلسنا نحن فى منصة الحكم!

وكان كل واحد من الجالسين فى قاعة محكمة الجنايات يضع شخصا معينا أو عدة أشخاص فى قفص الاتهام الخالى! الصحفيون وضعوا فيه الرقباء الذين يحذفون كل ما يستحق النشر، ويبيحون مالا يستحق النشر، وكاتب الجلسة وضع فى القفص باشكاتب المحكمة الذى رفض الموافقة على منحه أجر ساعات العمل الاضافية. وحاجب الجلسة وضع فى القفص حماته التى تنكد عليه الحياة. ومحام شاب وضع فى القفص جميع كبار المحامين الذين يستولون لا نفسهم على القضايا الكبيرة ولا يتركون للمحامين الشبان الا قضايا المخالفات..

واستمر خيال الجالسين يملأ القفص ويخليه إلى أن دخل عم عبده، واشرأبت اليه الاعناق، ولم يعد أحد من الجالسين يملأ القفص ويخليه، وكأن عم عبده ملأ القفص كله بجسمه الضئيل النحيل..

ودخل وراء عم عبده مباشرة عدد كبير من الضباط والجنود المسلحين بالبنادق والمدافع والمسدسات! وتلفت الجالسون خلفهم فى ذعر.. وفهموا أن المتهم عم عبده فى نظر البوليس هو أخطر رجل فى العالم.. وأنهم احاطوه بهذه الحراسة خشية أن ينقض جنود المظلات الالمان على المحكمة، ويخطفوه كما خطفوا موسولينى!

ومد عم عبده يده النحيلة من وراء القفص، وصافح قسمت، وعلى شفتيه ابتسامة!

واستمرت البسمة لا تفارق شفتية.. وقد أمسك بيده مسبحة، وتصورت قسمت أنه يعد حباتها وتصور عادل أنه يلعن الظالمين مع كل حبة، وتصور

شيخ معمم فى الصفوف الخلفية أنه يحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه!

وتطلعت قسمت فى وجه عم عبده.. تعبير وجهه رقيق هادئ، فيه رباطة جأش قوية، كأن لا شيء يهزه. كأنه فى طريقه إلى لقاء صديقته القديمة بهية مسقعة المتسولة بحى الحسين، لا فى طريقه إلى المشنقة! ولا حظت فمه بشفتيه الغليظتين يبتسم بشهوانية غريبة فى هذه السن ممزوجة بسخرية مرة، وكأنه يتطلع إلى زينات أخت البكباشى البلحاوى مأمور سجن الاستئناف، ولا يتطلع إلى منصة القضاة الثلاثة الخالية، الذين سيحكمون عليه بالموت أو الحياة!

واستوقفت نظرها التجاعيد الكثيرة التى فى وجهه. إن الأضواء الساطعة فى قاعة محكمة الجنايات وفلاشات المصورين جعلتها تتنبه لكثرة هذه التجاعيد أكثر مما تنبهت إليها عندما كانت تلتقى به فى غرفة المأمور الضعيفة الضوء!

وصرخ الحاجب بأعلى صوته: محكمة!

ووقف الحاضرون اجلالا للعدالة ودخل القضاة الثلاثة من باب خلف المنصة، واتخذوا مقاعدهم فى سرعة، ومشى خلفهم رئيس النيابة إلى مقعده.

وتأملت قسمت وجوه القضاة.. كانت وجوههم خالية من التعبير وكأنها تجمدت. وكانت عيونهم خرساء لا هى تطمئن ولا هى تفزع.

ونادى الحاجب: قضية عبده عبده رقم ٧٩

ووقف الاساتذة محمد على علوبة باشا ووهيب دوس وعلى أيوب يقولون إنهم حاضرون عن المتهم.

وقلب رئيس المحكمة أوراقا أمامه ومال على عضو اليمين الذى غرق فى غيبوبة يهمس فى اذنه ببضع كلمات.

ووقف الاستاذ على أيوب المحامى يقول:

ـ لاحظت عند اطلاعى على ملف القضية شيئا غريبا، لا اسميه تزويرا، وإنما اسميه خطأ! والخطأ فى أوراق العدالة أكبر من الجريمة!

وصاح رئيس المحكمة:

ـ قل باختصار.. ما هو الخطأ؟ قال على أيوب:

ـ الخطأ أنه ورد فى نسخ محاضر التحقيق الموزعة على المحكمة وعلى المحامين أن المتهم قال فى صفحة ١٧١ «إننى أقصد خيانة الوطن»! بينما المحضر الأصلى يقول «إننى أقصد صيانة الوطن»!

وانبرى رئيس النيابة يقول:

ـ إنه خطأ بسيط.. خطأ فى حرف واحد!

ـ الفرق بين (الخيانة) و(الصيانة) هو الفرق بين الاعدام والبراءة!

ـ إنها غلطة من قلم النسخ!

ـ غلطة ثمنها المشنقة!

ـ غلطة فى صفحة واحدة من ألف صفحة!

ـ إنها ليست الغلطة الوحيدة كما يقول رئيس النيابة! فى صفحة ١٧٢ جاء على لسان المتهم فى الملف الذى وزعته النيابة «أنا أؤمن بالأعمال غير

المشروعة».. بينما فى أصل التحقيق أن المتهم قال «أنا لا أومن بالاعمال غير المشروعة». فكيف اختبأت كلمة (لا)؟ كيف تحولت فجأة الجملة من دفاع إلى اتهام؟

ـ هذا خطأ وقع بسبب السرعة فى عملية النسخ!

ـ لماذا تقع الاخطاء دائما ضد مصلحة المتهم.. ولا يقع خطأ واحد لمصلحته؟

ـ إن النيابة تحتج على هذه الملاحظة!

ـ يرضى القتيل.. وليس يرضى القاتل!

ـ إننا لسنا قتلة.. إن النيابة هى القضاء الواقف!

ـ يوم تطيع النيابة أوامر البوليس لا تكون قضاء واقفا.. ولكنه قضاء يقعد القرفصاء!

ـ هذه إهانة لكرامة العدالة!

ـ كرامة العدالة لا تهان بكلمة تقال، وإنما تهان بتغيير كلمة فى محضر التحقيق!

ـ يحدث دائما أثناء عملية النسخ أن تسقط كلمة!

ـ واذا حدث أن زادت كلمة؟

ـ إننى اتحدى الدفاع.. لاتوجد كلمة واحدة زائدة!

ـ هل أنت متأكد يا سعادة رئيس النيابة أنه لم تضف كلمة إلى أقوال المتهم؟

ـ متأكد جدا.. واثق جدا.. المسألة كلها سهو فى عملية النسخ!

ـ أعتذر لسعادة رئيس النيابة:

يظهر أننى تسرعت عندما قلت إنه أضيفت كلمة واحدة؟

ـ النيابة تقبل اعتذار الدفاع، وتؤكد أن محاضر التحقيق فوق الشبهات!

ـ يظهر أن النيابة تسرعت فى فهم اعتذارى! كنت أظن أننا فى عصر السرعة، وإذا بنا فى عصر التسرع! قلم النسخ يتسرع فى النقل! رئيس النيابة يتسرع فى الفهم، ولهذا فإننى أفضل أن أبطئ فى اتهام رئيس النيابة بالتسرع!

ـ النيابة ترفض أن يلقى الدفاع التهم على النيابة بغير إثبات ولا دليل! لقد قلت منذ لحظة أنه أضيفت كلمات إلى أقوال المتهم.. ما هى هذه الكلمات المزعومة؟ لقد قلت إن الأخطاء التى وقعت فى المحضر أخطاء مطبعية نتيجة السهو.. سهو بسيط جدا جدا جدا.

ـ يبدو فعلا أن ما تقوله النيابة صحيح! لقد رأيت فى أوراق التحقيق سهوا غريبا! فى صفحة ١٨٦ من أصل التحقيق يقول المتهم بالحرف الواحد «إننى أحببت مرة واحدة فى حياتى. كان ذلك فى أوائل الحرب العالمية الأولى. عندما أحببت بهية مسقعة الشحاذة بجامع سيدنا الحسين. كان هذا هو أعظم حب فى حياتى. كنت أقول لها كل أسرارى. كنت أأتمنها على كل خباياى»! وإذا بالسهو يحدث فى النقل! سهو بسيط جدا جدا جدا.. كما تقول النيابة! وتنقل هذه الجملة من ملف التحقيق الأصلى إلى الملف الموزع على حضراتكم وعلى المحامين وإذا بها تقول على لسان المتهم «إننى أحببت مرة واحدة فى حياتى. كان ذلك فى أوائل الحرب العالمية الثانية. عندما أحببت نشوى عبده الراقصة بصالة الست بديعة. وكان هذا

أعظم حب في حياتي. كنت أقول لها كل أسراري. كنت أأتمنها على كل خباياي» !!!

ووقف الأستاذ وهيب دوس المحامي يقول ساخرا:

ـ ما هذا السهو العجيب؟ الذي استمر ٢٥ سنة؟ ونقل الحب من سنة ١٩١٤ عندما قامت الحرب العالمية الأولى إلى سنة ١٩٣٩ عندما قامت الحرب العالمية الثانية؟ ما هذا السهو الذي يجعل من بهية الشحاذة، نشوى الراقصة؟! ويجعل من بهية مسقعة، نشوى المشهورة بشدة الحرارة؟ ويجعل من جامع سيدنا الحسين، صالة السيدة بديعة؟! إن الذين نسخوا هذا التحقيق حولوا ساحة العدالة من ساحة مسجد إلى صالة كباريه! لعل النيابة سوف تعتذر عن هذا بأن موظفي قلم النسخ أصيبوا بالسهو، بسبب كثرة ترددهم على صالة بديعة، ولهذا خلطوا بينها وبين جامع الحسين!

وصرخ رئيس النيابة محتجا:

ـ هذا مساس بسيدنا الحسين لا تقبله النيابة!

قال علوبة باشا:

ـ بل هذا مساس بسيادة العدالة لا تقبله المحكمة!

وضرب رئيس النيابة المنضدة بقضبة يده وقال:

ـ إن هذه أخطاء مطبعية تحدث في كل قضية!

ـ هذه الأخطاء تحول ورق التحقيق إلى ورق تواليت!

ـ إن النيابة غير متمسكة بهذه الأقوال.

ـ وهل تقبلون كل الطلبات التى طلبناها؟

ـ نعم نقبلها.. إن لدينا من الأدلة والبراهين والمستندات ما يفقأ عين المتهم!

قال علوبة باشا بهدوء:

ـ أحمد الله على أن العدالة معصوبة العينين. وإلا لوصلت أصبع رئيس النيابة إلى عينى العدالة أيضا!..

قال رئيس النيابة فى عصبية:

ـ النيابة تطلب التأجيل لمدة شهر لتصحيح هذه الأخطاء البسيطة فى النسخ المطبوعة!

قال على أيوب المحامى:

ـ شهر؟ إن المتهم مضى عليه فى السجن أكثر من عام!

ـ الذى بقى فى السجن عاما يستطيع أن يبقى عاما وشهرا!

ـ ووقف علوبة باشا وهو يلوح بيده ويقول:

ـ ما هذه الاستهانة بحرية الشعب؟ بقاء برىء واحد فى السجن دليل على أن البلد كله محروم من العدالة!

واندفع رئيس النيابة غاضبا:

ـ إننى احتج على هذا الكلام! إن المحامين يريدون أن يحولوا صرح العدالة إلى منبر للسياسة! إن وجود مسجون واحد رهن المحاكمة ليس معناه أن مصر ليس فيها عدالة!

قال علوبة باشا :

ـ عندما تسلب حرية فرد واحد فى هذا البلد، فمعنى ذلك أن البلد كله قد سلبت حريته! إن حرية مصرى واحد هى حرية المصريين جميعا!

قال وهيب دوس:

ـ هذه مؤامرة لاستمرار سجن برىء!

صاح رئيس النيابة :

ـ هذا المتهم ليس بريئا! سوف نثبت لكم أنه مجرم.. مجرم.. مجـرم! نحن نطلب التأجيل لاعادة نسخ القضية.

قال على أيوب المحامى ساخرا :

ـ بشرط التنبيه على موظفى قلم النسخ بعدم الذهاب إلى صالة بديعة.. وإلا فسوف تجىء لنا الملفات وهى ترقص رقصة البطن!

ووقف علوبة باشا وقال فى حماس :

ـ إن التصحيح المطلوب فى الملف لا يستغرق سوى بضع دقائق، ولا يحتاج إلى شهر كامل. ولهذا فإن الدفاع يرفض التأجيل!

واقتربت رءوس المستشارين الثلاثة! وتهامسوا وتداولوا، وهزوا رءوسهم، ثم قال رئيس المحكمة فى صوت قوى :

ـ قررت المحكمة رفض التأجيل واستمرار نظر الدعوى..

* * *

وتصاعدت زفرات الابتهاج من الحاضرين. وكأنهم تنفسوا الصعداء..

لقد أصبحوا جميعا من أنصار المتهم ومن خصوم النيابة، أحسوا أن رئيس النيابة يمثل السلطة الغاشمة! والمصريون بطبيعتهم إذا وجدوا مشاجرة فى الشارع بين جندى الشرطة وأحد المدنيين انضموا على الفور إلى المدنى وناصروه على رجل الشرطة، ظالما كان أو مظلوما!

ولقد أحس الحاضرون فى الجلسة بأن رئيس النيابة نسى أنه رجل القانون، وتحول إلى جندى شرطة، واعتبر القانون الذى فى يده هراوة ينهال بها على رأس المتهم الصامت العجوز!

وتهيأت المحكمة لنظر القضية. ووقف محمد على علوبة باشا يقول:

ـ أما وقد قررت المحكمة نظر القضية، فإننى أتشرف بأن ألفت نظر المحكمة، إلى أن فى حرم المحكمة، ضباطا وجنودا يحملون البنادق والمسدسات والمدافع الرشاشة! وقاعة المحكمة مكان مقدس، مثل المسجد مثل الكنيسة، فى المسجد نخلع نعالنا قبل الدخول، فى الكنيسة نخلع قبعاتنا قبل الدخول، فى المحكمة نخلع أسلحتنا قبل الدخول! السلاح الوحيد الذى يشهر فى داخل هذه القاعة هو القانون! وكل سلاح يجب أن يتوارى أمام قداسة القانون!

فقال رئيس النيابة فى هلع:

ـ يا حضرات المستشارين إن هذا المتهم رجل خطير.. خطير جدا جدا جدا! إنه أخطر مجرم فى هذا البلد، ولن يتردد فى الهرب، وهو له صلة بالعدو. صلة مباشرة بالجيش الألمانى.. ووجوده بلا حراسة مسألة خطيرة جدا جدا جدا!

قال رئيس المحكمة فى هدوء:

ـ يمكن للحرس المسلح أن يقف خلف باب القاعة، وتحت النوافذ.. ولا يجوز أن يبقى داخل القاعة أى شخص يحمل السلاح.

وخرج الضباط والجنود المسلحون بخطوات متثاقلة.

وضحك وهيب دوس وقال:

ـ يظهر أن أمر المحكمة مقصور على البوليس العلني، لأنني أرى رجال البوليس السرى لا يزالون فى أماكنهم!

قال على أيوب:

ـ كيف ينصرفون وهم القضية؟

وضجت القاعة بالضحك، وضرب رئيس المحكمة المنصة بيده وقال:

ـ هدوء! المحكمة لا تسمح بأى هرج أو مرج!

ونادى رئيس المحكمة على المتهم، ووقف عم عبده فى القفص، ولا تزال ابتسامته ترقص فوق شفتيه.

ـ اسمك؟

ـ عبده عبده عبده.

ـ مهنتك؟

ـ متهم!

ـ أقصد قبل توجيه الاتهام لك؟

ـ متهم أيضا!

ـ لا يوجد أحد فى الدولة مهنته متهم!

ـ ربما أكون أنا المتهم الوحيد! اسمى فى كل أوراق الدولة منذ نشأتى، مسبوق بكلمة متهم!

ـ متهم بماذا؟

ـ متهم بالتسول! متهم بالتشرد! متهم بأشغال الطريق لأننى كنت أنــام على الرصيف!

ـ أين تقيم؟

ـ بجوار فندق الكونتننتال!

ـ فى العمارة التى بجواره؟

ـ لا.. فى الرصيف الذى بجواره!

ـ أنت متهم بأنك طبعت منشورا قلت فيه إن الجيش البـريطانى جيش من السكارى!

ـ لست وحدى الذى قال هذا!

ـ هل لك شركاء؟

ـ نعم، لى شريك!

ـ من هو؟

ـ وخيم الصمت فجأة على قاعة الجلسة.. ورفع علوبة بــاشا رأســه فى ذهول.. واصفر وجه عادل علاء الدين. ونظر الاثنان إلى قسمت. هل اتفقت مع عم عبده على أن يعلن أمام المحكمة أنها صاحبة المنشور ولم يظهر على

قسمت الاضطراب.. كانت تنظر إلى عم عبده بإعجاب!

وصمت عم عبده ولم يرد على السؤال..

وعاد رئيس المحكمة يسأله:

ـ من هو شريكك فى هذا المنشور؟

ـ أحب أولا قبل أن أذكر اسم شريكى أن أسأل هل من يقول «إن الجيش البريطانى فى مصر هو جيش من السكارى» يوضع فى السجن؟

وأمسك رئيس النيابة بيده قانون العقوبات وقال فى تحد:

ـ طبعا يوضع فى السجن! إن بريطانيا حليفة مصر بحكم معاهدة سنة ١٩٣٦، التى أقرها البرلمان، وأصبحت قانونا نافذا، والقانون يعاقب من يهاجم حلفاء مصر، وكل من يهاجم جيش بريطانيا كأنه يهاجم جيش مصر!

ـ هل تضعون فى السجن كل من يقول هذا الكلام مهما كان مركزه؟

ـ قال رئيس المحكمة فى لهجة التأكيد.

إن الجميع أمام القانون سواء!

ـ إذن سأعترف باسم شريكى!

ـ ما اسمه؟

ـ صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء، والحاكم العسكرى!

ـ النحاس باشا.. شريكك؟

ـ نعم!

ووقف رئيس النيابة يقول:

ـ إن المتهم يتظاهر بالجنون ليفلت من المحاكمة!

ـ إننى لست مجنونا، إننى أتمتع بكل قواى العقلية!

ـ أنت تتصور إذن أننا مجانين لنصدق أن رئيس الوزراء هو شريكك!

ـ إن النحاس باشا خطب فى شهر أغسطس سنة ١٩٤١ فى رأس البر وقال بالحرف الواحد إن الجيش البريطانى هو جيش من السكارى.. وبعد ذلك بستة شهور أصبح رئيس وزراء مصر!

وصرخ رئيس النيابة فى غضب:

ـ هذا المتهم ملفق كاذب، أفاق! إن صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا لم يقل شيئا من هذا الكلام الفارغ!

ـ إننى أقدم إلى المحكمة ثلاث صحف يومية صدرت فى القاهرة، ومنشورا بها نص خطاب رئيس الوزراء عندما كان زعيما للمعارضة وهو يقول بالحرف الواحد: إن الجيش البريطانى فى مصر جيش من السكارى!

وأمسك رئيس المحكمة بنسخة من الجريدة، وأمسك المحامون بالنسخة الثانية، وأمسك رئيس النيابة بالنسخة الثالثة!

ووقف محمد على علوبة باشا يلوح بالجريدة ويقول:

ـ إن ما قاله المتهم هنا صحيح بالحرف الواحد.. إن النحاس باشا قال فعلا إن الجيش البريطانى هو جيش من السكارى.. فإذا كان فى هذه الجملة جريمة.. فيجب أن تأمروا بالقبض على رئيس الوزراء، وتضعوه فى السجن مع عم عبده. وإذا لم يكن فى الأمر جريمة، فأطلقوا سراح عم عبده فى الحال!

قال رئيس المحكمة :

ــ حدد لنا طلباتك يا باشا !

قال علوبة باشا :

ــ طلبات الدفاع هى القبض على شريك المتهم.. صاحب المقام الــرفيع رئيس الوزراء !!!

الفصل الثالث والأربعون

عندما طالب المحامى علوبة باشا بالقبض على رئيس الوزراء، اهتزت أرجاء المحكمة. انفجرت كلمته كأنها قنبلة هائلة ألقيت فى القاعة، خيل لعادل علاء الدين أن القاعة تحولت إلى أنقاض. خيل لقسمت أن المستشارين الثلاثة أصبحوا مبتورين لا يستطيعون الحراك.. خيل لعم عبده أن كاتب الجلسة أصبح بلا ذراعين، وتوقف عن الكتابة. خيل للحاضرين أن رئيس النيابة أصبح بلا ذراعين ولا يدين وبلا رأس!

المحكمة كلها اهتزت من هذا الدوى. خيل لحاجب الجلسة أن اللافتة المعلقة فوق رءوس القضاة، المكتوب عليها «العدل أساس الملك» قد سقطت فوق رؤوس القضاة!

واتجهت عيون الحاضرين إلى قفص الاتهام. وهيأ لهم الوهم أن عم عبده لم يعد وحده فى داخل القفص، بل إن معه رئيس الوزراء أيضا!

الكلمة أحيانا تفعل فى الناس ما تفعله القنبلة عندما تنفجر. تجعلهم يتصورون أن جدران القاعة تتشقق، وسقفها يتساقط فوق رؤوسهم. ويتخيلون أن الأضواء تهتز، والأرض تميد تحت أقدامهم هناك كلمات كالرصاص. وكلمات كالقنابل، وكلمات كالصواريخ، تطيش وتصيب، تسقط فى الرمال أو تنقض على الهدف بإصابات مباشرة.

ومضت فترة صمت. ثم وقف رئيس النيابة يترنح، وكأنه يرفع رأسه من بين الانقاض والتراب. كانت جفونه حمراء وكأنها احترقت من شظايا القنبلة، وقال فى صوت مرتجف لعلوبة باشا :

ــ أنت تمزح يا باشا عندما تطالب بالقبض على رئيس الوزراء !

ــ إننى لا أمزح.. إذا كنت أنت لا تمزح عندما تقول إن العبارات المنسوبة إلى عم عبده تؤلف جريمة تستحق العقاب !

ــ لا تسمح النيابة لمثل هذا المجرم النصاب الأفاق أن يقارن نفسه بصاحب المقام الرفيع رئيس الوزراء !

ــ رئيس المحكمة قال إن المصريين جميعا أمام القانون سواء.. وهذا هو نص الدستور !

ــ خطاب النحاس باشا منشور فى جريدة، ومعنى هذا أن الرقيب وافق عليه !

ــ وكلام عم عبده هو نفس كلام رئيس الوزراء عندما كان زعيما للمعارضة !

ــ الكلام الذى كتبه عبده مكتوب فى منشور، ولم يطلع عليه الرقيب، ولم يأذن بنشره، وهذه جريمة طبقا لقانون الأحكام العرفية !

ــ أيهما أكثر انتشارا يا سعادة رئيس النيابة، الجريدة التى تطبع عشرات الآلاف، أم المنشور المطبوع من عشرات النسخ ؟

ــ القانون لا يحدد عدد النسخ المطبوعة !

ــ يظهر أن قانونكم لا يحده أى شىء !

ـ الدفاع يسخر من القانون الذى وقعه جلالة الملك وأقره البرلمان !

ـ نحن نسخر من الذين يطبقون القانون !

ـ تطبيق القانون أمانة فى أعناقنا !

ـ أنتم تفتون على الابرة، وتبلعون المئذنة !

ـ نحن خدام العدالة !

ـ نحن لا نهاجم خدام العدالة.. وإنما نهاجم خدام الحاكم !

ـ إن الدفاع عندما يطالب بالقبض على رئيس الوزراء يحاول أن يحول هذه القضية إلى مهزلة !

ـ إن تقديمكم هذه القضية إلى محكمة الجنايات هو المهزلة بعينها.

ـ إننى ألتجىء إلى المحكمة لتحمى النيابة من عدوان المحامين.

ـ صدق سعد زغلول عندما قال : « أعجب لمن يقول للباكى لا تبك، قبل أن يقول للضارب لا تضرب »!

ـ النيابة لم تضرب أحدا !

ـ البوليس ضربه !

* * *

وثبت رئيس المحكمة النظارة فوق عينيه وقال فى حزم :

ـ إننا لا نريد أن نضيع الوقت فى مناقشات بين النيابة والدفاع.. نحن نريد أن نتفرغ لمناقشة المتهم.

ـ الدفاع يأسف إذا كان رئيس النيابة أضاع وقت المحكمة!

ـ والنيابة حزينة لأن الدفاع أضاع وقت المحكمة!

وتجهم وجه رئيس المحكمة، والتفت إلى عم عبده وقال له:

ـ إنك قلت فى منشورك: إنه يجب أن يقوم الشعب على بكرة أبيه، ويقاطع جيوش الاحتلال، وينقض على الانجليز!

ـ نعم قلت هذا!

ـ هذا الكلام ليس موجودا فى خطاب رفعة رئيس الوزراء الذى استشهدت به.

ـ فعلا.. إن هذا الكلام ليس موجودا فى الخطاب.

وصاح رئيس النيابة، وكأنه أفاق من دوى قنبلة علوية باشا عن طلب القبض على رئيس الوزراء، وقال فى لهجة الانتصار:

ـ طبعا هذا الكلام الفارغ لم يقله رئيس الوزراء. لأن هذا الكلام لا يقوله إلا مجرم أو مجنون.. أو مجرم مجنون فى وقت واحد!

ـ إن هذا ليس كلامى!

ـ كلام مجرمين مجانين مثلك!

ـ معلوماتى أنهم جميعا متمتعون بقواهم العقلية!

ـ إذن لابد أنهم مجرمون!

ـ ولا مجرمين..

ـ فى نظرك!

ـ وفى نظرك أنت! ويجب أن تحترمهم!

ـ إننى لا أحترم من يقول هذا الكلام الفارغ!

ـ إنهم محترمون بحكم القانون!

ـ من هم هؤلاء الشركاء؟

ـ أغلبية أعضاء البرلمان الحالى!

وصرخ رئيس النيابة محتجا:

ـ أطلب من المحكمة عدم إثبات هذا الكلام الفارغ فى محضر الجلسة وحذفه منها!

وصرخ علوبة باشا بصوت أعلى من صوت رئيس النيابة:

ـ والدفاع مصمم على عدم حذف أى شىء من محضر الجلسة!

ـ النيابة مصممة على الحذف.. النيابة لا تقبل أن ينسب المتهم إلى أغلبية أعضاء النواب المحترمين ارتكاب جريمة يعاقب عليها القانون ويسجل هذا فى محضر رسمى!

ـ نحن لم نقل إنها جريمة.. أنت الذى قلت إنها جريمة!

ـ أنا قلت أن حضرات النواب والشيوخ المحترمين أبرياء من هذه الجريمة! وأن كلام المتهم الذى ينسبه إليهم هو كلام مجانين لا يمكن أن يصدر عنهم!

قال عم عبده مبتسما:

ـ إن هذه الكلمات التى يصفها رئيس النيابة بالجنون، هى نص القرار الذى أصدره الوفد المصرى فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤١ عندما كان فى المعارضة، ووقع عليه جميع أعضاء الهيئة الوفدية وعددهم ٢٨٦ عضوا، وهم يكونون الآن أغلبية أعضاء البرلمان الحالى!

واهتز رئيس النيابة فى مقعده كأن قنبلة جديدة سقطت فوق رأسه:

ـ مستحيل.. مستحيل! هذا كذب.. هذا تضليل!

ـ إننى أقدم للمحكمة الصحف التى نشرت القرار وفيها إمضاءات أغلبية البرلمان الحالى!

وتناول كاتب المحكمة الصحف من عم عبده، وقدمها إلى رئيس المحكمة ورئيس النيابة والمحامين. رغاصت رؤوسهم جميعا فى الصفحات يقرأون قرار الوفد المصرى بأن يقوم الشعب على بكرة أبيه، ويقاطع جيوش الاحتلال، وينقض على الانجليز!

ووقف الأستاذ على أيوب يلوح بالجريدة فى يده ويقول فى هدوء:

ـ إن الكلمات المكتوبة فى منشور عم عبده، هى بحروفها وألفاظها كلمات قرار حزب الوفد الذى يتولى الحكم الآن!

وهز المستشارون الثلاثة رؤوسهم علامة الموافقة.

ونظر إليهم رئيس النيابة فى ذهول.

ورفع على أيوب رأسه وقال:

ـ إن رئيس النيابة قال أمامكم يا حضرات المستشارين إن الذى يقول هذا الكلام إما مجنون أو مجرم.. بل هو مجرم ومجنون! ولما كانت أغلبية مجلس الوزراء الحالى من أعضاء الوفد، وأغلبية البرلمان من أعضاء الهيئة الوفدية.. فليس أمامه إلا أن يطلب إحالة الوزارء وأعضاء البرلمان إلى مستشفى الأمراض العقلية، وإما أن يطلب إحالتهم إلى محكمة الجنايات!

ووقف محمد علوبة باشا، وأزاح طربوشه إلى الخلف وقال:

ـ أعتقد أنها زلة لسان من رئيس النيابة.. ولهذا فالدفاع يكتفى بأن

يطلب من المحكمة أن تأمر بحذف الكلمات النابية التى وجهها رئيس النيابة إلى أصحاب المعالى وإلى حضرات الشيوخ والنواب المحترمين..

وانتفض رئيس النيابة فزعا:

ـ إننى لم أوجه عبارات نابية إلى أعضاء البرلمان.

ـ أنت قلت أن الذى يقول هذا الكلام مجرم ومجنون وقد ثبت للمحكمة أن الوزراء وأعضاء البرلمان قالوا نفس الكلام!

ـ إنهم رجال سياسة ومن حقهم أن يقولوا ما يشاءون!

ـ هل معنى هذا أن الكلمة الواحدة إذا قالها رجل من الشعب تعلق له المشنقة، وإذا قالها الوزير أو عضو البرلمان يصبح صاحب حق فيها؟

قال وهيب دوس ساخرا:

ـ عندما يلعن الزعيم الانجليز يصبح وطنيا عظيما فى رأى النيابة.. وعندما يقول فرد من الشعب نفس الكلمة يصبح مجرما ومجنونا!

* * *

وتدخل رئيس المحكمة قائلا:

ـ المحكمة قررت حذف كل هذه المناقشات من محضر الجلسة، وتطلب إلى الصحفيين عدم نشرها فى الصحف.

قال علوبة باشا معترضا:

ـ قبل أن تحذفوها من محضر الجلسة يجب أن تحذفوها أولا من قائمة الاتهام الموجهة إلى عم عبده..

وأخرج رئيس النيابة من جيبه منديلا، وجفف العرق المتساقط من جبينه، قال وهو يلهث :

ــ النيابة متمسكة بجميع التهم.

قال المحامي وهيب دوس بك :

ــ ولكن تهمة عم عبده هي نفس تهمة الوزراء وأعضاء البرلمان. إذا سقطت عنهم يجب أن تسقط عن عم عبده!

ــ قرار أعضاء الوفد صدر في سبتمبر ١٩٤١، ومنشور المتهم صدر في يونيو ١٩٤٢.. الفرق عشرة شهور!

ــ لم أعرف أن القانون يتبع نتيجة الحائط!

ــ فلسفة القانون تقول إن الجريمة تتغير بتغير السنة التي وقعت فيها.. إنك إذا قلت في سنة ١٩١٣ «يسقط الخديو عباس» توضع في السجن وإذا قلت في سنة ١٩١٤ «يحيا الخديو عباس» توضع في السجن! ففي سنة ١٩١٣ كان الخديو عباس حاكما على مصر يحميه القانون، وفي سنة ١٩١٤ كان الخديو عباس مخلوعا من عرش مصر يحارب القانون!

وضحك علوبة باشا وقال :

ــ إن هذا يذكرني بحكاية وقعت سنة ١٩٣١ عندما كان صدقي باشا رئيسا للوزارة، فقد ذهب مدير مصلحة السجون يزور سجن مصر، ووجد في زنزانة ثلاثة من المسجونين، وسأل المدير المسجون الأول : ما هي تهمتك؟ قال المسجون : في سنة ١٩٣٠ هتفت «يسقط النحاس باشا» فوضعوني في السجن لأن النحاس كان وقتئذ رئيس الوزراء

وسأل مدير السجون المسجون الثانى : ما هى تهمتك؟ قال المسجون الثانى : «فى سنة ١٩٣١ هتفت «يحيا النحاس باشا» فوضعونى فى السجن، لأن النحاس باشا كان قد أقيل من الوزارة!

وسأل المدير المسجون الثالث : وأنت ما هى تهمتك؟

قال المسجون الثالث : أنا النحاس باشا نفسه!

وضجت القاعة بالضحك!

وزمجر رئيس المحكمة، وطلب فى غضب من الحاضرين مراعاة النظام، وإلا فسوف يطرد الحاضرين من الجلسة، ويجعلها سرية..

وساد المحكمة سكون كامل.

ووقف رئيس النيابة وقال :

ـ خطورة هذا المنشور، ليست فى الكلام الذى يتضمنه، إنما خطورته أنه موعز به من أعداء البلاد!

قال عم عبده ساخرا :

ـ هل وزراء مصر وأعضاء برلمانها هم أعداء مصر؟

ـ إنه موعز به من الحزب النازى!

ـ هل تريد النيابة أن تقول إن الحزب النازى ينادى اليوم بما كان ينادى به حزب الوفد عندما كان فى المعارضة؟

ووقف الأستاذ على أيوب وقال :

ـ ما دام رئيس النيابة يقول إن الجريمة تتغير بتغير السنة، فلماذا

لا نؤجل هذه القضية إلى أن تنتهى الحرب؟

قال وهيب دوس:

ـ وإذا كسب الانجليز الحرب شنقنا عم عبده!

وأضاف على أيوب:

ـ إذا كسب الالمان.. شنقنا رئيس النيابة!

ـ إن النيابة تحتج على هذه الاهانة!

ـ ليس فى الأمر إهانة! إنها أول مرة يصبح فيها القانون جزءا من نشرة الأخبار.. يتغير المتهم بتغير أنباء الحرب.. إن هذا المتهم لم يقدم إلى المحاكمة عندما كان الألمان منتصرين فى الصحراء الغربية.. وعند هزيمتهم قدمته النيابة للمحكمة!

ـ إن الدفاع خرج على موضوع القضية الأساسى. إن هذا المتهم تجسس على البلاد فى وقت الحرب للأعداء.. هذه هى التهمة الخطيرة التى تلوثه والتى يحاول الدفاع عبثا أن ينظفه منها.. ولكنى أحب أن أؤكد له أن كل الصابون الذى فى المملكة، لا يمكن أن يغسل هذه التهمة أو يزيل آثارها!

قال عم عبده ساخرا:

ـ أرجو أن توفر النيابة ما لديها من صابون.. هناك أماكن كثيرة فى الدولة فى أشد الحاجة إلى هذا الصابون!

ـ الرجل الغارق فى الطين، يرمى الأشراف بالطين.

ـ إن تهمتك لا تلوثنى، إنها تهمة تقليدية!

ـ المتهم تباهى بجريمته النكراء!

ـ إنها التهمة التقليدية التى يلجأ إليها البوليس السياسى فى كل بلد لتلويث خصومه!

ـ البوليس السياسى لا يلفق التهم!

ـ إن صناعته هى تلفيق التهم!

ـ عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان الزعيم لينين يقيم فى النمسا، واعتقلته السلطات النمساوية ولم تجد تهمة توجهها إليه، فوجهت إليه تهمة التجسس لحساب روسيا القيصرية.. فى الوقت الذى كان يعد لينين أعظم ثورة للقضاء على روسيا القيصرية!

صرخ رئيس النيابة

إن المتهم يا حضرات المستشارين لا يكتفى بجرائمه التى ارتكبها، وضبط متلبسا بها، بل يرتكب أمامكم جريمة جديدة، وهى الدعاية للشيوعية، وهى جريمة ينص عليها قانون العقوبات!

ـ أنا لا أدعو للشيوعية!

ـ أنت قلت أن لينين قام بأعظم ثورة فى العالم.. وهذه دعاية للشيوعية..

ـ أنا لا أدعو للشيوعية.. أنا أتحدث عن لينين.

ـ إنه زعيم الشيوعية.

ـ إنه منشئ الاتحاد السوفيتى، حليف بريطانيا فى حربها الآن، وبريطانيا هى حليفتكم!

ـ من أين أتيت بهذا الكلام عن لينين؟

ـ إنه مكتوب فى كل الكتب المؤلفة عن تاريخ حياته.

ـ وماذا فعلت بهذه الكتب؟

ـ أعطيتها لبعض الناس.

ـ ليلفوا فى أوراقها الفول السودانى؟

ـ لا.. ليقرأوها!

ـ يا حضرات المستشارين! أنتم تعلمون أن كل الكتب عن لينين ممنوعة فى هذه البلاد. والمتهم يعترف أمامكم. بترويج الكتب الشيوعية، وهى جريمة ينص عليها قانون العقوبات. والنيابة تحتفظ بحقها فى إضافة هذه التهمة الجديدة إلى قائمة الاتهام!

ـ أنت حيرتنى! ساعة تقول إننى نازى. وساعة تقول إننى شيوعى!

ـ أنت أسوأ من الاثنين!

ـ أنا مصرى ولى رأيى!

ـ لو كنت مصريا! لما استشهدت بلينين الشيوعى!

ـ تريد مثلا مصريا؟

ـ نعم، لأن الكتب الشيوعية ممنوعة، ولا يجوز الاستناد قانونا إلى كتاب مخالف للقانون!

ـ النيابة تريد أن تشنقنى بأى تهمة!

ـ انتظر حتى أواجهك بالتهمة الكبرى الخطيرة!

ـ هل توجد أخطر من كل هذه التهم

ـ إن النيابة تتهم هذا المتهم بأنه تواطأ مع الألمان، ليدخلوا القاهرة، على حين غفلة من أهلها!

ـ هذه التهمة بحروفها وألفاظها، هى نفس التهمة التى وجهها محمد على إلى الزعيم الوطنى عمر مكرم، عندما أراد أن يتخلص من معارضته!

ـ المتهم يختلق الوقائع ويزيف التاريخ!

ـ أنا لا أزيف التاريخ يا سعادة رئيس النيابة المحترم! أنا لا أحذف كلمات من كتب التاريخ! أنا لا أضع فى كتاب التاريخ اسم الراقصة نشوى عبده، وأحذف اسم بهية مسقعة!

ـ المتهم مصاب بلوثة تاريخية! يريد أن يدخل التاريخ! التاريخ ليس صندوق قمامة!

ـ كتب التاريخ فيها أسماء الملوك والصعاليك. وكثير من أعمال الصعاليك تنسب كذبا إلى الملوك.. وكثيرا ما يفعل الملوك فى كتب التاريخ ما فعلتم فى محضر التحقيق!

ـ المتهم فضح نفسه وعاد يتكلم بلغة الشيوعيين!

ـ إننى لا أزيف التاريخ.. وإنما أتكلم بلغة التاريخ.

ـ أنت تتهرب من الاجابة.. تختفى وراء الشعارات والكلمات البراقة.

ـ الحقيقة دائما لها بريق!

ـ أنت ادعيت على محمد على أنه لفق قضية خيانة وتخابر ضد الزعيم الوطنى محمد عمر مكرم، فلما طالبناك بالدليل، رحت تلف وتدور. إنك لست مجرما فقط، أنت مزيف للتاريخ!

ـ إننى لا أزيف التاريخ. هذا الكلام منقول حرفيا عن المؤرخ الكبير الجبرتى، الجزء الثالث، صفحة ١٠٠، وهذا هو كتاب الجبرتى أقدمه إلى المحكمة.

ومد عم عبده يده تحمل الكتاب، وتناوله منه كاتب الجلسة، وحمله الكاتب إلى رئيس المحكمة، الذى فتح صفحة ١٠٠ ثم هز رأسه مرة وناوله إلى عضو اليمين الذى قرأه ثم هز رأسه مرتين، وناوله إلى عضو اليسار الذى قرأه، ثم هز رأسه ثلاث مرات، ثم ناوله إلى رئيس النيابة، الذى دفن رأسه فى صفحات الكتاب، ولم يرفعه.

وقال رئيس المحكمة :

ـ مضبوط! لقد قال المؤرخ الجبرتى هذا الكلام!

واحمر وجه رئيس النيابة، ثم أصفر وجهه، ثم قال فى ضيق :

ـ يا حضرات المستشارين، هذا المتهم يريد أن يعطل سير العدالة. ويثير مسائل لا علاقة لها بالقضية. يدخل بنا فى تفريعات ومناقشات لا داعى لها! يقلب المأساة إلى كوميديا! إنه يشبه نفسه بالزعيم الوطنى الكبير عمر مكرم!

ـ وأشبهك أنت بمحمد على الكبير!

ـ اخرس!

ـ أنا مستعد أن أخرس. ولكن الحقيقة لابد أن تتكلم!

ـ الذى يتكلم الآن هو الاكاذيب.

ـ إن التهمة التى وجهتها لى هى نفس التهمة التى لفقها محمد على ضد الزعيم الوطنى عمر مكرم!

وضرب رئيس النيابة بقبضته على المنصة التى أمامه، فتطايرت الأوراق من فوقها وقال فى صوت متهدج :

ـ هذه جريمة عيب فى الذات الملكية ترتكب فى حرم المحكمة !

ـ إننى لم أذكر عن الملك أى كلمة !

ـ أنت قلت أن محمد على الكبير بيلفق القضايا ضد الأبرياء ! إن ساكن الجنان محمد على باشا الكبير هو مؤسس الأسرة العلوية الكريمة. وهو جد جلالة الملك فاروق. وعندما تقول إن جد جلالة الملك ملفق، فهذا عيب فى جلالة الملك الجالس على العرش. والنيابة تحتفظ بتوجيه تهمة العيب فى الذات الملكية إلى المتهم.

ووقف محمد على علوبة باشا وقال فى هدوء :

ـ يبدو أن رئيس النيابة يريد أن يوجه إلينا كل التهم الموجودة فى قانون العقوبات ! ولا أستبعد بعد ذلك أن يوجه للمتهم تهمة إشغال طريق، والسير على يسار الطريق، وإدارة كازينو قمار، وبيع مواد تموينية أغلى من التسعيرة، إلى آخر مواد قانون العقوبات !

ـ النيابة لا تتصيد التهم !

ـ إنك كلما فوجئت بتهمة تنهار.. اخترعت تهمة جديدة !

ـ النيابة ترفض أن يصفها الدفاع بالاختراع !

ـ الحاجة أم الاختراع !

ـ النيابة ليست فى حاجة إلى أدلة اتهام.. وإنما المتهم هو الذى فى حاجة إلى أدلة يدافع بها عن نفسه.. وهذا ما جعله يخترع هذه الأسانيد التاريخية.

ولوح عم عبده بكتاب فى يده وقال :

ـ إن هذه الواقعة التى ذكرتها الآن أمام المحكمة مذكورة فى كتاب المؤرخ أمين سامى باشا الجزء الثانى صفحة ٢١٨.

واستغرق المستشارون الثلاثة فى مراجعة كتاب المؤرخ أمين باشا سامى.

وتهلل وجه قسمت.

وابتسم المحامون.

ونظر عادل إلى قسمت بإعجاب، فقد شعر أنها اشتركت فى إعداد هذه المستندات، ولكن قسمت أدارت رأسها...

وحدثت همهمة بين الحاضرين، وامتقع وجه رئيس النيابة، وراح يقلب بعصبية بعض الأوراق التى أمامه.. واتجهت عيون الحاضرين إلى عم عبده.. يتأملون وجهه الذى لم تفارقه الابتسامة الساخرة.. وأحسوا بأن هذا الرجل الهزيل الضعيف الضئيل يحارب عملاق السلطة. نواة تقاوم الريح! رجل من قش يصمد للمطارق التى تنهال فوق رأسه من يد رئيس النيابة الذى لا ييأس أبدا، ثم يفاجأون بهذا الرجل الضئيل ينتزع المطرقة من رئيس النيابة ويهوى بها عل رأسه.

وكان الحاضرون فى أول الأمر يشفقون على القزم عندما تهوى فوق رأسه سياط رئيس النيابة الجبار ومطارقه وصواعقه.. قلوبهم على الضعيف تهمس بالحب، وألسنتهم خرساء تخاف أن تهتف بكلمة الحق.. ولكنهم عندما رأوا القزم الصغير يخطف السوط من يد الجبار وينهال عليه، تحولت الشفقة إلى إعجاب وتجرأت الكلمات الجبانة وخرجت تهتف فوق الشفاه. فترددت كلمات الاعجاب بعم عبده، بعد أن تحول المظلوم المسحوق إلى بطل.

ولهذا أحس الذين حضروا الجلسة بأنهم ينتقلون فجـأة مـن مقـاعد المتفرجين إلى المسرح. وبدأت الهمسات تعلو.. كأن المحكمة تحولت إلـى مباراة للملاكمة. الحاضرون يهللون لكل ضربة يوجهها عم عبده إلـى رئيس النيابة، ويستنكرون كل ضربة يلطم بها رئيس النيابة وجه عم عبده.

وتبادل الطرفان مواقعهما فى عيون الحاضرين.. كأن الحماس رفـع عـم عبده من قفص الاتهام وأجلسه فى مقعد المدعى، وأصبح رئيس النيابة هو الذى فى قفص الاتهام!

ولاحظ رئيس المحكمة أن المحامين بدأوا يستعدون للانقضاض علـى رئيس النيابة. ولاحظ أن الجمهور بدأ يفقد سيطرته على أعصـابه وعلـى ألسنته وبدأت تصل إلى أسماع المحكمة ألفاظ الهزء والزراية والاستخفاف برئيس النيابة.

واشتدت عصبية رئيس النيابة. وبدأ الجو يتكهرب فى الجلسة. وسـارع رئيس المحكمة يحاول انقاذ الموقف.

وأعلن فجأة وقف الجلسة للاستراحة.

وأظهر الحاضرون اسـتياءهم بمصـمصة شـفاههم، ويـدب الأرض بأقدامهم. وشعروا أن رئيس المحكمة أشبه بالحكم فى مباراة ملاكمة، رأى أحد المتبارين هوى على الأرض أثر ضربة قاضية. فأسرع يـدق الجـرس معلنا انتهاء الجولة، قبل أن يعد من واحد إلى عشرة.. ويسـتمر المـلاكم المهزوم ملقى على الأرض بلا حراك!

* * *

ثم أعيدت الجلسة..

وبدأ رئيس النيابة كأنه استرد أنفاسه، أو اتصل بـرؤسائه، ووقف فى بداية الجلسة يقول:

ـ يا حضرات المستشارين رأيتم بأبصاركم، وسمعتم بآذانكم، وعـرفتم خطورة المتهم الماثل بين أيديكم! المتهم الذى ادعى طوال التحقيق أنـه شحاذ ساذج، هل هذه عقلية شحاذ ساذج؟ إن كل إجاباته أمامكم تقـطع بأنه عميل مدرب، عميل خطير، أعدته ألمانيا النازية ليقوم بعمليات تخـريب خطيرة فى البلاد، وعلمته المخابرات النازية طرق مراوغة القانون وتضـليل العدالة. تنكر فى زى متسول ليخدع البوليس، ويخدع الدولة ويخدع القانون. إنكم رأيتم كيف حاول أن ينقل قضيته من القرن العشرين إلى القرن التاسع عشر. من ورق التحقيق إلى كتب التاريخ. إن وقائع الحاضر شاهدة عليـه! تدينه وتأخذ بتلابيبه!

إننى أستأذنكم أن أقطع عليه الطريق، وأدعو شاهدة الاثبـات وسـوف تسمعون وقائع تشيب لها الرؤوس، وقائع لن يجد المتهم أمـامها مهـربا فى كتب الجبرتى وأمين سامى باشا..

وتداول رئيس المحكمة مع زميليه ثم قال لحاجب الجلسة:

ـ استدع الشاهدة نشوى عبده!

الفصـل الرابع والأربعون

دخلت نشوى إلى قاعة محكمة الجنايات. دخلت تتهادى كأنهـا ملـكة، وكأن اشواق الرجال عبيدها وجواريها، يسبقها عطرها الأخاذ، يملأ الانوف، ويسكر الرؤوس، ويجعل الاجسام تترنح.

ارتدت أفخر ثوب لديها. ثوب أحمر فاقع، مزركش، مدندش.. يكشف عن ذراعيها المخروطتين وساقيها الطويلتين، وجزء من صدرها، وهو يتـظاهر بأنه يغطيها!

كل ما فيها مثير. كأنها علقت على جزء من جسمها بطاقة دعوة .. شعرها الأسود الناعم يدعو الاصابع تلعب بخصلاته.. عيناها الكبيرتان الشرهتـان تغطيهما بنظارة سوداء فتفشل النظارة فى أن تخفى ما فيهما من جوع، بـل أنها على العكس تضاعف من خيال الناظرين. فمها الشهوانى يـطل منـه مطرب يصيح : يا مرحبا.. بالقبلات.. صدرها يتحرك تحت فستانها، وكأنـه يحاول أن يمزق الفستان الحريرى الاحمر ويخرج منه إلى العيون المبهورة، وإلى العيون الحالمة وإلى العيون الفاجرة!

واشرأبت رؤوس الموجودين.. لووا رقابهم، مدوها، بدأت أعناقهم وكأنها طالت فجأة، وكأن كل واحد منهم ضاعف طول رقبته لترى عيناه أكثر ممـا اعتادتا أن تريا!

حاجب الجلسة لوى شاربه باصابع مضطربة. كاتب الجلسة أخرج لسانه. العجوز المذهول استعاذ من الشيطان الرجيم بلسانه، واثنى عليه بعينه..

وهيب بك دوس المحامى أسرع يصلح رابطة عنقه. المستشارون الثلاثة تحركوا فوق مقاعدهم. استيقظ المستشار عضو اليمين من غفوته الدائمة واعتقد أنه يحلم. خلع عضو اليسار نظارته ومسح زجاجها بمنديله حتى تزيد وضوح الصورة فى عينيه. رئيس المحكمة مد رأسه أمامه، حتى كادت تعبر منصة العدالة، وتلتصق برأس الراقصة نشوى!

ورفع عادل رأسه نحو نشوى فى إعجاب. إنه لم يرها من قبل فى كل هذه الاثارة والأناقة والجمال وابتسم فى استغراب، فقد كانت نشوى أشبه بغانية حضرت لتنام مع محكمة الجنايات، لا شاهدة جاءت لتؤدى الشهادة أمامها!

وفتح عم عبده فمه فى دهشة.. كانت نشوى امرأة شائقه، أشبه بتفاحة ناضجة شهية. وخيل إليه أن كل الموجودين فى قاعة الجلسة فتحوا أفواههم مثله. وأن فى كل فم من هذه الافواه الجائعة قطعة من التفاحة. كلّ فم أصبح فيه بعض من حلاوة نشوى!

وشعر عم عبده بشىء من الزهو والفخر، كأنه اشترك فى صنع هذا الجمال، عندما ساعد الخادمة شلبية الوحش لتكون راقصة فى صالة بديعة! تغلب الرجل فيه على المتهم! نسى أن هذه المرأة شاهدة الاثبات ضده، ولم يذكر الا جمالها الفتان!

احست قسمت بالغيظ الشديد وهى تشاهد هذه المظاهرة الصاخبة لجمال الراقصة نشوى عبده.. عجبت كيف يستطيع الزيف أن يخفى قبحه تحت هذا الجمال المصنوع.. عجبت أن ترى الناس يتدافعون إلى قاعة الجلسة، ويملأونها، ولا يجدون مكانا فيسدون الممرات. عجبت الا يهتم

الناس برؤية مشنقة الظلم وهى تلف حبلها على عنق برىء، ويهتمون برؤية جسد راقصة! خيل إليها أن انصار الراقصة أكثر كثيرا من انصار العدالة! شعرت قسمت أن احدا من كل هؤلاء الملهوفين على رؤية الـراقصة.. رأى كل تفاصيل جسدها المثير.. ولم ير حبل المشنقة الذى حملته فى يدها! لقد اعترفت مرغمة أن نشوى بدت فى قاعة الجلسة رائعة الجمال، وكأنها رشت كل الموجودين فى القاعة، واعطت كل رجل منهم قطعة من جمالها، تلسـعه وتكويه، أو تحرقه وتشويه. إنها فعلا أعطت كل عين ما تأكله من جسـدها! اعطت رجلا شعرها، واعطت أخر صدرها، وأعطت ثالثا ذراعهـا، ورابعـا ساقها، وخامسا أناملها الرقيقة. وخيل إلى قسمت أنها اعطت لرئيس النيابة المدهوش إحدى عظامها فراح ينهش العظام بشبق عجيب!

ومع ذلك فقد عجبت قسمت أن تستطيع هذه المرأة أن تسـحر القـاعة بطريقة مشيتها، وتشعر كل من يراها كأنها ترقص له عارية، حتى أنها نومت كل الرجال فى القاعة تنويما مغناطيسيا.. وزاد ضيقها أن الشـيخ المعمـم صاحب اللحية الطويلة الذى يجلس خلفها وكان يتثاءب أثنـاء المنـاقشة العنيفة بين عم عبده ورئيس النيابة، فتح عينيه فجأة، وقال فى صوت مرتعش إن الله جميل يحب الجمال!

* * *

وملأت ابتسامة كبيرة فم رئيس المحكمة، وقال لها فى صوت ناعم رفيق، وكأن الكلمات (ملبسة) تذوب بين شفتيه:

ـ اسم الهانم؟!

ـ نشوى عبده.

ـ السيدة نشوى عبده.

ـ لا.. الانسة نشوى عبده.

ـ طبعا.. طبعا.

وأخفت قسمت ابتسامة خبيثة ونظرت بنصف عين ساخرة إلى وجه عادل وكأنها تطالبه أن يقف ويؤدى شهادته فى هذا الموضوع.. ولكن عادل أخفى رأسه فى الورق الذى أمامه!

وعاد رئيس المحكمة يسأل نشوى فى رقة بالغة:

ـ مهنتك؟ راقصة! اشهر من نار على علم!

ـ راقصة فنانة!

ـ ما الفرق بين الراقصة والراقصة الفنانة؟

ـ الراقصة ترقص بجسدها، والراقصة الفنانة ترقص بروحها وجسدها!

وقاطعها وهيب دوس المحامى ساخرا!

ـ يقولون إن الراقصة هى المرأة التى تبيع لحمها بالجملة للعيون الجائعة!

ولم تغضب نشوى من سخرية المحامى اللاذع، بل قالت فى هدوء:

ـ أنا شخصيا ابيع لحمى.. بالقطاعى!

واستشاط رئيس المحكمة غضبا وقال لوهيب دوس:

ـ المحكمة قررت حذف هذا السؤال غير اللائق من المحضر!

وابتسمت نشوى ابتسامة حلوة جعلت رئيس المحكمة يزداد رقة ويقول:

ـ عمر الانسة.. عشرون سنة طبعا؟

ـ لا ٢٣ سنة!

ـ يبدو عليك أصغر كثيرا من هذه السن ! قولى والله العظيم أقول الحق.

ـ والله العظيم أقول الحق.

ـ وابتسم على أيوب المحامى، ومال على الاستاذ علوبة باشا وقال لـه هامسا :

ـ رئيس المحكمة كله نظر! الم تلاحظ أنه سأل الراقصة نشوى عن عمرها اولا، وبعد ذلك طاب منها أن تقسم اليمين أن تقول الحق

ولم يسمع رئيس المحكمة ملاحظة المحامى الخبيثة، فقد كان مشغولا بتأمل الشاهدة، وكأنها ملف القضية !

ومضى يسألها :

ـ هل تعرفين المتهم عبده عبده؟

ـ أعرفه جيدا

ـ كان يتردد على الصالة !

كان يتردد على بيتى

ـ ما هى معلوماتك عنه؟

ـ طيب فى خبيث، صريح فى مراوغ.

ـ لقد رأينا ذلك بأنفسنا !

ـ وهو ذكى لماح، سريع الخاطر

ـ ما هى معلوماتك عن القضية،؟

ـ ذكرتها فى التحقيق أمام النيابة

ـ الا تريدين أن تعدلى عن أى شىء فيها؟

ـ متمسكة بكل حرف فيها.

ـ الا تريدين أن تضيفى أى شىء لها؟
ـ انني قلت كل ما اعرفه وما أقسمت اليمين عليه.
واصفر وجه عادل وقسمت وعم عبده فى وقت واحد.

فوجئ عادل بهذه الأجابة القاطعة. كان يتوهم أن نشوى ستحافظ على الكلمة التى اعطتها لشقيقته اميرة، وتقول الحقيقة كاملة!
عض على شفته أسفا على الليالى التى أمضاها بين ذراعيها من أجل أن يحصل على الحقيقة خان قسمت، أغضبها، أثارها، فقد علاقته الحلوة بها. ولكن نشوى خدعته، باعته لأول زبون دخل بعد خروجه!

وامتقع وجه عم عبده. شعر أن نشوى فقدت فجأة كل جمالها الذى سلب عقله! لم يتصور أن فى داخل كل هذا الجمال، يوجد كل هذا القبح، وكل هذه البشاعة!

وهزت قسمت رأسها! إنها لم تخدع أبدا فى الراقصة نشوى. إنها رأتها دائما على حقيقتها. ما أغبى عادل الذى تصور أنه يستطيع أن يقنع نشوى بجسده، بعد أن عجز أن يقنعها بكلماته كيف لا يعلم زئر النساء أن أجساد الغانيات، تقتنع وهى بين اذرع الرجال، فاذا ذهب الرجل أخذ معه كلماته، الرجل يستطيع أن يدخل جسد الغانية، ويستطيع أن يدخل قلبها، ولكنه لا يستطيع أن يدخل عقلها ابدا، لان عقل الغانية يختلف عن عقول النساء العاديات، إنه مصنوع من أكاذيب الزبائن، من خداع العشاق، من مرارة التجارب، من قسوة الايام، الغانية تفتح قلبها بسهولة؛ وتفتح جسدها بسهولة أكثر، ولكنها لا تفتح عقلها ابدا!

وعاد رئيس المحكمة يسأل نشوى:
كيف عرفت أن المتهم يتعامل مع الالمان؟

ـ قال لى ذلك صراحة.

ـ أنت قلت أنه صريح فى مراوغ.. فهل سألته، أو استدرجته؟

ـ إننى لم أساله.. ولم استدرجه!

ـ كيف يقول لك هذا السر الخطير؟

ـ عندما يحب الرجل تنحل عقدة لسانه! الرجل يكتم سره عن أقرب الناس اليه، ولكنه يبوح بسره للمرأة التى يعشقها!

ـ قال كل شىء لأول وهلة؟

ـ لم يقل كل شىء.. قال بعض الاشياء.. والكأس الثالثة قالت الباقى!

ـ قد يكون هذا كلام سكارى!

ـ قال نفس الشىء مرة أخرى قبل أن يلمس كاسا واحدة!

وهنا وقف محمد على علوية باشا وقال:

ـ مع اعترافى الكامل بقوة جاذبيتك يا آنسة، وبسحر جمالك، وبقدرتك على السيطرة على الرجال، فاننى أحب أن أسالك ما الذى يدعو عميلا سريا لدولة أجنبية، أن يعترف لراقصة بأنه عميل سرى؟

ـ اراد أن يخفى عندى جهاز الارسال والحبر السرى الذى كان يكتب به رسائله!

ـ وهل اخفيت الجهاز عندك،

ـ رفضت طبعا.

ـ ما الذى يدعو المتهم أن يستمر فى التردد عليك، بعد أن رفضت أن تخفى عندك جهاز الارسال؟

ـ لأنه كان يحبنى!

ـ وهل كنت تحببينه!

ـ كنت اعطف عليه!

ـ ما الفرق بين الحب والعطف؟

ـ كالفرق بين الشيك المصروف من البنك.. والشيك بلا رصيد

ـ ماذا قال لك المتهم عن اسباب تعامله مع الالمان!

ـ قال إنه يحبهم.

ـ يحبهم.. أو يعطف عليهم

ـ يحبهم!

ـ أى شيك مصروف!

ـ لم أر الشيك.. وإنما رأيت معه مبالغ كبيرة!

ـ قلت فى التحقيق إنه قال لك إنه يعمل مع الالمان لأنهم يدفعون له مبالغ كبيرة.. وتقولين الآن إنه قال لك أنه يعمل مع الالمان لأنه يحبهم!

ـ قلت هذا عن حديث آخر بينى وبينه، تم بعد حديثى الأول.

ـ ولماذا قلت الحديث الثانى، ولم تقولى الحديث الأول؟

ـ يمكنك أن ترجع لأقوالى أمام النيابة، وسوف تجد أننى ذكرت الروايتين، ووقف رئيس النيابة، يتمايل مختالا، وفوق وجهه تعبيرات الانتصار لاول مرة:

ـ إن ما تقوله الانسة نشوى الان مؤيد بأقوالها فى التحقيق. إنها قالت فى صفحة ٣٣٧ بالحرف الواحد: «قال لى عبده فى أول الامر إنه يحب الالمان» وفى صفحة ٣٣٩ قالت بالحرف الواحد «ذكر لى فى لقاء آخر أنه يتقاضى من الالمان مبالغ كبيرة».. إن هذه الشهادة صادقة مائة فى المائة!

ووقف على أيوب المحامى وقال:

ـ اريد أن اسأل الانسة نشوى هل سبق لهـا الاشـتغال بـالسينما أو المسرح، وتدخل رئيس المحكمة قائلا:

ـ ما علاقة هذا السؤال بالقضية؟

ـ انه فى صميم القضية.

وقالت نشوى دون أن تلتفت إلى على أيوب:

ـ عملت بالسينما.

ـ راقصة.. أم ممثلة؟

ـ ممثلة فى ثلاثة افلام هى «قبلة فى السماء» و «العـاشق المجهـول» و «الحب بعد منتصف الليل».

ـ أى الأدوار قمت بها؟

ـ فى الفيلم الأول قمت بدور معلمة فى مدرسة بنات، وفى الفيلـم الثـانى قمت بدور بائعة فى محل تجارى، وفى الفيلم الثالث قمت بدور فتاة فى السيرك.

ـ وهل نجحت فى هذه الأدوار؟

ـ طبعا، وقال النقاد أننى تقمصت هذه الشخصيات.

ـ هل قالوا أنك أجدت التمثيل؟

ـ أجمعوا على ذلك!

ـ هل تكون شهادتك أمام المحكمة هو الدور الرابع الذى تقومين به؟

واهتز رئيس النيابة فوق مقعده، وصاح :

ـ هذه إهانة للشاهدة وتجريح لها !

ـ الدفاع قصد أن يستوضح !

ـ ليس هذا استيضاحا انه اعتداء على كرامة الفنانين !

قال وهيب دوس بك مازحا :

ـ إلى سنوات قليلة كانت المحاكم الشرعية فى مصر لا تقبل شهادة الفنانين والموسيقيين والقراداتية !

ولم تفقد نشوى أعصابها فقالت دون أن تلتفت إلى وهيب بك :

ـ وقبل ذلك كانت المحاكم فى مصر ترفض سماع شهادة المحامين وتسميهم « النصابين »!

ـ هذا اعتداء على كرامة المحامين !

ـ أنت الذى بدأت.. والبادى أظلم !

* * *

وفوجئت قسمت فى مقعدها، وهى ترى وجوه الحاضرين فى الجلسة إعجابا بردود نشوى على المحامين ! كانوا أثناء المناقشة مع رئيس النيابة مع عم عبده ومع المحامين ضد رئيس النيابة.. ثم انقلبوا مع شاهدة الأثبات ضد المحامين ! وسألت نفسها : هل شهوات الرجال تتغلب على عقولهم، أم أن ذكاء المرأة يستهوى الرجال كما يستهويه جمالها وأنوثتها، فاذا جمعت المرأة بين الذكاء الصارخ والجمال الصارخ اكتسحت كل من يقف أمامها !

وكان رئيس المحكمة أكثر من الحاضرين أعجابا بردود نشوى وسرعة

خاطرها. كان يهز رأسه مع كل كلمة تقولها، وكأنه يقول «آمين»!

ووقف وهيب دوس بك المحامى وقال:

ــ أطلب من المحكمة أن تسمح للشاهدة أن تدير رأسها إلى ناحية الدفاع!

وذهل المستشارون الثلاثة لهذا الطلب الغريب. وقال رئيس المحكمة فى غضب:

ــ المحكمة لا تفهم هذا الطلب،

ــ المحكمة استمتعت مدة كافية بجمال الشاهدة، ومن حق الدفاع أن يستمتع بنصيبه من هذا الجمال!

ــ المحكمة تلفت نظر الاستاذ المحامى أنه لايجوز له أن يوجه للمحكمة مثل هذه الكلمات!

ــ إننى أريد أن أوجه سؤالا للانسة نشوى، وهذا السؤال يستوجب أن تنظر الانسة نشوى إلى ناحيتى، أظن أن هذا من حقى!

واستدارت نشوى إلى ناحية مقاعد الدفاع وعلى فمها ابتسامة

ولم يضعف وهيب دوس أمام سحر الابتسامة الصاعقة، فقال:

ــ قلت ياأنسة فى محضر تحقيق النيابة، إن المتهم كان فى اللقاء الاول يرتدى كرافته زرقاء مخططة باللون الابيض؟

ــ نعم قلت ذلك.

ــ وقلت إن المتهم فى اللقاء الثانى كان يرتدى رباط عنق رماديا بنقوش خضراء.

ـ نعم قلت ذلك.

ـ ماهى المدة التى مضت بين هذين اللقاءين، واقوالك فى التحقيق؟

ـ حوالى عامين.

ـ هل من المعقول أن تتذكرى بعد عامين لون رباط عنق رجل رأيته؟ كان يرتدى رباط عنق رماديا بنقوش خضراء،

ـ كلما رأيت رجلا نظرت إلى رباط عنقه!

ـ ولا تنسين لون رباط عنقه.

ـ مطلقا..!

ـ حتى ولو بقيت معه نصف ساعه؟!

ـ ولو بقيت معه دقيقة واحدة

ـ إنك يا أنسة بقيت تواجهين سعادة رئيس المحكمة نصف ساعة تقريبا.. فهل يمكنك أن تقولى لى ما هو لون رباط عنقه؟ أرجوك الا تنظرى الى ناحية سعادة رئيس المحكمة.

ـ لست فى حاجة إلى أن انظر إلى ناحيته.

ـ اذن ما هو لون رباط عنقه:

ـ لون رباط عنق رئيس المحكمة هو أسود وفيه نقط حمراء صغيرة، ولون رباط عضو اليسار أخضر غامق وفيه ورود سوداء، ولون رباط عضو اليمين رمادى وفيه نقط بيضاء وخضراء!

ونظر المستشارون الثلاثة إلى صدورهم، ورأوا لون أربطة رقابهم كان كل

واحد منهم نسى لون رباط رقبته. وفوجئوا بأنها كلها مطابقة للالوان التى حددتها الراقصة نشوى.

وذهل الحاضرون لقوة ملاحظة نشوى. إن كثيرين منهم مضى عليهم أكثر من ساعتين يواجهون المستشارين. ولم يلاحظوا الوان اربطة رقابهم!

ونظروا إلى وهيب دوس فى تشف واحس وهيب دوس بنظرات التشفى تحاصره فقال:

ــ ما رأيك أن المتهم لايرتدى رباط عنق؟

قالت نشوى دون أن تنظر إلى عم عبده:

ــ ربما لا يرتدى رباط عنق الان.. ولكنه عندما كان يزورنى كان يرتدى رباط عنق!

ــ وكان يخلعه؟

ــ يخلعه اذا كان الجو حارا! وهز وهيب دوس رأسه وجلس فى حسرة.

والتفت إلى علوية باشا وقال له:

ــ إنها شاهدة خطيرة!

ــ خطيرة جدا!

ــ لقد عرف البوليس السياسى كيف يختار شاهدته!

ــ إنها أذكى من ضباط البوليس السياسى جميعا!

ووقف على أيوب المحامى وسأل نشوى:

ــ أنت تقولين إن المتهم قال لك أنه يعمل عميلا للالمان!

ـ نعم..

ـ وتعرفين أن مصر تعتبر الالمان اعداء!

ـ نعم..

ـ وتعرفين أن هذه جريمة!

ـ طبعا..

ـ وعرفت هذا من أول مقابلة!

ـ نعم.

ـ لماذا لم تبادرى بابلاغ الشرطة على هذه الجريمة الا بعد المقابلة التاسعة كما قلت فى التحقيق؟

ـ لم أحمل حديثه الاول على محمل الجد.

ـ وبعد الحديث الثانى؟

ـ تصورت أنه يمزح تحت تأثير الخمر.

ـ وبعد الحديث الثالث؟

ـ إننى أذا رأيت صديقا ينوى أن يرتكب جريمة لا أبلغ الشرطة.. وإنما أنصحه اولا.

ـ وهل نصحته؟

ـ نعم، قلت له أنه يلعب بالنار!

ـ وما الذى جعلك تبلغين الشرطة عنه.

ـ عندما اراد أن يخفى عندى جهاز الارسال!

ـ الم تطلبى منه نقودا، فلما رفض ابلغت عنه؟

ـ لم أكن فى حاجة إلى طلب النقود لقد كان ينفق بلا حساب!

ـ أنت تقولين إن المتهم صديقك؟

ـ نعم إنه صديقى!

ـ وهل أنت سعيدة الآن؟ لأنك سلمت رأس صديقك والرجل الذى كان يحبك كما تقولين إلى حبل المشنقة؟

ـ سعيدة كمواطنة.. وتعيسة كامرأة.

ـ هل بكيت عليه؟

ـ أبديت استعدادى لدفع أتعاب المحامين عنه!

قالت نشوى الجملة الأخيرة بتأثر شديد، وكأن كل كلمة من كلماتها تذرف الدموع.

* * *

وهز الجالسون فى قاعة الجلسة رؤوسهم، وكأنهم يسمعون أغنية لأم كلثوم.

وأخرجت سيدة تجلس فى الصف الأخير منديلها وجففت دموعها.. استطاعت نشوى فى دقائق أن تنتزع الحاضرين من حزب عم عبده، لتضمهم إلى حزبها.. الذين لعنوا رئيس النيابة لقسوته على عم عبده أصبحوا يلعنون عم عبده.. شعروا أن كل كلمة تقولها الشاهدة فيها صدق وإخلاص.

لم تعد التى تتكلم هى الراقصة نشوى، وإنما هى السيدة حقيقة.. خيل لكل واحد منهم أنه خبير فى معرفة الحقيقة، إن هذه هى ملامحها هذا هو صوتها فنحن عندما نحب إنسانا نصدقه حتى ولو كذب.. وعندما نكره إنسانا نكذبه ولو صدق!

ـ استطاعت نشوى أن تسيطر عليهم جميعا. سيطرت على العقلاء منهم بصوتها الهادئ. الواثق من نفسه، الساحر الناعم الرقيق، المليء بالبراءة!

وسيطرت على المجانين منهم بجمالها الطاغى، وفتنتها الباهرة وأنوثتها الصاخبة!

وسيطرت على أنصاف العقلاء بثباتها.

وسيطرت على أنصاف المجانين بسرعة ردودها.

وسيطرت على كاتب الجلسة بعطرها، وعلى حاجب الجلسة باستدارة مقعدها، وسيطرت على المستشارين الثلاثة لأنها كانت متجهة بكليتها إليهم!

كانت عيناها الساحرتان تأسرانهم من خلف نظارتها. وكأن نظراتها تقبل المستشارين الثلاثة معا، وتهمس فى أذن كل واحد منهم بأن القبلة له وحده، دون سواه!

وسيطرت على رئيس النيابة عندما وجدها تنتقم له من عم عبده والدفاع، فترد للمحامين الصاع صاعين، والتحية بأحسن منها!

وكانت نشوى فعلا أقوى شخصية فى قاعة محكمة الجنايات. أصبحت تملأ القاعة كلها، كأنها ابتلعت كل من فى القاعة!

ونظرت قسمت حولها فى جزع.. رأت أن كل من فى القاعة افتتن بالراقصة الكاذبة، واقتنع بصدقها وآمن بأنها تقول الحقيقة.. كل الحقيقة.. ولا شىء سوى الحقيقة!

إنها ليست غانية فقط. إنها ممثلة كبيرة. حفظت دورها، اندمجت فيــه، اقنعت به المتفرجين.. حتى أن المحامين أنفسهم بدت عليهــم الحيــرة، كأنهم بدأوا يتشككون فى براءة عم عبده!

ونظر عادل علاء الدين إلى ساعته.. ونظر فى قلق إلى باب قاعة محــكمة الجنايات.. وإلى وجه عم عبده الذى اختفت منه الابتسامة.. وحلت مــكانها صور الدهشة والعجب والذهول.. ثم نظر إلى وجه قسمت. فوجدها تتجــه برأسها إلى سقف الغرفة، وكأنها تتجه إلــى الله. إنهــا طــريقتها دائمــا عندما يخذلها الذين (تحت) فتتجه بعينيها إلى (فوق)!

ولكن عادل كان يعرف أن الله لن يرسل النجدة المطلوبة مــن (فــوق).. وإنما سوف يرسلها من باب قاعة محكمة الجنايات!

ولم يدخل أحد من الباب.

ومضت نشوى تروى معلوماتها فى القضية فى تفصيل، فى دقة، فى طلاقة.. كأن مؤسسة كبرى للكذب والافتراء والتلفيق تعمل فى خدمتها.. كل سؤال له جواب. كل كلمة لها مستند فى أوراق التحقيق.. كل رواية منطقية ومعقــولة وقابلة للتصديق. كل ما تقوله لا يتطرق إليه الشك، مهما حاول الــدفاع أن يشكك فيه!

* * *

وعندما كادت تنتهى من روايتها نظر عادل خلفه. ورأى شــقيقته أميــرة

تدخل إلى القاعة، وهى تحمل فى يدها شيئا ملفوفا فى جريدة.. وخلفها الأسطى طه الطاهى، وكامل المكوجى، وسعيد السفرجى!

وجلست أميرة فى هدوء بين علوية باشا وشقيقها عادل علاء الدين وجلس الطاهى والمكوجى والسفرجى فى الصف الثانى خلفهم..

ثم دخلت سيدة محجبة. واتجهت إلى الصف الأول، وجلست بجوار عادل، ثم كشفت حجابها، وتهامس الحاضرون قائلين: تحية كاريوكا.. تحية كاريوكا!

ولم تشعر نشوى، وهى مندمجة فى الادلاء بشهادتها، بدخول كل هؤلاء..

وكانت أميرة ترتدى معطفا أزرق مخططا بالأبيض، وكان الخدم يرتدون ثيابا رمادية..

ومال عادل على شقيقته أميرة يسألها عن اللفافة التى تحملها، فنزعت اللفافة.. وإذا به يجد (يد الهاون).

وابتسم عادل، ومال برأسه على الأستاذ علوية باشا وراح يسر فى أذنه بحديث طويل.

وانتهت نشوى من الادلاء بشهادتها، ولفت حبل المشنقة حول عنق عم عبده بإحكام.

وقال رئيس المحكمة المسحور إن المحكمة تشكرك يا أنسة نشوى على شهادتك الدقيقة الواضحة الصادقة.. وتتمنى لو كان الشهود جميعا الذين يأتون إلينا يكونون بهذا الصدق والدقة..

ثم التفت إلى الدفاع وقال:

ـ أظن أنه ليس لدى الدفاع أى أسئلة.. لقد أوضحت الآنسة نشوى كل شىء..

وقام علوبة باشا فى تثاقل وقال:

ـ الدفاع يريد أن يوجه سؤالين آخرين للآنسة نشوى.

ـ تفضل..

ـ يا آنسة .. قلت فى التحقيق وأمام المحكمة.. أن المتهم عبده كان يرتدى رباط عنق لونه أزرق مخطط بالأبيض..

قالت نشوى دون أن تلتفت إليه:

ـ فى اللقاء الأول كان يرتدى رباط عنق لونه أزرق مخطط بالأبيض.

ـ هل لونه بنفس لون معطف السيدة التى تجلس بجوارى مثلا!

واستدارت نشوى، ووقعت عيناها على أميرة، وعلى يد الهاون التى أمامها.

وترنحت نشوى كأنها ستسقط، بذلت مجهودا جبارا لتتماسك، ولكنها شعرت بأنها تتضاءل، عادت فجأة الخادمة شلبية الوحش. وأمامها الست أميرة. وفى يد الست أميرة (يد الهاون).

وتسمرت نشوى فى مكانها، كانت ترتجف. حاولت أن تتكلم فخانها لسانها. أخفت رأسها فى صمت.

وعاد علوبة باشا يقول فى هدوء، والكلمات تخرج من فمه بطيئة متثاقلة:

ـ وقلت إن المتهم كان يرتدى فى اللقاء الثانى رباط عنق رماديا بنقوش

بيضاء.. فهل اللون الرمادى، يشبه لون الثياب الرمادية التى يرتديها الرجال الثلاثة الذين يجلسون خلف هذه السيدة؟

ويقيت نشوى مطرقة برأسها.

وعاد علوية باشا يقول:

ـ انظرى إليهم جيدا.. إننا نعتمد على قوة ذاكرتك العجيبة!

ورفعت نشوى رأسها المنكسة، ورأت الرجا ل الثلاثة أمامها، وضغطت بأسنانها على شفتها، وكأنها ترى فضيحتها من جديد مع الطاهى والمكوجى والسفرجى!

وفجأة رأت وجه عدوتها ومنافستها تحية كاريوكا..

واصفر وجهها! شعرت أنها تموت وهى واقفة. بذلت كل أعصابها من أجل أن تبقى واقفة على قدميها!

ولاحظ رئيس المحكمة ارتباك نشوى فقال محتدا لعلوبة باشا:

ـ ما هى علاقة ألوان الكرافتات بموضوع القضية يا باشا؟

ـ أسف جدا.. إننى أسحب هذين السؤالين!

ـ هل لديك سؤال آخر؟

ـ لا.. ليس لدى أسئلة.. وإنما لدى زميلى وهيب دوس بك سؤال واحد فقط.

ووقف وهيب دوس بك وقال:

ـ إننا خصوم لك يا آنسة نشوى فى هذه القضية باعتبارك شاهدة

إثبات.. ومع ذلك فإننا نعجب كل الاعجاب بصدقك وقوة ذاكرتك العجيبة، ولا نشك فى صدق أى كلمة قلتها، ولهذا أريد أن أسألك سؤالا واحدا.. هل عم عبده الموجود فى القفص الآن.. هو عبده الذى قال لك إنه يعمل عميلا فى خدمة الألمان؟

وأدارت نشوى رأسها ناحية عم عبده. كانت هذه أول مرة تتجه ببصرها ناحيته.. تعمدت ألا تقع عيناها عليه.. كأنه بقى لديها بقية من حياء.. حياء القاتل من القتيل!

ومشت نحو قفص الاتهام بخطوات متعثرة.. كأنها تشيع جنازتها بقدميها.

وتوقفت أمام القفص، وحدقت فى عم عبده.

ثم خلعت نظارتها، وعادت تحملق فى وجهه من جديد.. وكل شىء فيها يرتجف ويرتعش وينتفض. وعادت بنفس الهدوء والخطوات المتعثرة إلى مكانها أمام رئيس المحكمة وقالت فى صوت خافت:

ـ ليس هذا هو..!

وحدثت ضجة فى المحكمة وعاد رئيس المحكمة يقول فى دهشة:

- ماذا تقولين؟

- ليس هذا عبده عبده الذى قال لى إنه يعمل عميلا للألمان.

ـ أنت وصفت فى أقوالك فى التحقيق عبده هذا وصفا دقيقا.. ينطبق على هذا المتهم!

ـ ولكن الذى أراه فى هذا القفص.. ليس هو عبده الذى أعرفه.

وقفز رئيس النيابة من مقعده كالمذهول وهو يقول:

ـ تذكرى يا آنسة! تذكرى جيدا!

ـ إنه ليس هو!

ـ إن ما تقولينه يا آنسة شيء خطير.. خطير.. خطير جدا جدا جدا!

ـ ليس هو!

ـ ضعى النظارة فوق عينيك!

ووضعت نشوى النظارة فوق عينيها وعادت تحملق فى عم عبده ثم هـزت رأسها وقالت:

ـ إنه ليس عبده الذى أعرفه!

ـ أرجوك يا آنسة نشوى.. اقتربى من القفص ودققى النظر جيدا!

واتجهت نشوى إلى القفص، ووقفت طويلا تفحص عم عبده، ثم عـادت تقول وهى تصر وكأنها لم تعد تحتمل أن ترى عم عبده أكثر مما رأته:

ـ إنه ليس عبده الذى أعرفه أبدا!

ـ ربما تغير فى السجن.. السجن عادة يغير الملامح! الـزنزانة تشـوه وجوه السجناء!

ـ الرجل الذى أعرفه كان أقصر من عم عبده!

ـ ربما تكون طالت قامته أثناء وجوده فى السجن!

ـ الرجل لا تطول قامته بعد الستين!

ـ إن هناك نظرية علمية تقول إن الرجال «يكشون» بعد الستين!

ـ إنه يختلف عن الرجل الذى أعرفه!

ـ ولكنك فى التحقيق أمام النيابة أخرجت صورة هذا الرجل من بين عشر صور عرضت عليك!

ـ عرضت على صور وجهه... ولم أر قامته!

ـ لعل الأمر اختلط عليك الآن، بسبب رهبة الموقف أمام المحكمة؟

ـ إننى أشعر برهبة أكبر.. وأنا فوق مسرح الست بديعة!

ـ قد تكون أسئلة الدفاع السخيفة أتعبت أعصابك؟

ـ إنها أتعبت أعصابى، ولم تتعب نظرى!

ـ إننى أشك فى صدقك!

ـ كيف تشك فى صدقى، وقد قلت أنت أمام المحكمة أننى صادقة مائة فى المائة؟

ـ مستحيل ألا يكون هذا هو المتهم!

ـ لقد أقسمت اليمين أمام المحكمة بأن أقول الحق.

ـ إن النيابة تحتفظ بحقها فى أن ترفع عليك دعوى شهادة الزور.. وتطالب بوضعك فى السجن!

ـ إننى أفضل أن أقول الحق، وأذهب إلى المشنقة!

* * *

ورفعت المحكمة الجلسة، وبعد مداولة قصيرة، أصدرت حكمها ببراءة عم عبده والافراج عنه فورا.

وارتفعت أصوات الجماهير تهتف بحياة الراقصة النبيلة نشوى عبده!

وأسرعت قسمت ترتمي بين أحضان عم عبده وتقبله..

ولكن عم عبده تخلص بسرعة من ذراعي قسمت، وأسرع نحو الراقصة نشوى يعانقها ويقبلها قبلات طويلة..

وعادت الأصوات تدوى بحياة «نشوى النبيلة» وأصرت الجماهير على أن تحمل الراقصة فوق أكتافها إلى باب المحكمة الخارجي..

ومشى الموكب الصاخب يحمل نشوى ويهتف لنشوى النبيلة.

وقال عم عبده لقسمت والدموع في عينيه:

ـ ألم أقل لك يا آنسة كاف أن نشوى امرأة نبيلة؟

وهزت قسمت كتفيها في غضب:

ـ لم أعد قسمت شاهين.. ولا الآنسة كاف. سوف أصبح ابتداء من اليوم الراقصة كاف!

ـ تشتغلين راقصة؟

ـ حتى يؤمن بي الرجال!

ـ وهز عم عبده رأسه أسفا على غيرة النساء

وتركته قسمت.. ومشت وحدها بين الجماهير الفرحة. وسمعت الشفاه خلفها تقول جملة واحدة:

- إن نشوى امرأة نبيلة فعلا ! إنها هى التى انقذت عم عبده من حبل المشنقة !

ومضت قسمت فى طريقها إلى باب المحكمة، وهى تسمع كلمة (نبيلة) تدق فى أذنيها كالمطارق. وخرجت إلى الشارع، وجملة «نشوى نبيلة» تطاردها، تلاحقها، تعدو خلفها، تمسك بتلابيبها. أسرعت تضع يديها فوق أذنيها. تسدهما، حتى لا تسمع الجملة التى كانت تشبه الخناجر والسكاكين.

ولكن جملة «نبيلة. نبيلة»، كانت تنطلق من المقاهى، تخرج من الدكاكين، تتردد على أفواه المارة على كل الألسنة، وعلى كل الشفاه.

خيل إليها أن كل شىء فى الدنيا أصبح يقول «نشوى نبيلة». أبواق السيارات تصرخ «نبيلة» تدق فى أذنيها كالمطارق. الباعة المتجولون توقفوا عن النداء عن بضائعهم وأصبحوا ينادون «نبيلة نبيلة» كأن الأشجار وهى تهتز وترقص. تقلد الراقصة نشوى، وكأن حفيف الأشجار يصيح «نبيلة نبيلة»

ورفعت رأسها إلى السماء تستنجد بها.

وخيل إليها أن السماء تخلت عنها، وكتبت بالسحب كلمات «نبيلة. نبيلة»

وجرت فى الشارع كالمجنونة.

ثم انكفأت على الأرض، سقطت تبكى وتنتحب.

لم تبك نفسها

لم تبك حبها !

لم تبك كل الجهود التى بذلتها لانقاذ عم عبده من المشنقة !

كانت تبكى الحقيقة.

نعم.. لقد أفلت عم عبده من حبل المشنقة.

ولكنهم علقوا فيها «الحقيقة» !

ودخلت الراقصة نشوى التاريخ نبيلة !

كشهيدة تتأبط ذراع الآنسة كاف !

كتب للمؤلف

- أمريكا الضاحكة

حياة طالب مفلس فى أمريكا

الطبعة الأولى سنة ١٩٤٣ «نفدت»

الطبعة الثانية سنة ١٩٤٣ «نفدت»

الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٤ «نفدت»

- فاطمة

مثلتها للسينما أم كلثوم وأنور وجدى سنة ١٩٤٧

- عمالقة وأقزام

ساسة مصر قبل الثورة

سنة ١٩٥١ «نفدت»

- ليالى فاروق

قصة حياة الملك السابق

الجزء الأول سنة ١٩٥٤ «نفدت»

الجزء الثانى سنة ١٩٥٤ «نفدت»

- معبودة الجماهير

الطبعة الأولى سنة ١٩٦١ «نفدت»

مثلها للسينما عبد الحليم حافظ وشادية

- صاحبة الجلالة فى الزنزانة

قصة الصحافة المصرية فى الاغلال والصراع بين الصحافة والطغيان

الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ «نفدت»

الطبعة الثانية سنة ١٩٧٤ «نفدت»

الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٥

- سنة أولى سجن

الطبعة الأولى سبتمبر ١٩٧٤ «نفدت»

الطبعة الثانية ديسمبر ١٩٧٤ «نفدت»

الطبعة الثالثة يناير ١٩٧٥ «نفدت»

الطبعة الرابعة فبراير ١٩٧٥ «نفدت»

الطبعة الخامسة مايو ١٩٧٥ «نفدت»

الطبعة السادسة يناير ١٩٧٨

الطبعة السابعة أبريل ١٩٨١

- الكتاب الممنوع

أسرار ثورة ١٩١٩

الطبعة الأولى ١٩٧٤ «نفدت»

الطبعة الثانية ١٩٧٥

- سنة أولى حب

يناير ١٩٧٥

مثلها للسيما محمود ياسين ونجلاء فتحى

- ست الحسن
الطبعة الأولى ١٩٧٦ « نفدت »
الطبعة الثانية ١٩٨١

- من واحد لعشرة
الطبعة الأولى ١٩٧٧
الطبعة الثانية ١٩٨١

- سنة ثانية سجن
الطبعة الأولى ١٩٧٧

- سنة ثالثة سجن
الطبعة الأولى ١٩٧٨

- لا
الطبعة الأولى ١٩٧٧

- لكل مقال أزمة
الطبعة الأولى ١٩٧٩

- الـ ٢٠٠ فكرة
الطبعة الأولى ١٩٧٩

- تحيا الديمقراطية
الطبعة الأولى ١٩٨٠

- من عشرة لعشرين
الطبعة الأولى ١٩٨١

- صاحب الجلالة الحب
الطبعة الأولى ١٩٨٠

- سنة رابعة سجن
الطبعة الأولى سنة ١٩٨١

- من فكرة لفكرة
الجزء الأول
الطبعة الأولى ١٩٨٣

- من فكرة لفكرة
الجزء الثانى
الطبعة الأولى ١٩٨٤

- أفكار ممنوعة
الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤

- مسائل شخصية
الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤

- سنة خامسة سجن
الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤

- الآنسة كاف
الطبعة الأولى ٥ يناير ١٩٨٥

رقم الايداع : ١٩٨٨/٤٩٢٩

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE